مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ق

مع تعاليق

العلامة المفسر أبو الحسن الشعراني

المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ق

وتعاليق جديدة



المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية

مجمع البيان

في تفسير القرآن

مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

مع تعاليق

العلامة الميرزا أبو الحسن الشعراني



الجزء العاشر

المجمعة - الناس

حققه وعلق عليه وأشرف على تصحيحه

حامد الفدوي الأردستاني

تحرير ووضع العلامات

أحمد دراية

سرشناسه : طبرسی، فضل بن حسن ۳۵۸ ـ ۵۴۸ ق.
عنوان و نام پدیدآور : مجمع البیان فی تفسیرالقرآن/تألیف امین‌الاسلام ابی علی الفضل بن الحسن الطبرسی؛ مع تعالیق ابوالحسن الشعرانی؛ حققه و علق علیه حامد الفدوی‌الاردستانی؛ محرر احمد درایتی.
مشخصات نشر : تهران: المکتبه‌المرتضویه‌لاحیاء الآثارالجعفریه: مرتضوی، ۱۴۳۱ق.=۱۳۸۸ـ۱۳۸۹.
مشخصات ظاهری : ۱۰ ج.
شابک : دوره: 978-964-2965-11-3؛ ج.۱: 978-964-2965-12-0
: ج.۲ 978-964-2965-13-7؛ ج.۳: 978-964-2965-14-4؛ ج.۴: 978-964-2965-15-1
: ج.۵ 978-964-2965-16-8؛ ج.۶: 978-964-2965-17-5؛ ج.۷: 978-964-2965-18-2
: ج.۸ 978-964-2965-19-9؛ ج.۹: 978-964-2965-20-5؛ ج.۱۰: 978-964-2965-12-2
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه.
موضوع : تفاسیر شیعه ـ قرن ۶ق
شناسه افزوده : شعرانی، ابوالحسن، ۱۲۸۱ ـ ۱۳۵۲.
شناسه افزوده : فدوی اردستانی، حامد
شناسه افزوده : درایتی، احمد، ویراستار
رده بندی کنگره : ۱۳۸۹ ۳م۲ط / BP۹۴/۵
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶
شماره کتابشناسی ملی : ۲۰۲۹۴۹۲





هوية الكتاب

الكتاب: مجمع البيان في تفسير القرآن ج ١٠
المؤلّف: أمين الاسلام الفضل بن الحسن الطبرسي رحمه الله
تعليق: العلاّمة الميرزا أبو الحسن الشعراني رحمه الله
تحقيق: حامد الفدوي الأردستاني
تحرير ووضع العلامات: احمد درايتي
الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية
بالتعاون مع انتشارات مرتضوي
التنضيد والاخراج الفني: كومبيوتر المجتبى عليه السلام
المطبعة: ستارة ـ قم ـ الكميّة: ٢٢٠٠ نسخة
الطبعة: الأولى ـ منقّحة ومصحّحة ـ ١٤٣١ هـ. ق . ١٣٨٩ هـ. ش
ردمك: 2 - 21 - 2965 - 964 - 978 :ISBN
شابك الدورة: 3 - 11 - 2965 - 964 - 978 :ISBN

العنوان: طهران ـ شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١ ـ فاكس ٤٤٨١٤٧٧٢ ـ ٠٢١


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
للمكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة ايران ـ طهران
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة الناشر خطيّاً

طهران: شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
الطابق الثاني ـ الرقم ١١ ـ هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١

البريد الالكتروني
info@mortazavi-pub.ir
الانترنت
www.mortazavi-pub.ir

سورة الجمعة

وهي إحدى عشرة آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الجمعة، أُعطي عشر حسنات، بعدد من أتى الجمعة، وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين».

منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من الواجب على كل مؤمن، إذا كان لنا شيعة، أن يقرأ في ليلة الجمعة: بالجمعة، وسبّح اسم ربّك، وفي صلاة الظهر: بالجمعة، والمنافقين. فإذا فعل، فكأنّما يعمل عمل رسول الله ﷺ، وكان ثوابه وجزاؤه على الله الجنّة.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة الصفّ، بالترغيب في عبادته، والدعاء إليها، وذكر تأييده المؤمنين بالنصر والظهور على الأعداء، افتتح هذه السورة ببيان قدرته على ذلك، وعلى جميع الأشياء، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١) ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

(اللغة): الأسفار: الكتب. واحدها: سِفْر، وإنّما سمّي بذلك؛ لأنّه يكشف عن المعنى بإظهاره. يقال: سفر الرجل عمامته: إذا كشفها. وسفرت المرأة عن

---

(١) تدلّ الآية على أنّ الرسول ﷺ كان أميّاً، كما أنّ قومه أمّيّون، وهذا من معجزاته ﷺ، فلو كان مبعوثا من اليونانيّين من قوم حكماء، وكان يقرأ الكتب، لم يكن إظهار القرآن منه بنفسه معجزة، كما قال تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون». وهكذا فسّره صاحب الكتاب. وروي بطريق ضعيف عن الجواد عليه السلام بعدما قال الراوي يزعمون أنّه ﷺ سمّي الأمّي لأنّه لم يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا عليهم لعنة الله إلى أن قال كان ﷺ يقرأ، ويكتب باثنين وسبعين آد. وهذا يخالف نصّ القرآن، ولذا لم ينقله المصنّف.

وجهها، فهي سافرة. ومنه: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾.

[الإعراب]: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾: إنْ: هذه مخفّفة من «إنّ»، ولهذا لزمها اللام الفارقة في خبر «كان»؛ لئلّا يلتبس بإنْ النافية.

﴿وَآخَرِينَ﴾: مجرورة؛ لأنّه صفة محذوف معطوف على ﴿الأُمِّيِّينَ﴾ أي: وفي قوم آخرين. ويحتمل أن يكون منصوباً بالعطف على «هم» في ﴿يُعَلِّمُهُمْ﴾.

﴿يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾: في موضع النصب على الحال. ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾: المخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله مثلهم. فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جرّ. ويجوز أن يكون التقدير: بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا. فحذف المضاف، وأُقيم المضاف إليه مقامه، وعلى هذا يكون ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع، وهو المخصوص بالذمّ.

[المعنى]: ﴿يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينزّهه سبحانه كل شيء، ويشهد له بالوحدانيّة والربوبيّة، بما ركب فيها من بدائع الحكمة، وعجائب الصنعة الدالّة على أنّه قادر، عالم، حيّ، قديم، سميع، بصير، حكيم، لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء.

وإنّما قال مرّة: سبّح، ومرّة: يسبّح؛ إشارة إلى دوام تنزيهه في الماضي والمستقبل ﴿الْمَلِكِ﴾ أي: القادر على تصريف الأشياء ﴿الْقُدُّوسِ﴾ أي: المستحقّ للتعظيم، الطاهر عن كل نقص ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ﴿الْحَكِيمِ﴾ العالم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ يعني: العرب. وكانت أُمّة أُمّيّة، لا تكتب ولا تقرأ، ولم يبعث إليهم نبيّ، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: يعني: أهل مكّة؛ لأنّ مكّة تسمّى أُمّ القرى.

﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ يعني: محمّداً ﷺ نسبه نسبهم، وهو من جنسهم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ ووجه النعمة في أنّه جعل النبوّة في

أُمّي، موافقته لمّاتقدّمت البشارة به في كتب الأنبياء السالفة؛ ولأنّه أبعد من توهّم الإستعانة على ما أتى به من الحكمة بالحكم التي تلاها، والكتب التي قرأها، وأقرب إلى العلم بأنّ ما يخبرهم به من أخبار الأُمم الماضية، والقرون الخالية، على وفق ما في كتبهم، ليس ذلك إلّا بالوحي.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يقرأ عليهم القرآن المشتمل على الحلال والحرام، والحجج والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ويطهّرهم من الكفر والذنوب، ويدعوهم إلى ما يصيرون به أزكياء. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكتاب: القرآن، والحكمة: الشرائع. وقيل: إنّ الحكمة تعمّ الكتاب والسنّة، وكل ما أراده الله تعالى، فإنّ الحكمة هي العلم الذي يعمل عليه فيما يجتبى، أو يجتنب من أُمور الدين والدنيا.

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ معناه: وما كانوا من قبل بعثه إليهم إلّا في عدول عن الحقّ، وذهاب عن الدين بيّن ظاهر.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي: ويعلم آخرين من المؤمنين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وهم كل مَنْ بعد الصحابة إلى يوم القيامة، فإنّ الله سبحانه بعث النبيّ إليهم، وشريعته تلزمهم، وإن لم يلحقوا بزمان الصحابة، ـ عن مجاهد وابن زيد ـ. وقيل: هم الأعاجم، ومن لا يتكلّم بلغة العرب، فإنّ النبيّ ﷺ مبعوث إلى من شاهده، وإلى كل من بعدهم من العرب والعجم، ـ عن ابن عمر، وسعيد بن جبير، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام ـ. وروي أنّ النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية، فقيل له: مَن هؤلاء! فوضع يده على كتف سلمان، وقال: «لو كان الإيمان في الثريا لنالته رجال من هؤلاء»[1].

---

(١) هذا من معجزات رسول الله ﷺ فإنّه أخبر بفتح المسلمين العجم، ثمّ اعتناقهم الإسلام، ونبوغهم في العلم. والظاهر أنّ المراد من الكتاب: ما يؤخذ من الوحي، أعني العلوم النقليّة، ←

وعلى هذا فإنّما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنّهم إذا أسلموا صاروا منهم، فإنّ المسلمين كلهم يد واحدة على من سواهم، وأُمّة واحدة، وإن اختلفت أجناسهم، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءَ بَعْض﴾ . ومن لم يؤمن بالنبيّ ﷺ، فإنّهم ليسوا ممّن عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ وإن كان مبعوثاً إليهم بالدعوة لقوله سبحانه: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ ومن لم يؤمن، فليس ممّن زكاه وعلّمه القرآن والسنّة. وقيل: إنّ قوله: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ يعني: في الفضل والسابقة، فإنّ التابعين لا يدركون شأن السابقين من الصحابة، وخيار المؤمنين.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله.

﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ﴾ يعني: النبوّة التي خصّ الله بها رسوله، ـ عن مقاتل ـ. ﴿يُؤْتِيهِ﴾ أي: يعطيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بحسب ما يعلمه من صلاحه للبعثة، وتحمّل أعباء الرسالة. ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ذو المنّ العظيم على خلقه ببعث محمّد ﷺ.

وروي محمّد بن أبي عمير، عن هشام بن سالم يرفعه قال: جاء الفقراء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنّ للأغنياء ما يتصدّقون، وليس لنا ما نتصدّق، ولهم ما يحجّون، وليس لنا ما نحجّ، ولهم ما يعتقون، وليس لنا ما نعتق!

← وبالحكمة: ما يؤخذ من العقل. ثمّ إنّ الملل القاهرة ينبغي أن يتفوّقوا في العلوم أيضاً، ولكن العجم قبل الإسلام لم يكونوا يعرفون شيئا، حتى تاريخ دولتهم، وأسامي أعاظم ملوكهم مثل: كورش واحوشو [واحشو]، يرش إلّا ملوك الساسانيّة بضرب من التشويش، وكان اليهود والكلدانيّون أعرف بتاريخ الفرس منهم انفسهم، وكان في جندي سابور قوم من النصارى علماء بالحكم والطبّ اليوناني، فلمّا ظهر الإسلام، ظهروا بعلومهم بعد أن كانوا خاملين في الدولة الساسانيّة، وكذلك الكلدانيّون بنجومهم، وأخذ المسلمون من العجم عنهم، وجمعوا بين الكتاب والحكمة، وفاقوا من مضى من الروم واليونان.

فقال ﷺ: «من كبّر الله مائة مرّة كان أفضل من عتق رقبة، ومن سبّح الله مائة مرّة، كان أفضل من مائة فرس في سبيل الله يسرجها ويلجمها، ومن هلّل الله مائة مرّة، كان أفضل الناس عملاً في ذلك اليوم إلّا من زاد. فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه، فرجع الفقراء إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا رسول الله! قد بلغ الأغنياء [الأنبياء] ما قلت، فصنعوه! فقال ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ثمّ ضرب سبحانه لليهود، الذين تركوا العمل بالتوراة مثلاً، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: كلّفوا القيام بها، والعمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ حقّ حملها، من أداء حقّها، والعمل بموجبها؛ لأنّهم حفظوها ودوّنوها [في] كتبهم، ثمّ لم يعملوا بما فيها.

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ لأنّ الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره، لا يحسّ بما فيها. فمثل من يحفظ الكتاب، ولا يعمل بموجبه، كمثل من لا يعلم ما فيما يحمله. قال ابن عبّاس: فسواء حمله على ظهره، أو جحده، إذا لم يعمل به. وعلى هذا فمن تلا القرآن، ولم يفهم معناه، وأعرض عنه إعراض من لا يحتاج إليه، كان هذا المثل لا حقاً به، وإن حفظه، وهو طالب لمعناه، فليس من أهل هذا المثل. وأنشد أبو سعيد الضرير في ذلك:

زَوامِلُ لِلاَسْفارِ لا عِلْمَ عِنْدَهُم ... بِجيِّدِها إلاّ كَعِلْمِ الأَباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يَدْرِي المَطِيُّ إذا غَدا ... بِأَسْفارِهِ اَوْراحَ ما فِي الْغَرائِرِ[1]

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ معناه: بئس القوم قوم هذا مثلهم؛ لأنّه سبحانه ذمّ مثلهم، والمراد به ذمّهم، واليهود كذّبوا بالقرآن والتوراة، حين لم يؤمنوا بمحمّد ﷺ.

---

(١) الزاملة: بعير تحمل المتاع. والغرائر: الجوالق العظام.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يفعل بهم من الألطاف التي يفعلها بالمؤمنين الذين بها يهتدون. وقيل: لا يثيبهم ولا يهديهم إلى الجنّة. وعن محمّد [ميمون] بن مهران قال: يا أهل القرآن! اتّبعوا القرآن قبل أن يتبعكم، وتلا هذه.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

(اللغة): الزعم: قول عن ظنّ أو علم، ولذلك صار من باب الظنّ والعلم، وعمل ذلك العمل قال:

---

(١) اختلف علمائنا في فساد البيع وقت النداء، بعد الاتّفاق على حرمته، ولا يخفى أنّ الحرمة تجتمع مع ترتّب الآثار، بأن يقال هذا العمل حرام، ولكن إن فعلته كان أثره كذا، هذا ان صرّح به، وإلّا فالمنصرف إلى الذهن، أنّه لا يترتّب عليه أثر ألبتة.

فَإِنْ تَزْعَمِينِي كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمُ فَإِنِّي شرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكَ بِالْجَهْلِ

والأولياء: جمع وليّ، وهو الحقيق بالنصرة التي يوليها عند الحاجة، والله وليّ المؤمنين؛ لأنّه يولّيهم النصرة عند حاجتهم، والمؤمن وليّ الله لهذه العلّة. ويجوز أن يكون لأنّه يولّي المطيع له نصرة عند حاجته.

والتمنّي: هو قول القائل لمّا كان: ليته لم يكن، ولمّا لم يكن: ليته كان، فهو يتعلّق بالماضي والمستقبل، وهو من جنس الكلام، ـ عن الجبائي والقاضي ـ. وقال أبو هاشم: هو معنى في النفس يوافق هذا القول.

والجُمُعَة والجُمْعة لغتان، وجمعها: جُمَع وجُمْعات. قال الفرّاء: وفيها لغة ثالثة جُمَعة ـ بفتح الميم ـ كضُحَكَة[١]، وهُمَزَة. وإنّما سمّي «جمعة»؛ لأنّه تعالى فرغ فيه من خلق الأشياء، فاجتمعت فيه المخلوقات. وقيل: لأنّه تجتمع فيه الجماعات. وقيل: إنّ أوّل من سمّاها «جمعة» كعب بن لؤي، وهو أوّل من قال: «أمّا بعد». وكان يقال للجمعة العروبة، ـ عن أبي سلمة ـ. وقيل: إنّ أوّل من سمّاها «جمعة» الأنصار. قال ابن سيرين: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبيّ ﷺ المدينة.

وقيل: قبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيّام وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله عزّ وجلّ، ونشكره. [أ]و كما قالوا يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلّى بهم يومئذ، وذكرهم، فسمّوه يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم أسعد بن زرارة شاة، فتغدوا وتعشوا من شاة واحدة، وذلك لقلّتهم. فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلْصَلاةِ﴾ الآية. فهذه أوّل جمعة جمعت في الإسلام.

---

[١] رجل ضحكة أي كثير الضحك.

فأمّا أوّل جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه فقيل: إنّه قدم رسول الله ﷺ مهاجراً حتى نزل قبا على [بني] عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين، لإثنتي عشرة ليلة، خلت من شهر ربيع الأوّل، حين الضحى، فأقام بقبا يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسّس مسجدهم، ثمّ خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة قاصداً [عامدا] المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم قد اتّخذ [و]اليوم في ذلك الموضع مسجده. وكانت هذه الجمعة أوّل جمعة جمعها رسول الله ﷺ في الإسلام. فخطب في هذه الجمعة، وهي أوّل خطبة خطبها بالمدينة، فيما قيل، فقال:

«الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأُؤمن به ولا أكفره، وأُعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنوّ من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضلّ ضلالاً بعيداً. أوصيكم بتقوى الله، فإنّه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، وإنّ تقوى الله لمن عمل به على وجل، ومخافة من ربّه، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية، لا ينوي بذلك إلّا وجه الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت، وحين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذّركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد. والذي صدق قوله، ونجز وعده، لا خلف لذلك، فإنّه يقول: ﴿مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنا بِظَلّامٍ لِلْعَبِيد﴾.

فاتّقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرّ والعلانية، فإنّه من يتّق الله

يكفّر عنه سيّئاته، ويعظم له أجراً. ومن يتّق الله فقد فاز فوزاً عظيماً. وإنّ تقوى الله توقّي مقته، وتوقّي عقوبته، وتوقّي سخطه، وإنّ تقوى الله تبيّض الوجوه، وترضي الربّ، وترفع الدرجة. خذوا بحظّكم، ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، هو اجتباكم، وسمّاكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حيّ عن بيّنة، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله. فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنّه من يصلح ما بينه وبين الله، يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأنّ الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم». فلهذا صارت الخطبة شرطاً في انعقاد الجمعة.

النزول: قال جابر بن عبد الله: أقبلت عير، ونحن نصلّي مع رسول الله ﷺ الجمعة، فانفضّ الناس إليها، فما بقي غير اثني عشر رجلاً، أنا فيهم. فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْ تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾.

وقال الحسن، وأبو مالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة. فلمّا رأوه قاموا إليه بالبقيع، خشية أن يسبقوا إليه، فلم يبق مع النبيّ ﷺ إلّا رهط، فنزلت الآية فقال: «والذي نفسي بيده! لو تتابعتم حتى لا يبقى أحد منكم، لسال بكم الوادي ناراً».

وقال المقاتلان: بينا رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، إذ قدم دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، ثمّ أحد بني الخزرج، ثمّ أحد بني زيد بن مناة، من الشام بتجارة. وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلّا أتته، وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق، أو برّ، أو غيره، فينزل عند أحجار الزيت، وهو مكان في

سوق المدينة، ثمّ يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه، فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه. فقدم ذات جمعة، وكان ذلك قبل أن يسلم، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب. فخرج الناس، فلم يبق في المسجد إلّا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال ﷺ: «لولا هؤلاء لسوِّمت عليهم الحجارة من السماء» وأنزل الله هذه الآية. وقيل: لم يبق في المسجد إلّا ثمانية رهط، ـ عن الكلبي، عن ابن عبّاس ـ. وقيل: إلّا أحد عشر رجلاً، ـ عن ابن كيسان ـ. وقيل: إنّهم فعلوا ذلك ثلاث مرّات، في كل يوم مرّة، لعير تقدم من الشام، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة، ـ عن قتادة ومقاتل ـ.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر اليهود في إنكارهم ما في التوراة، أمر سبحانه نبيّه ﷺ أنْ يخاطبهم بما يفحمهم، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمّد ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: سمّوا يهوداً ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ أي: إنْ كنتم تظنّون على زعمكم، أنّكم أنصار الله، وأنّ الله ينصركم ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنّكم أبناء الله وأحبّاؤه، فإنّ الموت هو الذي يوصلكم إليه.

ثمّ أخبر سبحانه عن حالهم في كذبهم، واضطرابهم في دعواهم، وأنّهم غير واثقين بذلك، فقال: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي: عالم بأفعالهم وأحوالهم. وقد تقدَّم تفسير الآيتين في سورة البقرة، وفيه معجزة للرسول؛ لأنّه أخبر أنّهم لا يتمنّون الموت أبداً، لما يعرفون من صدق النبيّ ﷺ وكذبهم، فكان الأمر كما قال. وروي أنّه ﷺ قال: «لو تمنّوا لماتوا عن آخرهم».

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾ أي: إنّكم وإنْ فررتم من الموت، وكرهتموه، فإنّه لا بدّ أن ينزل بكم، ويلقاكم، ويدرككم، ولا ينفعكم الهرب منه. وإنّما قال: ﴿فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾ ـ بالفاء ـ سواء فرّوا منه، أو لم يفرّوا منه، فإنّه ملاقيهم؛ مبالغة في الدلالة على أنّه لا ينفع الفرار منه؛ لأنّه إذا كان

الفرار بمنزلة السبب في ملاقاته، فلا معنى للتعرّض للفرار؛ لأنّه لا يباعد منه، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: كل امرىء لاقٍ ما يفرّ منه، والأجل مساق النفس، والهرب منه موافاته [موافاته]. وقال زهير:

وَمَنْ هابَ أَسْبَابَ الْمَنايا يَنَلْنَهُ وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمْاءِ بِسُلَّمِ[١]

ولا شكّ أنّها تناله، هابها أو لم يهبها، ولكنّه إذا كانت هيبته بمنزلة السبب للمنية، فالهيبة لا معنى لها. وقيل: إنّ التقدير: قل إنّ الموت هو الذي تفرّون منه، فجعل «الذي» في موضع الخبر، لا صفة للموت، ويكون ﴿فَإِنَّهُ﴾ مستأنفاً.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ أي: ترجعون إلى الله الذي يعلم سرّكم وعلانيتكم يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دار الدنيا، ويجازيكم بحسبها.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا أُذن لصلاة الجمعة، وذلك إذا جلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، وذلك لأنّه لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله نداء سواه. قال السايب ابن زيد: كان لرسول الله صلى الله عليه وآله مؤذّن واحد بلال، فكان إذا جلس على المنبر، أذن على باب المسجد، فإذا نزل أقام الصَّلاة [للصلاة]. ثمّ كان أبوبكر وعمر كذلك، حتى إذا كان عثمان، وكثر الناس، وتباعدت المنازل، زاد أذاناً، فأمر بالتأذين الأوّل على سطح دار له بالسوق، يُقال له: الزوراء، وكان يؤذّن له عليها. فإذا جلس عثمان على المنبر، أذن مؤذّنه، فإذا نزل أقام للصَّلاة، فلم يعب ذلك عليه.

﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فامضوا إلى الصلاة، مسرعين غير متثاقلين، ـ عن قتادة، وابن زيد، والضحاك ـ. وقال الزجّاج: معناه: فامضوا إلى السعي الذي

---

[١] أسباب السماء: مراقيها ونواحيها.

هو الإسراع. وقرأ عبدالله بن مسعود ﴿فَامْضُوا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ . وروي ذلك عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعمر بن الخطاب، وأُبيّ بن كعب، وابن عبّاس، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبد الله عليه السلام ـ. وقال ابن مسعود: لو علمت الإسراع، لأسرعت حتى يقع ردائي عن كتفي. وقال الحسن: ما هو السعي على الأقدام، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلّا وعليهم الكينة [السكينة] والوقار، ولكن بالقلوب والنيّة والخشوع. وقيل: المراد بذكر الله: الخطبة التي تتضمّن ذكر الله والمواعظ.

﴿وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ﴾ أي: دعوا المبايعة. قال الحسن: كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة، فإنّه بيع حرام لا يجوز. وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر الآية؛ لأنّ النهي يدلّ على فساد المنهيّ عنه.

﴿ذٰلِكُمْ﴾ يعني: ما أمرتكم به من حضور الجمعة، واستماع الذكر، وأداء الفريضة، وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع لكم عاقبة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ منافع الأُمور ومضارّها، ومصالح أنفسكم ومفاسدها. وقيل: معناه: إعلموا ذلك، ـ عن الجبائي ـ.

وفي هذه الآية دلالة على وجوب الجمعة، وفي تحريم جميع التصرّفات عند سماع أذان الجمعة؛ لأنّ البيع إنّما خصّ بالنهي عنه؛ لكونه من أعمّ التصرّفات في أسباب المعاش. وفيها دلالة على أنّ الخطاب للأحرار؛ لأنّ العبد لا يملك البيع، وعلى اختصاص الجمعة بمكان، ولذلك أوجب السعي إليه. وفرض الجمعة لازم جميع المكلّفين إلّا أصحاب الأعذار من السفر، أو المرض، أو العمى، أو العرج، أو أن يكون امرأة أو شيخاً هماً لا حراك به، أو عبداً، أو يكون على رأس أكثر من فرسخين من الجامع. وعند حصول هذه الشرائط، لا تجب إلّا عند حضور

السلطان العادل، أو من نصبه السلطان للصلاة[١].

والعدد يتكامل عند أهل البيت عليهم السلام بسبعة. وقيل: ينعقد بثلاثة سوى الإمام، ـ عن أبي حنيفة والثوري ـ. وقيل: إنّما ينعقد بأربعين رجلاً أحراراً بالغين مقيمين، ـ عن الشافعي ـ. وقيل: ينعقد باثنين، سوى الإمام، ـ عن أبي يوسف ـ. وقيل: ينعقد بواحد، كسائر الجماعات، ـ عن الحسن وداود ـ. والاختلاف بين الفقهاء

---

(١) قال الشيخ رحمه الله في الخلاف: إنّه إجماع، فإنّ من عهد النبيّ صلى الله عليه وآله إلى وقتنا هذا ما أقام الجمعة إلّا الخلفاء، والامر أومن ولي الصلاة، فعلم أنّ ذلك إجماع أهل الأعصار، ولو انعقدت بالرعيّة لصلّوها كذلك إنتهى. إن قيل: قد ورد الحثّ على صلاة الجمعة في أحاديث أهل البيت كثيراً، مع عدم بسط يدهم، فهم في حال الحضور أيضاً لم يكونوا سلطانا يقولون. قلنا: ولذلك لم يفهم أصحابنا من أمرهم الوجوب العيني، ومن المعلوم أنّ عمل الشيعة في عصر الأئمة عليهم السلام على ترك صلاة الجمعة، مع حثّ الأئمّة؛ لانّهم لم يفهموا منها الوجوب بتّاً، فالأمر بالجمعة لدفع توهّم الحظر، وبيان التجويز، وكونها فرداً للواجب التخييري، وقال المحدّث المجلسي رحمه الله في البحار: إن ترك الشيعة لصلاة الجمعة كان للتقيّة، ولكن هذا غير ممكن؛ لأنّ أكثر أهل السنة لا يوجبون السلطان، ولا يشترطونه، خصوصا مالك، وكان مذهبه الغالب على أهل المدينة، وهو مذهب الشافعي، وأحمد. وبالجملة لم يكن التفرّد بالاجتماع على إمام غير منصوب من جانب السلطان منكراً عندهم، مع انّا نرى أنّ ما كان منكراً لديهم، نظير مسح الرجلين في الوضوء، و«حي على خير العمل» في الأذان، والجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم، وكانت الشيعة تتركه علانية، وتفعله سرّا، لم يخف الحكم فيه أيضاً. وبعض المحدّثين خرج في الاستدلال عن طور الأدب ولم يراع احترام العلم، وطعن في من لا يوافقه، وكان السلف يكرمون العلماء من غير دينهم، وتبيين الخطاء لا ينبغي أن يوجب تعانداً. ثمّ إنّه طعن بعضهم في الاجماعات مطلقا، وفي هذه المسألة، وقال في زمان الغيبة لا يمكن الإطّلاع على الإجماع، ومع فرض أمان الإطّلاع على مذاهب جميع الإماميّة، مع تفرّقهم، وانتشارهم في الأقطار، فكونهم متّفقين على مذهب واحد لاحجّة فيه، انتهى. وأقول: يمكن العلم الإجمالي بمذهب جماعة متفرّقين، كما نعلم اتّفاق النحاة على رفع «الفاعل»، وهذا نظير شبهة بعضهم في الشكل الأوّل: أنّ العلم بالكبرى متوقّف على العلم بالنتيجة، فلو عكس لزم الدور. والجواب: إنّ العلم الإجمالي مثلاً بأنّ لكل [كل] حيوان جسم، لا يتوقّف على تتبّع الحيوانات، ثمّ كيف لا يكون الإجماع حجّة، مع أنّ العلم به علم بقول المعصوم في ضمن الكل.

في مسائل الجمعة كثير، وموضعه كتب الفقه.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: إذا صلّيتم الجمعة، وفرغتم منها، فتفرّقوا في الأرض ﴿وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: واطلبوا الرزق في البيع والشراء. وهذا إباحة وليس بأمر وإيجاب. وروي عن أنس عن النبيّ ﷺ قال في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا﴾ الآية: «ليس بطلب دنيا، ولكن عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله». وقيل: المراد بقوله: ﴿وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾: طلب العلم، ـ عن الحسن، وسعيد بن جبير، ومكحول ـ. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: الصلاة يوم الجمعة، والإنتشار يوم السبت.

وروي عمرو بن زيد، عن أبي عبد الله قال: إنّي لأركب في الحاجة التي كفاها الله، ما أركب فيها إلّا التماس أن يراني الله أُضحي في طلب الحلال. أما تسمع قول الله عزّ اسمه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. أرأيت لو أنّ رجلاً دخل بيتاً، وطين عليه بابه، ثمّ قال: رزقي ينزل علي، كان يكون هذا؟ أما إنّه أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم. قال، قلت: مَن هؤلاء الثلاثة؟ قال: رجل تكون عنده المرأة فيدعو عليها، فلا يستجاب له؛ لأنّ عصمتها في يده، لو شاء أن يخلّي سبيلها لخلّى سبيلها. والرجل يكون له الحقّ على الرجل، فلا يشهد عليه، فيجحد [فيجحده] حقّه، فيدعو عليه فلا يستجاب له؛ لأنّه ترك ما أُمر به. والرجل يكون عنده الشيء، فيجلس في بيته، فلا ينتشر، ولا يطلب، ولا يلتمس حتى يأكله، ثمّ يدعو فلا يُستجاب له.

﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً﴾ أي: أُذكروه على إحسانه، واشكروه على نعمه، وعلى ما وفّقكم من طاعته، وأداء فرضه. وقيل: إنّ المراد بالذكر هنا: الفكر، كما قال: «تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة». وقيل: معناه: اذكروا الله في تجارتكم وأسواقكم، كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «من ذكر الله في السوق مخلصاً عند غفلة الناس، وشغلهم بما فيه، كتب له ألف حسنة، ويغفر الله له يوم القيامة مغفرة، لم

تخطر على قلب بشر».

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: لتفلحوا وتفوزوا بثواب النعيم. علّق سبحانه «الفلاح» بالقيام بما تقدّم ذكره، من أعمال الجمعة وغيرها. وصحَّ الحديث عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة، فأحسن غسله، ولبس صالح ثيابه، ومسَّ من طيب بيته أو دهنه، ثمّ لم يفرّق بين اثنين، غفر الله له ما بينه وبين الجمعة الأُخرى، وزيادة ثلاثة أيّام بعدها». أورده البخاري في الصحيح. وروي سلمان التميمي عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ لله عزّوجلّ، في كل يوم جمعة ستّمائة ألف عتيق من النار، كلهم قد استوجب النار».

ثم أخبر سبحانه عن جماعة قابلوا أكرم الكرم بألأم اللؤم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ أي: عاينوا ذلك. وقيل: معناه: إذا علموا بيعاً وشراء، أو لهواً، وهو الطبل، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: المزامير، ـ عن جابر ـ. ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي: تفرّقوا عنك خارجين إليها، وقيل: مالوا إليها. والضمير للتجارة. وإنّما خصّت بردّ الضمير إليها؛ لأنّها كانت أهمّ إليهم، وهم بها أسرّ من الطبل؛ لأنّ الطبل إنّما دلّ على التجارة، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: عاد الضمير إلى أحدهما أكتفاء به، وكأنّه على حذف، والمعنى: وإذا رأوا تجارة انفضّوا إليها، وإذا رأوا لهواً انفضّوا إليه، فحذف «إليه»؛ لأنّ «إليها» يدلّ عليه. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: انصرفوا إليها.

﴿وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ تخطب على المنبر. قال جابر بن سمرة: ما رأيت رسول الله ﷺ خطب إلّا وهو قائم، فمن حدّثك أنّه خطب وهو جالس، فكذّبه. وسئل عبد الله بن مسعود: أكان النبيّ ﷺ يخطب قائماً؟ فقال: أما تقرأ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾. وقيل: أراد: قائماً في الصلاة.

ثمّ قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب على سماع الخطبة، وحضور الموعظة، والصلاة والثبات مع النبيّ ﷺ ﴿خَيْرٌ﴾ وأحمد عاقبة، وأنفع ﴿مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يرزقكم، وإنْ لم تتركوا الخطبة والجمعة.

سورة المنافقون

مدنيّة بالإجماع، وهي إحدى عشرة آية.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة المنافقين، برأ من النفاق».

تفسيرها: لمّا ختم الله سورة الجمعة بما هو من علامات النفاق من ترك النبيّ ﷺ قائماً في الصلاة، أو في الخطبة، والإشتغال باللهو، وطلب الارتفاق، افتتح هذه السورة بذكر المنافقين أيضاً، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾
ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ
وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو، غير عباس والكسائي: ﴿خُشْبٌ﴾ ـ ساكنة الشين ـ. والباقون: ﴿خُشُبٌ﴾ ـ بضمّها ـ. وقرأ نافع، وروح، عن يعقوب، وسهل: ﴿لَوَوْا﴾ ـ بتخفيف الواو ـ. والباقون: ﴿لَوَّوْا﴾ ـ بتشديدها ـ وهو اختيار أبي عبيدة. وفي الشواذّ قراءة الحسن: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانِهِمْ﴾ ـ بالكسر ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿خُشُبٌ﴾ جعله مثل: بدنة وبُدْن. ومثله: أسد وأُسْد، ووثن ووُثْن في قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أُنثًا﴾ قال سيبويه: هي قراءة. والتثقيل أن فُعُل قد جاء في نظيره. قالوا: أُسُد، كما قالوا في جمع ثمر: ثُمُر. قال الشاعر: «يَقْدُمُ إِقْداماً عَلَيْكُمْ كَالْأُسُد». قال أبو الحسن: التحريك في ﴿خُشُبٌ﴾ لغة أهل الحجاز.

وحجّة من قرأ: ﴿لَوَوْا﴾ ـ بالتخفيف ـ قوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فاللَّيّ مصدر «لوى»، مثل: طوى طياً. والتثقيل؛ لأنّ الفعل للجماعة فهو كقوله: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ وقد جاء: «تَلْوِيَةَ الخاتِنِ زُبَّ المُعْذَرِ»[1] أنشده أبو زيد. وقوله: ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾ بالكسر: هو على حذف المضاف أي: اتّخذوا إظهار أيمانهم جنّة. وقد مرّ أمثال ذلك.

---

(١) الزبّ: الذكر. والمعذر: اسم المفعول، من أعذر الغلام ختنة. والمعنى: نظير تلوية الختان زبّ الغلام.

(اللغة): الجُنَّة: السترة المتّخذة لدفع الأذية، كالسلاح المتّخذ لدفع الجراح. والجَنّة: البستان الذي يجنّه الشجر. والجِنّة: الجنون الذي يستر العقل. والفقه: العلم بالشيء. يقال: فقهت الحديث أفقهه. وكل علم فقه إلّا أنّه اختصّ به علم الشريعة. وكل من علمها يقال: إنّه فقيه. وأفقهتك الشيء: بيّنته لك. وفُقه الرجل ـ بالضمّ ـ: صار فقيهاً. قال ابن دريد: الجسم: كل شخص مدرك، وكل عظيم الجسم جسيم وجسام. والأجسم: العظيم الجسم. قال الشاعر:

وَأَجْسَمُ مِنْ عادٍ، جُسوم رِجالِهِمْ وَأَكْثَرُ إِنْ عُدُّواً عَدِيداً مِنَ الرَّمْلِ

واختلف المتكلّمون في حدّ الجسم، فقال المحقّقون منهم: هو الطويل العريض العميق، ولذلك متى ازداد ذهابه في هذه الجهات الثلاث قيل: أجسم وجسيم. وقيل: هو المؤلّف. وقيل: هو القائم بالنفس، ومعناه: أنّه لا يحتاج إلى محلّ. والصحيح القول الأوّل.

والأجسام: ما تألف من الجواهر، وهي أجزاء لا تتجزّأ ائتلفت بمعان، يقال لها المؤتلفات، فإذا رفعت عنها بقيت أجزاء لا تتجزّأ. واختلف في أقلّ أجزاء الأجسام. والصحيح أنّه ما تألف من ثمانية أجزاء. وقيل: من ستّة أجزاء، ـ عن أبي الهذيل ـ. وقيل: من أربعة أجزاء، ـ عن البلخي ـ.

(الإعراب): ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقديره: ساء العمل عملهم. فقوله: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ موصول وصلة، في موضع رفع؛ بأنّه مبتدأ، أو خبر مبتدأ محذوف هو المخصوص بالذمّ.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أَنّى: في موضع نصب على الحال، بمعنى: «كيف». والتقدير: أجاحدين يؤفكون. ويجوز أن يكون في محل النصب على المصدر، والتقدير: أيّ إفك يؤفكون. وقيل: معناه: من أين يؤفكون أي: يصرفون عن الحقّ بالباطل، ـ عن الزجّاج ـ. فعلى هذا يكون منصوباً على الظرف. و ﴿يَصُدُّونَ﴾ : في موضع نصب على الحال.

المعنى: خاطب الله سبحانه نبيّه فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمّد ﴿ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، واشتقاقه من النفق والنافقاء، كما قال الشاعر:

لِلْمُؤْمِنينَ أُمُورٌ غَيْرُ مُخْزِيَةٍ ... وَلِلْمُنافِقِ سِرٌّ دُونَهُ نَفَقٌ

﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: أخبروا بأنّهم يعتقدون أنّك رسول الله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ على الحقيقة، وكفى بالله شهيداً ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إنّهم يعتقدون أنّك رسول الله، فكان إكذابهم في اعتقادهم، وأنّهم يشهدون ذلك بقلوبهم، ولم يكذبوا فيما يرجع إلى ألسنتهم؛ لأنّهم شهدوا بذلك، وهم صادقون فيه. وفي هذا دلالة على أنّ حقيقة الإيمان؛ إنّما هو بالقلب، ومن قال شيئاً، واعتقد خلافه، فهو كاذب.

﴿ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سترة يستترون بها من الكفر؛ لئلّا يُقتلوا، ولا يسبّوا، ولا تؤخذ أموالهم ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأعرضوا بذلك عن دين الإسلام. وقيل: معناه: منعوا غيرهم عن اتّباع سبيل الحقّ، بأن دعوهم إلى الكفر في الباطن. وهذا من خواصّ المنافقين، يصدّون العوام عن الدين، كما تفعل المبتدعة.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بئس الذي يعملونه من إظهار الإيمان مع إبطان الكفر، والصدّ عن السبيل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بألسنتهم عند الإقرار بلا إله إلّا الله، محمّد رسول الله. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبهم لما كذبوا بهذا، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: آمنوا ظاهراً عند النبيّ والمسلمين، ثمّ كفروا إذا خلوا بالمشركين. وإنّما قال: ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾؛ لأنّهم جدّدوا الكفر بعد إظهار الإيمان.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها بسمة تميز بها الملائكة بينهم وبين المؤمنين على الحقيقة. وقيل: لمّا ألفوا الكفر والعناد، ولم يصغوا إلى الحقّ، ولا فكروا في المعاد، خلاهم الله واختيارهم، وخذلهم، فصار ذلك طبعاً على قلوبهم،

وهو إلفهم إلى ما اعتادوه من الكفر، ـ عن أبي مسلم ـ. ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون الحقّ من حيث إنّهم لا يتفكّرون حتى يميزوا بين الحقّ والباطل.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ بحسن منظرهم، وتمام خلقتهم، وجمال بزتهم ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: وإذا قالوا شيئاً أَصغيت إلى كلامهم؛ لحسن منطقهم، وفصاحة لسانهم، وبلاغة بيانهم.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ أي: كأنّهم أشباح بلا أرواح. شبَّههم الله في خلوّهم من العقول والأفهام بالخشب المسندة إلى شيء لا أرواح فيها. وقيل: إنّه شبَّههم بخشب نخرة متآكلة، لا خير فيها، ويحسب من رآها أنّها صحيحة سليمة، من حيث إنّ ظاهرها يروق، وباطنها لا يفيد، فكذلك المنافق: ظاهره معجب رائع، وباطنه عن الخير زائغ.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وصفهم الله تعالى بالخور والهلع أي: يظنّون كل صيحة يسمعونها كائنة عليهم، والمعنى: يحسبون أنّها مهلكتهم، وأنّهم هم المقصودون بها جبناً ووجلاً، وذلك مثل أن ينادي مناد في العسكر، أو يصيح أحد بصاحبه، أو انفلتت دابّة، أو أُنشدت ضالّة. وقيل: معناه: إذا سمعوا صيحة، ظنّوا أنّها آية منزلة في شأنهم، وفي الكشف: عن حالتهم، لما عرفوا من الغشّ والخيانة في صدورهم، ولذلك قيل: المريب خائف.

ثمّ أخبر سبحانه بعداوتهم، فقال: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ لك وللمؤمنين في الحقيقة ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ أن تأمنهم على سرّك، وتوقّهم ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أخزاهم ولعنهم. وقيل: إنّه دعاء عليهم بالهلاك؛ لأنّ من قاتله الله فهو مقتول، ومن غالبه فهو مغلوب. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: أنّي يصرفون عن الحقّ مع كثرة الدَّلالات. وهذا توبيخ وتقريع وليس باستفهام، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: كيف يكذبون من الإفك.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ أي: هلمُّوا ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ أي: أكثروا تحريكها بالهز لها استهزاء بدعائهم إلى ذلك. وقيل: أمالوها

إعراضاً عن الحقّ، وكراهة لذكر النبيّ ﷺ، وذلك لكفرهم واستكبارهم ﴿وَرَأَيْتَهُمْ﴾ يا محمّد ﴿يَصُدُّونَ﴾ عن سبيل الله الحقّ ﴿وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: متكبّرون، مظهرون أنّه لا حاجة لهم إلى الإستغفار.

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو عمرو: «وأكون» ـ بالنصب ـ. والباقون: «وأكن»

---

(١) ولم يقرا: استغفرت ـ بالمدّ ـ إلّا في الشواذّ. وأدغم اللام من «يفعل ذلك» الكسائي في رواية أبي الحارث. واتّفقوا على تسكين ياء «اخرتنيْ إلى» وعلى كتابة هذا الحرف، فلم يكتب: لولا أخرتن ـ بغير ياء هنا ـ ونقل عن المصحف الامام: «اكون» ـ بالواو ـ واكن ـ بغير واو ـ كلاهما. ومرّ حكم الهمزتين من «جاء أجلها» مراراً.

ـ بالجزم ـ. وقرأ حماد ويحيى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: من قرأ: «وأكن» عطفه على موضع قوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾؛ لأنّه في موضع فعل مجزوم، ألا ترى أنّك إذا قلت: أخّرني أصدق، كان جزماً بأنّه جواب الجزاء، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط، والتقدير: أخّرني فإنّك إنْ تؤخّرني أصدق. فلمّا كان الفعل المنتصب بعد الفاء في موضع فعل مجزوم، بأنّه جواب الشرط، حمل قوله: ﴿وَأَكُنْ﴾ عليه، ومثل ذلك قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرَهُمْ﴾ لمّا كان ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ في موضع فعل مجزوم، حمل ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ عليه. ومثل ذلك قول الشاعر:

فَأَبْلُوني بَلِيَّتَكُمْ لَعَلّي ... أُصالِحُكُمْ وَأَسْتَدْرِجْ نويّاً[1]

حمل «واستدرج» على موضع الفاء المحذوفة وما بعدها من «لعلّي»، وكذلك قوله:

أَيَّا سَلَكْتَ فَإِنَّني لَكَ كاشِحٌ ... وَعَلَى انْتِقاصِكَ في الحَياةِ وَازْدَدِ[1]

حمل «وازدد» على موضع الفاء وما بعدها.

وأمّا قول أبي عمرو «وأكون» فإنّما حمله على اللفظ دون الموضع، وكان الحمل على اللفظ أولى؛ لظهوره في اللفظ وقربه. وزعموا أنّ في حرف أُبيّ «فأتصدق وأكون».

ومن قرأ: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، فعلى قوله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً﴾ لأنّ النفس وإن كان واحداً في اللفظ، فالمراد به الكثرة. ومن قرأ بالتاء، كان خطاباً شائعاً.

---

(١) يعني: أعطوني ناقتكم لعلّي أصالحكم وأتقرب إلى مقصودي تدريجاً. ونويّا: ـ بالنون ـ أي: مقصودي. أصله: نواي.

[١] الكاشح: العدوّ المبغض.

اللغة: الإنفضاض: التفرّق. وفضَّ الكتاب: إذا فرَّقه ونشره. وسمّيت الفضّة فضّة؛ لتفرّقها في أثمان الأشياء المشتراة، وكل شيء يشغلك عن شي، فقد ألهاك عنه. قال:

أَلْهىٰ بَنِي جُشَمٍ[١] عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةُ قَالَهَا عَمْرُوبْنُ كُلْثُومٍ

وقال امرؤ القيس:

فَمِثْلِكِ حُبْلىٰ قَدْ طَرِقْتُ، وَمُرْضِعٍ

فَأَلْهَيْتُها عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ(١)

النزول: نزلت الآيات في عبد الله بن أُبيّ، المنافق وأصحابه، وذلك أنّ رسول الله ﷺ بلغه أنّ بني المصطلق يجتمعون لحربه، وقائدهم الحرث بن أبي ضرار، أبو جويرية زوج النبيّ ﷺ. فلمّا سمع بهم رسول الله ﷺ، خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم، يقال له: المريسيع، من ناحية قديد إلى الساحل. فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقتل منهم من قتل، ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم، ونساءهم، وأموالهم.

فبينا الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار، يقال له: جهجاه ابن سعيد، يقود له فرسه، فازدحم جهجاه، وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج، على الماء، فاقتتلا. فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين! فأعان الغفاري رجل من المهاجرين، يقال له: جعال، وكان فقيراً، فقال عبد الله بن أُبيّ لجعال: إنّك لهنّاك. فقال: وما يمنعني أن أفعل ذلك. واشتدّ لسان جعال على عبد الله، فقال عبد الله:

---

(١) يصف فجوره بالنساء. وذي تمائم: الصبي الرضيع، فان يعلّق عليه التمائم للحفظ. ومحول: مَن هو في السنة الأولى من ولادته.

[١] جُشَم: حيّ من الأنصار، وهو جُشَم بن خَزرج.

والذي يحلف به لآزرنك ويهمك غير هذا. وغضب ابن أُبيّ، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد ابن أرقم، حديث السنن [السنّ]، فقال ابن أُبيّ: قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثلنا ومثلهم، إلّا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك» أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ! يعني: بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول الله ﷺ.

ثمّ أقبل على من حضره من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام، لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحوّلوا من بلادكم، ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم. فقال زيد بن أرقم: أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك، ومحمّد ﷺ في عزّ من الرحمن، ومودّة من المسلمين. والله لا أُحبّك بعد كلامك هذا. فقال عبد الله: أُسكت فإنّما كنت ألعب. فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو، فأخبره الخبر. فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل، وأرسل إلى عبد الله، فأتاه فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقال عبد الله: والذي أنزل عليك الكتاب! ما قلت شيئاً من ذلك قطّ، وإنّ زيداً لكاذب.

وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله! شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار، عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه. فعذره رسول الله ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد. ولمّا استقل رسول الله ﷺ فسار، لقيه أُسيد بن الحضير [الخضير]، فحيّاه بتحيّة النبوّة، ثمّ قال: يا رسول الله! لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح فيها؟

فقال له رسول الله ﷺ: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنّه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ! فقال [فقل] أُسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز. ثمّ قال: يا رسول الله! أرفق به، فوالله لقد

جاء الله بك، وإنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، وإنّه ليرى أنّك قد استلبته ملكاً.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ما كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنّه قد بلغني أنّك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها أبرّ بوالديه منّي، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ، أن يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال: بل ترفق به، وتحسن صحبته، ما بقي معنا.

قالوا: وسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يكن إلّا أن وجدوا مسّ الأرض، وقعوا نياماً. إنّما فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث الذي خرج من عبد الله بن أُبيّ. ثمّ راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز، فويق البقيع، يقال له: بقعاء، فهاجت ريح شديدة آذتهم، وتخوفوها، وضلت ناقة رسول الله ﷺ، وذلك ليلاً فقال: مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة. قيل: من هو؟ قال: رفاعة. فقال رجل من المنافقين: كيف يزعم أنّه يعلم الغيب، ولا يعلم مكان ناقته، ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي؟ فأتاه جبريل، فأخبره بقول المنافق، وبمكان الناقة، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك أصحابه وقال: ما أزعم أنّي أعلم الغيب، وما أعلمه، ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق، وبمكان ناقتي. هي في الشعب، فإذا هي كما قال. فجاؤوا بها، وآمن ذلك المنافق.

فلمّا قدموا المدينة، وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت، وهو أحد بني قينقاع، وكان من عظماء اليهود، وقد مات ذلك اليوم. قال زيد بن أرقم: فلمّا وافى رسول الله ﷺ المدينة، جلست في البيت لما بي من الهمّ والحياء، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد، وتكذيب عبد الله بن أُبيّ. ثمّ أخذ رسول الله ﷺ بأذن

زيد، فرفعه عن الرحل، ثمّ قال: يا غلام! صدق فوك، ووعت أذناك، ووعى قلبك، وقد أنزل الله فيما قلت قرآناً. وكان عبد الله بن أُبيّ بقرب المدينة، فلمّا أراد أن يدخلها، جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فقال مالك ويلك قال: والله لاتدخلها إلّا بإذن رسول الله، ولتعلمنّ اليوم مَن الأعزّ من الأذلّ.

فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إليه أن خَلِّ عنه يدخل. فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله ﷺ فنعم. فدخل، فلم يلبث إلّا أيّاماً قلائل، حتى اشتكى ومات. فلمّا نزلت هذه الآيات، وبان كذب عبد الله، قيل له: نزل فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوّى رأسه، ثمّ قال: أمرتموني أن أُؤمن، فقد آمنت، وأمرتموني أن أُعطي زكاة مالي، فقد أعطيت، فما بقي إلّا أن أسجد لمحمّد، فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه أنّ استغفاره لا ينفعهم، فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: يتساوى الإستغفار لهم، وعدم الإستغفار ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنّهم يبطنون الكفر، وإن أظهروا الإيمان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الدين والإيمان إلى طريق الجنّة. قال الحسن: أخبره سبحانه أنّهم يموتون على الكفر، فلم يستغفر لهم، وقد كان النبيّ ﷺ يستغفر لهم على ظاهر الحال بشرط حصول التوبة، وأن يكون الباطن مثل الظاهر، فبيّن الله تعالى أنّ ذلك لا ينفعهم مع إبطانهم الكفر والنفاق.

ثمّ قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من المؤمنين المحتاجين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ أي: يتفرّقوا عنه. وإنّما قالوا هم من عند محمّد ﷺ، ولكنّ الله سبحانه سمّاه رسول الله ﷺ تشريفاً له، وتعظيماً لقدره.

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما من الأرزاق، والأموال، والأغلاق، فلو شاء لأغناهم، ولكنّه تعالى يفعل ما هو الأصلح لهم، ويمتحنهم بالفقر، ويتعبّدهم بالصبر؛ ليصبروا فيؤجروا، وينالوا الثواب، وكريم المآب.

﴿وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ ذلك على الحقيقة؛ لجهلهم بوجوه الحكمة. وقيل: لا يفقهون أنّ أمرَه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ يعنون: نفوسهم ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعنون: رسول الله ﷺ والمؤمنين.

فردَّ الله سبحانه عليهم، بأنْ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ بإعلاء الله كلمته، وإظهاره دينه على الأديان ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بنصرته إيّاهم في الدنيا، وإدخالهم الجنّة في العقبى. وقيل: ولله العزّة بالربوبيّة، ولرسوله بالنبوّة، وللمؤمنين بالعبوديّة.

أخبر سبحانه بذلك، ثمّ حقّقه بأنّ أعزّ رسوله والمؤمنين، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها.

وقيل: عزّ الله خمسة: عزّ الملك والبقاء، وعزّ العظمة والكبرياء، وعزّ البذل والعطاء، وعزّ الرفعة والعلاء، وعزّ الجلال والبهاء.

وعزّ الرسول خمسة: عزّ السبق والإبتداء، وعزّ الأذان والنداء، وعزّ قدم الصدق على الأنبياء، وعزّ الإختيار والإصطفاء، وعزّ الظهور على الأعداء.

وعزّ المؤمنين خمسة: عزّ التأخير، بيانه: ﴿نَحْنُ الآخَرُونَ السَّابِقُونَ﴾، وعزّ التيسير، بيانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ ، ﴿يُرِيدُ اللهَ بِكُمُ اليُسْرَ﴾ ، وعزّ التبشير، بيانه: ﴿وَبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهَ فَضْلاً كَبِيراً﴾ ، وعزُّ التوقير، بيانه: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ ، وعزُّ التكثير، بيانه: أنّهم أكثر الأُمم.

﴿وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ فيظنّون أنّ العزّة لهم، وذلك لجهلهم بصفات الله تعالى، وما يستحقُّه أولياؤه. ووجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ

﴿جَمِيعاً﴾: أنّ عزّ الرسول والمؤمنين من جهته عزَّ اسمه، وإنّما يحصل به وبطاعته، فللَّه العزّ بأجمعه.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ﴾ أي: لا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللهِ﴾ أي: عن الصلوات الخمس المفروضة. وقيل: ذكر الله جميع طاعاته، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: ذكره شكره على نعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، وهو إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن يغفل المؤمن عن ذكر الله في بؤس كان أو نعمة، فإنّ إحسانه في الحالات لا ينقطع ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ أي: من يشغله ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ثواب الله ورحمته.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم﴾ في سبيل البرّ، فيدخل فيه الزكوات، وسائر الحقوق الواجبة ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: أسباب الموت [الفوت] ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلاّ أخّرتني، وذلك إذا عاين علامات الآخرة، فيسأل الرجعة إلى الدنيا؛ ليتدارك الفائت. قالوا: وليس في الزجر عن التفريط في حقوق الله آية أعظم من هذه. وقوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: مثل ما أجلت لي في دار الدنيا.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي: فأتصدّق وأُزكّي مالي، وأُنفقه في سبيل الله ﴿وَأَكُن مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ أي: من الذين يعملون الأعمال الصالحة. وقيل: ﴿مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ أي: من المؤمنين. والآية في المنافقين، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: من المطيعين لله، والآية في المؤمنين، عن ابن عبّاس قال: ما من أحد يموت، وكان له مال، فلم يؤدّ زكاته، وأطاق الحجّ فلم يحجّ، إلاّ سأل الرجعة عند الموت. قالوا: يا ابن عبّاس! اتّق الله فإنما [فانا] نرى هذا الكافر يسأل الرجعة. فقال: أنا أقرأ عليكم قرآناً. ثمّ قرأ هذه الآية إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ قال: الصلاح هنا الحجّ. وروي ذلك عن

أبي عبد الله عليه السلام.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ يعني: الأجل المطلق الذي حكم بأنّ الحيّ يموت عنده، والأجل المقيّد هو الأجل المحكوم بأنّ العبد يموت عنده، إن لم يقتطع دونه، أولم يزد عليه، [أ]ولم ينقص منه على ما يعلمه الله من المصلحة. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عليم بأعمالكم، يجازيكم بها.

النظم: وجه اتّصال هذه الآية الأخيرة بما قبلها أنّ معناه: إنّه سبحانه لو علم أنّكم تتوبون، لجعل في أجلكم تأخيراً إلى وقت آخر، ولكنّه علم أنّكم لا تتوبون.

سورة التغابن

وقال ابن عبّاس مكيّة، غير ثلاث آيات من آخرها، نزلن بالمدينة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

عَدَدُ آيِهَا: ثماني عشرة آية بالإجماع.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة التغابن، دفع عنه موت الفجأة». ابن أبي العلاء، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة التغابن في فريضته، كانت شفيعة له يوم القيامة، وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثمّ لا تفارقه حتى يدخل الجنّة».

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله تعالى تلك السورة بذكر الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، افتتح هذه السورة ببيان حال المطيع والعاصي، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

(المعنى): ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيح المكلّفين بالقول، وتسبيح الجمادات بالدلالة ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ منفرداً دون غيره. والألف واللام لاستغراق الجنس. والمعنى: إنّه المالك لجميع ذلك، والمتصرّف فيه كيف يشاء ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ على جميع ذلك؛ لأنّه خلق ذلك أجمع، الغرض فيه الإحسان إلى خلقه، والنفع لهم به، فاستحقّ بذلك الحمد والشكر ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ يوجد المعدوم، ويفني الموجود، ويغيّر الأحوال كما يشاء.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أنشأكم وأوجدكم من عدم، كما أراد. والخطاب للمكلّفين، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: بل هو عامّ، وقد تمّ الكلام هنا.

ثمّ ابتدأ، فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ لم يقرّ بأن الله خلقه كالدهريّة ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مقرّ بأنّ الله خلقه، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: فمنكم كافر في السرّ مؤمن في العلانية كالمنافقين، ومنكم مؤمن في السرّ كافر في العلانية، كعمار وذويه، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب، يريد في شأن الأنواء، ـ عن عطاء بن أبي رياح ـ.

والمراد بالآية ظاهر، فلا معنى للاسترواح إلى مثل هذه التأويلات، والمعنى: إنّ المكلفين جنسان: منهم كافر فيدخل فيه أنواع الكفر، ومنهم مؤمن، ولا يجوز حمله على أنّه سبحانه خلقهم مؤمنين وكافرين؛ لأنّه لم يقل كذلك، بل أضاف الكفر والإيمان إليهم، وإلى فعلهم، ولدلالة العقول على أنّ ذلك يقع على حسب قصودهم وأفعالهم. ولذلك يصحّ الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبعثة الأنبياء، على أنّه سبحانه لو جاز أن يخلق الكفر والقبائح، لجاز أن يبعث رسولاً يدعو إلى الكفر والضلال، ويؤيّده بالمعجزات، تعالى عن ذلك وتقدّس.

هذا وقد قال تعالى ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. وقال النبيّ ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» تمام الخبر. وقال ﷺ حكاية عن الله سبحانه: «خلقت عبادي كلهم حنفاء» ونحو ذلك من الأخبار كثير.

﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: خلق الكافر وهو عالم بما يكون منه من الكفر، وخلق المؤمن وهو عالم بما يكون منه من الإيمان، فيجازيهما على حسب أعمالهما.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وبإحكام الصنعة، وصحّة التقدير. وقيل: معناه: للحقّ وهو أن خلق العقلاء؛ تعريضاً إيّاهم للثواب العظيم، وخلق ما عداهم تبعاً لهم؛ لما في خلقه لهم من اللطف ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ يعني: البشر كلهم.

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ من حيث الحكمة، وقبول العقل، لا قبول الطبع؛ لأنّ في جملتهم من ليس على هذه الصفة. وقيل: فأحسن صوركم من حيث قبول الطبع؛ لأنّ ذلك هو المفهوم من حسن الصور، فهو كقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وإن كان في جملتهم من هو مشوّه الخلق؛ لأنّ ذلك عارض لا يعتدُّ به في هذا الوصف، فالله سبحانه خلق الإنسان على أحسن صور الحيوان كله، والصورة عبارة عن بنية مخصوصة.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه المرجع والمآل يوم القيامة ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يسرّه بعضكم إلى بعض، وما يخفيه في صدره عن غيره. والفرق بين الإسرار والإخفاء أنّ «الإخفاء» أعمّ؛ لأنّه قد يخفي شخصه، ويخفي المعنى في نفسه. و«الإسرار» يكون في المعنى دون الشخص. ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بأسرار الصدور وبواطنها.

ثمّ أخبر سبحانه أنّ القرون الماضية جوزوا بأعمالهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الكفّار ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وخيم عاقبة كفرهم، وثقل أمرهم، بما نالهم من العذاب بالإهلاك والإستئصال. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم يوم القيامة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟
وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ رويس، عن يعقوب: «يوم نجمعكم» ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر: «نكفر عنه» و «ندخله» ـ بالنون فيهما ـ. والباقون: بالياء.

الحجة: حجّة الياء: أنّ الإسم الظاهر قد تقدّم، ووجه النون: أنّه كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ثمّ جاء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى الكِتَبَ﴾.

الإعراب: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ﴾: الهاء ضمير الأمر والشأن. ﴿أَبشَرٌ﴾: مبتدأ، وإنّما جاز أن يكون مبتدأ مع كونه نكرة؛ لأنّ الإستفهام سوّغ ذلك، كما أنّ النفي أيضاً كذلك؛ لكونهما غير موجبين. يقال: أرجل في الدار أم امرأة، ولا رجل في الدار، ولا امرأة. وقيل: إنّه فاعل فعل مضمر، يفسّره قوله: ﴿يَهْدُونَنَا﴾ كأنّه قال: أيهدينا بشر يهدوننا. وإنّما أضمر؛ لأنّ الإستفهام بالفعل أولى.

وقوله: ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثُوا﴾ تقديره: إنّهم لن يبعثوا، فسدت الجملة عن المفعولين بما جرى فيها من ذكر الحديث والمحدث عنه. ولمّا كان «لن» في ﴿لَنْ يَبْعَثُوا﴾ دليل الإستقبال، تعيّنت أنّ قبلها لأن تكون مخفّفة من الثقيلة؛ لأنّ «لن» يمنعها من أن تكون ناصبة للفعل. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُم﴾: ظرف لتبعثن.

المعنى: لمّا قرّر سبحانه خلقه بأنّهم آتاهم أخبار من مضى من الكفّار وإهلاكهم، عقّبه ببيان سبب إهلاكهم، فقال: ﴿ذٰلِكَ﴾ أي: ذلك العذاب الذي نالهم في الدنيا، والذي ينالهم في الآخرة ﴿بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ﴾ أي: بسبب أنّه كانت

تجيئهم ﴿رُسُلُهُم﴾ من عند الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات.

﴿فَقَالُوا﴾ لهم ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ لفظه واحد، والمراد به: الجمع، على طريق الجنس؛ بدلالة قوله: ﴿يَهْدُونَنَا﴾ . والمعني: أخلق مثلنا يهدوننا إلى الحقّ، ويدعوننا إلى غير دين آبائنا؛ استصغاراً منهم للبشر أن يكونوا رسلاً من الله إلى أمثالهم، واستكباراً وأنفة من اتباعهم.

﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله وجحدوا رسله ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن القبول منهم، والتفكّر في آياتهم ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ بسلطانه عن طاعة عباده. وإنّما كلّفهم لنفعهم لا لحاجة منه إلى عبادتهم. وقيل: معناه: واستغنى الله بما أظهره لهم من البرهان، وأوضحه من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد، وتهدي إلى الإيمان.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غنيّ عن أعمالكم، مستحمد إليكم بما ينعم به عليكم. وقيل: حميد أي: محمود في جميع أفعاله؛ لأنّها كلها إحسان.

ثمّ حكى سبحانه ما يقوله الكفّار، فقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ قال ابن عمر: زَعَم زاملة الكذب. وقال شريح: زعم كنية الكذب. بيّن الله سبحانه بعض ما لأجله اختاروا الكفر على الإيمان، وهو أنّهم كانوا لا يقرُّون بالبعث والنشور.

فأمر النبيّ ﷺ بأن يكذبهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ أي: وحقّ ربّي على وجه القسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي: لتحشرنَّ. أكَّد تكذيبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ وباليمين. ثمّ أكَّد اليمين باللام والنون ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتخبرنَّ وتحاسبنَّ بأعمالكم، وتجازون عليها. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والحساب مع الجمع والجزاء ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل هيّن، لا يلحقه مشقّة، ولا معاناة فيه.

﴿فَآمِنُوا﴾ معاشر العقلاء ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنزَلْنَا﴾ وهو القرآن. سمّاه نوراً لما فيه من الأدلّة والحجج الموصلة إلى الحقّ، فشبّه بالنور الذي يهتدى به إلى الطريق ﴿وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة أي: ذلك البعث والجزاء يكون في يوم يجمع فيه خلق الأولين والآخرين.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ وهو «تفاعل» من الغبن، وهو أخذ شرّ وترك خير، أو أخذ خير وترك شرّ. فالمؤمن: ترك حظّه من الدنيا، وأخذ حظّه من الآخرة، فترك ما هو شرّ له، وأخذ ما هو خير له، فكان غابناً. والكافر: ترك حظّه من الآخرة، وأخذ حظّه من الدنيا، فترك الخير وأخذ الشرّ، فكان مغبوناً. فيظهر في ذلك اليوم الغابن والمغبون. وقيل: يوم التغابن غبن أهل الجنّة أهل النار، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وقد روي عن النبيّ ﷺ في تفسير هذا قوله: «ما من عبد مؤمن يدخل الجنّة إلّا أُري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلّا أُري مقعده من الجنّة لو أحسن؛ ليزداد حسرة».

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ أي: معاصيه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: مؤبدين فيها، ولا يفنى ما هم فيه من النعيم أبداً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: النجاح الذي ليس وراءه شيء من العظمة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلائلنا ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المآل والمرجع.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن
تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ (١) لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة طلحة بن مصرف: «نهد قلبه» ـ بالنون ـ. وقراءة السلمي: «يُهد قلبه» ـ بضمّ الياء والباء على ما لم يسمّ فاعله ـ. وقراءة عكرمة، وعمرو بن دينار: «يهدأ قلبه» ـ مهموزاً ـ. وقراءة مالك بن دينار: «يهدا» ـ بالألف ـ.

الحجة: من قرأ: «يهدأ» ـ مهموزاً ـ، فمعناه: يطمئنّ قلبه، كما قال سبحانه:

---

(١) وقرأ «يضعّفه» ـ بالقصر والتشديد ـ ابن كثير وابن عامر.

﴿وَقَلْبُهُ مُّطمَئِنٌّ بِالإِيمَٰنِ﴾ . ومن قرأ بالألف، فإنّه لين الهمز تخفيفاً.

النزول: نزل قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ﴾ في قوم أرادوا الهجرة، فثبطهم نساؤهم و أولادهم عنها، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد ـ.

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ﴾ أي: ليس تصيبكم مصيبة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ والمصيبة المضرّة التي تلحق صاحبها، كالرمية التي تصيبه. وإنّما عمَّ ذلك سبحانه وإن كان في المصائب ما هو ظلم، وهو سبحانه لا يأذن بالظلم؛ لأنّه ليس منها إلّا ما أذن الله في وقوعه، أو التمكّن منه، وذلك إذن للملك الموكّل به، كأنّه قيل: لا تمنع من وقوع هذه المصيبة. وقد يكون ذلك بفعل التمكين من الله، فكأنّه يأذن له بأن يكون. وقيل: معناه: إلّا بتخلية الله بينكم وبين من يريد فعلها، ـ عن البلخي ـ. وقيل: إنّه خاصّ فيما يفعله الله تعالى، أو يأمر به. وقيل: معناه: بعلم الله أي: لا يصيبكم مصيبة إلّا والله عالم بها.

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ أي: يصدّق به، ويرض بقضائه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ أي: يهد الله قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه فبعلم الله، فيصبر عليه، ولا يجزع؛ لينال الثواب والأجر. وقيل: معناه: ومن يؤمن بتوحيد الله، ويصبر لأمر الله، يعني: عند نزول المصيبة، يهد قلبه للإسترجاع، حتى يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: إنّ المعنى: يهد قلبه فإن ابتلي صبر، وإن أُعطي شكر، وإن ظلم غفر، ـ عن مجاهد ـ. وقال بعضهم في معناه: من يؤمن بالله عند النعمة، فيعلم أنّها فضل من الله، يهد قلبه للشكر، ومن يؤمن بالله عند البلاء، فيعلم أنّه عدل من الله، يهد قلبه للصبر، ومن يؤمن بالله عند نزول القضاء، يهد قلبه للإستسلام والرضا.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل امرىء بما عمله.

﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾ في جميع ما أمركم به ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ في جميع ما أتاكم به، ودعاكم إليه، وفيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: فإن

أعرضتم عن القبول منه ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليه إلّا تبليغ الرسالة، وقد فعل. والمراد: ليس عليه قهركم على الردّ إلى الحقّ، وإنّما عليه البلاغ الظاهر البيّن. فحذف للإيجاز والاختصار.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا تحقّ العبادة إلّا له ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والتوكّل: تفويض الأُمور إليه، والرضا بتقديره، والثقة بتدبيره. وقد أمر الله عباده بذلك. فينبغي لهم أن يستشعروا ذلك في سائر أحوالهم.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ يعني: إنّ بعضهم بهذه الصفة، ولذلك أتى بلفظة ﴿مَنْ﴾ وهي للتبعيض. يقول: إنّ مِن هؤلاء، مَنْ هو عدوّ لكم في الدين، فاحذروهم أن تطيعوهم. وقيل: إنّه سبحانه إنّما قال ذلك؛ لأنّ من الأزواج من يتمنّى موت الزوج، ومن الأولاد من يتمنّى موت الوالد؛ ليرث ماله. وما مِن عدوّ أعدى ممّن يتمنّى موت غيره؛ ليأخذ ماله، وكذلك يكون من يحملك على معصية الله؛ لمنفعة نفسه، ولا عدوَّ أشدّ عداوة ممّن يختار ضررك لمنفعته. قال عطاء: يعني: قوماً أرادوا الغزو، فمنعهم هؤلاء. وقال مجاهد: يريد قوماً أرادوا طاعة الله فمنعوهم.

﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ أي: تتركوا عقابهم ﴿وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾ أي: تتجاوزوا عنهم، وتستروا ما سبق عنهم إن عادوا إلى الحالة الجميلة، وذلك أنّ الرجل مِن هؤلاء إذا هاجر، ورأى الناس قد سبقوه بالهجرة، وفّقهوا في الدين، هَمَّ أن يعاقب زوجته وولده، الذين ثبطوه عن الهجرة، وإنْ يلحقوا به في دار الهجرة لم ينفق عليهم، فأمر سبحانه بالعفو والصفح.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم. وقيل هو عام أي: إن تعفوا وتصفحوا عمّن ظلمكم، فإنّ الله يغفر بذلك كثيراً من ذنوبكم، ـ عن الجبائي ـ.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: محنة وابتلاء، وشدّة للتكليف عليكم، وشغل عن أمر الآخرة. فإن الإنسان بسبب المال والولد يقع في الجرائم، عن ابن مسعود قال: لا يقولنّ أحدكم: أللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، فإنّه ليس أحد منكم يرجع إلى مال، وأهل، وولد، إلّا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: أللهمّ إنّي أعوذ بك من مضلّات الفتن.

وروي عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين عليهما السلام، وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ إليهما، فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر وقال: «صدق الله عزّوجلّ ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيّين، يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما». ثمّ أخذ في خطبته[1].

﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل، وهو الجنّة، يعني: فلا تعصوه بسبب الأموال والأولاد، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر والذخر. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: ما أطقتم. والإتّقاء: الإمتناع من الردى، باجتناب ما يدعو إليه الهوى. ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؛ لأنّ كل واحد منهما، إلزام لترك جميع المعاصي. فمن فعل ذلك فقد اتّقى عقاب الله؛ لأنّ من لم يفعل قبيحاً، ولا أخلّ بواجب، فلا عقاب عليه، إلّا أنّ في أحد الكلامين تبييناً أنّ التكليف لا يلزم العبد إلّا فيما يطيق، وكل أَمْر أَمر الله به، فلابدّ أن يكون مشروطاً بالإستطاعة.

وقال قتادة قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخ لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وكأنّه يذهب إلى أنّ فيه رخصة لحال التقيّة، وما جرى مجراها ممّا يعظم

---

(١) روى مضمون هذا الحديث أبو داود السجستاني والنسائي، وكتابهما من الصحاح الستّة، وكذلك رواه أحمد بن حنبل في مسنده، في الجلد الخامس.

فيه المشقّة، وإن كانت القدرة حاصلة معه. وقال غيره: ليس هذا بناسخ، وإنّما هو مبيّن لإمكان العمل بهما جميعاً، وهو الصحيح.

﴿وَٱسْمَعُوا﴾ من الرسول ما يتلو عليكم، وما يعظكم به، ويأمركم، وينهاكم. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله و الرسول ﴿وَأَنفِقُوا﴾ من أموالكم في حقّ الله ﴿خَيراً لِأَنفُسِكُمْ﴾ مثله: فآمنوا خيراً لكم، وانتهوا خيراً لكم، وقد مضى ذكر ذلك. وقال الزجّاج: معناه: قدّموا خيراً لأنفسكم من أموالكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى يعطي حقّ الله من ماله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المنجحون الفائزون بثواب الله. وقال الصادق عليه السلام: من أدّى الزكاة فقد وقي شحَّ نفسه.

﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قد مضى معناه. وإطلاق اسم القرض هنا تلطف في الإستدعاء إلى الإنفاق ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ أي: يعطي بدله أضعاف ذلك من واحد إلى سبعمائة، إلى ما لا يتناهى. فإنّ ثواب الصدقة يدوم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ أي: مثيب مجاز على الشكر ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل العباد بالعقوبة. وهذا غاية الكرم.

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ أي: السرّ والعلانية. وقيل: المعدوم والموجود. وقيل: غير المحسوس والمحسوس. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ العالم. وقيل: المحكم لأفعاله.

سورة الطلاق

وتسمّى سورة النساء القصرى. قال ابن مسعود في حديث العدة: من شاء باهلته أن سورة النساء القصرى نزلت بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾. وإنّما أراد قوله: ﴿وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فإذا كانت حاملة، فعدّتها وضع الحمل. وهي مدنيّة بالإجماع.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية بصريّ، وإثنتا عشرة آية في الباقين.

اختلافها: ثلاث آيات: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ كوفيّ مكيّ والمدني الأخير، ﴿وَالْيَوْمَ الأَخَرَ﴾ شاميّ، ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ المدنيّ الأوّل.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الطلاق، مات على سنّة رسول الله ﷺ». أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الطلاق والتحريم في فريضته، أعاذه الله تعالى من أن يكون يوم القيامة ممّن يخاف أو يحزن، وعوفي من النار، وأدخله الله الجنّة بتلاوته إيّاهما، ومحافظته عليهما، لأنّهما للنبيّ ﷺ.

تفسيرها: لمّا ختم الله سورة التغابن بذكر النساء، والتحذير منهنّ، افتتح هذه السورة بذكرهنّ، وذكر أحكامهنّ، وأحكام فراقهنّ، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ
وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ
بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ
مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ
وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ

إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ (١)

القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿بَالِغُ﴾ ـبغير تنوين ـ ﴿أَمْرِهِ﴾ ـبالجرّ على الإضافة ـ. والباقون: «بالغٌ» ـبالتنوين ـ «أمرَه» ـبالنصب ـ.

وفي الشواذّ، قراءة داود بن أبي هند: «إنَّ الله بالغٌ» ـبالتنوين ـ «أمرُهُ» ـبالرفع ـ. وروي عن ابن عبّاس، وأُبيّ بن كعب، وجابر بن عبد الله، وعليّ بن الحسين عليه السلام، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمّد، ومجاهد: «فطلّقوهنّ في قبل عدّتهنّ».

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿بَالِغُ أَمْرَهُ﴾ على سيبلغ أمره فيما يريده فيكم، فهذا هو الأصل، وهو حكاية حال. ومن أضاف، حذف التنوين استخفافاً، والمعنى معنى ثبات التنوين، مثل: «عارضُ ممطرِنا». وأمّا قوله: «في قبل عدّتهنّ»، فإنّه تفسير للقراءة المشهورة: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: عند عدّتهنّ. ومثله قوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾ أي: عند وقتها. ومن قرأ: «بالغٌ أمرهُ» فالمعنى: أمره بالغ ما يريده الله به، وقد بلغ أمر الله ما أراده، فالمفعول على ما رأيت محذوف.

الإعراب: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾: مبتدأ، خبره محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، فإذا جاز حذف الجملة بأسرها، جاز حذف بعضها. وقد جاء أيضاً

---

(١) يوقف لحمزة على «إذا» بالتحقيق والتسهيل كالياء؛ لأنّه متوسّط بغيره المنفصل. وقرء «مبيَّنة» ـبفتح الياء ـ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم. وأدغم «فقد ظلم» أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام وورش، وكذلك «قد جعل» إلّا ورشا. وقرأ «اللاء» في الموضعين ـبحذف الياء وتخفيق [تحفيق] الهمزة ـ قنبل وقالون، وبتسهيلها كالياء ورش، واختلف عن أبي عمرو والبزي. وقرأ الباقون: بالهمزة المحقّقة وإشباع الكسرة. ويجوز عند أبي عمرو «اللائي يئسن» ـبإدغام الياء وفكّ الادغام ـ.

في الصفة، وإن قلّ نحو قوله: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ﴾ تقديره: من كل شيء تؤتاه.

المعنى: نادى سبحانه نبيّه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثمّ خاطب أُمّته، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ لأنّه ﷺ السيّد المقدم، فإذا نودي، وخوطب خطاب الجمع، كانت أُمّته داخلة في ذلك الخطاب، ـ عن الحسن وغيره ـ. وقيل: إنّ تقديره: يا أيّها النبيّ! قل لأمّتك: إذا طلّقتم النساء، ـ عن الجبائي ـ. فعلى هذا يكون النبيّ ﷺ خارجاً عن الحكم. وعلى القول الأوّل حكمه حكم أُمّته في أمر الطلاق. وعلى هذا انعقد الإجماع، والمعنى: إذا أردتم طلاق النساء، مثل: قوله سبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ ، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لزمان عدّتهنّ، وذلك أن يطلّقها في طهر لم يجامعها فيه[1]، ـ عن ابن عبّاس، وابن مسعود، والحسن، ومجاهد، وابن سيرين، وقتادة، والضحّاك، والسدّي ـ. فهذا هو الطلاق للعدّة؛ لأنّها تعتدّ بذلك الطهر من عدّتها، وتحصل في العدّة عقيب الطلاق. فالمعنى: فطلّقوهنّ لطهرهنّ الذي يحصينه من عدّتهنّ، ولا تطلقوهنّ لحيضهنّ الذي لا يعتددن به من قرئهنّ [قروئهنّ]. فعلى هذا يكون العدّة الطهر على ما ذهب إليه أصحابنا، وهو مذهب الشافعي. وقيل: إنّ المعنى «قبل عدّتهنّ» أي: في طهر لم يجامعها فيه، والعدّة

---

(١) اتّفق اصحابنا على أنّ الطلاق في الطهر الذي دخل بها باطل، وإنّ الطهر إنّما يحسب من العدّة إذا لم يدخل بها. ولا يخفى أنّ الحكمة في العدّة الاستظهار التامّ؛ لبرائة الرحم من الحمل، والغالب على النساء أنّهنّ لا يحضن في الحمل، فظهور الحيض علامة الحبل، إلّا الحيضة بعد طهر المواقعة، فإنّها يمكن أن تكون سببا للحمل، فإنّ النطفة تبقى في الرحم أيّاماً، ثم تحيض المرأة، وتنفصل في كلّ حيضة من جدران رحمها بيضة صغيرة، ان لاقت النطفة تكون الجنين على ما يعتقده أطباء زماننا، فالحيضة التي لها دخل في براءة الرحم، هي ما لم يتقدّمها دخول.

الحيض، كما يقال: توضّأت للصلاة، ولبست السلاح للحرب، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه.

وقيل: إنّ اللام للسبب، فكأنّه قال: فطلّقوهنّ ليعتددن. ولا شبهة أنّ هذا الحكم للمدخول بها؛ لأنّ المطلّقة قبل المسيس لا عدّة عليها. وقد ورد به التنزيل في سورة الأحزاب، وهو قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ . وظاهر الآية يقتضي أنّه إذا طلّقها في الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، فلا يقع الطلاق؛ لأنّ الأمر يقتضي الإيجاب، وبه قال سعيد بن المسيّب، وذهبت إليه الشيعة الإماميّة. وقال باقي الفقهاء: يقع الطلاق، وإنْ كان بدعة، وخلاف المأمور به[1]، وكذلك إنْ جمع بين التطليقات الثلاث، فإنّها بدعة عند أبي حنيفة، وأصحابه، وإنْ كانت واقعة. وعند المحقّقين من أصحابنا يقع واحدة عند حصول شرائط صحّة الطلاق.

والطلاق في الشرع: عبارة عن تخلية المرأة بحلّ عقدة من عقد النكاح، وذلك أنْ يقول: «أنت طالق»، يخاطبها أو يقول: «هذه طالق» ويشير إليها، أو يقول: «فلانة بنت فلان طالق». ولا يقع الطلاق عندنا إلّا بهذا اللفظ، لا بشيء من كنايات الطلاق، سواء أراد بها الطلاق، أو لم يرد بها[2].

وفي تفصيل ذلك اختلافات بين الفقهاء ليس هيهنا موضعه، وقد يحصل

---

(١) حرمة الفعل كما قلنا لا ينافي الصحّة عقلا، أعني ترتّب الآثار، لكن صحّته متوقّفة على وجود دليل، مفقود هنا مع النهي.

(٢) روى في التهذيب حديثا يتضمّن الإكتفا في الطلاق بقوله: اعتدي ثم قال قال الحسن بن سماعة: هذا غلط، ليس الطلاق إلّا كما روي بكير بن أعين، أن يقول لها ـ وهي طاهر من غير جماع ـ أنت طالق، ويشهد شاهدين عدلين، وكلّما سوى ذلك فهو ملغى. وروي في التهذيب أيضاً عن زرارة قال قلت لأبي [جعفر] عبد الله عليه السلام: رجل كتب بطلاق امرأته، أو بعتق غلامه، ثمّ بدا له فمحاه، قال عليه السلام ليس ذلك بطلاق، ولا عتاق حتّى يتكلّم.

الفراق بغير الطلاق كالإرتداد، واللعان [و]كالخلع عند كثير من أصحابنا، وإنْ لم يسم ذلك طلاقاً. ويحصل أيضاً بالفسخ للنكاح بأشياء مخصوصة، وبالردّ بالعيب، و إنْ لم يكن ذلك طلاقاً.

وروي البخاري ومسلم، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن نافع، عن عبدالله بن عمر أنّه طلّق امرأته وهي حائض، تطليقة واحدة. فأمر رسول الله ﷺ أنْ يراجعها. ثمّ يمسكها حتى تطهر، و تحيض عنده حيضة أُخرى، ثمّ يمهلها حتى تطهر من حيضها. فإذا أراد أنْ يطلّقها، فليطلّقها حين تطهر من قبل أنْ يجامعها. فتلك العدّة التي أمر الله تعالى أنْ تطلق لها النساء.

وروي البخاري، عن سليمان بن حرب، وروي مسلم، عن [بن] عبدالرحمٰن بن بشر، عن بهر، وكلاهما عن شعبة، عن انس بن سيرين قال: سمعت ابن عمر يقول: طلّق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبيّ ﷺ فقال: مره فليراجعها[1]، فإذا طهرت فليطلّقها إنْ شاء.

وجاءت الرواية عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «تزوّجوا ولا تطلّقوا، فإنّ الطلاق يهتزّ منه العرش».

وعن ثوبان، رفعه إلى النبيّ ﷺ فقال: «أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنّة».

وعن أبي موسى الأشعري، عن النبيّ ﷺ قال: «لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة، فإنّ الله لا يحبّ الذواقين والذواقات»[1].

---

(١) استدلّ أهل السنّة بهذه الكلمة على صحّة الطلاق البدعي؛ لأنّ الرجوع لا يتصوّر إلّا مع صحّة الطلاق، ويمكن أن يراد بالرجوع هنا معناه اللغوي، وهو إمساك المرأة لبطلان طلاقها، وورد بلفظ الإمساك في الكافي.

[١] قال الجزري: ومنه الحديث: إنّ الله لايحب الذواقين والذوقات يعني السريعي الطلاق «انتهى» قيل: وتفسيره أن لايطمئن ولاتطمئن كلما تزوج أو تزوجت كرهاً ومدا أعينها إلى غيرها.

وعن أنس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلّا المنافق». هذه الأحاديث الأربعة منقولة عن تفسير الثعلبي.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: عدوا الأقراء التي تعتدّ بها. وقيل: معناه: عدّوا أوقات الطلاق لتطلقوا للعدّة. وإنّما أمر الله سبحانه بإحصاء العدّة؛ لأنّ لها فيها حقّاً، وهي النفقة والسكنى، وللزوج فيها حقّاً وهي المراجعة، ومنعها عن الأزواج لحقّه، وثبوت نسب الولد، فأمره تعالى بإحصائها؛ ليعلم وقت المراجعة، ووقت فوت المراجعة، وتحريمها عليه، ورفع النفقة والسكنى، ولكيلا تطول العدّة لاستحقاق زيادة النفقة، أو تقصيرها لطلب الزواج.

والعدّة: هي قعود المرأة عن الزوج حتى تنقضي المدّة المرتّبة في الشريعة، وهي على ضروب: فضرب يكون بالأقراء لمن تحيض. وضرب يكون بالأشهر، للصغيرة التي لم تبلغ المحيض، ومثلها تحيض وهي التي بلغت تسع سنين. وإذا كان سنّها أقلّ من ذلك، فلا عدّة عليها عند أكثر أصحابنا. وقال بعضهم: عدّتها بالشهور، وبه قال الفقهاء، وكذلك الكبيرة الآيسة من المحيض، ومثلها تحيض[1]، عدّتها بالشهور. وحدَّه أصحابنا بأن يكون سنّها أَقلّ من خمسين سنة ومن ستّين سنة للقرشيّات[2]، فإن كان سنّها أكثر من ذلك، فلا عدّة عليها عند أكثر أصحابنا. والمتوفّي عنها زوجها، عدّتها بالشهور أيضاً. والضرب الثالث من العدّة يكون بوضع الحمل في الجميع، إلّا في المتوفّى عنها زوجها، فإنّ عدّتها عند أصحابنا أبعد الأجلين، وفي ذلك اختلاف بين الفقهاء.

---

(١) مذهب السيّدين وابن شهر آشوب الاعتداد لظاهر القرآن، ولكن اليائس في القرآن غيره في اصطلاحنا.

(٢) والحقّ أكثر علمائنا النبطيّة بالقرشيّة، وكان دليله التجربة، فإنّ الحيض دم معروف للناس، إذا علم وجوده ترتّب عليه حكمه.

ثمّ إنَّ عدّة الطلاق للحرّة ثلاثة قروء، أو ثلاثة أشهر، وللأمة قرءان أو شهر ونصف، ووضع الحمل لا يختلف.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ ولا تعصوه فيما أمركم به ﴿ولاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ هنّ أيضاً يعني: في زمان العدّة لا يجوز للزوج أن يخرج المطلّقة المعتدّة من مسكنه، الذي كان يسكنها فيه قبل الطلاق، وعلى المرأة أيضاً أن لا تخرج في عدّتها إلّا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أَثِمَت.

﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ أي: ظاهرة. ومن قرأ بفتح الياء فالمراد: بفاحشة مظهرة أظهرتها. واختلف في «الفاحشة» فقيل: إنّها الزنا، فتخرج لإقامة الحدّ عليها، ـ عن الحسن ومجاهد والشعبي وابن زيد ـ. وقيل: هي البذاء على أهلها، فيحلّ لهم إخراجها، ـ عن ابن عبّاس، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام. وروي عليّ بن أسباط، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: الفاحشة أن تؤذي أهل زوجها وتسبّهم. وقيل: هي النشوز، فإن طلّقها على نشوز، فلها أن تتحوّل من بيت زوجها، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هي خروجها قبل انقضاء العدّة، ـ عن ابن عمر ـ. وفي رواية أُخري عن ابن عبّاس، أنّه قال: إنّ كل معصية لله تعالى ظاهرة فهي فاحشة.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يعني: ما ذكره سبحانه من أحكام الطلاق، وشروطه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بأن يطلق على غير ما أمر الله تعالى به ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أثم فيما بينه وبين الله عزّوجلّ، وخرج عن الطاعة إلى المعصية، وفعل ما يستحقّ به العقاب.

﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾ أي: يغير [بغير] رأي الزوج في محبّة الطلاق، ويوقع في قلبه المحبّة؛ لرجعتها فيما بين الطلقة الواحدة والثانية، وفيما بين الثانية والثالثة. قال الضحّاك والسدّي وابن زيد: لعلّ الله يحدث الرجعة

في العدّة. وقال الزجّاج: وإذا طلّقها ثلاثاً في وقت واحد، فلا معنى له لقوله: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ الواجب في التطليق أن يوقع متفرّقاً، ولا يجوز الجمع بين الثلاث؛ لأنّ الله تعالى أكّد قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بقوله: ﴿وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ ثمّ زاد في التأكيد بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فيما حدَّه الله لكم فلا تعتدوه. ثمّ قرَّر سبحانه حقّ الزوج في المراجعة بقوله: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ﴾ فإنّ الزوجة إذا لم ترم بيتها تمكن الزوج من مراجعتها. ثمّ دلّ بقوله: وتلك حدود الله على أنّ من تعدّى حدود الله تعالى في الطلاق، بطل حكمه، وصار قوله: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾ تأكيداً لحدود الله في الطلاق، وإعلاماً بأنّ حقّ الراجعة لا ينقطع بجمع الطلاق، فكأنّه قال: كونوا على رجاء الفائدة بالرجعة، فقد يحدث الله الرغبة بعد الطلاق[1].

فإنْ قالوا: قد أمر الله سبحانه في الآية بطلاق العدّة، فكيف تقدمون أنتم طلاق السنة على طلاق العدّة[2]؟ فالجواب: إنّ طلاق السنة أيضاً طلاق العدّة، إلّا

---

(١) على المذهب المشهور بين علمائنا لا ينحصر الطلاق الصحيح في السني والعدّي، بل إن طلّق في طهر، وراجع بغير وطئ، ثمّ طلّق في ذلك الطهر، أو في آخر صحّ الطلاق، وليس بسني أخصّ ولا عدّي والأخبار مختلفة جدّاً، والقرآن يشمل هذا؛ لأنّه طلاق للعدّة، والاحتياط يقتضي ذلك أيضاً، فلا تحل فيه للزوج إلّا بالمحلّل [كغيره]. وقال الحسن: لا رجعة إلّا بالوطي، وهذا خلاف الاحتياط. والأولى تفريق الطلقات على الأطهار والجماع بينهنّ.

(٢) اعترضوا على أصحابنا: بأنّ المرأة إذا خرجت من بيت زوجها في العدّة، صحّ اعتدادها قطعاً، مع أنّها فعلت محرماً، فما الفرق بينه وبين الطلاق البدعي، حيث تقولون إنّه محرم غير صحيح. وأجاب عن ذلك ايوب بن نوح: بأنّا أصحاب أثر [!]لاقياس. وقال عليّ بن راشد: هذا صحيح إن كان دليلنا منحصرا في القرآن، وليس. وقال معاوية بن حكيم: الطلاق فعل اختياري، يبطل ان كان محرماً، ومضى العدّة فعل الله بمضي الشهور، وليس فعل الرجل ←

أنّ أصحابنا رضي الله عنهم، قد اصطلحوا على أنْ يسمّوا الطلاق الذي لا يزاد عليه بعد المراجعة طلاق السنة، والطلاق الذي يزاد عليه أَنْ [بشرط] المراجعة طلاق العدّة.

وممّا يعضد ما ذكرته، ما اشتهر من الأخبار في كتبهم، ورواياتهم، ونقل عن متقدّميهم مثل: زرارة بن أعين وبكير بن أعين، ومحمّد بن مسلم وغيرهم. فمِن ذلك ما رواه يونس عن بكير بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الطلاق أَنْ يطلق الرجل المرأة على طهر من غير جماع، ويشهد رجلين عدلين على تطليقه، ثمّ هو أحقّ برجعتها ما لم تمض ثلاثة قروء، فهذا الطلاق الذي أمر الله به في القرآن وأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله في سنّته، وكل طلاق لغير العدّة فليس بطلاق».

وعن حريز قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن طلاق السنة، فقال: على طهر من غير جماع بشاهدي عدل، ولا يجوز الطلاق إلّا بشاهدين والعدّة، وهو قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ الآية.

وروي الحسن بن محبوب، عن عليّ بن رئاب، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «كل طلاق لا يكون على السنة، أو طلاقاً على العدّة، فليس بشيء». قال زرارة: قلت لأبي جعفر: فسِّ [فسّر] لي طلاق السنة وطلاق العدّة؟ فقال:

«أمّا طلاق السنة، فهو إنّ الرجل إذا أراد أنْ يطلّق امرأته؛ فلينتظر بها حتى

← والمرأة، فلا يمكن أن يتعلّق به نهي. وقال الفضل بن شاذان: خروج المرأة من بيت زوجها جائز في الجملة، إنّما الخروج الذي نهى الله عزّ وجلّ عنه، هو ما يكون على سبيل السخط والمراغمة، وهو الذي يجوز في اللغة أن يقال: فلانة خرجت من بيت زوجها، وإنّ فلانا أخرج امرأته، وهذا النوع من المنع كان قبل الطلاق أيضاً بحقّ الزوجية، وليس مخصوصاً بالعدّة، حتى يلزم من مخالفته عدم صحّة العدّة. نقلنا جميع ذلك من الكافي بتلخيص. مذهب [و] [الفضل] الفصل في الخروج للمعتدّة، يوافق مذهب بعض علمائنا، كالعلامة في التحرير.

تطمث وتطهر. فإذا خرجت من طمثها، طلّقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين عدلين على ذلك، ثمّ يدعها حتى تمضي أقراؤها، وقد بانت منه، وكان خاطباً من الخطاب، إن شاءت تزوّجته، وإن شاءت لم تتزوّجه، وعليه نفقتها والسكنى، ما دامت في العدّة، وهما يتوارثان حتى تنقضي العدّة.

«وأمّا طلاق العدّة، فإذا أراد الرجل أنْ يطلّق امرأته طلاق العدّة، فلينتظر بها حتى تحيض، وتخرج من حيضها، ثم يطلّقها تطليقة من غير جماع، ويشهد شاهدين عدلين، ويراجعها من يومه ذلك إن أحبّ، أو بعد ذلك بأيّام قبل أن تحيض، ويشهد على رجعتها ويواقعها، وتكون معه حتى تحيض. فإذا حاضت وخرجت من حيضها، طلّقها تطليقة أُخرى من غير جماع. ويشهد على ذلك أيضاً متى شاء قبل أنْ تحيض، ويشهد على رجعتها ويواقعها، وتكون معه حتى تحيض الحيضة الثالثة، فإذا خرجت من حيضها، طلّقها الثالثة بغير جماع، ويشهد على ذلك، فإذا فعل ذلك فقد بانت منه، ولا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره». والروايات في هذا كثيرة عن أئمّة الهدى عليهم السلام.

فعلى هذا فإنّه يتركها في طلاق السنة، حتى تعتدّ ثلاثة قروء، فإذا مضى ثلاثة قروء، فإنّها تبين منه بواحدة، وإذا تزوّجها بعد ذلك بمهر جديد، كانت عنده على تطليقتين باقيتين، فإن طلّقها أُخرى، طلاق السنة، وتركها حتى تمضي أقراؤها، فلا يراجعها، فقد بانت منه باثنتين، فإن تزوّجها بعد ذلك، وطلّقها، لم تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره، ولو شاء أن يراجعها بعد الطلقة الأُولى والثانية، لكان ذلك إليه. فقد تبيّن أنّ هذا الطلاق هو طلاق للعدّة أيضاً. إلّا أنّ الفرق بينهما ما ذكرناه.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ معناه: فإذا قاربن أجلهنّ الذي هو الخروج من العدّة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: راجعوهن بما يجب لهنّ من النفقة، والكسوة،

والمسكن، وحسن الصحبة.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بأن تتركوهن حتى يخرجن من العدّة، فتبنَّ [فتبين] منكم. ولا يجوز أنْ يكون المراد بقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إذا انقضى أجلهنّ؛ لأنّ الزوج لا يملك الرجعة بعد النقضاء العدّة، بل هي تملك نفسها، وتبين منه بواحدة، ولها أن تتزوّج من شاءت من الرجال.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ﴾ قال المفسّرون: أُمروا بأن يُشهدوا عند الطلاق وعند الرجعة، شاهدي عدل[1] حتى لا تجحد المرأة المراجعة بعد انقضاء العدّة، ولا الرجل الطلاق. وقيل: معناه: وأشهدوا على الطلاق صيانة لدينكم، وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام. وهذا أليق بالظاهر؛ لأنّا إذا حملناه على الطلاق، كان أمراً يقتضي الوجوب، وهو من شرائط صحّة الطلاق. ومن قال إنّ ذلك راجع إلى المراجعة حمله على الندب.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود أي: أقيموها لوجه الله، واقصدوا بأدائها التقرّب إلى الله، لا الطلب لرضا المشهود له، والإشفاق من المشهود عليه.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأمر بالحقّ يا معشر المكلّفين ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

---

(١) العدل هو المستوى في كلّ شيء، وإذا اطلق في كلام الله، فالمتبادر منه من يفعل ما هو الحسن عند الله تعالى، ويترك القبيح كذلك، ومن يرتكب ما ينافي المروة، ليس بعدل؛ بل هو سفيه، أو وفيح، وخلقه غير مرضي عند الله، وخارج عن الاستواء. والحقّ أنّه يمكن العلم بالملكات من تتبّع الظواهر، كما يحصل العلم بالسخاء، والبخل، والحسد، والحرص، وإن سومح شرعا في العدالة في كل مورد ثبت المسامحة فيه فبدليل. وأما الاشهاد في الطلاق، فلا فرق بينه وبين غيره، وإذا تبيّن أنّ الشهود لم يكونوا عدولا، بعد أن إجتهد المطلق، وعمل بما يجب، فالظاهر الاكتفاء، خصوصا إذا تزوّجب المرأة.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ أي: يؤمر به المؤمنون؛ لينزجروا به عن الباطل. وخصَّ المؤمنين؛ لأنّهم الذين انتفعوا به. فالطاعة الواجبة فيها وعظ، بأن رغب فيها باستحقاق الثواب، وفي تركها العقاب. والمندوبة فيها وعظ باستحقاق المدح والثواب على فعلها. والمعاصي فيها وعظ بالزجر عنها، والتخويف من فعلها باستحقاق العقاب، والترغيب في تركها بما يستحقّ على الإخلال بها من الثواب.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيما أمره به، ونهاه عنه ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ من كل كرب في الدنيا والآخرة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وروي عن عطاء بن يسار، عن ابن عبّاس قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً﴾ قال: من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة». وعنه ﷺ قال: «مَن أكثر الإستغفار، جعل الله له من كل همّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً». وقيل: معناه: ومن يطلق للسنة، يجعل الله له مخرجاً في الرجعة.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ عن عكرمة والشعبي والضحّاك. وقيل: إنّها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، أسر العدو ابناً له، فأتى النبيّ ﷺ فذكر له ذلك، وشكا إليه الفاقة، فقال له: اتّق الله، واصبر، وأكثر من قول «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» ففعل الرجل ذلك. فبينا هو في بيته إذ أتاه ابنه، وقد غفل عنه العدوّ، فأصاب إبلاً، وجاء بها إلى أبيه، فذلك قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ أي: يبارك له فيما أتاه. وعن أبي ذرّ الغفاريّ، عن النبيّ ﷺ قال: «إنّي لأعلم آية لو أَخذ بها الناس لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الآية. فما زال يقولها ويعيدها.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن يفوّض أمره إلى الله، ووثق بحسن تدبيره وتقديره، فهو كافيه، يكفيه أمر دنياه، ويعطيه ثواب الجنّة، ويجعله

بحيث لا يحتاج إلى غيره، وفي الحديث: «من سرَّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكّل على الله».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: يبلغ ما أراد من قضاياه وتدابيره على ما أراده، ولا يقدر أحد على منعه عمّا يريده. وقيل: معناه: إنّه منفذ أمره فيمن يتوكّل عليه، وفيمن لم يتوكّل عليه.

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ أي: قدر الله لكل شيء مقداراً وأجلاً، لا زيادة فيها ولا نقصان. وقيل: بيّن لكل شيء مقداراً بحسب المصلحة في الإباحة والإيجاب، والترغيب والترهيب، كما بيّن في الطلاق والعدّة وغيرهما. وقيل: قد جعل الله لكل شيء من الشدّة والرخاء، وقتاً وغاية ومنتهى ينتهى إليه.

ثمّ بيّن سبحانه اختلاف أحكام العدّة، باختلاف أحوال النساء، فقال: ﴿وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ﴾ فلا يحضن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فلا تدرون لكبر ارتفع حيضهن، أم لعارض، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ وهنّ اللواتي أمثالهنّ يحضن؛ لأنّهنّ لو كنَّ في سنّ مَن لا تحيض، لم يكن للإرتياب معنى، وهذا هو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام. وقيل: معناه: إن شككتم فلم تدروا أدَمهُنّ دم حيض، أو استحاضة، «فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ»، عن مجاهد والزهري وابن زيد. وقيل: معناه: إن ارتبتم في حكمهن، فلم تدروا ما الحكم فيهن.

﴿وَٱللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ تقديره: واللائي لم يحضن إن ارتبتم، فعدّتهنّ أيضاً ثلاثة أشهر. وحذف؛ لدلالة الكلام الأوّل عليه، وهنّ اللواتي لم يبلغن المحيض، ومثلهنّ تحيض على ما مرَّ بيانه.

﴿وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال ابن عبّاس: هي في المطلّقات خاصّة، وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام. فأمّا المتوفّى عنها زوجها إذا كانت

حاملاً، فعدّتها أبعد الأجلين، فإذا مضت بها أربعة أشهر وعشر، ولم تضع، انتظرت وضع الحمل. وقال ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وقتادة، وأكثر الفقهاء: إنّه عام في المطلّقات والمتوفّى عنها زوجها، فعدّتهنّ وضع الحمل. فإن كانت المرأة حاملاً باثنين، ووضعت واحداً لم تحلّ للأزواج حتى تضع جميع الحمل؛ لقوله: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وروي أصحابنا أنّها إذا وضعت واحداً انقطعت عصمتها من الزوج، ولا يجوز لها أنْ تعقد على نفسها لغيره، حتى تضع الآخر، فأمّا إذا كانت قد توفّي عنها زوجها، فوضعت قبل الأشهر الأربعة والعشر، وجب عليها أنْ تستوفي أربعة أشهر وعشراً.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في جميع ما أمره بطاعته فيه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي: يسهل عليه أمور الدنيا والآخرة إمّا بفرج عاجل، أو عوض آجل. وقيل: يسهل عليه فراق أهله، ويزيل الهموم عن قلبه.

﴿ذٰلِكَ﴾ يعني: ما ذكره الله سبحانه من الأحكام في الطلاق، والرجعة، والعدّة. ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بطاعته ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة. قال الربيع: إنّ الله قد قضى على نفسه أنّ من توكّل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به أنجاه،ومن دعاه أجابه ولبّاه. وتصديق ذلك في كتاب الله عزّوجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِالله يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهَ فَقَدْ هَدي إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّى قَرِيبٍ أُجِيب﴾ الآية ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ فى الآخرة، وهو ثواب الجنّة.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟
عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن
تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ
وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا
إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ
قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ روح عن يعقوب مختلفاً عنه: «من وِجدكم» ـ بكسر الواو ـ. والقراءة بضمّ الواو. وقرأ ابن كثير: «وكائن» ـ بالمدّ والهمز ـ. والباقون: «وكأيّن» ـ بالهمز والتشديد ـ.

الحجة: يقال: وجدت في المال جِدَةً، ووَجْداً، وَوِجْداً، ووُجْداً، بتعاقب الحركات الثلاث على الواو. ووجدت الضالّة وِجْداناً. ووجدت من الحزن وَجْداً. ومن الغضب موجدة ووُجداناً. وكأيّن: أصله «أيٌّ»، دخلت عليها الكاف الجارّة، كما دخلت على «ذا» في «كذا»، فموضع «كأين» رفع بالإبتداء، كما أنّ «كذا» كذلك، ولا موضع للكاف، كما أنّ الكاف في «كذا» كذلك. قال أبو عليّ: مثل هذا في أنّه دخل على المبتدأ حرف الجرّ، فصار مع المجرور في موضع رفع، قولهم:

بحسبك أن تفعل كذا، يريدون: حسبك فعل كذا. فالجارّ مع المجرور في موضع رفع. وأنشد أبو زيد:

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا ... بِأَنَّكَ فيهِمْ غَنِيٌّ مُضَر

وأكثر العرب تستعملها مع «من»، وكذلك ما جاء في التنزيل، وممّا جاء منه في الشعر قوله:[١]

وَكَائِنْ بالأباطِحِ مِنْ صَدِيقٍ ... يَرَانِي إنْ أُصِبْتُ هُوَ الْمُصابا[١]

وقول الآخر:

وَكَائِنْ إِلَيْكُمْ قَادَ مِنْ رَأْسِ فِتْنَةٍ ... جُنُوداً، وَأَمْثَالُ الْجِبَالِ كَتَائِبُهُ[٢]

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال المطلّقة في النفقة والسكنى، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي: في بيوتكم ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ من المساكن ﴿مِن وُجْدِكُمْ﴾ أي من ملككم، وما تقدرون عليه، ـ عن السدي، وأبي مسلم ـ. وقيل: هو من الوُجدان أي: ممّا تجدونه من المساكن، ـ عن الحسن والجبائي ـ. وقيل: من سعتكم وطاقتكم من الوجد الذي هو المقدرة. قال الفرّاء: يعول على ما يجد، فإن كان موسعاً وسع عليها في المسكن والنفقة، وإنْ كان فقيراً، فعلى قدر ذلك. ويجب السكنى والنفقة للمطلّقة الرجعيّة بلا خلاف. فأمّا المبتوتة، ففيها خلاف: فذهب أهل العراق إلى أنّ لها السكنى والنفقة معاً، وروي ذلك عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود. وذهب الشافعي إلى أنّ لها السكنى بلا نفقة. وذهب الحسن وأبو ثور إلى أنّه لا سكنى لها، ولا نفقة، وهو المرويّ عن أئمّة الهدى عليهم السلام، وذهب إليه أصحابنا.

ويدلّ عليه ما رواه الشعبي قال: دخلت على فاطمة بنت قيس بالمدينة،

---

(١) يعني: يرى مصيبتي، ويشاركني في مصائبي. والابطح: مسيل فيه دقاق الحصى.

(٢) يعني: كم رأس فتنة قاد إليكم جيوشا، كل طائفة منها كالجبل.

[١] قائله: جرير.

فسألتها عن قضاء رسول الله ﷺ فقالت: طلّقني زوجي ألبتّة، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ في السكنى والنفقة، فمل يجعل لي سكنى ولا نفقة، وأمرني أنْ أعتدّ في بيت ابن أُمّ مكتوم.

وروي الزهريّ عن عبد الله أنّ فاطمة بنت قيس، كانت تحت أبي عمرو ابن حفص بن المغيرة المخزومي، وأنه خرج مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن، حين أمَّره رسول الله ﷺ على اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة، كانت بقيت لها من طلاقها، فأمر عياش بن أبي ربيعة، والحرث بن هاشم [هشام] أنْ ينفقا عليها فقالا: والله ما لك من نفقة، فأتت النبيّ ﷺ فذكرت له قولهما، فلم يجعل لها نفقة إلّا أنْ تكون حاملاً. فاستأذنته في الإنتقال، فأذن لها فقالت: أنّى أنتقل يا رسول الله؟ قال: عند ابن أُمّ مكتوم، وكان أَعمى، تضع ثيابها عنده، ولا يراها، فلم تزل هناك حتى مضت عدّتها، فأنكحها النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد. قال: فأرسل إليها مروان بن الحكم قبيصة بن ذؤيب، فسألها عن هذا الحديث، ثمّ قال مروان: لمن [لم] نسمع هذا الحديث إلّا من امرأة، وسنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها! فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: بيني وبينكم القرآن. قال الله تعالى: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّ اللهُ يَحْدِثُ بَعْدُ ذَلِكَ أَمْراً﴾ قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، وأيّ أمر يحدث بعد الثلاث.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي: لا تدخلوا الضرر عليهنّ بالتقصير في السكنى، والنفقة، والكسوة، طالبين بالإضرار التضييق عليهنّ ليخرجن. وقيل: المعنى أعطوهنّ من المسكن ما يكفيهنّ لجلوسهنّ، ومبيتهنّ، وطهارتهنّ، ولا تضايقوهنّ حتى يتعذّر عليهنّ السكنى، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَإِن كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ﴾ أي: كنّ حوامل ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لأنّ عدّتهنّ إنّما تنقضي بوضع حملهنّ. أمر الله سبحانه بالإنفاق على

المطلّقة الحامل، سواء كانت رجعيّة أو مبتوتة.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: فإن أرضعن الولد لأجلكم بعد البينونة، فأعطوهنّ أجر الرضاع يعني: أجرة المثل ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للرجل والمرأة. والإئتمار: قبول الأمر وملاقاته بالتقبّل. أمر الله تعالى المرضعة والمرضع له بالتلقّي لأمره، عزّوجلّ، ولأمر[ه] صاحبه إذا كان حسناً. وقيل: معناه: وليأمر بعضكم بعضاً بالجميل في إرضاع الولد أي: بتراضي الوالد والوالدة بعد وقوع الفرقة في الأجرة على الأب، وإرضاع الولد بحيث لا يضرّ بمال الوالد، ولا بنفس الولد، ولا يزاد على الأجر المتعارف، ولا ينقص الولد عن الرضاع المعتاد. قال الكسائي: أصله: التشاور. ومنه: ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون. والأقوى عندي أن يكون المعنى دبّروا بالمعروف بينكم في أمر الولد، ومراعاة أُمّه، حتى لا يفوت الولد شفقتها، وغير ذلك. ويدلّ عليه قول امرىء القيس:

أَحَارِبْنَ عَمْرٍو، كَأَنّي خَمِرْ ... وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَايَأْتَمِرْ[1]

يعني: ما يدبّره في نفسه؛ لأنّ الرجل بما دبَّر أمراً ليس برشد، فيعدو عليه ويهلكه.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ والمعنى: فإن اختلفتم في الرضاع وفي الأجر، فسترضع له امرأة أُخرى أَجنبيّة أي: فليسترضع الوالد غير والدة الصبيّ.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ﴾ أمر سبحانه أهل التوسعة أنْ يوسعوا على نسائهم المرضعات أولادهنّ على قدر سعتهم ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي:

---

(١) حار: مرخّم «حارث». وخمر: من أصابه الخمار. ويعدو على المرء أي: ينزل به.

ضيق عليه ﴿رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ والمعنى: ومن كان رزقه بمقدار القوت، فلينفق على قدر ذلك، وعلى حسب إمكانه وطاقته ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ أي: إلّا بقدر ما أعطاها من الطاقة. وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه لا يكلّف أحداً ما لا يقدر عليه، وما لا يطيقه.

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ أي: بعد ضيق سعة، وبعد فقر غنى، وبعد صعوبة الأمر سهولة. وفي هذا تسلية للصحابة، فإنّ الغالب على أكثرهم في ذلك الوقت الفقر. ثمّ فتح الله تعالى عليهم البلاد، فيما بعد.

﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: وكم من أهل قرية عتوا على الله وعلى أنبيائه، يعني: جاوزوا الحدَّ في العصيان والمخالفة.

﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ بالمناقشة والإستقصاء باستيفاء الحقّ وإيفائه. قال مقاتل: حاسبها الله تعالى بعملها في الدنيا، فجازاها بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾ فجعل المجازاة بالعذاب محاسبة وهو عذاب الإستئصال. وقيل: هو عذاب النار. فإنّ اللفظ ماض بمعنى المستقبل. والنكر: المنكر الفظيع الذي لم ير مثله. وقيل: إنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: فعذَّبناها في الدنيا بالجوع، والقحط، والسيف، وسائر المصائب والبلايا، وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً. وقيل: الحساب الشديد، هو الذي ليس فيه عفو.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: ثقل عاقبة كفرها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ أي: خسراناً في الدنيا والآخرة. وهو قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني: عذاب النار. وهذا يدلُّ على أنّ المراد بالعذاب الأوّل عذاب الدنيا. ثمّ قال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يا أصحاب العقول، ولا تفعلوا مثل ما فعل أُولئك، فينزل بكم مثل ما نزل بهم.

ثمّ وصف أُولي الأَلباب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وخصَّ المؤمنين بالذكر؛ لأنّهم المنتفعون بذلك دون الكفّار. ثمّ ابتدأ سبحانه، فقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن. وقيل: يعني: الرسول، ـ عن الحسن. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

النظم: الوجه في اتّصال قوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ الآية بما قبله: أنّه سبحانه بيّن أنّ الخوف في مقابلة الرجاء، وسبيل العاقل أن يحترز من المخوف، ويقدم الإحتراز من الخوف على الرجاء، والذي يقوي جانب الخوف أنّه أهلك الأُمم الماضية بسبب عصيانها، وتمرّدها عن أمر ربّها.

رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ[1] لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة والشام: «ندخله» ـبالنون ـ. والباقون: بالياء؛ لتقدّم الإسم على لفظ الغيبة، والنون معناها معنى الياء.

الإعراب: ﴿رَسُولًا﴾: ينتصب على ثلاثة أَوجه: أحدها: أنْ يكون بدلاً من ﴿ذِكْرًا﴾ بدل الكل من الكل. فعلى هذا يجوز أن يكون «الرسول» جبرائيل عليه السلام،

---

(١) وقرأ «مبيَّنات» ـبفتح الياء ـ الحرميان وأبو عمرو وأبو بكر.

ويجوز أَنْ يكون محمّداً ﷺ. والثاني: أن يكون مفعول فعل محذوف، تقديره: أرسل رسولاً. ويدلّ على إضماره قوله: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ . فعلى هذا يكون «الرسول» معناه: محمّداً ﷺ. والثالث: أَنْ يكون مفعول قوله: ﴿ذِكْراً﴾ ويكون تقديره: أنزل الله إليكم أنْ ذكر رسولاً، ويكون الرسول يحتمل الوجهين.

المعنى: ﴿رَسُولاً﴾ إذا كان المراد به الوجه الأوّل، وهو أنْ يكون بدلاً من «ذكراً» والمراد به: النبيّ ﷺ، أو جبرائيل عليه السلام، فيجوز أن يكون المراد بالذكر: الشرف أي: ذا ذكر رسولاً ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: من ظلمات الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: نور الإيمان. وقيل: من ظلمات الجهل إلى نور العلم. وإنّما شبّه الإيمان بالنور؛ لأنّه يؤدّي إلى نور القبر والقيامة والجنّة. وشبّه الكفر بالظلمة؛ لأنّه يؤدّي إلى ظلمة القبر، وظلمة جهنّم.

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾ أي: يعطيه أحسن ما يعطي أحداً، وذلك مبالغة في وصف نعيم الجنّة.

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: وخلق من الأرض مثلهنّ في العدد، لا في الكيفيّة؛ لأنّ كيفيّة السماء مخالفة لكيفيّة الأرض. وليس في القرآن آية تدلّ على أنّ الأرضين سبع مثل السماوات إلّا هذه الآية. ولا خلاف في السماوات أنّها سماء فوق سماء. وأمّا الأرضون، فقال قوم: إنّها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض كالسماوات؛ لأنّها لو كانت مصمتة لكانت أرضاً واحدة. وفي كل أرض خلق، خلقهم الله كما شاء.

وروي أبو صالح عن ابن عبّاس، أنّها سبع أرضين، ليس بعضها فوق بعض، يفرق بينهنّ البحار، ويظل جميعهنّ السماء، والله سبحانه أعلم بصحّة ما استأثر بعلمه، واشتبه على خلقه(١).

وقد روي العياشي بإسناده، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: بسط كفه، ثمّ وضع اليمنى عليها، فقال: هذه الأرض الدنيا، والسماء الدنيا عليها قبّة. والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة. حتى ذكر الرابعة، والخامسة، والسادسة، فقال: والأرض السابعة فوق السماء السادسة، والسماء السابعة فوقها قبة. وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ وإنّما صاحب الأمر النبيّ صلى الله عليه وآله، وهو على وجه الأرض، وإنّما يتنزّل الأمر من فوق [مَن] بين السماوات والأرضين. فعلى هذا يكون المعنى: تتنزل الملائكة بأوامره إلى الأنبياء. وقيل: معناه: يتنزّل الأمر بين السماوات والأرضين من الله سبحانه، بحياة بعض، وموت بعض، وسلامة حيّ، وهلاك آخر، وغنى إنسان، وفقر آخر، وتصريف الأُمور على الحكمة ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بالتدبير في خلق السماوات والأرض.

---

(١) ومع ذلك فقول ابن عبّاس أقرب إلى الاعتبار، فإنّ الظاهر أنّ الله تعالى احتجّ على الناس بما يعرفون، وكان المعروف عندهم أنّ السماوات للسيّارات سبع، والأرض على سبعة أقاليم، ولم يكن الأقاليم طبقات، بعضها فوق بعض، بل كانت متجاورة بعضها إلى جنب بعض، فاحتجّ الله تعالى عليهم بأنّكم تعترفون بهذه، فاعلموا أنّ خالقها الله عزّ وجلّ وأمّا رواية العياشي، فهي تنطبق على ما يعتقد أهل عصرنا، من أنّ كلّ سيارة بمنزلة أرض، يحيط بها جوّ السماء، وكل سماء الفضاء، المحيط الذي تجري السيّارة فيه.

والإستدلال بذلك على أنّ صانعهما قادر لذاته، عالم لذاته، وذلك قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمَاً﴾ ومعناه: إنّ معلوماته متميّزة له، بمنزلة ما قد أحاط به، فلم يفته شيء منها. وكذلك قوله: ﴿وَلا يُحِيطونَ بِهِ عِلْماً﴾ معناه: إنّه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه، فيكون كأنّه قد أحاط به.

سورة التحريم

مدنيّة، اثنتا عشرة آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لِك﴾ أعطاه الله توبة نصوحاً».

تفسيرها: لمّا تقدّم في تلك السورة أحكام النساء في الطلاق وغيره، افتتح سبحانه هذه السورة بأحكامهنّ أيضاً، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا

فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

القراءة: قرأ الكسائي وحده: «عرف» ـ بالتخفيف ـ. والباقون: ﴿عَرَّفَ﴾ ـ بالتشديد ـ. واختار التخفيف أبو بكر بن عياش، وهو من الحروف العشر التي قال: إنّي أدخلتها في قراءة عاصم من قراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حتى استخلصت قراءته، يعني قراءة عليّ عليه السلام، وهي قراءة الحسن، وأبي عبد الرحمن السلمي. وكان أبو عبد الرحمن إذا قرأ انسان بالتشديد، حصبه. وقرأ أهل الكوفة ﴿تُظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ ـ خفيفة الظاء ـ. والباقون: «تظّاهرا» ـ بالتشديد ـ[1].

الحجة: قال أبو عليّ: التخفيف في «عرف» أنّه جازى عليه لا يكون إلّا كذلك، ولا يجوز أن يكون بمعنى «العلم» لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله إذا أظهره الله على ما كان

---

(١) يقف البزي في بعض الروايات على «لِمَ» بهاء السكت، واتّفقوا على كتابة «مرضات» ـ بالتاء ـ ووقف الكسائي وحده عليها بالهاء، والباقون: بالتاء. وتفرّد الكسائي بإمالة «مرضات» أيضاً، مع عدم كونه يائيّا. وأدغم «فقد صغت» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي. وأدغم «طلقكنّ» أبو عمرو يخلفه [بخلفه]. وقرأ «يبدله» بصيغة التفعيل نافع وأبو عمرو. ويستفاد من كلام أبي بكر بن عياش أنّ قراءة عاصم ـ وهي القراءة المعروفة المتداولة ـ هي قراءة أمير المؤمنين عليه السلام، إلّا في عشر كلمات أضافها أبو بكر إليها. وقال العلّامة في التذكرة: إنّ هذا المصحف الموجود الآن، هو مصحف عليّ عليه السلام.

أسرَّه إليه، علم ذلك، ولم يجز أن يعلم من ذلك بعضه، مع إظهار الله إيّاه عليه، ولكن يعلم جميعه. وهذا كما تقول لمن يسيء أو يحسن: أنا أَعرف لأهل الاحسان وأعرف لأهل الإساءة أي: لا يخفى عليّ ذلك، ولا مقابلته ممّا يكون وفقاً له. فالمعنى جازى على بعض ذلك، وأعرض [أغضى] عن بعض. ومثله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهَ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ﴾ أي: يرى جزاءه. قوله: يرى، من رؤية العين. وكان ممّا جازى عليه تطليقه حفصة تطليقة واحدة. وأمّا ﴿عَرَّفَ﴾ بالتشديد ـ فمعناه: عرف بعضه، وأعرض عن بعض، فلم يعرفه إيّاه على وجه التكرّم والإغضاء. وأمّا «تظاهرا» فالأصل فيه تتظاهرا ـ بتاءَين ـ فخفّف في القراءة الأُولى بالحذف، وفي القراءة الأخرى بالإدغام.

(اللغة): الحرام: القبيح الممنوع منه بالنهي. ونقيضه: الحلال، وهو الحسن المطلق بالإذن فيه. والتحريم: تبيين أنّ الشي حرام لا يجوز. والتحريم: إيجاب المنع.

والإبتغاء: الطلب. ومنه: البغي: طلب الإستعلاء بغير الحقّ. والتحلّة والتحليل بمعنى، وهما مصدران لقولهم: حللت له كذا. وتحلّة اليمين: فعل ما يسقط التبعة فيه. واليمين: واحد الأيمان، وهو الحلف، وكأنّه مأخوذ من القوّة؛ لأنّه يقوّي كلامه بالحلف. وقيل: إنّه مأخوذ من الجارحة؛ لأنّ عادتهم كانت عند الحلف ضرب الأيدي على الأيدي.

والإسرار: إلقاء المعنى إلى نفس المحدث على وجه الإخفاء عن غيره.

والتظاهر: التعاون. والظهير: المعين. وأصله من الظهر.

والسائح: الجاري، والعرب تصف بذلك الماء الجاري الدائم الجرية. ثمّ تصف به الرجل الذي يضرب في الأرض، ويقطع البلاد فتقول: سائح وسيّاح.

والثيّب: الراجعة من عند الزوج بعد الإفتضاض، من ثاب يثوب: إذا رجع.

والبكر: هي التي على أوّل حالها قبل الإفتضاض.

﴿الإعراب﴾: قيل في جمع «القلوب» في قوله: ﴿صَغَتْ قُلُوبَكُمَا﴾ وجوه: أحدها: إنّ التثنية جمع في المعنى، فوضع الجمع موضع التثنية، كما قال: ﴿وَكنا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ . وإنّما هو داود وسليمان، والثاني: إنّ أكثر ما في الإنسان اثنان اثنان نحو: اليدين، والرجلين، والعينين. وإذا جمع اثنان إلى اثنين، صار جمعاً. فيقال: أيديهما وأعينهما. ثمّ حمل ما كان في الإنسان واحداً على ذلك؛ لئلّا يختلف حكم لفظ أعضاء الإنسان. والثالث: إنّ المضاف إليه مثنّى، فكرهوا أنْ يجمعوا بين تثنيتين، فصرفوا الأوّل منهما إلى لفظ الجمع؛ لأنّ لفظ الجمع أخفّ؛ لأنّه أشبه بالواحد، فإنّه يعرب بإعراب الواحد، ويستأنف كما يستأنف الواحد. وليست التثنية كذلك؛ لأنّها لا تكون إلّا على حدّ واحد، ولا يختلف. ومن العرب من يثنّي فيقول: قلباهما. قال الراجز، فجمع بين اللغتين: «ظَهْراهُمَا مِثْلُ ظُهُورِ التُرْسَيْن»[1] وقال الفرزدق:

بِمَا في فُؤادَيْنا مِنَ الْبَثِّ وَالْهَوىٰ فَيَبْرَأُ مُنْهاضُ الْفُؤادِ الْمُشَغَّفُ[2]

ومن العرب من يفرد، ويروي أنّ بعضهم قرأ: «فبدت لها سَوْأتهما» والوجه في الإفراد: إنّ الإضافة إلى التثنية، تغني عن تثنية المضاف.

وفي «جبريل» أربع لغات: جبريل على وزن «قنديل». وجبرئيل على وزن «عندليب». وجبرئل على وزن «حجمرش». وَجبرِيل ـ بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز ـ، وهو خارج عن أوزان العرب؛ لأنّه ليس في العربيّة مثل: قنديل. وقد قرىء بذلك كله. وقد ذكرنا اختلاف القراءة فيه في سورة البقرة. ومن العرب من

---

(١) يشبه ظهر البادية بظهر الترس.

(٢) البثّ: الحزن. والمنهاض، من باب الانفعال. وهاض العظم: كسره بعد الجبر. والمشغّف: الذي وصل الحزن شغافه. والشغاف: غلاف القلب.

يقول جبرالّ ـ بتشديد اللام ـ. ومنهم من يبدل من اللام نوناً.

وقوله: ﴿هُوَ مَولاهُ﴾ يجوز في ﴿هُوَ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون فصلاً، دخل ليفصّل بين النعت والخبر، والكوفيّون يسمّونه عماداً. والثاني: أن يكون مبتدأ، و﴿مَوْلاهُ﴾ الخبر. والجملة خبر «إنّ». ومن جعل ﴿مَوْلاهُ﴾ بمعنى: السيّد والخالق، كان الوقف على قوله: ﴿مَوْلاهُ﴾. و﴿جِبْرِئِيلَ﴾ : مبتدأ. ﴿وَصَالِحَ المُؤْمِنِينَ﴾: عطف عليه. ﴿وَالْمَلائِكَة﴾ : عطف أيضاً. و ﴿ظَهِيرَ﴾ : خبره. وجاز ذلك؛ لأنّ فعيلاً يقع على الواحد والجمع كفعول. قال سبحانه: ﴿خَلَصُوا نَجِيّاً﴾. فظهير كنجي.

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ . ومن جعل «مولاه» بمعنى: ولي وناصر، جاز أن يكون الوقف على قوله: ﴿وَجِبْرِئِيلَ﴾ ، وعلى ﴿صَالِحَ المُؤْمِنِينَ﴾. ويبتدىء ﴿وَالمَلائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ . فيكون ﴿ظَهِيرٌ﴾ عائداً إلى ﴿المَلائِكَةِ﴾.

﴿النَّزُولِ﴾: اختلف أقوال المفسّرين في سبب نزول الآيات، فقيل: إنّ رسول الله ﷺ كان إذا صلّى الغداة، يدخل على أزواجه امرأة امرأة. وكان قد أُهديت لحفصة، بنت عمر بن الخطاب عكة من عسل[١]. فكانت إذا دخل عليها رسول الله ﷺ حبسته وسقته منها. وإنّ عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويرية حبشيّة عندها: إذا دخل رسول الله ﷺ على حفصة، فادخلي عليها، فانظري ماذا تصنع. فأخبرتها الخبر، وشأن العسل، فغارت عائشة، وأرسلت إلى صواحبها، فأخبرتهنّ وقالت: إذا دخل عليكنّ رسول الله ﷺ فقلن: إنّا نجد منك ريح المغافير، وهو صمغ العرفط، كريه الرائحة. وكان رسول الله ﷺ يكره، ويشقّ عليه أن يوجد منه ريح غير طيّبة؛ لأنّه يأتيه الملك.

---

[١] العكة: وعاء أصغر من القربة.

قال: فدخل رسول الله على سَودة، قالت: فما أردت أنْ أقول ذلك لرسول الله ﷺ ثمّ إنّي فرقت من عائشة، فقلت: يا رسول الله! ما هذه الريح التي أجدها منك أكلت المغافير؟ فقال: لا، ولكن حفصة سقتني عسلاً. ثمّ دخل على امرأة امرأة، وهنَّ يقلن له ذلك، فدخل على عائشة، فأخذت بأنفها، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أجد ريح المغافير، أكلتها يا رسول الله؟ قال: لا، بل سقتني حفصة عسلاً. فقالت: جَرَسَت[١] إذاً نحلُها العرفطَ. فقال: والله لا أطعمه أبداً. فحرَّمه على نفسه. وقيل: إنّ التي كانت تسقي رسول الله ﷺ العسل، أمّ سلمة، ـ عن عطاء بن أبي مسلم ـ. وقيل: بل كانت زينب بنت جحش. قالت عائشة: إنّ رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة أيَّتنا دخل عليها النبيّ ﷺ فلتقل: إنّي أجد منك ريح المغافير، أكلت مغافير. فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود إليه، فنزلت الآيات.

وقيل: إنّ رسول الله ﷺ قسّم الأيّام بين نسائه، فلمّا كان يوم حفصة، قالت: يا رسول الله! إنّ لي إلى أبي حاجة، فائذن لي أنْ أزوره. فأذِن لها. فلمّا خرجت، أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريته مارية القبطية، وكان قد أهداها له المقوقس، فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها، فأتت حفصة. فوجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب. فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطر عرقاً. فقالت حفصة: إنّما أذنت لي من أجل هذا! أدخلت أمّتك بيتي، ثمّ وقعت عليها في يومي، وعلى فراشي. أما رأيت لي حرمة وحقّاً؟! فقال ﷺ: أليس هي جاريتي، قد أحلَّ الله ذلك لي، أُسكتي فهو حرام عليَّ، أَلتمس بذلك رضاك، فلا تخبري بهذا امرأة منهنّ،

---

[١] جرس الشيء: لحسه بلسانه.

وهو عندك أمانة.

فلمّا خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة، فقالت: ألا أُبشّرك أنّ رسول الله قد حرَّم عليه أمته مارية، وقد أراحنا الله منها. وأخبرت عائشة بما رأت، وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواجه، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ فطلَّق حفصة، واعتزل سائر نسائه تسعة وعشرين يوماً، وقعد في مشربة أُمّ إبراهيم مارية حتى نزلت آية التخيير، ـ عن قتادة، والشعبي، ومسروق ـ.

وقيل: إنّ النبيّ ﷺ خلا في يوم لعائشة مع جاريته أمّ إبراهيم مارية القبطية، فوقفت حفصة على ذلك، فقال لها رسول الله ﷺ: لا تعلمي عائشة ذلك، وحرَّم مارية على نفسه. فأَعلمت حفصة عائشة الخبر، واستكتمتها إيّاه، فأطلع الله نبيّه ﷺ على ذلك، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ يعني: حفصة، عن الزجّاج، قال: ولمّا حرّم مارية القبطية، أخبر حفصة أنّه يملك من بعده أبو بكر، ثمّ عمر، فعرفها بعض ما أفشت من الخبر، وأعرض عن بعض أنّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي. وقريب من ذلك ما رواه العياشي، بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكّي، عن أبي جعفر عليه السلام إلّا أنّه زاد في ذلك: انّ كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك، فعاتبهما رسول الله ﷺ في أمر مارية، وما أفشتا عليه من ذلك، وأعرض من [عن] أنْ يعاتبهما في الأمر الآخر.

المعنى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ناداه سبحانه بهذا النداء تشريفاً له، وتعليماً لعباده، كيف يخاطبونه في أثناء محاوراتهم، ويذكرونه في خلال كلامهم ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ من الملاذّ.

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ أي: تطلب به رضاء نسائك، وهنّ أحقّ بطلب مرضاتك منك. وليس في هذا دلالة على وقوع ذنب منه، صغير أو كبير؛ لأنّ

تحريم الرجل بعض نسائه، أو بعض الملاذّ، لسبب أو لغير سبب، ليس بقبيح، ولا داخلاً في جملة الذنوب، ولا يمتنع أنْ يكون خرج هذا القول مخرج التوجّع لهﷺ، إذا بالغ في إرضاء أزواجه، وتحمّل في [ذلك] المشقّة، ولو أنّ إنساناً أرضي [بعض نسائه بتطليق] بعضهنّ لجاز أنْ يقال له: لِمَ فعلت ذلك، وتحمّلت فيه المشقّة، وإنْ كان لم يفعل قبيحاً. ولو قلنا: إنّه عوتب على ذلك؛ لأنّ ترك التحريم كان أفضل من فعله، لم يمتنع؛ لأنّه يحسن أنْ يقال لتارك النفل: لِمَ لم تفعله؟ ولِمَ عدلت عنه؟ ولأنّ تطييب قلوب النساء ممّا لا تنكره العقول. وقد حكي أنّ عبد الله بن رواحة ـ وكان من النقباء ـ كانت له جارية، فاتّهمته زوجته ليلة، فقال قولاً بالتعريض [بالتعرض]، فقالت: إنْ كنت لم تقربها فاقرأ القرآن. قال فأنشدت:

شَهِدْتُ فَلَمْ أَكْذِبْ بِأَنَّ مُحَمَّداً
رَسُولُ الَّذي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عَلُ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيىٰ، وَيَحْيىٰ، كِلاٰهُما
لَهُ عَمَلٌ في دِينِهِ مُتَقَبَّلٌ
وَأَنَّ الَّتي بِالْجَزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ
وَمَنْ دانَها، فِلٌّ [قُلٌّ] عَنِ الْخَيْرِ مَعْزَلُ[1]

فقالت: زدني، فأنشدت:

وَ فِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْلُو كِتَابَهُ
كَمَا لَاحَ مَعْرُوفٌ مَعَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ
أَتَى بِالْهُدىٰ بَعْدَ الْعَمىٰ فَنُفُوسُنا
بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعٌ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ
إِذَا رَقَدَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ

فقالت: زدني، فأنشدت:

---

(١) الظاهر أنّه لفّق أمورا غير مرتبطة مزاحاً. والجزع وبطن نخلة: موضعان.

شَـــهِدْتُ بِأَنَّ وَعْـــدَ اللهِ حَـــقٌّ وأنّ النَّـــارَ مَـــثْوَى الْكـــافِرِينا
وَأَنَّ مُـــــحَمَّداً يَـــدْعُو بِـــحَقٍّ وأَنَّ اللهَ مَـــــوْلَى الْـــــمُؤْمِنِينا

فقالت: أمّا إذا قرأت القرآن فقد صدقتك[1]. فأخبرت به رسول الله ﷺ فقال بعد أن تبسّم: «خيركم خَيُركم لنسائه». واختلف العلماء فيمن قال لامرأته: «أنت عليَّ حرام».

فقال مالك: هو ثلاث تطليقات. وقال أبو حنيفة: إن نوى بـه الظـهار فـهو ظهار، وإن نوى الإيلاء فهو إيلاء، وإن نوى الطلاق فهو طلاق بائن، وإن نوى ثلاثاً كان ثلاثاً، وإن نوى اثنتين فواحدة بائنة، وإن لم يكن له نيّة فهو يمين.

قال الشافعي: إن نوى الطلاق كان طلاقاً، والظهار كان ظهاراً، وإن لم يكن له نيّة فهو يمين. وروي عن ابن مسعود وابن عبّاس وعـطاء أنّـه يـمين، وقـال أصحابنا: إنّه لا يلزم به شيء، ووجوده كعدمه، وهو قول مسروق. وإنّما أوجب الله فيه الكفّارة؛ لأنّ النبيّ ﷺ كان حلف أن لا يقرب جاريته، ولا يشرب الشراب المذكور. فأوجب الله عليه أن يكفّر عن يمينه، ويعود إلى استباحة ما كان حرّمه، وبيّن أنّ التحريم لا يحصل إلّا بأمر الله ونهيه، ولا يصير الشيء حراماً بتحريم من يحرّمه على نفسه، إلّا إذا حلف على تركه.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم إذا رجعوا إلى ما هو الأولى والأليـق بالتقوى يرجع لهم إلى التولّي.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: قد قدر الله تعالى لكم ما تحلّلون به أيمانكم إذا فعلتموها، وشرع لكم الحنث فيها؛ لأنّ اليمين ينحلُّ بالحنث، فسمّي

---

(١) زعمت أنّ الإشعار من آيات القرآن، واعتقدت أنّ زوجها لم يكن جنبا، ولم يجامع جاريته، ولذلك قرأ القرآن. وقوله: كما لاح معروف: تشبيه للكتاب بنجم معروف لاح في الصبح.

ذلك تحلّة. وقيل: معناه: قد بيّن الله كفّارة أيمانكم في سورة المائدة، عن مقاتل، قال: أمر الله نبيَّه أن يكفّر يمينه، ويراجع وليدته، فأعتق رقبة، وعاد إلى مارية[1].

وقيل: معناه: فرض الله عليكم كفّارة أيمانكم، كما قال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها. فسمّى الكفّارة «تحلّة»؛ لأنّها تجب عند انحلال اليمين. وفي هذا دلالة على أنّه قد حلف، ولم يقتصر على قوله: هي عليَّ حرام؛ لأنّ هذا القول ليس بيمين.

﴿وَاللهُ﴾ هو ﴿مَوْلاكُمْ﴾ أي: وليّكم، يحفظكم وينصركم، وهو أولى بكم، وأولى بأن تبتغوا رضاه ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالحكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أوامره ونواهيه لكم. وقيل: هو العليم بما قالت حفصة لعائشة الحكيم في تدبيره.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حفصة ﴿حَدِيثاً﴾ أي: كلاماً أمرها بإخفائه فالإسرار نقيض الإعلان ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ أي: أخبرت غيرها بما خبرها ﴿بِهِ﴾ فأفشت سرَّه ﴿وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلع الله نبيَّه ﷺ على ما جرى من إفشاء سرّه.

﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ أي: عرف النبيّ ﷺ حفصة بعض ما ذكرت، وأخبرها ببعض ما ذكرت، او أعرض عن بعض ما ذكرت، وعن بعض ما جرى من الأمر، فلم يخبرها. وكان ﷺ قد علم جميع ذلك؛ لأنّ الإعراض إنّما يكون بعد المعرفة، لكنّه أخذ بمكارم الأخلاق، والتغافل من خلق الكرام. قال الحسن: ما استقصى كريم قط. وأما «عرف» ـ بالتخفيف ـ فمعناه: غضب عليها

---

(١) تدلّ الآية على جواز نقض اليمين، إذا كفّر و ليس محرماً، وقد مرّ أنّ اليمين على فعل المحرم، وترك الواجب لاينعقد، وكذلك المستحب والمكروه، ولا يجب على الحالف [الوفاء] إلّا في الايلاء على ترك وطي الزوجة، فينعقد مع وجوب الوطئ، فإذا عقد اليمين، ووقعت صحيحة ـ كما في المباحات الراجحات ـ لزم في حنثها الكفّارة، وما ورد أنّه يجوز ترك كلّ يمين لرجحان دينيّ ودنيويّ بلا كفّارة، فقد مرّ أنّه ليس على إطلاقه؛ إذ يلزم منه نفي تشريع الكفّارة.

وجازاها، بأن طلَّقها تطليقة، ثمّ راجعها بأمر الله. وقيل: جازاها بأن هَمَّ بطلاقها.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي: فلمّا أخبر رسول الله ﷺ حفصة بما أظهره الله عليه ﴿قَالَتْ﴾ حفصة ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هٰذَا﴾ أي: من أخبرك بهذا ﴿قَالَ﴾ رسول الله ﷺ: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الأُمور ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بسرائر الصدور.

ثمّ خاطب سبحانه عائشة وحفصة، فقال: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ﴾ من التعاون على النبيّ ﷺ بالإيذاء والتظاهر عليه، فقد حقّ عليكما التوبة، ووجب عليكم [عليكما] الرجوع إلى الحقّ. ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ أي: مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ إلى الإثم، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد ـ. وقيل: معناه: ضاقت قلوبكما عن سبيل الإستقامة، وعدلت عن الثواب إلى ما يوجب الإثم. وقيل: تقديره: إن تتوبا إلى الله يقبل توبتكما. وقيل: إنّه شرط في معنى الأمر أي: توبا إلى الله فقد صغت قلوبكما.

﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي: وان تتعاونا على النبيّ ﷺ بالإيذاء، عن ابن عبّاس، قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: عائشة وحفصة. أورده البخاري في الصحيح.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ﴾ الذي يتولّى حفظه وحياطته ونصرته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً معين له، وناصر يحفظه ﴿وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: خيار المؤمنين، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: يعني: الأنبياء، ـ عن قتادة ـ. وقال الزجّاج: «صالح» هنا ينوب عن الجميع كما تقول: يفعل هذا الخير من الناس، تريد كل خير. قال أبو مسلم: هو صالحوا المؤمنين ـ على الجمع ـ. وسقطت الواو في المصحف لسقوطها في اللفظ. ووردت الرواية من طريق الخاصّ والعام أنّ المراد بصالح المؤمنين: أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو قول مجاهد. وفي كتاب شواهد التنزيل، بالإسناد عن سدير الصيرفي، عن أبي جعفر قال: لقد عرَّف رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أصحابه مرّتين، أمّا مرَّة، فحيث قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه». وأمّا الثانية فحيث

نزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. أخذ رسول الله ﷺ بيد عليّ عليه السلام فقال: أيّها الناس! هذا صالح المؤمنين. وقالت أسماء بنت عميس: سمعت أنّ النبيّ ﷺ يقول: ﴿وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عليّ ابن أبي طالب عليه السلام.

﴿وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد الله وجبريل وصالح المؤمنين، ـ عن مقاتل ـ. ﴿ظَهِيرٌ﴾ أي: أعوان للنبيّ ﷺ. وهذا من الواحد الذي يؤدّي معنى الجمع، كقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ أي: واجب من الله ربّه ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ يا معشر أزواج للنبي [النبيّ] ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: أصلح له منكنّ. ثمّ نعت تلك الأزواج، اللائي كان يبدله بهنّ لو طلّق نساءه، فقال: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي: مستسلمات لما أمر الله به ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي: مصدّقات لله ورسوله، مستحقّات للثواب والتعظيم. وقيل: مصدّقات في أفعالهنّ وأقوالهنّ.

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ولأزواجهنّ. وقيل: خاضعات متذلّلات لأمر الله تعالى. وقيل: ساكتات عن الخنا والفضول، ـ عن قتادة ـ. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوب. وقيل: راجعات إلى أمر الرسول، تاركات لمحاب أنفسهنّ. وقيل: نادمات على تقصير وقع منهنّ.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله تعالى بما تعبدهنّ به، من الفرائض والسنن على الإخلاص. وقيل: متذلّلات للرسول بالطاعة ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: ماضيات في طاعة الله تعالى. وقيل: صائمات، ـ عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك ـ. وقيل: مهاجرات، ـ عن ابن زيد، وأبيه زيد بن أسلم، والجبائي ـ. وإنّما قيل للصائم سائح؛ لأنّه يستمرّ في الإمساك عن الطعام، كما يستمرّ السائح في الأرض.

﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾[1] وهنّ الراجعات من عند الأزواج بعد افتضاضهنّ

---

(١) ليس ذكر «الثيب» في مقام الانعام والمنّة غير مناسب، كما قد يتوهّم؛ فإنّ «الثيب» تعرف ممّا يريده الرجال ما لا تعرفه الأبكار.

﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: عذارى لم يكن لهنّ أزواج.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ
ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ
أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ
وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ
عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا
مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ
قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ

وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ[1] عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

القراءة: قرأ حمّاد ويحيى عن أبي بكر: «نُصوحاً» ـ بضمّ النون ـ. والباقون: بفتح النون. وقرأ أهل البصرة وحفص: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ ـ بضمّ الكاف والتاء على الجمع ـ. والباقون: ﴿وَكتابه﴾ على الواحد ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: يشبه أن يكون «النُصوح» ـ بالضمّ ـ مصدراً، وذلك أنّ ذا الرمة قال:

أُحِبُّكِ حُبّاً خالَطَتْهُ نِصاحَةٌ وَإِنْ كنتِ إِحْدَى اللويّاتِ الفَوارِكِ[2]

فالنصاحة على «فِعالة»، وما كان على فعال من المصادر، فقد يكون منه الفعول نحو: الذهاب والذهوب. ويكون قد وصف بالمصدر نحو: عدل ورضا. قال أبو الحسن: نصحته في معنى صدقته، وتوبة نصوح أي صادقة. والفتح كلام العرب، ولا أعرف الضمّ.

وحجّة من قال: ﴿وَكُتُبِهِ﴾: أنّه في موضع جمع. ألاترى أنّها قد صدقت بجميع كتب الله تعالى. ومن قال: «وكتابه» أراد الكثرة والشياع، وقد يجيء ذلك في الأسماء المضافة، كما يجيء في الأسماء المفردة، كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوهَا﴾.

الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ مبتدأ. ﴿نُورُهُمْ﴾: مبتدأ ثاني. و ﴿يَسْعَى

---

(١) اتّفقوا على كتابة «امرأت» ثلاث مرّات، و«ابنت عمران» بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي.

(٢) لا تحب الزوج.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ : في موضع الخبر. والجملة خبر المبتدأ الأوّل.

وقوله: ﴿امرَأَة فِرْعَوْنَ﴾: تقديره: مثل امرأة فرعون، فحذف المضاف، وهو بدل من قوله: ﴿مَثَلاً﴾.

المعنى: لمّا أدّب سبحانه نساء النبيّ ﷺ، أمر عقيبه المؤمنين بتأديب نسائهم، فقال مخاطباً لهم: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا﴾ أي: احفظوا، واحرسوا، وامنعوا ﴿أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ والمعنى: قوا أنفسكم وأهليكم النار، بالصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعن اتّباع الشهوات. وقوا أهليكم النار، بدعائهم إلى الطاعة، وتعليمهم الفرائض، ونهيهم عن القبائح، وحثّهم على أفعال الخير. وقال مقاتل بن حيان: وهو أن يؤدّب الرجل المسلم نفسه وأهله، ويعلّمهم الخير، وينهاهم عن الشرّ، فذلك حقّ على المسلم أن يفعل بنفسه، وأهله، وعبيده، وإمائه، في تأديبهم وتعليمهم.

ثمّ وصف سبحانه النار التي حذَّرهم منها، فقال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ أي: حطب تلك النار الناس، وحجارة الكبريت، وهي تزيد في قوّة النار. وقد مرَّ تفسيره ﴿عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: غلاظ القلوب، لا يرحمون أهل النار، أقوياء يعني: الزبانية التسعة عشر وأعوانهم.

﴿لاَ يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي هذا دلالة على أنّ الملائكة الموكّلين بالنار، معصومون عن القبائح، لا يخالفون الله في أوامره ونواهيه. وقال الجبائي: إنّما عنى أنّهم لا يعصونه، ويفعلون ما يأمرهم به في دار الدنيا؛ لأنّ الآخرة ليست بدار تكليف، وإنّما هي دار جزاء. وإنّما أمرهم الله تعالى بتعذيب أهل النار، على وجه الثواب لهم، بأن جعل سرورهم ولذّاتهم في تعذيب أهل النار، كما جعل سرور المؤمنين ولذّاتهم في الجنّة.

ثمّ حكى سبحانه ما يقال للكفّار يوم القيامة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا

﴿تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ﴾ وذلك أنّهم إذا عذِّبوا يأخذون في الإعتذار، فلا يلتفت إلى معاذيرهم، ويقال لهم: لا تعتذروا اليوم، فهذا جزاء فعلكم، وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثمّ عاد سبحانه إلى خطاب المؤمنين في دار التكليف، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ ٱللَّهِ﴾ من معاصيه، وارجعوا إلى طاعته ﴿تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ أي: خالصة لوجه الله. وروي عكرمة عن ابن عبّاس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله! ما التوبة النصوح؟ قال: «أن يتوب التائب، ثمّ لا يرجع في ذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع».

وقال ابن مسعود: التوبة النصوح هي التي تكفّر كل سيّئة، وهو في القرآن. ثمّ تلا هذه الآية. وقيل: إنّ التوبة النصوح، هي التي يناصح الإنسان فيها نفسه بإخلاص الندم، مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبح. وقيل: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هي الصادقة الناصحة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هي أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن، ـ عن الكلبي [عن قتادة]ـ. وقيل: هي التوبة المقبولة، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاث: خوف أن لا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعة، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

وقيل: هي أن يكون الذنب نصب عينيه، ولا يزال كأنّه ينظر إليه. وقيل: هي من النصح، وهو الخياطة؛ لأنّ العصيان يخرق الدين، والتوبة ترقعه. وقيل: لأنّها جمعت بينه وبين أولياء الله، كما جمع الخياط الثوب، وألصق بعضه ببعض. وقيل: لأنّها أحكمت طاعته، وأوثقتها، كما أحكم الخياط الثوب وأوثقه.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ أي: يحطُّها عنكم، ويدخلكم الجنّة. وعسى من الله واجب. ثمّ قال:

﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: لا يعذّبهم الله بدخول النار، ولا يذلّهم بذلك، بل يعزّهم بإدخالهم الجنّة. وقيل: لا يخزي الله النبيّ أي: لا يشوره فيما يريده من الشفاعة، بل يشفعه في ذلك.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ مفسّر في سورة الحديد. وقال أبو عبد الله عليه السلام: يسعى أئمّة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم، حتى ينزلوهم منازلهم في الجنّة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ وهو في موضع نصب على الحال، تقديره: قائلين: ربّنا ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ وقيل: إنّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ مبتدأ، و﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ خبره. و ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ خبر آخر من ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [أ]وحال منهم. وفيه وجه آخر ذكرناه في الإعراب. وقيل: ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ معناه: وفّقنا للطاعة التي هي سبب النور ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر علينا معاصينا، ولا تهلكنا بها ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ من إطفاء نور المنافقين، وإثبات نور المؤمنين.

ثمّ خاطب سبحانه النبيّ صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالقتال والحرب ﴿وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ بالقول الرادع عن القبيح، لا بالحرب، إلّا أنّ فيه بذل المجهود، فلذلك سمّاه جهاداً. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قرأ: «جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ بِالْمُنَافِقِينَ» وقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقاتل منافقاً قطّ، إنّما كان يتألّفهم.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اشدد عليهم من غير محاباة. وقيل: أُشدد عليهم في إقامة الحدّ عليهم. قال الحسن: أكثر من يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون، فأمر الله تعالى أن يغلّظ عليهم في إقامة الحدّ ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ أي: مآل الكفّار والمنافقين ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المآل والمستقر.

ثمّ ضرب الله المثل لأزواج النبيّ حثّاً لهن [حالهنّ] على الطاعة، وبياناً لهنّ أنّ مصاحبة الرسول مع مخالفته لا تنفعهنّ، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا

﴿ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: نبيّين من أنبيائنا ﴿صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عبّاس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس: إنّه مجنون، وإذا آمن بنوح أحد، أخبرت الجبابرة من قوم نوح به. وكانت امرأة لوط تدلّ على أضيافه، فكان ذلك خيانتهما. وما بغت امرأة نبيّ قطّ، وإنّما كانت خيانتهما في الدين. وقال السدّي: كانت خيانتهما أنّهما كانتا كافرتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقال الضحّاك: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما، أفشتاه إلى المشركين.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً﴾ أي: ولم يغن نوح ولوط مع نبوّتهما عن امرأتيهما من عذاب الله شيئاً. ﴿وَقِيلَ﴾ أي: ويقال لهما يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلاَ ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ وقيل: إنّ اسم امرأة نوح «واغلة» واسم امرأة لوط «واهلة». وقال مقاتل: والغة ووالهة.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ﴾ وهي آسية بنت مزاحم. قيل: إنّها لمّا عاينت المعجز من عصا موسى، وغلبته السحرة، أسلمت. فلمّا ظهر لفرعون إيمانها، نهاها فأبت، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس. ثمّ أمر أن يلقى عليها صخرة عظيمة.

فلمّا قرب أجلها ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ فرفعها الله تعالى إلى الجنّة، فهي فيها تأكل وتشرب، ـ عن الحسن، وابن كيسان ـ. وقيل: إنّها أبصرت بيتاً في الجنّة من درة، وانتزع الله روحها، فأُلقيت الصخرة على جسدها، وليس فيه روح، فلم تجد ألماً من عذاب فرعون. وقيل: إنّها كانت تعذب بالشمس، وإذا انصرفوا عنها أظلّتها الملائكة، وجعلت ترى بيتها في الجنّة، ـ عن سلمان ـ.

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: دينه. وقيل: وجماعته ـ عن

ابن عبّاس ـ.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ من أهل مصر قالوا: قطع الله بهذه الآية طمع من ركب المعصية، رجاء أن يقطعه صلاح غيره، وأخبر أنّ معصية الغير، لا تضرّ من كان مطيعاً. قال مقاتل: يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح، وامرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم، وهو قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: منعت فرجها من دنس المعصية، وعفّت عن الحرام. وقيل: معناه: منعت فرجها من الأزواج، لم تبتغ زوجاً ولا غيره.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: فنفخ جبرائيل بأمرنا في جيبها من روحنا، ـ عن قتادة ـ. وقال الفرّاء: كل شقّ فهو فرج، وأحصنت فرجها منعت جيب درعها من جبرائيل. وقيل: نفخ جبرائيل في فرجها، وخلق الله منه المسيح، وهو الظاهر، ولذلك ذكَّره، وقال في سورة الأنبياء فيها. وعاد الضمير إلى «التي أحصنت فرجها». وقيل: معناه: خلقنا المسيح في بطنها، ونفخنا فيه الروح، حتى صار حيّاً. فالضمير في «فيه» يعود إلى المسيح.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي: بما تكلّم الله تعالى، وأوحاه إلى أنبيائه وملائكته. وقيل: صدقت بوعد الله ووعيده، وأمره ونهيه. ﴿وَكُتُبِهِ﴾ أي: وصدّقت بكتب الله المنزلة على أنبيائه مثل: التوراة والإنجيل. ومن وحَّد، فالمراد به: الإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ﴾ أي: المطيعين لله سبحانه، والدائمين على طاعته. ويجوز أن يكون من القنوت في الصلاة. ويجوز أن يريد بالقانتين: رهطها وعشيرتها الذين كانت مريم منهم، وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة، ولم يقل: من القانتات؛ لتغليب المذكَّر على المؤنَّث. وجاءت الرواية عن معاذ بن جبل قال:

دخل رسول الله ﷺ على خديجة، وهي تجود بنفسها، فقال: أكره ما نزل بك يا خديجة، وقد جعل الله في الكره خيراً كثيراً، فإذا قدمت على ضراتك، فاقرأيهنّ منّي السلام. قالت: يا رسول الله! ومن هنّ؟ قال: مريم ابنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وحليمة [حكيمة]، أو كليمة أُخت موسى. «شكّ الراوي». فقالت: بالرفاء والبنين[١]. وعن أبي موسى عن النبيّ ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد ﷺ».

---

[١] أي بالسكون والمأنينة من رفوت الرجل: إذا سكنته، أو بمعنى الإتفاق وحسن الإجتماع. يقال ذلك لمن تزوج امرأة.

سورة الملك

وتسمّى «سورة المنجية»؛ لأنّها تنجي صاحبها من عذاب القبر، وقد ورد به الخبر. وتسمّى الواقية؛ لما روي عن النبيّ ﷺ أنّها الواقية من عذاب القبر، وهي مكّيّة.

عدد آيها: إحدى وثلاثون آية مكّيّ والمدني الأخير، وثلاثون آية في الباقين.

اختلافها: آية واحدة، «قد جاءنا نذير» مكّي والمدني الأخير.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة «تبارك»، فكأنّما أحيا ليلة القدر». وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «وددت أن سورة تبارك الملك في قلب كل مؤمن» وعن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «انّ سورة من كتاب الله ما هي إلّا ثلاثون آية، شفعت لرجل، فأخرجته يوم القيامة من النار، وأدخلته الجنّة، وهي سورة تبارك».

وعن ابن مسعود قال: إذا وضع الميت في قبره، يؤتى من قبل رجليه، فيقال له: ليس لكم عليه سبيل؛ لأنّه قد كان يقوم بسورة الملك، ثمّ يؤتى من قبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل؛ لأنّه كان يقرأ بي سورة الملك. ثمّ قال: هي

المانعة من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب.

وروي الحسن بن محبوب، عن جميل بن صالح، عن سدير الصيرفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سورة المُلك هي المانعة، تمنع من عذاب القبر. وهي مكتوبة في التوراة سورة المُلك، ومن قرأها في ليلة، فقد أكثر وأطاب، ولم يكتب من الغافلين، وإنّي لأركع بها بعد العشاء الآخرة، وأنا جالس. وإنّ الذي كان يقرأها في حياته في يومه وليلته، إذا دخل عليه في قبره ناكر ونكير من قبل رجليه قالت رجلاه لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، قد كان هذا العبد يقوم عليَّ، فيقرأ سورة المُلك في كل يوم وليلة، فإذا أتياه من قبل جوفه قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، كأنّ هذا العبد وقد وعى سورة المُلك، وإذا أتياه من قبل لسانه، قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، قد كان هذا العبد يقرأ في كل يوم وليلة سورة المُلك.

أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ في المكتوبة، قبل أن ينام، لم يزل في أمان الله حتى يصبح، وفي أمانه يوم القيامة حتى يدخل الجنّة إن شاء الله.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه تلك السورة بأنّ الوصلة لا تنفع إلّا بالطاعة، وأصل الطاعة المعرفة والتصديق بالكلمات الإلهيّة، افتتح هذه السورة بدلائل المعرفة، وآيات الربوبيّة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾
الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن
تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
السَّعِيرِ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ حمزة والكسائي: «من تفوّت» ـ بتشديد الواو من غير ألف ـ. وهي قراءة الأعمش. والباقون: «تفاوت» ـ بالألف ـ[1].

الحجة: قال أبو الحسن: «تفاوت» أجود؛ لأنّهم يقولون: تفاوت الأمر، ولا يكادون يقولون: تفوّت الأمر. قال: وهي أظنّ لغة. قال سيبويه: قد يكون فاعل وفعّل بمعنى، نحو: ضاعف وضعّف، و«تفاعل» مطاوع فاعل، كما أنّ «تفعّل» مطاوع فعّل. فعلى هذا القياس يكون تفاعل وتفعّل بمعنى. وتفاوت وتفوّت بمعنى.

---

(١) أدغم «هل ترى» أبو عمرو وحمزة والكسائي. وأدغم «لقد زيّنّا» حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام، واختلف عن ابن ذكوان.

اللغة: تبارك: أصله من البرك، وهو ثبوت الطائر على الماء. والبركة: ثبوت الخير بنمائه.

وقوله: طباقاً: مصدر طوبقت طباقاً، فهي مطبق بعضها على بعض، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: هو جمع طبق مثل: جمل وجمال.

والتفاوت: الإختلاف والإضطراب. والفطور: الشقوق والصدوع من الفطر، وهو الشقّ الخاسىء الذليل الصاغر. وقيل: هو البعيد ممّا يريده منه. وقيل للكلب: اخسأ. والحسير من الإبل: المعيي الذي لا فضل فيه للسير. قال:

بِها جِيَفُ الْحَسْرىٰ، فَأَمّا عِظامُها فَبِيضٌ، وَأَمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ[1]

والسعير: النار المسعرة [المستعرة]. وأعتدنا: أصله: أعددنا أي: هيّأنا. فأبدلت الدال تاء.

الإعراب: ﴿الَّذي خَلَقَ﴾: بدل من ﴿الَّذي بِيَدِهِ المُلْكَ﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف. فعلى هذا الوجه يجوز الوقف على ما قبله. وعلى الوجه الأوّل لا يجوز.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ تعليق؛ لأنّ التقدير: ليبلوكم، فيعلم أيّكم أحسن عملاً. وارتفع «أيّ» بالإبتداء. وإنّما لم يعمل فيه ما قبله؛ لأنّه على أصل الإستفهام.

و﴿طِباقاً﴾: نصب على الحال إذا أردنا في «سماوات» معنى الألف واللام. وإن جعلناها نكرة كان «طباقاً» صفتها.

وقوله: ﴿كَرَّتَينِ﴾: منصوب على المصدر أي: رجعتين.

المعنى: أخبر سبحانه عن عظمته، وعلوّ شأنه، وكمال قدرته، فقال:

---

(١) يصف بريّة هلكت فيها المطايا، وبها جيفها. وحسرى: من حسرت أي: انقطعت في السير وكلّت.

﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعالى وجلّ عمّا لا يجوز عليه في ذاته وأفعاله، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: تعالى بأنّه الثابت الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: معناه: تعاظم بالحقّ من ثبوت الأشياء به؛ إذ لولاه لبطل كل شيء؛ لأنّه لا يصحّ سواه شيء إلّا وهو مقدوره، أو مقدور مقدوره الذي هو القدرة. وقيل: معناه: تعالىٰ بأنّ [مَن] جميعُ البكرات [البركات] منه، إلاّ أنّ هذا المعنى مضمر في الصفة، غير مصرّح به، وإنّما المصرّح به أنّه تعالىٰ باستحقاق التعظيم.

﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ والملك: هو اتّساع المقدور لمن له السياسة والتدبير، ومعناه: الذي هو المالك، وله الملك يؤتيه من يشاء، ويتصرّف فيه كما يشاء. وإنّما ذكر اليد تأكيداً؛ ولأنّ أكثر التصرّفات والعطايا باليد.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعام وانتقام. وقيل: معناه: إنّه قادر على كل شيء، يصحّ أن يكون مقدوراً له. وهو أخصّ من قولنا: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيم﴾؛ لأنّه لا شيء إلّا ويجب أن يعلمه؛ إذ لا شيء إلّا ويصحّ أن يكون معلوماً في نفسه. ولا يوصف سبحانه بكونه قادراً على ما لا يصحّ أن يكون مقدوراً في نفسه، مثل ما تقضي وقته ممّا لا يبقى.

ثمّ وصف سبحانه نفسه، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ﴾ أي: خلق الموت للتعبّد بالصبر عليه، والحياة للتعبّد بالشكر عليها. وقيل: خلق الموت للإعتبار، والحياة للتزوّد. وقيل: إنّما قدَّم ذكر الموت على الحياة؛ لأنّه إلى القهر أقرب، كما قدَّم البنات على البنين في قوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ الآية. وقيل: إنّما قدّمه؛ لأنّه أقدم، فإنّ الأشياء في الإبتداء كانت في حكم الأموات، كالنطفة والتراب، ثمّ اعترضت الحياة.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: ليعاملكم معاملة المختبر بالأمر والنهي، فيجازي كل عامل بقدر عمله. وقيل: ليبلوكم أيّكم أكثر للموت ذكراً، وأحسن له

استعداداً، وأحسن صبراً على موته، وموت غيره، وأيّكم أكثر امتثالاً للأوامر، واجتناباً عن النواهي في حال حياته. قال أبو قتادة: سألت النبيّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ما عنى به؟ فقال يقول: «أيّكم أحسن عقلاً، [ثمّ قال أتمّكم عقلا وأشدّكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلّكم تطوّعاً. وعن ابن عمر عن النبيّ ﷺ أنّه تلا قوله تعالى: «تبارك الذي بيده الملك» إلى قوله: «أيّكم أحسن عملا» ثمّ قال: أيّكم أحسن عقلاً] وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله». وعن الحسن: أيّكم أزهد في الدنيا، وأترك لها.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممّن عصاه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب إليه، أو لمن أراد التفضّل عليه بإسقاط عقابه. والتكليف إنّما يصحّ بالترغيب والترهيب؛ لأنّ معناه: تحمّل [تحميل] المشقّة في الأمر والنهي.

ثمّ عاد سبحانه إلى وصف نفسه، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ﴾ أي: أنشأهنّ واخترعهنّ ﴿طِبَاقاً﴾ واحدة فوق الأُخرى. وقيل: أراد بالمطابقة: المشابهة أي: يشبه بعضها بعضاً في الأتقان والإحكام، والإتّساق والإنتظام.

﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي: اختلاف وتناقض[1] من طريق الحكمة، بل ترى أفعاله كلها سواء في الحكمة، وإن كانت متفاوتة في الصور والهيئات، يعني في خلق الأشياء على العموم. وفي هذا دلالة على أنّ الكفر والمعاصي، لا يكون من خلق الله تعالى؛ لكثرة التفاوت في ذلك. وقيل: معناه: ما

---

(١) كما يستدلّ بوجود الممكنات على وجود الواجب، سواء كانت الممكنات فيها فطور وانشقاق، أو لم تكن كذلك يستدلّ بجمالها وكمالها على كمال باريها، وبنظمها على حكمته، وحسن تدبيره، كما يتعجّب من الزهور التي تكون فيه ألوان مختلفة، وما هي على صورة الحيوانات كالطاوس على أنّ خالقها خلقها عن قصد، ويستدلّ بجمال السموات وعظمها، على قدرة خالقها.

ترى يا ابن آدم في خلق السماوات من عيب واعوجاج، بل هي مستقيمة مستوية كلها مع عظمها.

﴿فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: فردّ البصر، وأدره في خلق الله، واستقص في النظر مرّة بعد أُخرى. والتقدير: أُنظر ثمّ ارجع النظر في السماء ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق وفتوق[1]، ـ عن سفيان ـ. وقيل: من وهن وخلل، ـ عن ابن عبّاس وقتادة ـ. ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: ثمّ كرّر النظر مرّتين؛ لأنّ من نظر في الشيء كرّة بعد أُخرى، بَانَ له ما لم يكن بائناً. وقيل: معناه: أدم النظر، والتقدير: أرجع البصر مرّة بعد أُخرى، ولا يريد حقيقة التثنية؛ لقوله: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ ، ولا يصير حسيراً بمرّتين. ونظيره قولهم: لبّيك وسعديك أى: إلباباً بعد إلباب، وإسعاداً بعد إسعاد، يعني: كلّما دعوتني، فأنا ذو إجابة بعد إجابة، وذو ثبات بمكاني بعد ثبات، من قولهم: لبَّ بالمكان وألبّ: إذا ثبت وأقام، وهو نصب على المصدر أي: أُجيبك إجابة بعد إجابة.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ أي: يرجع إليك بصرك بعيداً عن نيل المراد، ذليلاً صاغراً، ـ عن ابن عبّاس ـ، كأنّه ذلَّ كذلّة من طلب شيئاً فلم يجده، وأبعد عنه ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كالٌّ مُعيً، ـ عن قتادة ـ. والتحقيق أنّ بصر هذا الناظر بعد الإعياء يرجع إليه بعيداً عن طلبته، خائباً في بغيته.

ثمّ أقسم سبحانه، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنّ هذه اللام هي التي يتلقّى بها القسم أي: حسّنّا السماء الدنيا يعني: التي هي أدنى إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ واحدها: مصباح يعني، الكواكب، سمّاها المصابيح؛ لإضاءتها، وهي السرج.

---

(١) ليس معناه: إنّ السماء لو كان فيها انشقاق وفطور، لم تدلّ على قدرة خالقها، بل هي بما فيها من الاستواء المرئي، تؤثر في نفس الرائي مزيد إعجاب، ينبّهه للتفكّر.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينَ﴾ الذين يسترقون السمع. وقيل: ينفصل من الكواكب شهب تكون رجوماً[١] للشياطين، فأمّا الكواكب أنفسها، فليست تزول إلى أن يريد الله تعالى إفناءها، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ يعني: انّا جعلنا مع الكواكب رجوماً للشياطين، هيّأنا لهم، وادّخرنا لأجلهم عذاب النار المسعرة المشعلة. وفي هذا دلالة على أنّ الشياطين مكلّفة.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر والكسائي: «فسُحُقا» بضمّتين. والباقون: بالتخفيف[٢].

الحجة: سُحْق وسُحُق مثل: عُنُق وعُنْق، وطُنُب وطُنْب، ونحو ذلك، وكلاهما حسن.

اللغة: الشهيق: صوت تقطيع النفس كالنزع، وإذا اشتدّ لهيب النار سمع منها ذلك الصوت كأنّها تطلب الوقود. قال رؤبة:

---

(١) والحق أنّ الرجوم من جنس الكواكب، ولكنّها غيرها في المقدار.

(٢) مرّ إدغام «قد جاء» عن أبي عمرو وحمزة والكسائي وهشام.

حَشْرَجَ فِي الْجَوْفِ سَحِيلاً، أَوْ شَهَقْ حَتَّىٰ يُقَال نَاهِقٌ، وَمَا نَهَقْ[١]

وقيل: إنّ «الشهيق» في الصدر، و«الزفير» في الحلق.

والفور: ارتفاع الشيء بالغليان. يقال: فارت القدر تفور. ومنه: الفوّارة؛ لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان. ومنه: فار الدم من الجرح، وفار الماء من الأرض.

والسحق: البعد. يقال: أسحقهم الله إسحاقاً وسحقاً أي: ألزمهم الله سحقاً عن الخير، فجاء المصدر على غير لفظه، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، وتقديره: فأسحقهم إسحاقاً. وأمّا سحقته سحقاً، فمعناه: باعدته بالتفريق عن حال اجتماعه حتى صار كالغبار.

المَعْنَىٰ: لمّا تقدّم وعيد الشياطين الذين دعوا إلى الكفر والضلال، أتبعه سبحانه بذكر الكفّار والضلال، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل والمرجع. وإنّما وصف ببئس [«بئس»] ـ وهو من صفات الذمّ والعقاب ـ حسن؛ لما في ذلك من الضرر الذي يجب على كل عاقل أن يتّقيه بغاية الجهد، ولا يجوز قياساً على ذلك أن يوصف به فاعل العقاب؛ لأنّه لا يقال: بئس الرجل إلّا على وجه الذمّ، ووجه الحكمة في فعل العقاب، ما فيه من الزجر المتقدّم للمكلّف، ولا يمكن أن يكون مزجوراً إلّا به، ولولاه لكان مغرى بالقبيح.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ أي: إذا طرح الكفّار في النار، سمعوا للنار صوتاً فظيعاً مثل صوت القدر عند فورانها وغليانها، فيعظم بسماع ذلك عذابهم؛ لما يرد على قلوبهم من هوله.

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي بهم كغلي المرجل ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتقطّع

---

[١] هذا بيت من أرجوزة طويلة من أبيات منها وصف فيها حمار الوحش وأتنه التي شبه ناقته بها في الجلادة وسرعة العدو والحشرجة: صوت الحمار من صدره. والسحيل: الصوت الذي يدور في صدره. والنهيق: صوته أيضاً.

وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: شدّة الغضب. سمّى سبحانه شدّة التهاب النار غيظاً على الكفّار؛ لأنّ المغتاظ هو المتقطع لما يجد من الألم الباعث على الإيقاع بغيره. فحال جهنّم كحال المتغيّظ.

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا﴾ أي: كلّما طرح في النار ﴿فَوْجٌ﴾ من الكفّار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: تقول لهم الملائكة الموكّلون بالنار، على وجه التبكيت لهم في صيغة الإستفهام: ألم يجئكم مُخوِّف من جهة الله سبحانه، يُخوّفكم عذاب هذه النار.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: فيقولون في جوابهم: بلى قد جاءنا مخوِّف فلم نصدّقه، وكذّبناه، ولم نقبل منه، بل قلنا له ما نزّل الله شيئاً ممّا تدعونا إليه، وتحذّرنا منه. فتقول لهم الملائكة: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي: لستم اليوم إلّا في عذاب عظيم. وقيل: معناه: قلنا للرسل ما أنتم إلا في ضلال، أي: ذهاب عن الصواب كبير في قولكم أنزل الله علينا كتاباً.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ من النذر ما جاؤونابه، ودعونا إليه، وعملنا بذلك ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقال الزجّاج: لو كنّا نسمع سمع من يعي ويفكّر، ونعقل عقل من يميّز وينظر، ما كنّا من أهل النار. وفي الحديث عن ابن عمر، أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ الرجل ليكون من أهل الجهاد، ومن أهل الصلاة والصيام، وممّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما يجزى يوم القيامة إلّا على قدر عقله».

وعن أنس بن مالك قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ قالوا: يا رسول الله نخبرك عن اجتهاده في العبادة، وأصناف الخير، وتسألنا عن عقله؟ فقال! «إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنّما يرتفع العباد غداً في الدرجات، وينالون الزلفى من ربّهم،

على قدر عقولهم».

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ في ذلك الوقت الذي لا ينفعهم فيه الإقرار والإعتراف. والإقرار مشتقّ من قرَّ الشيء يقرُّ قراراً: إذا ثبت. والإعتراف: مأخوذ من المعرفة. والذنب: مصدر لا يثنّى ولا يجمع، ومتى جمع فلاختلاف جنسه.

﴿فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا دعاء عليهم أي: أسحقهم الله و أبعدهم من النجاة سحقاً. وإذا قيل: ما وجه اعترافهم بالذنب، مع ما عليهم من الفضيحة به؟ فالجواب: إنّهم قد علموا حصولهم على الفضيحة، اعترفوا أم لم يعترفوا، فليس يدعوهم إلى أحد الأمرين، إلّا مثل ما يدعوهم إلى الآخر، في أنّه لا فرج فيه. فاستوى الأمران عليهم الإعتراف وترك الإعتراف، والجزع وترك الجزع.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ
﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ
تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا
يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى

هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ (١) وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: «النشور وأمنتم». وقرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو ويعقوب بهمزة واحدة ممدودة، وهو تحقيق الهمزة الأُولى، وتخفيف الثانية بأن تجعل بين بين. وقرأ الباقون: ﴿أَأَمِنْتُمْ﴾ ـ بهمزتين ـ.

الحجة: أمّا الأوّل، فهو تخفيف الهمزة الأُولي بأن جعلت واواً، وهذا في المنفصل نظير قولهم في المتّصل تُودَة وجُوَن في جمع «جؤنة». فأمّا الهمزة التي هي فاء من قولهم: ﴿أأمنتم﴾ بعد تخفيف الأُولى بقلبها واواً، فإنّه يجوز فيه التحقيق والتخفيف. فإن حقّق كان لفظه ﴿النُّشُور وَأَمَنْتُمْ﴾. وإن خفّف كان القياس أن تجعل بين بين، أعني بين الألف والهمزة، لتحركها [وتحركها] بالفتحة. ومن قال: «لا هَناكَ المَرْتَعُ» وقلبها ألفاً، كان القياس أن يقول هنا: «النشور وأمِنتم» ـ بقلبها ألفاً محضة ـ.

وسيبويه يجيز هذا القلب في الشعر، وغير حال السعة. وكان قياس قول أبي عمرو، على ما حكاه عنه سيبويه، من أنّه إذا اجتمع همزتان، خفّف الأُولى منهما دون الثانية، بأن [ان] يقلّب الأُولى منهما هنا واواً، كما فعله ابن كثير. فأمّا الثانية فإن شاء حقّقها، وإن شاء خفّفها. وتخفيفها أن تجعل بين الهمزة والألف. ولعل أبا عمرو ترك هذا القول في هذا الموضع، فأخذ فيه بالوجه الآخر، وهو تخفيف الثانية منهما إذا التقتا دون الأُولى.

---

(١) أثبت الياء في «نكير ونذير» وصلا ورش، وفي الحالين يعقوب. و«ينصركم» ـ باختلاس ضمّ الراء ـ أبو عمرو.

اللغة: اللطف من الله: الرأفة والرحمة والرفق. واللطيف: الرفيق بعباده. يقال: لطف به يلطف لطفاً: إذا رفق به. والذلول من المراكب ما لا صعوبة فيه. ومناكب الأرض: ظهورها. ومنكب كل شيء: أعلاه. وأصله: الجانب. ومنه: منكب الرجل، والريح النكباء. والنشور: الحياة بعد الموت. يقال: نشر الميّت ينشر نشوراً: إذا عاش. وأنشره الله: أحياه. قال الأعشى:

حَتّى يَقُولَ النَّاسُ مِمّا رَأَوْا ... يا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ[١]

وأصله من النشر، ضدّ الطيّ. والحاصب: الحجارة التي ترمي بها كالحصباء [كالخصاء]. وحصبه بالحصباء يحصبه حصباً: إذا رماه بها. ويقال للذي يرمي به حاصب أي: ذو حصب.

الإعراب: ﴿بِالغَيْبِ﴾: في موضع نصب على الحال. ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾: فيه وجوه: أحدها: أن يكون «من خلق» في موضع رفع، بأنّه فاعل «يعلم»، والتقدير: ألا يعلم من خلق الخلق ضمائر صدورهم. الثاني: أن يكون «من خلق» في موضع نصب؛ بأنّه مفعول به، وتقديره: ألا يعلم الله من خلقه. والثالث: أن يكون «مَن» استفهاماً، في موضع نصب؛ بأنّه مفعول «خلق» وفاعل «خلق» الضمير المستكن فيه، العائد إلى الله تعالى. والأوّل أصحّ الوجوه.

وقوله: ﴿أَنْ يَخْسِفُ بِكُمْ الأَرضَ﴾ : في موضع نصب؛ بأنّه بدل «مَنْ» في قوله: «مَن في السماء» وهو بدل الإشتمال.

﴿فَإِذَا هِيَ تُمُور﴾ إذا: ظرف المفاجأة، وهو معمول. قوله: ﴿وَهِيَ تُمُور﴾: جملة في موضع نصب على الحال من ﴿يَخْسِفُ بِكُمْ الأَرضَ﴾. وذو الحال:

---

[١] يصف جارية، وقبل هذا البيت قوله:

لو أسندت ميتا إلى نحرها ... عاش ولم ينقل إلى قابر

والناشر بمعنى المنشور كما في قوله تعالى: ﴿ماء دافق﴾ بمعنى المدفوق.

الأرض. و﴿أَنْ يُرْسَلَ﴾ : بدل أيضاً مثل قوله: ﴿أَنْ يَخْسِفْ﴾.

وقوله: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ مبتدأ وخبر. والخبر مقدّم، والجملة متعلّقة بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ والتقدير: فستعلمون أمحذور إنذاري أم لا.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ﴾ كيف: هنا خبر «كان». وقوله: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ معطوف على «صافات»، وإنّما عطف الفعل على الإسم. ومن الأصل المقرّر أنّ الفعل لا يعطف إلّا على الفعل، كما أنّ الإسم لا يعطف إلّا على الإسم؛ لأنّه وإن كان فعلاً فهو في موضع الحال، فتقديره [تقدير] اسم فاعل.

و﴿صَافّات﴾: حال، فجاز أن يعطف عليه، فكأنّه قال: صافات وقابضات، وقد جاء مثل هذا في الشعر، قال:

بَاتَ يُعَشِّيها بِعَضْبٍ بَاتِرٍ ... يَعْدِلُ فِي أَسْوُقِها، وَجائِرِ[1]

﴿أَمَّنْ هَذا الَّذي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ مَنْ: هنا استفهام في موضع رفع بالإبتداء دخل عليه «أم» المنقطعة. و ﴿هَذَا﴾: مبتدأ ثان. و ﴿الَّذي﴾: خبره، وقد وصل بالمبتدأ والخبر، وهو قوله: ﴿هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾ و ﴿يَنْصُرَكُمْ﴾: صفة الجند.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم الوعيد، عقّبه سبحانه بالوعد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخافون عذاب ربّهم باتقاء معاصيه، وفعل طاعاته على وجه الإستسرار بذلك؛ لأنّ الخشية متى كانت بالغيب على ما ذكرناه، كانت بعيدة من الرياء، خالصة لوجه الله، وخشية الله بالغيب تنفع بأن يستحقّ عليها الثواب، وخشيته في الظاهر بترك المعاصي، لا يستحقّ بها الثواب، فإذاً الخشية بالغيب أفضل لا محالة. وقيل: «بالغيب» معناه: إنّهم يخشونه، ولم يروه فيؤمنون به؛ خوفاً من عذابه. وقيل: يخافونه حيث لا يراهم مخلوق؛ لأنّ أكثر ما ترتكب المعاصي

---

(١) يصف من يعرقب وينحر لعشاء الضيفان. وجائر: اسم معطوف على «يعدل» أي: يعدل ويجور وأسوُق: جمع ساق. والعضب الباتر: السيف القاطع.

إنّما ترتكب في حال الخلوة، فهم يتركون المعصية؛ لئلّا يجعلوا الله سبحانه أهون الناظرين إليهم؛ ولأنّ من تركها في هذه الحال، تركها في حال العلانية أيضاً.

﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: عظيم في الآخرة لا فناء له.

ثمّ قال سبحانه مهدّداً للعصاة: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني: إنّه عالم بإخلاص المخلص، ونفاق المنافق، فإن شئتم فأظهروا القول، وإن شئتم فأبطنوه، فإنّه عليم بضمائر القلوب، ومن علم إضمار القلب علم إسرار القول. قال ابن عبّاس: كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره به جبرئيل. فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم لكيلا يسمع آل محمّد، فنزلت الآية.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ قيل في معناه وجوه أحدها: ألا يعلم ما في الصدور من خلق الصدور وثانيها: ألا يعلم سرّ العبد من خلقه أي: [من] خلق العبد فعلى الوجهين، يكون «من خلق» بمعنى الخالق. وثالثها: أن يكون «من خلق» بمعنى: المخلوق والمعنى: ألا يعلم الله مخلوقه.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ أي: العالم بما لطف ودقّ. وقيل: اللطيف بعباده من حيث يدبّرهم بألطف التدبير، واللطيف التدبير من يدبّر تدبيراً نافذاً لا يجفو عن شيء يدبّره به. وقيل: اللطيف من كان فعله في اللطف، بحيث لا يهتدي إليه غيره. وهو فعيل بمعنى فاعل، كالقدير والعليم. وقيل: هو بمعنى الملطف، كالبديع بمعنى المبدع. وقيل: اللطيف الذي يكلّف اليسير، ويعطي الكثير. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العالم بالعباد وأعمالهم.

ثمّ عدَّد سبحانه أنواع نعمه ممتنّاً على عباده بذلك، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً﴾ أي: سهلة ساكنة مسخرة، تعملون فيها ما تشتهون. وقيل: «ذلولاً» لم يجعلها بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظ. وقيل: «ذلولاً» موطأة للتصرّف فيها والمسير عليها، ويمكّنكم زراعتها.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: في طرقها وفجاجها، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: في جبالها؛ لأنّ منكب كل شيء أعلاه، ـ عن ابن عبّاس وقتادة ـ. ثمّ إن كان هذا أمر ترغيب، فالمراد: فامشوا في طاعة الله، وإن كان للإباحة، فقد أباح المشي فيها لطلب المنافع في التجارات.

﴿وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ﴾ أي: كلوا ممّا أنبت الله في الأرض والجبال، من الزروع والأشجار حلالاً ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: وإلى حكمه المرجع في القيامة. وقيل: معناه: وإليه الإحياء للمحاسبة، فهو مالك النشور، والقادر عليه، ـ عن الجبائي ـ.

ثم هدّد سبحانه الكفّار، زاجراً لهم عن ارتكاب معصيته، والجحود لربوبيّته، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَن فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ أي: أمنتم عذاب مَن في السماء سلطانه، وأمره ونهيه وتدبيره، لا بدّ أن يكون هذا معناه؛ لاستحالة أن يكون الله، جلّ جلاله، في مكان أو في جهة. وقيل: يعني بقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ الملك الموكّل بعذاب العصاة.

﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أن يشقّ الأرض، فيغيبكم فيها إذا عصيتموه ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرّك، والمعنى إنّ الله يحرّك الأرض عند الخسف بهم، حتى تضطرب فوقهم، وهم يخسفون فيها حتى تلقيهم إلى أسفل. والمور: التردّد في الذهاب والمجيء، مثل: الموج.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أي: ريحاً ذات حجر، كما أرسل على قوم لوط حجارة من السماء. وقيل: سحاباً يحصب عليكم الحجارة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف إنذاري إذا عاينتم العذاب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلي،وجحدوا وحدانيّتي ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: عقوبتي، وتغييري ما بهم من النعم. وقيل: كيف رأيتم إنكاري عليهم بإهلاكهم واستئصالهم.

ثمّ نبّه سبحانه على قدرته على الخسف، وإرسال الحجارة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ تصف أجنحتها في الهواء، فوق رؤوسهم ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أجنحتهنّ بعد البسط، وهذا معنى الطيران، وهو بسط الجناح وقبضه بعد البسط أي: يضربن بأرجلهنّ، ويبسطن أجنحتهنّ تارة، ويقبضن أُخرى. فالجوّ للطائر كالماء للسابح. وقيل: معناه: إنّ من الطير ما يضرب بجناحه فيصف، ومنه: ما يمسكه فيدفّ، ومنه: الصفيف والدفيف.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بتوطئة الهواء لهنّ، ولولا ذلك لسقطن. وفي ذلك أعظم دلالة، وأوضح برهان وحجّة، بأنّ من سخّر الهواء هذا التسخير، على كل شيء قدير. والصفّ: وضع الأشياء المتوالية على خطّ مستقيم. والقبض: جمع الأشياء عن حال البسط. والإمساك: اللزوم المانع من السقوط، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ أي: بجميع الأشياء عليم.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هذا استفهام إنكار أي: لا جند لكم ينصركم منّي، ويمنعكم من عذابي، إن أردت عذابكم، ـ عن ابن عبّاس ـ. ولفظ الجند موحد، ولذلك قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي﴾، وكأنّه سبحانه يقول للكفّار: بأيّ قوّة تعصونني ألكم جند يدفع عنكم عذابي. بيّن بذلك أنّ الأصنام لا يقدرون على نصرتهم.

﴿إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي: ما الكافرون إلّا في غرور من الشيطان، يغرّهم بأنّ العذاب لا ينزل بهم. وقيل: معناه: ما هم إلّا في أمر لا حقيقة له من عبادة الأوثان، يتوهّمون أنّ ذلك ينفعهم، والأمر بخلافه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي: من الذي يرزقكم إن أمسك الله الذي هو رازقكم أسباب رزقه عنكم، وهو المطر هيهنا ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: ليسوا يعتبرون فينظرون، بل تمادوا واستمرّوا في اللجاج،

وجاوزوا الحدّ في تماديهم ونفورهم عن الحقّ، وتباعدهم عن الإيمان، لمّا كان للمشركين صوارف كثيرة عن عبادة الأوثان، وهم كانوا يتقحمون بذلك على العصيان، فقد لجّوا في عتوّهم. قال الفرّاء: قوله: ﴿أَمَّنْ هٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ الآية تعريف حجّة، ألزمها الله العباد، فعرفوا فأقرّوا بها، ولم يردّوا لها جواباً. فقال سبحانه «بل لجّوا في عتوّ ونفور».

أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي
كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ يعقوب: ﴿تَدْعُونَ﴾ ـ ساكنة الدال، خفيفة ـ، وهو قراءة

---

(١) قرأ «سيئت» ـ بالإشمام ـ نافع وابن عامر والكسائي. ويوقف عليه لحمزة بالنقل، وهو القياس وبالبدل مع إدغام الياء في الياء إجراء الأصليّة منزلة الزايدة. وفتح الياء من «أهلكني الله» جميع القرّاء إلّا حمزة. وأمّا الياء من «معي» فسكنها أبو بكر وحمزة والكسائي.

الحسن والضحّاك وقتادة. والباقون: ﴿تَدَّعُونَ﴾ ـبالتشديدـ. وقرأ الكسائي: «فسيعلمون» ـبالياءـ. والباقون: بالتاء.

﴿الحجة﴾: أمّا قوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ فالمعنى: هذا الذي كنتم به تدعون الله، كقوله: تعالى: ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. وأمّا ﴿تَدَّعُونَ﴾ ـبالتشديدـ فمعناه: تتداعون بوقوعه. قال ابن جنّي: يعني كانت الدعوة بوقوعه فاشية بينكم، كقوله تعالى في معنى العموم ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أي: لا يفشُ هذا فيكم، وليس معنى «تدَّعون» هنا من إدّعاء الحقوق، وإنّما هو بمعنى تتداعون من الدعاء، لا من الدعوى، كما في قول الشاعر: «فَما برحت خيل تثوب وتدّعي» يعني: تتداعى بينهما يا لفلان.

﴿اللغة﴾: يقال: كببته فأكبّ، وهو نادر مثل: قشعت الريح السحاب، فأقشعت، ونزفت البئر فأنزفت أي: ذهب ماؤها، ونسلت ريش الطائر فانسل. والزلفة: القربة، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع. ومنه: المزدلفة؛ لقربه من مكّة، وقد تجمع الزلفة زُلفاً. قال العجاج:

ناجٍ طَواهُ الأَيْنُ مِمّا وَجَفا ... طَيَّ اللَّيالِي زُلَفاً فَزُلَفا[1]

وساءه الأمور يسوؤه سوءاً أي: غمَّه وحزنه. ومنه: أساء يسيء: إذا فعل ما يؤدّي إلى الغمّ.

وماء غور أي: غائر، وصف بالمصدر مبالغة، كما يقال: هؤلاء زور فلان وضيفه، والمعين. قيل: إنّه مفعول، مأخوذ من العين. فعلى هذا يكون مثل مبيع من البيع. وقيل: إنّه من الإمعان في الجري، فعلى هذا يكون على وزن فعيل، فكأنّه

---

(١) ناج: وصف للجمل، ينجو بصاحبه من خطر البريّة. وطواه الأين أي: هزله الكلال. وبعده: سماوة الهلال حتى احقوقفا أي: كما يهزل الليالي شخص الهلال، كذلك هزل السير شخص الجمل.

قيل: ممعن في الإسراع والظهور.

﴿الإعراب﴾: ﴿قَلِيلاً﴾: صفة مصدر محذوف أي: تشكرون شكراً قليلاً. و«ما» مزيدة ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينَ﴾ : يحتمل أن يكون «مَن» استفهاماً، فيكون إسماً موصولاً.

قال أبو عليّ: دخلت الفاء في قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾، وقوله: فَمَنْ يَأتِيكُمْ؛ لأنّ «أرأيتم» بمعنى: انتبهوا أي: انتبهوا فمن يجير، وانتبهوا فمَن يأتيكم، كما تقول: قم فزيد قائم. قال: ولا يكون الفاء جواب الشرط، وإنّما يكون جواب الشرط مدلول ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ قال: وإنْ شئت كان الفاء زائدة مثلها في قوله: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ ويكون الإستفهام سادّاً مسدّ مفعولي «أرأيتم»، كقولهم: أرأيت زيداً ما فعل، وهذا من دقائقه.

﴿المعنى﴾: ثمّ ضرب سبحانه مثلاً للكافر والمؤمن، فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: منكساً رأسه إلى الأرض، فهو لا يبصر الطريق، ولا من يستقبله، ينظر أمامه، ولا يمينه، ولا شماله، وهو الكافر المقلّد لا يدري أمحقّ هو أم مبطل هذا.

﴿أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً﴾ أي: مستوياً قائماً يبصر الطريق، وجميع جهاته كلّها، فيضع قدمه حيث لا يعثر، وهو المؤمن الذي سلك طريق الحقّ، وعرفه، واستقام عليه وأمكنه دفع المضارّ عن نفسه، وجلب المنافع إليها.

﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح قمّم [قيم]، وهذا معنى قول ابن عبّاس ومجاهد. وقيل: إنّ هذا في الآخرة يحشر الله الكافر مكبّاً على وجهه يوم القيامة، كما قال ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيامَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾، ـ عن قتادة ـ.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ تسمعون به المسموعات ﴿وَٱلْأَبْصَارَ﴾

تبصرون بها المبصرات ﴿وَٱلْأَفْئِدَةَ﴾ يعني: القلوب تعقلون بها، وتتدبّرون، فأعطاكم آلات التفكّر والتمييز، والوصول إلى العلم ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون قليلاً. وقيل: معناه: قليلاً شكركم، فتكون ﴿مَا﴾ مصدريّة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿هُوَ﴾ الله تعالى ﴿ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ منها أي: تبعثون إليه يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم.

ثمّ حكى سبحانه ما كان يقوله الكفّار، مستبطئين عذاب الله، مستهزئين بذلك، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ من الخسف والحاصب، أو البعث والجزاء ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنّ ذلك يكون.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: علم الساعة ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ أي: مخوف لكم به ﴿مُبِينَ﴾ أي: مبين لكم ما أنزل الله إليّ من الوعد والوعيد، والأحكام.

ثمّ ذكر سبحانه حالهم عند نزول العذاب ومعاينته فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أيّ: فلمّا رأوا العذاب قريباً، يعني: يوم بدر، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معاينة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ اللفظ ماض، والمراد به: المستقبل، والمعنى: إذا بعثوا ورأوا القيامة قد قامت، ورأوا ما أُعدّ لهم من العذاب، وهذا قول أكثر المفسّرين.

﴿سِيٓئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: اسودّت وجوههم، وعلّتها الكآبة، يعني: قبحت وجوههم بالسواد. وقيل: معناه: ظهرت على وجوههم آثار الغمّ والحسرة، ونالهم السوء والخزي.

﴿وَقِيلَ﴾ لهؤلاء الكفّار إذا شاهدوا العذاب ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قال الفرّاء: تدّعون وتدعون واحد، مثل: تدَّخرون وتدخرون، والمعنى: كنتم به تستعجلون، وتدعون الله بتعجيله، وهو قولهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية. ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: هو تدعون من «الدعوى» أي: تدعون أن لا جنّة،

ولا نار، ـ عن الحسن ـ. وروي الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالأسانيد الصحيحة، عن [شريك عن] الأعمش قال: لمّا رأوا ما لعليّ بن أبي طالب عليه السلام عند الله من الزلفى، سيئت وجوه الذين كفروا، وعن أبي جعفر عليه السلام فلمّا رأوا مكان عليّ عليه السلام من النبيّ صلى الله عليه وآله سيئت وجوه الذين كفروا، يعني: الذين كذبوا بفضله.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفّار ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَعِيَ﴾ بأن يميتنا ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استحقّوه بكفرهم، وما الذي ينفعهم في دفع العذاب عنهم. وقيل: إنّ الكفّار كانوا يتمنّون موت النبيّ صلى الله عليه وآله، وموت أصحابه، فقيل له: قل لهم: إن أهلكني الله ومن معي ذلك، بأن يميتني، ويميت أصحابي، فمَن الذي ينفعكم ويؤمنكم من العذاب، فإنّه واقع بكم لا محالة. وقيل: معناه: أرأيتم إن عذّبني الله ومن معي، أو رحمنا أي: غفر لنا فمَن يجيركم أي: نحن مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم؟ مع كفركم من العذاب، ولا رجاء لكم، كما للمؤمنين، ـ عن ابن عبّاس، وابن كيسان ـ.

ثمّ قال: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفّار على وجه التوبيخ لهم: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: إنّ الذي أدعوكم إليه، هو الرحمٰن الذي عمّت نعمته جميع الخلائق ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: عليه اعتمدنا، وجميع أُمورنا إليه فوّضنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ معاشر الكفّار يوم القيامة ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ اليوم أنحن أم أنتم. ومن قرأ بالياء، فمعناه: فسيعلم الكفّار ذلك.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً﴾ أي: غائراً ناضباً في الآبار والعيون ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي: ظاهر للعيون، ـ عن أبي مسلم، والجبائي ـ. وقيل: بماء جارٍ، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ. أراد سبحانه أنّه المنعم بالأرزاق، فاشكروه واعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً. وذكر مقاتل أنّه أراد بقوله: «ماؤكم» بئر زمزم وبئر ميمون، وهي بئر عادية قديمة. وكان ماؤهم من هاتين البئرين. والمعين: الذي تناله الدلاء، وتراه العيون.

سُورَةُ القَلَمِ

وتسمّي أيضاً سورة نۤ، وهي مكّيّة، ـ عن الحسن وعكرمة وعطاء ـ. وقال ابن عبّاس وقتادة. مِن أوّلها إلى قوله: ﴿سَنَسِمَهُ عَلَى الخُرْطُومْ﴾ مكّي، وما بعده إلى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مدنّي، وما بعده إلى قوله: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ مكّي، وما بعده مدنيّ، وهي أثنتان وخمسون آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب قال: قال النبيّ ﷺ: «ومن قرأ سورة نۤ والقلم، أعطاه ثواب الذين حسن أخلاقهم». عليّ بن ميمون، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة نۤ والقلم في فريضة أو نافلة، آمنه الله أن يصيبه في حياته فقر أبداً، وأعاذه إذا مات من ضمة القبر، إن شاء الله.

تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة المُلك بذكر تكذيب الكفّار، ووعيدهم، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

القراءة: مضى ذكر اختلاف القرّاء في إظهار النون وإخفائها، من نون في سورة ياسين، فلا وجه لإعادته. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، ويعقوب، وسهل: ﴿أَنْ كَانَ﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الإستفهام ـ. وقرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة: «أأن كان» ـ بهمزتين ـ. وقرأ الباقون: ﴿أَنْ كَانَ﴾ ـ بفتح الهمزة، من غير استفهام[1] ـ.

---

(١) اتّفقوا على كتابة «بأييكم المفتون» ـ بيائين ـ. ومثله: بنيانها [بنيناها] بايد، وقد مضى. ويوقف عليه لحمزة بإبدال الهمزة ياء مفتوحة، أو بالتحقيق؛ لأنّه متوسّط بزائد.

﴿الحجة﴾: قال أبو عليّ: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالَ﴾: لا يخلو من أن يكون العامل فيه ﴿تُتْلَىٰ﴾ من قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتِنَا﴾ أو «قال» من قوله: ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أو شيء ثالث، فلا يجوز أن يعمل واحد منها فيه. ألاترى أنّ ﴿تُتْلَىٰ﴾ قد أُضيفت ﴿إِذَا﴾ إليه، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله. لا تقول: القتال زيداً حين يأتي. ولا يجوز أن يعمل فيه «قال» أيضاً؛ لأنّ «قال» جواب «إذا»، وحكم الجواب أن يكون بعد ما هو جواب له، ولا يتقدَّم عليه. فكما لا يعمل فيه الفعل الأوّل، فكذلك لا يعمل فيه الثاني. فإذا لم يعمل فيه واحد من هذين الفعلين، وليس في الكلام غيرهما، علمت أنّه محمول على شيء آخر، ممّا دلّ باقي الكلام عليه. والذي يدلّ عليه هذا الكلام من المعنى، هو يجحد، أو يكفر، أو يستكبر عن قبول الحقّ، ونحو ذلك.

وإنّما جاز أن يعمل فيه المعنى، وإن كان متقدّماً عليه؛ لشبهه بالظرف. والظرف قد تعمل فيه المعاني، وإن تقدّم عليها. ويدلُّك على مشابهته الظرف، تقدير اللام معه. وإنّ من النحويّين من يقول: إنّه في موضع جرّ، كما أنّه لو كانت اللام معه ظاهرة، كان كذلك ومن قرأ بهمزة ممدودة، فإنّه يزيد همزة بعدها همزة مخفّفة.

﴿اللغة﴾: السطر: الكتابة، وهو وضع الحروف على خطّ مستقيم. واستطر: اكتتب. والمسطر: آلة التسطير. والممنون: المقطوع. يقال: منَّه السير يمنُّه منّاً: إذا قطعه. والمنين: الضعيف. والخلق: المرور في الفعل على عادة. فالخلق الكريم: الصبر على الحقّ، وتدبير الأُمور على مقتضى العقل. وفي ذلك الأَناة والرفق والحلم والمداراة.

والمفتون: المبتلى بتخبيل الرأي كالمجنون. يقال: فتن فلان بفلانة. وأصل الفتنة: الابتلاء والاختبار. والمهين: الضعيف الذليل والمهانة: الذلّة والقلّة.

والهمّاز: الوقاع في الناس بما ليس له أن يعيبهم به. والأصل فيه: الدفع بشدة

اعتماد، ومنه الهمزة حرف من الحروف المعجمة، فهي نبرة تخرج من الصدر بشدّة اعتماد.

والنميم: التضريب بين الناس بنقل الكلام الذي يغيظ بعضهم على بعض. والنميم والنميمة بمعنى. ومنه: النمّام: المشموم؛ لأنّه بحدة ريحه كالمخبر عن نفسه. والعتلّ: الجافي الغليظ. وأصله: الدفع. يُقال: عتله يعتله: إذا زعزعه بغلظة وجفاء.

والزنيم: الدعي الملصق بالقوم، وليس منهم. وأصله: الزنمة، وهي الهُنَيَّةُ المتدلّية تحت حلق الجدي. ويقال للتيس له زنمتان. قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يُعْرَفُ مَنْ أَبُوهُ ... بَغِيُّ الأُمِّ ذُو حَسَبٍ لَئِيمٍ[١]

وقال حسان:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ ... كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ(١)

ويقال: وسمه يسمه وسماً وسمة. والخرطوم: ما نتأ من الأنف، وهو الذي يقع به الشمّ. ومنه: قيل خرطوم الفيل وخرطمه: إذا قطع أنفه.

﴿الإعراب﴾: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ :فيه وجوه: أحدها: إنّ «المفتون» مصدر بمعنى الفتنة، كما يقال: ليس له معقول، وما له محصول. قال الراعي:

حَتّى إِذَا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ ... لَحْماً، وَلاَ لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاً

وثانيها: أن يكون المفتون اسم المفعول، والباء مزيدة. والتقدير: أيّكم المفتون. ويكون مبتدأ وخبراً، وتكون الجملة معلقة بقوله: ﴿يُبْصِرُونَ﴾ وثالثها: إنّ الباء بمعنى «في» والمعنى: في أيّكم المفتون أي: في أيّ الفريقين في فرقة الإسلام، أو في فرقة الكفر المجنون، وهذا قول الفرّاء. وقال الراجز في زيادة الباء:

---

(١) القدح: إناء يسع ما يروي رجلين وثلاثة، وكان عادتهم أن يعلّقوه آخر الرحل.

[١] الزنيم: الدعي في النسب، المستلحق في قوم ليس منهم، لايحتاج إليه، فكأنه فيهم زنمة.

نَحْنُ بَنِي جَعْدَةَ أَصْحابُ الْفَلَجْ[1] نَضْرِبُ بِالسَّيْفِ، وَنَرْجُو بِالْفَرَج

أي: ونرجو الفرج.

المَعْنَى: ﴿ن﴾ اختلفوا في معناه، فقيل: هو اسم من أسماء السورة مثل: حمّ وصّ، وما أشبه ذلك. وقد ذكرنا ذلك مع غيره من الأقوال في مفتتح سورة البقرة. وقيل: هو الحوت الذي عليه الأرضون، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد ومقاتل والسدي ـ. وقيل: هو حرف من حروف الرحمن في رواية أُخرى، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: هو الدواة، ـ عن الحسن، وقتادة، والضحّاك ـ. وقيل: نون: لوح من نور. وروي مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ. وقيل: هو نهر في الجنّة. قال الله له: كن مداداً فجمد، وكان أبيض من اللبن، وأحلى من الشهد، ثمّ قال للقلم: أكتب، فكتب القلم ما كان، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ـ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ـ. وقيل: المراد به: الحوت في البحر، وهو من آيات الله: إذ خلقها في الماء، فإذا فارق الماء مات، كما أنّ حيوان البرّ إذا خالط الماء مات.

﴿وَالْقَلَمِ﴾ الذي يكتب به أقسم الله به لمنافع الخلق فيه؛ إذ هو أحد لساني الإنسان، يؤدّي عنه ما في جنانه، ويبلغ البعيد عنه ما يبلغ القريب بلسانه، وبه تحفظ أحكام الدين، وبه تستقيم أُمور العالمين. وقد قيل: إنّ البيان بيانان: بيان اللسان، وبيان البنان. وبيان اللسان تدرسه الأعوام، وبيان الأقلام باق على مرّ الأيّام. وقيل: إنّ قوام أُمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف، والسيف تحت القلم. وقد نظّمه بعض الشعراء، وأحسن فيما قال:

إِنْ يَخْدِمِ الْقَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَدانَتْ حِذْرَهُ الْأُمَمُ

فَالْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ شَيْءٌ لا يُغالِبُهُ ما زالَ يَتْبَعُ ما يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ

---

(١) بني جعدة: منصوب على القطع. والفلج: الظفر.

كَـذَا قَـضَى اللهُ لِـلْأَقْلَامِ مُـذْبَرِيَتْ أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ[1]

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبه الملائكة ممّا يوحى إليهم، وما يكتبونه من أعمال بني آدم. فكان القسم بالقلم، وما يسطر بالقلم. وقيل: إنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، وتقديره: والقلم وسطرهم، فيكون القسم بالكتابة. وعلى القول الأوّل يكون القسم بالمكتوب.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هو جواب القسم، ومعناه: لست يا محمّد بمجنون بنعمة ربّك، كما تقول: ما أنت بنعمة ربّك بجاهل، وجاز تقديم معمولها بالباء [بعد الباء]، لأنّها زائدة مؤكّدة، وتقديره: انتفى عنك الجنون بنعمة ربّك. وقيل: هو كما يقال: ما أنت بمجنون بحمد الله. وقيل: معناه: بما أنعم عليك ربّك من كمال العقل، والنبوّة، والحكمة، لست بمجنون أي: لا يكون مجنوناً من أنعمنا عليه بهذه النعم. وقيل: معناه: ما أنت بمجنون، والنعمة لربّك، كما يقال: سبحانك أللهمّ وبحمدك أي: والحمد لك. وهذا تقرير لنفي الجنون عنه. وقالوا: إنّ هذا جواب لقول المشركين: يا أيّها الذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمّد ﴿لَأَجْراً﴾ أي: ثواباً من الله على قيامك بالنبوّة، وتحمّلك أعباء الرسالة ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، وثواب الجنّة. يعني: لا تبال بكلامهم مع ما لك عند الله من الثواب الدائم، والأجر العظيم. وقيل: غير ممنون أي: لا يمنّ به عليك، ـ عن أبي مسلم ـ. والمعنى: غير مكدّر بالمنّ الذي يقطع عن لزوم الشكر، فقد قيل: «المنّة تكدّر الصنيعة». وقال ابن عبّاس: ليس من نبيّ إلّا وله مثل أجر من آمن به، ودخل في دينه.

---

(١) يريد تفضيل القلم على السيف. وقوله: فالموت الأوّل مبتدأ، خبره: «مازال». والموت الثاني مبتدا، خبره: «شيء لا يغالبه» والجملة معترضة بين المبتدأ والخبر. وبري القلم نحته. والإرهاف: الترقيق.

ثمّ وصف سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: على دين عظيم، وهو دين الإسلام، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن ـ. وقيل: معناه: إنّك متخلق بأخلاق الإسلام، وعلى طبع كريم، وحقيقة الخلق ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب. وإنّما سمّي خلقاً؛ لأنّه يصير كالخلقة فيه. فأمّا ما طبع عليه من الآداب، فإنّه الخيم. فالخلق هو الطبع المكتسب. والخيم: هو الطبع الغريزي.

وقيل: الخلق العظيم: الصبر على الحقّ، وسعة البذل، وتدبير الأُمور على مقتضى العقل بالصلاح، والرفق، والمداراة، وتحمّل المكاره في الدعاء إلى الله سبحانه، والتجاوز، والعفو، وبذل الجهد في نصرة المؤمنين، وترك الحسد، والحرص، ونحو ذلك، ـ عن الجبائي ـ. وقالت عائشة: كان خلق النبيّ ﷺ ما تضمنه العشر الأوّل من سورة المؤمنين، ومن مدحه الله سبحانه بأنّه على خلق عظيم، فليس وراء مدحه مدح. وقيل: سمّي خُلقه عظيماً؛ لأنّه عاشر الخلق بخُلقه، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخَلق، وباطنه مع الحقّ. وقيل: لأنّه امتثل تأديب الله سبحانه إيّاه بقوله: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُر بِالعُرْف وَأعْرِض عَنِ الجَاهِلِينَ﴾.

وقيل: سمّي خلقه عظيماً؛ لاجتماع مكارم الأخلاق فيه. ويعضده ما روي عنه قال: «إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق» وقال: «أدَّبني ربّي فأحسن تأديبي» وقال ﷺ: «إنَّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار». وعن أبي الدرداء قال: قال النبيّ ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن».

وعن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام، عن آبائه، عن النبيّ ﷺ قال: «عليكم بحسن الخلق، فإنّ حسن الخلق في الجنّة لا محالة، وإيّاكم وسوء الخلق فإنّ سوء الخلق في النار لا محالة» وعن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «أحبّكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وأبغضكم إلى الله

المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الإخوان، الملتمسون للبراء العثرات»[١].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: فسترى يا محمّد، ويرون، يعني: الذين رموه بالجنون ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: أيّكم المجنون الذي فتن بالجنون، أأنت أم هم. وقيل: بأيّكم الفتنة، وهو الجنون، يريد: إنّهم يعلمون عند العذاب أنّ الجنون كان بهم حين كذبوك، وتركوا دينك، لا بك. وقيل: معناه: فستعلم ويعلمون في أيّ: الفريقين المجنون الذي فتنه الشيطان.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه عالم بالفريقين، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو سبيل الحقّ، وعدل عنه، وجار عن السلوك فيه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إليه العاملين بموجبه، فيجازي كُلاًّ بما يستحقُّه ويستوجبه.

أخبرنا السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القائني، رحمه الله، قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الحسكاني، قال: حدّثنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: حدّثنا أبو بكر الجرجاني، قال: حدّثنا أبو أحمد البصريّ، قال: حدّثني عمرو بن محمّد بن تركي، قال: حدّثنا محمّد بن الفضل، قال: حدّثنا محمّد ابن شعيب، عن عمرو بن شمر، عن دلهم بن صالح، عن الضحّاك بن مزاحم، قال: لمّا رأت قريش تقديم النبيّ ﷺ عليّاً عليه السلام، وإعظامه له، نالوا من عليّ، وقالوا: قد افتتن به محمّد. فأنزل الله تعالى: ﴿ن وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قسمٌ أقسم الله به ﴿مَا أَنتَ﴾ يا محمّد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: القرآن، إلى قوله: ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ وهم النفر الذين قالوا ما قالوا، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ثمّ قال سبحانه للنبيّ ﷺ: ﴿فَلاَ تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بتوحيد الله، عزّوجلّ،

---

(١) يعني: يتطلّبون حتى يعثروا لبرئ على عثرة.

الجاحدين لنبوّتك، ولا تجبهم إلى ما يلتمسون منك، ولا توافقهم فيما يريدون [يرون].

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: ودَّ هؤلاء الكفّار أنْ تلين لهم في دينك، فيلينون لك في دينهم. شبَّه التليين في الدين، بتليين الدهن، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: ودُّوا لو تكفر فيكفرون، ـ عن الضحّاك وعطاء وابن عبّاس في رواية أُخرى ـ. وقيل: معناه: ودّوا لو تركن إلى عبادة الأصنام فيمالؤونك. والإدهان: الجريان في ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة، وهو مثل النفاق. وقيل: ودّوا لو تصانعهم في دينك، فيصانعونك، ـ عن الحسن ـ.

ثمّ قال: ﴿وَلاَ تُطِعْ﴾ يا محمّد ﴿كُلَّ حَلاَّفٍ﴾ أي: كثير الحلف بالباطل لقلّة مبالاته بالكذب ﴿مَهِينٍ﴾ فعيل من المهانة، وهي القلّة في الرأي والتمييز. وقيل: ذليل عند الله تعالى، وعند الناس. وقيل: كذّاب؛ لأنّ من عرف بالكذب، كان ذليلاً حقيراً، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: يعني: الوليد بن المغيرة ـ عن مقاتل ـ. قال: عرض على النبيّ ﷺ المال ليرجع عن دينه. وقيل: يعني: الأخنس بن شريق، ـ عن عطاء ـ. وقيل: يعني الأسود بن عبد يغوث، ـ عن مجاهد ـ.

﴿هَمَّازٍ﴾ أي: وقاع في الناس مغتاب، ـ عن ابن عبّاس ـ. ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: قتات يسعى بالنميمة، ويفسد بين الناس، ويضرب بعضهم على بعض ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال، وقيل: منّاع عشيرته عن الإسلام، بأن يقول: من دخل دين محمّد، لا أنفعه بشيء أبداً، ـ عن ابن عبّاس ـ.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: مجاوز عن الحقّ، غشوم ظلوم، ـ عن قتادة ـ. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: آثم فاجر، فاعل ما يأثم به. وقيل: معتد في فعله، أثيم في معتقده. وقيل: معتد في ظلم غيره، أثيم في ظلم نفسه.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ أي: هو عتلّ مع كونه منّاعاً للخير معتدّياً أثيماً، وهو

الفاحش السيّء الخلق، روي ذلك في خبر مرفوع. وقيل: هو القويُّ في كفره، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: الجافي الشديد الخصومة بالباطل، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: الأكول المنوع، ـ عن الخليل ـ. وقيل: هو الذي يعتلّ الناس، فيجرّهم إلى حبس، أو عذاب. ومنه: قول الشاعر:

فَـــيا ضَيْعَةَ الْـفِتْيانِ إِذْ يَـعْتِلُونَهُ بِبَطْنِ الشَّرىٰ مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُسَدَّمِ[١]

﴿زَنِيمٍ﴾ أي: دعيّ ملصق إلى قوم ليس منهم في النسب. قال الشاعر:

زَنِـيمٌ تَـداعَـاهُ الرِّجـالُ تَـداعِـياً كَمَا زِيدَ فِي عَرْضِ الْأَدِيمِ الأَكَارِعُ(١)

وقيل: هو الذي له علامة في الشر، وهو معروف بذلك، فإذا ذكر بالشرّ، سبق القلب إليه، كما أنّ العنز يعرف بين الأغنام بالزنمة في عنقه، ـ عن الشعبي ـ. وقيل: هو الهجين المعروف بالشرّ، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: هو الذي لا أصل له، ـ عن علي عليه السلام ـ. وقيل: هو المعروف بلؤمه، كما تعرف الشاة بزنمتها، ـ عن عكرمة ـ. وروي أنّه سأل النبيّ صلى الله عليه وآله عن «العتلّ الزنيم»، فقال: هو الشديد الخلق، الشحيح [المصحاح] الأكول الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، الرحيب الجوف. وعن شداد ابن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يدخل الجنّة جواظ ولا جعظري، ولا عتلّ زنيم» قلت: فما الجواظ؟ قال: «كل جماع مناع». قلت: فما الجعظري؟ قال: «الفظّ الغليظ» قلت: فما العتلّ الزنيم؟ قال: «كل رحيب الجوف، سيّء الخلق، أكول شروب، غشوم ظلوم زنيم» قال ابن قتيبة: لا نعلم أنّ الله وصف أحداً، وبلغ من ذكر عيوبه ما بلغ من ذكر عيوب الوليد بن المغيرة؛ لأنّه وصف بالحلف والمهانة، والعيب للناس، والمشي بالنمائم، والبخل، والظلم،

---

(١) الاكارع: جمع كراع، وأكارع الأرض: نواحيها. وأديم الأرض: وجهها.

[١] قائلته: امرأة من طيء. والشرى: جبل في ديار طيء معروف بكثرة السباع والأسود. والفنيق: الفحل المكرم والمسدم: الذي جعل على فمه الكمام.

والإثم، والجفا، والدعوة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: لا تطعه لأن كان ذا مال وبنين، يعني: لماله وبنيه، ـ عن الزجّاج، والفرّاء ـ. ومن قرأ بالإستفهام، فلا بدَّ أن يكون صلة «ما» بعده؛ لأنّ الإستفهام لا يتقدّم عليه ما كان في حيّزه، فيكون المعنى: ألأن كان ذا مال وبنين، يجحد آياتنا، أي: جعل مجازاة النعم التي خوّلها من البنين والمال، الكفر بآياتنا، وهو قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديث الأوائل التي سطرت وكتبت، لا أصل لها.

ثمّ أوعده سبحانه، فقال: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ أي: سنسمه يوم القيامة بسمة تشوه خلقته، فيعرف من رآه أنّه من أهل النار. وإنّما خصَّ الأنف؛ لأنّ الإنسان يعرف بوجهه. والأنف وسط الوجه. وهذا على عادة العرب، فإنّهم يقولون: شمخ فلان بأنفه، وأرغم الله أنفه، وحمى فلان أنفه. وقيل: معناه: سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم. وجائز أنْ يفرد بسمة؛ لمبالغته في عداوة النبيّ ﷺ، فيخصّ من التشويه بما يتبيّن به من غيره، كما كانت عداوته للرسول عداوة يتبيّن بها من غيره، ـ عن الزجّاج ـ. وقال الفرّاء: الخرطوم قد خصَّ بالسمة؛ لأنّه في مذهب الوجه، فإنّ بعض الوجه يؤدّي عن الكل. وقيل: إنّ المعنى: سنخطمه بالسيف في القتال حتى يبقى أثره، ففعل ذلك يوم بدر، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: سنعلمه بشين يبقى على الأبد، ـ عن قتادة ـ. وقال القتيبي: العرب تقول: قد وسمه ميسم سوء، يريدون: ألصق به عاراً لا يفارقه؛ لأنّ السمة لا تنمحق، ولا يعفو أثرها. وقد ألحق الله بمن ذكر عاراً لا يفارقه، بما وسمه به من العيوب التي هي كالوسم في الوجه. وقيل: إنّ الخرطوم الخمر، فالمعنى: سنسمه على شرب الخمر. قال الشاعر:

أَبَا حَاضِرٍ مَنْ يَزْنِ يُعْرَفْ زِنَاؤُهُ
وَمَنْ يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُصْبِحْ مُسَكَّرًا[1]

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وأبو عمرو: ﴿أَنْ يُبَدِّلَنَا﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقد مرَّ ذكره في سورة الكهف.

اللغة: الصرام والجداد في النخل، بمنزلة الحصاد. والقطاف: في الزرع والكرم. يقال: صرمت النخلة وجددتها، وأصرم النخل وأجدت: حان ذلك منها. والصريم: الليل الأسود. وأنشد أبو عمرو:

---

(١) أبو حاضر: صحابي، لا يعرف اسمه.

(٢) أدغم «بل نحن» الكسائي.

أَلاَ بَكَـرَتْ وَعـاذِلَتِي تَـلُومُ تُجَهِّلُنِي، وَمَا انْكَشَفَ الصَّرِيمُ[١]

وقال الآخر:

تَـطاوَلَ لَـيْلُكَ الْـجَوْنُ الْـبَهِيمُ فَـما يَـنْجابُ عَـنْ صُبْحٍ صَـرِيمُ[٢]

إِذا مـا قُـلْتُ: أَقْشَعَ أَنْ [أَوْ] تَـناهىٰ جَـرَتْ مِـنْ كُـلِّ نـاحِيَةٍ غُـيُومُ

ويسمّى النهار أيضاً صريماً، فهو من الأضداد؛ لأنّ الليل ينصرم عند مجيء النهار، والنهار ينصرم عند مجيء الليل. والصريم أيضاً: المصروم أي: صرم جميع ثمارها. وقيل: الصريم: منقطع الرمل الذي لا نبات فيه. قال امرؤ القيس:

وَظَلَّ لِصِيرانِ الصَّرِيمِ غَـماغِمُ تُدَعِّسُها بِالسَّمْهَرِيِّ الْمُغَلَّبِ[٣]

والطائف: الطارق بالليل. وإذا قيل: اطاف به، صلح في الليل والنهار. وأنشد الفرّاء:

أَطَفْتُ بِـهٰا نَـهاراً، غَـيْرَ لَـيْلٍ وَأَلْهٰى رَبَّها طَلَبُ الرِّخالِ[٤]

والرخال: الإناث من أولاد الضأن. واحدتها: رخل. والحـرد: المـنع، مـن قولهم حاردت السنة: إذا منعت قطرها. وحاردت الناقة: إذا مـنعت لبـنها. قـال الكميت:

وَحارَدَتِ المُكْدُ الْجِلادُ، وَلَمْ يَكُنْ بِعُقْبَةِ قِدْرِ الْـمُسْتَعِيرِينَ مُـعْقِبُ[٥]

ويروي النكد، وهي النوق الغزيرات الألبـان. وقـيل: إنّ أصـل «الحـرد»

---

(١) يعني: جاءت وما انكشف الليل في وقت كانت عاذلتي تلومني، وتجهلني في انتظارها، وتؤيسني منها.

(٢) استعمل «الجون» في معنى الأسود هنا. وينجاب أي: ينكشف.

(٣) صيران: جمع سوار، قطيع البقر. والغمغمة: صوتها. والدعس: الطعن، وكذلك التدعيس. والسمهري: الرمح الصلب. والمغلّب: المقدر له الغلبة. يصف صيد بقر الوحش.

(٤) الرخال الاناث من اولاد الضان كانه يصف فجورها بامرأة نهاراً وبعلها غائب في قطيعه.

(٥) مكد: جمع مكود، وهي الناقة الكثيرة اللبن، وكذلك الجلاد، واعقب مستعبر [مستعير] القدر ردها، وفيها بقية من الطعام، ومراده لم يعقب احد.

القصد. قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جاءَ مِنْ عِـنْدِاللهْ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْـمُغِلَّة[١]

أي: يقصد. وحرد يحرد حرداً. وقيل: الحرد: الغضب والحنق. قال الأشهب بن رميلة:

أُسُـــودُ شَـــرىً لاقَتْ أُسُـــودَ خَـــفِيَّةٍ تَساقَوْا عَلىٰ حَرْدٍ ماءَ [دِماءَ] الْأَسَاوِدِ(١)

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعني: أهل مكّة أي: اختبرناهم بالجوع والقحط ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: البستان الذي فيه الشجر. قال سعيد بن جبير: وهذه الجنّة حديقة كانت باليمن في قرية يقال لها: صروان، بينها وبين صنعاء اثنا عشر ميلاً، كانت لشيخ، وكان يمسك منها قدر كفايته، وكفاية أهله، ويتصدّق بالباقي. فلمّا مات، قال بنوه: نحن أحقّ بها؛ لكثرة عيالنا، ولا يسعنا أنْ نفعل كما فعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين، فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله تعالى في كتابه وهو قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: ليقطعنَّ ثمرتها إذ[ا] دخلوا في وقت الصباح.

﴿وَلاَ يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: غير مستثنين في أيمانهم، فلم يقولوا: إن شاء الله، فإنّ قول القائل: لأفعلنَّ كذا إلّا أنْ يشاء الله استثناء، ومعناه: إلّا أن يشاء الله منعي، أو تمكين مانعي.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أحاطت بها النار، فاحترقت، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: طرقها طارق من أمر الله، ـ عن قتادة ـ. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: في حال نومهم. قال مقاتل: بعث الله ناراً بالليل على جنَّتهم

---

(١) شرى: موضع كثير الأسد. والخفيّة: الغيضة الملتفة. وتساقوا أي: سقي كل واحد منهم الآخر.

[١] الجنة أو الصنيعة المغلة: التي أتت بشيء، وأصلها باق.

فأحرقتها، حتى صارت مسودّة، فذلك قوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم. والصريمان: الليل والنهار؛ لانصرام أحد هما من الآخر، ـ عن ابن عبّاس، وأبي عمرو بن العلاء ـ. وقيل: الصريم: المصروم ثماره أي: المقطوع. والمعنى: إنّها صارت كأنّ جميع ثمارها قطعت، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: الصريم: الذي صرم عنه الخير، فليس فيه شيء منه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: كالصريم أي: كالرملة انصرمت عن معظم الرمل، ـ عن مؤرج ـ. وقيل: كالرماد الأسود بلُغة خزيمة.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضاً وقت الصباح. وأصل «التنادي» من الندى ـ بالقصر ـ؛ لأنّ النداء الدعاء بندي الصوت الذي يمتدّ على طريقة: يا فلان!؛ لأنّ الصوت إنّما يمتدّ للإنسان بندى حلقه.

﴿أَنِ اغْدُوْا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: تنادوا بأن اغدوا. معناه: قال بعضهم لبعض: أغدوا على حرثكم. والحرث: الزروع والأعناب. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: قاطعين النخل.

﴿فَانطَلَقُوا﴾ أي: فمضوا إليها ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يتسارون بينهم. وأصله من خَفَت فلان يخفت: إذا أخفى نفسه ﴿أَن لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِسْكِينٌ﴾ هذا ما كانوا يتخافتون به.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: على قصد منع الفقراء ﴿قَادِرِينَ﴾ عند أنفسهم وفي اعتقادهم، على منعهم وإحراز ما في جنّتهم. وقيل: على حرد أي: على جدّ وجهد من أمرهم، ـ عن مجاهد وقتادة وأبي العالية ـ. وقيل: على جدّ في المنع، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: على حنق وغضب من الفقراء، ـ عن سفيان ـ. وقيل: قادرين مقدرين موافاتهم في الجنّة، في الوقت الذي قدروا [إ]صرامها فيه، وهو وقت الصبح. والتقدير: قصدوا الجنّة للوقت الذي قدروا [إ]صرامها فيه، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: رأوا الجنّة على تلك الصفة ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ ضللنا عن الطريق فليس هذا بستاننا، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إنّا لضالّون عن الحقّ في أمرنا، فلذلك عوقبنا بذهاب ثمر جنّتنا.

ثمّ استدركوا، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ والمعنى: إنّ هذه جنّتنا، ولكن حرمنا نفعها وخيرها لمنعنا حقوق المساكين، وتركنا الإستثناء.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدلهم قولاً، ـ عن ابن عبّاس والحسن ومجاهد ـ. وقيل: معناه: أفضلهم وأعقلهم، وقيل: أوسطهم في السنّ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾ كأنّه كان حذرهم سوء فعالهم قال: لولا تستثنون، ـ عن مجاهد ـ لأنّ في الإستثناء التوكّل على الله، والتعظيم لله، والإقرار بأنّه لا يقدر أحد على فعل شيء إلّا بمشيئة الله، فلذلك سمّاه تسبيحاً. وقيل: معناه: هلّا تعظمون الله بعبادته، واتّباع أمره. وقيل: معناه: هلّا تذكرون نعم الله عليكم، فتؤدّوا شكرها بأن تخرجوا حقّ الفقراء من أموالكم. وقيل: معناه: هلّا نزّهتم الله تعالى عن الظلم، واعترفتم بأنّه لا يظلم، ولا يرضى منكم بالظلم. وقيل: معناه: لم لا تصلون.

ثمّ حكى عنهم أنّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في عزمنا على حرمان المساكين من حصّتهم عند الصرام، فحرمنا قطعها، وبالإنتفاع [الإنتفاع] بها. والمعنى: إنّه سبحانه منزّه على الظلم، فلم يفعل بنا ما فعله ظلماً، وإنّما الظلم وقع منّا حيث منعنا الحقّ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما فرط منهم.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ قد غلونا في الظلم، وتجاوزنا الحدّ فيه. والويل: غلظ المكروه الشاقّ على النفس. والويس دونه، والويح بينهما. قال عمرو ابن عبيد: يجوز أنْ يكون ذلك منهم توبة، ويجوز أنْ يكون على حدّ ما يقول الكافر إذا وقع في الشدّة.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا﴾ أي: لمّا تابوا ورجعوا إلى الله، قالوا: لعلّ الله يخلف علينا، ويولينا خيراً من الجنّة التي هلكت ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي: نرغب إلى الله، ونسأله ذلك، ونتوب إليه ممّا فعلناه. وقرىء يبدلنا بالتشديد والتخفيف، ومعناهما واحد.

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا للعاصين ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

﴿يَعْلَمُونَ﴾ والأكبر: هو الذي يصغر مقدار غيره بالإضافة إليه. وروي عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: بلغني أنّ القوم أخلصوا، وعرف الله تعالى منهم الصدق، فأبدلهم [فأيّدلهم] بها جنّة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً. وقال أبو خالد اليمامي: رأيت تلك الجنّة، ورأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ
فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (١) ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم
بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾
يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

(اللغة): الزعيم والكفيل والضمين والقبيل، نظائر. والساق للإنسان. وساق الشجرة: ما تقوم عليه، وكل نبت له ساق، ويبقى صيفاً وشتاء فهو شجرة. قال طرفة:

لِلْفَتىٰ عَقْلٌ يَعيشُ بِهِ ... حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهُ

وتقول العرب: قامت الحرب على ساق، وكشفت عن ساق، يريدون شدّتها.

---

(١) قرا البزي بخلفه «لما تّخيرون» ـ بتشديد التاء ـ .

وقال جدّ أبي طرفة:

كَشَفَتْ لَكُمْ عَنْ سَاقِها وَبَدَا مِنَ الشَّرِ الصُراخْ[١]

وقال آخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِها فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌ عَرَنْدٌ[٢]

﴿الإعراب﴾: ﴿كَيْفَ﴾ في محلّ نصب على الحال، تقديره: أجائرين تحكمون أم عادلين. ويجوز أن يكون في محلّ المصدر، وتقديره: أيَّ حكم تحكمون. و «تحكمون»: في موضع النصب، على الحال من معنى الفعل في قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ لأنّ معنى قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيُّ شيء ثبت لكم. و«أم» في جميع ذلك منقطعة.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ : كسرت ﴿إنَّ﴾ لمكان اللام في ﴿لَما﴾ ولولاها لوجب فتحها؛ لأنّه مفعول ﴿تَدْرُسُونَ﴾ ، وهو كقوله: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ﴾ مثله. وإنْ شئت قلت: إنّما كسرت «إنّ»؛ لأنّ ما قبله يمين، وهي تكسر في جواب القسم.

وقوله: ﴿يَومَ يَكْشِفُ عَنِ ساقَ﴾ : العامل في الظرف قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾. و﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ حال. و ﴿مَنْ يُكَذِّبُ﴾: يجوز أنْ يكون مفعولاً معه، ويجوز أنْ يكون عطفاً على ضمير المتكلّم من ﴿ذَرْنِي﴾.

﴿المعنى﴾: لمّا ذكر سبحانه ما أعدَّه في الآخرة للكافرين، عقَّبه بذكر ما أعدَّه للمتّقين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يتنعّمون فيها، ويختارونها على جنّات الدنيا التي يحتاج صاحبها إلى المشقة والعناء.

ثمّ استفهم سبحانه على وجه الإنكار، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ

---

(١) الصراخ: الصوت.

(٢) وترعرند أي: غليظ. وشمرت الحرب عن ساقها أي: جدت.

﴿كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا نجعل المسلمين كالمشركين في الجزاء والثواب، وذلك أنّهم كانوا يقولون: إنْ كان بعث وجزاء، كما يقوله محمّد، فإنّ حالنا يكون أفضل في الآخرة، كما في الدنيا، فأخبر سبحانه أنّ ذلك لا يكون أبداً.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تهجينٌ لهم، وتوبيخ، ومعناه: أيُّ عقل يحملكم على تفضيل الكفّار حتى صار سبباً لإصراركم على الكفر، ولا يحسن في الحكمة التسوية بين الأولياء والأعداء في دار الجزاء.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ معناه: بل ألكم كتاب تدرسون فيه ذلك، فأنتم متمسّكون به، لا تلتفتون إلى خلافه، فإذاً قد عدمتم الثقة بما أنتم عليه، وفي الكتاب الذي هو القرآن عليكم أكبر الحجّة؛ لأنّه الدلالة القائمة إلى وقت قيام الساعة، والمعجزة الشاهدة بصدق من ظهرت على يده.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ فيه وجهان أحدهما: إنّ تقديره: أم لكم كتاب فيه تدرسون، بأنّ لكم فيه ما تخيّرون، إلّا أنّه حذف الباء، وكسرت ﴿إِنَّ﴾ لدخول اللام في الخبر. والثاني: إنّ معناه: إنّ لكم لما تخيّرونه عند أنفسكم، والأمر بخلاف ذلك. ولا يجوز أن يكون ذلك على سبيل الخير المطلق.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: بل لكم عهود ومواثيق علينا، عاهدناكم بها، فلا ينقطع ذلك إلى يوم القيامة. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم به من الخير والكرامة عند الله تعالى. وقيل: «بالغة» معناها: مؤكّدة. وكل شيء متناه في الجودة والصحّة، فهو بالغ.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿سَلْهُمْ﴾ يا محمّد ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ يعني: أيّهم كفيل بأنّ لهم في الآخرة ما للمسلمين.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ معناه: أم لهم شركاء في العبادة مع الله، وهي الأصنام، فليأتوا بهؤلاء الشركاء إنْ كانوا صادقين في أنّها

شركاء الله. وقيل: معناه: أم لهم شهداء يشهدون لهم بالصدق، فتقوم به الحجّة، فليأتوا بهم يوم القيامة يشهدون لهم على صحّة دعواهم، إنْ كانوا صادقين في دعواهم.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: فليأتوا بهم في ذلك اليوم الذي تظهر فيه الأهوال والشدائد. وقيل: معناه: يوم يبدو عن الأمر الشديد الفظيع، ـ عن ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ـ. قال عكرمة: سأل ابن عبّاس عن قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فقال: إذا خفي عليكم شيء في القرآن، فابتغوه في الشعر، فإنّه ديوان العرب، أما سمعتم قول الشاعر: «وقامت الحرب بنا على ساق» هو يوم كرب وشدّة. وقال القتيبي: أصل هذا أنّ الرجل إذا وقع في أمر عظيم، يحتاج إلى الجدّ فيه، يشمر عن ساقه، فاستعير الكشف عن الساق في موضع الشدّة. وأنشد لدريد بن الصمة:

كَميشُ الاَزارِ خارِجٌ نِصْفُ ساقِهِ بَعِيدٌ مِنَ الآفاتِ، طَلاَّعُ أَنْجُدِ[1]

فتأويل الآية: يوم يشتدّ الأمر، كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أنْ يكشف عن ساق ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أي: يقال لهم على وجه التوبيخ اسجدوا ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ وقيل: معناه: إنّ شدّة الأمر، وصعوبة ذلك اليوم، تدعوهم إلى السجود، وإنْ كانوا لا ينتفعون به ليس أنّهم يؤمرون به. وهكذا كما يفزع الإنسان إلى السجود، إذا أصابه هول من أهوال الدنيا.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم، لا يرفعون نظرهم عن الأرض ذلّة ومهانة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلّة الندامة والحسرة.

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أي: أصحاء يمكنهم

---

(١) كميش الازار أي: مشمر، كناية عن الجدّ في الأمر، يصف رجلاً.

السجود فلا يسجدون، يعني: إنّهم كانوا يؤمرون بالصلاة في الدنيا، فلم يفعلوا. قال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون «حيَّ على الفلاح»، فلا يجيبون. وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلّا في الذين يتخلّفون عن الجماعات. وقد ورد عن الربيع بن خيثم [خثيم] أنّه عرض له الفالج، فكان يهادى بين رجلين إلى المسجد. فقيل له: يا أبا يزيد! لو جلست فإنّ لك رخصة؟ قال: من سمع «حيَّ على الفلاح» فليجب ولو حبواً. وروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا في هذه الآية: أُفحم القوم [القول]، ودخلتهم الهيبة، وشخصت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، لما رهقهم من الندامة والخزي والمذلّة، وقد كانوا يدعون إلى السجود، وهم سالمون أي: يستطيعون الأخذ بما أُمروا به، والترك لما نهوا عنه، ولذلك ابتلوا. وقال مجاهد، وقتادة: يؤذن المؤذن يوم القيامة، فيسجد المؤمن، وتصلب ظهور المنافقين، فيصير سجود المسلمين حسرة على المنافقين، وندامة. وفي الخبر: «إنّه تصير ظهور المنافقين كالسفافيد»[١].

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هذا تهديد، معناه: فذرني والمكذّبين أي: كِلْ أمرهم إليّ، كما يقول القائل: دعني وإيّاه، يقول: خَلِّ بيني وبين من يكذّب بهذا القرآن، ولا تشغل قلبك به، فإنّي أكفيك أمره ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: سنأخذهم إلى العقاب حالاً بعد حال. وقد مرّ تفسيره في سورة الأعراف. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: إذا أحدث العبد ذنباً، جدّد له نعمة، فيدع الإستغفار فهو الإستدراج.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: وأُطيل آجالهم، ولا أُبادر إلى عذابهم مبادرة من يخشى الفوات، فإنّما يعجل من يخاف الفوت. إنّ عذابي لشديد.

---

[١] السفانيد جمع السفود ـ كنفور ـ حديدة يشوى عليها اللحم.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة: «ليَزْلقونك» ـ بفتح الياء ـ. والباقون: «ليُزلقونك» ـ بضمّ الياء ـ.

الحجة: من قرأ بفتح الياء، جعله من زلق وزلقته أنا مثل: حزن وحزنته، وشترت عينه وشترتها[١]. قال أبو عليّ: والخليل يذهب في ذلك إلى أنّ المعنى جعلت فيه شَتَراً، وجعلت فيه حزناً، كما أنّك إذا قلت: كحلته ودهنته أردت: جعلت ذلك فيه. ومن قرأ بضمّ الياء وجعله من أزلفته، نقل الفعل بالهمزة. ومعنى ﴿يَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾: ينظرون إليك نظر البغضاء، كما ينظر الأعداء. ومثله قول الشاعر:

يَتَقَارَضُونَ إِذا ٱلْتَقُوا في مَجْلِسٍ ... نَظَراً يُزِيلُ مَواقِعَ الأَقْدامِ

اللغة: المغرم: ما يلزم من الدين الذي يلحّ في اقتضائه، وأصله من اللزوم بالإلحاح. ومنه: قوله: ﴿إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ أي: لازماً ملحّاً. قال الشاعر:

وَيَوْمُ الْجِفارِ، وَيَوْمُ النِّسارِ ... كانا عَذاباً، وَكانا غَراماً[٢]

---

[١] شتر عينه: قلب جفنها. والشتر: النقص والعيب.

[٢] الجفار: موضع، وقيل: ماء لبني تميم. النسار: موضع، وقيل: ماء لبني عامر، ومنه يوم النِّسار لبني أسد وذُبيان على جُشَم بن معاوية.

والمثقل: المحمل الثقل، وهو مثقل بالدين، ومثقل بالعيال، ومثقل بما عليه من الحقوق اللازمة والأُمور الواجبة. والمكظوم: المحبوس عن التصرّف في الأُمور. ومنه: كظمت رأس القربة: إذا شدّدته. وكظم غيظه: إذا حبسه بقطعه عمّا يدعو إليه. وكظم خصمه: إذا أجابه بالمسكت. والعراء: الأرض العارية من النبات. قال قيس بن جعدة:

وَرَفَعْتُ رِجْلاً، لاٰ أَخَافُ عِثَارَها ... وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابي

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه النبيّ ﷺ، فقال على وجه التوبيخ للكفّار: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ هذا عطف على قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ذكر سبحانه جميع ما يحتجُّ به، فقال: أم تسأل يا محمّد هؤلاء الكفّار إجزاء [أجرا] على أداء الرسالة، والدعاء إلى الله ﴿فَهُم مِن مَغْرَمٍ﴾ أي: هم من لزوم ذلك ﴿مُثْقَلُونَ﴾ أي: محملون الأثقال.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: هل عندهم علم بصحّة ما يدعونه اختصّوا به لا يعلمه غيرهم، فهم يكتبونه، ويتوارثونه، وينبغي أن يبرزوه.

ثمّ قال للنبي ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في إبلاغ الرسالة، وترك مقابلتهم بالقبيح. وقيل: اللام تجري مجرى «إلى»، والمعنى: إصبر إلى أنْ يحكم الله بنصر أوليائك، وقهر أعدائك. وقيل: معناه: فاصبر لحكم الله في التخلية بين الظالم والمظلوم، حتى يبلغ الكتاب أجله ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: يونس أي: لا تكن مثله في استعجال عقاب قومه، وإهلاكهم، ولا تخرج من بين قومك من قبل أنْ يأذن لك الله كما خرج هو ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: دعا ربّه في جوف الحوت، وهو محبوس عن التصرّف في الأُمور، والذي نادى به قوله: «لا إله إلّا أنت، سبحانك إنّي كنت من الظالمين» وقيل: مكظوم أي: مختنق بالغمّ، إذ لم يجد لغيظه شفاء.

﴿لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ أي: لولا أَنْ أدركتهُ رحمة من ربّه بإجابة دعائه، وتخليصه من بطن الحوت، وتبقيته فيه حيّاً، وإخراجه منه حيّاً ﴿لَـنُبِذَ﴾ أي: طرح ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي: في الفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ملوم [مليم] قد أتى بما يلام عليه، ولكن الله تعالى تداركه بنعمة من عنده، فطرح بالعراء، وهو غير مذموم.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره الله نبياً ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من جملة المطيعين لله، التاركين لمعاصيه.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إنْ: هذه هي المخفّفة من الثقيلة، والتقدير: وإنّه يكاد أي: يقارب الذين كفروا.

﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: ليزهقونك أي: يقتلونك ويهلكونك، ـ عن ابن عبّاس ـ، وكان يقرأها كذلك. وقيل: ليصرعونك، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: يصيبونك بأعينهم، ـ عن السدّي ـ. والكل يرجع في المعنى إلى الإصابة بالعين، والمفسّرون كلّهم على أنّه المراد في الآية. وأنكر الجبائي ذلك، وقال: إنّ إصابة العين لا تصحّ. وقال عليّ بن عيسى الرماني: وهذا الذي ذكره غير صحيح؛ لأنّه غير ممتنع أنْ يكون الله تعالى أجرى العادة لصحّة ذلك؛ لضرب من المصلحة، وعليه إجماع المفسّرين، وجوزه العقلاء، فلا مانع منه.

وجاء في الخبر أنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله! إنّ بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين». وقيل: إنّ الرجل منهم كان إذا أراد أن يصيب صاحبه بالعين تجوّع ثلاثة أيام [أم]، ثمّ كان يصفه، فيصرعه بذلك، وذلك بأن يقول للذي يريد أنْ يصيبه بالعين: لا أرى كاليوم إبلاً، أو شاء أو ما أراد أي: كإبل أراها اليوم. فقالوا للنبيّ ﷺ كما كانوا يقولون لما يريدون أَنْ يصيبوه بالعين، ـ عن الفرّاء، والزجّاج ـ. وقيل: معناه: أنّهم ينظرون إليك عند تلاوة القرآن، والدعاء إلى التوحيد، نظر عداوة، وبغض، وإنكار

لما يسمعونه، وتعجّب منه، فيكادون يصرعونك بحدّة نظرهم، ويزيلونك عن موضعك. وهذا مستعمل في الكلام، يقولون: نظر إليّ فلان نظراً يكاد يصرعني، ونظراً يكاد يأكلني فيه، وتأويله كله أنّه نظر إليّ نظراً لو أمكنه معه أن يأكلني، أو يصرعني لفعل، ـ عن الزجّاج ـ.

وقوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: مغلوب على عقله، مع علمهم بوقاره، ووفور عقله، تكذيباً عليه، ومعاندة له.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي: شرف ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ إلى أنْ تقوم الساعة. وقيل: معناه: وما محمّدﷺ إلّا شرف للخلق، حيث هداهم إلى الرشد، وأنقذهم من الضلالة، لما نسبوه إلى الجنون. وصفه بما ينفي ذلك عنه. وقيل: المراد بالذكر: إنّه يذكرهم أمر آخرتهم، والثواب والعقاب، والوعد والوعيد. قال الحسن: دواء إصابة العين أنْ يقرأ الإنسان هذه الآية.

سورة الحاقة

عدد آياتها: إحدى وخمسون آية بصريّ وشاميّ، وآيتان في الباقين.

اختلافها: آيتان «الحاقّة»: الأُولى كوفيّ، «كتابه بشماله»: حجازيّ.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة «الحاقة» حاسبه الله حساباً يسيراً». وروي جابر الجعفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أكثروا من قراءة الحاقّة، فإنّ قراءتها في الفرائض والنوافل من الإيمان بالله ورسوله، ولم يسلب قارئها دينه حتى يلقى الله.

تفسيرها: لما ذكر في آخر سورة القلم، حديث القيامة، ووعيد الكفّار، افتتح هذه السورة بذكر القيامة أيضاً، وأحوال أهل النار، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا
عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾
وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل البصرة والكسائي: «ومَنْ قِبَله» ـ بكسر القاف، وفتح الباء ـ. والباقون: ﴿ومَنْ قَبْلَهُ﴾ ـ بفتح القاف، وسكون الباء ـ.

الحجة: قال سيبويه: قِبَلْ: لِما ولي الشيء، تقول: ذهبت قِبَل السوق، ولي قِبَلك حقٌّ أي: فيما يليك، واتسع فيه حتى صار بمنزلة لي عليك حقّ. وحجّة من

---

(١) «كذّبت ثمود» أدغمها أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر من طريق هشام ومن بعض طرق ابن ذكوان. وأدغم «هل ترى» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي. وأبدل الهمز من «مؤتفكات» قالون بخلفه وورش، وأبو عمرو بخلفه. وأبدل «بالخاطئة» أبو جعفر وحده، كوقف حمزة.

قرأ، أنّهم زعموا أنّ في قراءة أُبيّ ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ﴾ وهذا يقوّي ﴿وَمَنْ قَبلهُ﴾؛ لأنّ «قبل» لما ولي الشيء ممّا لم يتخلّف عنه، وهو يتبعه، ويَحفّ به.

وحجّة من قال: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أنّ معناه: ومن قبله من الأُمم التي كفرت، كما كفر هو.

اللغة: قال ابن الأنباري: الحاقّة الواجبة حقّ أي: وجب يحقّ حقّاً وحقوقاً فهو حاقّ. وقال الفرّاء: تقول العرب لما عرفت الحقّ منّي هربت. والحقّة والحاقّة بمعنى. وقيل سمّيت القيامة الحاقّة؛ لأنّها تحقّ الكفّار من قولهم: حاققته فحققته، مثل: خاصمته فخصمته. وسميت القارعة؛ لأنّها تقرع قلوب العباد بالمخافة إلى أن يصير المؤمنون إلى الأمن. ودريت الشيء دراية ودُرية: علمته. وأَدريته: أعلمته.

والطاغية: الطغيان، مصدر مثل: العافية. والصرصر: الريح الشديدة الصوت. والحسوم: المتوالية، مأخوذ من حسم الداء بمتابعة الكي عليه، فكأنّه تتابع الشرّ عليهم حتى استأصلهم. وقيل: هو من القطع، فكأنّها حسمتهم حسوماً أي: أذهبتهم وأفنتهم، وقطعت دابرهم. والخاوية: الخالية التي لا شيء في أجوافها.

الإعراب: العامل في ﴿الحَاقّة﴾ أحد شيئين: إمّا الإبتداء، والخبر ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ كما تقول: زيد ما زيد. وإمّا أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي: هذه الحاقّة. ثمّ قيل: أيّ شيء الحاقة، تفخيماً لشأنها.

و﴿حَسُوماً﴾ نصب على المصدر الموضوع موضع الصفة لـ«ثمانية» أي: تحسمهم حسوماً. ويجوز أنْ يكون جمع حاسم، فيكون مثل: راقد ورقود، وساجد وسجود. وعلى هذا فيكون منصوباً على أنّه صفة لثمانية أيضاً.

و﴿صَرْعى﴾ : نصب على الحال. وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازَ نَخْلٍ خَاوِيَة﴾: جملة في موضع الحال من ﴿صَرْعِي﴾ أي: صرعوا أمثال نخل خاوية. و﴿مِنْ﴾:

مزيدة في قوله: ﴿مِنْ بَاقِيَة﴾.

المعنى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إسم من أسماء القيامة في قول جميع المفسّرين، وسمّيت بذلك؛ لأنّها ذات الحواقّ من الأُمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق؛ لأنّ جميع أحكام القيامة واجبة الوقوع، صادقة الوجود ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهام، معناه: التفخيم لحالها، والتعظيم لشأنها.

ثمّ زاد سبحانه في التهويل، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ أي: كأنك لست تعلمها؛ إذ لم تعاينها، ولم ترَ ما فيها من الأهوال. قال الثوري: يقال للمعلوم ما أدراك، ولما ليس بمعلوم ما يدريك في جميع القرآن. وإنّما قال لمن يعلمها: ﴿مَا أَدْرَاكَ﴾؛ لأنّه إنّما يعلمها بالصفة.

ثمّ أخبر سبحانه عن المكذّبين بها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ أي: بيوم القيامة. وإنّما حسن أنْ توضع القارعة موضع الكناية؛ لتذكر بهذه الصفة الهائلة بعد ذكرها بأنّها الحاقّة، وإلاّ فقد كافى يكفي أَنْ يقول كذبت ثمود وعاد بها.

ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة إهلاكهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: أُهلكوا بطغيانهم وكفرهم، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. وقيل: معناه: أُهلكوا بالصيحة الطاغية، وهي التي جاوزت المقدار حتى أهلكتهم، ـ عن قتادة، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وقال الزجّاج: أُهلكوا بالرجفة الطاغية. وقيل: بالخصلة المتجاوزة لحال غيرها في الشدّة التي أهلك الله بها أهل الفساد.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: باردة، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ. كأنّه تصطك الأسنان بما يسمع من صوتها؛ لشدّة بردها. وقيل: الصرصر الشديدة العصوف، المتجاوزة لحدّها المعروف.

﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت على خزآنهافي شدّة الهبوب. روى الزهري، عن قبيصة بن ذؤيب أنّه قال: ما يخرج من الريح شيء إلّا عليها خزان يعلمون قدرها، وعددها، وكيلها، حتى كانت التي أُرسلت على عاد، فاندفق منها، فهم لا يعلمون قدر غضب الله، فلذلك سمّيت عاتية.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلّطها الله، وأرسلها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ قال وهب: وهي التي تسمّيها العرب أيّام العجوز، ذات برد ورياح [شديدة. وإنّما نسبت هذه الأيّام إلى العجوز؛ لأنّ عجوزاً دخلت سربا، فتعبتها الريح] فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب، فانقطع العذاب في اليوم الثامن. وقيل: سمّيت أيّام العجوز؛ لأنّها في عجز الشتاء، ولها أسامي مشهورة، قالوا لليوم الأوّل: صِنّ، وللثاني: صِنّبْر، وللثالث: وَبْر، وللرابع: مُطفىء الجَمْر، وللخامس: مكفىءُ الظَعن، وقيل: للسادس الآمر، وللسابع: المؤتمر، وللثامن: المعلل. وقال في ذلك شاعرهم:

كُسِعَ الشِّتاءُ بِسَبْعَةٍ غُبْرٍ ... أَيَّامِ شَهْلَتِنا مَعَ الشَّهْرِ
فَبِآمِرٍ، وَأَخِيهِ مُؤْتَمِرٍ ... وَمُعَطِّلٍ [مُعَلِّلٍ]، وَبِمُطْفِىءِ الْجَمْرِ
فَإِذا أَنْقَضَتْ أَيّامُ شَهْلَتِنا ... بِالصِّنِّ، وَالصِّنَّبْر، وَالْوَبْرِ
ذَهَبَ الشِّتاء مُوَلِّياً هَرِباً ... وَأَتَتْكَ وافِدَةٌ [واقِدَةٌ] مِنَ النَّجْرِ[1]

﴿حُسُوماً﴾ أي: ولاء متتابعة، ليست لها فترة، ـ عن ابن عبّاس وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة ـ. كأنّه تتابع عليهم الشرّ حتى استأصلهم. وقيل: دائمة، ـ عن الكلبي ومقاتل ـ. وقيل: قاطعة قطعتهم قطعاً حتى أهلكتهم، ـ عن الخليل ـ. وقيل: مشائيم نكداء قليلة الخير حسمت الخير عن أهلها، ـ عن عطية ـ. ﴿فَتَرَى

---

(١) كسعه: ضربه على عقبه. والشهلة. العجوز، يعني: ذهب الشيء [الشتاء]، وانقضى بانقضاء شهرنا، ثمّ عد أيّام برد العجوز. والنجر: الحر وإسخان الماء بالحصا المتوقّدة في الشمس.

﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الأيّام والليالي ﴿صَرْعَىٰ﴾ أي: مصروعين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: أُصول نخل بالية نخرة، ـ عن قتادة ـ. وقيل خاوية: فارغة خالية الأجواف، ـ عن السدي ـ. وقيل: ساقطة مثل قوله: ﴿أَعْجَازَ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِن بَاقِيَةٍ﴾ أي: من نفس باقية. وقيل: من بقاء. والباقية بمعنى المصدر مثل: العافية والطاغية. والمعنى: هل ترى لهم من بقية أي: لم يبق منهم أحد.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ مرَّ معناه. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ أي: وجاء أهل القرى المؤتفكات أي: المنقلبات بأهلها، ـ عن قتادة ـ، وهي قرى قوم لوط، يريد الأُمم والجماعات الذين ائتفكوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بخطيئتهم التي هي الشرك والكفر. فالخاطئة مصدر كالخطأ والخطيئة. وقيل: معناه: بالأفعال الخاطئة أي: بالنفس الخاطئة.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ فيما أمرهم به. وقيل: إنّ المراد بالرسول الرسالة، كما في قول الشاعر:

لَقَدْ كَذِبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ، وَلاَ أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[١]

أي: برسالة، ـ عن أبي مسلم ـ. والأوّل أظهر. ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله بالعقوبة ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: زائدة في الشدّة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: نامية زائدة على عذاب الأُمم. وقيل: عالية مذكورة خارجة عن العادة.

---

[١] باح بسره: أظهره.

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١) ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾
وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ
وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ
﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

القراءة: قرأ ابن كثير في رواية القواس: ﴿وَتَعْيَهَا﴾ ـ بسكون العين ـ مختلساً وهو بين الكسر والسكون. والباقون: بكسر العين.

وقرأ حمزة، والكسائي: «لا يخفى» ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: الوجه في سكون العين من: ﴿تَعْيَهَا﴾: أنّه جعل حرف المضارعة مع ما بعده بمنزلة فخْد [فخذ]، فأَسكن؛ لأنّ حرف المضارعة لا تنفصل من الفعل، فصار كقولك فهو، وفهي. والياء والتاء في قوله: «لا يخفى» حسن.

اللغة: الجارية: السفينة التي من شأنها أنْ تجري على الماء. والجارية:

---

(١) قرأ «أذْن» ـ بسكون الذال ـ نافع وحده.

المرأة الشابّة؛ لأنّه يجري فيها ماء الشباب. يقال: وعيت العلم أعيه وعياً. وأوعيت المتاع: جعلته في الوعاء. قال:

إِذا لَمْ تَكُنْ حافِظاً واعِياً فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لا يَنْفَعُ

والدّكّ: البسط. ومنه: الدكّان. واندكَّ سنام البعير: إذا انفرش على ظهره. والأَرجاء: النواحي، واحدها: رجا ـ مقصور ـ، والتثنية: رجوان. وهاؤم: أمر للجماعة بمنزلة: هاكم، تقول للواحد: هاءَ يا رجل، وللإثنين: هاؤُما يا رجلان، وللجماعة: هاؤم يا رجال، وللمرأة: هاءِ يا امرأة ـ بكسر الهمزة ـ، وليس بعدها ياء، وللمرأتين: هاؤما، وللنساء: هاؤنَّ. هذه لغة أهل الحجاز وتميم وقيس. يقولون: هاءَ يا رجل، مثل قول أهل الحجاز، وللإثنين هاءا، وللجماعة: هاءوا. وللمرأة هائي، وللنساء: هَأْنَ[١]. وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً، فيقول: هاك هاكما هاكم، هاكِ هاكما هاكنَّ، ومعناه: خذ وتناول. ويؤمر بها ولا ينهى. ووقف الكسائي على هاؤم، وابتدأ ﴿اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ﴾؛ إعلاماً منه أنّه لا يذهب إلى إعمال الفعل الأوّل، وإنّما العمل للثاني، والراضية: المرضيّة فاعلة بمعنى مفعول؛ لأنّها في معنى ذات رضى، كما قيل: لابن وتامر أي: ذو لبن، وذو تمر. قال النابغة:

كَلِيني لَهِمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبٍ وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الْكَواكِبِ(١)

يعني: ذو نصب. فكأنّ العيشة أُعطيت حتى رضيت؛ لأنّها بمنزلة الطالبة كما أنّ الشهوة بمنزلة الطالبة للمشتهى. وقيل: هو مثل: ليل نائم، وسرٌّ كاتم، وماء دافق، على وجه المبالغة في الصفة من غير التباس في المعنى. والقطوف: جمع قِطف، وهو ما يقطف من الثمر. والقَطف ـ بالفتح ـ: المصدر.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قال ابن منظور: ولغة أُخرى: هاء يارجل بهمزة مكسورة، وللإثنين: هائيا وللجمع: هاؤوا وللمرأة هائي وللثنتين: هائيا وللجمع: هائين.

﴿الإعراب﴾: ﴿كِتابِيَهْ﴾ مفعول ﴿اقْرَؤُا﴾؛ لأنّه يليه ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾: جملة مجرورة الموضع؛ لأنّها صفة ﴿جَنَّةٍ﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه قصّة نوح عليه السلام، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ أي: جاوز الحدَّ المعروف، حتى غرقت الأرض بمن عليها، إلّا من شاء الله نجاته ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: حملنا آباءكم في السفينة، ـ عن ابن عبّاس، وابن زيد ـ. ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لنجعل تلك الفعلة التي فعلناها من إغراق قوم نوح، ونجاة من حملناه، عبرة لكم وموعظة، تتذكّرون بها نعم الله تعالى، وتشكرونه عليها، وتتفكّرون فيها، فتعرفون كمال قدرته، وحكمته.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وتحفظها أذن حافظة، لما جاء من عند الله، ـ عن ابن عبّاس [وقتادة] ـ. وقيل: سامعة قائلة [قابلة] لما سمعت، ـ عن قتادة ـ. وقال الفرّاء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعد. وروي الطبري بإسناده عن مكحول، أنّه لمّا نزلت هذه الآية، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «أللهمّ اجعلها أذن عليّ عليه السلام» ثمّ قال عليّ عليه السلام: فما سمعت شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله فنسيته. وروي بإسناده عن عكرمة، عن بريدة الأسلمي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «يا عليّ! إنّ الله تعالى أمرني أنْ أُدنيك ولا أُقصيك، وأنْ أُعلمك وتعي، وحقّ على الله أنْ تعي» فنزل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾. أخبرني فيما كتب بخطّه إليّ المفيد أبو الوفاء، عبد الجبار [بن] عبد الله بن عليّ الرازي قال: حدّثني الشيخ السعيد أبو جعفر محمّد بن الحسن بن عليّ الطوسي، والرئيس أبو الجوائز الحسن بن عليّ بن محمّد الكاتب، والشيخ أبو عبدالله حسن [الحسن] بن أحمد بن حبيب الفارسي، قالوا: حدّثنا أبوبكر محمّد بن أحمد بن محمّد المفيد الجرجاني قال: سمعت أبا عمرو عثمان بن خطاب المعمر المعروف بأبي الدنيا الأشج قال: سمعت عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: لما نزلت ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «سألت الله عزّ وجلّ أن

يجعلها أُذنك يا عليّ».

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهي النفخة الأُولى، ـ عن عطا ـ. والنفخة الأخيرة، ـ عن مقاتل والكلبي ـ. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: رفعت من أماكنها ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: كسرتا كسرة واحدة، لا تثنّى حتى يستوي ما عليها من شيء مثل الأديم الممدود. وقيل: ضرب بعضها ببعض، حتى تفتّتت [تفتت] الجبال، وسفتها [نسفتها] الرياح، وبقيت الأرض شيئاً واحداً، لا جبل فيها، ولا رابية، بل تكون قطعة مستوية. وإنّما قال: ﴿فَدُكَّتَا﴾ لأنّه جعل الأرض جملة واحدة، والجبال دكة [جملة] واحدة ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ﴾ أي: انفرج بعضها من بعض ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي: شديدة الضعف بانتقاض بنيتها. وقيل: هو أنّ السماء تنشقّ بعد صلابتها، فتصير بمنزلة الصوف في الوهي والضعف ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: على أطرافها ونواحيها، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. والملك اسم يقع على الواحد والجمع. والسماء مكان الملائكة، فإذا وهت صارت في نواحيها. وقيل: إنّ الملائكة يومئذ على جوانب السماء، تنتظر ما يؤمر به في أهل النار من السوق إليها، وفي أهل الجنّة من التحيّة والتكرمة فيها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ يعني: فوق الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ من الملائكة ـ عن ابن زيد ـ. وروي ذلك عن النبيّ ﷺ أنّهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية. وقيل: ثمانية صفوف من الملائكة. لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى، ـ عن ابن عبّاس ـ.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ يعني: يوم القيامة تعرضون معاشر المكلفين ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: نفس خافية، أو فعلة خافية. وقيل: الخافية مصدر أي: خافية

أحد. وروي في الخبر عن ابن مسعود وقتادة: أنّ الخلق يعرضون ثلاث عرضات: اثنتان فيها معاذير وجدال، والثالثة: تطير الصحف في الأيدي، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله، وليس يعرض الله الخلق ليعلم من حالهم ما لم يعلمه، فإنّه عزَّ اسمه العالم لذاته، يعلم جميع ما كان منهم، ولكن ليظهر ذلك لخلقه.

ثمّ قسّم سبحانه حال المكلّفين في ذلك اليوم، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ﴾ لأهل القيامة ﴿هَآؤُمُ﴾ أي: تعالوا ﴿اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ﴾ وإنّما يقوله: سروراً به؛ لعلمه بأنّه ليس فيه إلّا الطاعات، فلا يستحيي أنْ ينظر فيه غيره. وأهل اللغة يقولون: إنّ معنى ﴿هَآؤُمُ﴾ خذوا. ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ أي: علمت وأيقنت في الدنيا(١).

﴿إِنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ والهاء لنظم رؤوس الآي، وهي هاء الإستراحة، والمعنى: إنّي كنت مستيقناً في دار الدنيا بأنّي ألقى حسابي يوم القيامة، عالماً بأنّي أُجازى على الطاعة بالثواب، وعلى المعصية بالعقاب، فكنت أعمل بما أصل به إلى هذه المثوبة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: في حالة من العيش، راضية يرضاها، بأن لقي الثواب، وأمن العقاب.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة القدر والمكان ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمارها قريبة ممّن يتناولها. قال البراء بن عازب: يتناول الرجل من الثمرة، وهو نائم. وقد ورد في الخبر عن عطاء بن يسار، عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنّة أحدكم إلّا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنّة عالية، قطوفها دانية». وقيل: معناه: لا يرد أيديهم عن ثمرها بُعد ولا

---

(١) يوقف لحمزة على «هاؤم» بالتسهيل كالواو، ولا يجوز فيه التحقيق، فإنّها ليست متوسّطة بزائد.

شوك ـ عن قتادة ـ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ لهم: كلوا واشربوا في الجنّة ﴿هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قدّمتم من أعمالكم الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية يعني: أيّام الدنيا، ويعني: بقوله: ﴿هَنِيئاً﴾ أنّه ليس فيه ما يؤذي، فلا يحتاج فيه إلى إخراج فضل بغائط أو بول.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾

(اللغة): القاضية: الفاصلة بالإماتة. يقال: قضى فلان: إذا مات. وأصله فصل الأمر. ومنه: قضية الحاكم. ومنه: قضاء الله، وهو في الإخبار بما يكون على القطع. والتصلية: إلزام النار. ومنه: الإصطلاء، وهو القعود عند النار للدفاء. والجحيم: النار العظيمة.

والسلسلة: حِلَق منتظمة، كل واحدة منها في الأُخرى، ويقال: سلسل كلامه: إذا عقد شيئاً منه بشيء. وتسلسل الشيء: إذا استمرّ على الولاء شيئاً قبل [على] شيء.

وذرع الثوب يذرعه ذرعاً: مأخوذ من الذراع. والغسلين: الصديد الذي

ينغسل بسيلانه من أبدان أهل النار. ووزنه: فعلين، من الغسل.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿كِتَابِيَه﴾ و ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و ﴿مَالِيَهْ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَه﴾ قال الزجّاج: الوجه أنْ يوقف على هذه الهاءات، ولا توصل[1]؛ لأنّها أُدخلت للوقف. وقد حذفها قوم في الوصل. ولا أُحب مخالفة المصحف، ولا أنْ أُقرأ وأُثبت الهاءات في الوصل، وهذه رؤوس آيات، فالوجه أنْ يوقف عندها، وكذلك قوله: «ما هيه». ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَيهُنَا حَمِيمٌ﴾: الجارّ والمجرور خبر ﴿لَيْسَ﴾ ليصحّ قوله: ﴿وَلاَ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ أي: ولا له طعام، ولا يكون الخبر ﴿هَيهُنَا﴾ لأنّ التقدير: يصير ولا طعام هيهنا إلّا من غسلين، وهذا غير جائز؛ إذ هنا طعام غير غسلين. ولا يكون الخبر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لأنّ ﴿حَمِيمٍ﴾ جثّة، وظرف الزمان لا يكون خبراً عن الجثة.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه حال أهل النار، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ أي: أُعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ الذي هو صحيفة أعماله ﴿بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ أي: تمنّى أنّه لم يؤته؛ لما يرى فيه [من] مقابح أعماله التي يسودُّ لها وجهه ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي: ولم أدرِ أيّ شيء حسابي؛ لأنّه لا حصل [حاصل] له في ذلك الحساب، وإنّما هو كلّه عليه.

---

(١) وقرء «ماليه وسلطانيه» بحذف الهاء وصلا حمزة ويعقوب. وانفرد يعقوب بذلك في «كتابيه وحسابيه» واتّفق الجميع على إثبات الهاء في الوقف. والكلمتان الأخيرتان ممّا يختلف الفتوى فيه، فمن رأى قراءة يعقوب متواتراً كالشهيد الأوّل، جاز متابعته، ومن لم يره متواترا ـ وهم الأكثر ـ لم يجوزه. وأمّا من قال: يجوز القراءة بالصحيح في النحو وان لم يقرء به، فقوله ساقط لا يعبأ به، فإنّه مخالف لإجماع المسلمين قاطبة. ويتكلّم هنا في إدغام هاء «مالية» في ها «هلك» وذلك لأنّ هاء السكت دليل الوقف، والإدغام دليل الوصل. قال الداني من ورى التحقيق يعني: إثبات الهاء، لزمه أن يقف على الهاء في قوله «ماليه هلك» وقفة لطيفة في حال الوصل من غير قطع؛ لأنّه واصل بنية واقف، فيمتنع بذلك من أن يدغم في الهاء التي بعدها.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ الهاء في ﴿يَا لَيْتَهَا﴾ كناية عن الحال التي هم فيها. وقيل: هي كناية عن الموتة الأُولى. و ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة للحياة أي: ليت الموتة الأُولى التي متنا لم نحي بعدها، عن الفرّاء. يتمنّى دوام الموت، وأنّه لم يبعث للحساب. وقال قتادة: تمنّى يومئذ الموت، ولم يكن في الدنيا شيء عنده أكره من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أي: ما دفع عنّي مالي من عذاب الله شيئاً. وقيل: معناه: أني قصرت همّتي على تحصيل المال؛ ليكشف الكرب عنّي، فما نفعني اليوم ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي: حجّتي، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد ـ. أي: ضلّ عنّي ما كنت أعتقده حجّة. وقيل: معناه: هلك عنّي تسلّطي، وأمري، ونهيي في دار الدنيا على ما كنت مسلّطاً عليه، فلا أمر لي، ولا نهي.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه يقول للملائكة: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: أوثقوه بالغلّ، وهو أنْ تشدّ إحدى يديه ورجليه إلى عنقه بجامعة ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: ثمّ أدخلوه النار العظيمة، وألزموه إيّاها.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ أي: طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: اجعلوه فيها؛ لأنّه يؤخذ عنقه فيها، ثمّ يجرّ بها. قال الضحّاك: إنّما تدخل في فيه، وتخرج من دبره. فعلى هذا يكون المعنى: ثمّ اسلكوا السلسلة فيه، فقلب كما يقال: أدخلت القلنسوة في رأسي. وقال الأعشى: «إذا ما السراب ارتدى بالأكم»[1] وإنّما ارتدى الأكم بالسراب، ولكنّه قلب. وقال نوف البكالي: كل ذراع سبعون باعاً، والباع أبعد ممّا بينك وبين مكّة، وكان في رحبة الكوفة. وقال الحسن: الله أعلم بأيّ ذراع هو. وقال سويد بن نجيح: إنّ جميع أهل النار في تلك السلسلة،

---

(١) السراب: ما يترائي ويظنّ أنّه ماء. والأكم: عوالي الأرض.

ولو أنّ حلقة منها وضعت على جبل، لذاب من حرّها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ شأنه، أي: لم يكن يوحّد الله في دار التكليف، ولا يصدّق به ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ وهو المحتاج الفقير. والمعنى: إنّه كان يمنع الزكاة، والحقوق الواجبة.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَيهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: صديق ينفعه ﴿وَلاَ طَعَامٌ﴾ أي: ولا له اليوم طعام ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وهو صديد أهل النار، وما يجري منهم، فالطعام هو ما هيّىء للأكل، ولذلك لا يسمّى التراب طعاماً للإنسان. فلمّا هيّىء الصديد لأكل أهل النار، كان ذلك طعاماً لهم. وقيل: إنّ أهل النار طبقات: فمِنهم مَن طعامه غسلين. ومِنهم مَن طعامه الزقّوم. ومِنهم مَن طعامه الضريع؛ لأنّه قال في موضع آخر: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾. وقيل: يجوز أنْ يكون الضريع هو الغسلين، فعبّر عنه بعبارتين، ـ عن قطرب ـ. وقيل: يجوز أنْ يكون المراد ليس لهم طعام إلّا من ضريع، ولا شراب إلّا من غسلين، كما قال الشاعر:

عَلَّفْتُها تِبْناً، وَماءً بارِداً[١]

﴿لاَيَأْكُلُهُ﴾ أي: لا يأكل الغسلين ﴿إِلَّا ٱلْخَاطِئُونَ﴾ وهم الجائرون عن طريق الحقّ عامدين. والفرق بين الخاطىء والمخطىء: أنّ المخطىء قد يكون من غير تعمّد. والخاطىء: المذنب المتعمّد الجائر عن الصراط المستقيم. قال امرؤ القيس:

---

[١] هذا المصراع يجعله بعض العلماء صدراً، ويحمل عجزه «حتى ثقت» كما في الكتاب. ويجعله بعضهم عجزاً، ويجعل صدره «لما حططت الرحل عنها وارداً» ومعنى المصراع، «علفتهما تبناً وسقيتهما ماءاً» على تقدير عامل محذوف وجعل الواو عاطفة، عطفت جملة على جملة. أو إن المراد من قوله: «علفتها» أعطيتها. فالواو عاطفة أيضاً. فالواو عاطفة أيضاً، وقد عطفت مفرداً على مفرد.

يا لَهْفَ هِنْدٍ إِذْ خَطَئْنَ كَاهِلاً ... اَلْقَاتِلِينَ الْمَلِكَ الْحُلاحِلا[1]

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ
تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

القراءة: قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وسهل: «يؤمنون ويذكرون» ـ بالياء ـ كناية عن الكفّار. والباقون: بالتاء، خطاباً لهم. وكلاهما حسن.

اللغة: الوتين: نياط القلب، وإذا انقطع مات الإنسان. قال الشماخ بن ضرار:

إِذَا بَلَّغْتِنِي، وَحَمَلْتِ رَحْلِي ... عَرَابَةَ فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ[2]

الإعراب: ﴿قَلِيلاً﴾ في الموضعين: صفة مصدر محذوف. و ﴿مَا﴾ مزيدة وتقديره: إيماناً قليلاً تؤمنون وتذكّراً قليلاً تذكّرون. ويجوز أنْ يكون صفة لظرف محذوف أي: وقتاً قليلاً تؤمنون، ووقتاً قليلاً تذكّرون. ويجوز أنْ تكون ﴿مَا﴾

---

(١) الملك الحلاحل: أبوه قتله بنو كاهل، وهم قبيلة من أسد. وأراد الشاعر الانتقام، ولم يوفّق أولا. إذ خطئن أي: خيلة. وهند: أخت الشاعر.

(٢) يخاطب ناقته ويقول إذا بغلتني عرابة وهو رجل من الانصار انحرك لاني لا احتاج اليك بعد وصوليي إلى عرابة فانه يكفيني من كلّ شيء ويقال شرق الشئي اشتد حمرته.

مصدريّة، ويكون التقدير: قليلاً إيمانكم، وقليلاً تذكركم. يكون ﴿مَا﴾ في موضع رفع بقليل.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾: في موضع رفع؛ لأنّه إسم «ما»، و «مِن» مزيدة لتأكيد النفي، تقديره: فما منكم أحد. والأصل: فما أحد منكم، فـ﴿مِنْكُمْ﴾ في موضع رفع، بكونه صفة على الموضع، أو في موضع جرّ على اللفظ. فلمّا تقدّم الموصوف صار في موضع النصب على الحال. ﴿حٰجِزِينَ﴾ منصوب بأنّه خبر ﴿مَا﴾ ولم يبطل قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ عمل ﴿مَا﴾، وإن فصل بينهما؛ لأنّه ظرف. والفصل بالظرف في هذا الباب كلا فصل. قال أبو عليّ: إنْ جعلت ﴿مِنْكُمْ﴾ مستقرّاً كان ﴿حٰجِزِينَ﴾ صفة ﴿أَحَدٍ﴾ وإن جعلت ﴿مِنْكُمْ﴾ غير مستقرّ، كان ﴿حٰجِزِينَ﴾ خبر ﴿مَا﴾. وعلى الوجهين فقوله: ﴿حٰجِزِينَ﴾: محمول على المعنى.

وأقول في بيانه: إنّه إنْ كان في «منكم» ضمير لأحد، ويكون خبراً له متقدّماً عليه، فيكون ﴿حٰجِزِينَ﴾ صفة لأحد، وتقديره: ما منكم قوم حاجزون عنه، ويكون ﴿مَا﴾ غير عاملة هنا، على غير لغة تميم أيضاً، ويكون ﴿حٰجِزِينَ﴾ مجروراً، حملاً على اللفظ، وكونه غير مستقرّ هو أن يكون على ما ذكرناه قبل.

المعنى: ثمّ أكد سبحانه ما تقدّم، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل فيه وجوه: أحدها: أن يكون قوله: ﴿لَا﴾ ردّاً لكلام المشركين، فكأنّه قال: ليس الأمر كما يقول المشركون: أُقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها، وما لا يبصر[1]، ويدخل فيها جميع المكونات ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمّداً ﷺ ـ عن الفرّاء وقتادة ـ. وثانيها: إنّ ﴿لَا﴾ مزيدة مؤكّدة، والتقدير: فأُقسم بما ترون، وما لا ترون. وثالثها: إنّه نفي للقسم، ومعناه: لا يحتاج إلى

---

(١) هذا صريح في أنّ من الموجودات ما لا يراه الناس، وهذا أمر لا يخطر ببال العوام والاجلاف فإنّهم يزعمون أنّ كل موجود محسوس.

القسم؛ لوضوح الأمر في أنّه لقول رسول كريم، فإنّه أظهر من أن يحتاج فى إثباته إلى قسم ـ عن أبي مسلم ـ. ورابعها: إنّه كقول القائل: لا والله لا أفعل ذلك، ولا والله لأفعلنّ ذلك. وقال الجبائي: إنّما أراد أنّه لا يقسم بالأشياء المخلوقات، ما يرى وما لا يرى، وإنّما أقسم [يقسم] بربّها؛ لأنّ القسم لا يجوز إلّا بالله.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ قال: إنّه قول الله على الحقيقة، وإنّما الملك وجبرائيل والرسول، يحكون ذلك. وإنّما أسنده إليهم من حيث إنّ ما يسمع منهم كلامهم. فلمّا كان حكاية كلام الله قيل: هو كلام الله على الحقيقة في العرف. قال الجبائي: والرسول الكريم: جبرائيل. والكريم: الجامع لخصال الخير.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قول الشاعر: ما ألّفه بوزن، وجعله مقفّى، وله معنى. وقول الكاهن: السجع، وهو كلام متكلّف يضمّ إلى معنى يشاكله، طهّره الله سبحانه من الشعر، والكهانة، وعصمه عنهما. وإنّما منعه سبحانه من الشعر، ونزّهه عنه؛ لأنّ الغالب من حال الشعر أن يدعو إلى الهوى، ويبعث على الشهوة. والنبيّ ﷺ إنّما يأتي بالحكم التي يدعو إليها العقل؛ للحاجة إلى العمل عليها، والإهتداء بها. وأيضاً فإنّه سبحانه منعه من قول الشعر، دلالة على أنّ القرآن ليس بصفة الكلام المعتاد بين الناس، وأنّه ليس بشعر، بل هو صنف من الكلام، خارج عن الأنواع المعتادة. وإذا بعد عمّا جرت به العادة في تأليف الكلام، فذلك أدلّ على إعجازه.

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ معناه: لا تصدقون بأنّ القرآن من عند الله تعالى ويريد بـ«القليل»: نفي إيمانهم أصلاً، كما تقول لمن لا يزورك: قلّ ما تأتينا، وأنت تريد: لا تأتينا أصلاً. فالمعنى: لا تؤمنون به، ولا تتذكّرون، ولا تتفكّرون، فتعلموا المعجز، وتفصلوا بينه وبين الشعر والكهانة.

﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ بيّن أنّه منزل من عنده على لسان جبرائيل

حتى لا يتوهّم أنّه كلام جبرائيل. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ محمّد ﷺ ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ معناه: ولو كذب علينا، واختلق ما لم نقله، أي: لو تكلّف القول، وأتى به من عند نفسه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: لأخذنا بيده التي هي اليمين على وجه الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام خذ بيده. فأخذها إهانة له، ـ عن ابن جرير ـ. وقيل: معناه: لقطعنا يده اليمنى، ـ عن الحسن، وأبي مسلم ـ. فعلى هذا تكون الباء مزيدة، أي: لأخذنا منه اليمين. وقيل: معناه: لأخذنا منه بالقوّة والقدرة، أي: لأخذناه ونحن قادرون عليه، مالكون له، ـ عن الفرّاء والمبرّد والزجّاج ـ. وإنّما أقام اليمين مقام القوّة والقدرة؛ لأنّ قوّة كل شيء في ميامنه، ـ عن ابن قتيبة ـ.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي: ولكنّا نقطع منه وتينه ونهلكه[1]. قال مجاهد وقتادة: هو عرق في القلب متّصل بالظهر. وقيل: هو حبل القلب ﴿فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: فما منكم أحد يحجزنا عنه، والمعنى: إنّه لا يتكلّف الكذب لأجلكم، مع علمه أنّه لو تكلّف ذلك لعاقبناه، ثمّ لم تقدروا أنتم على دفع عقوبتنا عنه.

ثمّ ذكر سبحانه أنّ القرآن ما هو، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وإنّه

---

(١) هذا عبارة عن دليل اللطف الذي يستدلّ به المتكلّمون على النبوّة، وإن قيل فكيف ادّعى جماعة من الانبياء الكذبة، ولم يدفعهم الله تعالى ولم يقطع وتينهم؟ قلنا: لأنّهم لم يقارن دعواهم بمعجزة تؤيّدهم، حتى يصير مضلّة للناس. ثمّ إنّهم غالبا كانوا يدعون أباطيل يحكم العقل ببطلانها، كالدعوة إلى الشرك وعبادة الأصنام، وأمّا النبي الذي لا يوجد فيه شيء ينفر الخلق عنه، وأتي بكلام بلغ حدّ الإعجاز، وتحدّى به، ودعى إلى التوحيد، ومكارم الأخلاق، وانطبق عليه بشارات الأنبياء، وتصرّف في الكائنات، لو كان كاذباً وجب على الله تعالى تكذيبه، وقطعه، نظير من يدّعي ولاية من قبل السلطان في حضوره، ليس معه ما يدلّ على بطلان دعواه.

لعظة لمن اتّقى عقاب الله بطاعته ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُكَذِّبِينَ﴾ بالقرآن. أي: علمنا أنّ بعضكم يكذبه. أشار سبحانه إلى أنّ منهم من يصدق، ومنهم من يكذب ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: إنّ هذا القرآن حسرة عليهم يوم القيامة، حيث لم يعلموا [يعملوا] به في الدنيا.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ معناه: وإنّ القرآن للمتّقين لحقّ اليقين. والحقّ هو اليقين. وإنّما أضافه إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامع، ودار الآخرة، وبارحة الأُولى، ويوم الخميس، وما أشبه ذلك، فيضاف الشيء إلى نفسه، إذا اختلف لفظه. وقيل: إنّ الحقّ هو الذي معتقده على ما اعتقد، واليقين هو الذي لا شبهة فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به جميع المكلّفين، ومعناه: نزِّه الله سبحانه عمّا لا يجوز عليه من الصفات. والعظيم: هو الجليل الذي يصغر شأن غيره في شأنه، ويتضاءل كل شيء لعظمته وسلطانه.

سورة المعارج

مكّيّة، قال الحسن: إلّا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾.

عدد آيها: أربع وأربعون آية غير الشاميّ، ثلاث شاميّ.

اختلافها: آية ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ غير الشاميّ.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلوتهم يحافظون».

وعن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من أدمن قراءة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ لم يسأله الله يوم القيامة عن ذنب عمله، وأسكنه جنّته مع محمّد ﷺ.

تفسيرها: لّما ختم الله سورة الحاقّة بوعيد الكفّار، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ
ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى
يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ
﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وابن عامر: ﴿سَالَ﴾ ـ بغير همز ـ. والباقون: بالهمز. وقرأ الكسائي: ﴿يَعْرُجُ﴾ ـ بالياء ـ. وقرأ الباقون: بالتاء. وقرأ ابن كثير في رواية البزي، وعاصم في رواية البرجمي. عن أبي بكر. «ولا يُسأل» ـ بضمّ الياء ـ. والباقون: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ﴾ ـ بفتح الياء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿سَأَلَ﴾ جعل الألف منقلبة عن الواو التي هي عين مثل: قال وخاف. وحكى أبو عثمان عن أبي زيد، أنّه سمع من يقول: هما يتساولان، فمن قال: ﴿سَأَلَ﴾ كان على هذه اللغة، ومن قرأ: ﴿سَأَلَ﴾ فجعل الهمزة عين الفعل، فإنّ حقّق قال ﴿سَأَلَ﴾، وإنْ خفّف جعلها بين الألف والهمزة. وأمّا قول الشاعر:

سَأَلَتْ هُـذَيْلُ رَسُـولَ اللهِ فَـاحِشَةً ضَلَّتْ هُذَيْلُ بِمَا قَالَتْ، وَلَمْ تُـصِبِ[١]

ويمكن فيه الوجهان. وكل القرّاء على همز ﴿سَآئِلٌ﴾؛ لأنّه لا يخلو إمّا أن يكون من يتساولان، أو من اللغة الأُخرى. فإن كان من الأوّل لم يكـن فـيه إلاّ الهمز، كما يكون في قائل وخائف؛ لأنّ العين إذا اعتلّت بالفعل، اعتلّت في اسـم الفاعل. واعتلالها لا يكون بالحذف للإلتباس. فقلب إلى الهمزة. وإنْ كانت في لغة من همز، فليس فيه إلاّ الهمز كما يكون في ثائر، إلاّ أنّك إنْ شئت خفّفت الهمزة، فجعلتها بين بين. وكذلك في الوجه الآخر. وأمّا «يعرج وتعرج» فالياء والتاء فيه حسنتان.

ومن ضمّ قوله: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ فالمعنى والله أعـلم: لا يسـئل حميم عن حميمه؛ ليعرف شأنه من جهته، كما يتعرّف الخبر [خبر] الصديق من جهة صديق [صديقه]، والقريب عن قريب [قريبه]. فإذا كان كذلك، فالكلام إذا بنيت الفعل للفاعل قلت: سألت زيداً عن حميمه، وإذا بنيت الفعل للمفعول به قلت: سئل زيد عن حميمه.

وقد يحذف الجارّ، فيصل الفعل إلى الإسم الذي كان مجروراً قبل حـذف الجارّ، فينتصب بأنّه مفعول الإسم الذي أُسند إليه الفعل المبنيّ للمفعول به، فـعلى هذا انتصب قوله: ﴿حَمِيماً﴾. ويدلُّ على هذا المعنى قـوله: ﴿يُـبْصِرُونَهُمْ﴾ أي: يبصر الحميم الحميم. تقول: بصرت به، فإذا ضعفت عـين الفـعل، صـار الفـاعل مفعولا، فتقول: بصرني زيد بكذا، فاذا حذفت الجارّ قلت: بصرني زيد كذا. فـإذا بنيت الفعل للمفعول به، وقد حذفت الجارّ، قلت: بصرت زيداً. فعلى هـذا قـوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ فإذا بصروهم لم يحتج إلى تعرف شأن الحميم من حميمهز

---

[١] هذيل: حيّ من مضر، وهو هُذيل بن مدركة بن إلياس بن مُضر.

وإنّما جمع فقيل: يبصّرونهم؛ لأنّ الحميم، وإنْ كان مفرداً في اللفظ، فالمراد به الكثرة والجمع. يدلّك على ذلك: قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾. ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

ومن قرأ: «ولا يسأل حميم حميماً» فالمعنى: لا يسأل الحميم عن حميمه في ذلك اليوم؛ لأنّه يذهل عن ذلك، ويشغل عنه بشأنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

اللغة: المعارج: مواضع العروج، وهو الصعود مرتبة بعد مرتبة. ومنه: الأعرج لارتفاع إحدى رجليه عن الأُخرى. قال الزجّاج: المهل درديّ الزيت. وقيل: هو الجاري بغلظه وعكره على رفق، من أمهله إمهالاً. والعهن: الصوف المنفوش. والحميم: القريب النسب إلى صاحبه، وأصله من القرب. قال:

أَحَمَّ اللهُ ذٰلِكَ مِنْ لِقَاءٍ ... أُحَادَ أُحَادَ فِي الشَّهْرِ الْحَلاَلِ[1]

الإعراب: ﴿بِعَذَابٍ﴾: الباء تتعلّق بـ﴿سَأَلَ﴾ لأنّ معناه: دعا داع بعذاب. وقيل: إنّ الباء بمعنى «عن»، وتقديره: عن عذاب. قال:

دَعِ الْمُعَمَّرَ لاَ تَسْأَلْ بِمَصْرَعِهِ ... وَاسْأَلْ بِمَصْقَلَةِ الْبَكْرِيِّ مَا فَعَلاَ

يريد: عن مصرعه، وعن مصقله. واللام في قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بمعنى «على»، ويتعلّق بـ﴿وَاقِعٌ﴾ أي: واقع على الكافرين. وقيل: إنّه يتعلّق بمحذوف، فيكون صفة لسائل، تقديره: سأل ﴿سَائِلٌ﴾ كائن للكافرين أي: منهم.

المعنى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قيل: إنّ هذا السائل هو الذي قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية. وهو النضر بن الحارث بن كلدة، فيكون المعنى دعا داع على نفسه بعذاب واقع، مستعجلاً له، وهو واقع بهم لا

---

(١) احمه الله أي: قربه، يدعو بالتعجيل لحرب عدوه.

محالة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: سأل المشركون فقالوا: لمن هذا العذاب الذي تذكر يا محمّد؟ فجاء جوابه بأنّه ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: دعا داع بعذاب على الكافرين، وذلك الداعي هو النبيّ ﷺ، ـ عن الجبائي ـ. وتكون الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ مزيدة على التوكيد، كما في قوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، والتقدير: سأل سائل عذاباً واقعاً. وقيل: هي بمعنى «عن»، وعليه تأويل قول الحسن؛ لأنّهم سألوا عن العذاب لمن هو. وقيل: الباء للتعدّي أي: بإنزال عذاب، وعليه تأويل قول مجاهد. وقيل: إنّ معنى «سأل سائل» على قراءة من قرأ بالألف، من سال يسيل سيلاً، والتقدير: سال سيل سائل بعذاب واقع. وقيل: ﴿سَآئِلُ﴾ اسم واد في جهنّم، سمّي به؛ لأنّه يسيل بالعذاب، ـ عن ابن زيد ـ.

وأخبرنا السيد أبو الحمد قال: حدّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: حدّثنا أبو عبدالله الشيرازي قال: حدّثنا أبوبكر الجرجاني قال: حدّثنا أبو أحمد البصري قال: حدّثنا محمّد بن سهل قال: حدّثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدّثنا محمّد بن أيوب الواسطي قال: حدّثنا سفيان بن عيينه، عن جعفر بن محمّد الصادق، عن آبائه عليهم السلام قال: لمّا نصب رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام يوم غدير خمّ، وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» طار ذلك في البلاد، فقدم على النبيّ ﷺ النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأنّك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها. ثمّ لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فهذا شيء منك، أو أمر من عندالله؟ فقال: «والله الذي لا إلٰه إلّا هو، إنّ هذا من الله».

فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: أللهمّ إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء! فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: ليس لعذاب الله دافع من الله. وقيل: معناه: بعذاب للكافرين واقع من الله أي: وقوعه من الله. و﴿ذِي ٱلْمَعَارِجِ﴾ صفة «الله» سبحانه. وقيل فيه وجوه:

أحدها: إنّ معناه: ذي الفواضل العالية، والدرجات التي يعطيها للأنبياء، والأولياء في الجنّة؛ لأنّه يعطيهم المنازل الرفيعة، والدرجات العليّة، وهو معنى قول قتادة، والجبائي.

وثانيها: إنّها معارج السماء أي: مواضع عروج الملائكة، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. وقال الكلبي: معناه: ذي السماوات؛ لأنّ الملائكة تعرج فيها.

وثالثها: إنّه بمعنى ذي الملائكة أي: مالك الملائكة التي تعرج إلى السماء. ومنه: ليلة المعراج؛ لأنّه عرج بالنبيّ ﷺ إلى السماء فيها.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تصعد الملائكة، ويصعد الروح أيضاً معهم، وهو جبرائيل. خصّه بالذكر من بين الملائكة تشريفاً له ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الموضع الذي لا يجري لأحد سواه فيه حكم. جعل سبحانه عروجهم إلى ذلك الموضع عروجاً إليه، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: إلى الموضع الذي وعدني ربّي.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اختلف في معناه، فقيل: تعرج الملائكة إلى الموضع الذي يأمرهم الله به في يوم كان مقداره في عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين إلى فوق السماوات السبع. وقوله: في سورة السجدة: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هو لما بين السماء الدنيا والأرض في الصعود والنزول، خمسمائة سنة في الصعود، وخمسمائة سنة في النزول، ـ عن مجاهد ـ. والمراد: إنّ الآدميّين لو احتاجوا إلى قطع هذا المقدار الذي قطعته الملائكة في يوم واحد، لقطعوه في هذه المدّة. وقيل: إنّه يعني يوم

القيامة، وإنّه يفعل فيه من الأُمور، ويقضي فيه من الأحكام بين العباد، ما لو فعل في الدنيا، لكان مقداره خمسين ألف سنة، ـ عن الجبائي ـ، وهو معنى قول قتادة، وعكرمة.

وروي أبو سعيد الخدري قال: قيل يا رسول الله! ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفس محمّد بيده! إنّه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا».

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: لو ولّي الحساب غير الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة، من قبل أنْ يفرغوا، والله سبحانه يفرغ من ذلك في ساعة.

وعنه أيضاً قال: لا ينتصف ذلك اليوم حتى يقبل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار. وقيل: معناه: إنّ أوّل نزول الملائكة في الدنيا، وأمره، ونهيه، وقضائه بين الخلائق إلى آخر عروجهم إلى السماء، وهو القيامة هذه المدّة، فيكون مقدار الدنيا خمسين ألف سنة، لا يدري كم مضى وكم بقي. وإنّما يعلمه الله، عزّ وجلّ. وقال الزجّاج: يجوز أَنْ يكون قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من صلة ﴿وَاقِع﴾، فيكون المعنى: سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذلك العذاب يقع يوم القيامة.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا محمّد على تكذيبهم إيّاك ﴿صَبْراً جَمِيلاً﴾ لا جزع فيه، ولا شكوى على ما تقاسيه ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ أخبر سبحانه أنّه يعلم مجيء يوم القيامة، وحلول العقاب بالكفّار قريباً، ويظنّه الكفّار بعيداً؛ لأنّهم لا يعتقدون صحّته. وكلّ ما هو آت فهو قريب دان. فالرؤية الأُولى بمعنى الظنّ، والثانية بمعنى العلم.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه متى يقع العذاب بهم، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أي: كدرديّ الزيت[١]، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: كَعكَر القطران، ـ عن عطاء ـ. وقيل: مثل الفضّة إذا أُذيبت، ـ عن الحسن ـ. وقيل: مثل الصفر المذاب، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المصبوغ. وقيل: كالصوف المنفوش، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: كالصوف الأحمر، ـ عن الحسن ـ. يعني: إنّها تلين بعد الشدّة، وتتفرّق بعد الإجتماع. قال الحسن: إنّها أوّلاً تصير كثيباً مهيلاً، ثمّ تصير عهناً منفوشاً، ثمّ هباء منثوراً.

﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ لشغل كان [كل] إنسان بنفسه عن غيره، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: لا يسأل حميم [حميما] أنْ يتحمّل عنه من أوزاره، ليأسه منه ذلك في الآخرة، ـ عن الحسن ـ. وقال الأخفش: الحميم من يخصّه الرجل مودَّة وشفقة من قريب الرحم وبعيده. والحامّة: الخاصّة. وقيل: معناه: إنّه لا يحتاج إلى سؤاله؛ لأنّه يكون لكلٍ علامة يعرف بها، فعلامة الكافرين: سواد الوجوه، وزرقة العيون، وعلامة المؤمنين: نضارة اللون، وبياض الوجوه.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ (١) بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟
مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا

---

(١) قرأ «يومَئذ» ـ بفتح الميم ـ نافع والكسائي وأبو جعفر، ويوقف لحمزة على «تؤويه» بإبدال الهمزة واواً، مدغمة أو غير مدغمة.

[١] دردي الزيت: مايبقى راسباً في أسفله من الكدر. والعكر ـ محركة ـ بمعنى الدردي من كل شيء.

﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (١) ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

القراءة: قرأ حفص: ﴿نَزَّاعَةً﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: ـبالرفع ـ. وقرأ ابن كثير: ﴿لِأَمَٰنَتِهِمْ﴾ ـ بغير ألف بعد النون. والباقون: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ ـ بالجمع ـ. وقرأ حفص، ويعقوب وسهل: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ ـ على الجمع ـ. والباقون: «بشهادتهم» وكلّهم قرأوا: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ ـ على التوحيد ـ(٢).

---

(١) قوله: «فمن ابتغى وراء ذلك» المعنى ممّا يقضي به الشهوة، وينزل به المني، فيشمل التفخيذ والاستمناء باليد. وحفظ الفرج يشمل الحفظ عن كلّ ما يهيّجه، ويرغبه، ويهيؤه للحرام، فإذا نظر إلى امرأة بشهوة، ولو من وراء الثياب، ومال إلى الحرام، صدق عليه أنّه لم يحفظ فرجه، وكذلك إذا تصوّر عورة امرأة محرّمة في ذهنه، وتخيّل الجماع فيها ينزل وغير ذلك.

(٢) يجب الوفاء بالعهد والشرط، ولكن لا يثبت بهما حقّ للمشروط له، بحيث يكون له الطلب والدعوة [الدعوى] عند القاضي، وبيان ذلك: إنّ الواجب المالي قد لا يوجب هذا النوع من الحقّ، مثل أن ينذر أن يوقف مالاً، أو التصدّق به لم يثبت به حقّ للموقوف عليه، والمتصدّق عليه إن عصى ولم يقف المال ولم يتصدّق كذلك، إذا وجب عليه بيع ملكه لأداء الدين، ←

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾ فرفع ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ جاز في رفعه ما جاز في قولك: هذا زيد منطلق، وهذا بعلي شيخ. ومن نصب، فعلى وجهين: أحدهما: أن يكون حالاً. والآخر: أن يحمل على فعل، فحمله على الحال يبعد؛ لأنّه ليس في الكلام ما يعمل في الحال. فإن قلت: فإنّ في قوله: ﴿لَظَىٰ﴾ معنى التلظّي والتلهّب، فإنّ ذلك لا يستقيم؛ لأنّ ﴿لَظَىٰ﴾ معرفة لا ينتصب عنها الأحوال. ألا ترى أنّ ما استعمل استعمال الأسماء من اسم فاعل، أو مصدر، لم يعمل هذا النحو من حيث جرى مجرى الأسماء، فبأن يعمل الإسم المعرفة عمله أولى. ويدلّك على تعريف هذا الإسم، وكونه علماً: أنّ التنوين لم يلحقه، فإذا كان كذلك لم ينتصب الحال عنه. فإن جعلتها مع تعريفها قد صارت معروفة بشدّة التلظّي، جاز أنْ تنصبه بهذا المعنى الحادث في العلم.

وعلى هذا قوله تعالى: وهو الله في السماوات وفي الأرض علّقت الظرف بما دلّ عليه الإسم من التدبير والألطاف. فإن علَّقت الحال بالمعنى الحادث في العلم، كما علَّقت الظرف بما دلّ عليه الإسم من التدبير والألطاف، لم يمتنع؛ لأنّ الحال كالظرف في تعلّقها بالمعنى، كتعلّق الظرف به، وكان وجهاً.

وإنْ علّقت ﴿نَزَّاعَةً﴾ بفعل مضمر نحو: أُعيِّنها [أُعنيها] نزاعة للشوى، لم يمتنع أيضاً.

وأمّا قوله: «لأمانتهم» ـ على الإفراد ـ. وإن كان مضافاً إلى جماعة، ولكل واحد منهم أمانة؛ فلأنّه مصدر يقع على جميع الجنس، ويتناوله. ومن جمع، فلاختلاف الأمانات، وكثرة ضروبها، فأشبهت بذلك الأسماء التي ليست للجنس.

← ولايوجد له إلّا مشتر واحد، لا يثبت للمشتري حقّ على الملك إن لم يبع عصياناً، وكذلك حال الشرط والعهد، يجب الوفاء به تكليفا، ولا يثبت به حكم وضعيّ يوجب حقّا دنيويّا للمشروط له، إلّا إذا وقع في ضمن عقد، هذا ما يظهر لي، وبالله التوفيق.

والقول في الشهادة والشهادات مثل القول في الأمانة والأمانات.

[اللغة]: المودَّة: مشتركة بين التمنّي، وبين المحبّة. يقال: ودِدْت الشيء أي: تمنّيته. وودته أي: أحببته أودُّ فيهما جميعاً. والإفتداء: إفتداء الضرر عن الشيء ببدل منه. والفصيلة: الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أُبوة خاصّة، عن أُبوة عامّة.

ولظى: اسم من أسماء جهنّم، مأخوذة من التوقّد. والنزاعة: الكثيرة النزع، وهو اقتلاع عن شدّة ضمّ. والإقتلاع: أخذ بشدّة اعتماد. والشوى: جلدة الرأس. واحدتها: شواة. قال الاعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ: مَا لَهُ؟ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْباً شَوَاتُهُ[1]

والشوى: الأَكارع والأَطراف. والشوى: ما عدى المقاتل من كل حيوان، يقال: رماه فأشواه أي: أصاب غير مقتله. ورمى فأصمي أي: أصاب المقتل. والشوى أيضاً: الخسيس من المال. والهلوع: الشديد الحرص، الشديد الجزع. والإشفاق: رقّة القلب عن تحمّل ما يخاف من الأُمور، فإذا قسا قلب الإنسان بطل الإشفاق. والعادي: الخارج عن الحقّ. يقال: عدا فلان: إذا اعتدى. وعدا في مشيه: إذا أسرع، وهو الأَصل. والعادي: الظالم بالإسراع إلى الظلم.

[الإعراب]: يجوز أنْ يكون العامل في الظرف من قوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ قوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾: يجوز أنْ يكون استئناف كلام، ويجوز أن يكون في محلّ الجرّ، بدلاً من ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَٱلْمُهْلِ﴾. ﴿هَلُوعاً﴾ و ﴿مَنُوعاً﴾ و﴿جَزُوعاً﴾ منصوبة على الحال. والتقدير: خلق هلوعاً، جزوعاً إذا مسّه الشّر،

---

(١) قتيلة: امرأة. وجلّلت شيبا شواته: أي كسيت جلدة رأسه بالشعر الأبيض.

منوعاً إذا مسّه الخير. و ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾: منصوب على الإستثناء.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ قيل: إنّ ﴿عَلَىٰ﴾ هذه محمولة على المعنى، والتقدير: فإنّهم يلامون على غير أزواجهم. ويدلّ عليه قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: تقديره: إلّا من أزواجهم، فيكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «من».

المعنى: لمّا وصف سبحانه القيامة، وأخبر أنّ الحميم فيه لا يسأل حميمه لشغله بنفسه، قال: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يعرف الكفّار بعضهم بعضاً ساعة، ثمّ لا يتعارفون، ويفرّ بعضهم من بعض، ـ عن ابن عبّاس وقتادة ـ. وقيل: يعرفهم المؤمنون، ـ عن مجاهد ـ أي: يبصّر المؤمن أعداءه على حالهم من العذاب، فيشمت بهم ويسرّ. وقيل: يعرف أتباع الضلالة رؤساءهم. وقيل: إنّ الضمير يعود إلى الملائكة، وقد تقدّم ذكرهم أي: يعرفهم الملائكة، ويجعلون بصراء بهم، فيسوقون فريقاً إلى الجنّة، وفريقاً إلى النار.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى العاصي ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ يتمنّى سلامته من العذاب النازل به بإسلام كل كريم عليه من أولاده الذين هم أعزّ الناس عليه ﴿وَصَٰحِبَتِهِ﴾ أي: وزوجته التي كانت سَكَناً له. وربما آثرها على أبويه ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان ناصراً له ومعيناً ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: وعشيرته ﴿ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ في الشدائد، وتضمّه ويأوي إليها في النسب.

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي: وبجميع الخلائق. يقول: يودّ لو يفتدي بجميع هذه الأشياء ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ذلك الفداء ﴿كَلَّا﴾ لا ينجيه ذلك الفداء. قال الزجّاج:

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أي: لا يرجع أحد من هؤلاء فارتدعوا ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ يعني: إنّ نار جهنّم، أو القصّة، لظى نزّاعة للشوى. وسمّيت «لظى»؛ لأنّها تتلظّى أي:

تشتعل وتلتهب على أهلها. وقيل: لظى اسم من أسماء جهنّم. وقيل: هي الدركة الثانية منها، وهي ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾ تنزع الأطراف، فلا تترك لحماً، ولا جلداًأحرقته، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: تنزع [تنزل] الجلد وأمّ الرأس، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: تنزع الجلد واللحم عن العظم، ـ عن الضحّاك وقال الكلبي ـ: يعني تأكل الدماغ كله، ثمّ يعود كما كان. وقال أبو صالح: الشوى: لحم الساق. وقال سعيد بن جبير: العصب والعقب، وقال أبو العالية: محاسن الوجه.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعني: النار تدعو إلى نفسها من أدبر عن الإيمان، وتولّى عن طاعة الله ورسوله، ـ عن قتادة ـ. والمعنى: إنّه لا يفوت هذه النار كافر، فكأنّها تدعوه فيجيبها [فيجبيها] كرهاً. وقيل: إنّ الله تعالى ينطق النار حتى تدعوهم إليها. وقيل: معناه: تدعو زبانية النار من أدبر وتولّى عن الحقّ، فجعل ذلك سبحانه دعاء من النار، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: تدعو أي: تعذب، رواه المبرّد عن الخليل قال: يقال دعاك الله أي: عذّبك.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ أي: أمسكه في الوعاء، فلم ينفقه في طاعة الله، فلم يؤدّ زكاة، ولم يَصِل رحماً. وقيل: جمعه من باطل، ومنعه عن الحقّ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ أي: ضجوراً شحيحاً جزوعاً من الهلع، وهو شدّة الحرص. وقال أهل البيان: تفسيره فيما بعده.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ يعني: إذا أصابه الفقر لا يحتسب، ولا يصبر. وإذا أصابه الغنى منعه من البرّ.

ثمّ استثنى سبحانه الموحّدين المطيعين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ مستمرُّون على أدائها، لا يخلون بها، ولا يتركونها. وروي عن أبي جعفر عليه السلام: إنّ هذا في النوافل، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ في الفرائض والواجبات. وقيل: هم الذين لا يزيلون وجوههم عن

سمت القبلة، ـ عن عقبة، عن عامر والزجّاج ـ.

﴿وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة. والسائل: الذي يسأل. والمحروم: الفقير الذي يتعفّف ولا يسأل. وقد سبق تفسيرها. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: الحقّ المعلوم ليس من الزكاة، وهو الشيء الذي تخرجه من مالك إنْ شئت كل جمعة، وإنْ شئت كل يوم، ولكل ذي فضل فضله. وروي عنه أيضاً أنّه قال: هو أنْ تصل القرابة، وتعطي من حرمك، وتتصدّق [تصدق] على من عاداك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يؤمنون بأنّ يوم الجزاء والحساب حقٌّ، لا يشكّون في ذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يؤمن حلوله بمستحقّيه، وهم العصاة. وقيل: معناه: يخافون أنْ لا تقبل حسناتهم، ويؤخذون بسيّئاتهم. وقيل: غير مأمون؛ لأنّ المكلّف لا يدري هل أدّى الواجب كما أُمر به، وهل انتهى عن المحظور على ما نهي عنه. ولو قدرنا أنّ إنساناً يعلم ذلك من نفسه لكان آمناً ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني: الذين يحفظون فروجهم عن المناكح على كل وجه وسبب، إلاّ على الأزواج، أو ملك الأيمان من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ترك حفظ الفروج عنهم.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فمن طلب وراء ما أباحه الله له من الفروج، فأُولئك هم الذين تعدّوا حدود الله، وخرجوا عمّا أباحه لهم. ومعنى ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: ما خرج عن حدّه، من أيّ جهة كان[1].

---

(١) قلنا في سورة المؤمنون: إنّ المتعة داخلة في الأزواج، فإنّها كانت محلّلة بإجماع المسلمين، ففي زمان الحلية كانت داخلة في الزوجة، وان لم تشارك الدائمة في الأحكام ←

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: حافظون. والأمانة: ما يؤتمن المرء عليه مثل: الوصايا، والودائع، والحكومات، ونحوها. وقيل: الأمانة: الإيمان وما أخذ الله على عباده، من التصديق بما أوجبه عليهم، والعمل بما يجب عليهم العمل به.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: يقيمون الشهادات التي تلزمهم إقامتها. والشهادة: الإخبار بالشيء أنّه على ما شاهدوه ذلك، أنّه قد يكون عن مشاهدة للمخبر به، وقد يكون عن مشاهدة ما يدعون إليه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يحفظون أوقاتها وأركانها، فيؤدُّونها بتمامها، ولا يضيّعون شيئاً منها. وروي محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام أنّه قال: أُولئك أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا. وروي زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: هذه الفريضة من صلاّها لوقتها عارفاً بحقها، لا يؤثر عليها غيرها، كتب الله له بها براءة لا يعذبه، ومن صلاّها لغير وقتها، مؤثراً عليها غيرها، فإنّ ذلك إليه، إنْ شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه و﴿أُولَٰئِكَ﴾ من وصفوا بهذه الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين يجنّها الشجر ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ معظمون مبجلون بما يفعل

← المخصوصة بالدائمة، كالنفقة والميراث، والطلاق، والقسم، واللعان، والفراش، والظهار، وحصول الاحصان. واختلفوا في تحريمها بعد التحليل، ومذهبنا التحليل، وهو قول ابن عبّاس وابن مسعود. وورد علينا سؤال، وهو أنّ تجويز التمتيع بالأبكار منشأ الفتن، وهو خلاف مصلحة الناس، واجبت بأنّ نكاح الأبكار عندي بيد الوليّ، وان كان الأولى له أن يستامر بنته، ولا ينكحها إلّا برضاها. وما ورد في أحاديثنا، من استقلال المرأة، فهو لردّ قول من يرى أنّ المرأة، محجور عليها في النكاح مطلقا، وهم أكثر أهل السنّة، فإنّهم يجوّزون لها كلّ معاملة إلّا النكاح، حتّى لو لم يكن له قريب، وان نكحت مرّات عديدة وجب عليها عرض نفسها على الحاكم، حتّى ينكحها لمن أراد، وأما من جوّز نكاح الأبكار بغير وليّ، فلابدّ ان يشترط رشد الجارية، وهي إذا كانت رشيدة، فالغالب أنّها لا ترضى بالإفتضاض وتمتيع ساعة واحدة، وذلّ الدهر والفضيحة، وإلّا فعقدها باطل.

بهم من الثواب.

(١)
فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

القراءة: قرأ ابن عامر وحفص وسهل: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ ـ بضمّتين ـ. والباقون: «إلى نَصْب» ـ بفتح النون، وسكون الصاد ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: يجوز أَنْ يكون ﴿نُصُبٍ﴾ جمع نَصْب مثل: سُقْف وسَقْف، ووُدْد [ورد] ووَدْد [ورد]. ومن ثقّل، فقال: ﴿نُصُبٍ﴾ كان بمنزلة «أُسُد». ويمكن أنْ يكون النُّصْب والنَّصْب لغتين، كالضُّعْف والضَّعْف، وما أشبه ذلك، ويكون الثقيل كشُغُل وشُغْل، وطُنُب وطنب.

اللغة: قال الزجّاج: المُهْطِع: المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، وذلك من نظر العدو. وقال أبو عبيدة: الإهطاع: الإسراع. وعِزين: جماعات في تفرقة. واحدتهم: عِزَة، وإنّما جمع بالواو والنون؛ لأنّه عوض مثل: سنة وسنون. وأصل عِزَةٍ عِزْوَة، من عزاه يعزوه: إذا أضافه إلى غيره، فكلّ جماعة من هذه الجماعات

---

(١) اتّفقوا على كتابة «فمال الذين كفروا» ـ منفصلة لام الجرّ ـ عن «الذين» ومرّ مثله في النساء، والكهف، والفرقان، وكذلك حكم الوقف فيها.

مضافة إلى الأُخرى.

قال الراعي:

أَخَـلِيفَةَ الرَّحْـمٰنِ إِنَّ عَشِـيرَتِي أَمْسَـى سَـوَامُـهُمْ عِـزِينَ فُـلُولاً[١]

وقال عنترة:

وَقِـرْنٍ قَـدْ تَـرَكْتُ لَـدىٰ مَكَـرٍّ عَلَيْهِ الطَّيْرُ كَـالْعَصَبِ الْـعِزِينَا[٢]

وقيل: إنّ المحذوف من «عزة» هاء. والأصل: عزهة، وهو من العزهاة، وهو المنقبض عن النساء، وعن اللهو معهنّ. قال الأحوص [الأخوص]:

إِذا كُنْتَ عِـزْهَاةً عَـنِ اللَّـهْوِ، وَالصِّـبَى
فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَداً[٣]

وعن أبي هريرة قال: خرج النبيّ ﷺ على أصحابه، وهـم حـلق حـلق متفرّقون، فقال: «مالي أراكم عزين» والأجداث: القبور. واحدها: جدث. وجدف بمعناه. والإيفاض: الإسراع. والنصب: الصنم الذي كانو يعبدونه. قال الأعشى:

وَذَاالنُّصُبِ المَنْصُوبَ لاَ تَنْسُكَنَّهُ لِـعَاقِبَةٍ، وَاللهَ رَبَّكَ فَـاعْبُدَا[٤]

[الإعراب]: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: «ما» رفع بالإبتداء، واللام خبره، وفـيه ضميره. و ﴿قِبَلَكَ﴾: في موضع الحال من ﴿كَفَرُواْ﴾ أو من المجرور على تقدير: فما لهم ثابتين قبلك. و ﴿مُهْطِعِينَ﴾: حال من الضمير في ﴿قِبَلَكَ﴾. ويجوز في ﴿قَبْلِكَ﴾ أن يكون ظرفاً للام، وأن يكـون ظـرفاً لمـهطعين. ويـجوز أن يكـون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ حالاً بعد حال. و ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يتعلّق به. و ﴿عِزِينَ﴾: حال بـعد

---

(١) سوامهم أي: ما شيتهم. وفلول أي: منهزمون.

(٢) القرن القرين ومكر موضع الحرب شبه الطير على جنائزهم بقوم متفرقين.

(٣) العزهاة: من لا يحبّ الطرب، ولا يرغب في الجماع.

(٤) مضى البيت مراراً.

حال. ويجوز أن يتعلّق ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ بعزين. ومعناه: مجتمعين عن اليمين، وعن الشمال.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ جملة منصوبة الموضع على الحال من قوله: ﴿سِرَاعاً﴾. ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿يُوفِضُونَ﴾.

ثمّ قال سبحانه على وجه الإنكار على الكفّار: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: أيّ شيء للذين كفروا بتوحيد الله أي: ما بالهم، وما حملهم على ما فعلوا ﴿قِبَلَكَ﴾ أي: عندك يا محمّد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إليك، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: متطلّعين، ـ عن الحسن ـ. وقيل: مقبلين عنك بوجوههم لا يلتفتون عنك أي: ناظرين إليك بالعداوة. والمراد بالذين كفروا هنا: المنافقون.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: عن يمينك، وعن شمالك ﴿عِزِينَ﴾ أي: جماعات متفرّقين، عصبة عصبة، وجماعة جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ منهم أي: من هؤلاء المنافقين بـ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كما يدخل أُولئك الموصوفون قبل هذا. وإنّما قال هذا؛ لأنّهم كانوا يقولون: إن كان الأمر على ما قال محمّد، فإنّ لنا في الآخرة عندالله أفضل ممّا للمؤمنين، كما أعطانا في الدنيا أفضل مما أعطاهم.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون ذلك، ولا يدخلونها ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من النطفة، ـ عن الحسن ـ. أي: مَن كان أصله من هذا الماء المهين فكيف استوجب الجنّة بأصله وبنفسه، إنّما يستوجبها بالأعمال الصالحة. نبّه سبحانه بهذا، على أنّ الناس كلهم من أصل واحد وإنّما يتفاضلون بالإيمان والطاعة. وتحقيقه: إنما خلقناهم من المقاذر والأنجاس: فمتى يدخلون الجنّة، ولم يؤمنوا بي، ولم يصدّقوا رسولي. وقيل: معناه: خلقناهم من الجنس الذين يعلمون، أو من الخلق الذين يعلمون ويفقهون، ويلزمهم الحجّة، ولم نخلقهم من الجنس الذي لا يفقه،

كالبهائم والطير. وقيل: معناه: خلقناهم من أجل ما يعلمون من الثواب والعقاب، والتكليف للطاعات، تعريض للثواب، كما يقول القائل: غضبت عليك ممّا تعلم أي: من أجل ما تعلم. قال الأعشى:

أَأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارا وَشَطَّتْ عَلَىٰ ذِي هَوىً أَنْ تُزَارَا[1]

أي: من أجل آل ليلى. ودلّ قوله: «وشطت على ذي هوى» أنّه لم يزمع من عندهم، وإنّما أزمع من أجلهم للمصير إليهم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ هو مفسّر في سورة الحاقّة ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ﴾ يعني: مشارق الشمس ومغاربها، فإنّ لها ثلاثمائة وستّين مطلعاً، لكل يوم مطلع لا تعود إليه إلى قابل، ـ عن ابن عبّاس ـ[2].

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ هذا جواب القسم يعني: إنّا نقدر على أنْ نهلكهم، ونأتي بدلهم بقوم آخرين خير منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ هذا عطف على جواب القسم أي: وإنّ هؤلاء الكفّار لا يفوتون بأنّه يتقدّموا على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم، فإنّهم لم يكونوا سابقين، ولا العقاب مسبوقاً منهم. والتقدير: وما نحن بمسبوقين يفوت عقابنا إيّاهم، فإنّهم لو سبقوا عقابنا لسبقونا. وقيل: معناه: وما نحن بمغلوبين، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فإنّ وبال ذلك عائد عليهم

---

(١) يعني: بعدت المعشوقة عنّي ويبعد أن أزورها. والابتكار: البكور.

(٢) يمكن أن يكون ابن عباس تفطن لهذه الدقائق بفطنته وذكائه، أو أخذها عن أمير المؤمنين عليه السلام، أو عمل فيه السببان، ومع ذلك فيجب تقييد كلامه، وذلك لأنّ مطلع الشمس يميل نحو الشمال من أوّل الجدي إلى أوّل السرطان، ثمّ إلى الجنوب من أوّل السرطان إلى أوّل الجدي، فيمر كل ستّة أشهر على مشارق الستّة الأشهر السابقة فقوله: «لا تعود إليه إلى قابل» ينبغي أن يكون إلى ستّة أشهر قابلة، لا إلى عام قابل.

﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿سِرَاعاً﴾ مسرعين لشدّة السوق ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنّهم يسعون ويسرعون إلى علم نصب لهم، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: كأنّهم إلى أوثانهم يسعون للتقرّب إليها، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة خاضعة لا يستطيعون النظر من هول ذلك اليوم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم مذلّة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي﴾ وصفه اليوم الذي ﴿كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ به دار التكليف، فلا يصدّقون به، ويجحدونه، قد شاهدوه في تلك الحال.

سُورَةُ نُوحٍ

عَدَدُ آيِهَا: ثمان وعشرون آية كوفيّ. تسع بصريّ شاميّ، ثلاثون في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: أربع آيات ﴿سُوَاعاً﴾ ﴿فادخلوا ناراً﴾ كلاهما غير الكوفيّ، ﴿وَنَسْراً﴾ كوفيّ والمدني الأخير. ﴿أَضَلُّواْ كَثِيراً﴾ مكّيّ والمدني الأوّل.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة نوح، كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح». أبو عبدالله عليه السلام قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ويقرأ كتابه، فلا يدع أنْ يقرأ سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ فأيّ عبد قرأها محتسباً صابراً، في فريضة، أو نافلة، أسكنه الله مساكن الأبرار، وأعطاه ثلاث جنان مع جنّته كرامة من الله، وزوّجه مائتي حوراء، وأربعة آلاف ثيّب، إن شاء الله تعالى.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم سبحانه تلك السورة بوعيد أهل التكذيب، افتتح هذه السورة بذكر قصّة نوح وقومه، وما نالهم بالتكذيب، تسلية للنبيّ ﷺ، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۘ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا
فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ
فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ
لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾
يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل
لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾
وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ (١)

(اللغة): الإستغشاء: طلب التغشّي. والإصرار: الإقامة على الأمر بالعزيمة

---

(١) اثبت الياء في «اطيعون» يعقوب مطلقا وابدل ورش الهمزة في «يوخركم ولا يوخر» واواً مفتوحة وكذلك وقف حمزة وفتح الياء من «دعائي» إلّا الحرميان والشامي والبصري ومن «اني اعلنت» غير الشامي منهم.

عليه. والمدرار: الكثير الدرور بالغيث والمطر. والإمداد: إلحاق الثاني بالأوّل على النظام حالاً بعد حال. يقال: أمدَّه بكذا، ومدّ النهر نهر آخر.

والأموال: جمع المال. وهو عند العرب النعم. وأصل الوقار: الثبوت، وما به يكون الشيء عظيماً من الحلم الذي يمتنع معه الخرق. والرجاء بمعنى الخوف. قال أبو ذؤيب:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ[1]

﴿الإعراب﴾: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾: في موضع نصب بأرسلنا؛ لأنّ الأصل بأن أنذر قومك، فلمّا سقطت الباء، أفضى الفعل. وقيل: إنّ موضعه جرّ، وإنْ سقطت الباء، وقد تقدَّم بيانه. ويجوز أنْ يكون ﴿أَنْ﴾ هذه المفسّرة بمعنى «أي».

و﴿جَهاراً﴾: مصدر وضع موضع الحال أي: دعوتهم مجاهراً لهم بالدعاء إلى التوحيد. وقوله: ﴿مِدْرَاراً﴾: نصب على الحال. ﴿لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً﴾ جملة في موضع الحال أيضاً، والعامل في الحال ما في ﴿مَّالَكُمْ﴾ من معنى الفعل. ﴿وَقَاراً﴾: منصوب بأنّه مفعول ﴿تَرْجُونَ﴾.

﴿المعنى﴾: أخبر سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعثنا ﴿نُوحاً﴾ رسولاً ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: أرسلنا لينذرهم بالعذاب إنْ لم يؤمنوا. قال الحسن: أمره أنْ ينذرهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

ثمّ حكى أنّ نوحاً امتثل ما أمر الله سبحانه به، بأن قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه، فكأنّه قال: أنتم عشيرتي يسوؤني ما يسوؤكم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوّف مبين وجوه الأدلّة في الوعيد، وبيان الدين والتوحيد.

---

(١) يعني: إذا لسعته النحل لم يخف، ولم يحترز، بل جاء ثانيا لاشتيار العسل، ان وجد فرصة لم تكن النحل في بيتها، وخلفها أي: جاء بعدها. والنوب: النحل. والبيت مضى مراراً.

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: أعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتّقوا معاصيه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به؛ لأنّ طاعتي مقرونة بطاعة الله، وطاعة الله واجبه عليكم؛ لمكان نعمه السابقة التي [لا] توازيها نعمة منعم.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: فإنّكم إنْ فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم. ومِن: مزيدة. وقيل: إنّ ﴿مِّن﴾ هيهنا للتبعيض، والمعنى: يغفر لكم ذنوبكم السالفة، وهي بعض الذنوب التي تضاف إليكم. ولمّا كانت ذنوبهم التي يستأنفونها، لا يجوز الوعد بغفرانها على الإطلاق، لما يكون في ذلك من الإغراء بالقبيح، قيَّد سبحانه هذا التقييد.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفي هذا دلالة على ثبوت أجلين؛ كأنه [لأنّه] شرط في الوعد بالأجل المسمّى عبادة الله والتقوى. فلمّا لم يقع ذلك منهم، اقتطعوا بعذاب الإستيصال قبل الأجل الأقصى بالأجل الأدنى. ثمّ قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأقصى ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك، وتؤمنون به. قال الحسن: يعني بأجل الله يوم القيامة، جعله أجلاً للبعث. ويجوز أنْ يكون هذا حكاية عن قول نوح عليه السلام لقومه، ويجوز أنْ يكون إخباراً منه سبحانه عن نفسه.

﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾ إلى عبادتك، وخلع الأنداد من دونك، وإلى الإقرار بنبوّتي ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾ أي: لم يزدادوا بدعائي إيّاهم إلّا فراراً من قبوله، ونفاراً منه، وإدباراً عنه. وإنّما سمّي كفرهم عند دعائه زيادة في الكفر؛ لأنّهم كانوا على كفر وضلال، فلمّا دعاهم نوح عليه السلام إلى الإقلاع عن ذلك، والإقرار به، ولم يقبلوه فكفروا بذلك، كان ذلك زيادة في الكفر؛ لأنّ الزيادة هي إضافة الشيء إلى مقدار قد كان حاصلاً. ولو حصلا جميعاً في وقت واحد، لم يكن لأحدهما زيادة على الآخر.

﴿وإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُم﴾ إلى إخلاص عبادتك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ سيّئاتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا كلامي ودعائي. ﴿وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي:

غطّوا بها وجوههم لئلّا يروني ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: داموا على كفرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً﴾ أي: تكبَّروا وأنفوا عن قبول الحقّ. والإصرار: الإقامة على الأمر بالعزيمة عليه. فلمّا كانوا عازمين على الكفر، كانوا مصرّين. وقيل: إنّ الرجل منهم كان يذهب بإبنه إلى نوح، فيقول له: إحذر هذا لا يغوينّك، فإنّ أبي قد ذهب بي إليه وأنا مثلك، فحذَّرني مثل ما حذرتك، ـ عن قتادة ـ.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ أي: بأعلى صوتي، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: مجاهرة يرى بعضهم بعضاً أي: ظاهراً غير خفيّ.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ أي: دعوتهم في العلانية وفي السرّ. وقيل: معناه: إنّي أعلنت جماعة بالدعوة، وأسررت جماعة ثمّ أعلنت للذين أسررت، وأسررت للذين أعلنت لهم، ومعناه: إنّي سلكت معهم في الدعوة كل مذهب، وتلطّفت لهم في ذلك غاية التلطّف، فلم يجيبوا ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة على كفركم ومعاصيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ لكل من طلب منه المغفرة.

فمتى رجعتم عن كفركم، وأطعتموه ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾ أي: كثيرة الدرور بالغيث. وقيل: إنّهم كانوا قد قحطوا وأَسْنَتُوا، وهلكت أموالهم وأولادهم، فلذلك رغَّبهم في ردّ ذلك بالإستغفار مع الإيمان، والرجوع إلى الله. قال الشعبي: قحط المطر على عهد عمر بن الخطاب، فصعد المنبر ليستسقي، فلم يذكر إلّا الإستغفار حتى نزل. فلمّا نزل قيل له: ما سمعناك استسقيت قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح[1] السماء، التي بها يستنزل القطر، ثمّ قرأ هذه الآية.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: يكثر أموالكم وأولادكم الذكور، ـ عن عطا ـ. ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين في الدنيا ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾

---

(١) اسنتوا: قحطوا. ومجدح النوء.

تسقون بها جنّاتكم. قال قتادة: علم نبيّ الله نوح أنّهم كانوا أهل حرص على الدنيا، فقال: هلمّوا إلى طاعة الله، فإنّ فيها درك الدنيا والآخرة.

وروي الربيع بن صبيح: أنّ رجلاً أتى الحسن، فشكا إليه الجدوبة، فقال له الحسن: استغفر الله. وأتاه آخر، فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله. وأتاه آخر، فقال: ادع الله أنْ يرزقني إبناً فقال له: استغفر الله. فقلنا: أتاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلّهم بالإستغفار؟ فقال: ما قلت ذلك من ذات نفسي، إنّما اعتبرت فيه قول الله تعالى حكاية عن نبيّه نوح، إنّه قال لقومه: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ إلى آخره.

وروي عليّ بن مهزيار، عن حماد بن عيسى، عن محمّد بن يوسف، عن أبيه قال: سأل رجل أبا جعفر عليه السلام وأنا عنده، فقال له: جلعت فداك إنّي كثير المال، وليس يولد لي ولد، فهل من حيلة؟ قال: نعم استغفر ربّك سنة في آخر الليل مئة مرّة، فإن ضيّعت ذلك بالليل فاقضه بالنهار، فإنّ الله يقول: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ إلى آخره.

ثمّ قال نوح عليه السلام لهم على وجه التبكيت: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ معاشر الكفّار ﴿لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً﴾ أي: لا تخافون لله عظمة. فالوقار: العظمة، اسم من التوقير، وهو التعظيم. والرجاء: الخوف هنا، والمعنى: لا تعظمون الله حقّ عظمته، فتوحّدوه وتطيعوه، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. وقيل: معناه: ما لكم لا ترجون لله عاقبة، ـ عن قتادة ـ أي: لا تطمعون في عاقبة لعظمة الله تعالى. وقيل: معناه: ما لكم لا تخافون لله عذاباً، ولا ترجون منه ثواباً. في رواية أُخرى، عن ابن عبّاس. وقيل: معناه: ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان، وتوحّدون الله، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: ما لكم لا تعتقدون لله إثباتاً، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ أي: خلقكم طوراً نطفة. ثمّ طوراً علقة، ثمّ مضغة،

ثمّ عظاماً، ثمّ كسا العظام لحماً، ثمّ أنشأه خلقاً آخر، نبت له الشعر، وكمل له الصورة، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: أطواراً: أحوالاً، حالاً بعد حال. وقيل: معناه: صبياناً، ثمّ شبّاناً، ثمّ شيوخاً. وقيل: خلقكم مختلفين في الصفات،أغنياء وفقراء، وزمناء وأصحاء، وطوالاً وقصاراً. والآية محتملة للجميع.

أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة: ﴿وُدّاً﴾ ـ بالضمّ ـ. والباقون: بالفتح. وقرأ أبو

عمرو: ﴿مِمَّا خطاياهم﴾. والباقون: ﴿مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ﴾ ـ بالتاء والمدّ والهمزة ـ. وقد ذكرنا الإختلاف في «ولده» في سورة مريم عليها السلام[١].

الحجة: قال أبو عبيدة: زعموا أنّ «ودّاً» كان صنما لهذا الحي من كلب، وحكاه بالفتح قال: وسمعت قول الشاعر:

فَحَيّاكَ وَدٌّ مٰا [مِنْ] هَدٰاكَ لِفِتْيَةٍ
وَخُوصٍ بِأَعْلىٰ ذِي طُوٰالَةَ [فُضالَةَ] هُجَّدِ[٢]

وقال أبو الحسن: ضمّ أهل المدينة الواو، وعسى أنْ يكون لغة في اسم الصنم، وسمعت هذا البيت:

حَيّاكَ وُدّ، فَإِنّا لاٰ يَحِلُّ لَنا لَهْوُ النِّساءِ، وَانَّ الدِّينَ قَدْ عَزَما

الواو مضمومة. وخطاياهم: جمع التكسير. وخطيئات: جمع التصحيح. و«ما» زائدة، كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ﴾ وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾.

اللغة: الفجاج: الطرق المتّسعة المتفرّقة. واحدها: فجّ. وقيل: الفجّ المسلك بين جبلين. والسواع هنا: صنم، وفي غيره الساعة من الليل. ومثله: السعواء.

والكبار: الكبير جدّاً. يقال: كبير، ثمّ كُبار، ثمّ كُبّار. ومثله: عجيب وعُجاب وعُجّاب، وحسن وحُسان وحُسّان. وروي أنّ أعرابيّاً سمع النبيّ صلى الله عليه وآله يقرأ ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبّاراً﴾ فقال: ما أفصح ربّك يا محمّد! وهذا من جفاء الأعراب؛

---

(١) وَلَده: ـ بفتح الواو واللام ـ نافع وعاصم وابن عامر، وبضمّ الواو وسكون اللام الباقون، وفتح الياء من «بيتي» هشام وحفص.

(٢) حيّاك ودّ: دعاء المشركين، بمنزلة: بارك الله فيك. وفضاله: موضع. والخوص: جمع أخوص. وهجّد: صفة لخوص، يعني: أعطاك ودّ جزاء ما هديت هذه الجماعة.

لأنّ الله تعالى سبحانه لا يوصف بالفصاحة.

و ﴿دَيَّاراً﴾: فيعال، من الدوران ونحوه: القيّام. والأصل: قيوام وديوار، فقلبت الواو ياء، وأُدغمت إحداهما في الأُخرى. قال الزجّاج: يقال ما بالدار ديّار أي: ما بها أحد يدور في الأرض. قال الشاعر:

وَمَا بُنالي إِذَا مَا كُنْتَ جَارَتَنا ... أَنْ لاَ يُجاوِرَنَا إِلاّكَ دَيّارٌ

أي: إلّا إيّاك، فجعل المتّصل موضع المنفصل ضرورة.

﴿الإعراب﴾: ﴿طِبَاقاً﴾: منصوباً على أحد وجهين: أن يكون على تقدير: خلقهن طباقاً، وأن يكون نعتاً لسبع أي: سبع سماوات ذات طباق. ﴿نَبَاتاً﴾: مصدر فعل محذوف، تقديره: أنبتكم فنبتّم نباتاً. وقال الزجّاج: هو محمول على المعنى؛ لأنّ معنى «أنبتكم»: جعلكم تنبتون نباتاً. وما من قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيَٰتِهِمْ﴾ مزيدة، لتأكيد الكلام.

﴿المعنى﴾: ثمّ خاطب سبحانه المكلّفين منبّهاً لهم على توحيده، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ أي: واحدة فوق الأُخرى كالقباب[1].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ قيل فيه وجوه: أحدها: إنّ المعنى وجعل القمر نوراً في السماوات والأرض، عن ابن عبّاس قال: يضيء ظهره لما يليه من

---

(١) كان قدماء المنجّمين يعتقدون وجود تسع سموات، ولعلّه لم يذكر الله تعالى الاثنتين منها لانّ الكواكب الثوابت ليست في مدار واحد، على حدّ كلّ واحدة من السيارات، بل هي متفرّقة في فضاء لا يعلم سعته إلّا الله، وكان القدماء يعتقدون كون الثوابت في فلك ثامن، وهذا غير موافق للواقع. وأمّا الفلك التساع فكانوا يعتقدون وجوده للحركة اليومية، وهو غير مطابق للواقع أيضاً، فإنّها منسوبة إلى الأرض، كما تحقّق في عصرنا، ولذلك لم يذكر في القرآن هذين الفلكين، ومع ذلك فإنّ إثبات السبع لا ينفي ما عداها، فلا يدلّ على عدم مدار غيرها، ولا على عدم وجود عرش جسماني محيط بالكل، ومحدّد للجهات.

السماوات، ويضيء وجهه لأهل الأرض[١]، وكذلك الشمس. وثانيها: إنّ معنى «فيهنّ» معهنّ. يعني: وجعل القمر معهنّ أي: مع خلق السماوات نوراً لأهل الأرض. وثالثها: إنّ معنى «فيهنّ»: في حيّزهنّ، وإن كان في واحدة منها، كما تقول إنّ في هذه الدور لبئراً، وإن كانت في واحدة منها؛ لأنّ ما كان في إحداهنّ كان فيهنّ، وكما تقول: أتيت بني تميم، وإنّما أتيت بعضهم.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ أي: مصباحاً يضيء لأهل الأرض، لمّا [فلمّا] كانت الشمس، جعل فيها النور للإستضاءة به كانت سراجاً، فهي سراج العالم، كما أنّ المصباح سراج الإنسان ﴿وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً﴾ يعني: مبتدأ خلق آدم، وآدم خلق من الأرض، والناس ولده، وهذا كقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ وقيل: معناه: إنّه أنشأ جميع الخلق باغتذاء ما تنبته الأرض، ونما فيها. وقيل: معناه: أنبتكم من الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الأرض أمواتاً ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث أحياء ﴿إِخْرَاجاً﴾ وإنّما ذكر المصدر تأكيداً ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً﴾ أي: مبسوطة ليمكّنكم المشي عليها، والإستقرار فيها. ثمّ بيّن أنّه إنّما جعلها كذلك.

﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ أي: طرقاً واسعة. وقيل: طرقاً مختلفة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: سبلاً في الصحارى، وفجاجاً في الجبال. وإنّما عدّد سبحانه هذه الضروب من النعم؛ امتناناً على خلقه، وتنبيهاً لهم على استحقاقه للعبادة، خالصة من كل شرك، ودلالة لهم على أنّه عالم بمصالحهم، ومدبّر لهم على ما تقتضيه الحكمة، فيجب أن لا يقابلوا هذه النعم الجليلة بالكفر والجحود.

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر نوح عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ على سبيل الدعاء

---

(١) الوجه المضي للقمر في حال البدر إلينا، وفي المحاق إلى السماء، وإنّما المضي نصفه في كلّ حال.

﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به، ونهيتهم عنه، يعني: قومه ﴿وَٱتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾ أي: واتّبعوا أغنياء قومهم اغتراراً بما آتاهم الله من المال والولد، فقالوا: لو كان هذا رسولاً لله، لكان له ثروة وغنى. وقرىء وُلده ووَلده ـ بالضمّ والفتح ـ. فالوُلد: الجماعة من الأولاد. والوَلد: الواحد. وقيل: هما سواء. والخسار: الهلاك بذهاب رأس المال. وقيل: إنّ معناه: اتبع الفقراء والسفلة الرؤساء الذين لم يزدهم كثرة المال والأولاد إلّا هلاكاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة.

﴿وَمَكَرُواْ﴾ في دين الله ﴿مَكْراً كُبَّاراً﴾ أي: كبيراً عظيماً، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: قالوا قولاً عظيماً، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: اجترأوا على الله، وكذبوا رسله، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: مكرهم، تحريشهم[١] سفلتهم على قتل نوح عليه السلام. ﴿وَقَالُوا﴾ لهم ﴿لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادة أصنامكم.

ثمّ خصّوا أصناماً لهم معروفة بعد دخولها في الجملة الأُولى تعظيماً لها، فقالوا: ﴿لاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ وهذه أسماء أصنام كانوا يعبدونها، ثمّ عبدتها العرب فيما بعد، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ. وقيل: إنّ هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام، فنشأ قوم بعدهم يأخذون أخذهم في العبادة، فقال لهم إبليس: لو صوّرتم صورهم، كان أنشط لكم، وأشوق إلى العبادة. ففعلوا فنشأ بعدهم قوم، فقال لهم إبليس: إنّ الذين كانوا قبلكم، كانوا يعبدونهم، فعبدوهم. فمبدأ عبادة الأوثان كان ذلك الوقت، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: كان نوح يحرس جسد آدم على جبل بالهند، ويحول بينه وبين الكفّار؛ لئلّا يطوفوا بقبره، فقال لهم إبليس: إنّ هؤلاء يفخرون عليكم، ويزعمون أنّهم بنو آدم

---

[١] حرش بين القوم: أغرى بعضهم ببعض.

دونكم، وإنّما هو جسد، وأنا أُصوّر لكم مثله، تطيفون به. فنحت خمسة أصنام، وحملهم على عبادتها، وهي: ودّ، وسواع، ويعوق، ويغوث، ونسر.

فلمّا كان أيّام الغرق، دفن الطوفان تلك الأصنام، وطمّها التراب[١]. فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب، فاتّخذت قضاعة ودّاً، فعبدوها بدومة الجندل، ثمّ توارثها بنوه الأكابر فالأكابر، حتى صارت إلى كلب، فجاء الإسلام وهو عندهم، وأخذ بطنان من طيّ يغوث، فذهبوا به إلى مراد، فعبدوه زماناً. ثمّ إنّ بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم، ففروا به إلى بني الحرث بن كعب. وأمّا يعوق فكان لكهلان، ثمّ توارثه بنوه الأكبر فالأكبر، حتى صار إلى همدان. وأمّا نسر، فكان لخثعم يعبدونه. وأمّا سواع، فكان لآل ذي الكلاع يعبدونه، ـ عن ابن عبّاس ـ.

وقيل: إنّ أوثان قوم نوح صارت إلى العرب، فكانت ودّ بدومة الجندل، وسواع برهاط لهذيل، وكان يغوث لبني غطيف من مراد، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لآل ذي الكلاع من حمير، وكان اللات لثقيف. وأمّا العزّى فلسليم وغطفان وجشم ونضر وسعد بن بكر. وأمّا مناة، فكانت لقديد. وأمّا إساف، ونائلة، وهُبل فلأهل مكّة. وكان إساف حيال الحجر الأسود. وكانت نائلة حيال الركن اليماني. وكان هبل في جوف الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، ـ عن عطا وقتادة والثمالي ـ.

وقال الواقدي: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير.

---

[١] طم الشيء: دفنه.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ أي: ضلَّ بعبادتها وبسببها كثير من الناس نظيره ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيراً مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. وقيل: معناه: وقد أضلَّ كبراؤهم كثيراً من الناس، ـ عن مقاتل، وأبي مسلم ـ. وعلى هذا فإنّ الضمير في «أضلّوا» يعود إلى أكابر قوم نوح. ﴿وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلاَلاً﴾ أي: هلاكاً، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ﴾ وقيل: إلّا فتنة بالمال والولد. وقيل: إلّا ذهاباً عن الجنّة والثواب. قال البلخي: لا تزدهم إلّا منعاً من الطاعات، عقوبة لهم على كفرهم، فإنّهم إذا ضلّوا استحقّوا منع الألطاف التي تفعل بالمؤمنين فيطيعون عندها، ويمتثلون. ولا يجوز أن يفعل بهم الضلال عن الحقّ والإيمان؛ لأنّ ذلك لا يجوز في صفة الحكيم تعالى الله عن ذلك.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ أي: من خطيئاتهم. و«ما» مزيدة، والتقدير: من أجل ما ارتكبوه من الخطايا والكبائر ﴿أُغْرِقُواْ﴾ على وجه العقوبة ﴿فَأُدْخِلُواْ نَاراً﴾ بعد ذلك ليعاقبوا فيها ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ ٱللهِ أَنصَاراً﴾ أي: لم يجدوا أحداً يمنعهم من عذاب الله. وإنّما أتى سبحانه بألفاظ المضيّ على معنى الإستقبال؛ لصدق الوعد به. وقال الضحّاك: أُغرقوا فأُدخلوا ناراً في الدنيا في حالة واحدة، كانوا يغرقون من جانب، ويحترقون في النار من جانب. وأنشد ابن الأنباري:

ألْخَلْقُ مُجْتَمِعٌ طَوْراً، وَمُفْتَرِقٌ ... وَالْحادِثاتُ فُنُونٌ ذاتُ أطْوارِ

لا تَعْجَبَنَّ لأَضْدادٍ إذا اجْتَمَعَتْ ... فَاللهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْماءِ، وَالنَّارِ

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ أي: نازل دار. يعني: لا تدع منهم أحداً إلّا أهلكته. قال قتادة: ما دعا بهذا عليهم إلّا بعد أن أنزل عليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ فلذلك قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي: إن تتركهم ولم تهلكهم، يضلّوا عبادك عن الدين بالإغواء والدعاء إلى خلافه.

﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ وإلّا فلم يعلم نوح الغيب، وإنّما قال ذلك بعد أن أعلمه الله إيّاه. والمعنى: ولا يلدوا إلّا من يكون عند بلوغه كافراً؛ لأنّه لا يذمُّ على الكفر من لم يقع منه فعل الكفر، وقال مقاتل والربيع وعطاء: إنّما قال ذلك نوح عليه السلام؛ لأنّ الله تعالى أخرج من أصلابهم كل من يكون مؤمناً، وأعقم أرحام نسائهم، وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة. وأخبر الله تعالى نوحاً بأنّهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمناً، فحينئذ دعا عليهم، فأجاب الله دعاءه، فأهلكهم كلّهم، ولم يكن فيهم صبيّ وقت العذاب.

ثمّ دعا لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ واسم أبيه لمك بن متو شلخ، واسم أُمّه سمحاء بنت أنوش، وكانا مؤمنين. وقيل: يريد آدم وحوّاء ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾ أي: دخل داري. وقيل: مسجدي، ـ عن الضحاك ـ. وقل: سفينتي. وقيل: يريد بيت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ عامّة. وقيل: من أُمة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ـ عن الكلبي ـ.

﴿وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾ أي: هلاكاً ودماراً. قال أهل التحقيق: دعا نوح عليه السلام دعوتين: دعوة على الكافرين، ودعوة للمؤمنين، فاستجاب الله دعوته على الكافرين، فأهلك من كان منهم على وجه الأرض، ونرجو أن يستجيب أيضاً دعوته للمؤمنين، فيغفر لكم [لهم].

سورة الجنّ

وهي ثمان وعشرون آية.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة الجنّ، أُعطي بعدد كل جني وشيطان صدّق بمحمّد، وكذب به عتق رقبة». حنان بن سدير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أكثر قراءة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ لم يصبه في حياة الدنيا شيء من أعين الجنّ، ولا من نفثهم، ولا من سحرهم، ولا من كيدهم، وكان مع محمّد ﷺ فيقول: يا ربّ لا أُريد بهم بدلاً، ولا أُريد بدرجتي حولاً.

تفسيرها: لمّا تقدّم في سورة نوح ﷺ اتّباع قومه أكابرهم، افتتح سبحانه في هذه السورة اتّباع الجنّ نبيّنا ﷺ؛ ليعلم الفرق بين من ربحت صفقته، وبين من خسرت بيعته، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾
وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ
مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ بفتح الألف، ولم

(١) هيهنا ثلاثة مباحث: الأوّل: في وجود الجنّ وماهيّته. والثاني: في الشهب هل كانت قبل الإسلام. والثالث: كيفيّة منع الشهب الشياطين من استراق السمع، وأمّا وجود الجنّ: فمعلوم باخبار النبيّ الصادق (صلوات الله عليه) كما مرّ، وإن لم نعلم ماهيّتها، وكيفيّة خلقها من النار ←

يختلفوا فيه ثمّ قرأ في الآية الثالثة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ ـ بالفتح ـ. وفي الرابعة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾ ـ بالفتح ـ، وفي السادسة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾ ـ بالفتح ـ، ويقرأ ما سواها بالكسر، إلّا قوله: ﴿وَأَنْ لو ٱسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ فإنّه يقرأ هذه الثلاثة بالفتح. وقال الرواة عنه: ما كان مردوداً على الوحي، فهو أنّه بالفتح، وما كان من قول الجنّ، فهو بالكسر، وهذا قول غير مستقيم على قراءته، ويمكن أن يكون قد وقع خلل في روايته.

وقرأ ابن عامر، وأهل الكوفة، غير أبي بكر بالفتح، من قوله: ﴿أَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾، وقرأ الباقون كله بالكسر، إلّا قوله: ﴿وَأَنْ لَو ٱسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ﴾ فإنّهما بالفتح، لم يختلفوا فيه.

وقرأ نافع، وعاصم، برواية أبي بكر: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا﴾ بالكسر. والباقون: بالفتح. وقرأ يعقوب: ﴿أَن لَن تَقَوَّلَ﴾ ـ بتشديد الواو وفتحها وفتح القاف ـ، وروي ذلك عن الجحدري، والحسن. والباقون: ﴿أَن لَن تَقُولَ﴾ ـ بالتخفيف ـ. وفي الشواذّ قراءة جوية بن عابد: ﴿قل أُحِيَ إليَّ﴾ على وزن «فُعِل».

← وتكليفها، وغير ذلك من تفاصيل حالاتها، ونومن بما ورد على الإجمال والحكماء، وإن لم يحقّقوا فيها شيئاً، ولكن لم يبرهنواعلى عدمها، وأمّا الشهب: فقد سبق في سورة الحجر أنّها كانت قبل الإسلام أيضاً، ولكن كثرة سقوطها المسمّاة بتناثر النجوم، قليلا ما يتّفق، وجعلونها دليلا على أمر عجيب حدث أو سيحدث، وكان وقع مثل هذه الحادثة عند مبعث النبيّ ﷺ، ووقع بعده في سنة ٣٢٩ من الهجرة، ووقعت الغيبة الكبرى، وتوفّي فيها الكليني وعلي بن بابويه، وأمّا منع الشهب من استراق السمع، فلا ريب أنّه كانت قبل الإسلام في العرب الكهانة، وكانت هي صنعة لديهم نظر المغناطيس الروحي في زماننا، وكانوا يخبرون بأمور مبهمة بقوّة باطنة، ولا ريب أنّهم منعوا منها، ولم يقدروا عليها عند مبعث النبيّ ﷺ، وهذا نوع معجزة ارهاص للنبوّة، فإنّ انتفاء صنعة متعارفة عن أمّة دفعة غير معهود عادة، وإنّ التشويشات والإضطرابات الدوليّة والكونيّة، مؤثرة في تغيير القرائح بالتدريج لا دفعة، كما تنقص قرائح المسلمين بعد المغول. وبالجملة فمنع الشهب عن اخبار الكهنة معلوم الانية؛ لاخبار القرآن والتاريخ به، وإن لم نعلم تفصيله.

الحجة: قال أبو عليّ: أمّا قوله: ﴿وَأَنْ لَو ٱسْتَقَامُوا﴾ فإنّه يجوز فيه أمران:

أحدهما: أن تكون ﴿أَنْ﴾ المخفّفة من الثقيلة، فيكون محمولاً على الوحي، كأنّه أُوحي إلي أن لو استقاموا. وفصل «لو» بينها وبين الفعل، كفصل «السين ولا» في قوله: ﴿أولا يرون أن لا يرجع﴾ و﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾.

والآخر: أن يكون ﴿أَن﴾ قبل ﴿لَوْ﴾ بمنزلة اللام في قوله: ﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَئِن لَمْ تَغْفِر لَنَا رَبُّنَا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ فتلحق مرّة، وتسقط أُخرى؛ لأنّ «لو» بمنزلة فعل الشرط، فكما لحقت اللام زائدة قبل ﴿أَنْ﴾ الداخلة على الشرط، كذلك لحقت ﴿أَنْ﴾ هذه قبل ﴿لَوْ﴾.

ومعنى ﴿وَأَنْ لَو ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ قد قيل فيه قولان: أحدهما: لو استقاموا على طريقة الهدى. والآخر: لو استقاموا على طريقة الكفر. ويستدلّ على القول الأول بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُوا وَٱتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ويستدلّ على الآخر بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ﴾.

وأمّا قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلّٰهِ﴾، فزعم سيبويه أنّ المفسّرين حملوه على «أُوحي» كأنّه: وأُوحي إليَّ أنّ المساجد لله. ومذهب الخليل أنّه على قوله: ولأنّ المساجد لله، فلا تدعوا كما أنّ قوله: ﴿وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ على قوله: ﴿وَلأَنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: لهذا فاعبدون. ومثله في قول الخليل: ﴿لِإِيْلاَفِ قُرَيشٍ﴾ كأنّه قال: لهذا فليعبدوا.

قال سيبويه: ولو قرأ: ﴿وَإِنَّ ٱلْمَسَاجِدَ﴾ ـ بالكسر ـ لكان جيّداً. فأمّا قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللّٰهِ﴾ فإنّه على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ ويكون أن يقطع من قوله:

﴿أَوْحَىٰ﴾، ويستأنف به، كما جَوَّز سيبويه القطع من «أُوحي» في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾. وعلى هذا تحمل قراءة من كسر ﴿أنَّ﴾ من قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

ومن قرأ كل ذلك بالفتح، فإنّه للحمل على «أُوحي»، ويجوز أن يكون على غيره، كما حمل المفسّرون ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ على «أوحي»، وحمله الخليل على ما ذكرناه عنه. فأمّا ما جاء من ذلك بعد قول فحكاية، كما حكى قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وكذلك ما بعد فاء الجزاء؛ لأنّ ما بعد فاء الجزاء موضع ابتداء، ولذلك حمل سيبويه ﴿وَمَن عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾، ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ﴾ على أنّ الإبتداء فيها مضمر، ومثل ذلك في هذه السورة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

ومن قرأ: «لن تقوّل»: فيكون قوله: ﴿كَذِباً﴾ منصوباً على المصدر، من غير حذف موصوف، وذلك أن تقول في معنى «تكذب»، فجرى مجرى: تبسّمت وميض البرق[١]، فإنّه منصوب بفعل مضمر، دلّ عليه «تبسَّمت» أي: أو مضت، فكأنّه قال: إن لن تكذب الإنس والجنّ على الله كذباً. قال ابن جنّي: ومن رأى أن ينتصب وميض البرق بنفس «تبسّمت»؛ لأنّه في معنى أومضت نصب أيضاً كذباً بنفس «تقوّل»؛ لأنّه بمعنى «كذب».

ومن قرأ: ﴿أَنْ لَّن تَقُولَ﴾ على وزن «تقوم»، فإنّ «كذباً» وصف مصدر محذوف، أي: قولاً كذباً. فكذباً هيهنا وصف لا مصدر، كما في قوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: كاذب. فإن جعلته هيهنا مصدراً، نصبته نصب المفعول به أي: لن تقول كذباً، كقولك: قلت حقّاً، وقلت شعراً. ولا يحسن أن تجعله

---

[١] وميض البرق: لمعانه.

مع «تقوَّل» وصفاً أي: تقوّل تقوّلاً كذباً؛ لأنّ التقوّل لا يكون إلّا كذباً، فلا فائدة فيه.

ومن قرأ: ﴿أُحِيَ﴾ فهو مِن «وحيت إليه» بمعنى: أوحيت، وأصله: وُحي، فلمّا انضمّت الواو ضمّاً لازماً همزت، ونحوه: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: وُقِّتت. قال العجاج: «وحي لها القرار فاستقرَّت»[١].

اللغة: الجَدّ: أصله: القطع. ومنه: الجَدُّ العظمة؛ لانقطاع كل عظمة عنها لعلوّها عليه. ومنه: الجدّ أبو الأب؛ لإنقطاعه بعلوّ أبوّته، وكل مَن فوقه لهذا الولد أجداد. والجَدّ: الحظّ؛ لانقطاعه بعلوّ شأنه.

والجِدُّ: خلاف الهزل؛ لانقطاعه عن السخف. ومنه: الجديد؛ لأنّه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر. والرَّهَق: لحاق الإثم. وأصله: اللحوق. ومنه: راهق الغلام: إذا لحق حال الرجال. قال الأعشى:

لا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَتِها هَلْ يَشْتَفِي وامِقٌ ما لَمْ يُصِبْ رَهَقاً[٢]

أى لم يخش إثماً.

الإعراب: ﴿حَرَساً﴾: منصوب على التمييز، وهو جمع حارس. ويجوز أن يكون جمع حرسي، فيكون مثل: عربي وعرب. و ﴿شَدِيداً﴾: مذكّر محمول على اللفظ، ويمكن أن يكون على النسبة أي: ذات شدّة.

و ﴿مَقْعِدَ﴾. نصب؛ لأنّه ظرف مكان. ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾: مبتدأ وخبر، وإنّما جاز أن تكون النكرة مبتدأ من غير تخصيص لأجل همزة الإستفهام، كما يجوز ذلك بعد حرف النفي؛ لأنّ كليهما يفيد معنى العموم.

---

[١] وبعده: (وشدّها بالراسيات الثّبت) وقد مرَّ البيت في الكتاب مراراً.

[٢] ومقه: أحبَّه. وقال في اللسان: الرهق: غشيان المحارم من شرب الخمر ونحوه. وقال ابن بري: وكذا فسر الرهق في شعر الأعشى بأنه غشيان ا لمحارم، وما لاخير فيه في قوله: «لاشيء ينفعني...». «انتهى» وحكى عن شرح الديوان أنّ الرهق: الدنو من المحبوب، والقرب منه، والتمتع بما ينوله: وفسَّره الطبري في تفسيره بقوله: يقول ما لم يغش محرماً.

المعنى: أمر سبحانه نبيَّه محمّداً ﷺ، أن يخبر قومه بما لم يكن لهم به علم، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ إنّما ذكره على لفظ ما لم يسمّ فاعله؛ تفخيماً وتعظيماً، والله سبحانه أوحى إليه، وأنزل الملك عليه ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: استمع القرآن طائفة من الجنّ، وهم جيل رقاق الأجسام خفيفة على صورة مخصوصة، بخلاف صورة الإنسان والملائكة، فإنّ الملك مخلوق من النور، والإنس من الطين، والجنّ من النار.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: قالت الجنّ بعضها لبعض ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجباً﴾ والعجب ما يدعو إلى التعجّب منه لخفاء سببه، وخروجه عن العادة في مثله، فلمّا كان القرآن قد خرج بتأليفه المخصوص عن العادة في الكلام، وخفي سببه عن الإنام، كان عجباً لا محالة. وأيضاً فإنّه مباين لكلام الخلق في المعنى، والفصاحة، والنظام، لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، وقد تضمّن أخبار الأوّلين والآخرين، وما كان وما يكون، أجراه الله على يد رجل أُمّيّ قوم أُمّيّين. فاستعظموه وسمّوه عجباً.

﴿يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ أي: يدلُّ على الهدى، ويدعو إليه، والرشد: ضدّ الضلال ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي: صدَّقنا بأنّه من عندالله ﴿وَلَن نُشْرِكَ﴾ فيما بعد ﴿بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ فنوجّه العبادة إليه، بل نخلص العبادة لله تعالى. والمعنى: إنّا قد بدأنا بأنفسنا، فقبلنا الرشد والحقّ، وتركنا الشرك، واعتقدنا التوحيد. وفي هذا دلالة على أنّه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس، وعلى أنّ الجنّ عقلاء مخاطبون، وبلغات العرب عارفون، وعلى أنّهم يميّزون بين المعجز وغير المعجز، وأنّهم دعوا قومهم إلى الإسلام، وأخبروهم بإعجاز القرآن، وأنّه كلام الله تعالى؛ لأنّ كلام العباد لا يتعجّب منه.

وروي الواحدي بإسناده عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجنّ، وما رآهم. إنطلق رسول الله ﷺ في طائفة من

أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء. فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا[١]: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب قالوا ما ذاك إلّا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها. فمرّ النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبيّ ﷺ وهو بنخل، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر. فلمّا سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء.

فرجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجباً * يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ فأُوحى الله تعالى إلى نبيّه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. ورواه البخاري ومسلم أيضاً في الصحيح.

وعن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: من كان منكم مع النبيّ ﷺ ليلة الجنّ؟ فقال ما كان منّا معه أحد. فقدناه ذات ليلة ونحن بمكّة، فقلنا: اغتيل رسول الله ﷺ، أو استطير. فانطلقنا نطلبه من الشعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله! أين كنت لقد أشفقنا عليك؟ وقلنا له: بتنا الليلة بشر ليلة باب [بات] بها قوم حين فقدناك! فقال لنا: إنّه أتاني داعي الجنّ، فذهبت أُقرئهم القرآن، فذهب بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. فأمّا أن يكون صحبه منّا

---

(١) يظهر من ذلك أنّ الجنّ والشياطين واحد. وأورد الفخر الرازي في تفسيره كلاماً كثيراً هنا في الجنّ، وفيه غث وسمين، ومع ذلك لا يخلو كلامه عن فوائد، ومن ذلك ذكره وجهين في أنّ الجنّ موجودات مجرّدة، كالنفوس الناطقة أو جسمانيّة، ولكن أجسامها لطيفة، وذكر في عدم رؤية الإنسان إيّاها كلاما على مذهب الأشاعرة. وأقول على مذهبنا أيضاً يمكن عدم رؤية الأجسام اللطيفة. وذكر أيضاً أنّ تعلّق تلك المجرّدات بالأبدان نوع خاصّ من التعلّق، وهو حقّ، فإنّ التعلّق لايجب أن يكون على نحو تعلّق نفوسنا بأبداننا، كما أنّ تصرّف النفوس القويّة في غير بدنها تعلّق بنحو آخر. وذكر أيضاً أنّ لطافة الأجسام لا ينافي القدرة على الأمور الشاقّة وهو حقّ، فإنّ المجرّدات يفعلون أموراً عظيمة، كحركة السموات وغير ذلك.

أحد فلم يصحبه. وعن أبي روق قال: هم تسعة نفر من الجنّ. قال أبو حمزة الثمالي: وبلغنا أنّهم من [بني] الشيصبان، هم أكثر الجنّ عدداً، وهم عامة جنود إبليس. وقيل: كانوا سبعة نفر من جنّ نصيبين، رآهم النبيّ ﷺ فآمنوا به، وأرسلهم إلى سائر الجنّ.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً﴾ الإختيار كسر «إنّ»؛ لأنّه من قول الجنّ لقومهم، وهو معطوف على قوله: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجباً﴾ أي: وقالوا تعالى جدّ ربّنا. وقال الفرّاء: من فتح، فتقديره: فآمنّا به، وآمنّا بأنّه تعالى جدّ ربّنا. وكذلك كل ما كان بعده ففتح أن بوقوع الإيمان عليه. والمعنى: تعالى جلال ربّنا وعظمته عن اتّخاذ الصحابة والولد، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل: معناه: تعالت صفات الله التي هي له خصوصاً، وهي الصفات العالية التي ليست للمخلوقين، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: جلّ ربّنا في صفاته، فلا تجوز عليه صفات الأجسام والأعراض، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: تعالى قدرة ربّنا، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: تعالى ذكره، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: فعله وأمره، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: علا ملك ربّنا، ـ عن الأخفش ـ. وقيل: تعالى آلاؤه ونعمه على الخلق، ـ عن القرظي ـ. والجميع يرجع إلى معنى واحد، وهو العظمة والجلال على ما تقدَّم ذكرهما.

ومنه: قول أنس بن مالك: كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة، جدّ في أعيننا أي: عظم. وقال الربيع بن أنس: إنّه قال: ليس لله تعالى جدّ، وإنّما قالته الجنّ بجهالة، فحكاه سبحانه كما قالت، وروي ذلك عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: جاهلنا ﴿عَلَى ٱللهِ شَطَطاً﴾ أرادوا بسفيههم إبليس، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. والشطط: السرف في ظلم النفس، والخروج عن

الحقّ. فاعترفوا بأنّ إبليس كان يخرج عن الحدّ في إغواء الخلق، ودعائهم إلى الضلال. وقيل: شططاً أي: قولاً بعيداً من الحقّ، وهو الكذب في التوحيد والعدل. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللهِ كَذِباً﴾ إعترفوا بأنّهم ظنّوا أن لن يقول أحد من الإنس والجنّ كذباً على الله في اتّخاذ الشريك معه، والصاحبة والولد أي: حسبنا أن ما يقولونه من ذلك صدق، وأنّا على حقّ حتى سمعنا القرآن، وتبينا الحقّ به. وفي هذا دلالة على أنّهم كانوا مقلدة حتى سمعوا الحجّة، وانكشف لهم الحقّ، فرجعوا عمّا كانوا عليه، وفيه إشارة إلى بطلان التقليد، ووجوب اتّباع الدليل.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: يعتصمون ويستجيرون. وكان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره ليلاً قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، ـ عن الحسن، ومجاهد، وقتادة ـ. وكان هذا منهم على حسب اعتقادهم أنّ الجنّ تحفظهم. قال مقاتل: وأوّل من تعوذ بالجنّ قوم من اليمن، ثمّ بنو حنيفة، ثمّ فشا في العرب. وقيل: معناه: وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أهل [أجل] الجنّ، ومن معرَّة الجنّ[١]، عن البلخي قال: لأنّ الرجال لا تكون إلّا في الناس. وقال الأوّلون: في الجنّ رجال مثل ما في الناس.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ أي: فزاد الجنّ الإنس إثماً على إثمهم الذي كانوا عليه من الكفر والمعاصي، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ. وقيل: رهقاً أي: طغياناً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: فرقاً وخوفاً، ـ عن الربيع ـ، وابن زيد. وقيل: شرّاً، ـ عن الحسن ـ. وقيل: زادوهم ذلّة وضعفاً. قال الزجّاج: يجوز أن يكون الإنس الذين

---

[١] المعرة: الأذى: والميم زائدة.

كانوا يستعيذون بالجنّ، [زادوا الجنَّ] رهقاً، وذلك أنّ الجنّ كانوا يزدادون طغياناً في قومهم بهذا التعوّذ، فيقولون: سُدنا الإنس والجنّ. ويجوز أن يكون الجنّ زاد الإنس رهقاً.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَداً﴾ قيل: معناه: قال مؤمنو الجنّ لكفّارهم: إنّ كفّار الإنس الذين يعوذون برجال من الجنّ في الجاهليّة، حسبوا كما حسبتم يا معشر الجنّ أن لن يبعث الله رسولاً بعد موسى، أو عيسى، ووراء هذا أنّ الجنّ مع تمرّدهم وعتوّهم لما سمعوا القرآن، آمنوا واهتدوا به، فأنتم معاشر العرب أولى بالتفكّر والتدبّر لتؤمنوا وتهتدوا، مع أنّ الرسول من جنسكم، ولسانه لسانكم. وقيل: إنّ هذه الآية مع ما قبلها اعتراض من أخبار الله تعالى. يقول: إنّ الجنّ ظنّوا كما ظننتم معاشر الإنس أنّ الله لا يحشر أحداً يوم القيامة، ولا يحاسبه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يعني لن يبعث الله أحداً رسولاً، ـ عن قتادة ـ.

ثمّ حكى عن الجنّ قولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ﴾ أي: مسناها [مسسناها]. وقيل: معناه: طلبنا الصعود إلى السماء، فعبر عن ذلك باللمس مجازاً، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إلتمسنا قرب السماء لاستراق السمع، ـ عن أبي مسلم ـ. ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ أي: حفظة من الملائكة شداداً ﴿وَشُهُباً﴾ والتقدير: ملئت السماء من الحرس والشهب، وهو جمع شهاب، وهو نور يمتدّ من السماء كالنار.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: لاستراق السمع أي: كان يتهيّأ لنا فيما قبل القعود في مواضع الإستماع، فنسمع منها صوت الملائكة وكلامهم ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ منّا ﴿ٱلآنَ﴾ ذلك ﴿يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ يرمى به، ويرصد له. و«شهاباً» مفعول به، و﴿رَّصَداً﴾: صفته. قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهليّة؟ قال: نعم. قلت أفرأيت قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ الآية قال: غلظ

وشدّد أمرها حين بعث النبيّ ﷺ. قال البلخي: إنّ الشهب كانت لا محالة فيما مضى من الزمان، غير أنّه لم يكن يمنع بها الجنّ عن صعود السماء، فلمّا بعث النبيّ ﷺ منع بها الجنّ من الصعود.

﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بحدوث الرجم بالشهب وحراسة السماء، جوّزوا هجوم انقطاع التكليف، أو تغيير الأمر بتصديق نبيّ من الأنبياء، وذلك قوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ أي: صلاحاً. وقيل: معناه: إنّ هذا المنع لا يدرى ألعذاب سينزل بأهل الأرض، أم لنبيّ يبعث، ويهدي إلى الرشد. فإنّ مثل هذا لا يكون إلّا لأحد هذين الأمرين. وسمّى العذاب شرّاً؛ لأنّه مضرّة. وسمّى بعثة الرسول رشداً؛ لأنّه منفعة.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ أهل العراق، غير أبي عمرو: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون:

بالنون. وقرأ ابن عامر برواية هاشم: ﴿لُبَداً﴾ ـ بضمّ اللام ـ. الباقون: بكسرها.

وقرأ أبو جعفر، وعاصم، وحمزة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا﴾ والباقون: ﴿قَالَ﴾. وفي الشواذّ قراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب ﴿وَأَلَّوُ ٱسْتَقَامُوا﴾ ـ بضمّ الواو ـ. وقراءة الحسن والجحدري: ﴿لُبَّداً﴾ ـ بالتشديد ـ. وفي رواية أُخرى عن الجحدري: ﴿لُبُداً﴾ ـ بضمّتين ـ.

الحجّة: من قرأ: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ ـ بالياء ـ فلتقدّم ذكر الغيبة في قوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾. ومن قرأ بالنون، فهو مثل قوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ بعد قوله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ﴾.

ومن قرأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا﴾؛ فلتقدّم ذكر الغيبة أيضاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. ومن قرأ: ﴿قُلْ﴾؛ فلأنّ بعده: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ﴾، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾.

ومن قرأ ﴿لُبَداً﴾ فإنّ اللُّبَد الكثير من قوله: ﴿مالاً لُبداً﴾ وكأنّه قيل له لبد؛ لركوب بعضه على بعض، ولصوق بعضه ببعض لكثرته. واللبد: جمع لُبْدة، وهي الجماعة. وقد يقال ذلك للجراد الكثير. قال بعض الهذليين:

صَابُوا بِسِتَّةِ أَبْيَاتٍ، وَوَاحِدَةٍ ... حَتَّى كَأَنَّ عَلَيْهِمْ جَابِياً لُبَداً[1]

قال الجبائي [الجابي]: هو الجراد؛ لأنّه يجبي كل شيء بأكله. وقال الزجّاج: اللُّبدة واللِّبدة بمعنى. ومن قرأ: ﴿لُبَّداً﴾ ـ بالتشديد ـ فإنّه وصف على «فُعَّل» كالجُبَّأ والزُمَّل[1]. ويجوز أن يكون جمع «لابِدْ» فيكون مثل: راكع ورُكَّع. واللبد: من الأوصاف التي جاءت على «فُعُل»، كناقة سُرُح، ورجل طُلُق[2].

---

(١) صاب أي: نزل. والجابي: الجراد. والجُبا ـ بضمّ جيم ـ الجبان، وكذلك الزمل.

[١] الجبأ: الجبان. والزمل: الضعيف الجبان الرذل.

[٢] ناقة سرح أي: سريعة النقلة والسير. الطُلُق: غير المقيّد.

ومن قرأ: ﴿لَوُ اِسْتَقَامُواْ﴾ فإنّه على التشبيه بواو الجماعة، نحو قوله: ﴿اَشْتَرَوُا اَلضَّلَالَةَ﴾ كما شبّهت تلك بهذه فقيل: اشتروا الضلالة. وقد مضى هذا في سورة البقرة.

(اللغة): الصالح: عامل الصلاح الذي يصلح به حاله في دينه. وأمّا المصلح فهو فاعل الصلاح الذي يقوم به أمر من الأُمور، ولهذا يوصف سبحانه بأنّه مصلح، ولا يوصف بأنّه صالح. والطرائق: جمع طريقة، وهي الجهة المستمرّة مرتبة بعد مرتبة.

والقِدَد: القطع. جمع قِدَّة، وهي المستمرّة بالقدّ في جهة واحدة. والرَّهَق: لحاق السرف في الأمر، وهو الظلم. والقاسط: الجائر. والمُقْسط: العادل. ونظيره: التَّرِب الفقير. والمُتْرِب: الغني. وأصله: التراب. فالأوّل ذهب ماله حتى لصق بالتراب، والآخر كثر ماله حتى صار بعدد التراب. وكذلك القاسط: هو العادل عن الحقّ، والمقسط: العادل إلى الحقّ. قال:

قَوْمٌ هُمُ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنْوَةً ... عَمْراً، وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمانِ[1]

وقال آخر:

قَسَطْنَا عَلَى الْأَمْلاكِ فِي عَهْدِ تُبَّعٍ ... ومِنْ قَبْلُ مٰا أَرْدَى النُّفُوسَ عِقٰابُها[2]

والتحرّي: تعمّد إصابة الحقّ، وأصله: طلب الشيء والقصد له. قال امرؤ القيس:

دِيَمةٌ هَطْلاءُ فِيهٰا وَطَفٌ ... طَبَّقَ الْأَرْضَ تَحَرّىٰ وَتَدِرُّ[3]

---

(١) كأنّه أراد العجم، وألقي ابرويز النعمان تحت أرجل الفيلة، وقتله.

(٢) أردى: أهلك. وضمير عقابها للملوك. و«ما اردى» فعل تعجّب.

(٣) الديمة: المطر الدائم. وسحابة وطفاء: مسترخية الجوانب، كثيرة المطر. وتحرّى الأمر: تعمّه.

وماء غدق: كثير. وغدق المكان يغدق غدقاً: كثر فيه الماء والندى، وهو غدق، عن الزجّاج. وقال أُميّة بن أبي الصلت:

مِزاجُها سَلْسَبِيلٌ، مَاؤُها غَدِقٌ عَذْبُ الْمَذاقَةِ، لا مِلْحٌ، وَلا كَدِرُ[1]

والصعد: الغليظ الصعب المتصعب [المتعصب] في العظم. ومنه: التنفّس الصعداء. والصعود: العقبة الكؤود الشاقّة.

المعنى: ثمّ قال سبحانه في تمام الحكاية عن الجنّ الذين آمنوا عند سماع القرآن ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ﴾ وهم الذين عملوا الصالحات المخلصون ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون الصالحين في الرتبة، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة، ومجاهد ـ. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ أي: فرقاً شتّى على مذاهب مختلفة، وأهواء متفرّقة، من مسلم، وكافر، وصالح، ودون الصالح، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. وقيل: قدداً ألواناً شتّى مختلفين، ـ عن سعيد بن جبير، والحسن ـ. وقيل: فرقاً متباينة كل فرقة تباين صاحبتها، كما يبين المقدود بعضه من بعض. قال السدّي: الجنّ أمثالكم فيهم قدرية، ومرجئة، ورافضة، وشيعة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي: علمنا وتيقّنّا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لن نفوته إذا أراد بنا أمراً ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾ أي: أنّه يدركنا حيث لنا ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ آمَنَّا بِهِۦ﴾ اعترفوا بأنّهم لمّا سمعوا القرآن الذي فيه الهدى، صدّقوا به.

ثمّ قالوا ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ أي: يصدق بتوحيد ربّه، وعرفه على صفاته ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ تقديره: فإنّه لا يخاف ﴿بَخْساً﴾ أي: نقصاناً فيما يستحقّه من الثواب ﴿وَلَا رَهَقاً﴾ أي: لحاق ظلم، وغشيان مكروه. وكأنّه قال: لا يخاف نقصاً قليلاً ولا كثيراً، وذلك أنّ أجره وثوابه موفر على أتمّ ما يمكن فيه. وقيل: معناه: فلا

---

(١) أميّة بن أبي الصلت يصف غالبا في كلامه الجنّة، والنار، والتوحيد، والمواعظ، وكان ممّن ترك الأوثان قبل النبيّ ﷺ، ولكن لم يؤمن به، وكان مائلاً إلى النصرانيّة.

يخاف نقصاً من حسناته، ولا زيادة في سيّئاته، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة وابن زيد، قالوا: لأنّ البخس النقصان، والرهق العدوان، وهذه حكاية عن قوّة إيمان الجنّ، وصحّة إسلامهم.

ثمّ قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ الذين استسلموا لما أمرهم الله سبحانه به، وانقادوا لذلك. ﴿وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ أي: الجائرون عن طريق الحقّ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ لما أمره الله به ﴿فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾ أي: توجّهوا الرشد، والتمسوا الثواب [الصواب] والهدى، وتعمّدوا إصابة الحقّ، وليسوا كالمشركين الذين ألفوا ما يدعوهم إليه الهوى، وزاغوا عن طريق الهدى.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ العادلون عن طريق الحقّ والدين ﴿فَكَانُوا﴾ في علم الله وحكمه ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ يلقون فيها، فتحرقهم، كما تحرق النار الحطب، أو يكون معناه: فسيكونون لجهنّم حطباً توقد بهم، كما توقد النار بالحطب.

﴿وَأَن لَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً﴾ هذا ابتداء حكم من الله سبحانه، أي: لو استقام الإنس والجنّ على طريقة الإيمان، ـ عن ابن عبّاس، والسدي ـ. وقيل: أراد به مشركي مكّة، أي: لو آمنوا واستقاموا على الهدى، لأسقيناهم ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع ماء المطر عنهم سبع سنين، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: لو آمنوا واستقاموا لوسّعنا عليهم في الدنيا، وضَرَب الماء الغدق مثلاً؛ لأنّ الخير كله والرزق يكون في المطر، وهذا كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ﴾، إلى قوله: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقيل: معناه: لو استقاموا على طريقة الكفر، فكانوا كفّاراً كلّهم لأعطيناهم مالاً كثيراً، ولوسّعنا عليهم تغليظاً للمحنة في التكليف، ولذلك قال: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم بذلك، ـ عن الفرّاء، وهو قول الربيع والكلبي والثمالي وأبي مسلم

وابن مجلز ـ. ودليله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقيل: «لنفتنهم» معناه: لنعاملهم معاملة المختبر في شدّة التعبّد بتكليف الإنصراف عمّا تدعو شهواتهم إليه. وفي ذلك المحنة الشديدة وهي الفتنة. والمثوبة على قدر المشقّة في الصبر عمّا تدعو إليه الشهوات. وروي عن عمر بن الخطاب أنّه قال في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. وقيل: معناه: لنختبرهم كيف يكون شكرهم للنعم، ـ عن سعيد بن المسيب وقتادة ومقاتل والحسن ـ.

والأولى أن تكون الإستقامة على الطريقة محمولة على الإستقامة في الدين والإيمان؛ لأنّها لا تطلق إلّا على ذلك، ولأنّها في موضع التلطّف والإستدعاء إلى الإيمان، والحثّ على الطاعة.

وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام عن أبي بصير قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله «إنّ الذين قالُوا ربّنا الله ثمّ استقاموا؟» قال: هو والله ما أنتم عليه، ﴿وَلَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً﴾ وعن بريد العجلي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: معناه: لأفدناهم علماً كثيراً يتعلّمونه من الأئمّة.

ثمّ قال سبحانه على وجه التهديد والوعيد: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ أي: ومن يعدل عن الفكر فيما يؤدّيه إلى المعرفة بالله، وتوحيده، والإخلاص في عبادته. وقيل: عن شكر الله وطاعته ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ أي: يدخله عذاباً شاقّاً شديداً متصعّداً في العظم، وإنّما قال ﴿يَسْلُكْهُ﴾ لأنّه تقدَّم ذكر الطريقة. وقيل: معناه: عذاباً ذا صعد أي: ذا مشقّة.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَداً﴾ تقديره: ولأنّ المساجد لله، فلا تدعوا مع الله أحداً سوى الله، ـ عن الخليل ـ. والمعنى: لا تذكروا مع الله في المواضع التي بنيت للعبادة والصلاة، أحداً على وجه الإشراك في عبادته، كما

تفعل النصارى في بيعهم، والمشركون في الكعبة.

قال الحسن: مِن السنّة عند دخول المساجد أن يقال: لا إله إلّا الله، لا أدعو مع الله أحداً. وقيل: المساجد، مواضع السجود من الإنسان، وهي: الجبهة، والكفّان، وأصابع الرجلين، وعينا الركبتين، وهي لله تعالى إذ خلقها، وأنعم بها، فلا ينبغي أن يسجد بها لأحد سوى الله تعالى، ـ عن سعيد بن جبير، والزجّاج، والفرّاء ـ.

وروي أنّ المعتصم سأل أبا جعفر محمّد بن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ فقال: هي الأعضاء السبعة التي يسجد عليها. وقيل: إنّ المراد بالمساجد: البقاع كلها، وذلك لأنّ الأرض كلها جعلت للنبيّ صلى الله عليه وآله مسجداً، ـ عن الحسن ـ.

وقال سعيد بن جبير: قالت الجنّ للنبيّ صلى الله عليه وآله: كيف لنا أن نأتي المسجد، ونشهد معك الصلاة، ونحن ناؤون عنك؟ فنزلت الآية. وروي عن الحسن أيضاً أنّ المساجد الصلوات، وهي لله. والمراد أخلصوا لله العبادة، وأقرّوا له بالتوحيد، ولا تجعلوا فيها لغير الله نصيباً.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ يريد به محمّداً صلى الله عليه وآله ﴿يَدْعُوهُ﴾ بقول لا إله إلّا الله، ويدعو إليه، ويقرأ القرآن ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ أي: كاد الجنّ يركب بعضهم بعضاً، يزدحمون عليه حرصاً منهم على استماع القرآن، ـ عن ابن عبّاس، والضحّاك ـ. وقيل: هو من قول الجنّ لأصحابهم حين رجعوا إليهم، والمراد: إنّ أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله يتزاحمون عليه لاستماع القرآن منه، يودّ كل واحد منهم أن يكون أقرب من صاحبه، فيتلبّد بعضهم على بعض، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: هو من جملة ما أوحى الله إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بما كان من حرص الجنّ على استماع القرآن.

وقيل: معناه: إنّه لما دعا قريشاً إلى التوحيد، كادوا يتراكبون عليه بالزحمة، جماعات متكاثرات؛ ليزيلوه بذلك عن الدعوة، وأبى الله إلّا أن ينصره ويظهره على من ناوأه، ـ عن قتادة والحسن ـ. وعلى هذا فيكون ابتداء كلام ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ وذلك أنّهم قالوا للنبي ﷺ: إنّك جئت بأمر عظيم، لم يسمع مثله، فارجع عنه. فأجابهم بهذا، ـ عن مقاتل ـ، وأمره سبحانه بأن يجيبهم بهذا. فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ وهذا يعضد قول الحسن وقتادة؛ لأنّه كالذمّ لهم على ذلك.

قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي
مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ
مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا (١) ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

القراءة: قرأ يعقوب: ﴿لِّيُعْلَمَ﴾ ـ بضمّ الياء ـ. والباقون: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ ـ بفتح الياء ـ. والمعنيان متقاربان.

(١) فتح الياء من «ربّي أمداً» الحرميان وأبو عمرو.

اللغة: الملتحد: الملتجأ بالميل إلى جهة. والرصد: جمع راصد، وهو الحافظ.

الإعراب: ﴿بَلاغاً﴾: منصوب؛ لأنّه بدل من «ملتحد» أي: لن أجد ملجأ إلّا أن أُبلغ عن الله ما أرسلني به، فهو ملجأي. ﴿وَرِسالاٰتِهِ﴾: منصوبة بالعطف على محذوف، والتقدير: إلّا بلاغاً من الله وآياته ورسالاته. قوله: ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً﴾: جملة من مبتدأ وخبر هي تعليق. و ﴿نَاصِراً﴾: نصب على التمييز، وكذلك قوله: ﴿عَدَداً﴾.

وقوله: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾: الإستفهام مع ما في حيّزه تعليق. ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: يجوز أن يكون «مَن» مبتدأ، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾: خبره، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً.

و ﴿عَدَداً﴾: انتصابه عى ضربين: أحدهما: على معنى: وأحصى كل شيء في حال العدد، فلم يخف عليه سقوط ورقة، ولا حبّة، ولا رطب، ولا يابس. والآخر: أن يكون في موضع المصدر؛ لأنّ معناه: وعدَّ كل شيء عدداً، ـ عن الزجّاج ـ.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمكلّفين ﴿إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَدا﴾ أي: لا أقدر على دفع الضرر عنكم، ولا إيصال الخير إليكم، وإنّما القادر على ذلك هو الله تعالى، ولكنّي رسول ليس عليّ إلّا البلاغ والدعاء إلى الدين، والهداية إلى الرشاد. وهذا اعتراف بالعبوديّة، وإضافة الحول والقوّة إليه تعالى.

ثمّ قال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا يمنعني أحد ممّا قدره الله عليّ ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ أيضاً ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿مُلْتَحَداً﴾ أي: ملتجأ إليه أطلب به السلامة.

﴿إِلَّا بَلَاغاً مِنَ ٱللهِ﴾ أي: تبليغاً من الله آياته ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ فإنّه ملجأي ومنجاي وملتحدي، ولي فيه الأمن والنجاة، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وقيل: معناه: لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً، فما عليَّ إلّا البلاغ عن الله. فكأنّه قال: لا أملك شيئاً سوى تبليغ وحي الله بتوفيقه وعونه، ـ عن قتادة ـ.

وقيل: إنّ قوله: ﴿إِلَّا بَلَاغاً﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: إلّا ما بلغني من الله أي: لا يجيرني شيء إلّا ما أتاني من الله، فلا فرق بين أن يقول: بلغني كتابه، وأن يقول: أتاني كتابه. والثاني: إلّا تبليغ ما أنزل إليَّ. فأمّا القبول والإيمان فليس إليّ، وإنّما ذلك إليكم، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه عطف رسالاته على البلاغ، فوجب أن يكون غيره، فالأولى أن يكون أراد بالبلاغ ما بلغه من توحيد الله وعدله، وما يجوز عليه، ومالا يجوز. وأراد بالرسالة ما أُرسل لأجله من بيان الشرائع.

ولمّا بيّن سبحانه أنّه لا ملجأ من عذابه إلّا طاعته، عقّبه بوعيد من قارف معصيته، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالف أمره في التوحيد، وارتكب الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ جزاء على ذلك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ في الآخرة ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ به من العقاب في الدنيا. وقيل: هو عذاب الإستئصال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ المشركون أم المؤمنون. وقيل: أجند الله أم الذي عبده المشركون. وإنّما قال: ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً﴾ ولا ناصر لهم في الآخرة؛ لأنّه جاء على جواب من توهّم أنّه إن كانت الآخرة، فناصرهم أقوى وعددهم أكثر. وفي هذا دلالة على أنّ المراد بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾: الكفّار. وكانوا يفتخرون على النبيّ ﷺ بكثرة جموعهم، ويصفونه بقلّة العدد، فبيّن سبحانه أنّ الأمر سينعكس عليهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي: لست أعلم ﴿أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ أي: مهلة وغاية ينتهي إليها. قال عطاء: أراد أنّه

لا يعرف يوم القيامة إلّا الله وحده ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: هو عالم يعلم متى تكون القيامة ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً﴾ أي: لا يطّلع على الغيب أحداً من عباده.

ثمّ استثنى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ يعنى: الرسل، فإنّه يستدلّ على نبوّتهم بأن يخبروا بالغيب؛ لتكون آية معجزة لهم، ومعناه: إنّ من ارتضاه، واختاره للنبوّة والرسالة، فإنّه يطّلعه على ما شاء من غيبه، على حسب ما يراه من المصلحة، وهو قوله: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ والرصد: الطريق. أي: يجعل له إلى علم ما كان قبله من الأنبياء والسلف، وعلم ما يكون بعده طريقاً. وقيل: معناه: إنّه يحفظ الذي يطّلع عليه الرسول، فيجعل من بين يديه ومن خلفه رصداً من الملائكة، يحفظون الوحي من أن تسترقه الشياطين، فتلقيه إلى الكهنة.

وقيل: رصداً من بين يدي الرسول ومن خلفه، وهم الحفظة من الملائكة، يحرسونه عن شرّ الأعداء وكيدهم، فلا يصل إليه شرّهم. وقيل: المراد به جبرائيل عليه السلام أي: يجعل من بين يديه ومن خلفه رصداً كالحجاب؛ تعظيماً لما يتحمّله من الرسالة، كما جرت عادة الملوك بأن يضمّوا إلى الرسول جماعة من خواصّهم؛ تشريفاً له. وهذا كما روي أنّ سورة الأنعام نزلت ومعها سبعون ألف ملك.

﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الرسول ﴿أَنْ قَدْ أَبْلَغُواْ﴾ يعني الملائكة. قال سعيد بن جبير: ما نزل جبرائيل بشيء من الوحي، إلّا ومعه أربعة من الملائكة حفظة، فيعلم الرسول أنّه قد أبلغ الرسالة على الوجه الذي قد أُمر به. وقيل: ليعلم من كذب الرسل أنّ الرسل قد أبلغوا رسالات الله، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ليعلم محمّد صلى الله عليه وآله أنّ الرسل قبله، قد أبلغ جميعهم ﴿رِسَالاٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما أبلغ هو إذ كانوا محروسين محفوظين بحفظ الله، ـ عن قتادة ـ. وقيل: ليعلم الله أن قد أبلغوا، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل:

معناه: ليظهر المعلوم على ما كان سبحانه عالماً، ويعلمه واقعاً، كما كان يعلم أنّه سيقع. وقيل: أراد: ليبلغوا، فجعل بدل ذلك قوله: ليعلم إبلاغهم؛ توسّعاً، ـ عن الجبائي ـ. وهذا كما يقول الإنسان ما علم الله ذلك منّي أي: ما كان ذلك أصلاً؛ لأنّه لو كان لعلم الله ذلك، فوضع العلم موضع الكون.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: أحاط الله علماً بما لدى الأنبياء والخلائق، وهم لا يحيطون إلّا بما يطلعهم الله عليه، ممّا هو عندالله.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيءٍ عَدَداً﴾ أي: أحصى ما خلق، وعرف عدد ما خلق، لم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: عدّ جميع المعلومات المعدومة والموجودة عدّاً، فعلم صغيرها وكبيرها، وقليلها وكثيرها، وما يكون وما لا يكون، وما كان وما لم يكن، ولو كان كيف كان. وقيل: معناه: لا شيء يعلمه عالم، أو يذكره ذاكر، إلّا وهو تعالى عالم به، ومحص إيّاه، عن الجبائي، قال: الإحصاء فعل، وليس هو بمنزلة العلم، فلا يجوز أن يقال: أحصى ما لا يتناهى، كما يجوز أن يقال: علم ما لا يتناهى، فإنْ حمل على العلم تناول جميع المعلومات، وإنْ حمل على العدّ تناول الموجودات.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

وهي مدنية، وقيل: بعضها مكّي، وبعضها مدنيّ.

عَدَدُ آيِهَا: ثماني عشرة آية المدني الأخير، وتسع عشرة بصري، عشرون في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: ثلاث آيات المزمل كوفيّ شاميّ، والمدني الأوّل شيباً غير المدني الأخير، إليكم رسولاً مكّي.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن قرأ سورة المزّمّل، رفع عنه العسر في الدنيا والآخرة». منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة المزّمّل في العشاء الآخرة، أوفي آخر الليل، كان له الليل والنهار شاهدين مع السورة، وأحياه الله حياة طيّبة، وأماته ميتة طيّبة.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سورة الجنّ بذكر الرسل، افتتح هذه السورة بذكر نبيّنا ﷺ خاتم الرسل، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو، وابن عامر: ﴿وِطاء﴾ ـ بكسر الواو والمدّ ـ. والباقون: ﴿وَطْأً﴾ ـ بفتح الواو وسكون الطاء مقصوراً ـ. وقرأ أهل الكوفة غير حفص، وابن عامر، ويعقوب: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ ـ بالجرّ ـ. والباقون: ـبالرفع ـ. وفي الشواذّ، قراءة عكرمة: المزّمّل، والمدّثّر ـ خفيفة الزاي والدال، مشدّدة الميم والثاء ـ. وقراءة أبي السماك: ﴿قُمُ ٱللَّيْلَ﴾ ـ بضمّ الميم ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾: فمعناه: مواطأة أي: موافقة وملاءمة. ومنه: ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا: والمعنى: إنّ صلاة ناشئة الليل، وعمل ناشئة الليل، يواطىء السمع القلب فيها أكثر ممّا يواطىء في ساعات النهار، ولأنّ البال أفرغ لانقطاع كثير ممّا يشغل بالنهار. ومن قال: ﴿وَطْأً﴾ فالمعنى: إنّه أشقّ

على الإنسان من القيام بالنهار؛ لأنّ الليل للدعة والسكون. وجاء في الحديث «أللهمّ اشدد وطأتك على مضر». ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أشدّ استقامة وصواباً لفراغ البال، وانقطاع ما يشغله. قال:

لَهُ وَلَها وَقْعٌ بِكُلِّ قُرارَةٍ وَوَقْعٌ بِمُسْتَنِّ الْفَضاءِ قَوِيمُ[١]

أي: مستقيم.

والناشئة: ما يحدث وينشأ من ساعات الليل.

والرفع في ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: إنّه لمّا قال ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ قطعه من الأول، فقال: هو ربّ المشرق، فيكون خبر مبتدأ محذوف. والآخر: أن يكون مبتدأ، وخبره الجملة التي هي ﴿لاَ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومن جرَّ، فعلى إتباعه قوله: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾.

وأمّا قوله: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ـ بتخفيف الزاي ـ فعلى حذف المفعول به أي: يا أيّها المزمّل نفسه، والمدثّر نفسه، وحذف المفعول كثير. قال الحطيئة:

مُنَعَّمَةٌ تَصُونُ إِلَيْكَ مِنْها كَصَوْنِكَ مِنْ رِداءٍ شَرْعَبِيٍّ[رَدٍ أَشِرٍ عَتِى][٢]

أي: تصون حديثاً وتخزنه، كقول الشنفرى:

كَأَنَّ لَهَا فِي الأَرْضِ نِسْياً تَقُصُّهُ عَلىٰ أُمِّها وَإِنْ تُكَلِّمْكَ تَبْلِتِ[٣]

ومن قرأ: «قمُ الليل»، أو ضمَّ، فيمكن أن يكون ضمّه للإتباع.

---

(١) كأنّه يصف وقع الحافر على الأرض. والقرارة: القاع المستديرة. واستنّ السراب: اضطرب.

(٢) يصف امرأة ذات وقار، يحتشم من التكلّم معها، كما تصون نفسك من رجل أشر أي: متكبّر. ردأي: ضالّ عتى أي: ظالم. ويروي: من رداء شرعبي، ومرّ بهذه اللفظة أيضاً. والشرعبي: ضرب من البرود.

(٣) يصف جارية بالحياء، وأنّها تمشي ناكسة رأسها، كأنّها تنشد شيئاً فقدته. والأمّ: الطريق. وتبلت: تقطع كلامها من شدّة الحياء.

(اللغة): المزّمّل: المتزمل في ثيابه، أدغم التاء في الزاي؛ لأنّ الزاي قريبة المخرج من التاء، وهي أندى في المسموع من التاء، وكل شيء لفّف فقد زمّل. قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ ثَبِيراً فِي عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ[١]

والنصف: أحد قسمي الشيء المساوي للآخر في المقدار، كما أنّ الثلث جزء من ثلاثة، والربع جزء من أربعة، وهذه من صفات الأجسام، فإذا رفعت التأليفات عنها، بقيت أجزاء لا توصف بأنّ لها نصفاً أو ثلثاً أو ربعاً. والعرض لا يوصف بالنصف، والجزء. والقديم تعالى لا يوصف أيضاً بذلك؛ لأنّ هذه عبارات عن مؤلفات على وجوه. فإن قيل: فإذاً يجب أن لا يكون وصف القديم تعالى بأنّه واحد مدحاً؟ فالجواب: إنّ معنى قولنا: إنّه واحد: اختصاصه بصفات لا يستحقّها غيره، وهي كونه قادراً عالماً لذاته، قديماً، ونحو ذلك. وإذا قيل: إنّه لا يتجزّأ، فليس بمدح إلّا أن يقال: إنّه حيّ لا يتجزّأ، بخلاف غيره من الأحياء.

والترتيل: ترتيب الحروف على حقّها في تلاوتها، بتثبّت فيها. والحدر: هو الإسراع فيها. وكلاهما حسن، إلّا أنّ الترتيل هنا هو المرغب فيه. والإلقاء: مثل التلقية. تقول: ألقيت على فلان مسألة. والأقوم: الأخلص استقامة. والسبح: التقلّب. ومنه: السابح في الماء؛ لتقلّبه فيه. وقرأ يحيى بن يعمر، والضحّاك ﴿سَبْخاً طَوِيلاً﴾ ـ بالخاء ـ، ومعناه: التوسعة. يقال: سبخت القطن: إذا وسعته للندف. ومنه: قول النبيّ ﷺ لعائشة، وقد سمعها تدعو على سارق: «لا تسبخي عنه بدعائك عليه» أي: لا تخففي. ويقال لقِطَعِ القُطْن إذا نُدِفَ: سبائخ. قال الأخطل يصف القُنّاص[١]، والكلاب:

---

(١) ثبير: جبل بمكّة، وهو أعلى جبالها. يقال إذا أشرق الشمس على ثبير، وجب على الحاجّ النفر من المشعر يوم النحر إلى منى. وعرانين: أوّل المطر.

[١] القناص: الصيادون.

فأَرْسَلُوهُنَّ يُـذْرِينَ التُّـرابَ كَـمَا يُذْرِي سَبائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتارِ[١]

وقال ثعلب: السبخ التردّد والإضطراب. والسبخ: السكون. ومنه: قول النبيّ ﷺ: «الحمى من فيح جهنّم فسبّخوها بالماء» أي: أسكنوها. والتبتّل: الإنقطاع إلى الله عزّ وجلّ، وإخلاص العبادة له. قال امرؤ القيس:

تضِيءُ الظَّلامَ بِالْعَشِيِّ كَأَنَّـها مَنارَةُ مُمْسىٰ رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ(١)

و أصله من بتلت الشيء: قطعته. وصدقة بَتَّة بَتْلَة أي: بائنة مقطوعة من صاحبها، لا سبيل له عليها. ومنه: البتول عليها السلام؛ لانقطاعها إلى عبادة الله، عزّ وجلّ.

﴿الإعراب﴾: ﴿ٱللَّيْلَ﴾ نصب على الظرف: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾: نصب على الإستثناء، تقديره: إلّا شيئاً قليلاً منه، لا تقوم فيه. ثمّ بيّن القدر، فقال: نصفه. قال الزجّاج: إنّ «نصفه» بدل من الليل، كما تقول: ضربت زيداً رأسه، فإنّما ذكرت زيداً لتوكيد الكلام، وهو أوكد من قولك: ضربت رأس زيد. فالمعنى: قم نصف الليل إلّا قليلاً، أو انقص من النصف، أو زد على النصف، و[ذكّر أو] انقص منه قليلاً بمعنى: إلّا قليلاً، ولكنّه ذكر مع الزيادة. فالمعنى: قم نصف الليل، أو انقص من نصف الليل، أو زد على نصف الليل.

﴿المعنىٰ﴾: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ معناه: يا أيّها المتزمّل بثيابه، المتلفّف بها، ـ عن قتادة ـ. وقيل: يا أيّها المتزمّل بعباءة النبوّة أي: المتحمّل لأثقالها، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: معناه: يا أيّها النائم، وكان قد تزمّل للنوم، ـ عن السدّي ـ. وقيل: كان يتزمّل بالثياب في أوّل ما جاء به [جائه] جبرائيل خوفاً حتى أنس به، وإنّما خوطب بهذا في بدء الوحي، ولم يكن قد بلغ شيئاً.

ثمّ خوطب ﷺ بعد ذلك بالنبيّ والرسول ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾

---

(١) يشبّه وجه معشوقته بسراج الراهب.

[١] التسبيخ: التخفيف، لذا قيل لقطع القطن: سبائخ.

والمعنى: صلّ بالليل إلّا قليلاً من الليل، فإنّ القيام بالليل عبارة عن الصلاة بالليل ﴿نِصْفَهُ﴾ هو بدل من الليل، فيكون بياناً للمستثنى منه أي: قم نصف الليل، ومعناه: صلّ من الليل النصف إلّا قليلاً، وهو قوله: ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ أي: من النصف.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: على النصف. وقال المفسّرون: أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين. وقيل: إنّ نصفه بدل من القليل، فيكون بياناً للمستثنى، والمعني فيهما سواء. ويؤيّد هذا القول ما روي عن الصادق عليه السلام قال: القليل النصف، أو انقص من القليل قليلاً، أو زد على القليل قليلاً. وقيل: معناه: قم نصف الليل إلّا قليلاً من الليالي، وهي ليالي العذر كالمرض، وغلبة النوم، وعلّة العين، ونحوها، أو انقص من النصف قليلاً، أو زد عليه، ذكره الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام. خيَّر الله سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وآله في هذه الساعات القيام [للقيام] بالليل، وجعله موكولاً إلى رأيه.

وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وطائفة من المؤمنين معه، يقومون على هذه المقادير، وشقَّ ذلك عليهم، فكان الرجل منهم لا يدري كم صلّى، وكم بقي من الليل. فكان يقوم الليل كلّه، مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب، حتى خفَّف الله عنهم بآخر هذه السورة. وعن قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن سعيد [سعد] بن هشام قال: قلت لعائشة أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ألست تقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قلت: بلى. قالت: فإنّ الله افترض قيام الليل في أوّل هذه السورة. فقام نبيّ الله، وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوّعاً بعد أنْ كان فريضة. وقيل: كان بين أوّل السورة وآخرها الذي نزل فيه التخفيف، عشر سنين، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

وقيل: كان هذا بمكّة قبل فرض الصلوات الخمس، ثمّ نسخ بالخمس ـ عن

ابن كيسان، ومقاتل ـ. وقيل: لمّا نزل أوّل المزّمّل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، فكان بين أوّلها وآخرها سنة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: إنّ الآية الأخيرة نسخت الأُولى، ـ عن الحسن، وعكرمة ـ. وليس في ظاهر الآيات ما يقتضي النسخ، فالأولى أن يكون الكلام على ظاهره، فيكون القيام بالليل سنَّة مؤكّدة، مرغباً فيه، وليس بفرض.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: بيّنه بياناً. واقرأه على هينتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً، ـ عن ابن عبّاس ـ. قال الزجّاج: والبيان لا يتمّ بأن تعجل في القرآن، إنّما يتمّ بأن تبيّن جميع الحروف، وتوفّي حقّها من الإشباع. قال أبو حمزة: قلت لابن عبّاس إنّي رجل في قراءتي وفي كلامي عجلة. فقال ابن عبّاس: لأن أقرأ البقرة أُرتّلها، أحبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله. وقيل: معناه: ترسّل فيه ترسّلاً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: تثبّت فيه تثبّتاً، ـ عن قتادة ـ. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في معناه: أنّه قال: بيّنه بياناً، ولا تهذّه هذّ الشعر[1]، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن إقرع به القلوب القاسية، ولا يكونَنَّ همَّ أحدكم آخر السورة.

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة، فاسأل الله الجنّة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار، فتعوَّذ بالله من النار. وقيل: الترتيل: هو أن تقرأ على نظمه وتواليه، ولا تغيّر لفظاً، ولا تقدّم مؤخّراً، وهو مأخوذ من ترتل الأسنان: إذا استوت وحسن انتظامها. وثغر رَتَلْ: إذا كانت أسنانه مستوية، لا تفاوت فيها. وقيل: «رتل» معناه: ضعف. والرتل: اللين، عن قطرب، قال: والمراد بهذا تحزين القرآن أي: اقرأه بصوت حزين. ويعضده ما رواه أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام في هذا قال: هو أنْ تتمكّث فيه، وتحسن به صوتك. وروي عن أُمّ سلمة،

---

[١] الهذ: سرعة القراءة.

أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية. وعن أنس قال: كان يمدّ صوته مدّاً. وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: إقرأ، وارقَ، ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ أي: سنوحي عليك قولاً يثقل عليك وعلى أُمّتك. أمّا ثقله عليه، فلما فيه من تبليغ الرسالة، وما يلحقه من الأذى فيه، وما يلزمه من قيام الليل، ومجاهدة النفس، وترك الراحة والدعة. وأمّا ثقله على أُمّته، فلما فيه من الأمر والنهي والحدود. وهذا معنى قول قتادة ومقاتل والحسن.

قال ابن زيد: هو والله ثقيل مبارك، وكما ثقل في الدنيا، ثقل في الموازين يوم القيامة. وقيل: ثقيلاً لا يحمله إلّا قلب مؤيَّد بالتوفيق، ونفس مؤيَّدة بالتوحيد، وقيل: ثقيلاً ليس بالسفساف الخفيف[١]؛ لأنّه كلام ربّنا جلَّت عظمته، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل معناه: قولاً عظيم الشأن، كما يقال: هذا كلام رصين، وهذ الكلام له وزن إذا كان واقعاً موقعه. وقيل: معناه: قولاً ثقيلاً نزوله، فإنّه ﷺ كان يتغيّر حاله عند نزوله، ويعرق. وإذا كان راكباً يبرك راحلته، ولا يستطيع المشي.

وسأل الحرث بن هشام رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّ عليَّ، فيفصم عنّي[٢] وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثَّل الملك رجلاً، فأعي ما يقول». قالت عائشة: إنّه كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فيضرب بجرانها[٣] . قالت: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ

---

[١] أي: الذي يستخف به.

[٢] قال الجزري: أي يقلع عني.

[٣] الجران: مقدم: عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

جبينه ليرفض عرقاً. وقيل: ثقيلاً على الكفّار، لما فيه من الكشف عن جهلهم، وضلالهم، وسفه أحلامهم، وقبح أفعالهم.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ﴾ معناه: إنّ ساعات الليل لأنّها تنشأ ساعة بعد ساعة، وتقديره: إنّ ساعات الليل الناشئة. وقال ابن عبّاس: هو الليل كله؛ لأنّه ينشأ بعد النهار. وقال مجاهد: هي ساعات التهجّد من الليل. وقيل: هي بالحبشية قيام الليل، ـ عن عبدالله بن مسعود، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: هي القيام بعد النوم، ـ عن عائشة ـ. وقيل: هي ما كان بعد العشاء الآخرة، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. والمرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام أنّهما قالا: هي القيام في آخر الليل إلى صلاة الليل.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً﴾ أي: أكثر ثقلاً، وأبلغ مشقّة؛ لأنّ الليل وقت الراحة والعمل يشقّ فيه. ومن قال: ﴿وَطْأً﴾ فالمعنى: أشدّ مواطأة للسمع والبصر، يتوافق فيها قلب المصلي ولسانه، وسمعه على التفهّم والتفكّر؛ إذ القلب غير مشتغل بشيء من أُمور الدنيا.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أصوب للقراءة، وأثبت للقول لفراغ البال، وانقطاع ما يشغل القلب، ـ عن أنس ومجاهد وابن زيد ـ. وقال أبو عبدالله عليه السلام: هو قيام الرجل عن فراشه، لا يريد به إلّا الله تعالى.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ معناه: إنّ لك يا محمّد في النهار منصرفاً ومنقلباً إلى ما تقضي فيه حوائجك، ـ عن قتادة ـ. والمراد إنّ مذاهبك في النهار، ومشاغلك كثيرة، فإنّك تحتاج فيه إلى تبليغ الرسالة، ودعوة الخلق، وتعليم الفرائض والسنن، وإصلاح المعيشة لنفسك وعيالك، وفي الليل يفرغ القلب للتذكّر والقراءة، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك؛ لتأخذ بحظّك من خير الدنيا والآخرة. وفي

هذا دلالة على أنّه لا عذر لأحد في ترك صلاة الليل؛ لأجل التعليم والتعلّم[١]؛ لأنّ النبيّ ﷺ كان يحتاج إلى التعليم أكثر ممّا يحتاج الواحد منّا إليه.

ثمّ لم يرض سبحانه أن يترك حظّه من قيام الليل ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني: أسماء الله تعالى التي تعبد بالدعاء بها. وقيل: إقرأ «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في ابتداء صلاتك، توصلك بركة قراءتها إلى ربّك، وتقطعك من كل ما سواه. وقيل: واقصد بعملك وجه ربّك.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي: أخلص له إخلاصاً، ـ عن ابن عبّاس، وغيره ـ يعني: في الدعاء والعبادة. وقيل: انقطع إليه انقطاعاً، ـ عن عطاء ـ، وهو الأصل.

---

(١) إشارة إلى عادة سيّئة في طلبة العلوم والمدرّسين في ترك التهجد في زمانه، وأمّا في زماننا فالأمر أعظم، وترى كثيراً منهم لا يقرأ قراءة صحيحة، ويعتذر بأنّ التجويد غير واجب، ولا يعلم أنّ التجويد باب في علم القراءة، وليس القراءة كلها تجويداً. واعلم أنّه قد يؤمر في الشريعة بأمور يجب الرجوع فيها إلى أهل الخبرة، أو إلى عامّة الناس، فإذا أمرنا باستقبال الكعبة في الصلوة، فهو إرجاع إلى الهيئة والهندسة، وإذا أمر بالبرّ بالوالدين، فيرجع في ما يتحقّق به البرّ إلى عرف الناس، وإذا أمر بالصحيح في القراءة، يرجع إلى النحو، واللغة، وإذا أمر بالترتيل، فهو ارجاع إلى أهل التجويد، فإنّهم قد جردوا أنفسهم لتتبّع ما كان العرب تستطيب، وتستجود بطباعها في أداء الحروف، والكلمات، وصفات الحروف، وغيرها. فمنها: ما لو خولفت عدّ في كلام العرب غلطا كمخارج الحروف، وبعض صفاتها، فيجب مراعاتها. ومنها: ما يعدّ تركه مرجوحاً مكروها فيستحب. والمراد في الآية هو الثانية قطعا؛ لأنّ ما كان من الأولى، كان المخاطبون يراعونها بطباعهم، فلا معنى للأمر به. وقال المقداد الترتيل سنّة مؤكّدة، والمراد ما لا يصير بمخالفته الكلام غلطا. وقال السيوطي في الاتقان قاعدة التجويد، ترجع إلى كيفيّة الوقف، والإمالة، والإدغام، وأحكام الهمز، والترقيق، والتفخيم، ومخارج الحروف. أقول: أمّا الترقيق والتفخيم، فلا أعرف فيها شيئا واجبا، وأمّا مخارج الحروف، فمراعاتها واجبة، وأمّا الوقف والادغام والهمز، فمنها: ما يجب مراعاة ما ذكروه ومنها: ما لايجب، والإخفاء ملحق بالإدغام. وأمّا الإمالة فلا يجب فيها شي، إلّا «مَجريها» في سورة هود ـ ان قرئ بفتح الميم ـ فإنّ القرّاء بين مَن أمال وفتح الميم، أو فتح وضمّها.

وقيل: توكّل عليه توكّلاً، ـ عن شقيق ـ. وقيل: تفرّغ لعبادته، ـ عن ابن زيد ـ. وقد جاء في الحديث النهي عن التبتّل، والمراد به: الإنقطاع عن الناس والجماعات. وكان يجب أنْ يقول تبتّلاً؛ لأنّ المراد بتّلك الله من المخلوقين، واصطفاك لنفسه تبتيلاً، فتبتّل أنت أيضاً إليه. وقيل: إنّما قال «تبتيلاً» ليطابق أواخر آيات السورة. وروي محمّد بن مسلم، وزرارة، وحمران، عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليه السلام أنَّ التبتّل هنا رفع اليدين في الصلاة. وفي رواية أبي بصير قال: هو رفع يدك إلى الله، وتضرّعك إليه.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي: ربّ العالم بما فيه؛ لأنّه بين المشرق والمغرب. وقيل: ربّ مشرق الشمس ومغربها. والمراد أوّل النهار وآخره. فأضاف النصف الأوّل من النهار إلى المشرق، والنصف الآخر منه إلى المغرب. وقيل: مالك المشرق والمغرب أي: المتصرّف فيما بينهما، والمدبّر لما بينهما.

﴿لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا أحد تحقّ له العبادة سواه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ أي: حفيظاً للقيام بأمرك. وقيل: معناه: فاتّخذه كافياً لما وعدك به، واعتمد عليه، وفوّض أمرك إليه، تجده خير حفيظ وكاف.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لك يعني: الكفّار من التكذيب والأذى، والنسبة إلى السحر والكهانة. ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ والهجر الجميل إظهار الموجدة عليهم من غير ترك الدعاء إلى الحقّ على وجه المناصحة. قال الزجّاج: هذا يدلّ على أنّه نزل قبل الأمر بالقتال. وقيل: بل هو أمر [بالقتال. وقيل: بل هو أمر] بالتلطّف في استدعائهم، فيجب مع القتال، ولا نسخ. وفي هذا دلالة على وجوب الصبر على الأذى، لمن يدعو إلى الدين والمعاشرة بأحسن الأخلاق، واستعمال الرفق ليكونوا أقرب إلى الإجابة.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا
وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ
وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾
إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

(اللغة): يذر ويدع: بمعنى يترك. ولا يقال: وَذَر، ولا وَدَع. واستغني بـ«تَرَك» عن ذلك؛ لأنّ الإبتداء بالواو عندهم مكروه، ولذلك أبدلوا الهمزة في «أقتت»، والتاء في «تخمة وتراث». والنَعمة ـ بفتح النون ـ: لين اللمس. وضدّها: الخشونة. والنعمة: الثروة والمنّة أيضاً. والنُعمة ـ بضمّ النون ـ: المسرّة. يقال نُعْمَ عين ونُعْمة عين ونُعْمَى عين. والأنكال: القيود. واحدها: نِكْل. والغصّة: تردّد اللقمة فى الحلق، ولا يسيغها آكلها، يقال: غصّ بريقه يغصّ غصصاً، وفي قلبه غصة من كذا، وهي كاللدغة التي لا يسوغ معها الطعام والشراب. قال عدي بن زيد:

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ ... كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي[1]

والكثيب: الرمل المجتمع الكثير. وهلت الرمل أهيله هيلاً، فهو مهيل: إذا حرّك أسفله، فسال أعلاه. ومنه: الحديث «كيلوا ولا تهيلوا، وكل ثقيل وبيل». ومنه: كلأ مستوبل أي: مستوخم لا يستمرأ لثقله. ومنه: الوبل والوابل: وهو المطر

(١) شرق بريقه. غصّ والصفة منه كخشن. والاعتصار: الالتجاء يعني: إن شرقت بغير الماء اسغت شرقي بالماء، فإذا غصصت بالماء، فبم اسيغه.

العظيم القطر. ومنه: الوبال، وهو ما يغلظ على النفس. والوبيل أيضاً: الغليظ من العصي. قال طرفة:

فَمَرَّتْ كَهَاةٌ ذَاتُ خَيْفٍ جَلالَةٌ عَقِيلَةُ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلَنْدَدِ(١)

المَعْنَى: ثمّ قال سبحانه مهدّداً للكفّار ﴿وَذَرْنِي﴾ يا محمّد ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين يكذّبونك فيما تدعوهم إليه من التوحيد، وإخلاص العبادة، وفي البعث والجزاء. وهذا كما يقول القائل: دعني وإيّاه إذا أراد أنْ يهدّده، وهو نصب على أنّه مفعول معه ﴿أُولِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ يعني: المتنعّمين ذوي الثروة في الدنيا أي: كِلْ جزاءهم إليّ، ولا تشغل قلبك بمجازاتهم.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ وهذا أيضاً وعيد لهم، ولم يكن إلّا يسيراً حتى كانت وقعة بدر، والمعنى: وأخّرهم في المدّة قليلاً. قال مقاتل: نزلت في المطعمين ببدر، وهم عشرة، ذكرناهم في الأنفال. وقيل: نزلت في صناديد قريش، والمستهزئين.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً﴾ أي: عندنا قيوداً في الآخرة، عظاماً لا تفكّ أبداً، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: أغلالاً ﴿وَجَحِيماً﴾ وهو اسم من أسماء جهنّم. وقيل: يعني ناراً عظيمة، ولا يسمّى القليل به.

﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ﴾ أي: ذا شوك يأخذ الحلق، فلا يدخل، ولا يخرج، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: طعاماً يأخذ بالحلقوم لخشونته، وشدّة تكرّهه. وقيل: يعني: الزقّوم والضريع. وروي عن حمران بن أعين، عن عبدالله بن عمر، أنّ النبيّ ﷺ سمع قارئاً يقرأ هذه فصعق. ﴿وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: عقاباً موجعاً مؤلماً.

ثمّ بيّن سبحانه متى يكون ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تتحرّك باضطراب شديد ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: وترجف الجبال معها أيضاً، وتضطرب بمن

---

(١) يصف نحر ناقة أبيه للضيفان. الكهاة: الناقة العظيمة، والجلالة كذلك، والخيف: الضرع. والعقيلة: كريمة المال. والوبيل: العصا الضخمة. ويلندد: الشديد الخصومة، أراد اباه.

عليها ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً﴾ أي: رملاً سائلاً متناثراً، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: المهيل: الذي إذا وطأته القدم زلَّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهار أعلاه، ـ عن الضحاك ـ. والمعنى: إنّ الجبال تنقطع [تنقلع] من أُصولها، فتصير بعد صلابتها كالرمل السائل.

ثمّ أكّد سبحانه الحجّة على أهل مكّة، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً﴾ يعني: محمّداً ﷺ ﴿شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ أي: يشهد عليكم في الآخرة بما يكون منكم، لا في الدنيا ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بمصر ﴿رَسُولاً﴾ يعني: موسى بن عمران.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يقبل منه ما دعاه إليه ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ بالعذاب ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي: شديداً ثقيلاً مع كثرة جنوده، وسعة ملكه، يعني: الغرق. حذَّرهم سبحانه أن ينالهم مثل ما نال فرعون وقومه.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ ولم تؤمنوا برسولكم ﴿يَوْماً﴾ أي: عقاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيباً﴾ وهو جمع أشيب. وهذا وصف لذلك اليوم وشدّته. كما يقال: هذا أمر يشيب منه الوليد، وتشيب منه النواصي، إذا كان عظيماً شديداً. والمعنى: بأيّ شيء تتحصَّنون من عذاب ذلك اليوم إنْ كفرتم؟ وكيف تدفعون عنكم ذلك؟ قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ، وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ[1]

أي: دفعتنا. ثمّ زاد سبحانه في وصف شدّة ذلك اليوم، فقال: ﴿ٱلسَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ الهاء تعود إلى «اليوم»، وهذا كما يقال: فلان بالكوفة أي: هو فيها. والمعنى: إنّ السماء تنفطر وتنشقّ في ذلك اليوم من هوله. وقيل: بسبب ذلك اليوم، وهوله،

---

(١) النصيف: الخمار، يصف امرأة سقط خمارها، فبرز وجهها، فحجبته بيدها.

وشدّته. وقيل: بأمر الله وقدرته. ولم يقل: منفطرة؛ لأنّ لفظة السماء مذكّر، فيجوز أن يذكّر ويؤنّث. ومن ذكر، أراد السقف. وقيل: معناه: ذات انفطار، كما يقال: امرأة مطفل أي: ذات أطفال، ومرضع ذات رضاع، فيكون على طريق النسبة.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي: كائناً لا خلف فيه، ولا تبديل ﴿إِنَّ هٰذِهِ﴾ الصفة التي ذكرناها، وبيّناها ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: عظة لمن أنصف من نفسه. والتذكرة: الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه.

﴿فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: فمن شاء من المكلفين، اتّخذ إلى ثواب ربّه سبيلاً؛ لأنّه قادر على الطاعة التي لو فعلها وصل إلى الثواب، وقد رغّبه الله تعالى فيه، ودعاه إلى فعل ما يوصله إليه، وبعث رسولاً يدعوه إليه، فمن لم يصل إليه، فبسوء اختياره انصرف عنه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأهل الكوفة: ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ ـ بالنصب ـ.

والباقون: ـ بالجرّ ـ[1].

الحجة: قال أبو عليّ: من نصب حمله على ﴿أَدْنَىٰ﴾. و ﴿أَدْنَىٰ﴾ في موضع نصب. قال أبو عبيدة: أدنى أقرب، فكأنّه قال: إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه. ومن جرّ، فإنّه يحمله على الجارّ. قال أبو الحسن: وليس المعنى عليه فيما بلغنا؛ لأنّ المعنى يكون على أدنى من نصفه، وأدنى من ثلثه. قال: وكان الذي افترض الثلث، وأكثر من الثلث [رأي: ولا يترك النبي عليه السلام الفرض] قال: فأما الذين قرأوا بالجرّ، فعلى أن يكون المعنى: إنّكم إنْ لم تؤدّوا ما فرض الله عليكم، فقوموا أدنى من ثلثي الليل، ومن نصفه، ومن ثلثه.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب وأقلّ ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ أي: أقلّ من نصفه وثلثه. والهاء تعود إلى الليل أي: نصف الليل، وثلث الليل. والمعنى: إنّك تقوم في بعض الليالي قريباً من الثلثين، وفي بعضها قريباً من نصف الليل، وقريباً من ثلثه. وقيل: إنّ الهاء تعود إلى الثلثين أي: وأقرب من نصف الثلثين، ومن ثلث الثلثين. وإذا نصبت، فالمعنى: تقوم نصفه وثلثه.

﴿و﴾ تقوم ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ على الإيمان. وروى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكاني بإسناده، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس في قوله: «وطائفة من الذين معكم» قال: عليٌّ وأبوذرّ.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يقدّر أوقاتهما لتعملوا فيها على ما يأمركم

---

(١) قرء هشام «ثلْثي الليل» ـ بسكون اللام ـ كما في البقرة. وأما الثُلث مفرداً فالجميع متّفقون على الضمّ. والظاهر أنّ المراد: النصف الأخير من الليل؛ إذ فيه يصدق قام ويقوم من الفراش، أو من النوم. ومشروعية الصلاة بعد نصف الليل لتخصيصه النصف بالذكر أولاً، وحمل غيره عليه، فيجوز تقديمها في الجملة على المنتصف، وعدم القدرة على تعيين نصف الليل، صار موجباً لنسخ وجوب التهجّد إلى الاستحباب.

به. وقيل: معناه: لا يفوته علم ما تفعلون، ـ عن عطاء ـ. والمراد: إنّه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل.

﴿عَلِمَ أَن لَن تُحْصُوهُ﴾ قال مقاتل: كان الرجل يصلّي الليل كله، مخافة أنْ لا يصيب ما أمر به من القيام، فقال سبحانه: علم أنْ لن تحصوه أي: لن تطيقوا معرفة ذلك. وقال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فقال سبحانه: إنّكم لا تطيقون إحصاءه على الحقيقة. وقيل: معناه: لن تطيقوا المداومة على قيام الليل، ويقع منكم التقصير فيه.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بأن جعله تطوّعاً، ولم يجعله فرضاً، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: فلم يلزمكم إثماً، كما لا يلزم التائب أي: رفع التبعة فيه، كرفع التبعة عن التائب. وقيل: فتاب عليكم أي: فخفّف عليكم.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرآنِ﴾ الآن يعني: في صلاة الليل، ـ عن أكثر المفسّرين ـ، وأجمعوا أيضاً على أنّ المراد بالقيام المتقدّم في قوله: ﴿قُمِ ٱللَّيْلَ﴾ هو القيام إلى الصلاة، إلّا أبا مسلم، فإنّه قال: أراد القيام لقراءة القرآن، لا غير. وقيل: معناه: فصلّوا ما تيسّر من الصلاة، وعبّر عن الصلاة بالقرآن؛ لأنّها تتضمّنه. ومن قال: إنّ المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة، فهو محمول على الإستحباب عند الأكثرين دون الوجوب؛ لأنّه لو وجبت القراءة، لوجب الحفظ. وقال بعضهم: هو محمول على الوجوب؛ لأنّ القارىء يقف على اعجاز القرآن، وما فيه من دلائل التوحيد، وإرسال الرسل، ولا يلزم حفظ القرآن؛ لأنّه من القرب المستحبّة المرغب فيها[1].

---

(١) المتبادر من الأمر الوجوب العيني، ولا ريب في أنّ القراءة ليست واجبة على كلّ أحد في غير الصلاة، أمّا الوجوب الكفائي لئلّا يندرس المعجزة فمما لا ريب فيه، فيجب دراسة جميع ←

ثمّ اختلفوا في القدر الذي تضمّنه هذا الأمر من القراءة، فقال سعيد بن جبير: خمسون آية. وقال ابن عبّاس: مائة آية، وعن الحسن قال: من قرأ مائة آية في ليلة، لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ مائة آية في ليلة، كتب من القانتين. وقال السدّي: مائتا آية. وقال جويبر: ثلث القرآن لأنّ الله يسره على عباده، والظاهر أنّ معنى ما تيسّر مقدار ما أردتم وأحببتم.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ وذلك يقتضي التخفيف عنكم ﴿وَآخَرُونَ﴾ أي: ومنكم قوم آخرون ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يسافرون للتجارة، وطلب الأرباح، ـ عن ابن عبّاس ـ ﴿وَآخَرُونَ﴾ أي: ومنكم قوم آخرون ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فكل ذلك يقتضي التخفيف عنكم.

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وروي عن الرضا عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام قال: ما تيسّر منه لكم فيه خشوع القلب، وصفاء السرّ ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ بحدودها التي أوجبها الله عليكم ﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ أي: وأنفقوا في سبيل الله، والجهات التي أمركم الله، وندبكم إلى النفقة فيها. وقد مرَّ معنى القرض فيما تقدّم.

← ما يتعلّق بألفاظ القرآن، ومعانيه، وتفاسيره للأوامر المتاكّدة، وإصرار المسلمين، وحرصهم على ذلك، فما دوّنت تلك العلوم الأدبيّة، وما كتبت الدفاتر، وما أسّست المدارس إلّا لذلك، وهذا يستفاد من كنز العرفان. وأمّا وجوب الحفظ لقراءة الصلاة فمختلف فيه بين علمائنا وجوز بعضهم القراءة في المصحف اختياراً في الصلاة فان أرادوا جواز ذلك في المقدار الواجب فهو خلاف السيرة وان ورد فيه رواية الصيقل وتمسك العلامة في المختلف بالاية على وجوب سورة بعد الحمد فانه تعالى اوجب كلّ ماتيسر خرج منه الزائد عن سورة بعد الحمد وفيه تأمل لان السورة لا يجب في صلاة الليل قولا واحداً واستدلّ أيضاً برواية منصور بن حازم وهي كافية مع الشهرة والاحتياط وقال المقداد روايات اهل البيت بذلك أي: الوجوب متظافرة وهو أعلم بما قال ولم نر شيئاً منها إلّا رواية منصور بن حازم.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: طاعة ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي: تجدوا ثوابه ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً﴾ لكم من الشُحّ والتقصير. ﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي: أفضل ثواباً، وهو هنا يسمّى فصلاً عند البصريّين، وعماداً عند الكوفيّين. ويجوز أن يكون صفة للهاء في «تجدوه» ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ أي: أطلبوا مغفرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ستّار لذنوبكم، صفوح عنكم، رحيم بكم، منعم عليكم. قال عبدالله بن مسعود: أيّما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين، صابراً محتسباً، فباعه بسعر يومه، كان عندالله بمنزلة الشهداء. ثمّ قرأ: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية. وقال ابن عمر: ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل في سبيل الله، أحبُّ إليّ من أن أموت بين شقّي رحل، أضرب في الأرض، أبتغي من فضل الله. وقيل: إنّ هذه الآية مدنيّة، ويدلّ عليها أنّ الصلاة والزكاة لم توجبا بمكّة. وقيل: أوجبتا بمكّة، والآية مكّيّة.

سورة المدّثر

عدد آيها: خمسون وستّ آيات عراقيّ والبزي والمدني الأوّل، وخمس شامي والمدني الأخير، والمكي غير البزي.

اختلافها: «يتساءلون» غير المدني الأخير «عن المجرمين» غير الشامي والمكي إلا البزي.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة المدّثّر، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدَّق بمحمّد ﷺ، وكذَّب به بمكّة». محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ في الفريضة سورة المدّثّر، كان حقّاً على الله أنْ يجعله مع محمّد ﷺ في درجته، ولا يدركه في حياة الدنيا شقاء أبداً.

تفسيرها: لمّا أمر سبحانه نبيّه ﷺ في آخر المزّمّل بالصلاة وغيرها، أمره في مفتتح هذه السورة بالإنذار، فكأنّه أمره أنْ يبدأ بنفسه، ثمّ بالناس، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر وحفص ويعقوب وسهل: ﴿وَالرُّجْزَ﴾ ـ بالضمّ ـ. والباقون: بكسر الراء. وقرأ الحسن: ﴿تَسْتَكْثِرْ﴾ ـ بالجزم ـ. وقرأ الأعمش: ﴿تَسْتَكْثِرَ﴾ بالنصب ـ. والقراءة بالرفع.

الحجة: الرُجز: ـ بالضمّ ـ قراءة الحسن، وهو اسم صنم فيما زعموا. وقال قتادة: هما صنمان إساف ونائلة. ومن كسر فهو العذاب، والمعنى: ذات العذاب فاهجر؛ لأنّ عبادتها تؤدّي إلى العذاب. ويجوز أن يكون الرُجز والرِجز لغتين، كالذُكر والذِكر.

وقال ابن جنّي: الجزم في «تستكثر» يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون بدلاً من ﴿تَمْنُن﴾ فكأنّه قال: لا تستكثر. فإن قيل: فعبرة البدل أنْ يصلح إقامة الثاني مقام الأوّل، وأنت لو قلت: لا تستكثر، لا يدلّك النهي على المنّ للإستكثار، وإنّما المعنى: لا تمنن مَنَّ مستكثر؟ قيل: قد يكون البدل على حذف الأوّل، وقد يكون على نيّة ثباته، وذلك كقولك: زيد مررت به أبي محمّد، فتبدل «أبا محمّد» من الهاء.

ولو قلت: زيد مررت بأبي محمّد، كان قبيحاً. فقوله: ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ من هذا القبيل. وأنكر أبو حاتم الجزم على البدل.

والآخر: أن يكون أراد تستكثر، فأسكن الراء؛ لثقل الضمّة مع كثرة الحركات، كما حكى أبو زيد من قولهم: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا﴾ بإسكان اللام.

وأمّا ﴿تَسْتَكْثِرَ﴾ ـ بالنصب ـ فبأنْ مضمرة، وذلك أنْ يكون بدلاً من قوله: ﴿وَلاَ تَمْنُن﴾ في المعنى. ألا ترى أنّ معناه لا يكن منك منّ فاستكثار، فكأنّه قال: لا يكن منك منّ أنْ تستكثر، فتضمر «أَنْ» لتكون مع الفعل المنصوب بها بدلاً عن المنّ في المعنى الذي دلَّ عليه الفعل. وممّا وقع فيه الفعل موقع المصدر قوله:

فَقَالُوا: مَا تَشَاءُ؟ فَقُلْتُ: أَلْهُو ... إِلَىٰ الأَصْبَاحِ آثِرَ ذي أَثِيرِ[1]

أراد: فقلت اللهو. فوضع «ألهو» موضع اللهو.

(اللغة): المدّثّر: المتفعّل، من الدثار، إلّا أنّ الثاء أُدغمت في الدال، وهو المتغطّي بالثياب عند النوم. والتكبير: وصف الأكبر على اعتقاد معناه، كتكبير المكبّر في الصلاة بقوله: الله أكبر. والتكبير: نقيض التصغير. والكبير الشأن هو المختصّ باتّساع المقدور والمعلوم.

والطهارة: النظافة بانتفاء النجاسة؛ لأنّ النظافة قد تكون بانتفاء الوسخ من غير نجاسة، وقد تكون بانتفاء النجاسة، فالطهارة في الآية هو القسم الأخير[2].

---

(١) قال في الصحاح افعل هذا أثر ذى أثير أي: أوّل كلّ شيء. قال عروة بن الورد واورد البيت.

(٢) قال الفاضل المقداد: تطهير الثياب ليس واجبا بنفسه، بل للصلاة. وقال الشيخ في النهاية: لا يجوز التصرّف في النجاسات بوجه، وقالوا في بيع الدهن المتنجّس: إنّه يجوز للاستصباح به تحت السماء لا تحت السقف، ويظهر منه أنّ تنجيس السقف لا يجوز. وقال في الروضة: لا يجوز بيع الدهن المأخوذ من ألية الميتة بحال؛ لعدم جواز استعمال عين النجاسة مطلقا. وورد النهي عن بيع العذرة، ولا ينهى إلّا عن شيء ينتفع به؛ إذ لا يباع ما ينتفع به قهراً، ولا معنى للنهي عنه.

والمنّ: ذكر النعمة بما يكدّرها، ويقطع حقّ الشكر بها، يقال: منَّ بعطائه يمنُّ منّاً: إذا فعل ذلك. فأمّا المن على الأسير، فهو إطلاقه بقطع أسباب الإعتقال عنه. والإستكثار: طلب الكثرة، وهو هنا طلب ذكر الإستكثار للعطيّة. والناقور: فاعول، من النقر، كهاضوم من الهضم، وحاطوم من الحطم وهو الذي من شأنه أنْ ينقر فيه للتصويت به. واليسير: القليل الكلفة. ومنه: اليسار، وهو كثرة المال لقلّة الكلفة به في الإنفاق. ومنه: تيسير الأُمور لسهولته.

الإعراب: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: تقديره: قم فكبّر ربّك، وكذلك ما بعده. وفائدة تقديم المفعول عنها التخصيص؛ لأنّك إذا قلت: وكبّر ربّك، لم يدلّ ذلك على أنّه لا يجوز تكبير غير الربّ. وإذا قلت: ربّك فكبّر، دلَّ على أنّه لا يجوز تكبير غيره. و﴿تَسْتَكْثِرُ﴾: في موضع نصب على الحال، ﴿فَذَٰلِكَ﴾: مبتدأ. و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبره.

و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: يجوز أنْ يكون رفعاً. ويجوز أن يكون نصباً، فإذا كان رفعاً، فإنّما يبنى على الفتح؛ لإضافته إلى «إذ» لأنّ «إذ» غير متمكنّة. وإذا كان نصباً فعلى الظرف، وتقديره: فذلك يوم عسير في يوم ينفخ في الصور، قاله الزجّاج. وقال أبو عليّ في بعض كتبه: لا يجوز أنْ ينتصب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بقوله: ﴿عَسِيرٌ﴾؛ لأنّ الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، وإنّما انتصب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على أنّه صلة قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾؛ لأنّ ذلك كناية عن المصدر، فكأنّه قال: فذلك النقر يومئذ. وعلى هذا فيكون التقدير: فذلك النقر في ذلك الوقت نقر يوم عسير.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ «على» يتعلّق بعسير، ولا يتعلّق بيسير؛ لأنّ ما يعمل فيه المضاف إليه، لا يتقدّم على المضاف. على أنّهم قالوا: إنّ «غيراً» في حكم حرف النفي، فيجوز أنْ يعمل ما بعده فيما قبله، نحو أن تقول: أنت زيداً غير ضارب، ولا يجوز أنْ تقول: أنت زيداً مثل ضارب، فتعمل ضارباً في زيد،

وإنّما أجازوا: أنت زيداً غير ضارب، حملاً على أنت زيداً لا ضارب.

المعنى: خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: المتدثّر بثيابه. قال الأُوزاعي: سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: سألت أبا سلمة: أيّ القرآن أُنزل من قبل؟ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ] فقال: سألت جابر بن عبدالله: أيّ القرآن أُنزل قبل؟ قال: يا أيّها المدّثّر. فقلت: أو اقرأ؟ فقال جابر: أُحدّثكم ما حدّثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء شهراً. فلمّا قضيت جواري، نزلت فاستبطنت الوادى فنوديت فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، فلم أر أحداً. ثمّ نوديت فرفعت رأسي، فإذا هو على العرش في الهواء، يعني جبرائيل. فقلت: دثّروني دثّروني، فصبّوا عليَّ ماء، فأنزل الله، عزّ وجلّ يا أيّها المدّثّر». وفي رواية «فحييت [فجثيت] منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت: زمّلوني فنزل يا أيّها المدّثّر».

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: ليس بك ما تخافه من الشيطان، إنّما أنت نبيّ، فأنذر الناس، وادعهم إلى التوحيد. وفي هذا ما فيه؛ لأنّ الله تعالى لا يوحي إلى رسوله إلّا بالبراهين النيّرة، والآيات البيّنة الدالّة على أنّ ما يوحى إليه إنّما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفزع، ولا يفرق. وقيل: معناه: يا أيّها الطالب صَرْف الأذى بالدثار، أُطْلبه بالإنذار، وخوِّف قومك بالنار، وإنْ لم يؤمنوا. وقيل: إنّه كان قد تدثّر بشملة صغيرة لينام، فقال: يا أيّها النائم! قم من نومك، فأنذر قومك. وقيل: إنّ المراد به الجدّ في الأمر، والقيام بما أُرسل به، وترك الهوينا فيه، فكأنّه قيل له: لا تنم عمّا أمرتك به، وهذا كما تقول العرب: فلان لا ينام في أمره إذا وصف بالجلد، والإنكماش، وصدق العزيمة، وكأنّهم يحظرون النوم على ذي الحاجة، حتى يبلغ حاجته، وبذلك نطقت أشعارهم، كما قيل:

أَلاَ أَيُّهَا النَّاهِي فَزَارَةَ بَعْدَ مَا ... أَجَدَّتْ لأَمْرٍ، إِنَّما أَنْتَ حَالِمُ

أَرىٰ كُلَّ ذِي وَتْرٍ، يَقُومُ بِـوَتْرِهِ وَيَمْنَعُ عَنْهُ النَّوْمَ إِذْ أَنْتَ نائِمُ[١]

ويقال لمن أدرك ثأره: هذا هو الثأر المنيم. وقال الشاعر يصف من أورد إبلاً له:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ، وَسَـعْدٌ مُشْـتَمِلٌ ما هٰكَذَا تُورَدُ يا سَعْد الإِبِل[١]

والإشتمال مثل التدثّر.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظّمه ونزّهه عمّا لا يليق به. وقيل: كبّره في الصلاة، فقل: الله أكبر ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: وثيابك الملبوسة فطهّرها من النجاسة للصلاة. وقيل: معناه: ونفسك فطهّر من الذنوب، والثياب عبارة ـ عن النفس، عن قتادة، ومجاهد ـ. وعلى هذا فيكون التقدير: وذا ثيابك فطهّر، فحذف المضاف. ومـمّا يؤيّد هذا القول، قول عنترة:

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَـمِّ ثِـيابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنا بِمُحَرَّمِ[٢]

وقيل: معناه: طهّر ثيابك من لبسها على معصية أو غدرة، كما قال سلامة بن غيلان الثقفي، أنشده ابن عبّاس:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ لاٰ ثَوْبَ فـاجِرٍ لَبِسْتُ، وَلاٰ مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ[٣]

قال الزجّاج: معناه: لا تكن غادرا ويقال للغادر: دنس الثياب، وفي معناه

---

(١) يعني: يا من ينهى فزارة عن الحرب والانتقام بعدما عزموا عليه انّك نائم أدركت ثارك فنمت، كل ذي وتر يجب عليه أن يدفع عن نفسه النوم.

(٢) يعني: طعنته طعنة خاطت ثيابه ببدنه.

(٣) أو ماخنت حتى أتقنّع حياء.

[١] البيت لمالك بن زيد مناة، وكان آبل أهل زمانه ـ أي: الحاذق في مصلحة الإبل ـ ثم إنه تزوج، وبنى بامرأته، فأورد الإبل أخوه سعد، ولم يحسن القيام عليها، والرفق بها. فقال مالك هذا البيت، يريد: إنّ من يورد الإبل لابد وأنْ يكون متشمراً لا مشتملاً. وفي بعض النسخ: «ياسعد لاتروي بهذاك الإبل» بدل المصراع الأخير.

قول من قال: وعملك فأصلح. قال السدّي: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنّه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجراً: إنّه لخبيث الثياب. وقيل: معناه: وثيابك فقصّر، ـ عن طاووس، وروي ذلك عن عبدالله عليه السلام ـ. قال الزجّاج: لأنّ تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنّه إذا انجرّ على الأرض، لم يؤمن أنْ يصيبه ما ينجسه، وقيل: معناه: وثيابك فاغسلها عن النجاسة بالماء؛ لأنّ المشركين كانوا لا يتطهّرون، ـ عن ابن زيد، وابن سيرين ـ. وقيل: لا يكن ثيابك من حرام، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: وأزواجك فطهّرهن عن الكفر والمعاصي، حتى يصرن مؤمنات صالحات. والعرب تكنّي بالثياب عن النساء، ـ عن أبي مسلم ـ. وروي أبو بصير، عن أبى عبدالله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: غسل الثياب يذهب الهمّ والحزن، وهو طهور المصلاة [للصلوة]، وتشمير الثياب طهور لها. وقد قال الله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: فشمّر.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: اهجر الأصنام والأوثان، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والزهري ـ. وقيل: معناه: اجتنب المعاصي، ـ عن الحسن ـ. قال الكسائي: الرِجز ـ بالكسر ـ: العذاب، وبالضمّ: الصنم. وقال: المعنى: اهجر ما يؤدّي إلى العذاب، ولم يفرّق غيره بينهما. وقيل: معناه: جانب الفعل القبيح، والخلق الذميم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: أخرج حبَّ الدنيا من قلبك؛ لأنّه رأس كل خطيئة.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط عطية لتعطى أكثر منها، وهذا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة، أدّبه الله سبحانه بأكرم الآداب وأشرفها، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والنخعي والضحّاك ـ. وقيل: معناه: ولا تمنن حسناتك على الله تعالى، مستكثراً لها، فينقصك ذلك عندالله، ـ عن الحسن، وربيع بن أنس ـ. وقيل: معناه: لا تمنن ما أعطاك الله من النبوّة والقرآن، مستكثراً به الأجر من الناس، ـ عن ابن زيد ـ.

وقيل: هو نهي عن الربا المحرّم أي: لا تعط شيئاً طالباً أنْ تعطى أكثر ممّا أعطيت، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعاتك، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ولا تمنن بعطائك على الناس مستكثراً ما أعطيته، فإنّ متاع الدنيا قليل؛ ولأنّ المنّ يكدّر الصنيعة. وقيل: معناه: إذا أعطيت عطيّة، فأعطها لربّك، واصبر حتى يكون هو الذي يثيبك عليها، ـ عن زيد بن أسلم ـ. وقيل: معناه: لا تمنن بإبلاغ الرسالة على أُمّتك، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ أي: لوجه ربّك ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذى المشركين، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: فاصبر على ما أمرك الله به من أداء الرسالة، وتعظيم الشريعة، وعلى ما ينالك من التكذيب والأذى، لتنال الفوز والذخر. وقيل: فاصبر عن المعاصي، وعلى الطاعات، والمصائب. وقيل: فاصبر لله على ما حملت من الأُمور الشاقّة في محاربة العرب والعجم، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ معناه: إذا نفخ في الصور، وهي كهيئة البوق، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إنّ ذلك في النفخة الأُولى، وهو أوّل الشدّة الهائلة العامّة. وقيل: إنّه النفخة الثانية، وعندها يحيي الله الخلق، وتقوم القيامة، وهي صيحة الساعة، ـ عن الجبائي ـ. ﴿فذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ﴾ قد مرَّ معناه: في الأعراف ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: شديد.

﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ لنعم الله الجاحدين لآياته ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ غير هيّن، ولا سهل، وهو بمعنى قوله: عسير، إلّا أنّه أعاده بلفظ آخر؛ للتأكيد، كما تقول: إنّي واد لفلان، غير مبغض. وقيل: معناه: عسير في نفسه، وغير عسير على المؤمنين؛ لما يرون من حسن العاقبة.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ
﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾
إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ
﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
(١)
مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ
﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ
وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

(اللغة): التمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل، نظائر. والعنيد: الذاهب عن الشيء على طريق العداوة له. يقال: عَنَدَ العِرْقُ يعند عُنوداً، فهو عـاند: إذا نـفر. والمعاندة: منافرة المضادّة، وكذلك العناد. وبعير عنود أي: نافر. قال الشاعر:

إذا نَزَلْتُ فَاجْعَلُوني وَسَـطاً ... إنّي كَبِيرٌ لا أُطِيقُ الْـعُنُدَا(٢)

---

(١) قرا أبو جعفر: تسعة عشر ـ بسكون العين من «عشر» ـ.

(٢) هكذا في النسخ التي رأيناها. والأنسب ما في الصحاح: إذا ركبت فاجعلوني، بدل «إذا نزلت». والعند: جمع عاند، البعير الذي يجور عن الطريق.

والإرهاق: الإعجاز بالعنف. والصعود: العقبة التي يصعب صعودها، وهي الكؤود، وعبس يعبس عبوساً: إذا قبض وجهه. والعبوس والتكليح والتقطيب، نظائر، وضدّها: الطلاقة والبشاشة. والبسور: بدو التكرُّهِ في الوجه، وأصله من بسر بالأمر: إذا عجل به. ومنه: البسر لتعجيل حاله قبل الإرطاب. قال توبة:

وَقَدْ رَابَني مِنْها صُدُودٌ رَأَيْتُهُ وَإِعْراضُها عَنْ حاجَتي وَبُسُورُها[1]

والإصلاء: إلزام موضع النار. يقال: أصليته فاصطلى. وسقر: اسم من أسماء جهنّم، لم يصرف؛ للتأنيث والتعريف. وأصله من سقرته الشمس سقراً: إذا آلمت دماغه. والإبقاء: ترك شيء ممّا أخذ. والتلويح: تغيير اللون إلى الإحمرار. ولوَّحته الشمس تلويحاً، فهي لوّاحة ـ على المبالغة ـ. والبشر: جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد. ومنه: سمي الإنسان بشراً؛ لأنّه ظاهر الجلد بتعريه من الوبر والريش والصوف، الذي يكون في غيره من الحيوان.

الإعراب: ﴿وَحِيداً﴾: منصوب على الحال، وهو على وجهين: أحدهما: أنْ يكون من صفة الله أي: ذرني ومن خلقته وحدي. والآخر: أن يكون من صفة المخلوق.

النزول: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أنّ قريشاً اجتمعت في دار الندوة، فقال لهم الوليد: إنّكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإنّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم، على أمر مختلف. فاجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول إنّه شاعر. فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر. فقالوا: نقول إنّه كاهن. قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة. قالوا: نقول إنّه لمجنون. فقال: إذا تأتونه فلا

---

(١) يشكو من إعراض معشوقته، وعدم تمكينه من نفسها.

تجدونه مجنوناً. قالوا: نقول: إنّه ساحر. قال: وما الساحر؟ فقالوا: بشر يحبّبون بين المتباغضين، ويبغضون بين المتحابّين. قال: فهو ساحر، فخرجوا. فكان لا يلقى أحد منهم النبيّ ﷺ إلاّ قال: يا ساحر، يا ساحر. واشتدَّ عليه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ـ عن مجاهد ـ.

ويروي أنّ النبيّ ﷺ لمّا أنزل عليه: ﴿حم * تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ قام إلى المسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه، يسمع قراءته. فلمّا فطن النبيّ ﷺ لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية.

فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لَمُثْرٍ [المثمر]، وإنّ أسفله لَمُغْدق[١]، وإنّه ليعلو وما يُعلى.

ثمّ انصرف إلى منزله. فقال قريش: صبأ[٢] والله الوليد، والله لتصبأنَّ [ليصبأن] قريش كلهم. وكان يقال للوليد: ريحانة قريش. فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جانب [جنب] الوليد حزيناً، فقال لي: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنّك، ويزعمون أنّك زينت كلام محمّد! فقام مع أبي جهل، حتى أتى مجلس قومه.

فقال: أتزعمون أنّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ فقالوا: أللهمّ لا. قال: أتزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: أللهمّ لا. قال: أتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قطّ؟ قالوا: أللهمّ لا. قال:

---

[١] والطلاوة: الحسن والرونق. الغَدَق: المطر الكبار القطر. والمُغْدِق مُفعل منه. أغدق المطر يُغدق إغداقاً فهو مُغدق.

[٢] صبأ الرجل: خرج من دين إلى دين آخر.

أتزعمون أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللهمّ لا، ولا يسمّى الصادق الأمين قبل النبوّة من صدقه. فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه، ثمّ نظر وعبس، فقال ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر.

المعنى: ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ على وجه التهديد للكافر الذي وصفه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ أي: دعني وإيّاه فإنّي كاف له في عقابه، كما يقول القائل: دعني وإياه، ومعناه: دعني ومن خلقته متوحّداً بخلقه، لا شريك لي في خلقه. وإنْ حملته على صفة المخلوق، فمعناه: دعني ومن خلقته في بطن أُمّه وحده لا مال له، ولا ولد، يعني الوليد بن المغيرة. قال مقاتل: معناه: خلّ بيني وبينه، فأنا أفرد [أنفرد] بهلكته. وقال ابن عبّاس: كان الوليد يسمّى الوحيد في قومه. وروي العياشي بإسناده، عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم، عن أبي عبدالله، وأبي جعفر عليهما السلام أنّ الوحيد ولد الزنا، قال زرارة: ذكر لأبي جعفر عليه السلام، عن أحد بني هشام أنّه قال في خطبته: أنا ابن الوحيد. فقال: ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها! فقلنا له: وما هو؟ قال: من لا يعرف له أب.

ثمّ ذكر سبحانه رزقه المال والولد، فقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً﴾ ما بين مكّة إلى الطائف من الإبل المؤبَّلة[١]، والخيل المسوَّمة، والنعم المرحلة، والمستغلّات التي لا تنقطع غلّتها، والجواري والعبيد والعين الكثيرة، ـ عن عطاء، عن ابن عبّاس ـ. وقيل: الممدود: الكثير الذي لا تنقطع غلّته عنه سنة حتى يدرك غلّة سنة أُخرى، فهو ممدود على الأيّام، وكان له بستان بالطائف، لا ينقطع خيره في شتاء ولا صيف، وعشرة بنين، ومائة ألف دينار، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ستّة

---

[١] إبل مؤبلة أي مجتمعة.

آلاف دينار، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أربعة آلاف دينار، ـ عن سفيان ـ.

﴿وَبَنِينَ شُهُوداً﴾ حُضوراً معه بمكّة لا يغيبون عنه، لغناهم عن ركوب السفر للتجارة. قال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر. وقال مقاتل: كانوا سبعة: الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبد شمس، أسلم منهم ثلاثة: خالد، وهشام، وعمارة. قالوا: فما زال الوليد بعد هذه الآية في نقصان من ماله وولده، حتى هلك.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي: بسطت له في العيش بسطاً، حتى صار مكفي [يكفى] المؤونة من كل وجه، حتى صارت أحواله متناسبة، ـ عن الحسن وغيره ـ. وقيل: سهلت له التصرّف في الأُمور تسهيلاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: لم يشكرني على هذه النعم، بل كفر نعمائي، وهو مع ذلك يطمع أن أزيد في إنعامه.

ثمّ قال على وجه الردع والزجر: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يكون كما ظنَّ، ولا أزيده مع كفره. وقيل: «كلّا» معناه: انزجر وارتدع، فليس الأمر على ما تتوهَّم. ثمّ بيّن سبحانه كفره فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: إنّما لم نفعل به ذلك؛ لأنّه كان بحججنا [لحججنا] وأدلّتنا معانداً، ينكرها [متكرّها] مع معرفته بها. وقيل: عنيداً جحوداً، ـ عن ابن عبّاس وقتادة ـ.

﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ أي: سأُكلّفه مشقّة من العذاب لا راحة فيه. وقيل: صعود: جبل في جهنّم من نار يؤخذ بارتقائه، فإذا وضع يده عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، وكذلك رجله في خبر مرفوع. وقيل: هو جبل من صخرة ملساء في النار، يكلّف أنْ يصعدها حتى إذا بلغ أعلاها أُحدر إلى أسفلها، ثمّ يكلّف أيضاً أنْ يصعدها، فذلك دأبه أبداً، يجذب من أمامه بسلاسل الحديد، ويضرب من خلفه بمقامع [بمقاطع] الحديد، فيصعدها في أربعين سنة، ـ عن الكلبي ـ.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ ودبَّر ماذا يقول في القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ القول في نفسه. وإنّما فكَّر

ليحتال به للباطل؛ لأنّه لو فكّر على وجه طلب الرشاد، لكان ممدوحاً، وقدّر فقال: إنْ قلنا شاعر كذبتنا العرب، باعتبار ما أتى به، وإنْ قلنا كاهن لم يصدّقونا؛ لأنّ كلامه لا يشبه كلام الكهان، فنقول: ساحر يؤثر ما أتى به عن غيره من السحرة.

﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لعن وعذب. وقيل: لعن بما يجري مجرى القتل. وقيل: استحقّ العذاب، ـ عن الجبائي ـ. ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قال صاحب النظم: معناه: لعن على أيّ حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال في الكلام: لأضربنَّه كيف صنع أي: على أيّ حال كان منه.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ هذا تكرير للتأكيد. وقيل: معناه: كيف قدَّر في آياتنا ما قدر مع وضوح الحجّة. ثمّ لعن وعوقب بعقاب آخر، كيف قدر في إبطال الحقّ تقديراً آخر. وقيل: معناه: عوقب في الآخرة مرّة بعد مرّة. ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ في طلب ما يدفع به القرآن ويردّه. ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وكره وجهه، ونظر بكراهة شديدة كالمتهم [كالمهتمّ] المتفكّر في الشيء. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تكبّر حين دعا إليه ﴿فقال إِنْ هَٰذَا﴾ أى ما هذا القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يروي عن السحرة. وقيل: هو من الإيثار أي: سحر تؤثره النفوس، وتختاره لحلاوته فيها ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أي: ما هذا إلّا كلام الإنس، وليس من عندالله، ولو كان القرآن سحراً، أو من كلام البشر، كما قاله الملعون، لأمكن السحرة أنْ يأتوا بمثله، ولقدر هو وغيره مع فصاحتهم على الإتيان بسورة مثله.

ثمّ قال سبحانه مهدّداً له: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأُدخله جهنّم، وأُلزمه إيّاها. وقيل: سقر: دركة من دركات جهنّم. وقيل: باب من أبوابها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيّها السامع ﴿مَا سَقَرُ﴾ في شدّتها وهولها وضيقها.

ثمّ وصف بعض صفاتها، فقال: ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ أي: لا تبقي لهم لحماً إلّا أكلته، ولا تذرهم إذا أُعيدوا خلقاً جديداً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: لا تبقي شيئاً إلّا

أحرقته، ولا تذر أي لا تبقي عليهم، بل يبلغ مجهودهم في أنواع العذاب، ـ عن الجبائي ـ. ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي: مغيِّرة للجلود. وقيل: لا فحة للجلود، حتى تدعها أشدّ سواداً من الليل.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة هم خزنتها مالك، ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، تسع كفّ أحدهم مثل: ربيعة ومضر، نزعت منهم الرحمة، يرفع أحدهم سبعين ألفاً، فيرميهم حيث أراد من جهنّم. وقيل: معناه: على سقر تسعة عشر ملكاً، وهم خزّان سقر، وللنار ودركاتها الأُخر، خزّان آخرون. وقيل: إنّما خصّوا بهذا العدد؛ ليوافق المخبر الخبر لما جاء به الأنبياء قبله، وما كان من الكتب المتقدّمة، ويكون في ذلك مصلحة للمكلّفين. وقال بعضهم في تخصيص هذا العدد: إنّ تسعة عشر تجمع أكثر القليل من العدد، وأقل الكثير منه؛ لأنّ العدد آحاد وعشرات ومئات وأُلوف، فأقلّ العشرات عشرة، وأكثر الآحاد تسعة[1]. قالوا: ولمّا نزلت هذه الآية، قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمّهاتكم، أتسمعون ابن أبي كبشة يخبركم أنّ خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم[1] الشجعان، أفيعجز كل

---

(١) واتّفق لي بحث في هذا العدد مع رجل ملحد، فقلت تبكيتا له: ليس ذكر العدد في كل موضع للتخصيص، بل للمبالغة، كما يقال: زرتك ألف مرّة فلم تزرني، قال هذا في العدد الكثير. قلت الكثير في كل موضع بحسبه، فعلى باب السجن خمسة من الحفظة كثير يكفي لمنع المسجنين من الخروج، والملوك على كثرة جنودهم يجعلون على باب السجن قليلاً، قال: فرضنا أنّه يكفي في المبالغة، فما وجه اختيار هذا العدد؟ قلت: رعاية رؤس آلاي وهي راء اقتضت كلمة عشر إلى تسعة عشر، وكل واحدة تصلح وتسعة عشر أعظم عدد يكفي في المبالغة، ويناسب رؤس الاي فبهت، فقلت: هذا ما خطر بالبال على التجويز، وذكر الاحتمال، وإلّا فلا يعلم دقائق كلامه إلّا هو. وذكر الإمام الرازي وجوها معنويّة منها تناسبها للقوى الحيوانيّة، التي هي دواعي المعاصي المفضية إلى الجحيم وحصرها في تسعة عشر، والله العالم.

[١] الدهم: الجماعة الكثيرة.

عشرة منكم أنْ يبطشوا برجل [يرجل] من خزنة جهنّم؟ فقال أبو الأسد الجمحي: أنا أكفيكم سبعة عشر: عشرة على ظهري، وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين. فنزل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلاَئِكَةً﴾ الآية. ـ عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك ـ ومعناه: وما جعلنا الموكّلين بالنار المتولّين تدبيرها، إلّا ملائكة جعلنا شهوتهم في تعذيب أهل النار، ولم نجعلهم من بني آدم، كما تعهدون أنتم فتطيقونهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لم نجعلهم على هذا العدد إلّا محنة وتشديداً في التكليف للذين كفروا نعم الله، وجحدوا وحدانيته حتى يتفكّروا، فيعلموا أنّ الله سبحانه حكيم لا يفعل إلّا ما هو حكمة، ويعلموا أنّه قادر على أنْ يزيد في قواهم ما يقدرون به على تعذيب الخلائق، ولو راجع الكفّار عقولهم، لعلموا أنّ من سلّط ملكاً واحداً على كافّة بني آدم لقبض أرواحهم، فلا يغلبونه، قادر على سوق بعضهم إلى النار، وجعلهم فيها بتسعة عشر من الملائكة.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى أنّه حقّ، وأنّ محمّداً ﷺ صادق من حيث أخبر بما هو في كتبهم من غير قراءة لها، ولا تعلم منهم ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ أي: يقيناً بهذا العدد، وبصحّة نبوّة محمّد ﷺ إذا أخبرهم أهل الكتاب أنّه مثل ما في كتابهم.

﴿وَلاَ يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولئلّا يشكّ هؤلاء في عدد الخزنة. والمعنى: وليستيقن من لم يؤمن بمحمّد ﷺ، ومن آمن به صحّة نبوّته، إذا تدبّروا وتفكّروا ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً﴾ اللام هنا لام العاقبة أي: عاقبة أمر هؤلاء أنْ يقولوا هذا يعني المنافقين والكافرين. وقيل: معناه: ولأن يقولوا ماذا أراد الله بهذا الوصف والعدد، ويتدبّروه، فيؤدّي بهم التدبّر في ذلك إلى الإيمان.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: مثل ما جعلنا خزنة أصحاب النار ملائكة ذوي عدد محنة واختباراً، نكلّف الخلق ليظهر الضلال والهدى، وأضافهما إلى نفسه؛ لأنّ سبب ذلك التكليف هو من جهته. وقيل: يضلّ عن طريق الجنّة والثواب من يشاء ويهدي من يشاء إليه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يعلم جنود ربّك من كثرتها أحد إلّا هو، ولم يجعل خزنة النار تسعة عشر لقلّة جنوده، ولكن الحكمة اقتضت ذلك. وقيل: هذا جواب أبي جهل حين قال: ما لمحمّد أعوان إلّا تسعة عشر، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: معناه: وما يعلم عدّة الملائكة الذين خلقهم الله لتعذيب أهل النار إلّا الله، ـ عن عطاء ـ. والمعنى: انّ التسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود ما لا يعلمه إلّا الله.

ثمّ رجع إلى ذكر سقر، فقال: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: تذكرة وموعظة للعالم ليتذكّروا، فيتجنبوا ما يستوجبون به ذلك. وقيل: معناه: وما هذه النار في الدنيا إلّا تذكرة للبشر من نار الآخرة حتى يتفكّروا فيها، فيحذروا نار الآخرة. وقيل: ما هذه السورة إلّا تذكرة للناس. وقيل: وما هذه الملائكة التسعة عشر إلّا عبرة للخلق، يستدلّون بذلك على كمال قدرة الله تعالى، وينزجرون عن المعاصي.

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى
ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ
نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ
﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ
ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ (١) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

القراءة: قرأ نافع وحمزة [وحفص] ويعقوب وخلف: ﴿إِذْ﴾ ـ بغير ألف ـ ﴿أَدْبَرَ﴾ ـ بالألف ـ. والباقون: ﴿إِذا﴾ ـ بالألف ـ ﴿دْبَرَ﴾ ـ بغير الألف ـ. وقرأ أهل المدينة، وابن عامر: ﴿مُّسْتَنفَرَةٌ﴾ ـ بفتح الفاء ـ. والباقون: بكسر الفاء. وفي الشواذّ، قراءة بعضهم يرويه عن ابن كثير: ﴿إِنَّهَا لَحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ ـ بلا همزة ـ. وقراءة سعيد بن جبير «صُحْفاً مُنْشرة» ـ بسكون الحاء والنون ـ.

الحجة: أبو عليّ: قال يونس دبر انقضى، وأدبر تولى. قال قتادة: والليل إذا دبر: إذا ولى، ويقال: دبر وأدبر. وقال: والتخفيف في ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أن يجعل فيها الهمزة بين بين، نحو سيم. فأمّا حذف الهمزة، فليس بقياس. ووجه ذلك أنّ الهمزة حذفت حذفاً، كما حذفت في قوله:

وَيْلُمِّها فِي هَواءِ الْجَوِّ طالِبُها ... وَلا كَهٰذَا الَّذي فِي الأَرْضِ مَطْلُوبُ

وقد جاء ذلك في مواضع من الشعر. قال أبو الأسود لزياد:

يا بَا الْمُغَيْرَةِ! رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ ... فَرَّجْتَهُ بِالنُّكْرِ مِنّي، وَالدُّهاء

وقال آخر:

إِنْ لَمْ أُقاتِلْ فَالْبِسُوني بُرْقَعاً ... وَفَتَخاتٍ فِي الْيَدَيْنِ أَرْبَعاً

---

(١) وما يذكرون قرأ نافع بالخطاب.

وأنشد أحمد بن يحيى:

إِنْ كَـانَ حُـزْنٌ لَكَ بـا فُـقَيْمَة بُـاعَكَ عَـبْداً بِأخَسِّ قِـيمَةٍ

وقال الفرزدق:

وَعَـلَيْكَ إِثْـمُ عَـطِيَّةِ بْـن الْـخَطَفي وَإِثْمُ الَّتي زَجَرَتْكَ، إِنْ لَمْ تَـجْهَد[1]

وقال: والكسر في ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أولى؛ لقوله: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ فهذا يدلّ على أنّها هي استنفرت. ويقال: نفر واستنفر، مثل: سخر واستسخر، وعجب واستعجب. ومن قال: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ فكأنّ القسورة استنفرتها والرامي. قال أبو عبيدة: مستنفرة مذعورة. وأنشد الزجّاج:

أَمْسِكْ حِـمَارَكَ إِنَّـهُ مُسْـتَنْفَرٌ في إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ[2]

ورويت بالكسر أيضاً. قال ابن سلام: سألت أبا سوار العرني، وكان أعرابيّاً فصيحاً، قارئاً للقرآن، فقلت: كأنّهم حمر ماذا قال حمر مستنفَرة طردها قسورة. قلت: إنّما هو فرَّت من قسورة. فقال: أفَّرت؟ قلت: نعم. فقال: مستنفِرة. قال ابن جنّي: أمّا سكون الحاء من ﴿صُحُفِ﴾ فلغة تميمية.

وأمّا ﴿مُنْشَرَةً﴾ ـ بسكون النون ـ، فإنّ العرف في الإستعمال نشرت الثوب وغيره، وأنشر الله الموتى فنشروا هم قال: وقد جاء عنهم أيضاً: نشر الله الميت. قال المتنبيّ:

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَـيَاتَهُ فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَـنْشُورٌ

ولم نعلمهم قالوا أنشرت الثوب ونحوه، إلّا أنّه يجوز أنْ يشبه شيء بشيء،

---

(١) الشاهد في البيت الأوّل، في حذف همزة أم من «ويلمها» وفي الثاني، في حذفها من «ابا المغيرة» وفي الثالث، من «فالبسوني» فإنّه من باب الإفعال، وفي الرابع، من «ابا فقيمه» وفي الخامس، من «اثم التي». والفتخات ـ بالتحريك ـ: جمع فتخة، حلقة من فضّة، يلبسها النساء في أصابعهنّ. وعطية بن الخطفي أبو جرير الشاعر، هجاه تعريضاً.

(٢) غرب: اسم جبل دون الشام، في بلاد بني كلب.

وكما جاز أنْ يشبه الميت بالشيء المطوي حتى قال المتنبيّ: منشور، فكذلك يجوز أن يشبه المطوي بالميت فيقال: صحف منشرة أي: كأنّها بطيها ميتة، فلمّا نشرت قيل: منشرة.

اللغة: اليقين: العلم الذي يوجد بَرْد الثقة به في الصدر، ويقال: وجد فلان برد اليقين، وثلج اليقين في صدره، ولذلك لا يوصف سبحانه بأنّه متيقّن. والقسورة: الأسد. وقيل: هم الرماة من قسره يقسره قسراً إذا قهره. وأصل الفرار الإنكشاف عن الشيء. ومنه: يقال: فرّ الفرس يفرّ فراً: إذا كشف عن سنّه. والصحف: جمع الصحيفة، وهي الورقة التي من شأنها أنْ تقلب من جهة إلى جهة لما فيها من الكتابة. ومنه: المصحف. وجمعه: مصاحف.

الإعراب: ﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾: اختلف في وجه انتصابه، فقيل: نصب على الحال، وهو إسم فاعل بمعنى منذر، وذو الحال الضمير في «إحدى الكبر» العائد إلى الهاء في «أنّها» وهي كناية عن النار. فالمعنى: إنّها لكبيرة في حِال الإنذار، وإنّما ذكر؛ لأنّ معناه معنى العذاب. ويجوز أنْ يكون التذكير على قولهم امرأة طالق أي: ذات طلاق، وكذلك «نذير» بمعنى ذات إنذار. وقيل: هو حال يتعلّق بأوّل السورة، فكأنّه قال: يا أيّها المدّثّر، قم نذيراً للبشر فأنذر. وقيل: إنّ النذير هنا بمعنى الإنذار، وتقديره: إنذاراً للبشر، فيكون نصباً على المصدر؛ لأنه لمّا قال: إنّها لإحدى الكبر، دلَّ على أنّه أنذرهم بها إنذاراً.

وقوله: ﴿مُعْرِضِينَ﴾ منصوب على الحال ممّا في اللام من قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ من معنى الفعل، والتقدير: أيّ شيء ثبت لهم معرضين عن التذكرة، و ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ﴾: جملة في موضع الحال من «معرضين»، وهي حال من حال، أو حال بعد حال أي: مشابهين حمراً.

المعنى: ثمّ أقسم سبحانه على عظيم ما ذكره من الوعيد، فقال: ﴿كَلَّا﴾

أي: حقّاً. وقيل: معناه: ليس الأمر على ما يتوهّمونه من أنّهم يمكنهم دفع خزنة النار وغلبتهم. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ أقسم بالقمر؛ لما فيه من الآيات العجيبة في طلوعه وغروبه، ومسيره، وزيادته ونقصانه.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وأقسم بالليل إذا ولى وذهب، ـ عن قتادة ـ. وقيل: دبر إذا جاء بعد غيره، وأدبر: إذا ولى مدبراً. فعلى هذا يكون المعنى في إذا دبر: إذا جاء الليل في أثر النهار. وفي إذْ أدبر: إذا ولى الليل فجاء الصبح عقيبه. وعلى القول الأوّل فهما لغتان، معناهما ولى وانقضى.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: إذا أضاء وأنار، ـ عن قتادة ـ. وهو قسم آخر. وقيل: معناه: إذا كشف الظلام وأضاء الأشخاص. وقال قوم: التقدير في هذه الأقسام، وربُّ هذه الأشياء؛ لأنّ اليمين لا يكون إلّا بالله تعالى.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ هذا جواب القسم يعني إنّ سقر التي هي النار لإحدى العظائم. والكبر: جمع الكبرى، وهي العظمى، ـ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: معناه: إنّ آيات القرآن لإحدى الكبر في الوعيد.

﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ﴾ أي: منذراً ومخوّفاً معلماً مواضع المخافة. والنذير: الحكيم بالتحذير عمّا ينبغي أنْ يحذر منه، فكل نبيّ نذير؛ لأنّه حكم بتحذيره عقاب الله تعالى على معاصيه. واختلف فيه فقيل: إنّه من صفة النار، ـ عن الحسن ـ. وقيل: من صفة النبيّ ﷺ فكأنّه قال: قم نذيراً، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: من صفة الله تعالى، ـ عن ابن رزين ـ. وعلى هذا يكون حالاً من فعل القسم المحذوف.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: يتقدّم في طاعة الله، أو يتأخّر عنها بالمعصية، ـ عن قتادة ـ. والمشيئة هي الإرادة، فيكون المعنى إنّ هذا الإنذار متوجّه إلى من يمكنه أن يتّقي عذاب النار بأن يتجنّب المعاصي، ويفعل الطاعات، فيقدر على التقدّم والتأخّر في أمره، بخلاف قول أهل الجبر القائلين مالا يطاق.

وقيل: إنّه سبحانه عبّر عن الإيمان والطاعة بالتقدّم؛ لأنّ صاحبه متقدّم في العقول والدرجات، وعن الكفر والمعصية بالتأخّر؛ لأنّه متأخّر في العقول والدرجات. وروي محمّد بن الفضيل [الفضل]، عن أبي الفضل، عن أبي الحسن عليه السلام أنّه قال: كل من تقدّم إلى ولايتنا تأخّر عن سقر، وكل من تأخّر عن ولايتنا، تقدّم إلى سقر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مرهونة بعملها، محبوسة به، مطالبة بما كسبته من طاعة أو من معصية. فالرهن: أخذ الشيء بأمر على أنْ لا يردّ إلّا بالخروج منه. قال زهير:

وَفَارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لاَ فَكَاكَ لَهُ ... يَوْمَ الْوَدَاعِ، فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقا[1]

فكذلك هؤلاء الضلال قد أخذوا برهن لا فكاك له. والكسب: هو كل ما يجتلب به نفع، أو يدفع به ضرر، ويدخل فيه الفعل، وأنْ لا يفعل.

ثمّ استثنى سبحانه أصحاب اليمين، فقال: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾. وهم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم. وقيل: هم الذين يسلك بهم ذات اليمين. قال قتادة: غلق الناس كلّهم إلّا أصحاب اليمين، وهم الذين لا ذنب لهم، فهم ميامين على أنفسهم. وقيل: هم المؤمنون المستحقّون للثواب، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هم الملائكة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقال الباقر عليه السلام: نحن وشيعتنا أصحاب اليمين.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضاً. وقيل: يساءلون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: عن حالهم، وعن ذنوبهم التي استحقّوا بها النار.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ هذا سؤال توبيخ أي: يتطلّع [يطّلع] أهل الجنّة على أهل النار، فيقولون لهم: ما أوقعكم في النار ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي: كنّا لا نصلّي الصلاة المكتوبة على ما قرّرها الشرع. وفي هذا دلالة على أنّ الإخلال

---

(١) أراد بالرهن: قلبه.

بالواجب يستحقّ به الذمّ والعقاب؛ لأنّهم علَّقوا استحقاقهم العقاب بالإخلال في الصلاة. وفيه دلالة أيضاً على أنّ الكفّار مخاطبون بالعبادات الشرعيّة؛ لأنّه حكاية عن الكفّار بدلالة قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ معناه: لم نك نخرج الزكوات التي كانت واجبة علينا، والكفّارات التي وجب دفعها إلى المساكين، وهم الفقراء. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ﴾ أي: كلّما غوى غاوٍ بالدخول في الباطل، غوينا معه، ـ عن قتادة ـ. والمعنى: كنّا نلوّث أنفسنا بالمرور في الباطل، كتلويث الرجل بالخوض، فلمّا كان هؤلاء يجرون مع من يكذّب بالحقّ، مشيّعين لهم في القول، كانوا خائضين معهم. ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مع ذلك أي: نجحد يوم الجزاء: وهو يوم القيامة. والجزاء هو الإيصال إلى كل من له شيء، أم عليه شيء ما يستحقّه. فيوم الدين: هو يوم أخذ المستحقّ بالعدل ﴿حَتَّىٰٓ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: أتانا الموت على هذه الحالة. وقيل: حتى جاءنا العلم اليقين من ذلك بأن عاينّاه.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي: شفاعة الملائكة والنبيّين، كما نفعت الموحّدين، ـ عن ابن عبّاس في رواية عطاء ـ. وقال الحسن: لم تنفعهم شفاعة ملك، ولا شهيد، ولا مؤمن. ويعضد هذا الإجماع على أنّ عقاب الكفر لا يسقط بالشفاعة. وقد صحّت الرواية عن عبدالله بن مسعود قال: يشفع نبيّكم ﷺ رابع أربعة: جبريل، ثمّ إبراهيم، ثمّ موسى، أو عيسى، ثمّ نبيكم ﷺ لا يشفع أحد أكثر ممّا يشفع فيه نبيّكم ﷺ، ثمّ النبيّون، ثمّ الصديقون، ثمّ الشهداء. ويبقى قوم في جهنّم، فيقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾. قال ابن مسعود: فهؤلاء الذين يبقون في جهنّم. وعن الحسن، عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الرجل من أهل الجنّة يوم القيامة: أي: ربّ عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا، فشفعني فيه، فيقول: إذهب فأخرجه من النار،

فيذهب فيتجسَّس في النار حتى يخرجه منها». وقال ﷺ: «إنّ من أمّتي من سيدخل الله الجنّة بشفاعته أكثر من مضر».

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: أيّ شيء لهم، ولم أعرضوا وتولّوا عن القرآن، فلم يؤمنوا به. والتذكرة التذكير بمواعظ القرآن، والمعنى: لا شيء لهم في الآخرة إذا أعرضوا عن القرآن، ونفروا عنه ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ﴾ أي: كأنّهم حمر وحشيّة نافرة ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ يعني: الأسد، ـ عن عطاء والكبي ـ. قال ابن عبّاس: الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت منه، كذلك هؤلاء الكفّار إذا سمعوا النبيّ ﷺ يقرأ القرآن هربوا منه. وقيل: القسورة الرماة، ورجال القنص[١]، عن ابن عبّاس بخلاف، والضحاك ومقاتل ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: هم القنّاص.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ أي: كتاباً من السماء تنزل إليهم بأسمائهم، أنْ آمنوا بمحمّد ﷺ، ـ عن الحسن وقتادة وابن زيد ـ. وقيل: معناه: إنّهم يريدون صحفاً من الله تعالى بالبراءة من العقوبة، وإسباغ النعمة حتى يؤمنوا، وإلا أقاموا على كفرهم. وقيل: يريد كل واحد منهم أنْ يكون رسولاً يوحى إليه متبوعاً، وأنف من أنْ يكون تابعاً. وقيل: هو تفسير ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾.

فقال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقّاً، ليس الأمر على ما قالوا، ولا يكون كذلك ﴿بَل لاَّ يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بجحدهم صحّتها، ولو خافوا عذاب الآخرة لما اقترحوا الآيات بعد قيام الدلالات والمعجزات ﴿كَلَّا﴾ أي: حقّاً ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنّ القرآن تذكير وموعظة ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: اتّعظ به؛ لأنّه قادر عليه ﴿وَمَا

---

[١] القنص: الصيد.

﴿يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ هذه المشيئة غير الأُولى؛ إذ لو كانتا واحدة لتناقض. فالأُولى مشيئة اختيار، والثانية مشيئة إكراه وإجبار. والمعنى: إنّ هؤلاء الكفّار لا يذكرون إلّا أن يجبرهم الله تعالى على ذلك. وقيل: معناه: إلّا أن يشاءالله من حيث أمر به، ونهى عن تركه، ووعد الثواب على فعله، وأوعد بالعقاب إن لم تفعله [يفعله]، فكانت مشيئته سابقة أي: لا تشاؤون إلّا والله قد شاء ذلك ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهل أنْ تُتَّقىٰ [يتّقى] محارمه، وأهل أنْ يغفر الذنوب، ـ عن قتادة ـ. وروي مرفوعاً عن أنس قال: إنّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، فقال: «قال الله سبحانه: أنا أهل أنْ أُتَّقى فلا يجعل معي إلٰه، فمن اتّقى أن يجعل معي إلٰهاً، فأنا أهل أن أغفر له». وقيل: معناه: وهو أهل أنْ يتّقى عقابه، وأهل أنْ يُعمل له بما يؤدّي إلى مغفرته.

سورة القيامة

أربعون آية كوفيّ، وتسع وثلاثون في الباقين.

اختلافها: آية «لتعجل به» كوفيّ.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «ومن قرأ سورة القيامة شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة، أنّه كان مؤمناً بيوم القيامة، وجاء ووجهه مسفر على وجوه الخلائق يوم القيامة». أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من أدمن قراءة لا أُقسم، وكان يعمل بها، بعثها الله يوم القيامة معه في قبره، في أحسن صورة تبشره وتضحك في وجهه حتى يجوز الصراط، والميزان».

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة المدّثّر بذكر القيامة، وأنّ الكافر لا يؤمن بها، افتتح هذه السورة بذكر القيامة، وذكر أهوالها، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ القواس: ﴿لأُ قْسِمُ﴾ والباقون: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ ولم يختلفوا في الثاني أنّه: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ﴾. وقرأ أهل المدينة: ﴿بَرَقَ الْبَصَرَ﴾ ـ بفتح الراء ـ. والباقون: ﴿بَرِقَ﴾ بالكسر ـ. وفي الشواذّ، قراءة ابن عبّاس وعكرمة وأيّوب السَخْتياني[1] والحسن: ﴿ٱلْمَفِرّ﴾ ـ بفتح الميم، وكسر الفاء ـ. وقراءة الزهري: ﴿ٱلْمِفَرُّ﴾ ـ بكسر الميم، وفتح الفاء ـ[2].

---

(١) أيوب بن أبي تيمية [تميمة] كيسان التميمي السَخْتياني ـ بفتح السين وسكون الخاء ـ أبو بكر البصري، مات ١٣٥، قاله في التقريب.

(٢) ولم يختلف المصاحف في إثبات الالف بين «لا» و«أقسم» لكن القواس حمله على زيادة الألف في الكتابة، نظير: لا اذبحنّه. وعن ابن محيصن في الشواذّ بلنسان بالادغام، وبعض المصاحف على كتابة «ينبّؤا» ـ بواو بعدها الف ـ. واتّفقت على كتابة إلى نجمع متصلة.

الحجّة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ كانت ﴿لَا﴾ على قوله صلة، كالتي في قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ﴾. فإن قلت: لا وما والحروف التي هُنَّ زوائد، إنّما تكون بين كلامين كقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٰٓـَٔتِهِمْ﴾ و ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾. و ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ ولا تكاد تزاد أوّلاً، فقد قالوا: إنّ مجاري القرآن مجاري الكلام الواحد والسورة الواحد قال: والذي يدلّ على ذلك أنّه قد يذكر الشيء في سورة، ويجيء جوابه في سورة أُخرى كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ جاء جوابه في سورة أُخرى ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فلا فصل على هذا بين قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾، وبين قوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾.

فأمّا من قرأ «لأُقسم»، فإنّ اللام تجوز أن تكون اللام التي تصحبها إحدى النونين في أكثر الأمر. وقد حكى ذلك سيبويه وأجازه، وكما لم يلحق النون مع الفعل الآتي في «لأُقسم»، كذلك لم يلحق اللام مع النون في نحو قول الشاعر:

وَقَتِيلَ مُرَّةَ أَثْأَرَنَّ فَإِنَّهُ فَرْعٌ وَإِنَّ أَخاكُمُ لَمْ يُثْأَرِ[1]

يريد: لأثأرنّ، فحذف اللام. ويجوز أنْ يكون اللام لحقت فعل الحال. وإذا كان المثال للحال، لم يتبعها النون؛ لأنّ هذه النون التي تلحق الفعل في أكثر الأمر، إنّما هي للفصل بين فعل الحال، والفعل الآتي. وقد يمكن أنْ يكون «لا» ردّاً لكلام. وزعموا أنّ الحسن قرأ: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾. وقال أقسم بالأُولى، ولم يقسم بالثانية. وحكي نحو ذلك عن [ابن] أبي إسحاق أيضاً. وذكر أبو عليّ في غير كتاب الحجّة أن اللام زيادة؛ لأنّ القسم لا يدخل على القسم.

وقال ابن جنّي: ينبغي أنْ تكون هذه اللام لام الإبتداء أي: لأنّا أُقسم بيوم

---

(١) مرّة: قبيلة من قريش. وثارت القتيل قتلت قاتله. ويقال: هو فرغ [فرع] قومه للشريف منهم.

القيامة، وحذف المبتدأ للعلم به. وقال أبو الحسن: بَرق البصر أكثر في كلام العرب، والمفتوحة لغة. قال الزجّاج: من قرأ: «بَرِق» فمعناه: فزع وتحيَّر. ومن قرأ: «بَرَق» فهو من بريق العينين، وقال أبو عبيدة: بَرَق البصر: إذا شقَّ وأنشد:

لَمّا أَتانِي ٱبْنُ صَبِيحٍ رٰاغِباً أَعْطَيْتُهُ عَيْساءَ مِنْها فَبَرَقَ[١]

والمَفَرّ: الفرار. والمَفِرّ ـ بكسر الفاء ـ: الموضع الذي يفرُّ إليه. والمِفَرّ ـ: بكسر الميم وفتح الفاء ـ: الإنسان الجيّد الفرار. وقال امرؤ القيس:

مِكَرٍّ، مِفَرٍّ، مُقْبِلٍ، مُدْبِرٍ، مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[٢]

﴿الإعراب﴾: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾: نصب على الحال، والتقدير: بلى بجمعها قادرين. فالعامل في الحال محذوف؛ لدلالة ما تقدَّم عليه، كما في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً﴾ أي: فصلّوا رجالاً. ومفعول «يريد» محذوف، تقديره: بل يريد الإنسان الحياة؛ ليفجر أمامه. و«يسأل»: جملة في موضع الحال. و ﴿لاَ وَزَرَ﴾: خبره محذوف، وتقديره: لا وزر في الوجود.

وقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ قيل في تفسيره أقوال: **أحدها**: إنّ المعنى: بل الإنسان على نفسه عين بصيرة. **والثاني**: حجّة بصيرة أي: بيّنة. **والثالث**: إنّ الهاء للمبالغة، كما يقال: رجل علامة ونسابة. وقال عليّ بن عيسى: تقديره: بل الإنسان على نفسه من نفسه بصيرة أي: جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة، فأنّث «بصيرة»؛ لأنّه حمل الإنسان على النفس. وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: ولو ألقى معاذيره، لم ينفعه ذلك. ويجوز أنْ يكون جوابه فيما سبق.

---

[١] قائله: أبو عبيدة الكلابي. والعيساء: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة.

[٢] البيت من معلقته المعروفة. يصف فيه شدة عدو فرسه. ومفعل من أوصاف المبالغة. والجلمود: الحجر العظيم. ومعنى مقبل مدبر معاً: إنه سلس العنان، فكيف إذا أعانته قوة دفاع السيل من عل، فهو حال تدحرجه يرى وجهه في الآن الذي يرد فيه ظهره لسرعة تقلبه وبالعكس.

المعنى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ قيل: إنّ «لا» صلة، ومعناه: أُقسم بيوم القيامة، ـ عن ابن عبّاس، وسعيد بن جبير ـ. وقيل [قال]: إنّ «لا» ردّ على الذين أنكروا البعث والنشور من المشركين، فكأنّه قال: لا كما تظنّون. ثمّ ابتدأ القسم، فقال: أُقسم بيوم القيامة إنّكم مبعوثون؛ ليكون فرقاً بين اليمين التي تكون جحداً، وبين اليمين المستأنفة. وقيل: معناه: لا أُقسم بيوم القيامة؛ لظهورها بالدلائل العقليّة والسمعيّة. وقيل: معناه: لا أُقسم بيوم القيامة، فإنّكم لا تقرُّون بها.

﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فإنّكم لا تقرّون بأنّ النفس تلوم صاحبها يوم القيامة. ولكن أستخبركم فأخبروني هل أقدر على أن أجمع العظام المتفرّقة. وهذان الوجهان عن أبي مسلم. وقيل: معناه: أُقسم بيوم القيامة، ولا أُقسم بالنفس اللوّامة. أقسم بالأوّل، ولم يقسم بالثاني، ـ عن الحسن ـ. قال عليّ بن عيسى: وهذا ضعيف؛ لأنّه يخرج عن تشاكل الكلام. والأَولى أن يكونا قسمين، وهو قول الأكثرين. وجواب القسم محذوف، تقديره: ما الأمر على ما تتوهّمون، وإنّكم تبعثون، أو لتبعثنّ.

ومن قرأ: «لأُقسم» فإنّه يجعلها جواب القسم، وحذف النون؛ لأنّه أراد الحال. وقد ذكرنا ما قيل فيه. والنفس اللوّامة: الكثيرة اللوم. وليس من نفس برّة، ولا فاجرة، إلّا وهي تلوم نفسها يوم القيامة، إن كانت عملت خيراً قالت: هلّا ازددت، وإنْ كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل، ـ عن ابن عبّاس، في رواية عطاء ـ. وقال مجاهد: تلوم على ما مضى، تقول: لم فعلت، ولمَ لمْ أفعل. وقيل: النفس اللوامة: الكافرة [الفاجرة]، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. ومعناه: ذات اللوم الكثير لما سلف منها. وقيل: هي النفس المؤمنة، تلوم نفسها في الدنيا، وتحاسبها، فتقول: ماذا فعلت؟ ولمَ قصرت؟ فتكون مفكّرة في العواقب أبداً. والفاجر: لا يفكّر في أمر الآخرة، ولا يحاسب نفسه، ـ عن الحسن ـ.

﴿يَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ﴾ صورته صورة الإستفهام، ومعناه: الإنكار على منكري البعث، ومعناه: أيحسب الكافر بالبعث والنشور، يعني: جنس الكفّار ﴿أَنْ لَن نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي: أنّه لن نعيده إلى ما كان أوّلاً عليه خلقاً جديداً بعد أنْ صار رفاتاً، فكنّى عن البعث بجمع العظام[1].

ثمّ قال سبحانه: ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعها ﴿قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ على ما كانت، وإن قلّت عظامها وصغرت، فنردّها كما كانت، ونؤلّف بينها حتى يستوي البنان. ومن قدر على جمع صغار العظام، فهو على جمع كبارها أقدر، ـ عن الزجّاج، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: معناه: نقدر على أن نجعل بنانه كالخفّ والحافر، فيتناول المأكول بفيه، ولكنّا منّا عليه بالأنامل؛ ليكمل بها المنفعة، ويتهيّأ له القبض والبسط، والإرتفاق بالأعمال اللطيفة، كالكتابة وغيرها، ـ عن ابن عبّاس، وقتادة ـ.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَانُ﴾ أي: يريد الكافر ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ هذا إخبار من الله تعالى أنّ الإنسان يمضي قدماً في معاصي الله تعالى، راكباً رأسه، لا ينزع عنها ولا يتوب، ـ عن مجاهد والحسن وعكرمة والسدّي ـ. أي: فهذا هو الذي يحمله على الإعراض عن مقدورات ربّه، فلذلك لا يقرُّ بالبعث، وينكر النشور. وقيل: «ليفجر أمامه» أي: ليفكر [ليكفر] بما قدّامه من البعث، ويكذب به، فالفجور هو التكذيب.

---

(١) وإنّما لم يكن جمع العظام بنفسه مراداً؛ لأنّ كلّ أحد يقدر على جمع عظام الميّت ولا يمكن أن ينكره كافر ألبتّة. ثمّ إنّ جمع العظام أعمّ من الأحياء، والمراد هنا الأحياء قطعا، بل ليس المراد مطلق الأحياء؛ لأنّ أحداً لا ينكر صيرورة العظم حيّا بوسايط وأسباب مترتّبة، بأن يصير العظم ترابا يسمد به النبات فيأكله الحيوان، ويأكل الحيوان إنسان، فيصير ثانيا عظم انسان، وإنّما أنكر الكفّار إعادة الروح الأوّل إلى تلك العظام، بحيث إذا صار حيّا عرف أنّه الإنسان الأوّل الذي كان في الدنيا، وعصى ربّه أو أطاع، فيجازي بما عمل، وهذا هو البعث الذي ينكره الكفّار.

وعن الزجّاج قال: ويجوز أنْ يريد أنّه يسوِّف التوبة، ويقدم الأعمال السيّئة. وقال ابن الأنباري: يريد أنْ يفجر ما امتدَّ عمره، وليس في نيّته أنْ يرجع عن ذنب يرتكبه. وقيل: معناه: إنّه يقول أعمل ثمّ أتوب، ـ عن عطية ـ. والمراد: إنّه يتعجّل المعصية، ثمّ يسوف التوّبة، يقول غداً، وبعد غد ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ﴾ معناه: إنَّ الذي يفجر أمامه، يسأل متى تكون القيامة، فإنّ معنى «أيّان» متى، إلّا أنّ لسؤال بـ«متى» أكثر من السؤال بـ«أيّان» فلذلك حسن أن يفسّر بها، وإنّما يسأل عن ذلك تكذيباً به واشتغالاً بالدنيا، من غير تفكّر في العاقبة، فإذا خوف بالقيامة قال: متى يكون ذلك.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: شخص البصر عند معاينة ملك الموت، فلا يطرف من شدّة الفزع. وقيل: إذا فزع وتحيَّر لما يرى من أهوال القيامة، وأحوالها ممّا كان يكذب به في الدنيا. وهذا كقوله: لا يرتدُّ إليهم طرفهم، ـ عن قتادة، وأبي مسلم ـ.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب نوره وضوؤه ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جمع بينهما في ذهاب ضوئهما بالخسوف؛ ليتكامل ظلام الأرض على أهلها حتى يراهما كل أحد بغير نور وضياء، ـ عن مجاهد[1] ـ وهو اختيار الفرّاء، والزجّاج. والجمع على ثلاثة أقسام: جمع في المكان، وجمع في الزمان، وجمع الأعراض في المحلّ. فأمّا جمع الشيئين في حكم أو صفة، فمجاز؛ لأنّ حقيقة الجمع جعل أحد الشيئين مع الآخر. وقيل: جمع بينهما في طلوعهما من المغرب، كالبعيرين القرينين، ـ عن ابن مسعود ـ.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَانُ﴾ المكذّب بالقيامة ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: أين الفرار،

---

(١) لأنّ جمعها في درجة واحدة طولية في كل محاق، وفي كلّ درجة عرضيّة أيضاً وقت كسوف الشمس، ففي القيمة جمع بنوع آخر.

ويجوز أَنْ يكون معناه: أين موضع الفرار، ـ عن الفرّاء ـ. وقال الزجّاج: المفَرّ ـ بالفتح ـ الفرار. والمَفِرّ ـ بالكسر ـ: مكان الفرار.

قال الله سبحانه: ﴿كَلَّا لاَ وَزَرَ﴾ أي: لا مهرب، ولا ملجأ لهم يلجأون إليه. والوزر: ما يتحصَّن به من جبل أو غيره. ومنه: الوزير الذي يلجأ إليه في الأُمور. وقيل: معناه: لا حصن، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المنتهى، ـ عن قتادة ـ. أي: ينتهي الخلق يومئذ إلى حكمه وأمره، فلا حكم ولا أمر لأحد غيره. وقيل: المستقرّ: المكان الذي يستقرّ فيه المؤمن والكافر، وذلك إلى الله، لا إلى العباد. وقيل: المستقرّ: المصير والمرجع، ـ عن ابن مسعود ـ. والمستقرّ على وجهين: مستقرّ إلى أمد، ومستقرّ إلى الأَبد.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يخبر الإنسان يوم القيامة بأوّل عمله وآخره، فيجازى به، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: بما قدَّم من العمل في حياته، وما سنَّهُ فعمل به بعد موته من خير أو شرّ. وقيل: بما قدَّم من المعاصي، وأخّر من الطاعات، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: بما أخذ وترك، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: بما قدَّم من طاعة الله، وأخَّر من حقّ الله فضيّعه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: بما قدّم من ماله لنفسه، وما خلّفه لورثته بعده، ـ عن زيد بن أسلم ـ. وحقيقة النبأ الخبر بما يعظم شأنه، وإنّما حسن في هذا الموضع؛ لأنّ ما جرى مجرى المباح، لا يعتدّ به في هذا الباب، وإنّما هو ما يستحقّ عليه الجزاء. فأمّا ما وجوده كعدمه، فلا اعتبار به.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: إنَّ جوارحه تشهد عليه بما عمل، فهو شاهد على نفسه بشهادة جوارحه عليه، ـ عن ابن عبّاس وعكرمة ومقاتل ـ. وقال القتيبي: أقام جوارحه مقام نفسه، ولذلك أَنَّث؛ لأنّ المراد بالإنسان هيهنا

الجوارح. وقال الأخفش: هي كقولك: فلان حجة وعبرة، ودليله قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ وقيل: معناه: أنّ الإنسان بصير بنفسه وعمله.

وروي العياشي بإسناده عن محمّد بن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ما يصنع أحدكم أنْ يظهر حسناً، ويسر سيّئاً؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك، والله سبحانه يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية، عن عمر بن يزيد، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه تلا هذه الآية، ثمّ قال: ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس خلاف ما يعلم الله منه، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: من أسر سريرة ردّاه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وعن زرارة قال: سألت أبا عبدالله ما حدّ المرض الذي يفطر صاحبه؟ قال: بل الإنسان على نفسه بصيرة، هو أعلم بما يطيق. وفي رواية أُخرى[1] هو أعلم بنفسه ذاك إليه.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي: ولو اعتذر وجادل عن نفسه، لم ينفعه ذلك. يقال: معذرة ومعاذر ومعاذير، وهي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب. وقيل: معناه: ولو أرخى الستور، وأغلق الأبواب، ـ عن الضحّاك، والسدي ـ. قال الزجّاج: معناه: ولو أدلى بكل حجة عنده. وجاء في التفسير المعاذير: الستور. واحدها: معذار. وقال المبرّد: هي لغة طائيّة، والمعنى على هذا القول: وإنْ أسبل الستور ليخفي ما يعمل، فإنّ نفسه شاهدة عليه.

---

(١) رواه في الكافي، عن ابن أذينة عن أبي عبد الله عليه السلام ولا فرق بين الروايتين في المعنى، وإن اختلفت ألفاظهما. ومعنى قوله: «هو أعلم بنفسه» و«هو أعلم بما يطيقه» واحد. و«الاطاقة» بمعنى القدرة، وإن كان في ما يفعله مشقّة يتحمّلها.

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿تُحِبُّونَ وَتَذَرُونَ﴾ ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء.

الحجة: من قرأ بالتاء، فعلى معنى: قل لهم بل تحبّون وتذرون. ومن قرأ بالياء، فعلى معنى: هم يحبّون ويذرون. قال أبو عليّ: الياء على ما تقدّم[1] من ذكر الإنسان، فإنّ المراد به الكثرة والعموم، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ثمّ قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

اللغة: التحريك: تصيير الشيء من مكان إلى مكان، أو من جهة إلى جهة، بفعل الحركة فيه، والحركة: ما به يتحرّك المتحرّك، والمتحرّك: هو المنتقل من جهة إلى غيرها. واللسان: آلة الكلام. والعجلة: طلب عمل الشيء قبل وقته الذي ينبغي أنْ يعمل فيه. ونقيضه: الإبطاء. والسرعة: عمل الشيء في أوّل الوقت الذي هو له. وضدّه: الأناة.

والقرآن: أصله: الضمّ والجمع، وهو مصدر كالرجحان والنقصان. والبيان: إظهار المعنى للنفس بما يتميّز به عن غيره. ونقيض البيان: الإخفاء، والإغماض. والنضرة: مثل: البهجة والطلاقة. وضدّه: العبوس والبسور، نضر وجهه ينضر نضارة ونضرة، فهو ناضر. والنظر: تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي؛ طلباً لرؤيته، ويكون النظر بمعنى الإنتظار، كما قال عزَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: منتظرة. وقال الشاعر:

وُجُوهٌ، يَوْمَ بَـدْرٍ، نـاظِرَاتٌ إِلَى الرَّحْمٰنِ، تَنْتَظِرُ الْفَلاحا

ثمّ يستعمل في الفكر، فيقال: نظرت في هذه المسألة أي: تفكّرت. ومـنه: المناظرة، وتكون من المقابلة، يقال: دور بني فلان تتناظر أي: تتقابل. والفاقرة: الكاسرة لفقار الظهر بشدّة. وقيل: الفاقرة الداهية والآبدة.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيَّه ﷺ فقال: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال ابن عبّاس: كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه القرآن، عجل بتحريك لسـانه؛ لحبّه إيّاه، وحرصه على أخذه وضبطه؛ مخافة أنْ ينساه، فنهاه الله عن ذلك. وفي رواية سعيد بن جبير عنه، أنّه ﷺ كان يعاني [يعاجل] من التنزيل شدّة، وكـان يشتدّ عليه حفظه، فكان يحرّك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، فقال سبحانه: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ﴾ أي: بالوحي، أو بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ يعني: بالقراءة ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي: لتأخذه، كما قال: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك حتى تحفظه ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: وتأليفه على ما نزل عليك، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إنّ علينا جمعه وقرآنه عليك حتى تحفظه، ويمكّنك تلاوته، فلا تخف فوت شيء منه، ـ عن ابن عبّاس، والضحّاك ـ.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: قرأه جبريل عليك بأمرنا ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: قراءته، ـ عن ابن عبّاس ـ. والمعنى: اقرأه إذا فرغ جـبريل مـن قـراءتـه. قـال: فكـان النبيّ ﷺ بعد هذا، إذا نزل عليه جبريل عليه السلام أطرق، فإذا ذهب قرأ. وقيل: فـاتّبع قرآنه أي: فـاعمل بـما فـيه مـن الأحكـام، والحـلال والحـرام، ـ عـن قـتادة، والضحاك ـ. وقال البلخي: الذي أختاره أنّه لم يرد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، يدلّ على ذلك ما قبله وما بعده، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن، ولا شيء من أحكام الدنيا. وفي ذلك تقريع للعبد، وتوبيخ له، حين لا تنفعه

العجلة، يقول: لا تحرّك لسانك بما تقرأه من صحيفتك التي فيها أعمالك، يعني: إقرأ كتابك ولا تعجل، فإنّ هذا الذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيّئاته ضجر واستعجل، فيقال له توبيخاً: لا تعجل، وتثبت لتعلم الحجّة عليك، فإنّا نجمعها لك، فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بالإنقياد لحكمه، والإستسلام للتبعة فيه، فإنّه لا يمكنك إنكاره.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لو أنكرت. وقال الحسن: معناه: ثمّ إنّ علينا بيان ما أنبأناك أنّا فاعلون في الآخرة وتحقيقه. وقيل يريد: إنّا نبيّن لك معناه إذا حفظته، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: ثمّ إنّ علينا أنْ نحفظه عليك حتى تبيّن للناس بتلاوتك إيّاه عليهم. وقيل: معناه: علينا أنْ ننزّله قرآناً عربيّاً فيه بيان للناس، ـ عن الزجّاج ـ. وفي هذا دلالة على أنّه لا تعمية في القرآن، ولا ألغاز، ولا دلالة فيه على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإنّما يدلّ على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا تتدبَّرون القرآن، وما فيه من البيان ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: تختارون الدنيا على العقبى، فيعملون للدنيا لا للآخرة؛ جهلاً منهم، وسوء اختيار.

ثم بيّن سبحانه حال الناس في الآخرة، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ أي: ناعمة بهجة حسنة، ـ عن ابن عبّاس، والحسن ـ. وقيل: مسرورة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: مضيئة بيض يعلوها النور، ـ عن السدي، ومقاتل ـ. جعل الله سبحانه وجوه المؤمنين المستحقّين للثواب بهذه الصفة؛ علامة للخلق والملائكة على أنّهم الفائزون.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إختلف فيه على وجهين: أحدهما: إنّ معناه: نظر العين. والثاني: إنّه الإنتظار.

واختلف من حمله على نظر العين على قولين: أحدهما: إنّ المراد: إلى ثواب ربّها ناظرة أي: هي ناظرة إلى نعيم الجنّة، حالاً بعد حال، فيزداد بذلك سرورها. وذكر «الوجوه» والمراد: أصحاب الوجوه. روى ذلك عن جماعة من علماء المفسّرين من الصحابة والتابعين لهم وغيرهم. فحذف المضاف، وأُقيم المضاف إليه مقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربّك. وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ﴾ أي: إلى طاعة العزيز الغفّار، وتوحيده. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: أولياء الله.

والآخر: إنّ النظر بمعنى الرؤية، والمعنى: تنظر إلى الله معاينة، رووا ذلك عن الكلبي[1] ومقاتل وعطاء وغيرهم. وهذا لا يجوز؛ لأنّ كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يُشار إليه بالعين، كما يجلّ سبحانه عن أن يُشار إليه بالأصابع، وأيضاً فإنّ الرؤية بالحاسّة، لا تتمّ إلّا بالمقابلة والتوجّه. والله يتعالى عن ذلك بالإتّفاق. وأيضاً فإنّ رؤية الحاسّة لا تتمّ إلّا باتّصال الشعاع بالمرئي، والله منزّه عن اتّصال الشعاع به[2]، على أنّ النظر لا يفيد الرؤية في اللغة، فإنّه إذا علّق بالعين أفاد طلب الرؤية، كما أنّه إذا علّق بالقلب، أفاد طلب المعرفة، بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال، فلم أره.

فلو أفاد النظر الرؤية، لكان هذا القول ساقطاً متناقضاً. وقولهم: ما زلت أنظر إليه حتى رأيته. والشيء لا يجعل غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلت أراه حتى رأيته، ولأنّا نعلم الناظر بالضرورة، ولا نعلمه رائياً بالضرورة؛ بدلالة أنّا نسأله هل

---

(١) الكلبي: كان من الشيعة، وعلى فرض صحّة الرواية عنه، لا يبعد اعتقاده بصحّة الرؤية؛ إذ روي الاعتقاد بمثله عن غيره أيضاً، وآراء الأشخاص لا ينسب إلى جميع الشيعة.

(٢) إن قيل: فبِمَ تنفي الرؤية بالحسّ المشترك، كرؤية الصور في الرؤيا، ورؤية الملائكة؟ قلنا: إذا لم يكن واجب الوجود جسما، ولا متعلّقا بجسم، علمنا أنّ كلّما نتصوره جسما فليس هو به.

رأيت أم لا؟

وأمّا من حمل النظر في الآية على الإنتظار، فإنّهم اختلفوا في معناه على أقوال:

أحدها: إنّ المعنى منتظرة لثواب ربّها، وروي ذلك عن مجاهد والحسن وسعيد بن جبير والضحّاك، وهو المرويّ عن عليّ عليه السلام. ومن اعترض على هذا بأن قال: إنّ النظر بمعنى الإنتظار، لا يتعدّى بـ«إلى»، فلا يقال: انتظرت إليه، وإنّما يقال: انتظرته. فالجواب عنه على وجوه:

منها: إنّه قد جاء في الشعر بمعنى الإنتظار، معدّى بـ«إلى»، كما في البيت الذي سبق ذكره: «ناظرات إلى الرحمن». وكقول جميل بن معمر:

وَإِذا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ ... وَالْبَحْرُ دُونَكَ، جُدْتَني نَعِماً[1]

وقول الآخر:

إِنِّي إِلَيْكَ لِمّا وَعَدْتَ لَناظِرٌ ... نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيّ الْمُوسِرِ

ونظائره كثيرة.

ومنها: أنْ تحمل «إلى» في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على أنّها إسم، فهو واحد «الآلاء» التي هي النعم، فإنّ في واحدها أربع لغات: إليَّ وألىً مثل: مِعاً وقَفاً، وأليٌ وإليّ مثل: جدي وحِسي. وسقط التنوين بالإضافة. وقال أعشى وائل:

أَبْيَضُ لاٰ يَرْهَبُ الْهُزالَ، وَلاٰ ... يَقْطَعُ رَحْماً، وَلاٰ يَخُونُ إِلى

أي: لا يخون نعمة من أنعم عليه. وليس لأحد أنْ يقول إنّ هذا من أقوال المتأخّرين، وقد سبقهم الإجماع، فإنّا لا نسلم ذلك؛ لما ذكرناه من أنّ عليّاً عليه السلام ومجاهداً والحسن وغيرهم قالوا: المراد بذلك تنتظر الثواب.

---

(١) إذا رجوتك وأنت من الملوك. والبحر دونك أي: أقلّ منك. جدتني أي: جدت على من الجود وهو العطاء.

ومنها: إنّ لفظ النظر يجوز أن يعدّى بـ«إلى» في الإنتظار على المعنى، كما أنّ الرؤية عديت بـ«إلى» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال: رأيت إلى فلان. ومن إجراء الكلام على المعنى، قول الفرزدق:

وَلَقَدْ عَجِبْتُ، إِلىٰ هَوَازِنَ أَصْبَحَتْ مِنّي تَلُوذُ بِبَظْرِ أُمِّ جَرِيرِ[1]

فعدّى «عجبت» بـ«إلى»؛ لأنّ المعنى: نظرت.

وثانيها: إنّ معناه: مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عيني ممدودة إلى الله تعالى، وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان، ولمّا كانت العيون بعض أعضاء الوجوه، أُضيف الفعل [النظر] الذي يقع بالعين إليها، ـ عن أبي مسلم ـ.

وثالثها: إنّ المعنى: أنّهم قطعوا آمالهم وأَطماعهم عن كل شيء سوى الله تعالى ووجوده دون غيره، فكنّى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أنّ الرعيّة تتوقّع نظر السلطان، وتطمع في إفضاله عليها، وإسعافه في حوائجها. فنظر الناس مختلف: فناظر إلى سلطان، وناظر إلى تجارة، وناظر إلى زراعة، وناظر إلى ربّه يؤمله، وهذه الأقوال متقاربة في المعنى. وعلى هذا فإنّ هذا الإنتظار متى يكون. فقيل: إنّه بعد الإستقرار في الجنّة. وقيل: إنّه قبل استقرار الخلق في الجنّة والنار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل. وهذا اختيار القاضي عبد الجبّار.

وذكر جمهور أهل العدل، أنّ النظر يجوز أن يحمل على المعنيين جميعاً، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنّه سبحانه أراد أنّهم ينظرون إلى الثواب المعدّ لهم في الحال من أنواع النعيم، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال؛ ليتمّ لهم ما يستحقّونه من الإجلال. ويسأل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة،

---

(١) البَظر ـ بفتح الباء ـ قال في الصحاح: هنة بين الاسكتين. والاسكتان طرفا فرج المرأة. أراد بذلك هجو جرير وذكر أجزاء فرج أمّه. وفي بعض النسخ: ببطن أمّ جرير.

وبمعنى الإنتظار مجازاً، فكيف يحمل عليهما؟ والجواب: إنّ عند أكثر المتكلّمين في أُصول الفقه، يجوز أن يرادا بلفظة واحدة؛ إذ لا تنافي بينهما، وهو اختيار المرتضى، قدّس الله روحه، ولم يجوز ذلك أبو هاشم، إلّا إذا تكلّم به مرّتين، مرّة يريد النظر، ومرّة يريد الإنتظار.

وأمّا قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصاً، فكيف يوصف أهل الجنّة بالإنتظار؟ فالجواب عنه: إنّ مَن ينتظر شيئاً لا يحتاج إليه في الحال، وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته، فإنّه لا يهتمّ بذلك، ولا يتنغّص سروره به، بل ذلك زائد في نعيمه، وهو واثق بوصوله إليه، وإنّما يلحق الهم [إليهم] المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره في الحال، ويلحقه بفوته مضرّة، وهو غير واثق بالوصول إليه، وقد قيل في إضافة النظر إلى الوجوه: إنّ الغمّ والسرور إنّما يظهران في الوجوه، فبيّن الله سبحانه أنّ المؤمن إذا ورد يوم القيامة، تهلّل وجهه، وأنّ الكافر العاصي يخاف مغبة أفعاله القبيحة، فيكلح وجهه، وهو قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: كالحة عابسة متغيّرة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تعلم وتستيقن أنّه يعمل بها داهية تفقر ظهورهم أي: تكسرها. وقيل: إنّه على حقيقة الظنّ أي: يظنّون حصولها جملة، ولا يعلمون تفصيلها. وهذا أولى من الأوّل؛ لأنّه لو كان بمعنى العلم، لكان «أنْ» بعده مخفّفة من «أنَّ» الثقيلة، على ما ذكر في غير موضع. وذكر سبحانه هذه الوجوه الظانّة في مقابلة الوجوه الناظرة، فهؤلاء يرجون تجديد الكرامة، وهؤلاء يظنّون حلول الفاقرة. فيكون حال الوجوه الراجية للأحوال السارة على الضدّ من حال الوجوه الظانّة للفاقرة [الفاقرة].

﴿النظم﴾: وجه اتّصال قوله: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ بما قبله: أنّه لمّا تقدّم ذكر القيامة والوعيد، خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: لا تحرّك به لسانك لتعجل

قراءته، بل كرّرها عليهم ليتقرّر في قلوبهم، فإنّهم غافلون عن الأدلّة، ألهاهم حبّ العاجلة، فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وتقرير.

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ
ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾
أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ
ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ (١)

القراءة: قرأ حفص، ورويس. ﴿يُمْنَىٰ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالتاء، حمله على النطفة أي: لم يك نطفة تمنى من منّي. ومن قرأ بالياء، حمله على المنيّ أي: من منّي يمنى يقدر خلق الإنسان وغيره منها. قال:

مَنَتْ لَكَ أَنْ تَلْقَى ابْنَ هِنْدٍ مَنِيَّةٌ ... وَفَارِسَ مَيّاسٍ إِذَا مَا تَلَبَّبَا(٢)

وقال آخر:

لَعَمْرُ أَبِي عَمْرٍو، لَقَدْ سَاقَهُ الْمُنى ... إِلَىٰ حَدَثٍ يُؤْزَىٰ لَهُ بِالأَهَاضِبِ(٣)

أي: ساقه القدر.

---

(١) وسكت حفص على «من راق» سكتة لطيفة؛ لئلّا تشتبه الكلمة بـ«مراق» ـ صيغة المبالغة من المروق ـ. ومرّ تفصيل ذلك من سورة الكهف.

(٢) أي: قدرت المنية أن تلقي ابن هند.

(٣) ساقه التقدير إلى قبر يسوي له في الأراضي المرتفعة.

اللغة: التراقي: جمع الترقوة، وهو مقدّم الحلق من أعلى الصدر، تترقّى إليه النفس عند الموت، وإليه يتراقى البخار من الجوف، وهناك تقع الحشرجة. قال ذو الرمة:

وَرَبَّ عَظِيمَةٍ دافَعْتُ عَنْها وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّراقي

والراقي: طالب الشفاء. رقاه يرقيه رقية: إذا طلب له شفاء بأسماء الله الشريفة، وآيات كتابه العظيمة. وأمّا العوذة، فهي دفع البليّة بكلمات الله تعالى، وتقول العرب: قامت الحرب على ساق يعنون شدّة الأمر. قال:

فَإِذْ شَمَّرَتْ لَكَ عَنْ ساقِها فَوَيْهاً رَبِيعَ، وَلا تَسْأَمِ[1]

والتمطّي: تمدّد البدن من الكسل. وأصله أنْ يلوي مطاه أي: ظهره. وقيل: أصله: يتمطّط. فجعل إحدى الطائين ياء، وهو من المطّ بمعنى المدّ، كقولهم: تظنّيت وأمليت، ونحو ذلك، ونهى عن مشية المطيطاء، وذلك أنْ يلقي الرجل يديه مع التكفي في مشيته. أولى لك: كلمة وعيد وتهديد. قالت الخنساء:

هَمَمْتُ بِنَفْسِيَ كُلَّ الْهُمُومِ فَأَوْلىٰ بِنَفْسِيَ، أَوْلَى لَها

والسدًى: المهمل. والعلقة: القطعة من الدم المنعقد.

الإعراب: في إعراب ﴿أَوْلَىٰ﴾ وجوه: أحدها: أن يكون مبتدأ، وخبره: لك. والآخر: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الشرُّ أولى لك، فعلى هذا يكون اللام في «لك» للإختصاص، كأنّه قال: الشرّ أولى لك من الخير. ويجوز أن يكون بمعنى «مِن» تقديره: الشرّ أقرب منك. و ﴿سُدىً﴾: منصوب على الحال من قوله: ﴿يُتْرَكَ﴾.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حالهم عند النزع، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس يؤمن

---

(١) أي: ايتها ولج فيها يا ربيعة، ولا تمل.

الكافر بهذا. وقيل: معناه: حقاً ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس أو الروح، ولم يذكره؛ لدلالة الكلام عليه، كما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ يعني: على ظهر الأرض ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ أي: العظام المكتنفة بالحلق، وكنّى بذلك عن الإشفاء على الموت.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: وقال من حضره من أهله: هل من راق أي: طبيب شاف يرقيه، ويداويه فلا يجدونه، ـ عن أبي قلابة والضحّاك وقتادة وابن زيد ـ. قال قتادة. التمسوا له الأطبّاء، فلم يغنوا عنه من عذاب الله شيئاً. وقيل: إنّ معناه: قالت الملائكة: من يرقى بروحه أملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب، ـ عن ابن عبّاس، ومقاتل ـ. قال أبو العالية: تختصم فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، أيّهم يرقى بروحه. وقال الضحّاك: أهل الدنيا يجهزون البدن، وأهل الآخرة يجهزون الروح.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: وعلم عند ذلك هذا الذي بلغت روحه تراقيها، أنّه الفراق من الدنيا والأهل والمال والولد. والفراق: ضدّ الوصال، وهو بعادُ الْأُلَّاف. وجاء في الحديث: إنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، ومفاصله يسلم بعضها على بعض، يقول: عليك السلام تفارقني وأُفارقك إلى يوم القيامة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قيل فيه وجوه: **أحدها**: التفتّ شدّة أمر الآخرة بأمر الدنيا، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. **والثاني**: التفتّ حال الموت بحال الحياة، ـ عن الحسن ـ. **والثالث**: التفتّ ساقاه عند الموت، ـ عن الشعبي، وأبي مالك ـ لأنّه يذهب القوّة، فيصير كجلد يلتفّ بعضه ببعض. وقيل: هو أن يضطرب فلا يزال يمدّ إحدى رجليه، ويرسل الأُخرى، ويلفّ إحداهما بالأُخرى، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هو التفاف الساقين في الكفن. **والرابع**: إلتفّ ساق الدنيا بساق الآخرة، وهو شدّة كرب الموت، بشدّة هول المطلع. والمعنى في الجميع: إنّه تتابعت عليه الشدائد، فلا يخرج من شدّة إلاّ جاءه أشدُّ منها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: مساق الخلائق إلى المحشر، الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غير الله تعالى. وقيل: يسوق الملك بروحه إلى حيث أمر الله تعالى به، إن كان من أهل الجنّة فإلى عليّين، وإن كان من أهل النار فإلى سجّين. والمساق: موضع السوق.

﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ﴾ أي: لم يتصدّق بشيء، ولم يصل لله ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بالله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: لم يصدّق بكتاب الله، ولا صلّى لله، ولكن كذّب بالكتاب والرسول، وأعرض عن الإيمان، ـ عن قتادة ـ.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ أي: يرجع إليهم يتبختر ويختال في مشيته. وقيل: إنّ المراد بذلك أبو جهل بن هشام.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وهذا تهديد من الله [له]، والمعنى: وليك المكروه يا أبا جهل، وقرب منك. وجاءت الرواية أنّ رسول الله أخذ بيد أبي جهل، ثمّ قال له: أولى لك فأولى، ثمّ أولى لك فأولى. فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهدّدني، لا تستطيع أنت، ولا ربّك، أن تفعلا بي شيئاً، وإنّي لأعزّ أهل هذا الوادي! فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله ﷺ. وقيل: معناه: الذمُّ أولى لك من تركه، إلّا أنّه حذف، وكثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك، وصار من المحذوف الذي لا يجوز إظهاره. وقيل: هو وعيد على وعيد، ـ عن قتادة ـ، ومعناه: وليك الشرّ في الدنيا وليك، ثمّ وليك الشرّ في الآخرة وليك. والتكرار للتأكيد. وقيل: بعداً لك من خيرات الدنيا، وبعداً لك من خيرات الآخرة، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: أولى لك ما تشاهده يا أبا جهل يوم بدر، فأولى لك في القبر. ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾ يوم القيامة، فلذلك أدخل «ثمّ» ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ لك في النار.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ﴾ يعني: أبا جهل ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملاً لا يؤمر ولا

ينهى، ـ عن ابن عبّاس، ومجاهد ـ. والألف للإستفهام، والمراد الإنكـار أي: لا ينبغي أن يظنّ ذلك. وقيل: إنّه عام أي: أيظنّ الإنسان الكافر بالبعث، الجاحد لنعم الله، أن يترك مهملاً من غير أمر يؤخذ به، فيكون فيه تقويم له، وإصلاح لما هـو أعود عليه في عاقبة أمره، وأجمل به في دنياه وآخرته.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: كيف يظنّ أن يهمل، وهو يرى في نفسه، ومن تنقل الأحوال ما يمكنه أن يستدلّ به على أنّ له صانعاً حكيماً، أكمل عقله، وأقدره، وخلق فيه الشهوة، فيعلم أنّه لا يجوز أن يخليه من التكليف. ومعنى قوله: ﴿يُمْنَىٰ﴾ أي: يقدر. وقيل: معناه: يصبّ في الرحم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ﴾ منها خلقاً في الرحم ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خـلقه وصـورته وأعضاءه الباطنة والظاهرة في بطن أُمّه. وقيل: فسّواه إنساناً بعد الولادة، وأكمل قوته. وقيل: معناه: فخلق الأجسام فسوّاها للأفعال، وجعل لكم جارحـة عـملاً يختصّ بها.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: من الإنسان ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْـأُنثَىٰ﴾ وقـيل: مـن المني. وهذا إخبار من الله سبحانه أنّه لم يخلق الإنسان من المني، ولم ينقله من حال إلى حال، ليتركه مهملاً، فإنّه لا بدّ من غرض في ذلك، وهو التعريض للثواب بالتكليف.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الذي فعل هذا ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا تقرير لهم على أنّ من قدر على الإبتداء قدر على البعث والإحياء، فإنّ من قدر عـلى جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، إلى أن يجعلها حيّاً سليماً مركّباً فـيه الحـواس الخمس، والأعضاء الشريفة التي يصلح كل منها لما لا يصلح له الآخـر، وخـلق الزوجين الذكر والأُنثى الذين يصحُّ بهما التناسل، فإنّه يقدر عـلى إعـادته بـعد الموت إلى ما كان عليه من كونه حيّاً. وجاء في الحديث عن البراء بن عازب قال:

لمّا نزلت هذه الآية ﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال رسول الله ﷺ: «سبحانك أللهمّ، وبلى». وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام. وفي الآية دلالة على صحّة القياس العقليّ، فإنّه سبحانه اعتبر النشأة الثانية بالنشأة الأُولى.

سورة الإنسان

وتسمّى سورة الدهر، وتسمّى سورة الأبرار، ومنهم من يسمّيها بفاتحتها، واختلفوا فيها، فقيل: مكّيّة كلها. وقيل: مدنيّة كلها، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: إنّها مدنيّة إلّا قوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ فإنّه مكّيّ، ـ عن الحسن، وعكرمة، والكلبي ـ. وقيل: إنّ قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ إلى آخر السورة مكّيّ، والباقي مدني.

عدد آيها: إحدى وثلاثون آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كان جزاؤه على الله جنّة وحريراً» وقال أبو جعفر عليه السلام: من قرأ سورة «هل أتى» في كل غداة خميس، زوّجه الله من الحور العين مائة عذراء، وأربعة آلاف ثيّب، وكان مع محمّد ﷺ.

تفسيرها: ختم الله سبحانه يوم القيامة بأن دلَّ على صحّة البعث بخلق الإنسان من نطفة، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة وأبوبكر عن عاصم والكسائي: ﴿سَلَاسِلًا﴾ ـ بالتنوين ـ، وكذلك «قواريراً قواريراً». ويقفون بالألف على الجميع. وقرأ ابن كثير، وخلف: ﴿سَلَاسِلَ﴾ ـ بغير تنوين ـ و «قواريراً قواريرَ» ـ الأوّل بالتنوين، والثاني بغير تنوين ـ ويقفان على «سلاسل»، وقواريرا الثانية بغير الألف.

وقرأ حمزة ويعقوب بغير تنوين في الجميع، ويقضان بغير ألف عليها. وقرأ

أبو عمرو وابن عامر وحفص بغير تنوين فيها أيضاً، إلّا أنّهم يقفون على «سلاسل وقواريراً» الأُولى بالألف، وعلى «قوارير» الثانية بغير ألف، غير أنّ شجاعاً يقف على «سلاسل» أيضاً بغير ألف.

الحجّة: قال أبو عليّ: حجّة من صرف «سلاسلاً وقواريراً» في الوصل والوقف، أمران: **أحدهما**: إنّ أبا الحسن[1] قال: سمعنا من العرب من يصرف هذا، ويصرف جميع ما لا ينصرف قال: وهذه لغة أهل الشعر؛ لأنّهم اضطرّوا إليه في الشعر، فصرفوه، فجرت ألسنتهم على ذلك، واحتملوا ذلك في الشعر؛ لأنّه يحتمل الزيادة، كما يحتمل النقص. فاحتملوا زيادة التنوين. **والأمر الآخر**: إنّ هذه الجموع أشبهت الآحاد؛ لأنّهم قالوا صواحبات يوسف، فلمّا جمعت جمع الآحاد المنصرفة، جعلوه في حكمها، فصرفوها. قال أبو الحسن: وكثير من العرب يقول مواليات يريد الموالي. وأنشد للفرزدق:

فَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ، رَأَيْتَهُمْ خُضُعَ الرِّقَابِ، نَوَاكِسِي الْأَبْصارِ[1]

فهذا كأنّه جمع نواكس. ومن قرأ بغير تنوين ولا ألف، فإنّه جعله كقوله: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ وإلحاق الألف في «سلاسل وقوارير»، كإلحاقه في قوله: الظنونا والسبيلا والرسولا يشبه ذلك بالإطلاق في القوافي، من حيث كانت مثلها في أنّها كلام تامّ.

اللغة: الدهر: مرور الليل والنهار. وجمعه: أدهر ودهور. وأصل النطفة: الماء القليل. وقد تقع على الكثير. قال أمير المؤمنين عليه السلام حين ذكر الخوارج:

---

(١) أبو الحسن: هو الأخفش. وقال الكسائي وغيره من الكوفيّين: إنّ بعض العرب يصرفون جميع ما لا ينصرف، إلّا أفعل التفضيل، قاله في الإتحاف. واتّفقت المصاحف على كتابة «سلاسلا» وكانت «قواريرا» بالألف واختلف في «قوارير من فضّة».

[١] وفي رواية الفراء والكسائي: «نواكس الأبصار» بغير الياء مفتوحاً.

مصارعهم دون النطفة. يريد النهروان. والجمع: نطاف ونطف. قال الشاعر:

وَمَـا النَّـفْسُ إلاَّ نُـطْفَةً بِـقَرَارَةٍ إذَا لَمْ تُكَدَّرْ كَانَ صَفواً غَدِيرُها[١]

وواحد الأمشاج: مشيج. ومشجت هذا بهذا أي: خلطته، وهو ممشوج ومشيج. وواحد الأبرار: بارّ ـ نحو: ناصر وأنصار ـ، وبرّ أيضاً. والكأس: الإناء إذا كان فيه شراب. قال عمرو بن كلثوم:

صَـدَدْتِ الْكَأْسَ عَـنّا أُمَّ عَـمْرُوٍ وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينا[٢]

وأوفى بالعقد، ووفى به، فـ«أوفى» لغة أهل الحجاز. و«وفى» لغة تميم، وأهل نجد. والنذر: عقد على فعل برّ، يوجبه الإنسان على نفسه نذر ينذر. قال عنترة:

الشَّاتِمَيْ عِرْضِي، وَلَمْ أَشْتُمْهُما وَالنَّاذِرَيْنِ إذَا لَمْ أَلْقَهُمادَمي[٣]

أي: يقولان إن [لئن] لقينا عنترة لنقتلنه.

والمستطير: المنتشر. قال الأعشىٰ:

فَـبانَتْ وقَـدْ أَسْأَرَتْ فـي الْـفؤادِ صَـدْعاً عَـلىٰ نَأْيِـها مُسْـتَطِيراً[٤]

والقمطرير: الشديد في الشرّ. وقد اقمطرّ اليوم اقمطراراً. ويوم قمطرير وقماطر، كأنّه قد التفّ شرّه بعضه على بعض. قال الشاعر:

بَنِي عَمِّنا! هَلْ تَذْكُرُونَ بَلاءَنا عَلَيْكُمْ إذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قَمَاطِرُ[٥]

---

(١) يعني: إنّ النفوس مائلة إلى الخير والصلاح بطباعها، إلّا أن تكدّرها العوارض، وكل مولود يولد على الفطرة.

(٢) العادة أن يدار الكأس من يمين المجلس.

(٣) وصف لرجلين مذكورين في البيت السابق، هما ابنا ضمضم. واستشهد بهذا البيت الشيخ رحمه الله في نذر الخلاف، على أنّ النذر لا يجب أن يكون بشرط.

(٤) السؤر: البقيّة. واسأرت أي: أبقت.

(٥) قماطر أي: شديد للحرب وغيرها.

قيل: إنّ «هل» هنا بمعنى «قد»، قال الشاعر:

أمْ هَلْ [كَـثيرٌ] كَـبيرٌ بَكـى لَـمْ يَـقْضِ عِـبْرَتَهُ
إثْـــرَ الأَحِـــبَّةِ يَـــوْمَ الْـــبَيْنِ مَشْكُـــومُ[١]

الإعراب: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً﴾: جملة في محلّ الرفع؛ لأنّها صفة «حين». والتقدير: لم يكن فيه شيئاً مذكوراً. و ﴿أمشاج﴾: يجوز أن يكون صفة لـ«نطفة»، ويجوز أن يكون بدلاً. والوصف بالجمع مثل قولهم: بُرمة أعشار، وثوب أسمال[٢].

و ﴿نَبْتَلِيهِ﴾: في موضع نصب على الحال. ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾: حالان من الهاء في ﴿هَدَيْنَاهُ﴾ أي: هديناه شاكراً أو كفوراً.

وقوله: ﴿عَيْناً﴾ في انتصابه وجوه: أحدها: أن يكون بدلاً من ﴿كَافُوراً﴾ إذا جعلت الكافور إسم عين، فيكون بدل الكل من الكل. والثاني: أن يكون بدلاً من قوله: ﴿مِن كَأسٍ﴾ أي: يسقون من عين. ثمّ حذف الجارّ، فوصل الفعل إليه فنصبه. والثالث: أن يكون منصوباً على المدح، والتقدير: أعني عيناً يشرب بها. الباء مزيدة أي: يشربها. والمعنى: يشرب ماؤها؛ لأنّ العين لا تشرب، وإنّما يشرب ماؤها.

النزول: قد روى الخاصّ والعامّ أنّ الآيات من هذه السورة، وهي قوله: ﴿إِنَّ الأَبرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وجارية لهم تسمّى فضّة، وهو المرويّ عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي صالح.

---

[١] العبرة: الدمعة. والشكم: الجزاء.

[٢] البرمة: القدر من الحجر. وأعشار جمع العشر ـ بالكسر ـ: القطعة من كل شيء كسر إلى عشر قطع. والأسمال جمع السمل محركة: الثوب الخلق.

والقصّة طويلة: جملتها أنّهم قالوا: مرض الحسن والحسين عليهما السلام، فعادهما جدّهما صلى الله عليه وآله، ووجوه العرب وقالوا: يا أبا الحسن! لو نذرت على ولديك نذراً. فنذر صوم ثلاثة أيّام، إن شفاهما الله سبحانه، ونذرت فاطمة عليها السلام كذلك. وكذلك فضّة، فبرءآ وليس عندهم شيء، فاستقرض عليّ عليه السلام ثلاثة أصوع من شعير من يهوديّ، ـ وروي أنّه أخذها ليغزل له صوفاً ـ، وجاء به إلى فاطمة عليها السلام، فطحنت صاعاً منها، فاختبزته [فاخبزته]، وصلّى عليٌّ عليه السلام المغرب، وقربته إليهم، فأتاهم مسكين يدعو لهم، وسألهم فأعطوه. ولم يذوقوا إلّا الماء.

فلمّا كان اليوم الثاني، أخذت صاعاً فطحنته وخبزته، وقدمته إلى عليّ عليه السلام فإذا يتيم في الباب يستطعمهم، فأعطوه، ولم يذوقوا إلّا الماء، فلمّا كان اليوم الثالث عمدت إلى الباقي، فطحنته واختبزته، وقدمته إلى عليّ عليه السلام، فإذا أسير بالباب يستطعم، فأعطوه ولم يذوقوا إلّا الماء، فلمّا كان اليوم الرابع، وقد قضوا نذورهم، أتى عليّ عليه السلام، ومعه الحسن والحسين عليهما السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، وبهما ضعف، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله، ونزل جبرائيل عليه السلام بسورة «هل أتى».

وفي رواية عطاء عن ابن عباس، أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام آجر نفسه ليستقي نخلاً بشيء من شعير ليلة، حتى أصبح. فلمّا أصبح وقبض الشعير، طحن ثلثه، فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه، يقال له الحريرة[١]. فلمّا تمّ إنضاجه، أتى مسكين، فأخرجوا إليه الطعام. ثمّ عمل الثلث الثاني. فلمّا تمّ إنضاجه أتى يتيم، فسأل فأطعموه. ثمّ عمل الثلث الثالث، فلمّا تمّ إنضاجه، أتى أسير من المشركين، فسأل فأطعموه، وطووا يومهم ذلك. ذكره الواحدي في تفسيره.

وذكر عليّ بن إبراهيم، أنّ أباه حدّثه عن عبدالله بن ميمون، عن أبي

---

[١] الحريرة: دقيق يطبخ بلبن أو دسم. والخنزيرة: الحساء إذا كان فيه لحم.

عبدالله عليه السلام قال: كان عند فاطمة شعير، فجعلوه عصيدة، فلمّا أنضجوها ووضعوها بين أيديهم، جاء مسكين فقال المسكين: رحمكم الله، فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثها. فلم يلبث أن جاء يتيم، فقال اليتيم: رحمكم الله، فقام عليّ عليه السلام، فأعطاه الثلث ثمّ جاء أسير، فقال الأسير: رحمكم الله. فأعطاه عليّ عليه السلام الثلث الباقي، وما ذاقوها. فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم، وهي جارية في كل مؤمن فعل ذلك لله عزّ وجلّ، وفي هذا دلالة على أنّ السورة مدنيّة.

وقال أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدّثني الحسن [بن الحسن] أبو عبدالله بن الحسن، أنّها مدنيّة نزلت في عليّ وفاطمة السورة كلها.

حدّثنا السيّد أبو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايني قال: أخبرنا الحاكم أبو القسم عبيدالله بن عبدالله الحسكاني قال: حدّثنا أبو نصر المفسّر قال: حدّثني عمي أبو حامد إملاء قال: حدّثني الفزاري أبو يوسف يعقوب بن محمّد المقري قال: حدّثنا محمّد بن يزيد السلمي قال: حدّثنا زيد بن موسى قال: حدّثنا عمرو بن هارون، عن عثمان بن عطاء، عن ابن عباس قال:

أوّل ما أُنزل بمكّة «إقرأ باسم ربك» ثمّ «نّ والقلم» ثمّ «المزمل» ثمّ «المدثر» ثمّ «تبت» ثمّ «إذا الشمس كوّرت» ثمّ «سبّح اسم ربّك الأعلى» ثمّ «والليل إذا يغشى» ثمّ «والفجر» ثمّ «والضحى» ثمّ «ألم نشرح» ثمّ «والعصر» ثمّ «والعاديات» ثمّ «إنّا أعطيناك الكوثر» ثمّ «ألهيكم التكاثر» ثمّ «أرأيت» ثمّ «الكافرون» ثمّ «ألم تر كيف» ثمّ «قل أعوذ بربّ الفلق» ثمّ «قل أعوذ بربّ الناس» ثمّ «قل هو الله أحد» ثمّ «والنجم» ثمّ «عبس» ثمّ «إنّا أنزلناه» ثمّ «والشمس» ثمّ البروج» ثمّ «والتين» ثمّ «لإيلاف» ثمّ «القارعة» ثمّ «القيامة» ثمّ «الهمزة» ثمّ «والمرسلات» ثمّ «قّ» ثمّ «لا أُقسم بهذا البلد» ثمّ «الطارق» ثمّ «اقتربت الساعة» ثمّ «صّ» ثمّ «الأعراف» ثمّ «قل أُوحي» ثمّ «يّس» ثمّ «الفرقان» ثمّ «الملائكة»

ثمّ «كهيعص» ثمّ «طه» ثمّ «الواقعة» ثمّ «الشعراء» ثمّ «النمل» ثمّ «القصص» ثمّ «بني إسرائيل» ثمّ «يونس» ثمّ «هود» ثمّ «يوسف» ثمّ «الحجر» ثمّ «الأنعام» ثمّ «الصافات» ثمّ «لقمان» ثمّ «القمر» ثمّ «سبأ» ثمّ «الزمر» ثمّ «حمّ المؤمن» ثمّ «حمّ السجدة» ثمّ «حمّ عسق» ثمّ «الزخرف» ثمّ «الدخان» ثمّ «الجاثية» ثم «الأحقاف» ثمّ «الذاريات» ثمّ «الغاشية» ثمّ «الكهف» ثمّ «النحل» ثمّ «نوح» ثمّ «إبراهيم» ثمّ «الأنبياء» ثمّ «المؤمنون» ثمّ «الم تنزيل» ثمّ «الطور» ثمّ «الملك» ثمّ «الحاقة» ثمّ «ذو المعارج» ثمّ «عمّ يتساءلون» ثمّ «النازعات» ثمّ «انفطرت» ثمّ «انشقت» ثمّ «الروم» ثمّ «العنكبوت» ثمّ «المطفّفين» فهذه أُنزلت بمكّة، وهي خمس وثمانون سورة.

ثمّ أُنزلت بالمدينة «البقرة» ثمّ «الأنفال» ثمّ «آل عمران» ثمّ «الأحزاب» ثمّ «الممتحنة» ثمّ «النساء» ثمّ «إذا زلزلت» ثمّ «الحديد» ثمّ سورة «محمّد» ثمّ «الرعد» ثم سورة «الرحمن» ثمّ «هل أتى» ثمّ «الطلاق» ثمّ «لم يكن» ثمّ «الحشر» ثمّ «إذا جاء نصر الله» ثمّ «النور» ثمّ «الحج» ثمّ «المنافقون» ثمّ «المجادلة» ثمّ «الحجرات» ثم «التحريم» ثمّ «الجمعة» ثمّ «التغابن» ثمّ سورة «الصف» [ثمّ سورة «الفتح»] ثمّ سورة «المائدة» ثمّ سورة «التوبة» فهذه ثمان وعشرون سورة.

وقد رواه الأُستاذ أحمد الزاهد، بإسناده عن عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس في كتاب الإيضاح، وزاد فيه: وكانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة، كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء بالمدينة.

وبإسناده عن عكرمة، والحسن بن أبي الحسن البصري: إنّ أوّل ما أنزل الله من القرآن بمكّة على الترتيب: إقرأ باسم ربّك، ونّ، والمزّمّل، إلى قوله: وما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، والبقرة، والأنفال، وآل عمران، والأحزاب، والمائدة،

والممتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد، وسورة محمّد ﷺ، والرعد، والرحمٰن، وهل أتى على الإنسان، إلى آخره.

وبإسناده عن سعيد بن المسيّب، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: سألت النبيّ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء، فأوّل ما نزل عليه بمكّة: فاتحة الكتاب، ثمّ «اقرأ باسم ربّك» ثمّ «نٓ» إلى أن قال: وأوّل ما نزل بالمدينة: سورة «البقرة» ثمّ «الأنفال» ثمّ «آل عمران» ثمّ «الأحزاب» ثمّ «الممتحنة» ثمّ «النساء» ثمّ «إذا زلزلت» ثمّ «الحديد» ثمّ «سورة محمّد» ثمّ «الرعد» ثمّ «سورة الرحمٰن» ثمّ «هل أتى» إلى قوله: فهذا ما أُنزل بالمدينة. ثمّ قال النبيّ ﷺ جميع سور القرآن: مائة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن: ستة آلاف ومائتا آية. وستّ وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن: ثلاثمائة ألف حرف واحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً، لا يرغب في تعلّم القرآن إلّا السعداء، ولا يتعهّد قراءته إلّا أولياء الرحمٰن.

أقول: قد اتّسع نطاق الكلام في هذا الباب، حتى كاد يخرج عن أُسلوب الكتاب، وربما نسبنا به إلى الإطناب، ولكن الغرض فيه أنّ بعض أهل العصبيّة قد طعن في هذه القصّة، بأن قال: هذه السورة مكّيّة، فكيف يتعلّق بها ما كان بالمدينة، واستدلّ بذلك على أنّها مخترعة، جرأة على الله سبحانه، وعداوة لأهل بيت رسوله، فأحببت إيضاح الحقّ في ذلك، وإيراد البرهان في معناه، وكشف القناع عن عناد هذا المعاند في دعواه، على أنّه كما ترى يحتوي على السرّ المخزون، والدرّ المكنون من هذا العلم الذي يستضاء بنوره، ويتلألأ بزهوره، وهو معرفة ترتيب السور في التنزيل، وحصر عددها على الجملة والتفصيل. أللهمّ أمددنا بتأييدك، وأيّدنا بتوفيقك، فأنت الرجاء والأمل، وعلى فضلك المعوّل والمتّكل.

المعنى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ معناه: قد أتى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَانِ﴾ أي: ألم يأت على

الإنسان ﴿حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ﴾ وقد كان شيئاً، إلّا أنّه ﴿لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾؛ لأنّه كان تراباً وطيناً، إلى أن نفخ فيه الروح، ـ عن الزجّاج ـ. وعلى هذا فـ«هل» هنا إستفهام يراد به التقرير. قال الجبائي: وهو تقرير على ألطف الوجوه، وتقديره: أيّها المنكر للصانع وقدرته، أليس قد أتى عليك دهور لم تكن شيئاً مذكوراً، ثمّ ذكرت، وكل أحد يعلم من نفسه أنّه لم يكن موجوداً ثمّ وجد، فإذا تفكّر في ذلك، علم أنّ له صانعاً صنعه، ومحدثاً أحدثه.

والمراد بالإنسان هنا: آدمعليه السلام. وهو أوّل من سمّي به، ـ عن الحسن وقتادة وسفيان والجبائي ـ. وقيل: إنّ المراد به كل إنسان، والألف واللام للجنس، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه أتى على آدمعليه السلام أربعون سنة، لم يكن شيئاً مذكوراً لا في السماء ولا في الأرض، بل كان جسداً ملقى من طين، قبل أن ينفخ فيه الروح.

وروي عطاء عن ابن عباس، أنّه تمَّ [تعالى] خلقه بعد عشرين ومائة سنة. وروي العياشي، بإسناده عن عبدالله بن بكير، عن زرارة قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ قال: كان شيئاً. ولم يكن مذكوراً.

وبإسناده عن سعيد الحدّاد، عن أبي جعفرعليه السلام قال: كان مذكوراً في العلم، ولم يكن مذكوراً في الخلق. وعن عبد الأعلى مولى آل سام، عن أبي عبداللهعليه السلام مثله. وعن حمران بن أعين قال: سألت عنه فقال: كان شيئاً مقدوراً، ولم يكن مكوناً.

وفي هذا دلالة على أنّ المعدوم معلوم، وإن لم يكن مذكوراً، وأنّ المعدوم يسمّى شيئاً، فإذا حملت الإنسان على الجنس، فالمراد أنّه قبل الولادة، لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدرى من هو، وما يراد به، بل يكون معدوماً، ثمّ يوجد في صلب أبيه، ثمّ في رحم أمّه، إلى وقت الولادة. وقيل: المراد به العلماء؛ لأنّهم كانوا لا يذكرون، فصيَّرهم الله سبحانه بالعلم مذكورين بين الخاصّ والعامّ في حياتهم،

وبعد مماتهم، وسمع عمر بن الخطاب رجلاً يقرأ هذه الآية فقال: يا ليت ذلك ثمَّ، يعني: ليت آدم بقي على ما كان، فكان لا يلد ولا يبتلى أولاده.

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ يعني: ولد آدم عليه السلام ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منه الولد ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة في الرحم، فأيّهما علا ماء صاحبه، كان الشبه له، ـ عن ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد ـ. وقيل: أمشاج أطوار طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظاماً إلى أن صار إنساناً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أراد اختلاف ألوان النطفة، فنطفة الرجل بيضاء وحمراء، ونطفة المرأة خضراء وصفراء، فهي مختلفة الألوان، ـ عن مجاهد والضحّاك والكلبي، وروي أيضاً عن ابن عباس ـ. وقيل: نطفة مشجت بدم [بدل] الحيض، فإذا حبلت ارتفع الحيض، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هي العروق التي تكون في النطفة، ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: أمشاج أخلاط من الطبائع التي تكون في الإنسان من الحرارة، والبرودة، واليبوسة، والرطوبة، جعلها الله في النطفة، ثمّ بناه الله البنية الحيوانيّة المعدلة الأخلاط. ثمّ جعل فيه الحياة.

ثمّ شقّ له السمع والبصر. فتبارك الله ربّ العالمين وذلك قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾. وقوله: (نبتليه) أي: نختبره بما نكلّفه من الأفعال الشاقّة؛ ليظهر امّا طاعته وامّا عصيانه، فنجازيه بحسب ذلك. قال الفرّاء معناه: ﴿فجعلناه سمعياً بصيرا﴾ لنبتليه أي: لنتعبّده ونأمره وننهاه، والمراد: فأعطيناه آلة السمع والبصر؛ ليتمكّن من السمع والبصر، ومعرفة ما كلّف.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيّنا له الطريق، ونصبنا له الأدلّة، وأزحنا له العلّة، حتى يتمكّن من معرفة الحقّ والباطل. وقيل: هو طريق الخير والشرّ، ـ عن قتادة ـ. وقيل: السبيل هو طريق معرفة الدين الذي به يتوصّل إلى ثواب الأبد،

ويلزم كل مكلّف سلوكه، وهو أدلّة العقل والشرع التي يعمّ جميع المكلّفين.

﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ قال الفرّاء: معناه: إن شكر وإن كفر على الجزاء. وقال الزجّاج: معناه: ليختار إمّا السعادة وإمّا الشقاوة، والمراد: إمّا أن يختار بحسن اختياره الشكر لله تعالى، والاعتراف بنعمه فيصيب الحقّ، وإمّا أن يكفر نعم الله، ويجحد إحسانه، فيكون ضالّاً عن الصواب، فأيّهما اختار جوزي عليه بحسبه. وهذا كقوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وفي هذه الآية دلالة على أنّ الله قد هدى جميع خلقه؛ لأنّ اللفظ عام.

ثم بيّن سبحانه ما أعدَّه للكافرين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: هيّأنا وادّخرنا لهم جزاء على كفرانهم وعصيانهم ﴿سَلاَسِلَا﴾ يعني: في جهنّم، كما قال: في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴿وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً﴾ ناراً موقدة نعذّبهم بها، ونعاقبهم فيها.

ثمّ ذكر ما أعدَّه للشاكرين المطيعين، فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ وهو جمع «البرّ» المطيع لله، المحسن في أفعاله. وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذرّ، ولا يرضون الشرّ. وقيل: هم الذين يقضون الحقوق اللازمة والنافلة. وقد أجمع أهل البيت عليهم السلام وموافقوهم، وكثير من مخالفيهم، أنّ المراد بذلك: عليّ، وفاطمة، والحسن والحسين عليهم السلام. والآية مع ما بعدها متعيّنة فيهم. وأيضاً فقد انعقد الإجماع على أنّهم كانوا أبراراً، وفي غيرهم خلاف.

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ إناء فيه شراب ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما يمازجها ﴿كَافُوراً﴾ وهو إسم عين ماء في الجنّة، عن عطاء والكلبي، واختاره الفرّاء قال: ويدل عليه قوله: ﴿عَيْناً﴾ وهي كالمفسّرة للكافور. وقيل: يعني: الكافور الذي له رائحة طيّبة، والمعنى: يمازجه ريح الكافور، وليس ككافور الدنيا، ـ عن مجاهد ومقاتل ـ. قال قتادة: يمزج بالكافور، ويختم بالمسك. وقيل: معناه: طيب

بالكافور والمسك والزنجبيل، ـ عن ابن كيسان ـ.

﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ﴾ أي: أولياؤه، ـ عن ابن عباس ـ أي: هذا الشراب من عين يشرب بها أولياء الله، وخصَّهم بأنّهم عباد الله؛ تشريفاً وتبجيلاً. قال الفرّاء: شربها، وشرب بها، سواء في المعنى، كما يقولون: تكلّمت بكلام حسن، وكلاماً حسناً. قال عنترة:

شَرِبْتُ بِمَاءِ الدَّحْرُضَيْنِ، فَأَصْبَحَتْ ... عَسِراً عَلىٰ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَخْزَمٍ

وأنشد الفرّاء:

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ، ثُمَّ تَرَفَّعَتْ ... مَتىٰ لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ[1]

أي: صوت.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ أي: يقودون تلك العين حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم، ـ عن مجاهد ـ. والتفجير: تشقيق الأرض بجري الماء، قال: وأنهار الجنّة تجري بغير أخدود، فإذا أراد المؤمن أن يجري نهراً، خطّ خطاً فينبع الماء من ذلك الموضع، ويجري بغير تعب.

ثمّ وصف سبحانه هؤلاء الأبرار، فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: كانوا في الدنيا بهذه الصفة. والإيفاء بالنذر: هو أن يفعل ما نذر عليه، فإذا نذر طاعة تمَّمها، ووفى بها، ـ عن مجاهد وعكرمة ـ. وقيل: يتمّون ما فرض الله عليهم من الواجبات، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أي: فاشياً منتشراً ذاهباً في الجهات، بلغ أقصى المبالغ، وسمّي العذاب شرّاً؛ لأنّه لا خير فيه للمعاقبين، وإن كان في نفسه حسناً؛ لكونه مستحقّاً. وقيل: المراد بالشر هنا أهوال يوم القيامة وشدائده.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أي: على حبّ الطعام، والمعنى: يطعمون

---

(١) الشعر في جامع الشواهد. متى: هنا جارّة.

الطعام أشدّ ما تكون حاجتهم إليه. وصفهم الله سبحانه بالأثرة على أنفسهم. وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري، أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما من مسلم أطعم مسلماً على جوع إلّا أطعمه الله من ثمار الجنّة، وما من مسلم كسا أخاه على عري، إلّا كساه الله من خضر الجنّة، ومن سقى [مسلماً] على ظمأ سقاه الله من الرحيق» قال ابن عباس يطعمون الطعام على شهوتهم له، ومحبّتهم إيّاه. وقيل: الهاء كناية عن الله تعالى أي: يطعمون الطعام على حبّ الله.

﴿مِسْكِيناً﴾ وهو الفقير الذي لا شيء له ﴿وَيَتِيماً﴾ وهو الذي لا والد [ولد] له من الأطفال ﴿وَأَسِيراً﴾ وهو المأخوذ من أهل دار الحرب، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هو المحبوس من أهل القبلة، ـ عن مجاهد، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: الأسير المرأة.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لطلب رضا الله خالصاً لله، مخلصاً من الرياء، وطلب الجزاء، وهو قوله: ﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ وهو مصدر مثل القعود والجلوس. وقيل: إنّهم لم يتكلّموا بذلك، ولكن علم الله سبحانه ما في قلوبهم فأثنى به عليهم؛ ليرغب في ذلك الراغب، ـ عن سعيد بن جبير، ومجاهد ـ. والمراد لا نطلب بهذا الطعام مكافأة عاجلة، ولا نريد أن تشكرونا عليه عند الخلق، بل فَعلناه لله.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً﴾ أي: عذاب يوم ﴿عَبُوساً﴾ أي: مكفهراً تعبس فيه الوجوه. ووصف اليوم بالعبوس توسّعاً؛ لما فيه من الشدّة، وهذا كما يقال: يوم صائم وليل قائم. قال ابن عباس: يعبس فيه الكافر حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران.

﴿قَمْطَرِيراً﴾ أي: صعباً شديداً، ـ عن أبي عبيدة، والمبرّد ـ. وقال الحسن: سبحان الله ما أشدّ اسمه، وهو من اسمه أشدّ. وقيل: القمطرير الذي يقلص الوجوه، ويقبض الجباه، وما بين الأعين من شدّته، ـ عن قتادة ـ.

فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟
جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا
﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ (١)

القراءة: قرأ الشعبي وعبيد بن عمير: ﴿قُدَّرُوهَا﴾ ـ بضمّ القاف ـ. والقراءة المشهورة: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ ـ بفتح القاف ـ. وقرأ أهل المدينة وحمزة. «عٰلِيْهم» ـ ساكنة الياء ـ. والباقون: «عالِيَهم» ـ بفتح الياء ـ.

وقرأ أهل البصرة وأبو جعفر وابن عامر: «خُضْرٌ» ـ بالرفع ـ «وإستبراقٍ» ـ بالجر ـ. وقرأ ابن كثير وأبو بكر: «خُضْرٍ» ـ بالجر ـ، «وإستبرقٌ» ـ بالرفع ـ. وقرأ نافع وحسن [حفص] ـ بالرفع ـ فيهما. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالجرّ فيهما.

---

(١) يوقف لحمزة على «لؤلؤا» بوجه واحد، وهو إبدال الهمزتين واواً، وبدّل أبو بكر الهمزة الأولى فقط. واتّفقت المصاحف على حذف الألف من «عاليهم ثياب سندس» في الكتابة. واتّفق القرّاء على الألف في الأداء، وهذا يدلّ على عدم جواز القراءة إلّا بالسماع، فإنّه كان يمكن أن يقرؤا «عليهم» ـ على أنّ حرف جرّ دخلت على الضمير ـ واستقامة المعنى به.

الحجة: من قرأ: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ ـ بالفتح ـ، فالمعنى: قَدَّروها في أنفسهم، فجاءت كما قَدَّروها. ومن قرأ بالضمّ، أراد أنّ ذلك قُدِّر لهم أي: قدَّره الله لهم، كذلك قال أبو عليّ الضمير في «قدَّروها» للخزّان، أو الملائكة أي: قدَّروها على ربّهم، لا ينقص من ذلك، ولا يزيد عليه.

ومن قرأ: ﴿قُدِّرُوهَا﴾ فهو على هذا المعنى يريد، وكان اللفظ قدّروا عليها، فحذف الجارّ، كما حذف من قوله:

كَأَنَّهُ وَاضِحُ الأَقْرَابِ فِي لَقَحٍ ... أَسْمَىٰ بِهِنَّ، وَعَزَّتْهُ الأَنَاصِيلُ[1]

فلمّا حذف الحرف، وصل الفعل، فكذلك قوله: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ إلّا أنّ المعنى قدّرت عليهم أي: على ربّهم، فقلب كما قال:

لاَ تَحْسَبَنَّ دَرَاهِماً سُرِّقْتَهَا ... تَمْحُو مَخَازِيكَ الَّتِي بِعَمَانِ

وعلى هذا يتأوّل قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوا بِالْعُصْبَةِ﴾ ومثل هذا ما حكاه أبو زيد إذا طلعت الجوزاء، أو فى السود في الجرباء [العود في الحرباء].

قال: ومن نصب «عاليهم» فإنّ النصب يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون حالاً. والآخر: أن يكون ظرفاً. فأمّا الحال فيحتمل أن يكون العامل فيها أحد شيئين: أحدهما: لقّاهم. والآخر: جزاهم، ومثله في كونه حالاً ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾.

فإن قلت: لِمَ لا يكون «متّكئين» صفة جنّة، وفيها ذكر لها؟ قيل: لا يجوز ذلك. ألا ترى أنّه لو كان كذلك، للزمك أن نبرز [تبرز] الضمير الذي في إسم الفاعل، من حيث كان صفة للجنّة، وليس الفعل لها، فإذا لم يجز ذلك كان حالاً، وكذلك قوله: ﴿وَدَآنِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ إلّا أنّه يجوز في قوله: «ودانية عليهم

---

(١) مرّ البيت بمعناه.

ظلالها» أمران: أحدهما: الحال. والآخر: أن ينتصب على أنّه مفعول بـه. ويكـون المعنى وجزاهم جنّة وحريراً أي: لبس حرير، ودخول جنّة، ودانية عليهم ظلالها. فيكون على هذا التقدير كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فإن لم نحمله على هذا وقلت: إنّه يعرض فيه إقامة الصفة مقام الموصوف، وإنّ ذلك ليس بالمطرح في كلامهم، وإذا حملته على الحال يكون مثل ما عطفته عليه من قوله: «متكئين ودانية عليهم».

وكذلك يكون «عاليهم ثياب سندس»، معطوفاً على ما انتصب على الحال في السورة، فيكون «ثياب سندس» مرتفعة باسم الفاعل، والضمير عائد إلى ذي الحال من قوله: «عاليهم». وفي الشواذ «عاليتهم» قراءة الأعمش، ويكون بمنزلة قوله: «خاشعاً أبصارهم». و«خاشعة أبصارهم». ومن جعله ظرفاً، فإنّه لمّا كـان «عالي» بمعنى فوق، أُجري مجراه في هذا.

ومن قرأ: «عاليهم» بسكون الياء، جعله مبتدأ و ﴿ثِيَابُ سُنْدُسٍ﴾ خـبره، ويكون ﴿عَالِيَهُمْ﴾ المبتدأ في موضع الجماعة، كما أنّ الخبر «جماعة». وقد جاء إسم الفاعل في موضع جماعة قال:

ألا إنَّ جِـيرانِـي الْـعَشِيَّةَ رائِـحٌ دَعَتْهُمْ دَواعٍ مِنْ هَوًى، وَمَـنادِحُ[١]

وفي التنزيل: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ فَـقُطِعَ دَابِـرُ القَـوْمِ الَّـذِينَ ظَلَمُوا﴾ فكأنّه أُفرد من حيث جعل بمعنى المصدر من نحو قوله: «ولا خارِجاً مِنْ [عن] فِيَّ زُوْرُ كَلام»[٢] وقد قالوا: الجامل والباقر، يراد بهما الكثرة. وأخذ عليه البصير النحوي الملقّب بجامع العلوم هذا الكلام، ونسبه فيه إلى سوء التأمّل، وقال: عاليْهم ـ بسكون الياء ـ صفة الولدان أي: يـطوف عـليهم ولدان عـاليهم ثـياب

---

[١] المنادح: المفاوز. والمنتدح: المكان الواسع.

[٢] قائله: الفرزدق: وقبله: (على قسم لا أشتم الدهر مسلماً) والبيت من قصيدة قالها في مربد.

سندس، فيرتفع «ثياب سندس» باسم الفاعل الجاري صفة على الموصوف.

وأقول وبالله التوفيق: إنّي لأرى أنّ نظر هذا الفاضل قد اختلَّ، كما أنّ بصره قد اعتلّ، فرمى أبا عليّ بدائه وانسل. ولم ينظر في خاتمة هذه الآية، إلى قوله سبحانه: ﴿وَسَقَيٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾، ثمّ قوله عقيب ذلك: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ فيعرف أنّ الضمير في ﴿عَالِيَهُمْ﴾ هو بعينه في ﴿وَسَقَاهُمْ﴾، وهو ضمير المخاطبين في «لكم». وهذا الضمير لا يمكن أن يعود إلّا إلى الأبرار المثابين المجازين، دون الولدان المخلّدين الذين هم من جملة ثوابهم وجزائهم. أللهمّ لك الحمد على تأييدك وتسديدك.

رجعنا إلى كلام أبي عليّ قال: ويجوز على قياس قول أبي الحسن في «قائم أخواك» وإعمال اسم الفاعل عمل الفعل، وإن لم يعتمد على شيء أن يكون «ثياب سندس» مرتفعة بـ«عاليهم»، وأفردت «عالياً»؛ لأنّه فعل متقدّم.

قال أبو عليّ: والأوجه قراءة من قال: «خضرٌ» ـ بالرفع ـ، و«إستبرقٍ» ـ بالجرّ ـ، لأنّ «خضراً» صفة مجموعة لموصوف مجموع وهو ثياب، وأما «إستبرق» فجرّ من حيث كان جنساً، أُضيفت إليه الثياب، كما أُضيفت إلى سندس، كما يقال: ثياب خزّ وكتان. ويدلّ على ذلك قوله: ﴿وَيَلْبَسونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

ومن قرأ: «خضرٍ واستبرقٍ» فإنّه أجرى الخضر وهو جمع على السندس، لما كان المعنى أنّ الثياب من هذا الجنس. وأجاز أبو الحسن وصف هذه الأجناس بالجمع فقال: تقول: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، على استقباح له.

ومن رفع «إستبرق» فإنّما أراد عطف «الإستبرق» على «الثياب» كأنّه ثياب [سندس، وثياب] إستبرق، فحذف المضاف الذي هو «ثياب»، وأقام «إستبرق» مقامه، كما أنّك إذا قلت: عليه خزّ، بمعنى: عليه ثوب خز. وليس المعنى: أنّ عليه

الدابّة التي هي الخزّ، وعلى هذا قوله:

كَأَنَّ خَزّاً تَحْتَهُ، وَقَـزّاً وَفُـرُشاً مَـحْشُوَّةً أَوَزّاَ

(اللغة): الوقاية: الحفظ والمنع من الأذى. وقاه يقيه وقاية، ووقاه توقية. قال رؤبة: «إنَّ المُوقّي مِثْل مٰا وَقّيتُ» ومنه: إتّقاه وتوقّاه. وأصل الشرّ: الظهور، فهو ظهور الضرر. ومنه: شررت الثوب: إذا ظهرته للشمس، أو الريح. قال: «وَحَـتّى أُشِرَّتْ بِالأَكُفِّ الْمَصٰاحِفُ»[١] أي: أُظهرت. ومنه: شرر النار: لظهوره بـتطايره. والنضرة: حسن الألوان. ونبت ناضر ونضير ونضر.

والسرور: اعتقاد وصول المنافع إليه في المستقبل. وقال قوم: هو لذّة فـي القلب فحسب متعلّقة بما فيه النفع، وكل سرور فلابدّ له من متعلّق، كالسرور بالمال والولد، والسرور بالإكرام والإجلال، والسرور بالحمد والشكر، والسرور بالثواب. والأرائك: الحجال فيها الأسرة. واحدتها: أريكة. قال الزجّاج: الأريكة: كل مـا يتّكأ عليه من مِسْوَرَة(١) أو غيرها، والزمهرير: أشدّ ما يكون من البرد. والزنجبيل: ضرب من القِرفة طيّب الطعم، يحذو اللسان ويربى بالعسل، ويستدفع به المضارّ، وإذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ. والعرب تسـتطيب الزنـجبيل جـدّاً. قـال الشاعر:

كَأَنَّ الْقَرَنْفُلَ، وَالزَّنْـجَبِيلَ بٰاتٰا بِفِيهاوَأَرْياً مَشُوراً(٢)

والسـلسبيل: الشـراب السـهل اللـذيذ. يـقال: شـراب سـلسل وسـلسال وسلسبيل. والولدان: الغلمان، جمع وليد. والسـندس: الديـباج الرقـيق الفـاخر

---

(١) متّكا: من أديم.

(٢) الأرى: العسل. والمشور: المجنى من بيوت النحل، يصف حلاوة ريق معشوقته.

[١] قائله: حصين بن حمام المري، يذكر يوم صفين. وصدره: (فما برحوا حتى برى الله صبرهم).

الحسن. والإستبرق: الديباج الغليظ الذي له بريق.

الإعراب: ﴿وَإِذَا رَأَيتَ ثَمَّ﴾ قال الزجّاج: العامل في «ثمّ» معنى «رأيت»، والمعنى: وإذا رأيت ببصرك. ثمّ قال الفرّاء: المعنى: وإذا رأيت ما ثمّ. وغلطه الزجّاج في ذلك، وقال: إن ما تكون موصولة بقوله: ثمّ على هذا التفسير، ولا يجوز إسقاط الموصول، وترك الصلة. ولكن «رأيت» يتعدّى في المعنى إلى «ثمّ». وأقول: يجوز أن يكون مفعول «رأيت» محذوفاً، ويكون «ثمّ» ظرفاً، والتقدير: وإذا رأيت ما ذكرناه ثمّ.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه بما أعدّ للأبرار الموصوفين في الآيات الأُولى من الجزاء، فقال: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: كفاهم الله، ومنع منهم أهوال يوم القيامة وشدائده. ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ أي: استقبلهم بذلك.

﴿وَجَزَاهُم﴾ أي: وكافأهم ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بصبرهم على طاعته، واجتناب معاصيه، وتحمّل محن الدنيا وشدائدها ﴿جَنَّةً﴾ يسكنونها ﴿وَحَرِيراً﴾ من لباس الجنّة، يلبسونه ويفرشونه.

﴿مُتَّكِئِينَ﴾ أي: جالسين جلوس الملوك ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: الأسرة في الحجال، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: كلّما يتّكأ عليه فهو أريكة، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل، الأرائك: الفرش فوق الأسرة، ـ عن أبي مسلم ـ ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنّة ﴿شَمْساً﴾ يتأذّون بحرّها ﴿وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ يتأذّون ببرده.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا﴾ يعني: إنّ أفياء أشجار تلك الجنّة قريبة منهم. وقيل: إنّ ظلال الجنّة لا تنسخها الشمس، كما تنسخ ظلال الدنيا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ أي: وسخرت وسهل أخذ ثمارها تسخيراً إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد نزلت عليه حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت حتى تنالها يده، ـ عن مجاهد ـ. وقيل:

معناه: لا يرد أيديهم عنها بعد، ولا شوك.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي: على هؤلاء الأبرار الموصوفين قبل ﴿بِـآنِيَةٍ مِـن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع «كوب»، وهو إناء للشرب من غير عروة. وقيل: الأكواب: الأقداح، ـ عن مجاهد ـ ﴿كَانَتْ﴾ تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا﴾ أي: زجاجات.

﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ قال الصادق عليه السلام: ينفذ البصر في فضّة الجنّة، كما ينفذ في الزجّاج، والمعنى: إنّ أصلها من فضّة، فاجتمع لها بياض الفضّة، وصفاء القوارير، فيرى من خارجها ما في داخلها. قال أبو عليّ: إن سئل فقيل: كيف تكون القوارير من فضّة، وإنّما القوارير من الرمل دونها؟ فالقول في ذلك: إنّ الشيء إذا قاربه شيء، واشتدّت ملابسته له، قيل إنّه من كذا، وإن لم يكن منه في الحقيقة، كقول البعيث:

أَلاَ أَصْبَحَتْ خَنْسَاءُ خَارِمَةَ الْوَصْلِ ... وَضَنَّتْ عَلَيْنَا، وَالضَّنِينُ مِنَ الْبُخْلِ

وَصَدَّتْ فَأَعْدَانَا بِهِجْرٍ صُدُودُها ... وَهُنَّ مِنَ الأَخْلاَفِ قَبْلَكَ وَالْمَطْلِ[1]

وقال:

أَلاَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَغْيِيرُ لِمَّتِي ... وَوَجْهُكَ مِمّا فِي الْقَوَارِيرِ أَصْفَرُ

فعلى هذا يجوز قوارير من فضّة أي: هي في صفاء الفضّة ونقائها، ويجوز تقدير حذف المضاف أي: من صفاء الفضّة، وقوارير الثانية بدل من الأُولى، وليست بتكرار. وقيل: إنّ قوارير كل أرض من تربتها. وأرض الجنّة فضّة، فلذلك كانت قواريرها مثل الفضّة، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ أي: قدّروا الكأس على قدر ريّهم، لا يزيد ولا ينقص من الري. والضمير في «قدّروها» للسقاة والخدم الذين يسقون، فإنّهم يقدرونها،

---

[1] المطل: التسويف والمدافعة بالعدة.

ثمّ يسقون. وقيل: قدّروها على قدر ملء الكفّ أي: كانت الأكواب على قدر ما اشتهوا، لم تعظم، ولم يثقل الكفّ من حملها، ـ عن الربيع والقرظي ـ. وقيل: قدّروها في أنفسهم قبل مجيئها على صفة، فجاءت على ما قدّروا. والضمير في «قدروا» للشاربين[1].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ قال مقاتل: لا يشبه زنجبيل الدنيا. وقال ابن عباس: كل ما ذكره الله في القرآن ممّا في الجنّة وسمّاه، ليس له مثل في الدنيا، ولكن سمّاه الله بالإسم الذي يعرف. والزنجبيل: مما

---

(١) قال الإمام الرازي: إن الموصوفين بهذه الصفات مذكورون بصيغة الجمع، كقوله: إنّ الأبرار يشربون، ويوفون، ويخافون، إلى آخر الآيات، فتخصيصه بجمع معيّنين خلاف الظاهر، ولا ينكر دخول عليّ بن أبي طالب فيه، ولكنّه أيضاً داخل في جميع الآيات الدالّة على شرح أحوال المطيعين، انتهى.

وهذا منه تجاهل؛ إذ كلّما ذكر فيه سبب للنزول فلفظه أعمّ من السبب الوارد فيه، كما سبق انّ قوله تعالى: إنّ الذين يرمون المحصنات الغافلات، إلى آخره، نزل في عائشة بلفظ الجمع، وقوله تعالى: تلقون إليهم بالمودّة ـ في الممتحنة ـ نزل في حاطب بن أبي بلتعة، هذا مع اعترافه بأنّ الزمخشري من المعتزلة، والواحدي من الأشاعرة، ذكرا أنها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومع أن نزول الآيات في مدحه عليه السلام لا يناقض مذهبه، ولكن بعض العلماء يتأثّرون من تحريش الملوك، واصحاب السياسة، فيروّجون أمرهم من غير اختيارهم، وكان بنو العباس يخافون من بني عليّ عليه السلام، ويمنعون من كل شيء يقوي أمرهم، وكانوا يقربون النصارى، ويفوّضون إليهم الأمور، ويحبسون الشرفاء، ويقتلون أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وليس بين أهل السنّة والشيعة بمقتضى مذهبهم شيء يوجب التعاند والتباغض، إلّا أن يحرشهم السياسة، وفي هذا الزمان لا يمكنهم أيضاً؛ لقرب المسافات، وسهولة المخابرات، والاحتياج إلى المعاشرة بالمعروف، فأهل الأرض بمنزلة أهل بيت واحد، ولنا أسوة بالصحابة كان بينهم اختلاف في فروع الأحكام، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين، وكذلك الاختلاف في رجال باعيانهم، كأبي طالب كان مؤمنا أو كافرا، وليس الاعتقاد بايمانه جزء من الاعتقادات الدينيّة، ولا الاعتقاد بكفره موجبا للكفر، وإنّما يجب الإمساك عن كثير من الأمور، تأدّباً مع الاخوة المؤمنين، وتنزّهاً عمّا لا يعني، ونختم الكلام بما ينسب [نسب] إلى الشافعي. «امن غره [غير] زوجت فاطم، افي غيره هل اتى هل أتى».

كانت العرب تستطيبه، فلذلك ذكره في القرآن، ووعدهم أنّهم يسقون في الجنّة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنّة.

﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ أي: تمزج الخمر بالزنجبيل، والزنجبيل من عين تسمّى تلك العين سلسبيلاً. قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلّا في القرآن. وقال الزجّاج: هو صفة لما كان في غاية السلاسة، يعني: إنّها سلسلة تتسلسل في الحلق. وقيل: سمّي سلسبيلاً؛ لأنّها تسيل عليهم في الطرق، وفي منازلهم تنبع من أصل العرش، من جنّة عدن، إلى أهل الجنان، ـ عن أبي العالية، ومقاتل ـ. وقيل: سمّيت بذلك؛ لأنّها ينقاد ماؤها لهم، يصرفونها حيث شاؤوا، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ مرّ تفسيره ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعني: إذا رأيت أُولئك الولدان ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً﴾ من الصفاء، وحسن المنظر، والكثرة، فذكر لونهم وكثرتهم. وقيل: إنّما شبّههم بالمنثور؛ لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: إذا رميت ببصرك ثَمّ يعنى: الجنّة. وقيل: إنّ تقديره: وإذا رأيت الأشياء ثَمَّ ﴿رَأَيْتَ نَعِيماً﴾ خطيراً ﴿وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ لا يزول ولا يفنى، ـ عن الصادق عليه السلام ـ. وقيل: كبيراً أي: واسعاً يعني: إنّ نعيم الجنّة لا يوصف كثرة، وإنّما يوصف بعضها. وقيل: الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم وتحيّتهم بالسلام. وقيل: هو أنّهم لا يريدون شيئاً إلّا قدروا عليه. وقيل: هو أنّ أدناهم منزلة ينظر في ملكه من مسيرة ألف عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه. وقيل: هو الملك الدائم الأبدي في نفاذ الأمر، وحصول الأماني.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ من جعله ظرفاً، فهو بمنزلة قولك فوقهم ثياب سندس، ومن جعله حالا، فهو بمنزلة قولك: يعلوهم ثياب سندس، وهو ما رقّ من

الثياب فيلبسونها. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال في معناه: تعلوهم الثياب فيلبسونها ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وهو ما غلظ [منها]، ولا يراد به الغلظ في السلك، إنّما يراد به الثخانة في النسج. قال ابن عباس: أما رأيت الرجل عليه ثياب، والذي يعلوها أفضلها [أفضل].

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ الفضّة الشفافة، وهي التي يرى ما وراءها، كما يرى من البلورة، وهي أفضل من الدرّ والياقوت، وهما أفضل من الذهب والفضّة، فتلك الفضّة أفضل من الذهب والفضّة في الدنيا، وهما أثمن الأشياء. وقيل: إنّهم يحلّون بالذهب تارة، وبالفضّة أُخرى؛ ليجمعوا محاسن الحلية، كما قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ والفضّة، وإن كانت دنيّة الثمن في الدنيا، فهي في غاية الحسن خاصّة إذا كانت بالصفة التي ذكرناها، والغرض في الآخرة ما يكثر الإستلذاذ والسرور به، لا ما يكثر ثمنه؛ لأنّه ليست هناك أثمان.

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي: طاهراً من الأقذار والأقذاء، لم تدنّسها الأيدي، ولم تدسّها الأرجل كخمر الدنيا. وقيل: طهوراً لا يصير بولاً نجساً، ولكن يصير رشحاً في أبدانهم كريح [كرشح] المسك، وإنّ الرجل من أهل الجنّة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، وأكلهم ونهمتهم. فإذا أكل ما شاء، سقي شراباً طهوراً، فيطهر بطنه، ويصير ما أكل رشحاً، يخرج من جلده، أطيب ريحاً من المسك الأذفر، ويضمر بطنه، وتعود شهوته، ـ عن إبراهيم التميمي [التيمي]، وأبي قلابة ـ. وقيل: يطهرهم عن كل شيء سوى الله؛ إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان إلّا الله. ـ رووه عن جعفر بن محمّد عليه السلام ـ.

﴿إِنَّ هٰذَا﴾ يعني: ما وصف من النعيم وأنواع الملاذّ ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: مكافأة على أعمالكم الحسنة، وطاعتكم المبرورة. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ في مرضاة الله، وقيامكم بما أمركم الله به ﴿مَشْكُوراً﴾ أي: مقبولاً مرضياً جوزيتم عليه، فكأنّه شكر لكم فعلكم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا
﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

القراءة: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «وما يشاؤون» ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وفي الشواذّ قراءة عبدالله بن الزبير، وأبان بن عثمان: ﴿وَالظَّلِمُونَ﴾ ـ بالواو ـ.

الحجة: وجه الياء: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ﴾. ووجه التاء: أنّه خطاب للكافّة أي: وما تشاؤون الطاعة والإستقامة إلّا أن يشاء الله، أو يكون محمولاً على الخطاب.

وأما قوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ فإنّه على ارتجال جملة مستأنفة. قال ابن جنّي: كأنّه قال الظالمون أعدَّ لهم عذاباً أليماً، ثمّ إنّه عطف الجملة على ما قبلها، وقد سبق الرفع إلى مبتدئها، غير أنّ قراءة الجماعة أسبق، وهو النصب؛ لأنّ معناه: ويعذّب الظالمين. فلمّا أضمر هذا الفعل، فسّره بقوله: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهذا أكثر من أن يؤتى له بشاهد. قال الزجّاج: يقول النحويّون أعطيت زيداً، وعمراً أعددت له برّا، فيختارون النصب على معنى: وبررت عمراً أعددت له برّا. وأنشد غيره:

أصْبَحْتُ لاَ أحْمِلُ السِّلاَحَ، وَلاَ أمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إنْ نَفَرَا

والذئب أخْشَـــاهُ إنْ مَـرَرْتُ بِـهِ وَحْدِي، وَأخْشَى الرِّيَاحَ، وَالْمَطَرَا[١]

اللغة: الأسر: أصله: الشدّ، ومنه: قتب مأسور أي: مشدود. ومنه: الأسير؛ لأنّهم كانوا يشدّونه بالقد. وقولهم: خذ بأسره أي: بشدّه قبل أن يحل. ثمّ كثر حتى صار بمعنى: خذ جميعه. قال الأخطل:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شَدِيدٍ أسْـرُهُ سَلِسُ الْقِيَادُ تَخَالُهُ مُخْتَالاً[٢]

الإعراب: قال الزجّاج في قوله: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ «أو» هنا أوكدا من «الواو»؛ لأنّك إذا قلت: لا تطع زيداً وعمراً، فأطاع أحدهما، كان غير عاص؛ لأنّك أمرته أن لا يطيع الإثنين. وإذا قلت: «لا تطع منهم آثماً أو كفوراً» فـ«أو» قد دلّت على أنّ كل واحد منهما أهل أن يعصى، وأنّهما أهل أن يعصيا، كما أنّك إذا قلت: جالس الحسن، أو ابن سيرين، فقد قلت: كل واحد منهما أهل أن يجالس.

قال البصير النحوي: «أو» هذه التي للتخيير، إذا قلت: اضرب زيداً أو عمراً، فمعناه: إضرب أحدهما. فإذا قلت: لا تضرب زيداً أو عمراً، فمعناه: لا تضرب أحدهما، فيحرم عليه ضربهما؛ لأنّ أحدهما في النفى يعمّم. وابن كيسان يحمل النهي على الأمر، فيقول: إذا قال: لا نضرب أحدهما، لم يحرم عليه ضربهما، وإنّما حرم في الآية طاعتهما؛ لأنّ أحدهما بمنزلة الآخر في امتناع الطاعة له، ألا ترى أنّ الآثم مثل الكفور في هذا المعنى. قال سيبويه: ولو قال: لا تطع آثماً ولا تطع كفوراً، لا نقلب المعنى إذ ذاك؛ لأنّه حينئذ لا تحرم طاعتهما كليهما.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنْزِيلًا﴾ فيه شرف وتعظيم لك. وقيل: معناه: فصلناه في الإنزال آية بعد آية، ولم

---

(١) يصف ضعفه وشيخوخته.

(٢) يصف فرسا. والمجتنب: يشبه أن يكون بمعنى سلس القياد، ولم أره في غير هذا الشعر في وصف الفرس. والجنيب: ما تقوده بجنب فرسك.

ننزله جملة واحدة، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمّد على ما أمرتك به من تحمّل أعباء الرسالة ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أن تبلغ الكتاب، وتعمل به. وقيل: إنّه أمر لنبيّنا ﷺ بالصبر، وإن كُذِّب فيما أتى به، ووعيد لمن كذبه.

﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي: من مشركي مكّة ﴿آثِماً﴾ يعني: عتبة بن ربيعة ﴿أو كفوراً﴾ يعني: الوليد بن المغيرة، فإنّهما قالا له: إرجع عن هذا الأمر، ونحن نرضيك بالمال والتزويج، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: الكفور أبو جهل، نهى النبيّ ﷺ عن الصلاة، وقال: لئن رأيت محمّداً يصلّي لأطأنَّ عنقه، فنزلت الآية. ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّ ذلك عام في كل عاص فاسق وكافر، منهم أي: من الناس، أي: لا تطع من يدعوك إلى إثم أو كفر. وهذا أولى لزيادة الفائدة، وعدم التكرير.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: أقبل على شأنك من ذكر الله، والدعاء إليه، وتبليغ الرسالة صباحاً ومساء أي: دائماً، فإنّ الله ناصرك ومؤيّدك ومعينك. والبكرة: أوّل النهار. والأصيل: العشي، وهو أصل الليل. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ دخلت «من» للتبعيض، والمعنى: فاسجد له في بعض الليل؛ لأنّه لم يأمره بقيام الليل كله. وقيل: فاسجد له يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أي: في ليل طويل يريد التطوّع بعد المكتوبة. وروي عن الرضا عليه السلام أنّه سأله أحمد بن محمّد[1] عن هذه الآية وقال: ما ذلك التسبيح؟ قال: صلاة الليل.

﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: يؤثرون اللذّات والمنافع العاجلة في دار الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي: ويتركون أمامهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾ أي: عسيراً شديداً. والمعنى إنّهم لا يؤمنون به، ولا يعملون له. وقيل: معنى «وراءهم» خلف ظهورهم، وكلاهما محتمل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: قوينا وأحكمنا

---

(١) هو البزنطي.

خلقهم، ـ عن قتادة ومجاهد ـ. وقيل: أسرهم أي: مفاصلهم، ـ عن الربيع ـ. وقيل: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، ـ عن الحسن ـ. ولولا إحكامه إيّاها على هذا الترتيب لما أمكن العمل بها، والإنتفاع منها. وقيل: شددنا أسرهم: جعلناهم أقوياء، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: كلّفناهم، وشددناهم بالأمر والنهي كيلا يجاوزوا حدود الله، كما يشدّ الأسير بالقد لئلّا يهرب. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أي: أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم، ولكن نبقيهم إتماماً للحجّة.

﴿إِنَّ هٰذِهِ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: تذكير وعظة يتذكّر بها أمر الآخرة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّ هذه الرسالة التي تبلغها ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: فمن أراد اتّخذ إلى رضا ربّه طريقاً، بأن يعمل بطاعته، وينتهي عن معصيته. وفي هذا دلالة على أنّ الإستطاعة قبل الفعل.

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ أي: وما تشاؤون اتّخاذ الطريق إلى مرضاة الله اختياراً، إلّا أن يشاء الله إجباركم عليه، وإلجاءكم إليه، فحينئذ تشاؤون ولا ينفعكم ذلك، والتكليف زائل. ولم يشأ الله هذه المشيئة، بل شاء أن تختاروا الإيمان؛ لتستحقّوا الثواب، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: وما تشاؤون شيئاً من العمل بطاعته، إلّا والله يشاؤه ويريده. وليس المراد بالآية أنّه سبحانه يشاء كل ما يشاءه العبد من المعاصي والمباحات وغيرها؛ لأنّ الدلائل الواضحة قد دلّت على أنّه سبحانه لا يجوز أن يريد القبائح، ويتعالى عن ذلك. وقد قال سبحانه: ﴿وَلا يُرِيدَ بِكُمُ العُسْرَ﴾. ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ﴾.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ مرّ معناه.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: جنّته يعني: المؤمنين ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ يعني: ويجزي الكافرين والمشركين ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

سورة المرسلات

وهي خمسون آية بلا خلاف.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة والمرسلات، كتب أنّه ليس من المشركين» وروي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأها عرّف الله بينه وبين محمّد ﷺ.

تفسيرها: لمّا ختم سبحانه سورة «هل أتى» بذكر القيامة، وما أعدّ فيها للظالمين، افتتح هذه السورة بمثل ذلك، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا[1] ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا

---

(١) أدغم «فالملقيات ذكرا» أبو عمرو يعقوب.

تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز والشام وأبو بكر ويعقوب وسهل: ﴿عُذْراً﴾ ساكنة الذال ـ ﴿أَوْ نُذُراً﴾ ـ بضمّها ـ. وروي محمّد بن الحبيب عن الأعشى والبرجمي، عن أبي بكر: بضمّ الذال فيهما. ومحمّد بن خالد عن الأعشى: ﴿عُذْراً﴾ بسكون الذال ـ. ﴿أَوْ نُذُراً﴾ ـ بضمّها ـ مثل رواية حماد ويحيى، عن أبي بكر. وقرأ الباقون: بسكون الذال فيهما.

وقرأ أبو جعفر: «وقتت» بالواو والتخفيف. وقرأ أهل البصرة ـ غير رويس ـ بالواو والتشديد. وقرأ الباقون: ﴿أُقِّتَتْ﴾ ـ بالألف، وتشديد القاف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: النذر ـ بالتثقيل ـ والنذير، مثل: النكر والنكير، وهما جميعاً مصدران، ويجوز في النذير ضربان: **أحدهما**: أن يكون مصدراً كالنكير، وعذير الحي. **والآخر**: أن يكون فعيلاً يراد به المنذر، كما أنّ الأليم بمعنى المؤلم. ويجوز تخفيف «النذر» على حدّ التخفيف في العُنْق والعُنُق، والأُذْن والأُذُن. قال أبو الحسن: ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ أي: إعذاراً أو إنذاراً، وقد خففتا جميعاً، وهما لغتان.

فأمّا انتصاب «عذراً» فعلى ثلاثة أضرب: **أحدها**: أن يكون بدلاً من «الذكر» في قوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾. **والآخر**: أن يكون مفعول «ذكراً» أي: فالملقيات أن يذكر عذراً أو نذراً. **والثالث**: أن يكون منصوباً على أنّه مفعول له، ويجوز في قول من ضمّ ﴿عُذُراً أَوْ نُذُراً﴾ أى يكون «عُذُراً» جمع: عاذر أو

عذور، و«النُذُر» جمع: نذير. قال حاتم:

أَمَاوِيَّ قَدْ طَالَ التَّجَنُّبُ، وَالْهَجْرُ وَقَدْ عَذَرَتْني في طِلابِكُمُ الْعُذُرُ(١)

فيكون «عذراً أو نذراً» على هذا حالاً من الإلقاء، كأنّهم يلقون الذكر في حال العذر [الإعذار] والإنذار.

ومن قرأ «وقتت» ـ بالواو ـ؛ فلأنّ الكلمة أصلها من الوقت. ومن أبدل منها الهمزة؛ فلإنضمام الواو والواو إذا انضمّت أوّلاً في نحو: وجوه ووعود. وثالثة في نحو: أدؤر، فإنّها تبدل على الإطّراد؛ همزة لكراهتهم الضمّة على الواو.

المعنى: ﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً﴾ يعني: الرياح أُرسلت متتابعة كعرف الفرس، ـ عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي صالح ـ. فعلى هذا يكون «عرفاً» نصباً على الحال من قولهم: جاؤوا إليه عرفاً واحداً أي: متتابعين. وقيل: إنّها الملائكة أُرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه. وفي رواية أُخرى عن ابن مسعود، وعن أبي حمزة الثمالي، عن أصحاب عليّ، عنه عليه السلام. وعلى هذا يكون مفعولاً له. وقيل: المراد بها الأنبياء، جاءت بالمعروف. والإرسال: نقيض الإمساك.

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ يعني: الرياح الشديدات الهبوب. والعصوف: مرور الريح بشدّة.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً﴾ وهي الرياح التي تأتي بالمطر تنشر السحاب نشراً للغيث، كما تلقحه المطر. وقيل: إنّها الملائكة تنشر الكتب عن الله تعالى، ـ عن أبي

---

(١) ماويّ: مرخّم «ماوية» علم امرأة حاتم. والعذر: جمع عاذر يعني: هجرتهم ايانا وأنا ما قصرت في طلبكم حتى قبل عذري العاذرون. وحاتم هو الجواد المعروف، وله قصّة مع ماوية قبل أن يتزوّجها، وقالوا كانت ملكة تتزوّج من أرادت، وأنّها بعثت غلمانا لها في طلب أجمل الرجال، فأتوه بحاتم، ولم يرض بالتزويج، فاحتال وفرّ منها، وجرت أمور، وماتت زوجة حاتم الأولى، فتزوّجته؛ لما رأت فيه من الكرم والبلاغة والجمال، وهي أمّ عدي بن حاتم، ولا يسعنا تفصيل اخبارهما، وقال هذه القصيدة قبل التزوّج.

حمزة الثمالي، وأبي صالح ـ. وقيل: إنّها الأمطار تنشر النبات، ـ عن أبي صالح في رواية أُخرى ـ. وقيل: الرياح ينشرها الله تعالى نشراً بين يدي رحمته، ـ عن الحسن ـ. وقيل: الرياح تنشر السحاب في الهواء، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ يعني: الملائكة تأتي بما يفرق به بين الحقّ والباطل، والحلال والحرام، ـ عن ابن عباس، وأبي صالح ـ. وقيل: هي آيات القرآن تفرق بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، ـ عن الحسن، وأبي حمزة، وقتادة ـ. وقيل: إنّها الرياح التي تفرق بين السحاب فتبدده، ـ عن مجاهد ـ[1].

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ يعني: الملائكة تلقي الذكر إلى الأنبياء، ويلقيه الأنبياء إلى الأُمم، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ، كأنّه قال: الحاملات للذكر، الطارحات له، ليأخذه من خوطب به، والإلقاء: طرح الشيء على غيره.

﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ أي: للإعذار والإنذار، ومعناه: إعذاراً من الله، وإنذاراً إلى خلقه، وقيل: عذراً يعتذر الله به إلى عباده في العقاب أنّه لم يكن إلّا على وجه الحكمة، ونذراً أي: إعلاماً بموضوع [الموضع] المخافة، ـ عن الحسن ـ. وهذه أقسام ذكرها الله تعالى. وقيل: أقسم الله سبحانه بربّ هذه الأشياء، عن الجبائي قال: لا يجوز القسم إلّا بالله سبحانه. وقال غيره: بل أقسم بهذه الأشياء تنبيهاً على

---

(١) لا يبعد ان يكون جميع هؤلاء ملائكة، فإنّ الذي لا شكّ فيه بين الملبين أنّ القوى الطبيعيّة غير مستقلّة في أفعالها، فالريح والمطر والسماء والأرض مسخّرات بأمر الله، كالقلم في يد الكاتب، والمنشار في يد النجّار، فما تراه من المصالح والحكم في أفعالها، تدلّ على أنّ فاعلها صاحب شعور حكيم، كما أنّ اشتمال الخطا [الخطّ] على المعاني والعلوم يدلّ على أنّ الكاتب ليس القلم باستقلاله، بل عالم فكر وقدر وقدر، ولا ينكر ذلك الحكماء الإلهيّون أيضاً، إلّا أنّهم يقولون يكفي في ذلك ملك واحد مسمّى بالعقل الفعّال، يدبّر بأمر الله، ويقول أهل الشرع بملائكة كثيرة، مفوّض إلى كلّ جماعة منهم شيء من عند الله والحكماء، لم يبرهنوا على وحدة العقل.

عظم موقعها.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، والمعنى: انّ الذي وعدكم الله به من البعث والنشور، والثواب والعقاب، لكائن لا محالة. وقيل: إنّ الفرق بين الواقع والكائن، أنّ الواقع: لا يكون إلّا حادثاً تشبيهاً بالحائط الواقع؛ لأنّه من أبين الأشياء في الحدوث. والكائن: أعم منه؛ لأنّه بمنزلة الموجود الثابت، يكون حادثاً وغير حادث.

ثمّ بيّن سبحانه وقت وقوعه، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: مُحيت آثارها، وأُذهب نورها، وأُزيل ضوؤها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي: شقّت وصدعت، فصار فيها فروج ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: قلعت من مكانها، كقوله سبحانه: ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾. قيل: نسفت: أُذهبت بسرعة حتى لا يبقى لها أثر في الأرض.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: جمعت لوقتها، وهو يوم القيامة لتشهد على الأُمم، وهو قوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي: أُخّرت. وضرب لهم الأجل لجمعهم؛ تعجّب العباد من ذلك اليوم، ـ عن إبراهيم ومجاهد وابن زيد ـ. وقيل: «أُقتت» معناه: عرفت وقت الحساب والجزاء؛ لأنّهم في الدنيا لا يعرفون متى تكون الساعة. وقيل: عرفت ثوابها في ذلك اليوم. وقال الصادق عليه السلام: «أُقتت» أي: بعثت في أوقات مختلفة.

ثمّ بيّن سبحانه ذلك اليوم، فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم يفصل الرحمن بين الخلائق. ثمّ عظم ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾.

ثمّ أخبر سبحانه حال من كذّب به، فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا تهديد ووعيد. إنّما خصّ الوعيد بمن جحدوا يوم القيامة، وكذب به؛ لأنّ التكذيب بذلك يتبعه خصال المعاصي كلها، وإن لم يذكر معه. والعامل في الظرف محذوف،

يدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ والتقدير: فإذا طمست النجوم، وفرجت السماء، ونسفت الجبال، وأُقّتت الرسل، وقعت القيامة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة والكسائي: «فَقَدَّرْنَا» ـ بالتشديد ـ. والباقون: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتخفيف. وفي الشواذّ قراءة الأعرج: ﴿نُتْبِعَهُمْ﴾ ـ بالجزم ـ.

الحجة: قد تقدّم أنّ قدر وقدَّر بمعنى، والتخفيف أليق بقوله: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾. ومن شدَّد أراد أن يجيء باللغتين، كما يقال: جادٌّ مُجِدٌّ[1]. وكقوله سبحانه ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾.

ومن جزم «نتبعْهم»، فإنّه يحتمل أمرين: أحدهما: إنّه أسكن العين استثقالاً لتوالي الحركات. والثاني: أن يكون عطفاً على «نهلك»، كما تقول: ألم أزرك ثمّ أُحسن إليك، فيكون معنى هذه القراءة، أنّه يريد قوماً أهلكهم الله سبحانه بعد قوم قبلهم، على اختلاف أوقات المرسلين إليهم نبيّاً بعد نبي.

وأمّا الرفع على القراءة المشهورة؛ فلإستئناف الكلام، أو على أن يجعل خبر

---

[١] فلان جاد مجد أي مجتهد يقال: جد الرجل في أمره إذا بلغ فيه جده، وأجد لغة. فجمع بينهما في الكلام هاهنا.

مبتدأ محذوف.

اللغة: القرار: المكان الذي يمكن طول المكث فيه. والقدر: المقدار المعلوم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان. والقدر: المصدر من قولهم: قَدَر يقدِر قَدْراً، أو قَدَراً أي: قدر، فمن شدّد جمع بين اللغتين، كما قال الأعشى:

وَأَنْكَرَتْني، وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرَتْ ... مِنَ الْحَوَادِثِ إِلاَّ الشَّيْبَ، وَالصَّلَعَا[١]

وكفت الشيء يكفته كفتاً وكفاتاً: إذا ضمّه. ومنه: الحديث: «اكفتوا صبيانكم» أي: ضمّوهم إلى أنفسكم، ومثله: «ضمّوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء». ويقال للوعاء: كفت وكفيت، وقال أبو عبيدة: كفاتاً أي: أوعية.

والرواسي: الثوابت. والشامخات: العاليات. ومنه: شمخ بأنفه: إذا رفعه كبراً. وماء فرات وزلال وعذب ونمير، كله من العذوبة والطيب. ومنه سمّي النهر العظيم المعروف بالفرات. قال الشاعر:

إِذَا غَابَ عَنّا، غَابَ عَنّا فُرَاتُنا ... وَإِنْ شَهْدَ أَجْدىٰ نَيْلُهُ وَفَوَاضِلُهُ(١)

قال ابن عباس: أُصول الأنهار العذبة أربعة: جيحان: ومنه: دجلة، وسيحان نهر بلخ، وفرات الكوفة، ونيل مصر(٢).

الإعراب: ﴿أَحْيَآءً﴾: منصوب بأنّه مفعول قوله: ﴿كِفَاتاً﴾ معناه: أن يكفت

---

(١) وإن شهد: يعني إن حضر، سكن عين الفعل للضرورة، نظير قول الشاعر: لو شهد عاد في زمان عاد. واجدى أي: اعطى الجدوى والفوائد. وضمير نيله وفواضله راجع إلى الفرات.

(٢) يعني: الأنهار المعروفة لديهم، لا في جميع الأرض، كما يقول رجل منها: الشعراء أربعة، فتسمّيهم تعني في لسانك. وقال المتنبيّ [سريت] إلى جيحان ما ارض آمد، وآمد الآن في بلاد التركية. ويدلّ على أنّ جيحان هناك أيضاً، وسيحان ـ بالالف ـ في بلادهم يصبّ في بحر الروم. والأولى أن يكون هو المراد في كلام ابن عباس، لا سيحون نهر بلخ فإنّه بعيد عن بلاد العرب.

[١] الصلع: انحسار شعر مقدم الرأس.

أحياء وأمواتاً، فعلى هذا يكون ﴿كِفَاتاً﴾ مصدراً. وإن جعلته جمع «كفت»، فيكون العامل في «أحياء» معناه، والتقدير: واعية أحياء، أو تعي أحياء.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه ما فعله بالمكذّبين الأوّلين، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: بالعذاب في الدنيا، يريد قوم نوح وعاد وثمود حين كذّبوا رسلهم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ قوم لوط وإبراهيم. لم يعطف «نتبعهم» على «نهلك» فيجزم، بل استأنف. وقال المبرّد: تقديره: ثمّ نحن نتبعهم لا يجوز غيره؛ لأنّ قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ ماض، وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ﴾ مستقبل، ويؤيّده قول الحسن: إنّ الآخرين هم الذين تقوم عليهم القيامة.

﴿كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما فعلنا بمن تقدّم، نفعل بالمكذّبين من أهل مكّة. وقد فعل بهم ذلك فقتلوا يوم بدر، وقد يكون الإهلاك بتصيير الشيء إلى حيث لا يدرى أين هو، إمّا بإعدامه، أو بإخفاء مكانه، وقد يكون بالإماتة. وقد يكون بالنقل إلى حال الجماديّة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم الجزاء ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنّهم يجازون بأليم العقاب ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي: حقير قليل الغناء، وفي خلق الإنسان على هذا الكمال من الحواسّ الصحيحة، والعقل الشريف، والتمييز والنطق، من ماء ضعيف، أعظم الإعتبار، وأبين الحجّة على أنّ له صانعاً مدبّراً حكيماً، والجاحد لذلك كالمكابر لبداهة العقول.

﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: فجعلنا ذلك الماء المهين ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني: الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: إلى مقدار من الوقت معلوم، يعني مدة الحمل ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: قدرنا خلقه كيف يكون قصيراً أو طويلاً، ذكراً أو أُنثى.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي: فنعم المقدرون نحن. ويجوز أن يكون المعنى إذا

خفّف من القدرة أي: قدرنا على جميع ذلك، فنعم القادرون على تدبير ذلك[١]، وعلى ما لا يقدر عليه أحد إلّا نحن، فحذف المخصوص بالمدح ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأنّا قد خلقنا الخلق، وأنّا نعيدهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً﴾ للعباد تكفتهم ﴿أَحْيَاءً﴾ على ظهرها في دورهم ومنازلهم. ﴿وَ﴾ تكفتهم ﴿أَمْوَاتاً﴾ في بطنها أي: تحوزهم وتضمّهم، ـ عن قتادة ومجاهد والشعبي ـ. قال بنان: خرجنا في جنازة [الجبانة] مع الشعبي، فنظر إلى الجنازة فقال: هذه كفات الأموات. ثمّ نظر الي البيوت فقال: هذه كفات الأحياء، وروي ذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام. وقيل: كفاتاً أي: وعاء. وهذا كفته أي: وعاءه. وقوله: أحياء وأمواتاً أي: منه ما ينبت، ومنه ما لا ينبت. فعلى هذا يكون ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ نصباً على الحال، وعلى القول الأوّل على المفعول به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ أي: جبالاً ثابتة عالية ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً﴾ أي: وجعلنا لكم سقياً من الماء العذب، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النعم، وأنّها من جهة الله. وقيل: بالأنبياء والقرآن، وإنّما كرّر؛ لأنّه عدَّد النعم، فذكره عند كل نعمة، فلا يعدّ ذلك تكراراً، وقد تقدّم الوجه في التكرار في سورة الرحمن.

---

(١) استدلّ بأربعة أمور في الجنين: الأوّل خلق الحي من الميّت. والثاني: جعله في الرحم، وهو مستقرّ صالح له قوّة ماسكة، ولو لم تكن فيه تلك القوّة لخرج المني بسهولة. والثالث: تقديره تسعة أشهر، وضرورة وضع الحمل عند احتياج الجنين إلى الطعام، ودفع البول بلا مهلة. الرابع: تقدير الجوارح على مقدار الحاجة.

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ(١) ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ رويس عن يعقوب: «انطلَقوا» الثانية بفتح اللام. والباقون: ـ من القرّاء ـ على كسر اللام فيهما. وقرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر ﴿جِمَلَتٌ﴾ ـ بغير ألف ـ. ويعقوب: (جُمالات) بالألف، وضمّ الجيم. وروي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغيرهما. وقرأ الباقون: «جِمالات» ـ بالألف وكسر الجيم ـ. وفي الشواذّ قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير بخلاف: «كالقَصَر» ـ بفتح القاف والصاد ـ.

الحجة: من قرأ: انطلَقوا الثانية بالفتح، فإنّه حمل الأوّل على الأمر، والثاني على الخبر. وجمالات: جمع جمال. وجُمِع بالألف والتاء على تصحيح البناء، كما جُمِع على تكسيره في قولهم: جمائل. قال ذو الرمة:

وَقَرَّبْنَ بِالزُّرْقِ الْجَمَائِلَ بَعْدَمَا تَقَوَّبَ عَنْ غِرْبَانِ أَوْرَاكِهَا الْخَطْرُ(٢)

---

(١) أثبت الياء في «كيدون» وصلا ووقفاً يعقوب فقط.

(٢) الزرق اكثبة واتلال. والجمائل: جمع جمال. وغربان: جمع غراب، وهو العظم الاني [الناتى] على رأس الفخذ طرفي الذنب. والخطر: هو أن يرفع الدابّة ذنبها، وتضرب فخذيها مرّة بعد مرّة. وتقوّب: أي تأثّر وركها من ضرب الذنب مرّة بعد مرّة وبقي الخدش فيه.

وأما «جمالة» فإنّ التاء لحقت جمالاً؛ لتأنيث الجمع، كما لحقت في فحل وفحالة، وذكر وذكارة، ومن قرأ: «جُمالات» ـ بالضمّ ـ فهي جمع جمالة، وهو القَلْس[١] من قلوس سفن البحر. ويقال من قلوس الجسر. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون جمع جمل، جمال وجمالات، كما قيل: رُخال جمع رخل.

ومن قرأ: «كالقَصَر» ـ بفتح الصاد ـ فهو جمع قصرة أي: كأنّها أعناق الإبل. وقيل: القَصَر: أُصول الشجر. واحدتها: قصرة. وكذا قرأها مجاهد، قال: وهي خرم الشجر. قال الحسن: قصرة وقصر مثل: جمرة وجَمَر، وهي أُصول الشجر. قال: والعامّة يجعلونها على القصور. قال ابن جنّي: وحدّثنا أبو عليّ أنّ القصر هنا بمعنى القصور. وقال: هي بيوت من أدم، كانوا [كان] يضربون بها إذا نزلوا على الماء.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما يُقال لهم، جزاء على تكذيبهم، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم الخزنة: إذهبوا، وسيروا إلى النار التي كنتم تجحدونها، وتكذّبون بها، ولا تعترفون بصحّتها في الدنيا. والإنطلاق: الإنتقال من مكان إلى مكان من غير مكث.

ثمّ ذكر الموضع الذي أمرهم بالإنطلاق إليه، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: نار لها ثلاث شعب، سمّاها ظلّاً؛ لسواد نار جهنّم. وقيل: هو دخان جهنّم، له ثلاث شعب تحيط بالكافر، شعبة تكون فوقه، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله. وسمّي الدخان ظلّاً، كما قال: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهَا﴾ أي: من الدخان الآخر بالإنفاث [الآخذ بالانفاس]، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: يخرج من النار لسان، فيحيط بالكافر كالسرادق، فيتشعّب ثلاث شعب، فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب.

---

[١] القلس ـ كفلس ـ: حبل للسفينة ضخم من ليف. وقيل: من خوص. وقيل من غيرهما.

ثمّ وصف سبحانه ذلك الظلّ فقال: ﴿ لاَ ظَلِيلٍ ﴾ أي: غير مانع من الأذى بستره عنه. ومثله: الكنين. فالظليل من الظلّة، وهي السترة. والكنين من الكّن. فظلل [فظلّ] هذا الدخان لا يغني الكفّار شيئاً من حرّ النار، وهو قوله: ﴿وَلاَ يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾. واللهب: ما يعلو على النار إذا اضطرمت من أحمر وأصفر وأخضر، يعني: إنّهم إذا استظلّوا بذلك الظلّ، لم يدفع عنهم حرّ اللهب.

ثمّ وصف سبحانه النار، فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ وهو ما يتطاير من النار في الجهات ﴿ كَٱلْقَصْرِ ﴾ أي: مثله في عظمه وتخويفه، تتطاير على الكافرين من كل جهة، نعوذ بالله منه. وهو واحد القصور من البنيان، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. والعرب تشبه الإبل بالقصور. قال الأخطل:

كَأَنَّهُ بُرْجُ رُومِيٍّ يُشَيِّدُهُ لَزَّ بِجَصٍّ، وآجُرٍّ، وَأَحْجارِ[1]

قال عنترة:

فَوَقَفْتُ فِيها نَاقَتي، وَكَأَنَّها فَدَنٌ لأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ[2]

والفدن: القصر. وقيل: كالقصر أي: كأُصول الشجر العظام، ـ عن قتادة والضحاك وسعيد بن جبير ـ.

ثمّ شبّهه في لونه بالجمالات الصفر، فقال: ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ أي: كأنّها أينق سود [د] لما يعتري سوادها من الصفرة، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. قال الفرّاء: لا ترى أسود من الإبل إلّا وهو مشرب صفرة، ولذلك سمت العرب سود الإبل صفراء. وقيل: هو من الصفرة؛ لأنّ النار تكون صفراء، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنار هذه صفتها.

﴿هٰذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ قيل في معناه قولان:

---

(١) اللزّ: الإلصاق.

(٢) التلوّم: الانتظار.

أحدهما: إنّهم لا ينطقون بنطق ينتفعون به، فكأنّهم لم ينطقوا. والثاني: إنّ في القيامة مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلّمون، وفي بعضها يختم على أفواههم ولا يتكلّمون. وعن قتادة قال: جاء رجل إلى عكرمة قال: أرأيت قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فقال: إنّها مواقف، فأمّا موقف منها فتكلّموا واختصموا، ثمّ ختم على أفواههم، وتكلّمت أيديهم وأرجلهم، فحينئذ لا ينطقون. وأجاز النحويّون: هذا يومَ لا ينطقون ـ بالنصب ـ على أنّه يشير إلى الجزاء، ولا يشير إلى اليوم. وقوله: ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ رفع؛ عطفاً على قوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ تقديره: فلا يعتذرون، ولو قيل: فلا يعتذروا ـ فنصب ـ لكان المعنى: إنّ الإذن سبب لعذرهم، ولكن المعنى لا يؤذن لهم في الإعتذار، فهم لا يعتذرون.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا الخبر ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين أهل الجنّة والنار، وقيل: هذا يوم الحكم والقضاء بين الخلق، والإنتصاف للمظلوم من الظالم، وفصل القضاء يكون في الآخرة على ظاهر الأمر وباطنه، بخلاف الدنيا؛ لأنّ القاضي يحكم على ظاهر الأمر في الدنيا، ولا يعرف البواطن.

﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: مكذّبي هذه الأُمّة مع مكذّبي الأُمم قبلها، يجمع الله سبحانه الخلائق في يوم واحد، وفي صعيد واحد ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ أي: إن كانت لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم. وقيل: إنّ هذا توبيخ من الله تعالى للكفّار، وتقريع لهم، وإظهار لعجزهم عن الدفع عن أنفسهم، فضلاً عن أن يكيدوا غيرهم، وإنّما هو على أنّكم كنتم تعملون في دار الدنيا ما يغضبني، فالآن عجزتم عن ذلك، وحصلتم على وبال ما عملتم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الشرك والفواحش ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ من أشجار الجنّة ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية بين أيديهم في غير أخدود؛ لأنّ ذلك أمتع لهم بما يرونه من حسن مياهها وصفائها. وقيل: عيون أي: ينابيع بما يجري خلال الأشجار.

﴿وَفَوَاكِهَ﴾ جمع فاكهة، وهي ثمار الأشجار ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: من جنس ما يشتهونه. والشهوة: معنى في القلب إذا صادف المشتهى كان لذّة. وضدّها النفار.

ثمّ يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ صورته صورة الأمر، والمراد الإباحة. وقيل: إنّه أمر على الحقيقة، وهو سبحانه يريد منهم الأكل والشرب في الجنّة، فإنّهم إذا عملوا [علموا] ذلك ازداد سرورهم، فلا يكون إرادته [إعادته] لذلك عبثاً ﴿هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في دار الدنيا أي: خالصاً من التكدير. والهنيء: النفع الخالص من شائب الأذى. وقيل: هو الأذى الذي لا أذى يتبعه.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا ابتداء الإخبار من الله تعالى. ويقال لهم ذلك أيضاً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا الوعد.

ثمّ عاد الكلام إلى ذكر المكذّبين، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا﴾ أي: يقال لهم: كلوا

﴿وَتَمَتَّعُوا﴾ في الدنيا ﴿قَلِيلاً﴾ أي: تمتّعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، فإنّ الموت كائن لا محالة ﴿إِنَّكُم مُجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون مستحقّون للعقاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا الوعيد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا﴾ أي: صلّوا ﴿لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي: لا يصلّون. قال مقاتل: نزلت في ثقيف، حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا ننحني ـ والرواية لا نحني ـ فإنّ ذلك سبّة علينا. فقال ﷺ «لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود». وقيل: إنّ المراد بذلك يوم القيامة، حين يدعون إلى السجود، فلا يستطيعون، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بوجوب الصلاة والعبادات.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فبأيّ كتاب بعد القرآن يصدقون، ولم يصدقوا به مع إعجازه، وحسن نظمه، فإنّ من لم يؤمن به ـ مع ما فيه من الحجّة الظاهرة، والآية الباهرة ـ لا يؤمن بغيره.

سورة النبأ

وتسمّى سورة النبأ، وسورة المعصرات، ومنهم من يقول سورة التساؤل، وهي مكّيّة.

عَدَدُ آيِهَا: إحدى وأربعون آية [مكيّ] وبصري، وأربعون في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آية واحدة «عذاباً قريباً» مكّيّ بصري.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة «عمَّ يتساءلون» سقاه الله برد الشراب يوم القيامة» وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: من قرأ عمَّ يتساءلون، لم يخرج سنته إذا كان يدمنها في كل يوم، حتى يزور البيت الحرام.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر القيامة، ووعيد المكذّبين بها، افتتح هذه السورة بذكرها، وذكر دلائل القدرة على البعث والإعادة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ(١) الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة عكرمة، وعيسى بن عمر: «عمّا يتساءلون». وقرأ ابن الزبير [الزبين]، وابن عباس، وقتادة: «وأنزلنا بالمعصرات».

الحجة: قال ابن جنّي: إثبات الألف في ﴿مَا﴾ الإستفهامية إذا دخل عليها حرف جرّ أضعف اللغتين، وروينا عن قطرب لحسان:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتِمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رِمَادٍ[1]

وقال في قوله: «بالمعصرات» إذا أُنزل منها، فقد أُنزل بها، كقولهم: أعطيته

---

(١) يوقف لحمزة على «النباء» بإبدال الهمزة ألفاً، وبالتسهيل كالياء على الروم.

[١] تمرغ في التراب: تقلب.

من يدي شيئاً و بيدي شيئاً. والمعنى واحد. ومعنى «مِن» هنا ابتداءُ الغاية أي: كان مبتدأ العطية من يده.

اللغة: النبأ: الخبر العظيم الشأن. ومنه: النبيء ـ على مذهب من يهمز ـ. والمهاد: الوطاء. ومهد الشيء تمهيداً أي: وطأه توطية. والوتد: المسمار، إلّا أنّه أغلظ منه. والسبات: قطع العمل للراحة. ومنه: سبت أنفه: إذا قطعه. ومنه: يوم السبت أي: يوم قطع العمل على ما جرت به العادة في شرع موسى عليه السلام. والوهاج: الوقاد، وهو المشتعل بالنور العظيم.

والمعصرات: السحائب تعتصر بالمطر، كأنّ السحاب يحمل الماء ثمّ تعصره الرياح، وترسله كإرسال الماء بعصر الثوب. وعُصِرَ القوم: مطروا. والثجاج: الدفاع في انصبابه كثجّ دماء البدن. يُقال: ثججت دمه أثجُّه ثجّاً، وقد ثجّ الدم يثجّ ثجوجاً. وفي الحديث: «أفضل الحجّ العجّ فالثجّ» فالعجّ: رفع الصوت بالتلبية، والثجّ: إسالة دم الهدي. والألفاف: الأخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض. واحدها: لفّ ولفيف. وقيل: شجرة لفّاء، وأشجار لُفّ ـ بضمّ اللام ـ، وجنّات ألفاف.

الإعراب: ﴿عَمَّ﴾: أصله «عن ما» جعل النون ميماً، وأُدغم في الميم، وحذفت الألف؛ لإتّصال «ما» بحرف الجرّ، حتى صارت كالجزء منه؛ وليحصل الفرق بين الإستفهام والخبر. وهذه الحروف التي تسقط معها هذه الألف ثمانية: «عَنْ» تقول: عمَّ، و«مِنْ» تقول: مِمَّ، و (الباء) نحو: «بِمَ»، واللام نحو: «لِمَ» وفي نحو: فِيمَ و«إلى» نحو: «إلى مَ» و«على» نحو: «علىٰ مَ»، و«حتىٰ» نحو: «حتّىٰ مَ».

قال البصير جامع العلوم النحويّ: عن النبأ العظيم لا يكون بدلاً من «عمَّ»؛ لأنّه لو كان بدلاً لوجب تكرار «ما»؛ لأنّ الجارّ المتّصل بحرف الإستفهام إذا أُعيد، أُعيد مع الحرف المستفهم به، كقولك: بكم ثوبك؟ أبعشرين أم بثلاثين؟ ولا يجوز بعشرين ـ من غير همزة ـ، فإذا كان كذلك كان قوله: ﴿عَنِ النَّبَإِ﴾ متعلّقاً بفعل

آخر دون هذا الظاهر.

المعنى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قالوا: لمّا بعث رسول الله ﷺ، وأخبرهم بتوحيد الله تعالى، وبالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم أي: يسأل بعضهم بعضاً على طريق الإنكار والتعجّب، فيقولون: ماذا جاء به محمّد، وما الذي أتى به. فأنزل الله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: عن أيّ شيء يتساءلون. قال الزجّاج: اللفظ لفظ الإستفهام، والمراد تفخيم القصّة، كما تقول: أيّ شيء زيد إذا عظمت شأنه.

ثمّ ذكر أنّ تساؤلهم عن ماذا؟ فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو القرآن، ومعناه: الخبر العظيم الشأن؛ لأنّه ينبىء عن التوحيد، وتصديق الرسول ﷺ، والخبر عمّا يجوز، وعمّا لا يجوز، وعن البعث والنشور[1]. وقيل: يعني نبأ يوم القيامة، ـ عن الضحّاك، وقتادة ـ. ويؤيّده قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾. وقيل: النبأ العظيم: ما كانوا يختلفون فيه من إثبات الصانع وصفاته، والملائكة والرسل، والبعث، والجنّة والنار، والرسالة والخلافة، فإنّ النبأ معروف يتناول الكل.

﴿ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمصدّق به ومكذّب ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكذيبهم حين تنكشف الأُمور.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد على أثر وعيد. وقيل: كلاّ أي: حقّاً سيعلمون أي: سيعلم الكفّار عاقبة تكذيبهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم، ـ عن

---

[1] روى الحاكم في شواهده ٢: ٤١٧ عن فرات بسنده عن أبي حمزة الثمالي قال: سألت أبا جعفر عن قول الله تعالى: ﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ فقال: كان علي يقول لأصحابه: أنا والله النبأ العظيم الذي اختلف في جميع الأمم بألسنتها، والله ما لله نبأ أعظم منّي ولا الله آية أعظم منّي؛ ورواه فرات في تفسيره: ٥٣٣.

الضحاك ـ. وقيل: كلّا سيعلمون ما ينالهم يوم القيامة، ثمّ كلّا سيعلمون ما ينالهم في جهنم من العذاب، فعلى هذا لا يكون تكراراً.

ثمّ نبّههم سبحانه على وجه الإستدلال على صحّة ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً﴾ أي: وطاء وقراراً مهيئاً للتصرّف فيه من غير أذيّة. وقيل: مهاداً أي: بساطاً، ـ عن قتادة ـ. ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾ للأرض لئلّا تميد بأهلها[1].

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أي: أشكالاً كل واحد شكل للآخر. وقيل: معناه: ذكراناً وإناثاً حتى يصحّ منكم التناسل، ويتمتّع بعضكم ببعض. وقيل: أصنافاً أسود وأبيض، وصغيراً وكبيراً، إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾ اختلف في معناه على وجوه: أحدها: إنّ معناه وجعلنا نومكم راحة ودعة لأجسادكم. وثانيها: إنّ المعنى: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم وتصرّفكم، ـ عن ابن الأنباري ـ. وثالثها: جعلنا نومكم سباتاً ليس بموت على الحقيقة، ولا مخرجاً عن الحياة والإدراك.

﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً﴾ أي: غطاء وسترة يستر كل شيء بظلمته وسواده ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾ المعاش: العيش أي: جعلناه مطلب معاش أي: مبتغى معاش. وقيل: معناه: وجعلنا النهار وقت معاشكم لتتصرّفوا في معاشكم، أو موضع معاشكم، تبتغون فيه من فضل ربّكم.

---

(١) إطلاق كلمة الأرض على الكرة الأرضية اصطلاح علماء الهيئة، وليس معناها في اللغة إلّا البسيط الممدود تحت أقدام المخلوقين المسمّى بالبر، وهو قشر جامد على مائع مذاب، ولابدّ أن يكون في معرض الميدان والاضطراب، ولولا أنّ الجبال اثقلته واشتبكت أصولها، وهي من الأحجار الصلبة، لكانت الزلازل دائمة، والخسف والشقّ، وهلاك آلاف من النفوس في كلّ يوم متواترة، ولكن الحكمة اقتضت تصلّب القشر الأرضي بالأحجار؛ لئلّا تميد بأهلها.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً﴾ أي: سبع سماوات ﴿شِدَاداً﴾ محكمة أحكمنا صنعها، وأوثقنا بناءها. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ يعني: الشمس جعلها سبحانه سراجاً للعالم، وقاداً متلألأ بالنور، يستضيئون به. فالنعمة عامة به لجميع الخلق. قال مقاتل: جعل فيه نوراً وحرّاً. والوهج يجمع النور والحرّ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: الرياح ذوات الأعاصير، ـ عن مجاهد وقتادة والكلبي ـ. وقال الأزهري: و«مِن» معناه الباء، فكأنّه قال: بالمعصرات، وذلك أنّ الريح تستدرّ المطر. وقيل: المعصرات السحائب، تتحلّب بالمطر، ـ عن الربيع، وأبي العالية، وهو رواية الوالبي، عن ابن عباس ـ. ﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾ أي: صبّاباً دفّاعاً في انصبابه. وقيل: مدراراً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ـ عن قتادة.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي: بالماء[1] ﴿حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ فالحبّ: كل ما تضمّنه كمام الزرع الذي يحصد. والنبات: الكلأ من الحشيش والزرع ونحوهما. فجمع سبحانه بين جميع ما يخرج من الأرض. وقيل: حبّاً يأكله الناس، ونباتاً تنبته الأرض ممّا يأكله الأنعام.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ أي: بساتين ملتّفة بالشجر، والتقدير: ونخرج به شجر جنّات ألفافاً، فحذف لدلالة الكلام عليه، وإنّما سمّي جنّة؛ لأنّ الشجر تجنُّها أي: تسترها.

---

(١) هذا يدلّ على بطلان قول من زعم أنّ الأسباب الطبيعية لا تأثير لها، كما هو مذهب الأشاعرة، فإنّهم ينكرون العلّيّة أصلا. والحقّ أنّ تلك الأسباب معدّات تهيّىء الموا[ر]د لقبول الصور من الله تعالى، فلها تأثير في الجملة، لكنّها مسخّرة بأمر الله، ولذلك نسب الإخراج إلى نفسه، ثمّ ذكر الماء بالباء السببيّة.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ
ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا(١) ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير الأعشى و البرجمي: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالتخفيف ـ. و الباقون: بالتشديد. وقرأ حمزة: لبثين ـ بغير الألف ـ. و الباقون: ﴿لَابِثِيْنَ﴾ بالألف ـ. والخلاف في «غساق» مذكور في صّ. ورووا عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَتِنَا كِذَّاباً﴾ خفيفة. والقراءة المشهورة: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ بالتثقيل. وحكى أبو حاتم في الشواذّ، عن عبد الله بن عمر «كُذّاباً ـ بضمّ الكاف، و تشديد الذال ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: فُتّحت ـ بالتشديد ـ أوفق؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَٰبُ﴾. و مِن حجة التخفيف قوله: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

وحجّة من قرأ: ﴿لَابِثِيْنَ﴾ ـ بالألف ـ: مجيء المصدر على اللبث، فهو من باب شرب يشرب، ولقم يلقم. وليس من باب فرق يفرق؛ إذ لو كان منه لكان المصدر مفتوح العين. فلمّا أسكن وجب أن يكون اسم الفاعل على فاعل كشارب

---

(١) أدغم «فكانت سراباً» أبو عمرو وحمزة والكسائي، وهشام بخلفه.

ولاقم، كما كان اللبث كاللقم.

ومن قرأ: «لبثين»: جعل اسم الفاعل فَعِلاً، وقد جاء غير حرف من هذا النحو على فاعل وفَعِل، والكذّاب: مصدر كذب، كما أنّ «الكلام» مصدر كلم. وكذا القياس فيما زاد على الثلاثة، أن تأتي بلفظ الفعل، و تزيد في آخره الألف، كقوله: أكرمته إكراماً. وأمّا التكذيب، فزعم سيبويه أنّ التاء عوض من التضعيف، و الياء التي قبل الآخر كالألف. فأمّا «الكذّاب» فمصدر كذب. قال الأعشى:

فَصَدَقْتُهُ، وَكَذَبْتُه وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذابُهُ

فهو مثل: «كتاب» في مصدر كتب. وأمّا الكُذّاب ـ بضمّ الكاف ـ، فقد قال أبو حاتم: لا وجه له إلاّ أن يكون «كذّاب» جمع كذاب [كاذب]، فينصبه على الحال أي: وكذبوا بآياتنا في حال كذبهم. قال طرفة:

إذا جاءَ مَالاَ بُدَّ مِنْهُ فَمَرْحَباً بِهِ، حِينَ يَأْتِي، لاَ كِذَابٌ، وَلاَ عِلَلُ[1]

اللغة: الميقات: منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الأُمور، وهو من الوقت، كما أنّ الميعاد من الوعد، و المقدار من القدر.

والمرصاد: هو المعدّ لأمر على ارتقاب الوقوع فيه. قال الأزهري: المرصاد: المكان الذي يرصد فيه العدوّ. والأحقاب: جمع، واحدها: حقب، من قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: دهراً طويلاً. وقيل: واحده: حقَب ـ بفتح القاف ـ، وواحد الحقب: حقبة. قال:

وَكُنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ، حَتَّىٰ قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعَا[2]

---

(١) يقال: إنّ طرفة عاش ستّة وعشرين سنة، وقتل بأمر عمرو بن هند ـ ملك الحيرة ـ؛ لمنافرة وذلك أنّه نظر إلى أخت عمرو في مجلسه، فغضب عمرو عليه، وهجاه طرفة وقتل. قيل: بقطع اكحله، فنزعف [فنزف] منه الدم حتى مات.

(٢) في منتهى الإرب: إنّ «ندماني جذيمة» كناية عن الفريدين [الفرقدين]، وجذيمة: ملك الحيرة، ونديماه: مالك وعقيل، نادماه أربعين سنة، لم يتفرّقا كالفرقدين ويضرب بهما المثل في عدم التفرّق.

﴿الإعراب﴾: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ منصوب؛ لأنّه بدل من ﴿يَوْمَ الفَصْلِ﴾. و﴿أَفْوَاجاً﴾: نصب على الحال. ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾ : جملة يجوز أن يكون حالاً من «لا بثين»، والتقدير: يلبثون غير ذائقين. و يجوز أن يكون صفة لقوله: ﴿أَحْقَاباً﴾، التقدير: أحقاباً غير مذوق فيها.

و ﴿جَزَاءً﴾: مصدر وضع موضع الحال. و﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: منصوب بفعل مضمر، يفسّره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾.

و ﴿كِتَاباً﴾ : منصوب على المصدر؛ لأنّ كتب في معنى أحصى، ويجوز أن يكون في موضع الحال أي: نكتبه، والتقدير: أحصيناه كاتبين.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه الإعادة والبعث، تنبيهاً على أنّه دلّ بذكر الآيات فيما تقدَّم على صحّة البعث، فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم القضاء الذي يفصل الله فيه الحكم بين الخلائق ﴿كَانَ مِيقَاتاً﴾ لما وعدالله من الجزاء والحساب، والثواب والعقاب.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قد مرَّ معناه ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ أي: جماعة جماعة، إلى أن تتكاملوا في القيامة. وقيل: زمراً زمراً من كل مكان للحساب، وكل فريق يأتي مع شكله. وقيل: إنّ كل أُمّة تأتي مع نبيّها، فلذلك جاؤوا أفواجاً أفواجاً.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ﴾ أي: شقَّت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ أي: ذات أبواب. وقيل: صار فيها طرق، ولم تكن كذلك من قبل.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: أُزيلت عن أماكنها، وذهب بها. ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ أي: كالسراب يظنّ أنّها جبال، وليست إيّاها. وفي الحديث عن البراء بن عازب قال: كان معاذ بن جبل جالساً قريباً من رسول الله ﷺ في منزل أبي أيّوب الأنصاري، فقال معاذ: يا رسول الله! أرأيت قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ الآيات. فقال: «يا معاذ! سألتَ عن عظيم من الأمر، ثمّ أرسل عينيه، ثمّ قال: يُحشر عشرة أصناف من أُمّتي أشتاتاً، قد ميَّزهم الله من المسلمين، وبدلّ صورهم بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثمّ يسحبون عليها، وبعضهم عمى يتردّدون، وبعضهم صمّ بُكم لا يعقلون، و بعضهم يمضغون ألسنتهم، فيسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدُّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران، لازقة بجلودهم. فأمّا الذين على صورة القردة: فالقتات[1] من الناس. وأمّا الذين على صورة الخنازير: فأهل السحت. وأمّا المنكوسون على رؤوسهم: فآكلة الربا. والعمي: الجائرون في الحكم. والصُمّ والبُكم: المعجبون بأعمالهم. والذين يمضغون بألسنتهم: فالعلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم. والمقطّعة أيديهم وأرجلهم: الذين يؤذون الجيران. والمصلبون على جذوع من نار: فالسعاة بالناس إلى السلطان. والذين هم أشدّ نتناً من الجيف: فالذين يتمتّعون بالشهوات واللذّات، ويمنعون حقّ الله في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[2].

---

(١) النمّامون.

(٢) وهذا يدلّ على تجسّم الملكات في الآخرة، وكما أنّ في الدنيا لا يرى ما عليه الإنسان من الفضائل والسعادات، التي حلت [حصلت] لنفسه بأعماله الحسنة، كذلك لا يرى في الآخرة ماكان عليه في الدنيا، من الجمال، وصحّة البدن، وكمال الجسم، بل النفس هناك ظاهرة بصفاتها، بعد أن كانت في الدنيا مغمورة، والبدن هناك مغمور، بعد أن كان ظاهر الحكم والبدن ظلّ النفس هناك معلول لها، لا يمنع النفس عمّا تريده كما في الدنيا، وتعلّقها به نوع آخر من التعلّق لاكتعلّقها به في الدنيا بواسطة الروح البخاري، وحركة القلب، وجريان الدم، وغير ذلك.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ يرصدون به أي: هي معدّة لهم، يرصد بها خزنتها الكفّار، ـ عن المبرد ـ. وقيل: مرصداً محبساً يحبس فيه الناس، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: طريقاً منصوباً على العاصين، فهو موردهم ومنهلهم، وهذا إشارة إلى أنّ جهنّم للعصاة على الرصد لا يفوتونها.

﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾ أي: للذين جاوزوا حدود الله، وطغوا في معصية الله مرجعاً يرجعون إليه، ومصيراً. فكأنّ المجرم قد كان بإجرامه فيها، ثمّ رجع إليها.

﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ أي: ماكثين فيها أزماناً كثيرة، وذكر فيها أقوال:

أحدها: إنّ المعنى: أحقاباً لا انقطاع لها، كلما مضى حقب، جاء بعده حقب آخر. والحقب: ثمانون سنة من سني الآخرة، ـ عن قتادة والربيع ـ.

وثانيها: إنّ الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبعمائة سنة، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وكل يوم ألف سنة، ـ عن مجاهد ـ.

وثالثها: إنّ الله تعالىٰ لم يذكر شيئاً إلاَّ وجعل له مدّة ينقطع إليها، ولم يجعل لأهل النار مدّة، بل قال: ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ فوالله ما هو إلاَّ أنّه إذا مضى حقب، دخل آخر، ثمّ آخر، كذلك إلى أبد الآبدين، فليس للأحقاب عدة إلاَّ الخلود في النار، ولكن قد ذكروا أنّ الحقب الواحد سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك السنين ألف سنة ممّا نعدّه، ـ عن الحسن ـ.

ورابعها: إنّ مجاز الآية ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ لا يذوقون في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً، إلاَّ حميماً وغسّاقاً. ثمّ يلبثون فيها، لا يذوقون غير الحميم والغسّاق من أنواع العذاب. فهذا توقيت لأنواع العذاب، لا لمكثهم في النار، وهذا أحسن الأقوال.

وخامسها: إنّه يعني به أهل التوحيد، ـ عن خالد بن معدان ـ. وروي نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج من النار من دخلها، حتى يمكث فيها أحقاباً. والحقب: بضع وستّون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، كل يوم كألف سنة ممّا تعدّون، فلا يتكلن أحد أن يخرج من النار». وروي العياشي بإسناده عن حمران قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية، فقال: هذه في الذين يخرجون من النار. وروي عن الأحول مثله.

وقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾ يريد النوم والماء، ـ عن ابن عباس ـ. قال أبو عبيدة: البرد: النوم هنا. وأنشد: «فَصَدَّني [فَيَصُدُّني] عَنْهَا وَعَنْ قُبُلاتِهَا الْبَرْدُ» أي: النوم. وقيل: لا يذوقون في جهنّم برداً ينفعهم من حرّها، ولا شراباً ينفعهم من عطشها، ـ عن مقاتل ـ.

﴿إِلَّا حَمِيماً﴾ وهو الماء الحارّ، الشديد الحرّ ﴿وَغَسَّاقاً﴾ وهو صديد أهل النار ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾ أي: وافق عذاب النار الشرك؛ لأنّهما عظيمان، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: جوزوا جزاء وفق أعمالهم، ـ عن الزجّاج، وهو المرويّ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ. والوفاق: الجاري على المقدار، فالجزاء وفاق؛ لأنّه جار على مقدار الأعمال في الإستحقاق.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ أي: فعلنا ذلك بهؤلاء الكفّار؛ لأنّهم كانوا لا يخافون أن يحاسبوا، والمعنى: كانوا لا يؤمنون بالبعث، ولا بأنّهم محاسبون، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: لا يرجون المجازاة على الأعمال، ولا يظنّون أنّ لهم حساباً، ـ عن أبي مسلم ـ. وقال الهذلي في الرجاء بمعنى الخوف:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ، لَمْ يَرْجُ لَسْعَها وَخالَفَها فِي بَيْتِ نُوبٍ عَوَاسِلِ(١)[١]

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بما جاءت به الأنبياء. وقيل: بالقرآن. وقيل: بحجج الله، ولم يصدّقوا بها ﴿كِذَّاباً﴾ أي: تكذيباً ﴿وَكُلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ أي: وكلّ شيء من الأعمال بيّنّاه في اللوح المحفوظ، ومثله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينَ﴾. وقيل: معناه: وكل شيء من أعمالهم حفظناه لنجازيهم به. [ثمّ] بيّن أنّ ذلك الإحصاء والحفظ، وقع بالكتابة؛ لأنّ الكتابة أبلغ في حفظ الشيء من الإحصاء. ويجوز أن يكون ﴿كِتَاباً﴾ حالاً مؤكّدة أي: أحصيناه في حال كونه مكتوباً عليهم، والكتاب بمعنى المكتوب.

﴿فَذُوقُوا﴾ أي: فقيل لهؤلاء الكفّار: ذوقوا ما أنتم فيه من العذاب. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ لأنّ كل عذاب يأتي بعد الوقت الأوّل، فهو زائد عليه.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ الكسائي: ﴿وَلا كِذاباً﴾ ـ بتخفيف الذال ـ. والباقون:

---

(١) سبق البيت قريباً.

[١] النُّوب: النَّحل، وذلك لأنّها ترعى وتنوب إلى مكانها، وقيل: لأنّها تضرب إلى السواد.

بالتشديد. وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو: ﴿رَبِّ السَّمَوٰتِ﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون: ـ بالجرّ ـ. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب وسهل: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ ـ بالجرّ ـ. والباقون: ـ بالرفع ـ.

الحجة: ﴿وَلا كِذَاباً﴾: يجوز أن يكون مصدر كذب، فيكون معناه: ولا كذباً. ويجوز أن يكون مصدر كاذبه مكاذبة وكذاباً. وبالتشديد قد يكون مصدر كذب. قال الفرّاء: قال أعرابي في طريق مكّة: يابا زكريّا! القِصّار أحبّ إليك أم الحلق؟ يريد أُقصر شعري أم أحلق.

ومن قرأ: ﴿رَّبُّ السَّمَوٰتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ قطع الإسم الأول من الجرّ الذي قبله في قوله: ﴿جَزَآءً مِّنْ رَبِّكَ﴾ فابتدأه، وجعل ﴿الرَّحْمٰنُ﴾ خبره، ثمّ استأنف ﴿لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾.

ومن قرأ: ﴿رَّبِّ السَّمَوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ أتبع الأسمين الجرّ الذي قبلهما في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

ومن قرأ: ﴿رَّبِّ السَّمَوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ أتبع «ربّ السماوات» الجرّ الذي في قوله: من ربك، واستأنف بقوله: الرّحمٰن، وجعل قوله: «لا يملكون» خبر قوله: الرحمٰن.

اللغة: الحديقة: الجنّة المحوطة. والجمع: حدائق. ومنه: أحدق القوم بفلان: إذا طافوا به. ومنه: الحدقة؛ لأنّه يحيط بها جفنها. والأعناب، جمع عنب، وهو ثمر الكرم قبل أن يجفّ، فإذا جفّ فهو الزبيب، والكواعب: جمع الكاعب، وهي الجارية التي نهد ثدياها. والأتراب: جمع الترب. وهي اللدة التي تنشأ مع لدتها على سنّ الصبي الذي يلعب بالتراب.

والدهاق: الكأس الممتلئة التي لا مزيد فيها. وأصل الدهق: شدّة الضغط. أدهقت الكأس: ملأتها. قال: «يلذُّه بكأْسِهِ الدِّهاقِ». وعطاء حساباً أي: كثيراً كافياً. يُقال: أحسبت فلاناً أي: أعطيته ما يكفيه حتى قال: حسبي. قال:

وَنُقْفي وَلِيدَ الْحَيِّ إنْ كَانَ جَائعاً وَنُحْسِبُهُ إنْ كانَ لَيْسَ بِجَائِعِ[١]

قال الأصمعي: يُقال: حسَّبت الرجل ـ بالتشديد ـ أي: أكرمته. وأنشد:

إذَا أَتَـاهُ ضَـيْفُهُ يُـحَسِّبُهُ مِنْ حاقِنٍ، أوْ مِنْ صَرِيحٍ يَحْلِبُهُ[٢]

﴿الإعراب﴾: ﴿حَدَائِقَ﴾: بدل من قوله: ﴿مَفَازاً﴾ بدل البعض من الكل، وكذلك ما بعده. و ﴿أَتْرَاباً﴾: صفة لكواعب. ﴿جَزَاءً﴾: منصوب بمعنى أنّ للمتّقين مفازاً أي: جازاهم بذلك جزاء، وأعطاهم عطاء، فإنّ معنى جازاهم وأعطاهم واحد. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾: ظرف لقوله: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ﴾. وقوله: ﴿صَفّاً﴾ منصوب على الحال. و ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ﴾: ظرف لقوله: ﴿عَذَاباً﴾؛ لأنّه بمعنى التعذيب.

﴿المعنى﴾: ثمّ عقّب سبحانه وعيد الكفّار بالوعد للمتّقين الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتّقون الله باجتناب الشرك والمعاصي ﴿مَفَازاً﴾ أي: فوزاً ونجاة إلى حال السلامة والسرور. وقيل: المفاز: موضع الفوز، وقالوا للمهلكة: مفازة على طريق التفاؤل، كأنّهم قالوا منجاة وقيل: مفازاً: منجى إلى متنزّه، وهو النجاة من النار إلى الجنّة.

ثمَّ بيّن ذلك الفوز، فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾ يعني: أشجار الجنّة وثمارها ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ أي: جواري تكعب ثديهنّ مستويات في السنّ، ـ عن قتادة ـ، ومعناه: استواء الخلقة والقامة والصورة والسنّ، حتى يكنَّ متشاكلات، وقيل أتراباً على مقدار أزواجهنّ في الحسن، والصورة، والسنّ، ـ عن أبي عليّ الجبائي ـ. ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ أي: مترعة مملوءة، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ـ. وقيل: متتابعة على شاربيها، أُخذ من متابعة الشدّ في الدهق، ـ عن مجاهد وسعيد بن جبير ـ. وقيل: دمادم، ـ عن أبي هريرة ـ. وقيل: على قدر

---

(١) القفى: ما يؤثر به الصبي والضيف. والوليد: الصبي.

(٢) حقنت اللبن: جمعته في السقاء.

ربّهم، ـ عن مقاتل ـ.

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿لَغْواً﴾ أي: كلاماً لغواً لا فائدة فيه ﴿وَلاَ كِذَّاباً﴾ ولا تكذيب بعضهم لبعض. ومن قرأ بالتخفيف، يريد ولا مكاذبة، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: كذباً، ـ عن أبي عليّ الفارسي ـ.

﴿جَزَاءً مِن رَبِّكَ﴾ أي: فَعَلَ بالمتّقين ما فعل بهم، جزاء من ربّك على تصديقهم بالله ونبيّه ﷺ. ﴿عَطَاءً﴾ أي: أعطاهم الله عطاء ﴿حِسَاباً﴾ أي: كافياً، ـ عن أبي عبيدة والجبائي ـ. وقيل: حساباً أي: كثيراً. وقيل: حساباً على قدر الإستحقاق، وبحسب العمل. قال الزجّاج: معناه ما يكفيهم أي: إنّ فيه ما يشتهون.

﴿رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمٰنِ﴾ مرّ ذكره، والمعنى: إنّ الذي يفعل بالمؤمنين ما تقدَّم ذكره، هو ربّ السماوات والأرض، ومدبّرهما، ومدبّر ما بينهما، والمتصرّف فيهما على ما يشاء الرّحمٰن المنعم على خلقه، مؤمنهم وكافرهم. ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ أي: لا يملكون أنْ يسألوه إلاَّ فيما أذن لهم فيه، كقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وقوله: ﴿لا تُكَلِّمُ نَفْساً إِلى بِإِذْنِهْ﴾. والخطاب: توجيه الكلام إلى مدرك له بصيغة منبئة عن المراد على طريقة أنت وربّك. قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلّموا الربّ إلاَّ بإذنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلاَئِكَةُ صَفّاً﴾ أي: في ذلك اليوم. اختلف في معنى الروح هنا على أقوال:

أحدها: إنّ الروح خلق من خلق الله تعالىٰ على صورة بني آدم، [وليسوا بناس]، وليسوا بملائكة يقومون صفاً، والملائكة صفّاً هؤلاء جند، وهؤلاء جند، ـ عن مجاهد وقتادة وأبي صالح ـ. قال الشعبي: هما سماطا ربّ العالمين يوم القيامة: سماط من الروح، وسماط من الملائكة.

وثانيها: إنَّ الروح ملك من الملائكة، ما خلق الله مخلوقاً أعظم منه، فإذا كان يوم القيامة، قام هو وحده صفّاً، وقامت الملائكة كلّهم صفّاً واحداً، فيكون عظم خلقه مثل صفّهم، ـ عن ابن مسعود، وعن عطاء، عن ابن عباس ـ.

وثالثها: إنّ أرواح الناس تقوم مع الملائكة فيما بين النفختين، قبل أنْ ترد الأرواح إلى الأجساد، ـ عن عطية، عن ابن عباس ـ.

رابعها: إنّه جبريل عليه السلام، ـ عن الضحّاك ـ. وقال وهب: إنَّ جبرائيل عليه السلام واقف بين يدي الله، عزّ وجلّ، ترتعد فرائصه، يخلق الله عزّ وجلّ، من كل رعدة مائة ألف ملك، فالملائكة صفوف بين يدي الله تعالى، منكسو رؤوسهم، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلّا أنت. وقال صواباً أي: لا إله إلّا الله. وروي عليّ بن إبراهيم، بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل.

وخامسها: إنَّ الروح بنو آدم، ـ عن الحسن ـ وقوله: صفّاً معناه: مصطفّين.

﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ﴾ وهم المؤمنون والملائكة ﴿وَقَالَ﴾ في الدنيا ﴿صَوَاباً﴾ أي: شهد بالتوحيد. وقال: لا إله إلّا الله. وقيل: إنّ الكلام هيهنا الشفاعة أي: لا يشفعون إلّا لمن أذن له الرحمٰن أن يشفع، ـ عن الحسن، والكلبي ـ. وروي معاوية بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل عن هذه الآية فقال: نحن والله المأذون [المأذونون] لهم يوم القيامة، والقائلون صوابا. قال: جعلت فداك ما تقولون؟ قال: نمجّد ربّنا، ونصلّي على نبيّنا صلى الله عليه وآله، ونشفع لشيعتنا، فلا يردّنا ربّنا. رواه العياشي مرفوعاً.

﴿ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شكّ في كونه و حصوله، يعني: القيامة ﴿فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً﴾ أي: مرجعاً للطاعة، والمعنى: فمن شاء عمل عملاً صالحاً يؤوب [يؤوبه] إلى ربّه، فقد أُزيحت العلل، وأُوضحت السبل، وبلغت الرسل. والمآب: مفعل من الأوب، وهو الرجوع. قال عبيد[1]:

---

(١) عبيد بن الأبرص: من شعراء الجاهليّة، معاصر لإمرى القيس، أو أقدم منه بقليل، قتله المنذر بن ماء السماء في الغريين، إذ أتاه في يوم بؤسه، والقصّة في ذلك تطول. ومن محاسن شعره من هذه القصيدة: من يسال الناس يحرّمونه وسئل الله لا يخيّب، بالله يدرك كلّ خير، والقول في بعضه تلغيب، والله ليس له شريك، علام ما اخفت القلوب. ووزن الشعر مستفعلن فاعلن مفعولن من البسيط المجزو.

وَكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وَ غائِبُ الْمَوْتِ لا يَؤُوبُ

ثمّ خوّف سبحانه كفّار مكّة، فقال: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يعني: العذاب في الآخرة، فإنّ كل ما هو آت قريب ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ينتظر جزاء ما قدّمه، فإن قدم الطاعة انتظر الثواب، وإن قدم المعصية انتظر العقاب. وقيل: معناه: أنّ كل أحد ينظر إلى عمله في ذلك اليوم، من خير وشرّ، مثبتاً عليه في صحيفته، فيرجو ثواب الله على صالح عمله، ويخاف العقاب على سوء عمله.

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ في ذلك اليوم ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: يتمنّى أنْ لو كان تراباً لا يعاد، ولا يحاسب؛ ليتخلّص من عقاب ذلك اليوم. قال الزجّاج: إنّ معنى ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ يا ليتني لم أُبعث. قال عبدالله بن عمر: إذا كان يوم القيامة مدَّت الأرض مدَّ الأديم، وحشر الدوابّ والبهائم والوحوش. ثمّ يجعل القصاص بين الدوابّ، حتى يقتصّ للشاة الجماء[١] من الشاة القرناء التي نطحتها. وقال مجاهد: يقاد يوم القيامة للمنطوحة من الناطحة. وقال المقاتلان: إنَّ الله يجمع الوحوش والهوام والطير، وكل شيء غير الثقلين، فيقول: من ربّكم؟ فيقولون: الرحمٰن الرحيم. فيقول لهم الربّ بعدما يقضي بينهم حتى يقتصّ للجماء من القرناء: إنّا خلقناكم وسخّرناكم لبني آدم، وكنتم مطيعين أيّام حياتكم، فارجعوا إلى الذي كنتم كونوا تراباً، فتكون تراباً. فإذا التفت الكافر إلى شيء صار تراباً يتمنّى فيقول: يا ليتني كنت في الدنيا على صورة خنزير، زرقي كرزقه، وكنت اليوم أي: في الآخرة تراباً. وقيل: إنّ المراد بالكافر هنا إبليس، عاب آدم بأن خلق من تراب، وافتخر بالنار، فيوم القيامة إذا رأى كرامة آدم وولده المؤمنين، قال: يا ليتني كنت تراباً.

---

[١] الشاة الجمّاء: إذا لم تكن ذات قرن. والجُمّة: الشَعر.

سورة النازعات

عدد آيها: ستّ وأربعون آية كوفيّ، وخمس في الباقين.

اختلافها: آيتان، ولأنعامكم: حجازي كوفي، طغى، عراقي شامي.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة والنازعات، لم يكن حبسه وحسابه يوم القيامة إلّا كقدر صلاة مكتوبة، حتى يدخل الجنّة». وقال أبو عبدالله عليه السلام: «من قرأها لم يمت إلّا ريان، ولم يبعثه الله إلّا ريان، ولم يدخله الجنّة إلّا ريّان».

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر أحوال القيامة وأهوالها، افتتح هذه السورة بمثله، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير حفص وقتيبة ونصير ورويس عن يعقوب: «ناخرة» ـ بالألف ـ. والباقون: ﴿نَّخِرَةً﴾ ـ بغير ألف ـ. وروي أبو عمرو الدوري وحمدون عن الكسائي «ناخرة ونخرة» لا يبالي كيف قرأ. وفي الشواذّ، قراءة أبي حياة: «الحَفِرَة» ـ بغير ألف ـ. وقرأ نافع غير قالون ويعقوب: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ ـ بهمزة واحدة غير ممدودة ـ «إذا كنّا» ـ بغير استفهام ـ. وقرأ ابن عامر والكسائي: «أإنّا لمردودون» ـ بهمزتين ـ «إذا كنّا» كما تقدَّم. وقرأ ابن كثير: «إنّا، إذا كنّا» ـ بالإستفهام فيهما بهمزة واحدة غير ممدودة ـ. وقرأ أبو عمرو بالإستفهام فيهما بهمزة ممدودة. وقرأ عاصم وحمزة وخلف فيهما بهمزتين مميزتين. وقد تقدَّم ذكر هذا مشروحاً في مواضع.

﴿الحجة﴾: نخرة وناخرة لغتان. وقال الفرّاء: النخرة: البالية. والناخرة: المجوفة. قال الزجّاج: ناخرة أكثر وأجود؛ لشبه أواخر الآي بعضها ببعض نحو: الخاسرة، والحافرة. وأما الوجه في الحَفِرَة، فهو أن يكون أراد الحافرة، كقراءة الجماعة، فحذف الألف تخفيفاً، كما في قوله:

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرِداً لاَ يَشْتَهِي أَنْ يَرِدا إلاَّ عَراداً عَرِداً[1]

أي: عارداً.

﴿اللغة﴾: الغرق: اسم أُقيم مقام المصدر، وهو الإغراق. يقال: أغرق في النزع: إذا استوفى في مدّ القوس، وبالغ فيه. والنشط: النزع أيضاً. ومنه: حديث أُمّ سلمة: «فجاء عمّار وكان أخاها من الرضاعة، ونشط زينب من حجرها» أي: نزعها. ونشط الوحش من بلد إلى بلد: إذا خرج بنشاط. والهموم تنشط بصاحبها أي: تخرج به من حال إلى حال. قال هميان بن قحافة [قحافة]:

أَمسَتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَناشِطَا الشَّامَ بِي طَوْراً، وَطَوْراً واسِطاً[1]

وأنشطت العقدة: حللتها. ونشطتها: عقدتها. قالوا: كأنّما أنشط من عقال. والأنشوطة: العقدة تنحل إذا مدَّ طرفاها. يقال: ما عقاله بأنشوطة. والرجف: حركة الشيء من تحت غيره بترديد واضطراب. والرجفة: الزلزلة العظيمة. وأرجفوا أي: أزعجوا الناس باضطراب الأُمور. وكل شيء تبع شيئاً فقد ردفه. وإرداف النجوم: تواليها يتبع بعضها بعضاً. وأرداف الملوك في الجاهليّة: الذين يخلفون الملوك. والردفان: الليل والنهار.

والوجيف: شدّة الإضطراب. وقلب واجف: مضطرب. والوجيف: سرعة

---

(١) الصرد: البرد، معرب، ولا يشتهي أن يرد الماء. وإلّا عرادا: منقطع. والعراد: نبت. والعارد: الصلب الشديد.

[١] يعني صارت همومي تنقلني من بلد إلى بلد، فمرة إلى الشام، ومرة إلى واسط العراق.

السير. وأوجف في السير: أسرع وأزعج الركاب فيه. والحافرة بمعنى: المحفورة مثل: ماء دافق أي: مدفوق. وقيل: الحافرة الأرض المحفورة. ورجع الشيخ في حافرته أي: رجع من حيث جاء، وذلك كرجوع القهقرى. قال:

أَحافِرَةً عَلَىٰ صَلْعٍ، وَشَيْبٍ ... مَعاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ، وَعارِ[١]

أي: أرجوعاً إلى حال الشباب وأوّله. ويقال: النقد عند الحافر أي: لا يزول حافر الفرس حتى ينقد الثمن؛ لأنّه لكرامته لا يباع نسيئة، ثمّ كثر حتى قيل في غير الحافرة. والساهرة: وجه الأرض. والعرب تسمّي وجه الأرض من الفلاة: ساهرة أي: ذات سهر؛ لأنّه يسهر فيها خوفاً منها. قال أُميّة بن أبي الصلت:

وَ فِيها لَحْمُ ساهِرَةٍ، وَبَحْرٍ ... وَما فاهُوا بِهِ لَهُمْ مُقِيمُ[٢]

أي: وفيها صيد البرّ والبحر. وقال آخر:

فَإِنَّما قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَةِ ... ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَها في الْحافِرَةِ[١]

الإعراب: جواب القسم محذوف، على تقدير: ليبعثنّ. وقيل الجواب في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾: نصب بـ«أذكر». وإنْ شئت كان نصباً بمدلول قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ على تقدير: يوم ترجف الراجفة، وجفت قلوبهم. ويكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلاً من ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾.

المعنى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً﴾ اختلف في معناها على وجوه: أحدها: إنّه

---

(١) الصلع: ذهاب شعر الرأس. والشيب: بياض ما بقي منه.

(٢) يصف الجنّة بأنّ فيها من جميع أقسام اللحوم، وأنّ كلّ شيء أرادوا حاضر لديهم، وكان من الحنفاء وعاشر النصارى، ولم يؤمن بهم ولا بالاسلام، وهو القائل كلّ دين يوم القيمة عند الله إلّا دين الحنيفة زور وقال: حبس الفيل بالمغمس حتى ظلّ يحبو كأنّه معقور.

[١] هذا بين من خمسة أبيات من مشطور الرجز قالها الهمداني يوم القادسية، يخاطب بها فرسه، وبعده: «من بعدما كنت عظاماً نخرة» قوله قصرك أي: نهاية أمرك، وغايته.

يعني: الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفّار عن أبدانهم بالشدّة، كما يغرق النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المد[ى]. وروي ذلك عن عليّ عليه السلام ومقاتل وسعيد بن جبير. وقال مسروق: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم. وقيل: هو الموت ينزع النفوس، ـ عن مجاهد ـ. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام.

وثانيها: إنّها النجوم تنزع من أُفق إلى أُفق أي: تطلع وتغيب، ـ عن الحسن وقتادة وأبي عبيدة والأخفش والجبائي ـ. قال أبو عبيدة: تنزع [تنزل] من مطالعها، وتغرب في مغاربها. وثالثها: النازعات القسي تنزع بالسهم. والناشطات: الازهاق [الاوهاق][1]، ـ عن عطاء، وعكرمة ـ. وعلى هذا فالقسم بفاعلها، وهم الغزاة المجاهدون في سبيل الله.

﴿وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً﴾ في معناها أقوال: أحدها: ما ذكرنا. وثانيها: إنّها الملائكة تنشط أرواح الكفّار بين الجلد والأظفار، حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب والغمّ، ـ عن عليّ عليه السلام ـ. والنشط: لجذب. يقال: نشطت الدلو نشطاً: نزعته وثالثها: إنّها الملائكة تنشط أنفس المؤمنين، فتقبضها كما تنشط العقال من يد البعير إذا حلَّ عنها، ـ عن ابن عباس ـ. وحكى الفرّاء هذا القول، ثمّ قال: والذي سمعت من العرب أنْ يقولوا: كأنّما أنشط من عقال. ونشطت الحبل: ربطته، وأنشطته: حللته. ورابعها: إنّها أنفس المؤمنين عند الموت، تنشط للخروج، وذلك أنّه ما من مؤمن يحضره الموت إلّا عرضت عليه الجنّة، قبل أن يموت، فيرى موضعه فيها، وأزواجه من الحور العين، فنفسه تنشط أنْ تخرج، ـ عن ابن عباس أيضاً ـ. وخامسها: إنّها النجوم تنشط من أُفق إلى أُفق أي: تذهب. يقال: حمار ناشط، ـ عن قتادة والأخفش والجبائي ـ.

---

(١) وهق: كمند.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً﴾ فيها أقوال: أحدها: إنّها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين، يسلونها سلاً رفيقاً، ثمّ يدعونها حتى تستريح، كالسابح بالشيء في الماء يرمي به، ـ عن عليّ عليه السلام والكلبي ـ. وثانيها: إنّها الملائكة ينزلون من السماء مسرعين وهذا كما يقال للفرس الجواد سابح: إذا أسرع في جريه، ـ عن مجاهد وأبي صالح ـ. وثالثها: إنّها النجوم تسبّح في فلكها، ـ عن قتادة والجبائي ـ. وقيل: هي خيل الغزاة تسبّح في عدوها كقوله: ﴿والعَادِيَاتِ ضَبْحَاً﴾ ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: هي السفن تسبّح في الماء، ـ عن عطاء ـ.

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ فيها أقوال أيضاً: أحدها: إنّها الملائكة؛ لأنّها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إنّها تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء. وقيل: إنّها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنّة، ـ عن عليّ عليه السلام ومقاتل ـ. وثانيها: إنّها أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها، وقد عاينت السرور شوقاً إلى رحمة الله، ولقاء ثوابه وكرامته، ـ عن ابن مسعود ـ. وثالثها: إنّها النجوم يسبق بعضها بعضاً في السير، ـ عن قتادة والجبائي ـ. ورابعها: إنّها الخيل، يسبق بعضها بعضاً في الحرب، ـ عن عطاء وأبي مسلم ـ.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ فيها أقوال أيضاً.

أحدها: إنّها الملائكة تدبّر أمر العباد من السنة إلى السنة، ـ عن عليّ عليه السلام ـ. وثانيها: إنَّ المراد بذلك: جبرائيل وميكائيل وملك الموت، وإسرافيل عليهم السلام، يدبّرون أُمور الدنيا. فأمّا جبرئيل، فموكّل بالرياح والجنود، وأمّا ميكائيل، فموكّل بالقطر والنبات، وأمّا ملك الموت، فموكّل بقبض الأنفس، وأمّا إسرافيل، فهو ينزل بالأمر عليهم، ـ عن عبد الرحمٰن بن سابط ـ[1]. وثالثها: إنّها الأفلاك يقع فيها أمر الله

---

(١) عبد الرحمٰن بن سابط: من التابعين، ويقال: أنّه عبد الرحمٰن بن عبد الله بن سابط الجمحي المكّي، مات سنة ١١٨، فهو معاصر للباقر عليه السلام. والفرق بينه وبين القول الأوّل، الفرق بين العامّ والخاصّ.

تعالى، فيجري بها القضاء في الدنيا، رواه عليّ بن إبراهيم[١]. أقسم الله تعالى بهذه الأشياء التي عدّدها. وقيل: تقديره: وربّ النازعات، وما ذكر بعدها، وهذا ترك للظاهر بغير دليل. وقد قال الباقر و الصادق عليهما السلام: إنّ لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به. والوجه في ذلك أنّه سبحانه يقسم بخلقه للتنبيه على موضع العبرة فيه؛ لأنّ القسم يدلّ على عظم شأن المقسم به، وجواب القسم محذوف، فكأنّه سبحانه أقسم فقال: وهذه الأشياء لتبعثنّ، ولتحاسبنّ.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ يعني: النفخة الأُولى، التي يموت فيها جميع الخلائق. والراجفة: صيحة عظيمة فيها تردّد واضطراب كالرعد إذا تمخض. ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ يعني: النفخة الثانية تعقب النفخة الأولى، وهي التي يبعث معها الخلق، وهو كقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على معنى: «قلوب يومئذ واجفة، يوم ترجف الراجفة»، ومعنى الواجفة [الراجفة]: الشديدة الإضطراب أيضاً. وهذا معنى قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه: يوم تضطرب الأرض اضطراباً شديداً، وتتحرّك تحرّكاً عظيماً، يعني: يوم القيامة تتبعها الرادفة أي: اضطرابة أُخرى كائنة بعد الأُولى في موضع الردف من الراكب، فلا تزال تضطرب حتى تفنى كلها. وقال ابن عباس: معنى الواجفة: خائفة، والمراد بذلك أصحاب القلوب، يعني: إنّها قلقة غير هادئة، ولا ساكنة، لما عاينت من أهوال يوم القيامة.

---

(١) كأنّه رواه في غير كتاب التفسير، فإنّه غير موجود في تفسيره هذه السورة، ولا منافاة بينه وبين القولين الأوّلين، فإنّ السماوات قد تطلق على العالم الروحانيّ؛ لعلوّه المعنوي، أو باعتبار أنّ أجسامها تحت تدبير الملائكة. فإن قيل: هذه الآيات تؤيّد مذهب الحكماء في العقول، وما قاله الإشراقيّون في أرباب الأنواع. قلنا: إن أرادوا بما قالوا الملائكة، فلا مشاحّة معهم في الإصطلاح.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة من هول ذلك اليوم. قال عطاء: يريد أبصار من مات على غير الإسلام.

﴿يَقُولُونَ ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي: يقول هؤلاء المنكرون للبعث من مشركي قريش وغيرهم في الدنيا، إذا قيل لهم: إنّكم مبعوثون من بعد الموت: أنردّ إلى أوّل حالنا، وابتداء أمرنا، فنصير أحياء كما كنّا؟. والحافرة عند العرب: اسم لأوّل الشيء، وابتداء الأمر، قال ابن عباس والسدّي: الحافرة: الحياة الثانية. وقيل: الحافرة: الأرض المحفورة، والمعنى: أنردّ من قبورنا بعد موتنا أحياء؟.

﴿ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾ أي: بالية مفتتة [متفتّتة]، والمعنى: إنّهم أنكروا البعث، فقالوا: أنردّ أحياء إذا متنا، وتفتّتت عظامنا. يقال: نخر العظم ينخر، فهو ناخر ونَخِر.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: قال الكفّار تلك الكرّة الكائنة بعد الموت كرّة خسران، ومعناه: إنّ أهلها خاسرون؛ لأنّهم نقلوا من نعيم الدنيا إلى عذاب النار، والخاسر: الذاهب رأس ماله. وإنّما قالوا: ﴿كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ على معنى: إنّه لا يجيء منها شيء كالخسران الذي لا يجيء منه فائدة، فكأنّهم قالوا: هي كالخسران بذهاب رأس المال، لا تجيء به تجارة، فكذلك لا تجيء بتلك الكرّة حياة. وقيل: معناه: إنْ كان الأمر على ما يقوله محمّد ـ من أنّا نبعث ونعاقب ـ، فتلك كرّة ذات خسران علينا.

ثمّ أعلم سبحانه سهولة البعث عليه، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ يعني: النفخة الأخيرة ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: صيحة واحدة من إسرافيل يسمعونها، وهم أموات في بطون الأرض، فيحيون، وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وهي وجه الأرض وظهرها، ـ عن الحسن وقتادة ومجاهد وغيرهم ـ. وقيل: إنّما سمّيت الأرض ساهرة؛ لأنّ عملها في النبت في الليل والنهار دائب، ولذلك قيل: خير المال عين

خرّارة في أرض خوّارة[١]، تسهر إذا نِمتَ، وتشهد إذا غبت. ثمّ صارت إسماً لكل أرض. وقيل: المراد بذلك عرصة القيامة؛ لأنّها أوّل مواقف الجزاء، وهم في سهر لا نوم فيه.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز والبصرة ﴿طُوى﴾ ـ بغير تنوين ـ. والباقون: بالتنوين. وقرأ أهل الحجاز وعباس [كذا]، ويعقوب: ﴿تَزَّكَّىٰ﴾ ـ بتشديد الزاء ـ. والباقون: بتخفيفها[١].

الحجة: قال أبو عليّ: قال أبو عبيدة: «طوى» مضمومة الأوّل ومكسورته. فمَن لم ينوّن جعله إسماً مؤنّثاً. ومَن نوّن جعله مثل: ثنى على معنى المقدس مرّة بعد مرّة. وروي عن الحسن أنّه قرأ: ﴿طِوَىً﴾ ـ بكسر الطاء ـ. وقال: وطوي بالبركة والتقديس مرّتين، كما قال طرفة:

أَعاذِلَ إِنَّ اللَّومَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ ... عَلَيَّ طُوىً مِنْ غَيِّكَ الْمُتَرَدِّدِ[٢]

---

(١) وقف على «الواد» بالياء يعقوب.

(٢) من المعلقات، يعني: يا عاذلة إنّ لومك إيّاي على طلب اللهو في غير موضعه، وتكرّره عليّ إنّما هو من ضلالك؛ لأنّي لا أرتدع.

[١] الخرار: الكثير الخرير وهو صوت الماء وأرض خوارة: اللينة السهلة.

أي: إنّ لومك مكرّر عليّ. قال أبو عليّ: من لم يصرف «طوى» احتمل قوله أمرين: أحدهما: إنّه جعله اسم بلدة أو بقعة. أو: يكون معدولاً كزفر وعمر. ومن صرف احتمل أيضاً أمرين: أحدهما: أنْ يكون جعله اسم موضع أو بلد أو مكان والآخر: أنْ يكون مثل: زحل و حطم ولكع.

وقوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: تطهر من الكفر. والمبتدأ محذوف من اللفظ مراد في المعنى. والتقدير: هل لك إلى ذلك حاجة، أو إربة. قال الشاعر:

فَهَلْ لَكُمْ فِيها إِلَيَّ، فَإِنَّني طَبِيبٌ بِما أَعْيَى النِّطاسِيَّ حَذْيَما[1]

ومن قال: «تزّكّى» أراد تتزكّى، فأدغم تاء التفعّل في الزاء؛ لتقاربهما. ومن خفّف، حذف التاء التي أثبتها مَن أدغم. وتخفيفها بالحذف أشبه.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه قصّة موسى عليه السلام فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمّد ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾، استفهام يراد به التقرير. ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: حين ناداه الله، ودعاه. فالنداء: الدعاء بطريقة يا فلان. فالمعنى: قال له: يا موسى ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهّر ﴿طُوًى﴾ إسم واد، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: طوي بالتقديس مرّتين، وهو الموضع الذي كلّم الله فيه موسى.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: علا وتكبّر وكفر بالله، وتجاوز الحدّ في الإستعلاء والتمرّد والفساد ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تتطهّر من الشرك، وتشهد أن لا إله إلّا الله، ـ عن ابن عباس ـ. وهذا تلطّف في الإستدعاء، ومعناه: هل لك رغبة إلى أن تسلم و تصلح وتطهر.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: وأدلّك إلى معرفة ربّك، وأنّه خلقك وربّاك. وقيل: وأهديك أي: أُرشدك إلى طريق الحقّ الذي إذا سلكته، وصلت إلى رضاء

---

(١) النطاسي: الطبيب الحاذق. وحذيم: الحاذق أيضاً يعني: إنّي أعالج ما أعيى الطبيب الحاذق.

الله وثوابه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أي: فتخافه فتفارق ما نهاك عنه. وفي الكلام حذف، تقديره: فأتاه، ودعاه.

﴿فَأَرَاهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يعني: العصا. وقال الحسن: هي اليد البيضاء ﴿فَكَذَّبَ﴾ بأنها من الله ﴿وَعَصَىٰ﴾ نبيَّ الله، وجحد نبوّته ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ فرعون أي: ولّى الدبر ليطلب ما يكسر به حجّة موسى في المعجزة العظيمة، فما ازداد إلّا غواية ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يعمل بالفساد في الأرض. وقيل: إنّه لمّا رأى الحيّة في عظمها، خاف منها، فأدبر وسعى هرباً، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجمع قومه، وجنوده ﴿فَنَادَىٰ﴾ فيهم ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: لا ربّ فوقي. وقيل: معناه: أنا الذي أنال بالضرر من شئت، ولا ينالني غيري، وكذب اللعين إنّما هذه صفة الله الذي خلقه، وخلق جميع الخلائق. وقيل: إنّه جعل الأصنام أرباباً فقال: أنا ربّها وربّكم.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ نكال: مصدر مؤكَّد؛ لأنّ معنى «أخذه الله»: نكل الله به نكال الآخرة والأُولى، بأن أغرقه في الدنيا، ويعذّبه في الآخرة. وقيل: معناه: فعاقبه الله بكلمته الآخرة، وكلمته الأُولى. فالآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأُولى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ فنكل به نكال هاتين الكلمتين.

وجاء في التفسير، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه كان بين الكلمتين أربعون سنة. وقيل: إنّه إنّما ناداهم، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فامنعوني من هذا الثعبان، ولم يعلم الجهّال أنّ مَن يخاف ضرر حيّة، ويستعين بأمثاله، لا يكون إلهاً. وعن وهب، عن ابن عباس قال: قال موسى عليه السلام: يا ربّ! إنّك أمهلت فرعون أربعمائة سنة، وهو يقول: أنا ربّكم الأعلى، ويجحد رسلك، ويكذّب بآياتك، فأوحى الله تعالى إليه: إنّه كان حسن الخلق، سهل الحجاب، فأحببت أن أُكافيه. وروي أبو بصير، عن أبي

جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرائيل عليه السلام: قلت يا ربّ تدع فرعون، وقد قال: أنا ربّكم الأعلى؟ فقال: إنما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت.

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ الذي فعل بفرعون حين كذب وعصى ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لعظة ﴿لِمَن يَخْشَىٰ﴾ الله تعالى ويخاف عقابه ونقمته، ودلالة يمكن أن يعتبر بها العاقل، ويميّز بين الحقّ والباطل.

النظم: وجه اتّصال قصّة موسى عليه السلام بما قبلها: أنّه لمّا تقدّم ذكر المكذّبين للأنبياء، المنكرين للبعث، عقّبه بحديث موسى، وتكذيب قومه إيّاه، وما قاساه من الشدائد، تسلية لنبيّنا صلى الله عليه وآله، وعدة له بالنصر، وحثّاً إيّاه على الصبر، اقتداء بموسى، وتحذيراً لقومه، أن ينزل بهم ما نزل بأُولئك، وعظة بهم، وتأكيداً للحجّة عليهم.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَىٰهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ
الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ
لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا
﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر والعباس [عن العياشي] عن أبي عمرو: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ

﴿مُنْذِرٌ﴾ ـ بالتنوين ـ. والباقون: بغير تنوين. وفي الشواذّ قراءة الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿وَالجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ ـ بالرفع ـ. وقراءة مجاهد: «والأرض مع ذلك دحاها». وقراءة عكرمة: «وبرزت الجحيم لمن ترى» ـ بالتاء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة التنوين في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أنّ اسم الفاعل هنا للحال، ويدلّ عليه قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالوَحْيِ﴾ فليس المراد: أُنذر فيما استقبل، وإنّما يقول: أُنذر في الحال، واسم الفاعل على قياس الفعل. ومن أضاف، استخفّ فحذف التنوين، كما حذف من قوله: ﴿فَلَمَّ رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ ونحو ذلك ممّا جاء على لفظ الإضافة، والمراد به الإنفصال. ويجوز أن يكون ﴿مُنْذِرُ مَنْ﴾ على نحو: هذا ضارب زيد أمس؛ لأنّه قد فعل الإنذار. ومن قرأ: ﴿وَالجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ ـ بالرفع ـ فإنّه مثل قراءة من قرأ: ﴿وَالظَّالِمُونَ أَعَدَّ لَهُمْ﴾، وقد تقدَّم بيانه.

ومن قرأ: «والأرض مع ذلك» فلعلّه قال ذلك، تفسيراً للقراءة المشهورة؛ لأنّه ليس الغرض فيه ترتيب الزمان. وإنّما الغرض اجتماعهما، أعني السماوات والأرض في الخلق، لا في أنّ زمان الفعلين واحد. وهذا كقولك: فلان كريم، فيقول السامع: وهو مع ذلك شجاع أي: قد اجتمع له الوصفان.

وأمّا قوله: «لمن ترى» ـ بالتاء المفتوحة ـ فيمكن أن يكون خطاباً للنبي ﷺ، والمراد: لمن ترى يا محمّد من الناس، فأشار إلى البعض، وغرضه الجنس والجميع، كقول لبيد:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَطُولِهَا ... وَسُؤالِ هٰذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدُ

فأشار إلى جنس الناس، ونحن نعلم أنّه ليس جميعهم شاهداً حاضراً له، ويمكن أن تكون التاء في «ترى» للجحيم أي: لمن تراه النار.

اللغة: السمك: الإرتفاع، وهو مقابل العمق؛ لأنّه ذهاب الجسم بالتأليف

إلى جهة العلوّ وبالعكس صفة العمق. والمسموكات: السماوات؛ لارتفاعها. ومنه: قول أمير المؤمنين عليه السلام: يا داعم المسموكات. قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَىٰ لَنَا بَـيْتاً دَعَـائِمُهُ أَعَـزُّ، وَأَطْـوَلُ

والتسوية: جعل أحد الشيئين على مقدار الآخر في نفسه، أو في حكمه. والغطش: الظلمة. وأغطشه الله: أظلمه. والأغطش: الذي في عينيه شبه العمش. وفلاة غطشاء: لا يهتدى فيها. والدحو: البسط. دحوت أدحو دحواً، ودحيت أدحي دحياً لغتان. قال أُميّة بن أبي الصلت:

دَارٌ دَحَـاهَا، ثُـمَّ أَعْـمَرَ بَـابَهَا وَأَقَامَ بِالأُخْرَىٰ الَّتي هِيَ أَمْجَدُ

وقال أوس:

يَـنْفِي الْـحَصى عَـنْ جَـدِيدِ الأَرْضِ، مُـبْتَرِكٌ
كَأَنَّـــــهُ فَـــــاحِصٌ، أَوْ لاَعِبٌ دَاحِ[1]

والطامّة: العالية الغالبة. يُقال: هذا أطمّ من هذا أي: أعلى منه. وطمّ الطائر الشجرة: علاها. وتسمّى الداهية التي لا يستطاع دفعها: طامّة.

الإعراب: ﴿وَالأَرْضَ﴾: منصوب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره، وكذا قوله: ﴿وَالجِبَالَ أَرْسَىٰهَا متاعاً لَّكُمْ﴾ مفعول له؛ لأنّ المعنى لإمتاعكم. ويجوز أن يكون منصوباً على المصدر؛ لأنّ معنى قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ أمتع بذلك. وقوله: ﴿فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَاوَىٰ﴾ وتقديره: هي المأوى له. قال الزجّاج: وقال قوم الألف واللام بدل من الضمير العائد أي: هي مأواه، والمراد: إنّ المعنى يؤول إلى التي «هي مأواه»؛ لأنّ الألف واللام بدل من الهاء، وهذا كما يقول

---

(١) أوس بن حجر التميمي، من شعراء الجاهليّة. وجديد الأرض: وجهها. وابترك: أسرع، وكلّما رأيت شعراً من هذه القصيدة كان في الغيم والمطر، وما اطلعت على جميعها، وكأنه يصف السيل بأنّه ينفي الحصى عن وجه الأرض، ويدحوها.

الإنسان: غضّ الطرف يا هذا. فليس الألف واللام بدلاً من الكاف، وإن كان المعنى: غضّ طرفك؛ لأنّ المخاطب يعرف أنّك لا تأمره بغضّ طرف غيره. قال:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ ... فَلاَ سَعْداً بَلَغْتَ، وَلاَ كِلاَباً[١]

وكذلك المعنى في الآية، وجواب «إذا» في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَىٰ﴾ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾ وما بعده فإنّ المعنى: إذا جاءت الطامّة الكبرىٰ، فإنّ الأمر كذلك.

وقوله: ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾: أضاف «الضحى» إلى العشية والغداة والعشي، والضحوة والضحى لليوم الذى يكون فيه. فإذا قلت: أتيك صباحاً ومساء، ومساءة وصباحة، فالمعنى: أتيتك صباحاً، ومساءً يلي الصباح. وأتيتك مساء، وصباحاً يلي المساء. وتقول: أتيتك العشية وغداتها.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ما أتى به موسىٰ، وما قابله به فرعون، وما عوقب به في الدارين؛ عظة لمن كان على عهد رسول الله ﷺ، وتحذيراً لهم من المثلات، خاطب عقيب ذلك منكري البعث، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيّها المشركون المنكرون للبعث ﴿أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَاءُ﴾ يعني: أخلقكم بعد الموت أشدّ عندكم وفي تقديركم أم السماء، وهما في قدرة الله تعالىٰ واحد. وهذا كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

ثمّ ابتدأ فبيّن سبحانه كيف خلق السماء، فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ الله تعالىٰ الذي لا يكبر عليه خلق شيء ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ سقفها، وما ارتفع منها ﴿فَسَوَّاهَا﴾ بلا شقوق، ولا فطور، ولا تفاوت. وقيل: سوّاها: أحكمها، وجعلها متصرّفاً للملائكة. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلم ليلها، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ. ﴿وَأَخْرَجَ

---

[١] البيت لجرير الخطفي. يهجو به الراعي النميري الشاعر. وغض النظر أي: كف بصرك ذلاً ومهانة. وسعد وكلاب حيان من تميم. وفي تفسير الطبري: «فلا كعباً بلغت... اهـ».

﴿ضُحَاهَا﴾ أي: أبرز نهارها. وإنّما أضاف الليل والضحى إلى السماء؛ لأنّ منها منشا الظلام والضياء بغروب الشمس وطلوعها، على ما دبّرها الله، عزّ وجلّ.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا﴾ أي: بعد خلق السماء بسطها من الدحو، وهو البسط. قال ابن عباس: إنّ الله تعالىٰ دحا الأرض بعد السماء، وإن كانت الأرض خلقت قبل السماء، وكانت ربوة مجتمعة تحت الكعبة فبسطها[1]. وقال مجاهد، والسدّي: معناه: والأرض مع ذلك دحاها، كما قال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: مع ذلك.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿مَاءَهَا﴾ والمعنى: فجّر الأنهار والبحار والعيون، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ ممّا يأكل الناس والأنعام. ثمّ بيّن سبحانه بذلك جميع المنافع المتعلّقة بالأرض من المياه التي بها حياة كل شيء من الحيوانات والأشجار والثمار، والحبوب والعيون، ـ عن ابن عباس ـ. وبها يحصل جميع الأرزاق، والنبات التي تصلح للمواشي، فهي ترعاه بأن تأكله في موضعه.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: أثبتها في أوساط الأرض ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: خلق سبحانه الأرض، وأخرج منها المياه والمراعي، وأثبت الجبال بما فيها من أنواع المعادن لمنفعتكم، ومنفعة أنعامكم، تنتفعون بها.

ولمّا دلّ سبحانه بهذه الأشياء على صحّة البعث، وصف يوم البعث، فقال:

---

(١) ذكرنا سابقا أنّ الأرض في اللغة لا يطلق على الكرة الأرضية، بل على البسيط الممدود تحت الأقدام، ولا يمتنع أن يخلق أوّلاً كرة لا يكون عليها قشر قابل للمشي وللزرع، بأن يكون على جميع السطح ماء، أو مائع مذاب ناري، ثمّ يحدث عليه هذا القشر المسمّى بالأرض والصعيد، بأن يخرج البرّ من الماء، أو بأن يبرد وينجمد الجسم الناري تدريجا، ويكون ابتداء خروج البرّ من البحر من موضع الكعبة، ويكون منه دحو الأرض، فإنّه وسط البرّ القديم تقريبا، من جزاير الخالدات إلى بحر الصين طولا، ومن عرض عشر درجات جنوبيّة إلى خمسين درجة شماليّة، وعرض مكّة ٢١ درجة و ٤٠ دقيقة.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي القيامة؛ لأنّها تطمّ على كل داهية هائلة، أي: تعلو وتغلب. ومن ذلك يُقال: ما من طامّة إلاَّ وفوقها طامّة، والقيامة فوق كل طامّة، فهي الداهية العظمىٰ. قال الحسن: هي النفخة الثانية. وقيل: هي الغاشية الغليظة المجلّلة التي تدقق [تدفق] الشيء بالغلظ. وقيل: إنّ ذلك حين يساق أهل الجنّة إلى الجنّة، وأهل النار إلى النار.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: تجيء الطامّة في يوم يتذكّر الإنسان ما عمله من خير أو شرّ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي: أُظهرت النار ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ فيراها الخلق مكشوفاً عنها الغطاء، ويبصرونها مشاهدة ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي: تجاوز الحدّ الذي حدّه الله، وارتكب المعاصي ﴿وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [1] على الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له. والإيثار إرادة الشيء على طريقة التفضيل له على غيره.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف مقام مسألة ربّه عمّا يجب عليه فعله أو تركه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: عن المحارم التي تشتهيها وتهواها. وقيل: إنَّ الرجل يهمّ بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب فيتركها، ـ عن مقاتل ـ. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له أي: هي مقرّه ومأواه.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى يكون قيامها، ثابتة على ما وصفتها. ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ أي: لست في شيء من علمها وذكراها. والمعنى: لا تعلمها. قال الحسن: أي: ليس عندك علم

---

(١) هذه الآية تدلّ على أنّ إيثار الحياة الدنيا رأس كلّ خطيئة، وذلك لأنّ المادّيّين يرون أنّ الموجود منحصر في هذا الجسم المحسوس، وعليه يعكفون، ولا يهمّون بغيره، فينكرون البعث والنشور، والملائكة، والقبر، والجنّة والنار، ولا يعترفون بسعادة ولا شقاوة، إلّا بما يوجب راحة البشر في حياتة الدنيا، ولا يرون قبح اللذّات إلّا إذا منع من لذّة دنيويّة أقوى وأعمّ، فحبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة.

بوقتها، وإنّما تعلم أنّها تكون لا محالة. وقيل: معناه: ليس هذا ممّا يتّصل بما بعثت لأجله، فإنّما بعثت داعياً. وقيل: إنّها من حكاية قولهم. والمعنى: إنّك قد أكثرت من ذكراها، فمتى يكون ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي: قل لهم: إلى الله إجراؤها. والمنتهى: موضع بلوغ الشيء. فكأنّه قيل: إلى أمر ربّك منتهى أمرها بإقامتها؛ لأنّ منتهى أمرها بذكرها ووصفها، والإقرار بها إلى الرسول ﷺ، ومنتهى أمرها بإقامتها إلى الله، لا يقدر عليها إلّا هو سبحانه. وقيل: معناه: إلى ربّك منتهى علمها أي: لا يعلم وقتها إلاَّ هو، ـ عن الحسن ـ.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنّما أنت مخوف من يخاف قيامها أي: إنّما ينفع إنذارك من يخافها. فأمّا من لا يخشاها، فكأنّك لم تنذره ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يعاينون القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: إلّا قدر آخر نهار وأوّله. ومثله: «**كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار**» وقد مرّ بيانه. وقيل: إنّ معناه: إنّهم إذا رأوا الآخرة، صغرت الدنيا في أعينهم، حتى كأنّهم لم يقيموا بها إلّا مقدار عشيّة، أو مقدار ضحى تلك العشيّة، ـ عن قتادة ـ.

سورة عبس

وتسمّى سورة السفرة، مكيّة.

عَدَدُ آيِها: اثنتان وأربعون آية حجازيّ كوفيّ، وإحدى وأربعون بصريّ، وأربعون شاميّ والمدنيّ الأوّل.

اختلافها: ثلاث آيات «ولأنعامكم» حجازيّ كوفيّ «إلى طعامه» غير يزيد «الصاخة» غير الشاميّ.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة عبس، جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر». وروى معاوية بن وهب، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة عبس وتولّى، وإذا الشمس كوّرت، كان تحت[1] الله من الجنان، وفي ظلّ الله وكرامته في جنانه، ولا يعظم ذلك على ربّه، عزّ وجلّ».

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر إنذاره من يخشى القيامة، افتتح هذه السورة بذكر إنذاره قوماً يرجو إسلامهم، وإعراضه عمّن يخشى، فقال:

---

[1] العبارة هكذا في الأصل، وفي ثواب الأعمال: كان تحت جناح الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ
عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١) ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ
﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

القراءة: قرأ عاصم غير الأعشى والبرجمي: ﴿فَتَنْفَعَهُ﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: ـ بالرفع ـ. وقرأ أهل الحجاز ﴿تَصَدَّى﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: ﴿تَصَدَّى﴾ ـ بتخفيف الصاد ـ. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: «أن جاءه». وقراءة أبي جعفر الباقر عليه السلام «تُصَدَّى» ـ بضمّ التاء، وفتح الصاد ـ «وتُلَهَّىٰ» ـ بضمّ التاء أيضاً ـ. وقراءة أبي حيوة، وشعيب بن أبي حمزة: «نشره ـ بغير ألف ـ.

---

(١) قرأ البزى بخلفه: «عنه تلهى» ـ بإشباع ضمّة الهاء وتشديد التاء، فتمدّ الواو. ولا نذكر حكم الهمزتين؛ اكتفاء بما سبق.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: «فتنفعُه» ـ بالرفع ـ عطفه على ما تقدّم من المرفوع. ومن قرأ ـ بالنصب ـ، فعلى أنّه جواب بالفاء؛ لأنّ المتقدّم غير موجب، فكأنّ قوله تعالىٰ يذكر المعطوف على «يزّكّى» في معنى لعله يكون منه تذكّر فانتفاع، وكذا قوله: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَٰبَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ﴾.

وقوله: ﴿تَصَدَّى﴾ أي: تعرض. فمن قرأ بتشديد الصاد، أدغم التاء في الصاد. ومن قرأ بالتخفيف أراد «تتصدّى»، فحذف التاء، ولم يدغمها.

وقرأ ابن فليح والبزي عن ابن كثير: «تّلهىٰ» ـ بتشديد التاء ـ، على أنّه شبّه المنفصل بالمتّصل. وجاز وقوع الساكن بعد اللين، كما جاز تمود الثوب في المتّصل. وحكى سيبويه: فلا تناجوا.

ومن قرأ: ﴿أَن جَآءَهُ﴾ بلفظ الإستفهام، فتقديره: الأن جاءه الأعمى، وكان ذلك منه، فعلّق «أنْ» بفعل بمحذوف، دلَّ عليه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وأمّا على القراءة المشهورة، فـ«أن جاءه» في موضع نصب بـ«تولّى»؛ لأنّه الفعل الأقرب منه، فكأنّه قال: تولّى لمجيء الأعمى، وهو مفعول به.

ومن قرأ «تُصدَّى» فالمعنى: يدعوك داع من زينة الدنيا وبشارتها إلى التصدّي له، والإقبال عليه. وعلى ذلك قوله: «تُلَهَّىٰ» أيضاً أي: تصرّف عنه. ومن قرأ: «نشره» فعلى أنّه لغة في «أنشره».

اللغة: التصدّي: التعرّض للشيء كتعرّض الصديان للماء. والصحف: جمع صحيفة. والعرب تسمّي كل مكتوب فيه صحيفة، كما تسمّيه كتاباً، رقاً كان أو غيره. والسفرة: الكتبة لأسفار الحكمة. واحدهم: سافر، وواحد الأسفار: سفر. وأصله: الكشف، من قولهم: سفرت المرأة: إذا كشفت عن وجهها. وسفرت القوم: إذا أصلحت بينهم. قال:

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي ... وَمَا أَمْشِي بِغِشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

والبررة: جمع بارّ، وهو فاعل البرّ. والبر: فعل النفع اجتلاباً للمودَّة. وأصله: اتّساع النفع. ومنه: البَرُّ سمّي به؛ تفاؤلاً باتّساع النفع به. ومنه: البرُّ؛ لاتّساع النفع به وأقبره: جعل له قبراً. والإقبار: جعل القبر لدفن الميّت فيه. ويُقال: أقبرني فلاناً أي: اجعلني أقبره. والقابر: الدافن للميّت بيده. قال الأعشى:

لَوْ أَسْنَدَتْ مَـيْتاً إلىٰ نَـحْرِها ... عَاشَ، وَلَمْ يُنْقَلْ إلىٰ قَابِرِ[1]

حَتَّىٰ يَقُولَ النَّاسُ مِـمّا رَأَوْا: ... يَـا عَـجَباً لِـلْمَيِّتِ النَّـاشِرِ

والإنشار: الإحياء للتصرّف بعد الموت، كنشر الثوب بعد الطيّ.

﴿الإعراب﴾: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾: انتصب ﴿السَّبِيلِ﴾ بفعل مضمر يفسّره هذا الظاهر، تقديره: ثمّ يسّر السبيل يسّره له أي: للإنسان. ثمّ حذف الجارّ والمجرور.

وقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ﴾ أي: ما أمره به، فحذف الباء، فصار التقدير: ما أمرهُ، فحذف الهاء الأُولىٰ، فصار: ما أمره، فالهاء الباقية لما الموصولة، والهاء المحذوفة للإنسان.

﴿النزول﴾: قيل: نزلت الآيات في عبدالله بن أُمّ مكتوم، وهو عبدالله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وذلك أنّه أتى رسول الله ﷺ، وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبدالمطلب، وأُبيّاً وأُميّة إبني خلف، يدعوهم إلى الله، ويرجو إسلامهم، فقال: يا رسول الله! أقرئني وعلّمني ممّا علّمك الله، فجعل يناديه ويكرّر النداء، ولا يدري أنّه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنّما أتباعه العميان والعبيد، فأعرض

---

(١) كأنّه يصف امرأة، وهذا من قصيدة استشهد أمير المؤمنين عليه السلام ببيت منها، وهو: «شتّان ما يومي على كورها، ويوم حيان اخي جابر». وجهدت أن أقف على القصيدة بتمامها، فلم يتّفق لي، وإنّما عثرت على أبيات منها في كتب الأدب وغيرها.

عنه، وأقبل على القوم الذين يكلّمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي! ويقول له: هل لك من حاجة؟ واستخلفه على المدينة مرّتين في غزوتين. وقال أنس بن مالك: فرأيته يوم القادسية، وعليه درع، ومعه راية سوداء.

قال المرتضى علم الهدى، قدّس الله روحه: ليس في ظاهر الآية دلالة على توجهها إلى النبيّ ﷺ: بل هو خبر محض، لم يصرّح بالمخبر عنه، وفيها ما يدلّ على أنّ المعنى بها غيره؛ لأنّ العبوس ليس من صفات النبيّ ﷺ مع الأعداء المباينين، فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثمّ الوصف بأنّه يتصدّىٰ للأغنياء، ويتلهّى عن الفقراء، لا يشبه أخلاقه الكريمة، ويؤيّد هذا القول قوله سبحانه في وصفه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فالظاهر أنّ قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ المراد به غيره.

وقد روي عن الصادق عليه السلام أنّها نزلت في رجل من بني أُميّة كان عند النبيّ ﷺ، فجاء ابن أُمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذر منه، وجمع نفسه، وعبس، وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله سبحانه ذلك، وأنكره عليه. فإن قيل: فلو صحّ الخبر الأوّل، هل يكون العبوس ذنباً أم لا؟ فالجواب: إنّ العبوس والإنبساط مع الأعمى سواء؛ إذ لا يشقّ عليه ذلك، فلا يكون ذنباً، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيّه ﷺ؛ ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق، وينبّهه بذلك على عظيم حال المؤمن المسترشد، ويعرفه أنّ تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه، أولى من تأليف المشرك، طمعاً في إيمانه.

وقال الجبائي: في هذا دلالة على أنّ الفعل يكون معصية فيما بعد، لمكان النهي. فأمّا في الماضي، فلا يدلّ على أنّه كان معصية قبل أن ينهى عنه، والله سبحانه لم ينهه إلّا في هذا الوقت.

وقيل: إنّ ما فعله الأعمى كان نوعاً من سوء الأدب، فحسن تأديبه بالإعراض عنه، إلّا أنّه كان يجوز أن يتوهّم أنّه أعرض عنه لفقره، وأقبل عليهم لرياستهم، تعظيماً لهم، فعاتبه الله سبحانه على ذلك. وروي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رأى عبدالله بن أُمّ مكتوم قال: مرحباً مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً[١]، وكان يصنع به من اللطف(١)، حتى كان يكفّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله ممّا يفعل به.

المعنى: ﴿عَبَسَ﴾ أي: بسر وقبض وجهه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض بوجهه ﴿أَن جَاءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي: لأن جاءه الأعمى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ﴾ أي: لعلّ هذا الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ يتطهّر بالعمل الصالح، وما يتعلّمه منك ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتذكّر فينتفع بما يعلمه من مواعظ القرآن. ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ في دينه. قالوا: وفي هذا لطف من الله عظيم لنبيّه صلى الله عليه وآله؛ إذ لم يخاطبه في باب العبوس، فلم يقل: عبست. فلمّا جاوز العبوس، عاد إلى الخطاب فقال: وما يدريك.

ثمّ قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: من كان عظيماً في قومه، واستغنى بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتعرّض له وتقبل عليه بوجهك ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي: أيُّ شيء يلزمك إن لم يسلم، ولم يتطهّر من الكفر، فإنّه ليس عليك إلّا البلاغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي: يعمل في الخير، يعني: ابن أُمّ مكتوم ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله عزّ وجلّ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تتغافل وتشتغل عنه بغيره ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا تعد لذلك، وانزجر عنه ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنّ آيات القرآن تذكير، وموعظة للخلق ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: ذكر التنزيل أو القرآن أو الوعظ. والمعنى: فمن شاء أن يذكره ذكره. وفي هذا دلالة على أنّ العبد قادر على الفعل، مخيّر فيه. وقوله:

---

(١) يعرض عن الحضور حياء.

[١] أي كما عاتب فيك مَن عاتب.

﴿كَلاَّ﴾ فيه دلالة على أنّه ليس له أن يفعل ذلك في المستقبل. وأمّا الماضي، فلم يتقدّم النهي عن ذلك فيه، فلا يكون معصية.

ثمّ أخبر سبحانه بجلالة قدر القرآن عنده، فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ أي: هذا القرآن، أو هذه التذكرة في كتب معظمة عندالله، وهي اللوح المحفوظ، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يعني: كتب الأنبياء المنزلة عليهم، كقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماء السابعة. وقيل: مرفوعة قد رفعها الله عن دنس الأنجاس ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ لا يمسّها إلّا المطهّرون. وقيل: مصونة عن أن تنالها أيدي الكفرة؛ لأنّها في أيدي الملائكة في أعزّ مكان، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: مطهّرة من كل دنس، ـ عن الحسن ـ. وقيل: مطهّرة من الشكّ والشبهة والتناقض.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يعني: الكتبة من الملائكة، ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ. وقيل: يعني: السفراء بالوحي بين الله تعالىٰ، وبين رسله من السفارة. وقال قتادة: هم القرّاء يكتبونها ويقرأونها. وروي فضيل بن يسار، عن الصادق عليه السلام قال: الحافظ للقرآن، العامل به، مع السفرة الكرام البررة.

ثمّ أثنىٰ عليهم، فقال: ﴿كِرَامٍ﴾ على ربّهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ مطيعين. وقيل: كرام عن المعاصي، يرفعون أنفسهم عنها. بررة أي: صالحين متّقين. وقال مقاتل: كان القرآن ينزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليلة القدر إلى الكتبة من الملائكة. ثمّ ينزل به جبرائيل عليه السلام إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ ذكر سبحانه المكذّبين بالقرآن، فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ﴾ أي: عذب ولعن الإنسان، وهو إشارة إلى كل كافر، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو أُميّة بن خلف، ـ عن الضحاك ـ. وقيل: هو عتبة بن أبي لهب إذ قال: كفرت بربّ النجم إذا هوى ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي: ما أشدّ كفره، وما أبين ضلاله! وهذا تعجّب منه، كأنّه قد قال: تعجّبوا

منه ومن كفره، مع كثرة الشواهد على التوحيد، والإيمان. وقيل: إنّ «ما» للإستفهام أي: أيُّ شيء أكفره، وأوجب كفره، ـ عن مقاتل والكلبي ـ. فكأنّه قال: ليس هيهنا شيء يوجب الكفر، ويدعو إليه، فما الذي دعاه إليه مع كثرة نعم الله عليه.

ثمّ بيّن سبحانه من أمره ما كان ينبغي معه أنّ يعلم أن خالقه، فقال: ﴿مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: التقرير. وقيل: معناه: لم لا ينظر إلى أصل خلقته من أيّ شيء خلقه الله؛ ليدلّه على وحدانيّة الله تعالىٰ. ثمّ فسّر فقال: ﴿مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أطواراً نطفة، ثمّ علقة، إلى آخر خلقه، وعلى حدٍّ معلوم من طوله وقصره، وسمعه وبصره وحواسّه، وأعضائه ومدّة عمره، ورزقه وجميع أحواله ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي: ثمّ يسّر سبيل الخروج[1] من بطن أُمّه، حتى خرج منه، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وذلك أنّ رأسه كان إلى رأس أُمّه، وكذلك رجلاه كانتا إلى رجليها، فقلبه الله عند الولادة؛ ليسهل خروجه منها. وقيل: ثمّ السبيل أي: سبيل الدين يسّره، وطريق الخير والشرّ بيّن له وخيّره، ومكّنه من فعل الخير، واجتناب الشرّ، ونظيره ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَجْدَيْن﴾ ـ عن مجاهد والحسن وابن زيد ـ.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ أي: خلق الموت فيه، وقيل: أزال عنه حياته ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ أي:

---

(١) كون خالق الإنسان حكيماً عالماً بديهيّ؛ إذ صدر عنه هذاالمخلوق العجيب بعناية وتدبير، لا يمكن أن يذهب عن أحد، فإنّ النطفة ليس الحيوة من مقتضى ذاتها، فإنّ مقتضى الشي من لوازمه لا ينفكّ عنه، فصيرورته حيّا ليس عن ذاته، وليس أيضاً بتدبير الرحم، والحرارة الغريزية التي في الأمّ، فإنّها وأمثالها أيضاً ليست الحيوة من مقتضى ذاتها، فكيف تعطي غيرها فان الأمّ تموت أيضاً، ولو كانت الحياة لازمة لها لم تمت، فلا حيوة مبدأ آخر؛ لأنّ كلّ ما بالعرض يجب أن ينتهي إلى ما بالذات، فلو جمعنا آلافا من الأجسام، الجافّة، لم تبتل ما لم يرشّ عليها الماء، وأما المقادير فيكفيك أن تعلم أنّ واحدا من هذه العروق والشرائين في البدن، لو سار أضيق أو أوسع ممّا هو عليه، أحدث أمراضاً يمتنع علاجها.

صيَّره بحيث يقبر، وجعله ذا قبر، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: جعله مقبوراً، ولم يجعله ممّن يلقى إلى السباع والطير، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: أمر بأن يقبر، ـ عن أبي عبيدة ـ. ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: أحياه من قبره، وبعثه إذا شاء تعالى أن يحييه للجزاء والحساب، والثواب والعقاب، ـ عن الحسن ـ. ﴿كَلاَّ﴾ أي: حقّاً ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي: لم يقض ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ الله به من إخلاص عبادته، ولم يؤدّ حقّ الله تعالىٰ عليه، مع كثرة نعمه. قال مجاهد: هو على العموم في الكافر والمسلم، لم يعبده أحد حقّ عبادته.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ ـ بالفتح ـ. والباقون: بالكسر. وفي الشواذّ قراءة ابن محيصن: «يَعنيه» ـ بالعين، وفتح الياء ـ[1].

الحجة: قال أبو عليّ: من كسر، كان ذلك تفسيراً للنظر إلى طعامه، كما أنّ قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ تفسير للوعد. ومن فتح فقال: «أنّا» فالمعنى: على البدل بدل

---

(١) يوقف لحمزة على «امريء» بإبدال الهمزة ياء ساكنة، ويجوز التسهيل بين بين على روم الحركة.

الإشتمال؛ لأنّ هذه الأشياء مشتملة على كون الطعام وحدوثه، فهو من نحو: ﴿يَسْالُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾، و ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ﴾ و قوله: ﴿وَمَا أَنْسَنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَنُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾؛ لأنّ الذكر كالمشتمل على المذكور. ومعنى ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ إلى كون طعامه وحدوثه، وهو موضع الإعتبار. قال ابن جنّي: قوله: «يعنيه» ـ بالعين ـ قراءة حسنة، إلّا أنّ قراءة الجماعة أقوى معنى، فإنّ الإنسان قد يعنيه الشيء، ولا يغنيه عن غيره. ألا ترى أنّ من كان له ألف درهم، فيؤخذ منها مائة درهم، يعنيه أمرها ولا يغنيه عن بقية ماله أن يهتمّ به، ويراعيه. فأمّا إذا أغناه الأمر عن غيره، فإنّ ذلك أقوى فاعرفه.

اللغة: الحديقة: البستان المحوط. وجمعه: حدائق. ومنه: قولهم: أحدق به القوم: إذا أحاطوا به. والغلب: الغلاظ. شجرة غلباء: غليظة. قال الفرزدق:

عَوىٰ فَأَثارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيّاً ... فَوَيْلُ ابْنِ المُراغَةِ مَااسْتَثارَا[1]

والأبُّ: المرعى من الحشيش، وسائر النبات الذي ترعاه الأنعام والدوابّ. ويقال: أب إلى سيفه فاستلّه أي: بدر إليه، وهب إليه. فيكون كبدور المرعى بالخروج. قال الأعشى:

صَرَمْتُ، وَلَمْ أَصْرِمْكُمُ، وَكَصارِمٍ ... أَخٌ قَدْ طَوىٰ كَشْحاً، وَأَبِ لِيَذْهَبا[1]

وقال في الأبّ:

جَذْمُنا قَيْسٌ، وَنَجْدٌ دارُنا ... وَلَنَا الأَبُّ بِها، وَالمَكْرَعُ[2]

والصاخّة: الصاكّة؛ لشدّة صوتها الآذان فتصمّها. والقترة: ظلمة الدخان.

---

(١) يهجو جريراً، والمراغة أمّه، قيل لقبها به الاخطل أي: يتمرّغ الرجال عليها، وأراد بأغلب ضيغميّا نفسه يعني: حركتي جرير لا هجوه، وأغلب الأسد لغلظه.

(٢) جذمنا: أي أصلنا، وفي نسخة «جدنا». والمكرعات النخيل التي على الماء. والمكرع: المنهل.

[١] الصرم: القطع. أي صرمتكم في تهيّؤ لمفارقتكم، ومن تهيأ للمفارقة فهو كمن صرم.

ومنه: القتار: ريح الشواء؛ لأنّها كالدخان.

﴿الإعراب﴾: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ﴾ العامل في الظرف في قوله: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: ثبت لكل امرىءٍ منهم ذلك في وقت مجيء الصاخّة.

﴿المعنى﴾: لمّا ذكر سبحانه خلق ابن آدم، ذكر رزقه ليعتبر، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ الذي يأكله، ويتقوّته من الأطعمة الشهية اللذيذة، كيف خلقها سبحانه، وهيّأها لرزق عباده، ليفكر كيف مكّنه من الإنتفاع بذلك. ثمّ بيّن فقال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبّاً﴾ أي: أنزلنا الغيث إنزالاً ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقّاً﴾ بالنبات.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿حَبّاً﴾ أي: جنس الحبوب التي يتغذّى بها، وتدّخر ﴿وَعِنَباً﴾ خصَّ العنب، لكثرة منافعه ﴿وَقَضْباً﴾ وهو القت الرطب يقضب مرّة بعد أُخرى، يكون علفاً للدوابّ، ـ عن ابن عباس والحسن ـ. ﴿وَزَيْتُوناً﴾ وهو ما يعصر عنه الزيت ﴿وَنَخْلاً﴾ جمع نخلة.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾ أي: وبساتين محوطة تشتمل على أشجار على عظام غلاظ مختلفة. وقيل: غلباً ملتفّة الشجر، ـ عن مجاهد ـ. ﴿وَفَاكِهَةً﴾ يعني: سائر ألوان الفواكه ﴿وَأَبّاً﴾ وهو المرعى والكلأ الذي لم يزرعه الناس ممّا تأكله الأنعام. وقيل: إنّ الأب للأنعام كالفاكهة للناس ﴿مَتَاعاً﴾ أي: منفعة ﴿لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ مرَّ معناه.

ثمّ ذكر يوم القيامة، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يعني: صيحة القيامة، ـ عن ابن عباس ـ. سمّيت بذلك؛ لأنّها تصخّ الآذان أي: تبالغ في إسماعها، حتى تكاد تصمّها. وقيل: لأنّها يصخّ لها الخلق أي: يستمع، وقد قلب حرف التضعيف ياء لكراهية التضعيف، فقالوا: اصاخ كما قالوا: تظنّيت في «تظنّنت»، وتَقَضّيَ

البازي[١] في «تقضض».

ثمّ ذكر سبحانه في أيّ وقت تجيء الصاخّة، فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي: وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ أي: وأولاده الذكور أي: لا يلتفت إلى واحد من هؤلاء؛ لعظم ما هو فيه، وشغله بنفسه، وإن كان في الدنيا يعتني بشأنهم. وقيل: يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم إيّاه بما بينه وبينهم، من التبعات والمظالم. وقيل: لعلمه بأنّهم لا ينفعونه، ولا يغنون عنه شيئاً. ويجوز أن يكون مؤمناً، وأقرباؤه من أهل النار فيعاديهم، ولا يلتفت إليهم، أو يفرّ منهم لئلّا يرى ما نزل بهم من الهوان.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: لكل إنسان منهم أمر عظيم يشغله عن الأقرباء، ويصرفه عنهم. ومعنى يغنيه: يكفيه من زيادة عليه أي: ليس فيه فضل لغيره، لما هو فيه الأمر الذي قد اكتنفه، وملأ صدره، فصار كالغني عن الشيء في أمر نفسه، لا ينازع إليه. وروي عن عطاء بن يسار، عن سودة زوجة النبيّ ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس عراة حفاة غرلاً[١] [عزلاً] يلجمهم العرق، ويبلغ شحمة الأذان» قالت قلت: يا رسول الله! واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض! قال: شغل الناس عن ذلك. وتلا رسول الله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

ثمّ قسّم سبحانه أحوال الناس في ذلك اليوم، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ أي: مشرقة مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ من سرورها وفرحها بما أعدَّ لها من الثواب، وأراد بالوجوه أصحاب الوجوه ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: سواد وكآبة للهمّ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: سواد أو كسوف عند

---

(١) هذا جزء بيت قد مرّ بتمامه في الجزء الأول فراجع.

[١] الغرل ـ جمع الأغرل ـ: وهو الأقلف.

معاينة النار. وقيل: إنّ الغبرة ما انحطت من السماء إلى الأرض. والقترة ما ارتفعت من الأرض إلى السماء. ـ عن زيد بن أسلم ـ.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ في أديانهم ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في أفعالهم. واستدلّت الخوارج بذلك على أنّ من ليس بمؤمن، لا بدَّ أن يكون كافراً، فإنّ الله سبحانه قسّم الوجوه هذين القسمين، ولا تعلّق لهم به؛ لأنّه سبحانه ذكر هنا قسمين من الوجوه متقابلين: وجوه المؤمنين، ووجوه الكفّار، ولم يذكر وجوه الفسّاق من أهل الصلاة. فيجوز أن يكون لها صفة أُخرى، بأن يكون عليها غبرة لا تغشاها قترة، أو يكون عليها صفرة، أو لون آخر.

سورة التكوير

ومنهم من يقول: سورة التكوير، مكّيّة.

عدد آيها: تسع وعشرون آية.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة «إِذَا الشَّمْسُ كوِّرت» أعاذه الله تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته». ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن ينظر إليَّ يوم القيامة، فليقرأ «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». وروي أبو بكر قال: قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب! قال: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت». فأما ما روي عن أنس أن سئل هل اختضب رسول الله ﷺ فقال: ما شانه الشيب. فقيل: أو شينٌ هويا أبا حمزة؟ فقال: كلّكم يكرهه. فالوجه فيه أنا يجوز أن يكون المراد بقوله: شيبتني، أنّه لو كان أمر يشيب منه إنسان، لشبت من قراءة هذه السطور. وقد روي أنّ عليّاً عليه السلام لما غسل رسول الله ﷺ وجد في لحيته شعرات بيضاً، ومالا يظهر إلّا بعد التفتيش، لا يكون شيباً.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة عبس بذكر يوم القيامة وأهوالها، افتتح هذه السورة أيضاً بذكر علاماتها وأحوالها، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

القراءة: قرأ ابن كثير وأهل البصرة: ﴿سُجِرَتْ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: بالتشديد. وقرأ أهل المدينة وابن عامر وعاصم ويعقوب وسهل: ﴿نُشِرَتْ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: بالتشديد. وقرأ أهل المدينة وابن عامر ورويس وعاصم غير يحيى و حماد: ﴿سُعِّرَتْ﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ أبو جعفر: قتّلت» ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام «وإذا المَوَدَّةُ» سئلت ـ بفتح الميم والواو ـ. وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام. «وَإِذَا المَوْءُدَةُ سَألت[1] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» وهو قراءة

(١) أي: بصيغة المعلوم، كما حكاه في فصل الخطاب عن السيد المرتضى رحمه الله ويوقف ←

ابن عباس ويحيى بن يعمر ومجاهد وأبي الضحى وجابر بن زيد.

الحجة: قال أبو عليّ: حجة ﴿سُجِّرَتْ﴾ قوله: ﴿وَالبَحْرِ المَسْجُورِ﴾. وقيل في البحر المسجور: إنه الفارغ والممتلىء ومن الممتلىء قول الشاعر في صفة وعل:

إذا شاءَ طالَعَ مَسْجُورَةً ... تَرىٰ حَوْلَهَا النَّبْعَ، وَالساسَمَا[1]

وحجّة تشديد ﴿نُشِرَتْ﴾ قوله: ﴿صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾. وحجّة ﴿سُعِرَتْ﴾ بالتخفيف ـ قوله: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ فسعير، فعيل بمعنى مفعول. وهذا إنّما يجيء من فعل. وحجّة من قال: ﴿سُجِّرَتْ﴾ أنّ الفعل مسند إلى ضمير كثرة من باب ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَبَ﴾. وحجّة ﴿نُشِرَتْ﴾ ـ خفيفة ـ قوله: ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾. وحجّة ﴿سُعِّرَتْ﴾ ـ مشدّدة ـ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيراً﴾ فهذا يدلّ على كثرة، وشيء بعد شيء، فحقّه التشديد. ومن قرأ: «وإذا الموءُودة سَألت» ـ بفتح السين ـ جعل الموءُودة موصوفة بالسؤال وبالقول «بأيّ ذنب قتلت». ويمكن أن يكون الله سبحانه أكملها في تلك الحال، وأقدرها على النطق حتى قالت ذلك القول، ويعضده ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «يجيء المقتول ظلماً يوم القيامة، وأوداجه تشخب دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، متعلّقاً بقاتله يقول: يا ربّ! سل هذا فيم قتلني». ومن قرأ: «قتلت» ـ بالتشديد ـ فالمراد به تكرار الفعل؛ لأنّ المراد بالموءُودة هنا الجنس. فإرادة التكرار جائزة. وأمّا من قرأ: ﴿المَوَدَةُ﴾ ـ بفتح الميم والواو ـ فالمراد بذلك الرحم والقرابة، وأنّه يسأل قاطعها عن سبب

← لحمزة على الموؤدة بوجهين: أحدهما: على وزن «معونة» بنقل حركة الهمزة إلى الواو قبلها وحذف الهمزة. والثاني: بتشديد الواو على وزن «بلوطة» ويوقف له على سئلت بتسهيل الهمزة كالياء، أو بإبدالها واواً مكسورة على مذهب الأخفش.

(١) النبع والساسم: نوعان من الشجر. ومسجورة: صفة بركة. والبيت لنمر بن تولب.

قطعها. وروي عن ابن عباس أنّه قال: هو من قتل في مودَّتنا أهل البيت عليهم السلام. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: يعني قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قتل في جهاد. وفي رواية أُخرى قال: هو من قتل في مودّتنا وولايتنا.

(اللغة): التكوير: التلفيف على جهة الإستدارة. ومنه: كوّر العمامة، كرت العمامة على رأسي أكورها كوراً، وكوّرتها تكويراً. وطَعَنَهُ فَكَوَّرَهُ إذا ألقاه مجتمعاً. ونعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر أي: من النقصان بعد الزيادة. والإنكدار: انقلاب الشيء حتى يصير أعلاه أسفله بما لو كان ماء لتكدّر. وأصله الإنصباب. قال العجاج: «أَبْصَرَ خِرْبانَ فَضاءٍ فَانْكَدَرْ». والعشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي قد أتى عليها عشرة أشهر من حملها. والناقة إذا وضعت لتمام ففي سنة. وأصل السجر الملء [الماء]. قال لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّرِيِّ فَصَدَّعا مَسْجُورَةً مُتَجاوِراً قُلامُها[1]

أي: مملوءة وتنور مسجور: مملوء بالنار. والمؤودة من وَأَدَ يَئِدُ وَأْداً. وكانت العرب تئد البنات خوف الإملاق. قال قتادة: جاء قيس بن عاصم التميمي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: إنّي وأدت ثماني بنات في الجاهليّة! فقال: فأعتق عن كل واحدة رقبة. قال: إنّي صاحب إبل. قال: فاهد إلى من شئت عن كل واحدة بدنة. قال الجبائي: إنّما سمّيت «موءُودة»؛ لأنّها ثقلت في التراب الذي طرح عليها، حتى ماتت. وهذا خطأ؛ لأنّ الموءُودة من وأد يئد ـ معتل الفاء ـ. ومن الثقل: آده يؤده: أثقله. وهو معتلّ العين، ولو كانت مأخوذة منه لقيل: مؤدة على وزن مَعوُدة. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سئل عن العزل فقال: ذاك الوأد الخفي[2]. قال الفرزدق:

---

(١) يعني توسّط العير والاتان ناحية النهر الصغير، وشقا عينا ملاي، وكثر عليها النبت المسمّى بالقلام.

(٢) المشهور حمل النهي على الكراهة، وأفتى بعضهم بالحرمة عن الحرة إلّا إذا شرط عليها، وذلك لأنّ المرأة تلتذّ بالإنزال.

ومِنّا الَّذِي مَنَعَ الْوائِداتِ فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ

وقال:

وَمِنَّا الَّذِي أَحْيَا الْوَئِيدَ، وَغالِبٌ وَعَمْرٌو، وَمِنّا حاجِبٌ، وَالأَقارِعُ[1]

والكشط: القلع عن شدّة التزاق. والكشط والقشط واحد. وفي حرف عبدالله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ قشطت﴾. والتسعير: تهييج النار حتى تتأجّج. ومنه: السعر؛ لأنّه حال هَيْج الثمن بالإرتفاع والإنحطاط.

الإعراب: ارتفعت ﴿الشَّمْسُ﴾ بفعل مضمر، تقديره: إذا كوّرت الشمس كوّرت. ولا يجوز إظهاره؛ لأنّ ما بعده يفسّره، وإنّما احتيج إلى إضمار فعل؛ لأنّ في «إذا» معنى الشرط. والشرط يقتضي الفعل، وجواب «إذا» قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ فإذا: في موضع النصب؛ لأنّه ظرف لـ«علمت». وعلى هذا يجري أمثاله. والجملة التي هي الفعل المحذوف مع فاعله بعد «إذا» في موضع جرّ بإضافة «إذا» إليها، والتقدير: وقت تكوير الشمس، تعلم كل نفس ما عملته، وتجزى به. وعلى هذا فهنا إثنا عشر ظرفاً، كلها إضافة إلى الجمل من قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾. والعامل فيها كلها: قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

المعنى: أخبر الله سبحانه عن القيامة وشدائدها، فقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: ذهب ضوؤها ونورها، فأظلمت واضمحلت، ـ عن ابن عباس وأبي [و]مجاهد وقتادة ـ. وقيل: أُلقيت ورمي بها، ـ عن أبي صالح، والربيع [الربيع] بن

---

(١) كانت أم الفرزدق ليلى بنت الحابس اخت الاقرع والاقارع أي: الاقرع وذووه والاقرع هو صحابي مشهور بالكرم وفي البيتين إشارة إلى قصة لصعصعة جد الفرزدق قدم على رسول الله ﷺ وقال في كلامه قد احييت ثلثمائة وستين من الموؤدة اشتريت كلّ واحدة منهن بناقتين عشرا وين وجمل فهل لي في ذلك اجر فقال رسول الله ﷺ هذا باب من البر ولك اجره إذ من الله عليك بالاسلام وهذا يدلّ على ان العقل حجة في الاحكام.

خيثم [خثيم] ـ. وقيل: جمع ضوؤها، ولفّت كما تلفّ العمامة، ـ عن الزجّاج ـ. والمعنى: إنّ الشمس تكوّر بأن يجمع نورها حتى تصير كالكارة الملقاة، ويذهب ضوؤها، ويحدث الله تعالى للعباد ضياء غيرها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تساقطت وتناثرت، ـ عن مجاهد وقتادة والربيع بن خيثم [خثيم] ـ. يقال: انكدر الطائر من الهواء: إذا انقض. وقيل: تغيَّرت من الكدورة، ـ عن الجبائي ـ. والأوّل أولى ؛لقوله: ﴿وَإِذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ إلّا أن تقول يذهب ضوؤها، ثمّ تتناثر. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض، فصارت هباء منبثاً، وسراباً.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ وهي النوق الحوامل، أتت عليها عشرة أشهر، وبعد الوضع تسمّى عشاراً أيضاً. وهي أنفس مال عند العرب ﴿عُطِّلَتْ﴾ أي: تركت هملاً بلا راع. وقيل: العشار السحاب تعطل فلا تمطر، ـ عن الجبائي ـ. وحكي ذلك عن أبي عمرو. قال الأزهري: لا أعرف هذا في اللغة.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت حتى يقتصّ لبعضها من بعض، فيقتصّ للجماء من القرناء. ويحشر الله سبحانه الوحوش؛ ليوصل إليها ما تستحقّه من الأعواض على الآلام التي نالتها في الدنيا، وينتصف لبعضها من بعض، فإذا وصل إليها ما استحقته من الأعواض[1]، فمن قال: إنَّ العوض دائم تبقى منعمة إلى

---

(١) العوض: ما يستحقّه المخلوق على ما أصابه من جانب الله تعالى من المصائب والآلام. والثواب: ما يستحقّه على الأفعال الاختيارية والتفضّل: ما يصل إلى العبد من غير استحقاق، سوءا كان على ما صدر عنه من إختيار أو من غير اختيار، فقد ورد في الأحاديث ما يزيد الله تعالى في ثواب الفقراء وأصحاب الأمراض والعاهات. وقال رسول الله ﷺ لكل كبد حرى اجر واحياء الحيوانات يستلزم بقاء أرواحها بعد الموت، حتّى يكون ما يحيى عين ما كان في الدنيا. ومذهب كثير من الحكماء أن أرواحها مجرّدة نوع تجرّد، ومقتضى العدل ←

الأبد. ومن قال: تستحقّ العوض منقطعاً، فقال بعضهم: يديمه الله لها تفضّلاً؛ لئلّا يدخل على المعوّض غمّ بانقطاعه. وقال بعضهم: إذا فعل الله بها ما استحقته من الأعواض، جعلها تراباً.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أُرسل عذبها على مالحها، ومالحها على عذبها، حتى امتلأت. وقيل: إنّ المعنى: فجر بعضها في بعض، فصارت البحور كلها بحراً واحداً، ويرتفع البرزخ، ـ عن مجاهد ومقاتل والضحاك ـ. وقيل: سجّرت أي: أُوقدت، فصارت ناراً تضطرم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يبست وذهب ماؤها، فلم يبق فيها قطرة، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: ملئت من القيح والصديد الذي يسيل من أبدان أهل النار في النار، وأراد بحار جهنّم؛ لأنّ بحور الدنيا قد فنيت، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن كل واحد منها إلى شكله، وضمّ إليه. والنفس يعبّر بها عن الإنسان، وقد يعبّر بها عن الروح. فالمعنى: قرن كل إنسان بشكله من أهل النار، وبشكله من أهل الجنّة، ـ عن عمر بن الخطاب وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة ـ. وقيل: معناه: ردَّت الأرواح إلى الأجساد، فتصير أحياء، ـ عن عكرمة والشعبي وأبي مسلم ـ. وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من إنسان، أو شيطان، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: زوّجت أي: قرنت نفوس الصالحين من المؤمنين بالحور العين، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين، ـ عن عطاء ومقاتل ـ. ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ يعني: الجارية المدفونة حيّاً، وكانت المرأة إذا حان وقت ولادتها حفرت حفرة، وقعدت على رأسها، فإن ولدت بنتاً رمت بها

← الالهي تعويضها من آلامها، حتّى تساوي النعم على المخلوقين في مذهب العدليّة. ونقل الامام الرازي في الآية قولاً آخر لابن عباس، وهو انّ حشر الوحوش عبارة عن موتها، يقال إذا اجحفت السنة بالناس، وأموالهم حشرتهم، وهذا خلاف الظاهر.

في الحفرة، وإن ولدت غلاماً حبسته، ـ عن ابن عباس ـ. قال شاعرهم:

سَمَيْتُها إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صِهْرُ ضامِنٌ زَمِيتُ[1]

ومعنى قوله «سئلت»: ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ أنّ الموءُودة تسأل، فيقال لها: بأيّ ذنب قتلت، ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها؛ لأنّها تقول: قتلت بغير ذنب. ويجري هذا مجرى قوله سبحانه لعيسى عليه السلام ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلٰهين من دون الله﴾ على سبيل التوبيخ لقومه وإقامة الحجّة عليهم، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: إنّ معنى ﴿سُئِلَتْ﴾ طولب قاتلها بالحجّة في قتلها، وسئل عن سبب قتلها، فكأنّه قيل: والموءُودة يُسأل قاتلها بأيّ ذنب قتلت هذه. ونظيره قوله: ﴿إِنَّ العَهْدِ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ أي: عنه، ـ عن أبي مسلم ـ. وعلى هذا فيكون القتلة هنا هم المسؤولين على الحقيقة، لا المقتولة، وإنّما المقتولة مسؤول عنها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني: صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها أعمال أهلها، من خير وشرّ، تنشر ليقرأها أصحابها، ولتظهر الأعمال، فيجازوا بحسبها.

﴿وَإِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أُزيلت عن موضعها، كالجلد يزال عن الجزور، ثمّ يطويها الله. وقيل: معناه: قلعت كما يقلع السقف، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: كشفت عمّن فيها. ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه، كما يكشط الجلد عن السنام. ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أُوقدت وأُضرمت حتى ازدادت شدّة على شدّة. وقيل سعرها غضب الله، وخطايا بني آدم، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قربت من أهلها للدخول. وقيل: قربت بما فيها من النعيم، فيزداد المؤمن سروراً، ويزداد أهل النار حسرة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا

---

(١) زميت: أي وقور.

﴿أَحْضَرَتْ﴾ أي: إذا كانت هذه الأشياء التي تكون في القيامة، علمت في ذلك الوقت كل نفس ما وجدت حاضراً من عملها، كما قالوا: أحمدته وجدته محمّداً. وقيل: علمت ما أحضرته من خير وشرّ. وإحضار الأعمال مجاز؛ لأنّها لا تبقى، والمعنى: إنّه لا يشذّ عنها شيء، فكأنّ كلها حاضرة. وقيل: إنّ المراد صحائف الأعمال.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة، غير سهل وابن كثير والكسائي: «بظنين» ـ بالظاء ـ. والباقون: ﴿بِضَنِينٍ﴾ ـ بالضاد ـ[1].

الحجة: الظنين: المتّهم من قولهم: ظننت أي: اتهمت لا من «ظننت» المتعدّي إلى مفعولين؛ إذ لو كانت منه لكان لا بدّ من ذكر المفعول الثاني. وفي أنّه [أنْ] لم يُذكَر المفعول الآخر، دلالة على أنّه من «ظننت» بمعنى «اتّهمت». وكان النبيّ ﷺ يعرف بالأمين، وبذلك وصفه أبو طالب في قوله:

---

(١) قيل: لا مخالفة في الرسم بين الضاد والظاء، إلّا في تطويل رأس الظاء على الظاد، وهذا في الرسم القديم، وبدّل التطويل في الرسوم الجديدة بألف على الظاء. وقيل: هو في مصحف ابن مسعود بالظاء.

إنَّ ابْنَ آمِنَةَ الأَمِينَ مُحَمَّداً عِنْدي بِمِثْلِ مَنازِلِ الأَوْلادِ

ومن قرأ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ فهو من البخل. والمعنى: إنّه يخبر بالغيب، فيبيّنه ولا يكتمه، كما يمتنع الكاهن من إعلام ذلك حتى يأخذ عليه حُلواناً[١].

(اللغة): الخنّس: جمع خانس. والكنّس: جمع كانس. وأصلهما الستر. والشيطان خنّاس؛ لأنّه يخنس إذا ذكر الله تعالى أي: يذهب ويستتر. وكناس الطير والوحش: بيت يتّخذه ويختفي فيه. والكواكب تكنس في بروجها كالظباء تدخل في كناسها. وعسعس الليل: إذا أقبل من أوّله وأظلم. وعسعس: إذا أدبر، وهو من الأضداد. قال علقمة بن قرط:

حَتّىٰ إذَا الْصُبْحُ لَها تَنَفَّساَ وَانْجابَ عَنْها لَيْلُها، وَعَسْعَسا[١]

والعس: طلب الشيء بالليل. ومنه: أخذ العسس. ويقال: عسعس الليل، وسعسع.

(الإعراب): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: جواب القسم. ثمّ وصف الرسول بأوصاف إلى قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ ثمّ قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ وهو معطوف على جواب القسم، وكذلك ما بعده. وقوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ اعتراض. قال الفرّاء: تقول العرب إلى أين تذهب، وأين تذهب. وتقولون: ذهبت الشام، وخرجت الشام، وانطلقت السوق، سمعناه في هذه الأحرف الثلاثة. وأنشد الفرّاء:

تَصِيحُ بِنا حَنِيفَةُ إذْ رَأَتْنا وَأَيَّ الأَرْضِ تَذْهَبُ لِلصِّياحِ[٢]

يريد: إلى أيّ الأرض، ولم يحك سيبويه من هذا إلّا ذهبت الشام. وعلى هذا جاء ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ والمعنى: فإلى أين تذهبون.

---

(١) يصف مفازة. وضمائر التأنيث راجعة إليها. وإنجاب أي: كشف.

(٢) حنيفة: قبيلة. والضمير في «تذهب» ترجع إليها.

[١] الحُلوان ـ بضمّ الحاء ـ: الأجرة.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَلَمِينَ﴾ جواب القسم أيضاً. وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ داخل في جواب القسم أيضاً. وقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ﴾ : بدل من قوله: ﴿لِلْعَلَمِينَ﴾ بدل البعض من الكل، فإذا السورة كلها مركّبة من فعل وفاعل، ومن قسم وأجوبة.

المعنى: ثمّ أكّد سبحانه ما تقدّم بالقسم، فقال: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ أي: فأُقسم، و«لا» زائدة، وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيه عند قوله: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيامَةِ﴾ . ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ وهي النجوم تخنّس بالنهار، وتبدو بالليل ﴿وَالجَوَارِى﴾ صفة لها؛ لأنّها تجري في أفلاكها ﴿الْكُنَّسِ﴾ من صفتها أيضاً؛ لأنّها تكنس أي: تتوارى في بروجها، كما تتوارى الظباء في كناسها، وهي خمسة أنجم: زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد[1]، عن عليّ عليه السلام. وقيل: معناه: انّها تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها، فهذا خنوسها وكنوسها. وقيل: هي بقر الوحش، ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: الظباء، ـ عن ابن جبير ـ.

---

(١) هذه الخمسة تسمّى بالخمسة المتحيّرة، وذلك لأنّ سيرها لا يشبه سير القمر والشمس، بل تسير مثلاً من برج الحمل إلى برج الثور، فتقف في مكانها أيّاماً لا يرى فيها حركة، ثمّ ترجع في المسير حتّى تدخل ثانيا برج الحمل من آخره، فتقف أيّاماً، ثمّ تستقيم في سيرها، وهكذا حتّى إنّ المشتري ترجع في دورة واحدة إحدى عشرة رجعة، وزحل تسعا وعشرين رجعة، وهذا بنظم وقدر معين، كساير الحركات الفلكيّة، وكان قدماء المنجّمين ينسبون ذلك إلى أفلاك صغار، غير محيطة بالأرض، إذا حصل الكوكب في حضيضها ترى راجعة، أو في ذروتها ترى مستقيمة، ويسمّونها فلك التدوير، وأمّا اليوم فينسبونها إلى امتزاج حركة الأرض، وحركة تلك الكواكب، وشرح ذلك يطول .وقال الإمام الرازي: رجوعها هو الخنوس، وكنوسها اختفائها تحت ضوء الشمس يعني: عند الاحتراق، أو في النهار. وروي الطبري عن ابن زيد: إنّها تخنس تتاخّر عن مطلعها، تتأخّر كلّ عام عن تعجيل ذلك الطلوع، والكنس تكنس بالنهار فلا ترى، والأصل في ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، واختلف الرواة في التعبير؛ لعدم مهارتهم في النجوم. والأظهر أنّ الخنس إشارة إلى اختفائها في ضوء الشمس، والجواري إلى استقامتها، والكنس إلى رجعتها إلى منزلها الأوّل.

﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: إذا أدبر بظلامه، ـ عن عليّ عليه السلام وابن عباس ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: أقبل بظلامه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: أظلم، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أسفر وأضاء، والمعنى: امتدّ ضوؤه حتى يصير نهاراً.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جواب القسم أي: إنّ القرآن قول رسول كريم على ربّه، وهو جبرائيل، وهو كلام الله تعالىٰ، أنزله على لسانه أي: سمعه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من جبرائيل، ولم يقله من قبل نفسه، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: إنّما أضافه إلى جبرائيل؛ لأنّ الله تعالىٰ قال لجبرائيل: إئت محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وقل له كذا.

ثمّ وصف جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: فيما كلّف وأُمر به، من العلم والعمل، وتبليغ الرسالة. وقيل: ذي قدرة في نفسه، ومن قوّته قلعهُ ديار قوم لوط بقوادم جناحه، حتى بلغ بها السماء، ثمّ قلبها. ﴿عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ معناه: متمكّن عندالله صاحب العرش وخالقه، رفيع المنزلة، عظيم القدر عنده، كما يُقال: فلان مكين عند السلطان. والمكانة: القرب.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السماء تطيعه ملائكة السماء. قالوا: ومِن طاعة الملائكة لجبرائيل، أنّه أمر خازن الجنّة ليلة المعراج، حتى فتح لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أبوابها، فدخلها ورأى ما فيها، وأمر خازن النار ففتح له عنها، حتى نظر إليها.

﴿أَمِينٍ﴾ أي: على وحي الله ورسالاته إلى أنبيائه. وفي الحديث: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبرائيل عليه السلام: ما أحسن ما أثنى عليك ربّك: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ فما كانت قوّتك، وما كانت أمانتك؟ فقال: أمّا قوّتي، فإنّي بعثت إلى مدائن لوط، وهي أربع مدائن، في كل مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهن [فحملتهم] من الأرض السفلى حتى سمع

أهل السماوات أصوات الدجاج، ونباح الكلاب، ثمّ هويت بهنّ، فقلبتهنّ. وأمّا أمانتي، فإنّي لم أُؤمر بشيء فعدوته إلى غيره.

ثمّ خاطب سبحانه جماعة الكفّار، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ الذي يدعوكم إلى الله، وإخلاص طاعته ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ والمجنون: المغطى على عقله، حتى لا يدرك الأُمور على ما هي عليه؛ للآفة الغامرة له، وبغمور الآفة يتميّز من النائم؛ لأنّ النوم ليس بآفة، وهذا أيضاً من جواب القسم. أقسم الله عزَّ اسمه إنّ القرآن نزل به جبرائيل، وإنّ محمّداً ﷺ ليس على ما يرميه به أهل مكّة من الجنون.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: رأى محمّداً ﷺ جبرائيل عليه السلام على صورته التي خلقه الله تعالىٰ عليها، حيث تطلع الشمس، وهو الأفق الأعلىٰ من ناحية المشرق، ـ عن قتادة ومجاهد والحسن ـ.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: ليس هو على وحي الله تعالىٰ، وما يخبر به من الأخبار، بمتّهم، فإنّ أحواله ناطقة بالصدق والأمانة، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والضحّاك ـ. ومن قرأ بالضاد فالمعنى: إنّه ليس ببخيل فيما يؤدّي عن الله أن يعلّمه كما علَّمه الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ رجمه الله باللعنة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: رجم بالشهب طرداً من السماء، والمعنى: وليس القرآن بقول شيطان رجيم ألقاه إليه، كما قال المشركون: إنّ الشيطان يلقي إليه كما يلقي إلى الكهنة.

ثم بكَّتهم الله سبحانه، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: فأيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بيّنت لكم، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: فأين تعدلون عن هذا القرآن، وهو الشفاء والهدى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ معناه: ما القرآن إلاَّ عظة، وتذكرة للخلق، يمكنهم أن يتوصّلوا به إلى الحقّ، والذكر هو ضدّ السهو، والذاكر لا يخلو من أن يكون عالماً، أو جاهلاً، أو مقلّداً، أو شاكّاً، ولا يصحّ

شيء من ذلك مع السهو الذي يضادّ الذكر.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ على أمرالله وطاعته. ذكر سبحانه أنّه ذكر لجميع الخلق على العموم، ثمّ خصّ المستقيم؛ لأنّ المنفعة راجعة إليهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنْ اتَّبعَ الذِّكْرَ وَخَشِي الرَّحْمَنَ بِالغَيْب﴾.

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ فيه أقوال: أحدها: إنّ معناه: وما تشاؤون الإستقامة على الحقّ إلّا أن يشاء الله ذلك من حيث خلقكم لها، وكلّفكم بها، فمشيئته بين يدي مشيئتكم، ـ عن الجبائي ـ. وثانيها: إنّه خطاب للكفّار، والمراد: لا تشاؤون الإسلام إلّا أن يشاء الله أن يجبركم عليه، ويلجئكم إليه. ولكنّه لا يفعل؛ لأنّه يريد منكم أن تؤمنوا اختياراً لتستحقّوا الثواب، ولا يريد أن يحملكم عليه، ـ عن أبي مسلم ـ. وثالثها: إنّ المراد: وما تشاؤون الإسلام إلّا أن يشاء الله أن يلطف لكم في الإستقامة؛ لما في الكلام من معنى النعمة.

سورة الانفطار

وتسمّى سورة الانفطار، مكّيّة، تسع عشرة آية.

فضلها: أُبيّ بن كعب، قال: قال النبيّ ﷺ: «ومن قرأها أعطاه الله من الأجر بعدد كل قبر حسنة، وبعدد كل قطرة مائة حسنة، وأصلح الله شأنه يوم القيامة». وروي الحسن بن أبي العلاء، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ هاتين السورتين ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من الله حجاب، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إلى الله، وينظر الله إليه، حتى يفرغ من حساب الناس.

تفسيرها: لمّا كانت السورة المتقدّمة في ذكر أهوال يوم القيامة، إفتتح سبحانه هذه السورة بمثل ذلك؛ ليتّصل بها اتّصال النظير بالنظير، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ
فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ[1] ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا
كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ
﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ
﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿فَعَدَلَكْ﴾ ـ خفيفة ـ. والباقون: بالتشديد. وقرأ أبو جعفر: «بل يكذبون» ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء، وقرأ ابن كثير، وأهل البصرة: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون: ـ بالنصب ـ. وفي الشواذّ قراءة سعيد بن جبير: «ما أغرّك بربّك».

---

(١) أدغم «بل تكذبون» حمزة والكسائي وهشام.

الحجة: أمّا «عدَّلك» ـ بالتشديد ـ فمعناه: عدل خلقك فأخرجك في أحسن تقويم. وأمّا «عَدَلك» ـ بالتخفيف ـ فمعناه: عدل بعضك ببعض، فكنت معتدل الخلقة متناسبها، فلا تفاوت فيها. وقوله: «يكذبون» ـ بالياء ـ يكون إخباراً عن الكفّار. وبالتاء على خطابهم.

وأمّا وجه الرفع في قوله: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ أنّه خبر مبتدأ محذوف أي: هو يوم لا تملك. والمعنى: يوم الدين يوم لا تملك نفس.

وأمّا النصب: فإنّه لمّا قال: ﴿وَمَا أَدْرَكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [فجرى ذكر الدين]، وهو الجزاء قال: ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ﴾ يعني: الجزاء يوم لا تملك نفس، فصار ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ﴾ خبر الجزاء المضمر؛ لأنّه حدث. وتكون أسماء الزمان أخباراً عن الحدث.

ويجوزالنصب على وجه آخر، وهو أنّ «اليوم» لمّا جرى في أكثر الأمر ظرفاً، ترك على ما كان يكون عليه في أكثر أمره. والدليل على ذلك ما اجتمع عليه القُراء والعرب في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾.

وممّا يقوي النصب في ذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَٰكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونَ النَّاسُ﴾ . وقوله: ﴿يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾، فالنصب في ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ مثل هذا ونحوه. قال أبو الحسن: ولو رفع ذلك كلّه كان جيّداً، إلاَّ أنّا نختار ما عليه الناس.

وأمّا من قرأ: «ما أغرَّك»: فيجوز أن يكون معناه: ما الذي دعاك إلى الإغترار به. ويجوز أن يكون تعجّباً. وقد قيل في قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ هذان الوجهان. و«أغرك» يجوز أن يكون من الغرّ والغرارة، فيكون معناه: ما أجهلك وما أغفلك عمّا يُراد بك. ويجوز أن يكون من الغرور على غير القياس،

كما قيل في المثل: «أشغل من ذات النحيين»[١].

اللغة: الإنفطار والإنشقاق والإنصداع، نظائر. والإنتثار: تساقط الشيء من [في] الجهات. والتفجير: خرق بعض مواضع الماء إلى بعض على التكثير. ومنه: الفجور؛ لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب. ومنه: الفجر؛ لانفجاره بالضياء. وبعثرت الحوض وبحثرته: إذا جعلت أسفله أعلاه. والبعثرة والبحثرة إثارة الشي بقلب باطنه إلى ظاهره. والغرور: ظهور أمر يتوهّم به جهلاً الأمان من المحذور، يُقال: غرّه غروراً واغتّره اغتراراً. قال الحرث بن حلزة:

لَمْ يُغَرُّوكُمُ غُرُوراً، وَلٰكِنْ رَفَعَ الآلُ جَمْعَهُمْ، وَالضُّحَاءُ[٢]

الإعراب: قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ﴾ يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مزيدة مؤكّدة، والمعنى: في أيّ صورة شاء ركّبك، إمّا طويلاً، وإمّا قصيراً، وإمّا كذا وكذ. ويكون ﴿رَكَّبَكَ﴾ عطفاً على ﴿فَعَدَلَكَ﴾ فحذف الواو. ويجوز أن يكون «ما» في معنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: في أيّ صورة ما شاء أن يركبك فيها ركّبك، ولا يكون على هذا قوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ﴾ من صلة ﴿رَكَّبَكَ﴾؛ لأنّ سيبويه قال: أن تضرب زيداً أضرب عَمراً، ولا يجوز تقديم عمرو على «إن»، فوجب أن قوله: «في أيّ صورة» من صلة مضمر، ولا يكون من صلة «عدلك»؛ لأنّه استفهام، فلا يعمل فيه ما قبله. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون في

---

(١) النِحي ـ بكسر النون ـ زق السمن. وذات النحيين: امرأة كانت تبيع السمن، فجائها رجل ليشتري منها سمنا، فحلت لها رأس زق فقال الرجل لها: امسكيه بيدك حتى انظر زقّا آخر، فامسكتها فحل زقا آخر وقال لها أمسكيه بيدك، فلما اشغل يديها اشتهى أن يزني بها، فذهب إلى خلفها وهي منحنية شاغلة يداها، فرفع ثوبها، وأدخل فيها حتى قضى حاجته منها، كما أراد ثمّ أسلم وتاب وهو الذي قال له رسول الله ﷺ يا خوات كيف شرائك وتبسّم.

(٢) يعني: لم يأتوكم بغته، بل كنتم ترونهم في ضحى النهار. والآل: السراب. والبيت من المعلّقات.

موضع رفع،فيكون خبراً؛لأنّه خبر بعد خبر،والتقدير: إنّ الفجّار في جحيم صالون.

المعنى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقّت وتقطّعت، ومثله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بالغَمَام﴾ الآية. ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت وتهافتت. قال ابن عباس: سقطت سوداً لا ضوء لها[1].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: فتح بعضها في بعض، عذبها في ملحها، وملحها في عذبها، فصارت بحراً واحداً، ـ عن قتادة والجبائي ـ. وقيل: معناه: ذهب ماؤها، ـ عن الحسن ـ. ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قلب ترابها، وبعث الموتى الذين فيها. وقيل: معناه: بحثت عن الموتىٰ، فأُخرجوا منها يريد عند البعث، ـ عن ابن عباس ومقاتل ـ.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وهذا كقوله سبحانه: ﴿يَنْبَّؤُ الإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَرْ﴾ وقد مرَّ ذكره. عن عبدالله بن مسعود قال: ما قدَّمت من خير أو شرّ، وما أخّرت من سنّة حسنة استنَّ بها بعده، فله أجر من اتّبعه، من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، أو سنّة سيّئة عمل بها بعده، فعليه وزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. ويؤيّد هذا القول ما جاء في الحديث: إنّ سائلاً قام على عهد النبيّ ﷺ فسأل فسكت القوم. ثم إنّ رجلاً أعطاه فأعطاه القوم. فقال النبيّ ﷺ: «من استنّ خيراً فاستنَّ به، فله أجره، ومثل أُجور من اتّبعه من غير منتقص من أُجورهم، ومن استنَّ شرّاً فاستنَّ به، فعليه وزره ومثل أوزار من اتّبعه، غير منتقص من أوزارهم». قال فتلا حذيفة بن اليمان ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا

---

(١) كان القدماء من الحكماء يرون أنّ السموات لن تزول، ولن تنشقّ، ولكن الحقّ أنّ الكرات السماويّة كالكرة الأرضية في معرض التفرّق والزوال، والشمس والقمر يزول نورهما، وضوئهما، ويموتان كسائر الأجسام، كما أخبر الله تعالى، ففي كل يوم هو في شأن يخرب عالماً، ويحدث عالما، بل عوالم.

قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: أيّ شيء غرّك بخالقك، وخدعك، وسوّل لك الباطل حتى عصيته وخالفته، وروي أنّ النبيّ ﷺ لما تلا هذه الآية قال: «غرّه جهله». واختلف في معنى «الكريم» فقيل: هو المنعم الذي كل أفعاله إحسان وإنعام، لا يجرُّ به نفعاً، ولا يدفع به ضرراً. وقيل: هو الذي يعطي ما عليه، وما ليس عليه، ولا يطلب ما له. وقيل: هو الذي يقبل اليسير، ويعطي الكثير. وقيل: إنّ مِن كرمه سبحانه، أنّه لم يرض بالعفو عن السيّئات حتى بدّلها بالحسنات.

وقيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله يوم القيامة بين يديه، فقال: ما غرّك بربّك الكريم، ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول غرّني ستورك المرخاة، وقال يحيىٰ بن معاذ: لو أقامني الله بين يديه، فقال: ما غرّك بي؟ قلت: غرّني بك برُّك بي سالفاً وآنفاً. وعن بعضهم قال: غرّني حلمك، وعن أبي بكر الوراق: غرّني كرم الكريم، وإنّما قال سبحانه الكريم، دون سائر أسمائه وصفاته؛ لأنّه كأنّه لقّنه الإجابة حتى يقول: غرّني كرم الكريم.

وقال عبدالله بن مسعود: ما منكم من أحد إلاّ سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: يابن آدم ما غرّك بي يابن آدم، ماذا عملت فيما علمت يابن آدم. ماذا أجبت المرسلين. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: كم مغرور بالستر عليه، ومستدرج بالإحسان إليه.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ من نطفة، ولم تك شيئاً ﴿فَسَوَّاكَ﴾ إنساناً تسمع وتبصر ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: جعلك معتدلاً. وقيل: معناه: عدل خلقك في العينين والأُذنين واليدين والرجلين، ـ عن مقاتل ـ. والمعنى: عدل بين ما خلق لك من الأعضاء التي في الإنسان منها اثنان، لا تفضل يد على يد، ولا رجل على رجل.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: في أيّ شبه من أب، أو أُمّ، أو خال، أو عمّ، ـ عن مجاهد ـ. وروي عن الرضاعليه السلام عن آبائه عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لرجل: ما ولد لك؟ قال: يا رسول الله! وما عسى أن يولد لي، إمّا غلام، وإمّا جارية. قال: فمن يشبه؟ قال: يشبه أُمّه أو أباه. فقال صلى الله عليه وآله: لا تقل هكذا إنّ النطفة إذا استقرّت في الرحم، أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم. أما قرأت هذه الآية «فِـي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» أي: فيما بينك وبين آدم. وقيل: في أيّ صورة ما شاء من صور الخلق ركّبك، إن شاء في صورة إنسان، وإن شاء في صورة حمار، وإن شاء في صورة قرد، ـ عن عكرمة، وأبي صالح ـ. وقال الصّادقعليه السلام: لو شاء ركّبك على غير هذه الصورة. والمعنى: إنّه سبحانه يقدر على جعلك كيف شاء، ولكنّه خلقك في أحسن تقويم، حتى صرت على صورتك التي أنت عليها، لا يشبهك شيء من الحيوان. وقيل: في أيّ صورة شاء من ذكر أو أُنثى، جسيم أو نحيف، حسـن أو دميم، طويل أو قصير.

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب، وليس هنا موضع الإنكار للبعث مع وضوح الأمر فيه، وقيام الدلالة عليه. ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ معاشر الكفّار ﴿بِالدِّينِ﴾ الذي هو الجزاء لإنكاركم البعث والنشور، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: تكذّبون بالدين الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وهو الإسـلام، ـ عـن الجبائي ـ.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ من الملائكة، يحفظون عليكم ما تـعملونه مـن الطاعات والمعاصي. ثمّ وصف الحفظة، فقال: ﴿كِرَاماً﴾ على ربّهم ﴿كَاتِبِينَ﴾ يكتبون أعمال بني آدم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير وشرّ، فيكتبونه عليكم لا يخفى عليهم [عليكم] من ذلك شيء. وقيل: إنّ الملائكة تعلم ما يفعله العبد إمّـا باضطرار، وإمّا باستدلال. وقيل: معناه: يعلمون ما تفعلون من الله [الظـاهر] دون الباطن. وفي هذا دلالة على أنّ أفعال العبد حادثة من جهتهم، وأنّهم المحدثون لها

دونه تعالىٰ، وإلّا فلا يصحّ قوله: تفعلون.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وهو الجنّة. والأبرار: أولياء الله المطيعون في الدنيا ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وهو العظيم من النار. والمراد بالفجّار هنا: الكفّار المكذّبون للنبي ﷺ لقوله ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يلزمونها بكونهم فيها ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: لا يكونون غائبين عنها، بل يكونون مؤبّدين فيها. وقد دلَّ الدليل على أنّ أهل الكبيرة من المسلمين، لا يخلّدون في النار، ولأنّه سبحانه قد ذكر المكذّبين بالدين فيما قبل هذه الآية. فالأولىٰ أن تكون لفظة «الفجّار» مخصوصة بهم. وأيضاً فإذا احتمل الكلام ذلك بطل تعلّق أهل الوعيد بعموم اللفظ.

ثمّ عظم سبحانه يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعظيماً له لشدته، وتنبيهاً على عظم حاله، وكثرة أهواله ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كرّره تأكيداً لذلك. وقيل: أراد ما أدراك ما في يوم الدين من النعيم لأهل الجنّة، وما أدراك ما في يوم الدين من العذاب لأهل النار، ـ عن الجبائي ـ.

﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً﴾ أي: لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممّن يستحقّ العقاب، كما يملك كثير من الناس في دار الدنيا ذلك.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ وحده أي: الحكم له في الجزاء والثواب، والعفو والإنتقام. وروي عمر[و] بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: إنّ الأمر يومئذ واليوم كله لله. يا جابر! إذا كان يوم القيامة بادت الحكّام، فلم يبق حاكم إلاّ الله. وقيل: معناه: يوم لا تملك نفس لنفس كافرة شيئاً من المنفعة، ـ عن مقاتل ـ. والمعنى الصحيح في الآية: إنّ الله سبحانه قد ملّك في الدنيا كثيراً من الناس أُموراً وأحكاماً، وفي القيامة لا أمر لسواه ولا حكم. ومتى قيل: فيجب أن لا يصحّ على هذا شفاعة النبيّ ﷺ. فالجواب: إنّ ذلك لا يكون إلاّ بأمره تعالى، وبإذنه، وهو من تدابيره.

سورة المطففين

وتسمّىٰ سورة التطفيف، مكّيّة، وقال المعدل: مدنيّة. عن الحسن والضحّاك وعكرمة قال: وقال ابن عباس وقتادة: إلاَّ ثماني آيات منها، وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ إلى آخر السورة.

عَدَدُ آيِهَا: ستّ وثلاثون آية بالإجماع.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب قال: قال النبيّ ﷺ: «ومن قرأها سقاه الله من الرحيق المختوم، يوم القيامة». وروي صفوان الجمال، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من كانت قراءته في الفريضة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار، ولا تراه ولا يراها، ولا يمرّ على جسر جهنّم، ولا يحاسب يوم القيامة.

تَفْسِيرُهَا: ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر القيامة، وما أعدَّ فيها للأبرار والفجّار، وبيّن في هذه السورة أيضاً ذكر أحوال الناس في القيامة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم، إلاّ يحيىٰ: ﴿رِانَ﴾ ـ بكسر الراء ـ. والباقون: بفتحها[1].

اللغة: التطفيف: نقص المكيال والميزان. والطفيف: الشيء النزر القليل، مأخوذ من طفّ الشيء، وهو جانبه. وفي الحديث: «كلكم بنو آدم طفّ الصاع لم

(١) المراد بالكسر الإمالة، وبالفتح ترك الإمالة. وسكت حفص على اللام من «بل ران» سكتة لطيفة؛ لئلّا يشتبه بكلمة «بران»، ومثله: كلمة «من راق» وقد سبق.

تملؤوه فليس لأحد فضل إلاَّ بالتقوى» وطفّ الصاع: قريب من ملئه أي: بعضكم قريب من بعض. وإناء طفان: إذا لم يكن ملآن. والإكتيال: الأخذ بالكيل. ونظيره: الإتّزان، وهو الأخذ بالوزن. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ كان عيسى بن عمر يجعل «هم» فصلاً في موضع رفع، أو تأكيداً للضمير في «كالوا أو وزنوا»، والباقون: يجعلونها ضمير المنصوب. وهو الصحيح. وأهل الحجاز يقولون: وزنتك حقّك، وكلتك طعامك، وعليه جاء التنزيل. وغيرهم يقول: وزنت لك، وكلت لك. ويُقال: أخسرت الميزان وخسرته أي: نقصت في الوزن.

والسجّين: فعّيل من السجن. قال ابن مقبل: «ضَرْباً تَواصىٰ بِهِ الأبْطَالُ سجّيناً»[1] أي: شديداً. وقيل: السجّين: هو السجن على التخليد فيه؛ لأنّ هذا الوزن للمبالغة. قالوا: شريب وسكير وشرير. والرقم: طبع الخط بما فيه علامة لأمر، يُقال: رقمت الثوب أرقمه رقماً. والرين أصله الغلبة. ران على قلبه أي: غلب عليه. والخمر ترين على قلب السكران. والموت يرين على الميّت فيذهب به. وفي حديث عمر بن الخطاب أنّه قال في أسيفع جهينة لمّا ركبه الدى: إدّانَ معرضاً فأصبح قد رين به أي: أحاط الدين بماله حتى غلبه.

﴿الإعراب﴾: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾: منصوب بقوله: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: ألا يظنّون أنّهم مبعوثون يوم القيامة.

وقيل في أصل «كلّا» قولان: أحدهما: إنّها كلمة واحدة من غير تركيب وضعت للردع والزجر، وجرت مجرى الأصوات نحو: صه ومه ونحوهما. والثاني: أنْ يكون الكاف للتشبيه دخلت على «لا»، وشدّدت للمبالغة في الزجر، مع الإيذان بتركيب اللفظ.

---

[1] وقبله: (ورجلة يضربون الهام عن عرض).

النزول: قيل: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله، عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك، ـ عن عكرمة، عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّه ﷺ قدم المدينة، وبها رجل يقال له أبو جهينة، ومعه صاعان، يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر. فنزلت الآيات، ـ عن السدّي.

المعنى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهم الذين ينقصون المكيال والميزان، ويبخسون الناس حقوقهم في الكيل والوزن. قال الزجّاج: وإنّما قيل له مطفّف؛ لأنّه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلاّ الشيء اليسير الطفيف. ثمّ فسّر المطفّفين فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إذا كالوا ما على الناس ليأخذوه لأنفسهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ عليهم الكيل، ولم يذكر: اتّزنوا؛ لأنّ الكيل والوزن بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدلّ على الآخر.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ﴾ أي: كالوا لهم، أو وزنوا لهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون[1]. والمعنى: إنّهم إذا كالوا، أو وزنوا لغيرهم نقصوا. تقول: كلتك، وكلت لك، كما تقول: نصحتك، ونصحت لك. ويروي عن ابن مسعود أنّه قال: الصلاة مكيال، فمن وفى وفى الله له، ومن طفّف قد سمعتم ما قال الله في المطفّفين.

ثمّ عجب الله خلقه من غفلة هؤلاء، حيث فارقوا أمر الله، وطريقة العدل،

---

(١) قال السيّد الفقيه، صاحب العروة الوثقى، في حواشيه على المكاسب: إنّ التطفيف مطلق التقليل، سواء كان في الكيل والوزن، أو في العدد والذرع. واستشهد بكلام القاموس والمصباح المنير. والحقّ أنّ هذه التدقيقات غير مراعاة في عبارات الناس، فلا تجد غالباً كلاماً من لغويّ يطابق كلام الاخر، بحيث لا يدخل ولا يخرج عنها [عنهما] الأفراد الشاذّة، ثمّ إنّه ليس مساق الآية صحّة المعاملة أو فسادها، بل مساقها المعصية بالتطفيف في المعاملة الصحيحة أيضاً، وأمّا عدم تعيين المقدار والجنس والوصف في أصل المعاملة، بحيث لا يعلم الحدّ الذي رضيا بالمعاوض على ذلك الحدّ، ويحتمل نقصان حقّ الآخذ عمّا رضي به في كلّ ما يعطي، فهذا يسمّى غرراً، وهو حريّ بالبطلان.

فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ أي: ألا يعلم ﴿أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، يريد: ألا يستيقن من فعل هذا أنّه مبعوث محاسب، ـ عن ابن عباس ـ.

ثم أخبر عن ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والمعنى: يوم يقوم الناس من قبورهم لأمر ربّ العالمين، ولجزائه، أو حسابه. وجاء في الحديث أنّهم يقومون في رشحهم إلى أنصاف آذانهم. وفي حديث آخر: يقومون حتى يبلغ الرشح إلى أطراف آذانهم. ويحتمل أنْ يكون المراد أيضاً ألا يحسب أُولئك؛ لأنّ من ظنّ الجزاء والبعث وقوي ذلك في نفسه، وإن لم يكن عالماً به، فإنّه يجب عليه أن يتحرّز خوفاً من العقاب الذي يجوزه ويظنّه، كما أنّ من ظنّ العطب في سلوك طريق، فواجب عليه أنْ يتجنب سلوكه.

وفي الحديث عن سليم بن عامر، عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد، حتى تكون الشمس بقدر ميل أو ميلين». قال سليم: فلا أدري أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكحل [تكحن] به العين. ثمّ قال: «صهرتهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يلجمه إلجاماً. قال: فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه قال: يلجمه إلجاماً أورده مسلم في الصحيح. وروي أنّ ابن عمر قرأ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فبكى حتى خرَّ، وامتنع من القراءة.

﴿كَلَّا﴾ هو ردع وزجر أي: ارتدعوا وانزجروا عن المعاصي، فليس الأمر على ما أنتم عليه، تمَّ الكلام هيهنا. وعند أبي حاتم سهل «كَلَّا» ابتداءٌ يتّصل بما بعده على معنى حقّاً.

﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني: كتابهم الذي فيه ثبت أعمالهم من الفجور والمعاصي، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إنّه كتب في كتابهم أنّهم يكونون

في سجّين، وهي في الأرض السابعة السفلى، ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحّاك ـ. وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «سجّين أسفل سبع أرضين». وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار، فقال: أخبرني عن قول الله تعالى: «إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ» قال: إنّ روح الفاجر يصعد بها إلى السماء، فتأبى السماء أن تقبلها، ثمّ يهبط بها إلى الأرض، فتأبى الأرض أن تقبلها، فتدخل سبع أرضين حتى ينتهي بها إلى سجّين، وهو موضع جند إبليس.

والمعنى في الآية: إنّ كتاب عملهم يوضع هناك. وقيل: إنّ سجين جبّ في جهنّم مفتوح، والفلق: جبّ في جهنّم مغطى. رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ. وقيل: السجّين: اسم لكتابهم، وهو ظاهر التلاوة أي: ما كتبه الله على الكفّار بمعنى أوجبه عليهم من الجزاء في هذا الكتاب المسمّى سجّيناً، ويكون لفظه من السجن الذي هو الشدّة، ـ عن أبي مسلم ـ.

والذي يدلّ على أنّ العرب ما كانت تعرفه، هو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ أي: ليس ذلك ممّا كنت تعلمه أنت، ولا قومك، ـ عن الزجّاج ـ. ثمّ قال مفسّراً لذلك: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي: كتاب معلوم كتب فيه ما يسوؤهم، ويسخن أعينهم. وقيل: «مرقوم» معناه: رقم لهم بشر، كأنّه أعلم بعلامة يعرف بها الكافر. والوجه الصحيح: إنّ قوله: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ليس تفسيراً لسجّين؛ لأنّه ليس السجين من الكتاب المرقوم في شيء، وإنّما هو تفسير للكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ على تقدير: وهو كتاب مرقوم، أي: مكتوب قد تبيّنت حروفه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وهذا تهديد لمن كذّب بالجزاء والبعث، ولم يصدق. وذكر صاحب النظم أنّ هذا منتظم بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ وأنّ قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ﴾ وما اتّصل به، اعتراض بينهما.

ثمّ فسّر سبحانه المكذّبين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم

الجزاء. فإنّ من كذب بالباطل لا يتوجّه إليه الوعيد، بل هو ممدوح. ثمّ قال: ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ ﴾ أي: لا يكذّب بيوم الجزاء ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي: متجاوز للحقّ إلى الباطل ﴿أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم، مبالغ في ارتكابه.

ثمّ وصف المعتدي الأثيم، بقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ وهي القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيل الأوّلين. والتقدير: قال هذا أساطير الأوّلين أي: ما سطره الأوّلون وكتبوه، ممّا لا أصل له.

﴿ كَلَّا ﴾ لا يؤمنون. وقيل: ليس الأمر على ما قالوه: ثمّ استأنف، فقال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ أي: غلب عليها ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والمعنى: غلب ذنوبهم على قلوبهم. وقيل: إنّ معنى «الرين» هو الذنب على الذنب حتى يموت القلب، ـ عن الحسن[1] وقتادة ـ. وقال الفرّاء: كثرت المعاصي منهم والذنوب، وأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها، وعن عبدالله بن مسعود قال: إنّ الرجل ليذنب الذنب، فتنكت على قلبه نكتة سوداء، ثمّ يذنب الذنب فتنكت نكتة أُخرى، حتى يصير قلبه على لون الشاة السوداء [الربداء].

وروي العياشي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإنْ تمادى في الذنوب، زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ الآية.

---

(١) هذه الآية من أدقّ علوم المعارف، وهي عند أهله من معجزات النبوّة، وبالجملة الملكات الحاصلة للنفوس، من مزاولة الأعمال مكرراً ممّا لا ينكر، وإذا كانت هذه الملكات ممّا يمنع من إدراك الأمور المعنويّة، والحقائق العقليّة استحقّ أن يطلق عليها الرين، كرين المرآت والمتوغّلون في الأمور المادّيّة وعلومها، لا يستطيعون فهم العقليّات بسهولة.

وقال أبو عبدالله عليه السلام: يصدأ القلب فإذا ذكرته بآلاء الله انجلى عنه. وقال أبو مسلم: إنّ اعتيادهم الكفر، وإلفتهم له، وغفلتهم، صار غطاء على قلوبهم، فلا يعقلون ما ينفعهم؛ لأنّ ترك النظر في العواقب، وكثرة المعاصي، والإنهماك في الفسق، يقوي الدواعي في الإعراض عن التوبة، والإيلاع بالذنوب، فصار ذلك كالغالب على القلوب الرائن عليها.

وقال أبو القاسم البلخي: وفي الآية دلالة على صحّة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع على القلوب، والختم عليها والإضلال؛ لأنّه تعالى أخبر أنّ أعمالهم السيّئة، وما كانوا يكسبونه من القبيح، ران على قلوبهم.

﴿كَلَّا﴾ يريد: لا يصدقون، ـ عن ابن عباس ـ. ثمّ استأنف ﴿إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ يعني: إنّ هؤلاء الذين وصفهم بالكفر والفجور، محجوبون[1] يوم القيامة عن رحمة ربّهم، وإحسانه وكرامته، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: ممنوعون من رحمته، مدفوعون عن ثوابه، غير مقبولين، ولا مرضيين، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: محرومون عن ثوابه وكرامته، ـ عن عليّ عليه السلام ـ. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ بعد أن منعوا من الثواب والكرامة ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي: لازمو الجحيم، بكونهم فيها لا يغيبون عنها. وقال أبو مسلم: لصائرون صلاها أي: وقودها ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخاً وتبكيتاً: ﴿هَٰذَا﴾ الذي فعل بكم من العذاب والعقاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ في دار التكليف، ويسمّي مثل هذا الخطاب تقريعاً؛ لأنّه أخبر بما يقرع بشدّة الغمّ على وجه الذمّ [«الذى»].

---

(١) هذا أيضاً من أسرار المعارف الإلهيّة، ومن معجزات النبوّة، ولا يحتاج إلى تأويل، فإنّ الحجاب عن الله أعظم العذاب، ولذلك ترى أهل الله يلتذّون بالمناجات والعبادة، وأعظم نعم الجنّة عندهم القرب إلى الله، والتهجّد لهم الزمن [الذ من] كلّ لذة.

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ
﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ
نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ
مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ
مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر ويعقوب: «تُعرف» ـ بضمّ التاء، وفتح الراء ـ: ﴿نَضْرَةُ﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون: ﴿تَعْرِفُ﴾ ـ بفتح التاء، وكسر الراء ـ «نضرةً» ـ بالنصب ـ.

وقرأ الكسائي وحده: «خاتمه» وهي قراءة عليّ عليه السلام وعلقمة. والباقون: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾.

وقرأ أبو جعفر وحفص: ﴿فَكِهِينَ﴾ ـ بغير ألف ـ. والباقون: ﴿فَٰكِهِينَ﴾. وقرأ حمزة والكسائي: «هثُوِّب الكُفّار» ـ بإدغام اللام في الثاء ـ. وقد روي نحوه عن أبي عمرو. والباقون: بالإظهار.

الحجة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ : على الخطاب، والمعني في القراءتين سواء. وقال أبو عبيدة: ختامه أي: عاقبته. قال ابن مقبل:

مِمّا يُفَتَّقُ فِي الْحانُوتِ، باطِنُهَا بِالْفُلْفُلِ الْجَوْنِ، وَالرُّمانِ، مَخْتُومُ[1]

قال أبو عليّ: ختامه مسك: المراد به لذاذة المقطع، وذكاء الرائحة وأرجها، مع طيب الطعم، وهذا كقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾، و ﴿كَانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً﴾ أي: يحذي اللسان.

وأمّا قول الكسائي «خاتمه» فإنّ معناه: آخره، كما كان «خاتم النبيّين» معناه: آخرهم. فالختام: المصدر، والخاتم: اسم الفاعل، كالطابع، والتابل. والعرب تقول: خاتَم ـ بالفتح ـ، وخاتِم، وخاتام، وخيتام.

قال سيبويه: أدغم أبو عمرو «هَثُّوّبَ الْكُفّار»، وإدغامها فيها حسن، وإنْ كان دون إدغام اللام في الراء في الحسن؛ لتقاربهما. وجاز إدغامها فيها؛ لأنّه قد أدغم في الشين فيما قد أنشده من قوله: «هشّيْءُ بكفيك لائق»[1] يريد: هل شيء.

اللغة: علّيّون: علو مضاعف، ولهذا جمع بالواو والنون تفخيماً لشأنه، وتشبيهاً بما يعقل في عظم الشأن، وهي مراتب عالية محفوفة بالجلالة. قال الشاعر:

فَأَصْبَحَتِ الْمَذاهِبُ قَدْ أَذاعَتْ بِهِ الإِعْصارُ بَعْدَ الْوابِلِينا[2]

يريد: قطراً بعد قطر غير محدود العدد، وكذلك تفخيم شأن العدد الذي ليس على الواحد، نحو: ثلاثون وأربعون إلى التسعين. وجرت العشرون عليه. وقال

---

(١) الشراب المفلفل أي: كالفلفل في حدة الطعم.

(٢) الإعصار: ريح تثير التراب. وأذاع القوم الحروض [الحوض]: شربوا جميع ما فيه.

[١] كتاب سيبويه، باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد، ونسبه لطريف بن تميم العنبري، وتمامه:

تقول إذا استهلكت مالاً للذة فكيهة هشيء يكفيك لا ئق.

الزجّاج: «علّيون» إسم لأعلى الأمكنة، وإعرابه كإعراب الجمع؛ لأنّه على لفظ الجمع، كما تقول: هذا قنسرون، ورأيت قنسرين. والأرائك: الأسرة في الحجال. والرحيق: الشراب الذي لا غشّ فيه. قال حسان:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرَدىٰ تُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ[1]

قال الخليل: هي أفضل الخمر وأجودها. والتنافس: تمنّي كل واحد من النفسين مثل الشيء النفيس الذي للنفس الأُخرى أن يكون له. تنافسوا في الشيء تنافساً، ونافسه فيه منافسة. ونفس عليه بالشيء ينفس نفاسة: إذا ضنّ به؛ لجلالة قدره عنده، وذلك الشيء الذي ينفّس به نفيس.

والمزج: خلط مائع بمائع على خلاف صفته، كمزج الشراب بالماء. والتسنيم: عين ماء يجري من علوّ إلى أسفل، يتسنّم عليهم من الغرف، واشتقاقه من السنام. وسنمت العين تسنيماً إذا أجريتها عليهم من فوقهم. والتغامز: إشارة بعضهم إلى بعض بالأعين استهزاء، وطلباً للعيب. يقال: غمز بجفنه: إذا أشار. والفاكهون: اللاهون. والفكهون: المرحون الأشرون. والفكاهة: المزاح. وأصل «الثواب» من الرجوع، كأنّه يرجع على العامل بعمله. وثاب عليه عقله: إذا رجع.

الإعراب: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يجوز أن تكون منصوبة مفعولة لتسنيم أي: مزاجه من ماء متسنّم عيناً، كقوله تعالى: «أو إطعام يتيماً». ويجوز أن تكون منصوبة، على تقدير: ويسقون من عين. ويجوز أن تكون منصوبة على الحال، ويكون «تسنيم» معرفة، و«عيناً» نكرة.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر حال الفجّار، عقّبه سبحانه بذكر حال الأبرار، فقال: ﴿كَلاَّ﴾ أي: لا يؤمنون بالعذاب الذي يصلونه. فعلى هذا يتّصل بما قبله. وقيل:

---

(١) بريص: شعبة من بردي، وهو نهر دمشق. وتصفيق الشراب: تحويله من إناء إلى إناء. وبردي أي: ماء بردي ـ على حذف المضاف ـ.

معناه: حقّاً. ويتّصل بما بعده ﴿إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: المطيعين لله ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي: مراتب عالية محفوفة بالجلالة. وقيل: في السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين، ـ عن قتادة ومجاهد والضحّاك وكعب ـ. وقيل: في سدرة المنتهى، وهي التي ينتهي إليها كل شيء من أمر الله تعالى، ـ عن الضحّاك في رواية أُخرى ـ. وقيل: «العلّيّون» الجنّة، ـ عن ابن عباس ـ. قال الفرّاء: في ارتفاع بعد ارتفاع، لا غاية له. وقيل: هو لوح من زبرجدة خضراء، معلّق تحت العرش، أعمالهم مكتوبة فيها، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى ـ. وعن البراء بن عازب، عن النبيّ ﷺ قال: في «علّيين» في السماء السابعة، تحت العرش.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ وهذا تعظيم لشأن هذه المنزلة، وتفخيم لأمرها، وتنبيه على أنّ تفصيل تفضيله لا يمكن العلم به إلّا بالمشاهدة. ثمّ قال: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي: هو كتاب مكتوب فيه جميع طاعاتهم، وما تقرّ به أعينهم، ويوجب سرورهم بضدّ الكتاب الذي للفجار؛ لأنّ فيه ما يسؤوهم، وينوؤهم، ويسخن عيونهم. قال مقاتل: «مرقوم» مكتوب لهم بالخيرات في ساق العرش. ويدلّ عليه قوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني الملائكة الذين هم في علّيّين، يشهدون ويحضرون ذلك المكتوب، أو ذلك الكتاب، إذا صعد به إلى علّيّين. و«المقرّبون» هم الذين قرّبوا إلى كرامة الله في أجلّ المراتب. وقال عبدالله بن عمر: إنّ أهل علّيّين لينظرون إلى أهل الجنّة من كذا، فإذا أشرف رجل منهم أشرقت الجنّة، وقالوا: قد اطلع علينا رجل من أهل علّيّين.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: يحصلون في ملاذّ، وأنواع من النعمة في الجنّة ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ قال الحسن: ما كنّا نعرف ما الأرائك، حتى قدم إلينا رجل من أهل اليمن، فزعم أنّ الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أُعطوا من النعيم والكرامة. وقيل: ينظرون إلى عدوّهم حين يعذّبون، ـ عن

مقاتل ـ.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: إذا رأيتهم عرفت أنّهم من أهل النعمة بما ترى في وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة. قال عطاء: وذلك أنّ الله تعالى قد زاد في جمالهم وألوانهم، ما لا يصفه وَاصف.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ﴾ أي: خمر صافية خالصة من كل غشّ ﴿مَخْتُومٍ﴾ وهو الذي له ختام أي: عاقبة. وقيل: مختوم في الآنية بالمسك، وهو غير الخمر التي تجري في الأنهار. وقيل: «مختوم» أي: ممنوع من أن تمسّه يد، حتى يفكّ ختمه للأبرار.

ثمّ فسّر المختوم بقوله: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: آخر طعمه ريح المسك، إذا رفع الشارب فاه عن آخر شرابه، وجد ريحه كريح المسك، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ـ. وقيل: ختم إناؤه بالمسك، بدلاً من الطين الذي يختم به الشراب في الدنيا، ـ عن مجاهد وابن زيد ـ. قال مجاهد: طينه مسك. وعن أبي الدرداء قال: هو شراب أبيض مثل الفضّة، يختمون به شرابهم، ولو أنّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه، ثمّ أخرجه لم يبق ذو روح إلّا ونال طيبها.

ثمّ رغّب فيها، فقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليرغّب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، ومثله قوله سبحانه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾. وقيل: فليتنازع المتنازعون، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: فليتشاحّ المتشاحّون، ـ عن زيد بن أسلم ـ. وفي الحديث: «من صام لله في يوم صائف، سقاه الله على الظمأ من الرحيق المختوم». وفي وصيّة النبيّ ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «ومن ترك الخمر لله سقاه الله من الرحيق المختوم».

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: ومزاج ذلك الشراب الذي وصفناه، وهو ما يمزج به، من تسنيم، وهو عين في الجنّة، وهو أشرف شراب في الجنّة. قال

مسروق: يشربها المقرّبون صرفاً، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين، فيطيب. وروي ميمون بن مهران، أنّ ابن عباس سئل عن تسنيم، فقال: هذا ممّا يقول الله، عزّ وجلّ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ونحو هذا قول الحسن: خفايا أخفاها الله لأهل الجنّة. وقيل: هو شراب ينصبُّ عليهم من علو انصباباً، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: هو نهر يجري في الهواء، فينصب في أواني أهل الجنّة بحسب الحاجة، ـ عن قتادة ـ.

ثمّ فسّره سبحانه، فقال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: هي خالصة للمقرّبين يشربونها صرفاً، ويمزج لسائر أهل الجنّة، ـ عن ابن مسعود، وابن عباس ـ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني: كفّار قريش ومترفيهم، كأبي جهل والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأصحابهم. ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أصحاب النبيّ ﷺ مثل: عمّار وخباب، وبلال، وغيرهم ﴿يَضْحَكُونَ﴾ على وجه السخريّة بهم، والإستهزاء في دار الدنيا. ويحتمل أن يكون ضحكوا من جدّهم في عبادتهم، وكثرة صلاتهم وصيامهم؛ لإنكارهم الجزاء والبعث. ويجوز أن يكون كان ضحكهم إنكاراً وتعجّباً من قولهم بالإعادة، وإحياء العظام الرميمة. ويحتمل أن يكون ذلك لغلوّهم في كفرهم، وجهلهم، ولإيهام العوام أنّهم على حقّ، وأنّ المسلمين على باطل، فكانوا يضحكون.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ يعني: وإذا مرّ المؤمنون بهؤلاء المشركين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ بأن يشير بعضهم إلى بعض بالأعين والحواجب؛ استهزاء بهم أي: يقول هؤلاء إنّهم على حقّ، وإنّ محمّداً ﷺ أُنزل عليه الوحي، وإنّه رسول، وإنّا نبعث، ونحو ذلك. وقيل: نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وذلك أنّه كان في نفر من المسلمين جاؤوا إلى النبيّ ﷺ، فسخر منهم المنافقون، وضحكوا وتغامزوا، ثمّ رجعوا إلى

أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكنا منه! فنزلت الآية قبل أن يصل عليّ عليه السلام و أصحابه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ـ عن مقاتل والكلبي ـ. وذكر الحاكم أبوالقاسم الحسكاني، في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، بإسناده عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: إنّ الذين أجرموا: منافقوا قريش، والذين آمنوا: عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ يعني: وإذا رجع هؤلاء الكفّار إلى أهلهم، رجعوا معجبين بما هم فيه، يتفكّهون بذكرهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ عن طريق الحقّ والصواب، تركوا التنعم رجاء ثواب لا حقيقة له، خدعهم به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: ولم يرسل هؤلاء الكفّار حافظين على المؤمنين ما هم عليه، وما كلّفوا حفظ أعمالهم، فكيف يطعنون عليهم. ولو اشتغلوا بما كلّفوه كان ذلك أولى بهم. وقيل: معناه: وما أُرسلوا عليهم شاهدين؛ لأنّ شهادة الكفّار لا تقبل على المؤمنين أي: ليسوا شهداء عليهم، بل المؤمنون شهداء على الكفّار، يشهدون عليهم يوم القيامة، ـ عن أبي مسلم ـ. ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة الذي يجازي الله كل أحد على عمله ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ كما ضحك الكفّار منهم في الدنيا، وذلك أنّه يفتح للكفّار باب إلى الجنّة، ويقال لهم: اخرجوا إليها، فإذا وصلوا أُغلق دونهم، يفعل ذلك بهم مراراً، فيضحك منهم المؤمنون، ـ عن أبي صالح ـ. وقيل: يضحكون من الكفّار، إذا رأوهم في العذاب، وأنفسهم في النعيم. وقيل: إنّ الوجه في ضحك أهل الجنّة من أهل النار: إنّهم لما كانوا أعداء الله، وأعداء لهم، جعل الله سبحانه لهم سروراً في تعذيبهم، ولو كان العفو قد وقع عليهم، لم يجز أن يجعل السرور في ذلك؛ لأنّه مضمن بالعداوة، وقد زالت بالعفو.

﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ يعني: المؤمنين ينظرون إلى عذاب أعدائهم الكفّار على سرر في الحجال.

ثمّ قال سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جُوزِي الكفّار إذا فعل بهم هذا الذي ذكره، على ما كانوا يفعلونه من السخريّة بالمؤمنين في الدنيا؟ وهو استفهام يراد به التقرير. و«ثوّب» بمعنى أُثيب. وقل: معناه: يتّصل بما قبله، ويكون التقدير: إنّ الذين آمنوا ينظرون هل جُوزِي الكفّار بأعمالهم. ويكون الجملة متعلّقة بـ«ينظرون». وعلى القول الأوّل يكون استئناف كلام، لا موضع له من الإعراب. وإنّما قال: هل ثوّب الكفّار؟ فاستعمل لفظ «الثواب» في العقوبة؛ لأنّ الثواب في أصل اللغة، الجزاء الذي يرجع إلى العامل بعمله، وإن كان في العرف اختصّ الجزاء بالنعيم على الأعمال الصالحة، فاستعمل هنا على أصله. وقيل: لأنّه جاء في مقابلة ما فعل بالمؤمنين أي: هل ثوّب الكفّار كما ثوّب المؤمنون؟ وهذا القول يكون من قبل الله تعالى، أو تقوله الملائكة للمؤمنين؛ تنبيهاً لهم على أنّ الكفّار جُوزُوا على كفرهم، واستهزائهم بالمؤمنين، ما استحقّوه من أليم العذاب؛ ليزدادوا بذلك سروراً إلى سرورهم. ويحتمل أن يكون ذلك يقوله المؤمنون بعضهم لبعض؛ سروراً بما ينزل بالكفّار. وكل هذه الوجوه إنّما تتّجه على القول الأوّل، إذا كانت الجملة كلاماً مستأنفاً، لا تعلّق له بما قبله.

سورة الانشقاق

وتسمّى سورة الإنشقاق، مكّيّة.

عَدَدُ آيِهَا: ثلاث وعشرون آية بصريّ شاميّ، وخمس في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آيتان: «كتابه بيمينه» «وراء ظهره» كلاهما حجازيّ كوفيّ.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأ سورة انشقّت، أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

تَفْسِيرُهَا: ختم الله سبحانك تلك السورة بذكر أحوال القيامة، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، فاتّصلت بها اتّصال النظير بالنظير، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ
﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا

الْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ
يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وأهل العراق، غير الكسائي: ﴿يَصْلَى﴾ ـ بالتخفيف بفتح الياء ـ. والباقون: «يُصلّى» ـ بضمّ الياء والتشديد ـ. وقرأ ابن كثير، وأهل الكوفة، غير عاصم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ ـ بفتح الباء ـ. والباقون: ـ بضمّ الباء ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: حجّة ﴿يُصْلَى﴾ مشدّدة اللام: ﴿ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوه﴾. وحجّة يَصلَى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ ﴿اصْلَوْهَا اليَوْمَ﴾. وهذا كثير في التنزيل. وحجّة ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ قول ابن عباس: لتركبنّ السماء حالاً بعد حال، مرّة كالمهل، ومرّة كالدهان. وابن مسعود: لتركبنّ يا محمّد طبقاً عن طبق. ومجاهد: لتركبنّ أمراً بعد أمر. والحسن. أي: حالاً عن حال، ومنزلاً عن منزل. أبو عبيدة: لتركبنّ سنّة من كان قبلكم. أبو عليّ: من فتح الباء أراد النبيّ ﷺ، ومن ضمّ الباء

أراد النبيّ ﷺ وغيره. والضمّ يأتي على معنى المفتوحة. وفسّروا «طبقاً عن طبق» حالاً بعد حال. ومثل ما فسّروا من أنّ معنى «عن» معنى «بعد» قول الأعشىٰ:

سَادَ، وَأَلْفَىٰ رَهْطَهُ سَادَةً ... وَكَابِراً، سَادُوكَ عَنْ كَابِرِ

المعنى: كابراً بعد كابر. فـ«عن» متعلّق بسادوك. ولا يكون متعلّقاً بـ«كابر». وقد بيّنوا ذلك في قول النابغة:

بَقِيَّةُ قِدْرٍ مِنْ قُدُورٍ تُوُرِّثَتْ ... لِآلِ الْجَلاحِ كَابِراً بَعْدَ كَابِرِ[1]

وقالوا: عرق عن الحمى أي: بعدها.

(اللغة): الإنشقاق: افتراق امتداد عن التئام، فكل انشقاق افتراق، وليس كل افتراق انشقاقاً، والأذن: الإستماع. تقول العرب: أذن لك هذا الأمر أذناً بمعنى: استمع لك. قال عدي بن زيد:

فِي سِمَاعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ ... وَحَدِيثٍ مِثْلِ مَاذِيٍّ مُشَارِ[2]

وقال أيضاً:

أَيُّهَا الْقَلَبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنِ ... إِنَّ هَمّي فِي سِمَاعٍ وَأَذَنِ[3]

وقال آخر: «وَإِنْ ذُكِرتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا»[4] والكدح: السعي الشديد في الأمر، والدأب في العمل، ويُقال: كدح الإنسان في عمله يكدح. وثور فيه كدوح أي: آثار من شدة السعي. قال ابن مقبل:

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ تَارَتَانِ، فَمِنْهُما ... أَمُوتُ، وَأُخْرىٰ أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

---

(١) يمدح النعمان، ويصفه بإطعام الضيف فى قدر موروثة فى هذا عن آبائه.

(٢) الماذي: العسل المصفّى. ومشار أي: المجني.

(٣) الددن: اللهو.

(٤) أوّله: صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به.

والحَور: الرجوع. حار يحور إذا رجع. وكلَّمتُه فما حار جواباً أي: ما ردَّ جواباً. ونعوذ بالله من الحَور بعد الكَور[١] أي: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة والتمام. وحوره: إذا ردَّه إلى البياض. والمحور: البكرة تدور حتى ترجع إلى مكانها.

والشفق هو الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة، وهو قال مالك والشافعي والأوزاعي وأبي يوسف ومحمّد، وهو قول الخليل، وهو المرويّ عن أئمّة الهدىٰ عليهم السلام. وقال ثعلب: هو البياض، وهو قول أبي حنيفة[٢]. قال الفرّاء: سمعت بعض العرب تقول: الثوب أحمر كأنّه الشفق. وقال الشاعر: «أَحْمَرُ اللَّونِ كَمَحْمَرِّ الشَّفَق». وقال آخر:

قُمْ يَا غُلاَمُ أَعِنِّي غَيْر مُحْتَشِمٍ ... عَلَىٰ الزَّمَانِ، بِكَأْسٍ حَشْوَها شَفَقٌ

وأصل الشفق الرقّة. ومثله: التشفيق في العمل. وهو الرقّة على خلل فيه. وأشفق على كذا: إذا رقَّ عليه، وخاف هلاكه. وثوب شفق رقيق. فالشفق هو الحمرة الرقيقة في المغرب بعد مغيب الشمس. والوسق: الجمع. وسقْتُه أسِقُه: إذا جمعته. وطعام موسوق أي: مجموع. والوسق: الطعام المجتمع الكثير ممّا يكال أو يوزن، ومقداره ستّون صاعاً. والإتّساق: الإجتماع على تمام، افتعال من الوسق. وأصل الطبق: الحال. والعرب تسمّي الدواهي: أمّ طبق، وبنات طبق. قال: «قَدْ

---

(١) قاله الخوات الانصاري بعدما ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله اشترائه السمن.

(٢) قال الجصّاص: الشفق في الأصل الرقّة. ومنه: ثوب شفق: إذا كان رقيقا والبياض أولى به من الحمرة؛ لأنّ أجزاء الفضاء رفيقة في هذه الحال وفي وقت الحمرة أكثف، إنتهى ملخصا. وهذا إستدلال خارج عن قانون اللغة، فإنّ اللغة حقائقها ومجازاتها بالسماع، ولا يجري فيها القياس اتّفاقا، والقياس اللغوي بمعنى الاستقراء مثل: كل فاعل مرفوع، فلا يجوز أن يقال مثلاً: إنّ الفعل هو المصدر؛ لأنّه أحقّ بهذا اللفظ من الماضي، مع أنّا نعلم أنّه لا يطلق نحوى الفعل على المصدر، والمناسبات يجب أن يذكر بعد الوقوع.

طَرَّقَتْ بِبِكْرِها [بنكرها] امٌّ طَبَق»[١]. وقال في أن الطبق الحال:

الصَّبْرُ أَحْمَدُ، وَالدُّنْيَا مُفَجِّعَةٌ ... مَنْ ذَا الَّذِي لَمْ يَذُقْ مِنْ عَيْشِهِ رَنقاً[١]

إذا صَفَالَكَ مِنْ مَسْرُورِهَا طَبَقٌ ... أَهْدىٰ لَكَ الدَّهْرُ مِنْ مَكْرُوهِهَا طَبَقاً

وقال آخر:

إِنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطره

وَسَاقَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إلىٰ طَبَقِ

فَلَسْتُ أَصْبُو إِلىٰ خِلٍّ يُفَارِقُنِي

وَلاَ تَقَبَّضُ أَحْشَائِي مِنَ الْفَرَقِ

الإعراب: قال الزجّاج: جواب ﴿إِذَا﴾ يدلُّ عليه قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ والمعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله. والهاء في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ يجوز أن يكون تقديره: فملاق ربّك، ويجوز أن يكون: فملاق كدحك أي: عملك وسعيك.

وقوله: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ قيل: إنّ «إلى» هنا بمعنى اللام، والوجه الصحيح فيه أن يكون محمولاً على المعنى؛ لأنّ معناه: ساع إلى ربّك سعياً. على أنّه يحتمل أن يكون إلى متعلّقة بمحذوف، ويكون التقدير: إنّك كادح لنفسك، صائر إلى ربّك، كما أنّ قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ يكون على معنى: تبتّل من الخلق، راجعاً إلى الله تعالىٰ، أو راغباً إليه.

وقوله: ﴿يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ معناه: إنّه يقول يا ثبوراه، فكأنّه يدعوه، ويقول يا ثبور تعال فهذا أوانك، مثل ما قيل في «يا حسرتى»، فعلى هذا يكون ﴿ثُبُوراً﴾ مفعولاً به.

---

(١) الرنق: الكدر.

[١] قاله خلف الأحمر لما نعى إليه المنصور وبعده: (فدمروها وهمة ضخم العنق * موت الإمام فلقة من الفلق) وطرقت المرأة والناقة: نشب ولدها في بطنها، ولم يسهل خروجه.

﴿أَنْ لَّن يَحُور﴾: تقديره: إنّه لن يحور، فهي مخفّفة من الثقيلة، ولا يجوز أن تكون «أن» الناصبة للفعل؛ لأنّه لا يجوز أن يجتمع عاملان على كلمة واحدة، وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. و ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾: جملة منصوبة الموضع على الحال واالتقدير: أيّ شيء استقرَّ لهم غير مؤمنين.

المعنى: ﴿إِذَا ٱلسَّماءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: تصدَّعت وانفرجت. وانشقاقها من علامات القيامة، وذكر ذلك في مواضع من القرآن ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سمعت وأطاعت في الإنشقاق، ـ عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة ـ. وهذا توسّع أي: كأنّها سمعت وانقادت لتدبير الله ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحقّ لها أن تأذن بالإنقياد لأمر ربّها الذي خلقها، وتطيع له.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بسطت باندكاك جبالها وآكامها، حتى تصير كالصحيفة الملساء. وقيل: إنّها تمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، وتزاد في سعتها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: سويت فلا بناء ولا جبل إلاَّ دخل فيها، ـ عن مقاتل ـ. ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الموتى والكنوز مثل: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضَ أَثْقَالَهَا﴾ عن قتادة ومجاهد ـ. ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: خلت، فلم يبق في بطنها شيء. وقيل: معناه: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلّت ممّا على ظهرها من جبالها وبحارها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ليس هذا بتكرار؛ لأنّ الأوّل في صفة السماء، والثاني في صفة الأرض، وهذا كله من أشراط الساعة، وجلائل الأُمور التي تكون فيها، والتقدير: إذا كانت هذه الأشياء التي ذكرناها وعددناها، رأى الإنسان ما قدَّم من خير أو شرّ، ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً﴾ أي: ساع إليه في عملك.

وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ خطاب لجميع المكلّفين من ولد آدم، يقول الله لهم سبحانه، ولكل واحد منهم: يا أيّها الإنسان إنّك عامل عملاً في مشقّة، لتحمله

إلى الله، وتوصله إليه. ﴿فَمُلاَقِيهِ﴾ أي: ملاق جزاءه، جعل لقاء جزاء العمل لقاء له، تفخيماً لشأنه. وقيل: معناه: ملاق ربّك أي: صائر إلى حكمه، حيث لا حكم إلاَّ حكمه. وقال ابن الأنباري والبلخي: جواب «إذا» قوله: ﴿أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ والواو زائدة، كقوله: ﴿حَتَى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وهذا ضعيف، والأوّل هو الوجه.

ثمّ قسَّم سبحانه أحوال الخلق يوم القيامة، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: من أُعطي كتابه الذي ثبت فيه أعماله، من طاعة أو معصية، بيده اليمنى.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ يريد أنّه لا يناقش في الحساب، ولا يواقف على ما عمل من الحسنات، وما له عليها من الثواب، وما حطّ [خطّ] عنه من الأوزار، إمّا بالتوبة أو بالعفو. وقيل: الحساب اليسير: التجاوز عن السيّئات، والإثابة على الحساب. ومن نوقش السحاب عذب في خبر مرفوع. وفي رواية أُخرىٰ، يعرف عمله [بعمله] ثمّ يتجاوز عنه. وفي حديث آخر: «ثلاث من كنَّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته». قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك».

﴿وَيَنقَلِبُ﴾ بعد الفراغ من الحساب ﴿إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ بما أُوتي من الخير والكرامة. والمراد بالأهل هنا، ما أُعدَّ له من الحور العين. وقيل: أهله: أزواجه وأولاده وعشائره، وقد سبقوه إلى الجنّة. والسرور: هو الإعتقاد والعلم بوصول نفع إليه، أو دفع ضرر عنه في المستقبل. وقال قوم: هو معنى في القلب يلتذّ لأجله بنيل المشتهىٰ، يُقال: سرَّ بكذا من مال، أو ولد، أو بلوغ أمر [أمل]، فهو مسرور.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ لأنّ يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده

اليسرى خلف ظهره، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: تخلع يده اليسرى خلف ظهره؛ لأنّ يمينه مغلولة إلى عنقه، ـ عن مقاتل ـ. والوجه في ذلك أن يكون إعطاء الكتاب باليمين، إمارة للملائكة والمؤمنين، لكون صاحبه من أهل الجنّة، ولطفاً للخلق في الإخبار به، وكناية عن قبول أعماله، وإعطاؤه على الوجه الآخر، إمارة لهم على أن صاحبه من أهل النار، وعلامة لمناقشته في الحساب، وسوء المآب.

ثمّ حكى سبحانه ما يحلّ به، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ أي: هلاكاً إذا قرأ كتابه، وهو أن يقول: واثبوراه، واهلاكاه ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ أي: يدخل النار، ويعذّب بها، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يصير صلاء النار المسعرة. وقيل: يلزم النار معذباً على وجه التأبيد.

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ في الدنيا، ناعماً لا يهمّه أمر الآخرة، ولا يتحمّل مشقّة العبادة، فأبدله الله بسروره غمّاً باقياً لا ينقطع، وكان المؤمن مهتمّاً بأمور الآخرة، فأبدله الله بهمّه سروراً لا يزول، ولا يبيد. وقيل: كان مسروراً بمعاصي الله تعالىٰ، لا يندم عليها، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ من عصى وسرَّ بمعصية الله، فقد ظنَّ أنّه لا يرجع إلى البعث، ولو كان موقناً بالبعث والجزاء، لكان بعيداً عن السرور بالمعاصي.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ﴾ أي: ظنّ في دار التكليف أنّه لن يرجع إلى حال الحياة في الآخرة للجزاء، فارتكب المآثم، وانتهك المحارم. وقال مقاتل: حسب أن لا يرجع إلى الله، فقال سبحانه: بلى ليحورنّ و ليبعثنّ وليس الأمر على ما ظنَّه ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ من يوم خلقه إلى أن يبعثه. قال الزجّاج: كان به بصيراً قبل أن يخلقه، عالماً بأن مرجعه إليه.

ثمّ أقسم سبحانه، فقال: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾ سبق بيانه في سورة القيامة ﴿بِالشَّفَقِ﴾ أي: بالحمرة التي تبقى عند المغرب في الأفق. وقيل: البياض:

﴿وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: وما جمع وضمّ ممّا كان منتشراً بالنهار في تصرّفه، وذلك أنّ الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه، ـ عن عكرمة وغيره ـ. وقيل: وما ساق؛ لأنّ ظلمة الليل تسوق كل شيء إلى مسكنه، ـ عن الضحّاك ومقاتل ـ. وقيل: وما وسق أي: طرد من الكواكب، فإنّها تظهر بالليل، وتخفى بالنهار. وأضاف ذلك إلى الليل؛ لأنّ ظهورها فيه مطّرد، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: إذا استوى، واجتمع، وتكامل وتمّ. قال الفرّاء: اتّساقه، امتلاؤه واجتماعه واستواؤه، لثلاث عشرة إلى ستّ عشرة ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم أي: لتركبنّ يا محمّد سماء بعد سماء، تصعد فيها، ـ عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والشعبي والكلبي ـ. ويجوز أن يريد درجة بعد درجة، ورتبة بعد رتبة في المقربة من الله، ورفعة المنزلة عنده. وروى مجاهد ـ عن ابن عباس أنّه كان يقرأ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ ـ بفتح الباء ـ طبقاً عن طبق. قال: يعني: نبيّكم ﷺ حالاً بعد حال. رواه البخاري في الصحيح. ومن قرأ بالضمّ، فالخطاب للناس أي: لتركبنّ حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، وأمراً بعد أمر، يعني في الآخرة، والمراد أنّ الأحوال تتقلّب بهم، فيصيرون على غير الحال التي كانوا عليها في الدنيا. و«عن» بمعنى بعد، كما قال سبحانه: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي: بعد قليل. وقال الشاعر:

قَــرِّبَا مَــرْبَطَ النَّــعَامَةِ مِــنِّي ... لَقَحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ[1]

أي: بعد حيال. وقيل: معناه: شدّة بعد شدّة ـ حياة، ثمّ موت، ثمّ بعث، ثمّ جزاء ـ. وروي ذلك مرفوعاً. وقيل: أمراً بعد أمر ورخاء بعد شدّة، وشدّة بعد

---

(١) مضى هذا الشعر في سورة الرحمٰن. وحيال: بمعنى عدم الحبل، ويقال: «حائل» ضدّ حامل. ولقحت الحرب أي: صارت حاملا تولد حربا أخرى كناية عن التكرار بعد أن كانت حائلاً.

رخاء، وفقراً بعد غنى، وغنى بعد فقر، وصحّة بعد سقم، وسقماً بعد صحّة، ـ عن عطا ـ. وقيل: حالاً بعد حال ـ نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ عظماً، ثمّ خلقاً آخر، ثمّ جنيناً، ثمّ وليداً، ثمّ رضيعاً، ثمّ فطيماً، ثمّ يافعاً، ثمّ ناشئاً، ثمّ مترعرعاً، ثمّ حَزَوَّواً [حزوَّرا][١]، ثمّ مراهقاً، ثمّ محتلماً، ثمّ بالغاً، ثمّ أمرد، ثمّ طاراً، ثمّ باقلاً[٢]، ثمّ مسيطراً، ثمّ مُطْرخِمّاً[٣]، ثمّ مختطاً[٤]، ثم صُمُّلاً[٥]، ثمّ ملتحياً، ثمّ مستوياً، ثمّ مُصْعِداً، ثمّ مجتمعاً ـ والشابّ يجمع ذلك كلّه، ـ ثم مَلْهُوزاً[٦]، ثمّ كهلاً، ثمّ أشمط، ثمّ شيخاً، ثمّ أشيب، ثمّ حوقلاً[٧]، ثمّ صِفْتاناً[٨]، ثمّ هِمّاً[٩]، ثمّ هَرِماً، ثمّ ميّتاً ـ. فيشتمل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يموت على سبعة وثلاثين إسماً. وقيل: معناه: لتحدثنّ أمراً لم تكونوا عليه في كل عشرين سنة، ـ عن مكحول ـ. وقيل: معناه: لتركبنَّ منزلة عن منزلة، وطبقة عن طبقة، وذلك أنّ من كان على صلاح، دعاه ذلك إلى صلاح فوقه، ومن كان إلى فساد، دعاه إلى فساد فوقه؛ لأنّ كل شيء يجرّ إلى شكله. وقيل: لتركبنَّ سنن من كان قبلكم من الأوّلين، وأحوالهم، ـ عن أبي عبيدة ـ. وروي ذلك ـ عن الصّادق عليه السلام. والمعنى: إنّه يكون فيكم ما كان فيهم، ويجري عليكم ما جرى عليهم، حذو القذّة بالقذّة[١٠]

---

[١] الحزور: الغلام إذا اشتد وقوي.

[٢] الباقل: الذي خرج شعره.

[٣] شاب مُطْرَخِمّ: أي حسن تامّ.

[٤] اختط الغلام: نبت عذاره.

[٥] الصمل: الشديد الخلق.

[٦] الملهوز: من خالطه الشيب.

[٧] الحوقل: الشيخ المسن.

[٨] الصفتان: القوي الجافي.

[٩] الهمّ: الشيخ الفاني.

[١٠] القذة: ريش السهم، يضرب مثلاً للشيئين يستويان، ولا يتفاوتان.

ثمّ قال سبحانه على وجه التقريع لهم والتبكيت: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ يعني: كفّار قريش ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بمحمّد ﷺ والقرآن، والمعنى: أيّ شيء لهم إذا لم يؤمنوا، وهو استفهام إنكار أي: لا شيء لهم من النعيم والكرامة، إذا لم يؤمنوا. وقيل: معناه فما وجه الإرتياب الذي يصرفهم عن الإيمان، وهو تعجّب منهم في تركهم الإيمان، والمراد: أيُّ مانع لهم، وأيُّ عذر لهم في ترك الإيمان، مع وضوح الدلائل. ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما الذي يصرفهم عن الإيمان وعن السجود لله تعالىٰ، إذا تلي عليهم القرآن. وقيل: معنى «لا يسجدون» لا يصلّون لله تعالى، ـ عن عطا والكلبي ـ. وفي خبر مرفوع ـ عن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فسجد.

ثمّ قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: لم يتركوا الإيمان لقصور في البيان، أو لانقطاع من البرهان، لكنّهم قلدوا أسلافهم ورؤساءهم في التكذيب بالرسول والقرآن ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: يجمعون في صدورهم، ويضمرون في قلوبهم من التكذيب والشرك، ـ عن ابن عباس وقتادة ومقاتل ـ. وقيل: بما يجمعون من الأعمال الصالحة والسيّئة، ـ عن ابن زيد ـ. قال الفرّاء: أصل الإيعاء جعل الشيء في وعاء، والقلوب أوعية لما يحصل فيها من علم أو جهل. وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، ثمّ قال: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا محمّد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: اجعل ذلك لهم بدل البشارة للمؤمنين بالرحمة.

ثمّ استثنى سبحانه المؤمنين من جملة المخاطبين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير منقوص، ولا مقطوع؛ لأنّ نعيم الآخرة غير منقطع، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل غير منقص، ولا مكدّر بالمنّ، ـ عن الجبائي، وروي ذلك عن الحسن ـ. وقيل: له منّ وله منة، وإنما قيل له منّ ومنة؛

لأنّه يقطع عن شكر النعمة. وأصل المنّ القطع. يُقال: مننت الحبل: إذا قطعته. قال لُبيد:

لِمُعَفِّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمَنُّ طَعَامُها[1]

وقيل: ليس لأحد عليها منّة فيما يكسب. وفي قوله سبحانه: ﴿فما لهم لا يؤمنون ولاَ يَسْجُدُون﴾ دلالة على أنّ الإيمان والسجود فعلهم؛ لأنّ الحكيم لا يقول مالَكَ لا تؤمن، ولا تسجد، لمن يعلم أنّه لا يقدر على الإيمان والسجود، ولو وجد ذلك لم يكن من فعله، ويدلّ قوله: «لا يسجدون» على أنّ الكفّار مخاطبون بالعبادات[2].

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾: وجه اتّصال قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ بما قبله: أنّه سبحانه لمّا أخبر عن ظنّ الكافر أن لن يحور، عقّبه بالإخبار بأنّه يحور والقطع عليه، وذكر أنّه بصير به، وقيل: إنّ تقديره: بلى سيرجع إلى الآخرة، وربّه بصير بأحواله، فسيجازيه بأعماله.

---

(١) المعفّر: الملقى على التراب. والقهد: الأبيض، يصف بذلك جوذراً. والشلو: العضو. والغبس: جمع «أغبس» بلون الرماد، أراد به الذئاب، تتنازع شلو الجؤذر. ما يمنّ طعامها أي: لا يقطع لاني لا افتر في الصيد، فاقتل الظباء، وتأكلها الذئبان.

(٢) لم يفرق فقهائهم الأربعة بين المواضع الأربعة عشر في السجدة، فأوجب أبو حنيفة فيها أجمع، واستحبّ الباقون. ومذهبنا التفصيل، كما هو مشهور.

سورة البروج

مكّيّة، إثنتان وعشرون آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأها أعطاه الله من الأجر بعدد كل يوم جمعة، وكل يوم عرفة يكون في دار الدنيا، عشر حسنات». يونس بن ظبيان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ في فرائضه، فإنّها سورة النبيّين، كان محشره وموقفه مع النبيّين والمرسلين.

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر المؤمنين، وافتتح هذه السورة أيضاً بذكر المؤمنين من أصحاب الأخدود، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا
مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ
رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم وقتيبة: ﴿الْمَجِيدِ﴾ ـ بالجر ـ. والباقون: ـ بالرفع ـ. وقرأ نافع: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٌ﴾ ـ بالرفع ـ. والباقون: بالجر.

﴿الحجة﴾: قال أبو عليّ: من رفع «المجيد» كان متّبعاً قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾. ومن جرّ فمن النحويّين من جعله وصفاً لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ في ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ قال: ولا أجعله وصفاً للعرش. ومنهم من قال: صفة للعرش. قال أبو زيد: يُقال مجدت الإبل تمجد مجوداً: إذا رعت في أرض مَكْلِئة، وشبعت وأمجدت الإبل: إذا أشبعتها. وقالوا في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار[1] أي: صار ماجداً في إيرائه النار. وقيل: استمجد العفار: إذا كثرت ناره، وصفت.

وحجّة نافع في قراءته ﴿مَحْفُوظٍ﴾ أنّ القرآن وصف بالحفظ في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ومعنى حفظ القرآن: أنّه يؤمن من تحريفه وتبديله وتغييره، فلا يلحقه شيء من ذلك. وحجّة من جرَّ «محفوظاً» جعله وصفاً للَّوح فإنّهم يقولون: اللَّوح المحفوظ.

﴿اللغة﴾: الأخدود: الشق العظيم في الأرض، ومنه: ما روي في معجز النبيّ ﷺ أنّه دعا الشجرة، فجعلت تخدّ الأرض خدّاً حتى أتته. ومنه: الخدّ لمجاري الدموع. وتخدّد لحمه: إذا صار فيه طرائق كالشقوق. والوَقود: ما تشتعل به النار من الحطب وغيره ـ بفتح الواو ـ. والوُقود ـ بالضمّ ـ: الإيقاد. يُقال: فتنت الشيء أحرقته. والفتين: حجارة سوداء كأنّها محرقة. وأصل الفتنة الإمتحان، ثمّ يستعمل في العذاب.

﴿الإعراب﴾: قال الفرّاء: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ جواب القسم، كما كان جواب ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾. وقيل: إنّ جواب القسم محذوف، وتقديره: إنَّ الأمر حقّ في الجزاء على الأعمال. وقيل: إنّ جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وقيل: جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ

---

(١) المرخ والعفار: شجران يؤخذ منهما خشبتان، يصكّ إحديهما بالاخرى، فيخرج منهما النار.

رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

﴿ٱلنَّارَ﴾: بدل من ﴿ٱلأُخْدُودِ﴾ وهو بدل الإشتمال؛ لأنّ «الأخدود» يشتمل على ما فيه من النار منه. و ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾: صفة للنار. ويسأل على هذا، فيقال: كيف خصّت هذه النار بذات وقود، وكل نار لها وقود؟ وأُجيب عنها بجوابين: أحدهما: إنه قد يكون «نار» ليست بذات وقود، كنار الحجر، ونار الكبد. والآخر: إنّ الوقود معرف، فصار مخصوصاً، كأنّه وقود بعينه، كما قال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فكان الوقود هنا أبدان الناس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾: «إذ» مضاف إلى الجملة، وهي ظرف لقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلأُخْدُودِ﴾ إذا كان إخباراً لادعاء.

و ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾: في موضع نصب بقوله: ﴿نَقَمُوا﴾ والتقدير: وما نقموا إلاّ إيمانهم. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾: في موضع جرّ، بدل من الجنود. ويجوز أن يكونا في موضع نصب، بإضمار فعل، كأنّه قال: أعني فرعون وثمود.

قصّة أصحاب الأخدود

روى مسلم في الصحيح عن هدية بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن ثابت بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، عن رسول الله ﷺ قال: كان ملك فيمن كان قبلكم له ساحر، فلمّا مرض الساحر، قال: إنّي قد حضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً أُعلّمه السحر. فدفع إليه غلاماً، وكان يختلف إليه. وبين الساحر والملك راهب. فمرَّ الغلام بالراهب، فأعجبه كلامه وأمره، فكان يطيل عنده القعود، فإذا أبطأ عن الساحر ضربه، وإذا أبطأ عن أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: يا بنيّ إذا استبطأك الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا استبطأك أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو ذات يوم إذا بالناس قد حبستهم [غشيتهم] دابة عظيمة فظيعة. فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أفضل، أم أمر الراهب، فأخذ حجراً، فقال: أللَّهُمَّ إن كان أمر الراهب أحبّ إليك، فاقتل هذه الدابّة. فرمى فقتلها، ومضى الناس.

فأخبر بذلك الراهب، فقال: أي بنيّ إنّك ستبتلى، وإذا ابتليت فلا تدلّ عليَّ. قال: وجعل يداوي الناس، فيبرىء الأكمه والأبرص. فبينما هو كذلك إذا عمي جليس للملك، فأتاه وحمل إليه مالاً كثيراً، فقال: اشفني ولك ما هيهنا. فقال: إنّي لا أشفي أحداً، ولكن الله يشفي، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك. قال: فآمن. فدعا الله له فشفاه، فذهب فجلس إلى الملك، فقال: يا فلان من شفاك؟ قال: ربّي. قال: أنا. قال: لا ربّي وربّك الله. قال: أو إنّ لك ربّاً غيري؟ قال: نعم ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل به حتى دلَّه على الغلام.

فبعث إلى الغلام فقال: لقد بلغ من أمرك أن تشفي الأكمه والأبرص. قال: ما أشفي أحداً، ولكن الله ربّي يشفي. قال: أو إنَّ لك ربّاً غيري؟ قال: نعم ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل به حتى دلَّه على الراهب. فوضع المنشار عليه، فنشره حتى وقع شقّين، وقال للغلام: إرجع عن دينك فأبى. فأرسل معه نفراً. وقال: أصعدوا به جبل كذا وكذا، فإن رجع عن دينه، وإلاَّ فدهدهوه منه. قال: فعلوا به الجبل، فقال: أللّهمّ اكفنيهم بما شئت. قال: فرجف بهم الجبل فتدهدهوا أجمعون، وجاء إلى الملك فقال: ما صنع أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فأرسل به مرّة أُخرى، قال: انطلقوا به، فلججوه في البحر، فإن رجع وإلاَّ فغرّقوه.

فانطلقوا به في قرقور[1] فلما توسَّطوا به البحر قال: اللَّهُمَّ اكفنيهم بما شئت. قال: فانكفأت بهم السفينة، وجاء حتى قام بين يدي الملك. فقال: ما صنع

---

(١) القرقور: السفينة الطويلة.

أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. ثمّ قال: إنّك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به، أجمع الناس، ثمّ أصلبني على جذع، ثمّ خذ سهماً من كنانتي، ثمّ ضعه على كبد القوس، ثمّ قل: باسم ربّ الغلام، فإنّك ستقتلني.

قال: فجمع الناس، وصلبه، ثمّ أخذ سهماً من كنانته، فوضعه على كبد القوس، وقال: باسم ربّ الغلام، ورمى فوقع السهم في صدغه، ومات. فقال الناس: آمنّا برب الغلام. فقيل له: أرأيت ما كنت تخاف قد نزل والله بك، آمن الناس. فأمر بالأخدود فخددت على أفواه السكك، ثمّ أضرمها ناراً. فقال: من رجع عن دينه فدعوه، ومن أبى فأقحموه فيها، فجعلوا يقتحمونها. وجاءت امرأة بابن لها، فقال لها: يا أمه إصبري، فإنّك على الحقّ.

وقال ابن المسيّب: كنّا عند عمر بن الخطاب، إذ ورد عليه أنّهم احتفروا، فوجدوا ذلك الغلام، وهو واضع يده على صدغه، فكلّما مدَّت يده عادت إلى صدغه، فكتب عمر: واروه حيث وجدتموه، وروى سعيد بن جبير، قال: لمّا انهزم أهل اسفندهان، قال عمر بن الخطاب: ما هم بيهود، ولا نصارى، ولا لهم كتاب، وكانوا مجوساً. فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام. بل قد كان لهم كتاب، ولكنّه رفع، وذلك أنّ ملكاً لهم سكر، فوقع على ابنته، أو قال: على أُخته، فلمّا أفاق قال لها: كيف المخرج ممّا وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك، وتخبرهم أنّك ترى نكاح البنات، وتأمرهم أن يحلّوه. فجمعهم فأخبرهم، فأبوا أن يتابعوه، فخدَّ لهم أخدوداً في الأرض، وأوقد فيه النيران، وعرضهم عليها، فمن أبى قبول ذلك، قذفه في النار، ومن أجاب خلّى سبيله.

وقال الحسن: كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا ذكر أمامه أصحاب الأخدود، تعوَّذ بالله من جهد البلاء. وروى العياشي بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: أرسل عليّ عليه السلام إلى أسقف نجران، يسأله عن أصحاب الأخدود، فأخبره بشيء، فقال عليه السلام:

ليس كما ذكرت، ولكن سأُخبرك عنهم: إنّ الله بعث رجلاً حبشيّاً نبيّاً، وهم حبشة، فكذّبوه، فقاتلهم فقتلوا أصحابه، وأسروه وأسروا أصحابه، ثمّ بنوا له حثيراً[١] [حير]، ثمّ ملأه ناراً، ثمّ جمعوا الناس، فقالوا: من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء، فليرم نفسه في النار معه، فجعل أصحابه يتهافتون في النار، فجاءت إمرأة معها صبيّ لها ابن شهر، فلمّا هجمت على النار، هابت ورقّت على ابنها. فناداها الصبي: لا تهابى، وارمي بي وبنفسك في النار، فإنّ هذا والله في الله قليل! فرمت بنفسها في النار، وصبيها، وكان ممّن تكلم في المهد.

وبإسناده عن ميثم التمّار قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام، وذكر أصحاب الأخدود فقال: كانوا عشرة، وعلى مثالهم عشرة، يقتلون في هذا السوق. وقال مقاتل: كان أصحاب الأخدود ثلاثة، واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس، حرقوا بالنار. أمّا الذي بالشام، فهو أنطياخوس الرومي[٢] ، وأمّا الذي بفارس، فهو بخت نصر، وأمّا الذي بأرض العرب، فهو يوسف بن ذي نواس.

فأمّا من كان بفارس والشام، فلم ينزل الله تعالى فيهما قرآناً، وأنزل في الذي كان بنجران، وذلك أنّ رجلين مسلمين ممّن يقرأون الإنجيل، أحدهمابأرض تهامة، والآخر بنجران اليمن، أجر أحدهما نفسه في عمل يعمله، فجعل يقرأ الإنجيل. فرأت ابنة المستأجر النور يضيء من قراءة الإنجيل، فذكرت لأبيها، فرمق[٣] حتى رآه، فسأله فلم يخبره، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والإسلام، فتابعه مع سبعة وثمانين إنساناً، من رجل وإمرة. وهذا بعدما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء.

---

[١] الحثير: شبه الحظيرة.

[٢] في تفسير البغوي: أُبطاموس.

[٣] رمقه: أطال النظر إليه.

فسمع يوسف بن ذي نواس بن شراحيل بن تبع الحميري، فخدَّ لهم في الأرض، وأوقد فيها، فعرضهم على الكفر. فمن أبى قذفه في النار، ومن رجع عن دين عيسى لم يقذف فيها. وإذا امرأة جاءت ومعها ولد صغير، لا يتكلّم، فلمّا قامت على شفير الخندق، نظرت إلى ابنها، فرجعت فقال لها: يا أُمّاه: إنّي أرى أمامك ناراً لا تطفى، فلمّا سمعت من ابنها ذلك، قذفها [قذفا] في النار، فجعلها الله وابنها في الجنّة. وقذف في النار سبعة وسبعون إنساناً. قال ابن عباس: من أبى أن يقع في النار، ضرب بالسياط، فأدخل الله أرواحهم في الجنّة، قبل أن تصل أجسامهم إلى النار.

المعنى: إنّ الله سبحانه أقسم بالسماء، فقال: ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ فالبروج: المنازل العالية. والمراد هنا منازل الشمس والقمر والكواكب، وهي إثنا عشر برجاً[1]، يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث [ثُلْثاً]، وتسير الشمس في كل برج شهراً ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ يعني: يوم القيامة في قول جميع المفسّرين، وهو اليوم الذي يجازى فيه الخلائق، ويفصل فيه القضاء.

---

(١) المنازل والبروج في إصطلاح أهل النجوم، تطلق على مواضع بعينها من الفلك، وان خرج عنها النجوم المسمّات بأسمائها بمقتضى حركة فلك البروج في كلّ سبعين سنة درجة، فبرج العقرب يطلق على موضع كانت فيه هذه الصورة قبل زماننا بألفي عام، والآن صورة العقرب في برج القوس، وكذلك منازل القمر من الشياطين [الشرطين] والبطين وغيرهما، وإن استعمل أمثال تلك الكلمات، ووقعت في الادلة الشرعيّة تحمل على عرف اللغة، لا اصطلاح العلماء الذي لا يعرفه الناس إلّا أن يكون المفهوم واحداً في العرف وفى اصطلاح العلماء، لكن اختلفا لجهل العرف أو لمسامحتهم، فالأوّل كإطلاقهم العقرب والشرطين على صورة النجوم؛ لاعتقادهم أنّها ثابتة في الموضع الأوّل، فالمعنى عندهم أيضاً هو الموضع أيضاً، وغلطوا في التطبيق، ومثله إطلاقهم المسجد الحرام على مازيد فيه بعد عصر الأئمّة عليهم السلام، ومن المسامحة إطلاقهم الرطل والفرسخ والمقادير مطلقا، على ما يقرب من تلك المقادير، وإطلاق الإستقبال على من ينحرف عن القبلة يمينا أو شمالا قليلا، فإنّه غير جائز إذا علم انحرافه عن الواقع، وهكذا.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فيه أقوال: أحدها: إنّ «الشاهد» يوم الجمعة، و«المشهود» يوم عرفة، ـ عن ابن عباس وقتادة، وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليه السلام، وروي ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وآله ـ. وسمّي يوم الجمعة شاهداً؛ لأنّه يشهد على كل عامل بما عمل فيه. وفي الحديث: «ما طلعت الشمس على يوم ولا غربت على يوم، أفضل منه، وفيه ساعة لا يوافقها من يدعو فيها الله بخير إلّا استجاب له. ولا استعاذ من شرّ إلاّ أعاذه منه». ويوم عرفة مشهود، يشهد الناس فيه موسم الحج، وتشهده الملائكة.

وثانيها: إنّ «الشاهد» يوم النحر، و«المشهود» يوم عرفة، ـ عن إبراهيم.

وثالثها: إنّ «الشاهد» محمّد صلى الله عليه وآله، و«المشهود» يوم القيامة، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى، وسعيد بن المسيّب، وهو المرويّ عن الحسن بن عليّ عليه السلام ـ.

وروي أنّ رجلاً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا رجل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: فسألته عن الشاهد والمشهود، فقال: نعم «الشاهد» يوم الجمعة، و«المشهود» يوم عرفة. فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فسألته عن ذلك فقال: أمّا «الشاهد» فيوم الجمعة، وأمّا «المشهود» فيوم النحر. فجزتهما إلى غلام كأنَّ وجهه الدينار، وهو يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أخبرني عن شاهد ومشهود؟ فقال: أمّا «الشاهد» فمحمّد صلى الله عليه وآله، وأمّا «المشهود» فيوم القيامة، أما سمعته سبحانه يقول: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وقال: ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾. فسألت عن الأوّل فقالوا: ابن عباس. وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر. وسألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن عليّ عليه السلام.

ورابعها: إنّ الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة. وعن أبي الدرداء،

عن النبيّ ﷺ قال: «أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة، فإنّه يوم مشهود تشهده الملائكة، وإنّ أحداً لا يصلي عليَّ إلّا عرضت عليَّ صلاته، حتى يفرغ منها. قال: فقلت وبعد الموت؟ فقال: إنّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فنبي الله حيٌّ يرزق».

وخامسها: إنّ «الشاهد» الملك، يشهد على بني آدم، و«المشهود» يوم القيامة، ـ عن عكرمة ـ. وتلا هاتين الآيتين: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ و ﴿وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

وقد قيل في ذلك أقوال أُخر، كقول الجبائي: «الشاهد» هم الذين يشهدون على الناس، و«المشهود» هم الذين يُشهَد عليهم. وقول الحسين بن الفضل: «الشاهد» هذه الأُمّة، و«المشهود» سائر الأُمم؛ لقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وقيل: «الشاهد» أعضاء بني آدم، و«المشهود» هم؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ الآية. وقيل: «الشاهد» الحجر الأسود، و«المشهود» الحاجّ. وقيل: «الشاهد» الأيّام والليالي، و«المشهود» بنو آدم. وينشد للحسين بن عليّ عليه السلام:

مَضٰى أَمْسُكَ الْماضِي شَهِيداً مُعَدّلاً ... وَخُلِّفْتَ فِي يَوْمٍ، عَلَيْكَ شَهِيدٌ
فَإِنْ أَنْتَ بِالأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً ... فَقَيِّدْ بِإِحْسانٍ، وَأَنْتَ حَمِيدٌ
وَلاٰ تُرْجِ فِعْلَ الخَيْرِ يَوْماً إِلىٰ غَدٍ ... لَعَلَّ غَداً يَأْتِي، وَأَنْتَ فَقِيدٌ

وقيل: «الشاهد» الأنبياء، و«المشهود» محمّد ﷺ بيانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾. وقيل: «الشاهد» الله، و«المشهود» لا إله إلّا الله. بيانه قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية. وقيل: «الشاهد» الخلق، والمشهود «الحق». وإليه أشار الشاعر بقوله:

أَيا عَجَباً كَيْفَ يُعْصىٰ الإِلٰه ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجاحِدُ

وَلِلَّهِ فِـي كُـلِّ تَـحْرِيكَةٍ وَفِي كُـلّ تَسْكِـينَةٍ شـاهِدُ
وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عَـلىٰ أَنَّـهُ واحِـدٌ

فهذه ثمانية أقوال أُخر.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أي: لعنوا بتحريقهم الناس في الدنيا قبل الآخرة، والمراد به: الكافرون الذين حفروا الأخدود، وعذّبوا المؤمنين بالنار. ويحتمل أن يكون إخباراً عن المسلمين الذين عذّبوا بالنار في الأخدود، والمعنى: إنّهم قتلوا بالإحراق في النار. ذكرهم الله سبحانه، وأثنى عليهم بحسن بصيرتهم، وصبرهم على دينهم، حتى أُحرقوا بالنار لا يعطون التقيّة بالرجوع عن الإيمان.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ أي: أصحاب النار الذين أوقدوها بإحراق المؤمنين. وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ إشارة إلى كثرة حطب هذه النار، وتعظيم لأمرها، فإنّ النار لا تخلو عن وقود.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يعني: الكفّار، إذ هم على أطراف هذه النار جلوس يعذّبون المؤمنين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يعني هم عندها قعود، يعرضونهم على الكفر، ـ عن مقاتل ـ. قال مجاهد: كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود، وهو قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يعني: الملك وأصحابه الذين خدُّوا الأخدود ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عرضهم على النار، وإرادتهم أن يرجعوا إلى دينهم ﴿شُهُودٌ﴾ أي: حضور. قال الزجّاج: أعلم الله قصّة قوم بلغت بصيرتهم، وحقيقة إيمانهم، إلى أن صبروا على أن أُحرقوا بالنار في الله.

وقال الربيع بن أنس: لمّا أُلقوا في النار، نجى الله المؤمنين، بأن أخذ أرواحهم قبل أن تمسّهم النار، وخرجت النار إلى من على شفير الأخدود من الكفّار، فأحرقتهم. وقيل: إنّهم كانوا فرقتين: فرقة تعذّب المؤمنين، وفرقة تشاهد الحال، لم يتروا [يتولّوا] تعذيبهم، لكنّهم قعود، رضوا بفعل أُولئك، وكانت الفرقة

القاعدة مؤمنة، لكنّهم لم ينكروا على الكفّار صنيعهم، فلعنهم الله جميعاً، ـ عن أبي مسلم ـ. والقعود: جمع القاعد، وكذلك الشهود جمع الشاهد. وهُمْ كل حاضر على ما شاهدوه، إمّا بسمع أو بصر.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ أي: ما كرهوا منهم إلّا أنّهم آمنوا، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ما أنكروا عليهم ذنباً، وما عابوا منهم شيئاً إلّا إيمانهم. وهذا كقوله: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ ـ عن الزجّاج ومقاتل ـ. وقال الجبائي: ما فعلوا بهم ذلك العذاب إلّا بإيمانهم بالله ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، القاهر الذي لا يقهر ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود في جميع أفعاله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف في السماوات والأرض، لا اعتراض لأحد عليه ﴿وَاللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد عليهم، لم يخف عليه فعلهم بالمؤمنين، فإنّه يجازيهم، وينتصف للمؤمنين منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: الذين أحرقوهم، وعذّبوهم بالنار، ـ عن ابن عباس وقتادة والضحّاك ـ. ومثله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ من فعلهم ذلك، ومن الشرك الذي كانوا عليه. وإنّما شرط عدم التوبة؛ لأنّهم لو تابوا لما توجّه إليهم الوعيد ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ بما أحرقوا المؤمنين.

يسأل فيقال: كيف فصّل بين عذاب جهنم وعذاب الحريق وهما واحد؟ أُجيب عن ذلك بأنّ المراد: لهم أنواع العذاب في جهنّم سوى الإحراق، مثل الزقّوم والغسلين والمقامع، ولهم من [مع] ذلك الإحراق بالنار. وقيل: لهم عذاب جهنّم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وذلك أنّ النار ارتفعت من الأخدود فأحرقتهم، ـ عن الربيع بن أنس، وهو قول الكلبي ـ. وقال الفرّاء: ارتفعت النار عليهم فأحرقتهم فوق الأخاديد، ونجا المؤمنون.

ثمّ ذكر سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين الذين أُحرقوا بالنار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ النجاح [النجاة] العظيم، والنفع الخالص. وإنّما وصفه بالكبير؛ لأنّ نعيم العاملين كبير بالإضافة إلى نعيم من لا عمل له من داخلي الجنّة، لما في ذلك من الإجلال والإكرام، والتبجيل والإعظام.

ثمّ قال سبحانه متوعّداً للكفّار والعصاة: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَشَدِيدٌ﴾ يعني: إنّ أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة والجبابرة، أليم شديد. وإذا وصف البطش، وهو الأخذ عنفاً بالشدّة، فقد تضاعف مكروهه، وتزايد إيلامه ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ﴾ الخلق يخلقهم أوّلاً في الدنيا ﴿وَيُعِيدُ﴾ هم أحياء بعد الموت للحساب والجزاء، فليس إمهاله لمن يعصيه لإهماله إيّاه. وقيل: إنه يبدىء بالعذاب في الدنيا، ويعيده في الآخرة، ـ عن ابن عباس ـ. وذلك لأنّ ما قبله يقتضيه.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين من أهل طاعته، ومعناه: كثير الغفران عادته مغفرة الذنوب ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ يودُّ أولياءه ويحبُّهم، ـ عن مجاهد ـ. قال الأزهري في تفسير أسماء الله: يجوز أن يكون «ودود» فعولاً بمعنى مفعول، كركوب وحلوب، ومعناه: إنّ عباده الصالحين يودّونه، ويحبّونه، لما عرفوا من فضله وكرمه، ولما أسبغ من آلائه ونعمه [نعوته]. قال: وكلتا الصفتين مدح؛ لأنّه سبحانه إنْ أحبَّ عباده المطيعين، فهو فضل منه، وإنْ أحبّوه، فلما عرفوه من فضله وإحسانه.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيْدُ﴾ أكثر القراءة في ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ الرفع؛ لأنّ الله سبحانه هو الموصوف بالمجد، ولأن المجيد لم يسمع في غير صفة الله تعالى، وإن سمع الماجد. ومن كسر «المجيد» جعله من صفة العرش. وروي عن ابن عباس أنّه قال: يريد العرش وحسنه، ويؤيّده أنّ العرش وصف بالكرم في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ فجاز أيضاً أن يوصف بالمجد؛ لأنّ معناه: الكمال والعلو والرفعة، والعرش أكمل كل شيء وأعلاه، وأجمعه لصفات الحسن. ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يعجزه شيء طلبه، ولا يمتنع منه شيء أراده، ـ عن عطاء ـ. وقيل: لما يريد من الإبداء والإعادة.

ثمّ ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الذين تجندوا على أنبياء الله أي: هل بلغك أخبارهم. وقيل: أراد: قد أتاك. ثمّ بيّن سبحانه أصحاب الجنود، فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ والمعنى: تذكّر يا محمّد حديثهم، تذكّر مُعتبر، كيف كذّبوا أنبياء الله، وكيف نزل بهم العذاب، وكيف صبر الأنبياء، وكيف نصروا، فَاصْبر كما صبر أُولئك، ليأتك النصر كما أتاهم. وهذا من الإيجاز البديع، والتلويح الفصيح الذي لا يقوم مقامه التصريح.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: مشركي قريش ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لك وللقرآن قد أعرضوا عمّا يوجبه الإعتبار، وأقبلوا على ما يوجبه الكفر والطغيان. ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُحِيطٌ﴾ معناه: إنّهم في قبضة الله وسلطانه، لا يفوتونه كالمحاصر المحاط به من جوانبه، لا يمكنه الفوات والهرب، وهذا من بلاغة القرآن.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: كريم؛ لأنّه كلام الربّ، ـ عن ابن عباس ـ، أي: ليس هو كما يقولون من أنّه شعر، أو كهانة وسحر، بل هو قرآن كريم، عظيم الكرم، فيما يعطي من الخير، جليل الخطر والقدر. وقيل: هو قرآن كريم لما يعطي من المعاني الجليلة، والدلائل النفيسة، ولأنّ جميعه لكم [حكم]، والحكم على ثلاثة أوجه لا رابع لها: معنى يعمل عليه فيها يخشى أو يتقى، وموعظة تلين القلب للعمل بالحقّ، وحجّة تؤدّي إلى تمييز الحقّ من الباطل في علم دين أو دنيا، وعلم الدين أشرفهما. وجميع ذلك موجود في القرآن.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والتبديل، والنقصان والزيادة، وهذا على

قراءة من رفعه فجعله من صفة قرآن. ومن جرّه فجعله صفة للوح، فالمعنى: إنّه محفوظ لا يطلع عليه غير الملائكة. وقيل: محفوظ عندالله، وهو أُمّ الكتاب. ومنه: نسخ القرآن والكتب. وهو الذي يعرف باللوح المحفوظ، وهو من درّة بيضاء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ. وقيل: إنّ اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في جبهة إسرافيل، ـ عن أنس ـ. وقيل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش، ـ عن مقاتل ـ.

سورة الطارق

مكّيّة، سبع عشرة آية.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأها، أعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات» عن المعلّى بن خنيس، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من كانت قراءته في الفريضة بالسماء والطارق، كان له يوم القيامة عند الله جاه ومنزلة، وكان من رفقاء النبيّين، وأصحابهم في الجنّة».

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بالوعيد، وافتتح هذه السورة بمثله، وأكّد ذلك بأنّ أعمال الخلق محفوظة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ
نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾
يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿لَمَّا عَلَيْهَا﴾ ـ بتشديد الميم ـ. والباقون: بالتخفيف. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس: «مهّلهم رويداً» ـ بغير ألف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من خفّف ﴿لَمَا﴾ كانت ﴿إِنْ﴾ عنده المخفّفة من الثقيلة، واللام معها هي اللام التي تدخل مع هذه المخفّفة؛ لتخلصها من «إن» النافية. و«ما» صلة كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾، و ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾. وتكون «إنْ» متلقّية للقسم كما تتلقّاه مثقلة.

ومن ثقّل «لمّا» كانت ﴿إِنْ﴾ عنده النافية، كالتي في قوله: ﴿فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

و«لمّا» في معنى «إلّا»، وهي متلقّية للقسم، كما يتلقّاه «ما». قال أبو الحسن: الثقيلة في معنى «إلّا»، والعرب لا تكاد تعرف ذا. وقال الكسائي: لا أعرف وجه التثقيل. وعن ابن عوف قال: قرأت عند ابن سيرين ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا﴾ ـ بالتشديد ـ، فأنكره. قال الزجّاج: استعملت «لمّا» في موضع «إلّا» في موضعين: أحدهما: هذا. والآخر: في باب القسم تقول: سألتك لما فعلت بمعنى: إلّا فعلت.

اللغة: طرقني فلان: إذا أتاني ليلاً. وأصل الطرق الدقّ. ومنه: المطرقة؛ لأنّها يدقّ بها. والطريق؛ لأنّ المارّة تدقّه. والطارق: الآتي ليلاً يحتاج إلى الدقّ

للتنبيه. ونهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً، حتى تَسْتَحِدَّ[١] المغيبةُ، وتمشط [تمتشط] الشعثة. وقالت هند بنت عتبة: «نَحْنُ بَناتُ طارِقٍ* نَمْشي عَلَى النَّمارِقِ» تريد: إنَّ أبانا نجم في شرفه وعلوه. وقال الشاعر:

يا راقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرَقْنَ أَسْحاراً

لا تَأْمَنَنَّ بِلَيْلٍ طابَ أَوَّلُهُ ... فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أَجَّجَ النَّارا[٢]

والنجم: الكواكب الطالعة في السماء. يقال لكل طالع ناجم تشبيهاً به: نجم يقال النبت، ونجم السن والقرن، والثاقب: المضيء النير. وثقوبه: توقّده بنوره. والثاقب: العالي الشديد العلو. والدفق: صبُّ الماء الكثير باعتماد قويّ. ومثله: الدفع. فالماء الذي يكون منه الولد يكون دافقاً، وهو القاطر المصبّ، وهي النطفة التي يخلق الله منها الولد. وقيل: ماء دافق معناه: مدفوق. ومثله: سرٌّ كاتم، وعيشة راضية. والترائب: نواحي الصدر. واحدتها: تريبة، وهو مأخوذ من تذليل حركتها، كالتراب. قال المثقب:

ومِنْ ذَهَبٍ يُسَنُّ عَلىٰ تَرِيبٍ ... كَلَوْنِ العاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونٍ[٣]

وقال آخر:

وَالزَّعْفَرانُ عَلىٰ تَرائِبِها ... شَرِقاً بِهِ اللُّباتُ والصَّدْرُ[١]

والرجع: أصله من الرجوع، وهو الماء الكثير تُردّده الرياح تمرّ عليه. قال المنخل في صفة السيف:

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسُوبٌ، إِذا ... ما ثاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي[٤]

---

(١) تحلق العانة.

(٢) والعادة جارية بأن يكون آخر الليل أبرد. والبيت لابن الرومي.

(٣) يصف عقداً من ذهب على صدر امرأة شابّة. ويسنّ: يرسل. والغضون: مكاسر الجلد.

(٤) رسوب ماض في الضربته. وثاخ: انغمس. ويختلي: يقطع.

[١] اللبات جمع اللبة: موضع النحر.

قال الزجّاج: الرجع المطر؛ لأنّه يجيء ويرجع ويتكرّر. والصدع: الشقّ. فصدع الأرض: انشقاقها بالنبات وضروب الزروع والأشجار.

الإعراب: ﴿مَا الطَّارِقُ﴾ ما: استفهام. والجملة مبتدأ وخبر، وهي معلّقة بأدراك في موضع المفعول الثاني والثالث. وقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ العامل فيه فعل مضمر يدلّ عليه قوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ والتقدير: يرجعه يوم إبلاء السرائر، ولا يجوز أن يعمل فيه المصدر؛ لأنّه يكون من صلته. وقد فرق بينه وبينه بقوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾. ويجوز أن يكون العامل فيه قوله: ﴿لَقَادِرٌ﴾. و ﴿رُوَيْداً﴾: صفة لمصدر محذوف، وتقديره: إمهالاً رويداً.

المعنى: أقسم الله سبحانه، فقال: ﴿وَالسَّماءِ﴾ أي: بالسماء. وقيل: بربّ السماء. وقد بيّنّا القول في ذلك. ﴿وَالطَّارِقِ﴾ وهو الذي يجيء ليلاً ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ وذلك أنّ هذا الإسم يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبيّ ﷺ يدري ما المراد، لو لم يبيّنه.

ثمّ بيّنه بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: هو الكوكب المضيء، ويريد به العموم، وهو جماع النجوم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو زحل. والثاقب: العالي على النجوم، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: أراد به الثريا، والعرب تسمّيه النجم. وقيل: هو القمر؛ لأنّه يطلع بالليل، ـ عن الفرّاء ـ. وجواب القسم قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أي: ما كلّ نفس إلّا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها وفعلها، ويحصي ما يكتسبه من خير وشرّ. ومن قرأ: ﴿لَمَا﴾ ـ بالتخفيف ـ فالمعنى: إن كل نفس لعليها حافظ يحفظها. وقال قتادة: حافظ من الملائكة يحفظ عملها ورزقها وأجلها.

ثمّ نبّه سبحانه على البعث بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ﴾ يعني: المكذّب بالبعث، ـ عن مقاتل ـ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فلينظر نظر التفكّر والإستدلال من أيّ شيء خلقه

الله، وكيف خلقه و أَنشأه، حتى يعرف أنّ الذي ابتدأه من نطفة، قادر على إعادته.

ثم ذكر من أيّ شيء خلقه، فقال: ﴿خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ﴾ أي: من ماء مهراق في رحم المرأة، يعني: المني الذي يكون منه الولد، ـ عن ابن عباس ـ. قال الفرّاء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم، نحو: سرّ كاتم، وهمّ ناصب، وليل نائم وقد ذكرناه قبل.

ثمّ وصف سبحانه ذلك الماء، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ﴾ وهو موضع القلادة من الصدر، ـ عن ابن عباس ـ. قال عطاء: يريد صلب الرجل[1]، وترائب المرأة. والولد لا يكون إلّا من الماءين. وقيل: الترائب: اليدان والرجلان والعينان، ـ عن الضحّاك ـ. وسئل عكرمة عن «الترائب» فقال: هذه ـ ووضع يده على صدره بين ثدييه ـ وقيل: ما بين المنكبين والصدر، ـ عن مجاهد ـ. والمشهور في كلام العرب أنّها عظام الصدر، والنحر.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ يعني: إنّ الذي خلقه ابتداء من هذا الماء، يقدر على أنْ يرجعه حيّاً بعد الموت، ـ عن الحسن وقتادة والجبائي ـ. وقيل: معناه: أنّه تعالى على ردّ الماء في الصلب لقادر، ـ عن عكرمة ومجاهد ـ. وقيل: إنّه على ردّ الإنسان ماء كما كان، قادر، ـ عن الضحّاك ـ. وقال مقاتل بن حيان: يقول إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبى، ومن الصبى إلى النطفة. والأصحّ القول الأوّل؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾ أي: إنّه قادر على بعثه

---

(١) المني يترشّح من الخصيتين، وكذلك مايعات البدن يترشّح كلّ واحد من غدد، ولكن يحصل من كثرة رشح المني لكثرة الجماع ضعف في النخاع، ويحدث منه أمراض لذلك، فيستند المني إلى الصلب. والظاهر أنّ المراد هنا تحقير أمر المني، كما أطلق عليه في موضع آخر: الماء المهين، لخروجه من بين الأحشاء بين الصلب والترائب، كما قال: من بين فرث ودم لبنا خالصا، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، من نطفة في غاية المهانة. ولايدلّ الآية الكريمة على أنّ للمرأة منيّا. والحق أنّ ليس لها نظير مني الرجال.

يوم القيامة. ومعنى الرجع: ردّ الشيء إلى أوّل حاله. والسرائر: أعمال بني آدم، والفرائض التي أُوجبت عليه، وهي سرائر بين الله والعبد. وتبلى أي: تختبر تلك السرائر يوم القيامة، حتى يظهر خيرها من شرّها، ومؤدّيها من مضيعها.

روي ذلك مرفوعاً ـ عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ضمن الله خلقه أربع خصال: الصلاة، والزكاة، وصوم رمضان، والغسل من الجنابة، وهي السرائر التي قال الله ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾.

وعن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ: وما هذه السرائر التي تبلى بها العباد في الآخرة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة، والصيام، والزكاة، والوضوء، والغسل من الجنابة، وكل مفروض؛ لأنّ الأعمال كلها سرائر خفيّة، فإن شاء قال الرجل: صلّيت، ولم يصلّ، وإنْ شاء قال: توضّأت ولم يتوضّأ، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾ وقيل: يظهر الله أعمال كل أحد لأهل القيامة، حتى يعلموا على أيّ شيء أثابه، ويكون فيه زيادة سرور له، وإنْ يكن من أهل العقوبة، يظهر عمله ليعلموا على أيّ شيء عاقبه، ويكون ذلك زيادة غمّ له. والسرائر: ما أسرَّه من خير أو شرّ، وما أضمره من إيمان أو كفر. وروي عن عبدالله بن عمر أنّه قال: يبدي الله يوم القيامة كل سرّ، ويكون زيناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه.

﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: فما لهذا الإنسان المنكر للبعث والحشر ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يمتنع بها من عذاب الله ﴿وَلاَ نَاصِرٍ﴾ ينصره من الله. والقوّة هي القدرة.

ثمّ ذكر سبحانه قسماً آخر تأكيداً لأمر القيامة، فقال: ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: ذات المطر، ـ عن أكثر المفسّرين ـ. وقيل: يعني بالرجع شمسها وقمرها ونجومها، تغيب ثمّ تطلع، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: رجع السماء: إعطاؤها الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، على مرور الأزمان، فترجع بالغيث، وأرزاق العباد، وغير ذلك. ﴿وَٱلأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ تتصدّع بالنبات أي: تنشقّ

فيخرج منها النبات والأشجار.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ هذا جواب القسم يعني: أنّ القرآن يفصل بين الحقّ والباطل بالبيان عن كل واحد منهما. وروي ذلك عن الصادق عليه السلام. وقيل: معناه: أنّ الوعد بالبعث والإحياء بعد الموت، قول فصل أي: مقطوع به، لا خلاف ولا ريب فيه ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: هو الجدّ وليس باللعب. وقيل: إنّ القرآن لم ينزل باللعب.

ثمّ أخبر سبحانه عن مشركي قريش، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً﴾ أي: يحتالون في الإيقاع بك، وبمن معك، ويريدون إطفاء نورك. ﴿وَأَكِيدُ كَيْداً﴾ أي: أُريد أمراً آخر على ضدّ ما يريدون، وأُدبر ما ينقض تدابيرهم ومكايدهم، فسمّى ذلك كيداً من حيث يخفى ذلك عليهم.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: انتظر بهم يا محمّد، ولا تعاجلهم، وارض بتدبير الله فيهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ أي: إمهالاً قليلاً، ـ عن قتادة ـ. وإنما قلل الإمهال؛ لأنّ ما هو كائن [آت] لا محالة فهو قليل، والمراد به يوم القيامة. وقيل: أراد يوم بدر، والمعنى: لا تعجل عليَّ في طلب هلاكهم، بل اصبر عليهم قليلاً، فإنّ الله مجزيهم لا محالة، إمّا بالقتل والذلّ في الدنيا، أو بالعذاب في الآخرة. قال ابن جنّي: قوله: فمهّل الكافرين أمهلهم، غَيَّرَ اللفظ؛ لأنّه آثر التأكيد، وكره الكتير. فلمّا تجشّم إعادة اللفظ، انحرف عنه بعض الإنحراف بتغييره المثال، وانتقل عن لفظ «فَعّلْ» إلى لفظ «أفْعل»، فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ ولمّا تجشّم التثليث جاء بالمعنى، وترك اللفظ ألبتّة. فقال: ﴿رُوَيْداً﴾.

سورة الأعلى

مكّيّة ـ عن ابن عباس، مدنيّة عن الضحّاك، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف.

فضلها: أُبيّ بن كعب قال: قال النبيّ ﷺ: «من قرأها أعطاه الله من الأجر عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمّد ﷺ». وروي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يحبّ هذه السورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وأوّل من قال «سبحان ربي الأعلى» ميكائيل. وعن ابن عباس كان النبيّ ﷺ إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: سبحان ربّي الأعلى. وكذلك روي عن عليّ عليه السلام، وابن عمر، وابن الزبير، أنّهم كانوا يفعلون ذلك. وروي جويبر عن الضحّاك أنّه كان يقول ذلك، وكان يقول: من قرأها فليفعل ذلك. وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في فريضة أو نافلة، قيل له يوم القيامة: أدخل من أيّ أبواب الجنّة شئت». وروى العياشي بإسناده عن أبي حميصة، عن عليّ عليه السلام قال: صلّيت خلفه عشرين ليلة. فليس يقرأ إلاّ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾. وقال: «لو يعلمون ما فيها، لقرأها الرجل كل يوم عشرين مرّة. وإنّ من قرأها فكأنّما قرأ صحف موسىٰ وإبراهيم الذي وفى». وعن عقبة بن عامر الجهني قال: لمّا نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال رسول

الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». ولمّا نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم».

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر الوعيد والتهديد للكفّار، افتتح هذه السورة بذكر صفاته العلى، وقدرته على ما يشاء، فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

القراءة: قرأ الكسائي: ﴿قَدَرَ﴾ ـ بالتخفيف ـ، وهو قراءة عليّ عليه السلام. والباقون: ﴿قَدَّرَ﴾ ـ بالتشديد ـ. وقرأ أبو عمرو وروح وزيد وقتيبة ﴿يؤْثِرُونَ﴾ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قد تقدَّم أنَّ «قدَر» في معنى قدَّر، فكلا الوجهين حسن. وتؤثرون بالتاء: على الخطاب، «بل أنتم تؤثرون». والياء: على أنّه يريد الأشقين. وروي أنّ ابن مسعود والحسن قرآه.

اللغة: الأعلى: نظير الأكبر، ومعناه: العالي بسلطانه وقدرته، وكل من دونه في سلطانه لا يقتضي ذلك المكان. قال الفرزدق:

إنَّ الَّذي سَمَكَ السَّمَاءَ، بَنىٰ لَنَا بَـيْتاً، دَعَـائِمُهُ أَعَـزُّ، وَأَطْـوَلُ

والغثاء: ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات. وأصله الأخلاط من أجناس شتّى. والعرب تسمّي القوم إذا اجتمعوا من قبائل شتّى: أخلاطاً وغثاء. والأحوى: الأسود، والحوّة: السواد. قال ذو الرمة:

لَـمْيَاءُ فِـي شَـفَتَيْها حَـوَّةٌ لَـعَسٌ وَفِي اللِّثَاتِ، وَفِي أَنْيابِها شَنَبٌ[1]

وقال:

قَـرْحَاءُ، حَـوَّاءُ، أَشْـراطِـيَّةٌ وَكَـفَتْ فيهَا الذِّهَـابُ، وَحَـفَّتْها الْـبَراعِـيمُ[2]

والإقراء: أخذ القراءة على القارىء بالإستماع لتقويم الزلل. والقارىء: التالي. وأصله الجمع؛ لأنّه يجمع الحروف. والنسيان: ذهاب المعنى عن النفس. ونظيره السهو. ونقيضه الذكر، وهو ذهاب العلم الضروري بما جرت به العادة أنْ يعلمه، وليس بمعنى. وقال أبو عليّ الجبائي: وهو معنى[3] من فعل الله تعالىٰ.

---

(١) لمياء أي: بلون السمرة. والحوة: لون السمرة أيضاً، وكذلك اللعس. والشنب: البرودة يوصف به ريق النساء.

(٢) يصف روضة بأنّها قرحاء؛ لأنّ في وسطها زهورا بيضا. والاقرح: هو الفرس الذي في وجهه بياض. وحوّاء أي: سمراء؛ لأنّ نباتها تضرب إلى السواد. وأشراطية أي: مطرت بنؤ الشرطين وكانت العرب ترى أنّ لنجوم الشرطين تاثيرا في المطر. والوكوف: جريان المطر وذهبه المطر. والذّهاب ـ بكسر الذال ـ: الجمع. والبرعوم: الزهر قبل ان ينفتح.

(٣) أي: عرض وجودي.

الإعراب: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾: يحتمل أنْ يكون جرّاً صفة لـ«ربّ»، وأنْ يكون نصباً صفة لـ«إسم». ﴿أَحْوَىٰ﴾ نصب على الحال من المرعى. والتقدير: أخرج المرعى أحوى أي: اسود لشدّة خضرته. فجعله غثاء أي: جففه حتى صار جافاً كالغثاء، ويجوز أن يكون نعتاً لغثاء، والتقدير: فجعله غثاء أسود. والأوّل أوجه، وهو قول الزجّاج.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: في موضع نصب على الإستثناء، والتقدير: سنقرؤك القرآن فلا تنساه إلاَّ ما شاء الله أنْ تنساه برفع حكمه وتلاوته، وهو قول الحسن وقتادة. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: شرط، جزاؤه محذوف، يدلّ عليه قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾، والتقدير: إن نفعت الذكرى فذكّرهم.

المعنى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أي: قل سبحان ربّي الأعلى، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وقيل: معناه: نزّه ربّك عن كل ما لا يليق به من الصفات المذمومة، والأفعال القبيحة؛ لأنّ التسبيح هو التنزيه لله عمّا لا يليق به. يجوز [نحو] أنْ تقول لا إله إلاَّ هو، فتنفي ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته، مع الإقرار بأنّه الواحد في إلٰهيّته. وأراد بالإسم المسمّى. وقيل: إنّه ذكر الإسم، والمراد به تعظيم المسمّى، كما قال لُبيد: «إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما». ويحسن بالقارىء إذا قرأ هذه الآية أن يقول: «سبحان ربّي الأعلىٰ» وإن كان في الصَّلاة. قال الباقر عليه السلام: إذا قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فقل: سبحان ربّي الأعلى وإن كان فيما بينك وبين نفسك. والأعلى: معناه: القادر الذي لا قادر أقدر منه، القاهر لكل أحد. وقيل: الأعلى: صفة الإسم، والمعنى: سبّح الله بذكر اسمه الأعلى، وأسماؤه الحسنى كلها أعلى. وقيل: معناه: صل باسم ربّك الأعلىٰ، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ الخلق ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بينهم في باب الإحكام والإتقان. وقيل:

خلق كل ذي روح فسوَّى يديه وعينيه ورجليه، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: خلق الإنسان فعدل قامته، ـ عن الزجّاج ـ. يعني: إنّه لم يجعله منكوساً كالبهائم والدوابّ. وقيل: خلق الأشياء على موجب إرادته وحكمته، فسوّى صنعها لتشهد على وحدانيّته.

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: قدر الخلق على ما خلقهم فيه من الصور والهيئات، وأجرىٰ لهم أسباب معايشهم من الأرزاق والأقوات، ثمّ هداهم إلى دينه بمعرفة توحيده بإظهار الدلالات والبيّنات. وقيل: معناه: قدر أقواتهم، وهداهم لطلبها. وقيل: قدرهم على ما اقتضته حكمته فهدى أي: أرشد كل حيوان إلى ما فيه منفعته ومضرّته، حتى أنّه سبحانه هدى الطفل إلى ثدي أُمّه، وهدى الفرخ حتى طلب الزق[١] [الرزق] من أبيه وأُمه، والدواب والطيور حتى فزع كل منهم إلى أُمه، وطلب المعيشة من جهته سبحانه وتعالىٰ. وقيل: قدَّرهم ذكوراً وإناثاً، وهدى الذكر كيف يأتي الأنثى، ـ عن مقاتل والكلبي ـ. وقيل: هدى إلى سبيل الخير والشرّ، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: قدَّر الولد في البطن تسعة أشهر، أو أقلّ، أو أكثر، وهدى للخروج منه للتمام، ـ عن السدي ـ. وقيل: قدَّر المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لا ستخراجها منه، فجعل بعضها غذاءً، وبعضها دواءً، وبعضها سمّاً، وهدى إلى ما يحتاج إلى استخراجها من الجبال والمعادن، كيف تستخرج، وكيف تستعمل.

﴿وَٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: أنبت الحشيش من الأرض لمنافع جميع الحيوان، وأقواتهم ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد الخضرة ﴿غُثَآءً﴾ أي: هشيماً جافّاً، كالغثاء الذي تراه فوق السيل ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي: اسودّ بعد الخضرة، وذلك أنَّ الكلأ إذا يبس

---

[١] الزق: إطعام الطائر فرخه بمنقاره.

اسودَّ. وقيل: معناه: أخرج العشب وما ترعاه النعم. أحوى أي: شديد الخضرة يضرب إلى السواد، من شدّة خضرته، ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ أي: يابساً بعدما كان رطباً، وهو قوت البهائم في الحالين. فسبحان من دبر هذا التدبير، وقدَّر هذا التقدير. وقيل: إنّه مثل ضربه الله تعالىٰ لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ﴾ أي: سنأخذ عليك قراءة القرآن، فلا تنسى ذلك. وقيل: معناه: سيقرأ عليك جبرائيل القرآن بأمرنا، فتحفظه ولا تنساه. قال ابن عباس: كان النبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبرائيل عليه السلام بالوحي، يقرأه مخافة أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرائيل عليه السلام من آخر الوحي حتى يتكلّم هو بأوّله. فلمّا نزلت هذه الآية لم ينس بعد ذلك شيئاً.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن ينسيكه بنسخه من رفع حكمه وتلاوته، ـ عن الحسن ـ[1] وقتادة ـ. وعلى هذا فالإنساء نوع من النسخ، وقد مرّ بيانه في سورة البقرة عند قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ الآية. وقيل: معناه: إلاّ ما شاء الله أنْ يؤخّر إنزاله عليك، فلا تقرأه. وقيل: إلاّ ما شاء الله كالإستثناء في الإيمان، وإن لم يقع منه مشيئة النسيان. قال الفرّاء: لم يشأ الله أنْ ينسى عليه السلام شيئاً، فهو كقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّماوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ولا يشاء وكقول القائل: لأُعطينّك كل ما سألت إلاّ ما شئت، وإلاّ أن أشاء أن أمنعك. والنيّة أنْ لا

---

(١) النسيان: غيبوبة المعنى عن الذهن، فإن أوجب الخطأ في تبليغ أحكام الله نافى العصمة ومذهبنا أنّ الحجّة يجب أن يكون معصوماً؛ إذ ما من مسلم إلّا ويحتجّ بقول النبيّ ﷺ وبفعله، وإن علم أنّه لم يقله، ولم يصدر منه ذاك الفعل إلّا مرّة واحدة، فإن جاز خطائه فيه إرتفع الوثوق به، ولم يجز التمسّك به، وأمّا نفس عدم حضور المعنى من غير خطاء في القول والفعل، فلا يلزم منه عدم العصمة إذا لا يلزم من النسيان التهجّم على شيء يعلم أنّه نسيه، وهذا النسيان لا يجري في أحكام الله تعالى، فإنّ الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ؛ ليبلغ إلى الناس فمنعه دونه نقض للغرض. وقول الفرّاء قريب.

يمنعه، ومثله الإستثناء في الإيمان. ففي الآية بيان لفضيلة النبيّ ﷺ وإخبار أنّه مع كونه ﷺ أُمّيّاً، كان يحفظ القرآن، وأنَّ جبرائيل عليه السلام كان يقرأ عليه سورة طويلة، فيحفظه بمرّة واحدة، ثمّ لا ينساه. وهذه دلالة على الإعجاز الدالّ على نبوّته.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ معناه: إنّ الله سبحانه يعلم العلانية والسرّ. والجهر: رفع الصوت. ونقيضه: الهمس. والمعنى: إنّه سبحانه يحفظ عليك ما جهرت به، وما أخفيته [و] ممّا تريد أن تعيه.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ اليسرى: هي الفُعلى، من اليسر، وهو سهولة عمل الخير. والمعنى: نوفّقك للشريعة اليسرى، وهي الحنيفية، ونهوّن عليك الوحي، ونسهّله حتى تحفظه ولا تنساه، وتعمل به ولا تخالفه. وقيل: معناه: نسهّل لك من الإلطاف والتأييد، ما يثبتك على أمرك، ويسهل عليك المستصعب من تبليغ الرسالة، والصبر عليه، ـ عن أبي مسلم ـ. وهذا أحسن ما قيل فيه، فإنّه يتّصل بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ﴾ فكأنّه سبحانه أمره بالتبليغ، ووعده النصر، وأمره بالصبر. وقيل: إنَّ اليسرى عبارة عن الجنّة، فهي اليسرىٰ الكبرىٰ أي: نيسّر لك دخول الجنّة، ـ عن الجبائي ـ. ﴿فَذَكِّرْ﴾ أمر النبيّ ﷺ أنْ يذكِّر الخلق ويَعظِهم.

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وإنّما قال ذلك، وذكراه تنفع لا محالة في عمل الإيمان، والإمتناع من العصيان؛ لأنّه ليس بشرط حقيقة، وإنما هو إخبار عن أنّه ينفع لا محالة في زيادة الطاعة، والإنتهاء عن المعصية، كما يُقال: سله إنْ نفع السؤال. وقيل: معناه: عظهم إنْ نفعت الموعظة، أو لم تنفع؛ لأنّه ﷺ بعث للإعذار والإنذار، فعليه التذكير في كل حال، نفع أو لم ينفع. ولم يذكر الحالة الثانية كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

وقد نبّه الله سبحانه على تفصيل الحالتين بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي:

سيتّعظ بالقرآن من يخشىٰ الله تعالىٰ، ويخاف عقابه. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: يتجنّب الذكرىٰ والموعظة ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: أشقى العصاة، فإنّ للعاصين درجات في الشقاوة، فأعظمهم درجة فيها الذي كفر بالله وتوحيده، وعبد غيره. وقيل: الأشقى من الإثنين من يخشى [يغشى] ومن يتجنّب، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: يلزم أكبر النيران، وهي نار جهنّم. والنار الصغرىٰ: نار الدنيا، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ النار الكبرى: هي الطبقة السفلى من جهنّم، ـ عن الفرّاء ـ. ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح ﴿وَلاَ يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها، بل صارت حياته وبالاً عليه، يتمنّى زوالها، لما هو معها من فنون العقاب، وألوان العذاب. وقيل: ولا يحيى أي: ولا يجد روح الحياة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فاز من تطهر من الشرك، وقال: لا إله إلاَّ الله، ـ عن عطاء وعكرمة ـ. وقيل: معناه: قد ظفر بالبغية من صار زاكياً بالأعمال الصالحة والورع، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ـ. وقيل: تزكى أي: اعطى زكوة ماله ـ عن ابن مسعود ـ وكان يقول: قد رحم الله امرأ تصدّق ثمّ صلّىٰ، ويقرأ هذه الآية. وقيل: أراد صدقة الفطرة، وصلاة العيد، عن ابن عمر وأبي العالية وعكرمة وابن سيرين. وروي ذلك مرفوعاً عن أبي عبدالله عليه السلام.

ومتى قيل على هذا القول: كيف يصحّ ذلك، والسورة مكّيّة، ولم يكن هناك صلاة عيد، ولا زكاة، ولا فطرة؟ قلنا: يحتمل أن يكون نزلت أوائلها بمكّة، وختمت بالمدينة.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: وحد الله، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ذكر الله بقلبه عند صلاته فرجا ثوابه، وخاف عقابه، فإنّ الخشوع في الصَّلاة بحسب الخوف والرجاء. وقيل: ذكر اسم ربّه بلسانه عند دخوله في الصَّلاة، فصلّىٰ بذلك الإسم أي: قال: الله أكبر؛ لأنّ الصَّلاة لا تنعقد إلاَّ به. وقيل: هو أنْ يفتتح ببسم الله

الرحمن الرحيم، ويصلّي الصلوات الخمس المكتوبة.

ثمّ قال سبحانه مخاطباً للكفّار: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ أي: تختارون ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فتعملون لها، وتعمرونها، ولا تتفكّرون في أمر الآخرة. وقيل: هو عام في المؤمن والكافر، بناء على الأعمّ الأغلب في أمر الناس. قال عبدالله بن مسعود: إنّ الدنيا اخضرت [احضرت] لنا، وعجل لنا طعامها وشرابها ونساؤها ولذّتها وبهجتها. وإنَّ الآخرة نعتت لنا، وزويت عنّا، فأخذنا بالعاجل، وتركنا الآجل.

ثمّ رغَّب سبحانه في الآخرة، فقال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ﴾ أي: والدار الآخرة، وهي الجنّة ﴿خَيْرٌ﴾ أي: أفضل ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم من الدنيا. وفي الحديث: «من أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، ومن أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: إنَّ هذا الذي ذكر من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى أربع آيات، لفي الكتب الأُولىٰ التي أُنزلت قبل القرآن. ذكر فيها فلاح المصلّي، والمتزكّي، وإيثار الخلق الدنيا على الآخرة، وأنَّ الآخرة خيرٌ. وقيل: معناه: إنّ من تزكّى، وذكر اسم ربّه فصلّى، فهو ممدوح في الصحف الأُولىٰ، كما هو ممدوح في القرآن.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الصحف الأُولىٰ ما هي، فقال: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ وفي هذا دلالة على أنّ إبراهيم كان قد أُنزل عليه الكتاب، خلافاً لمن يزعم أنّه لم ينزل عليه كتاب[1]. وواحدة الصحف: صحيفة. وروي عن أبي ذرّ، أنّه قال: قلت يا رسول الله! كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً».

---

(١) وهم بعض اليهود والنصارى، وينقض عليهم بكلام التورية: إنّ إبراهيم حفظ أحكام الله وعمل بشريعته، فلو لم يكن نزل عليه كتاب، كيف عمل بشريعته، وعندهم أنّه لم ينزل قبل موسى كتاب ولا شريعة.

قلت: يا رسول الله! كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، وبقيتهم أنبياء». قلت: كان آدم عليه السلام نبيّاً؟ قال: «نعم كلّمه الله، وخلقه بيده. يا أباذرّ! أربعة من الأنبياء عرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيّك». قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة وأربعة كتب، أنزل الله منها على آدم عليه السلام عشر صحف، وعلى شيْث خمسين صحيفة، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وهو أوّل من خطّ بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان». وفي الحديث أنّه كان في صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه. وقيل: إنَّ كتب الله كلها أُنزلت في شهر رمضان.

سورة الغاشية

مكّيّة، ستّ وعشرون آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً». أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أدمن قراءة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ في فرائضه، أو نوافله، غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، وأعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار.

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بالترغيب في الآخرة، وأنّها خير من الدنيا، وافتتح هذه أيضاً ببيان أحوال الآخرة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة، غير سهل، وأبو بكر ﴿تُصْلَىٰ﴾ ـ بضمّ التاء ـ. والباقون: بفتحها. وقرأ ابن كثير، وأهل البصرة، غير سهل: ﴿لاَ يُسْمَعُ﴾ ـ بضمّ الياء ـ ﴿لاَغِيَةٌ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ نافع: ﴿لاَ تُسْمَعُ﴾ ـ بضمّ التاء ـ ﴿لاَغِيَةٌ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ الباقون: ﴿لاَ تَسْمَعُ﴾ ـ بفتح التاء ـ ﴿لاَغِيَةً﴾ بالنصب ـ. وقرأ أبو جعفر: ﴿إِيَّابَهُمْ﴾ ـ بتشديد الياء ـ. والباقون: بالتخفيف. وروي عن عليّ عليه السلام: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَىٰ ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بفتح أوائل هذه الحروف كلها، وضمّ التاء. وعن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وزيد بن عليّ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ بالتخفيف[1].

---

(١) قرأ مسيطر ـ بالسين ـ هشام، واختلف عن حفص وابن ذكوان وقنبل.

الحجة: حجّة من قال: ﴿تَصْلَىٰ﴾ قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾. وحجّة من قال: ﴿تَصْلَىٰ﴾ قوله: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ و«صلّوه» مثل: أصلوه.

واللاغية: مصدر بمنزلة العاقبة والعافية. ويجوز أنْ تكون صفة نحو أن تقول: لا تسمع فيها كلمة لاغية. والأوّل أوجه؛ لقوله تعالى: لا يسمعون فيها لغواً. و«لا تسمع» على بناء الفعل للمفعول به حسن، لأنّ الخطاب ليس بمصروف إلى واحد بعينه، وبناء الفعل للفاعل أيضاً حسن، على الشياع في الخطاب، وإن كان لواحد. وعلى هذا ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً﴾. ويجوز أنْ يكون الخطاب للنبي ﷺ، وكل واحد من التاء والياء في «تسمع ويسمع» حسن على اللفظ، وعلى المعنى.

وأمّا قوله: ﴿إِيَّابَهُمْ﴾ ـ على التشديد ـ فقال أبو الفتح: أنكر أبو حاتم هذه القراءة؛ لأنّه حملها على نحو: كذَّبوا كِذّاباً. قال: وهذا لا يجوز؛ لأنّه كان يجب أوّاباً؛ لأنّه فعّال فيصح لاحتمال التغيير بالإدغام كقولهم: إجلوّذ اجلوّاذاً قال أبو الفتح: يجوز أنْ يكونوا قلبوا الواو ياء من «أوّاب»، وإنْ كانت متحصّنة بالإدغام، استحساناً للتخفيف، لا وجوباً، كما قالوا: دَيَّمت السماء في «دَوَّمَت». قال:

هُوَ الجَوادُ ابْنُ الْجَوادِ ابْنِ سَبَلْ إنْ دَيَّموا جَادَ، وَإنْ جَادُوا وَبَلْ[1]

يريد: دَوَّموا. وقال: يجوز أنْ يكون بني من آبَ فَيْعَلْتُ وأصله: أَيْوَبْتُ. والمصدر: إيواب، فقلبت الواو ياء؛ لوقوع الياء ساكنة قبلها. ويجوز أنْ يكون أوبت فَوْعلت، والمصدر على الفيعال كالحيقال من حَوْقلت. أنشد الأصمعي:

يَا قَوْمِ قَدْ حَوْقَلْتُ، أَوْ دَنَوتُ وَبَعْدَ حِيقالِ الرِّجَالِ الْمَوْتُ[1]

---

(١) دومت السماء: استمرّ مطرها. والجواد: أشدّ منه. والوبل: أشدّ.

[١] حوقل الشيخ: اعتمد بيديه على خَصْريه. (لسان العرب ٣: ٢٦٤ حقل).

فصار إيواباً، فقلبت الواو ياء، فصار «إيّاباً». وأمّا قراءة عليّ عليه السلام، فالمفعول في جميعها محذوف؛ لدلالة المعنى عليه أي: كيف خلقتها، وكيف رفعتها، وكيف نصبتها وسطحتها. ومن قرأ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ فإلّا افتتاح كلام، ومَن شرط، وجوابه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فهو يعذّبه الله. وقد تقدَّم القول فيه في مواضع.

اللغة: الغاشية: المجللة لجميع الجملة غشيه يغشاه غشياناً، وأغشاه غيره: إذا جعله يغشى. وغشاه بمعناه. ونصب الرجل ينصب نصباً، فهو نصب وناصب: إذا تعب في العمل. والآنية: البالغة النهاية في شدّة الحرّ. والضريع: نبت تأكله الإبل، [لا] يضرّ ولا ينفع. وإنّما سمّي ضريعاً؛ لأنّه يشتبه عليها أمره فتظنّه كغيره من النبت. والأصل من المضارعة والمشابهة. والنمارق: واحدتها: نمرقة ونمروقة. والزرابي: البسط الفاخرة. واحدتها زربيه. والمصيطر: المتسلّط على غيره بالقهر له، يُقال: تصيطر فلان على فلان وصيطر: إذا تسلّط. وقال أبو عبيدة: مصيطر ومبيطر، لا ثالث لهما في كلام العرب.

الإعراب: «كيف خلقت» يجوز أنْ يكون في موضع نصب، على الحال من خلقت، ويجوز أنْ يكون على المصدر، وتكون الجملة التي هي ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ معلّقة بينظرون؛ لأنّ النظر مؤدّ إلى العلم ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾: هو استثناء منقطع، وسيبويه يقدّر الإستثناء المنقطع بـ«لكن». والفرّاء يقدّره بـ«سوى».

المعنى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يريد: قد أتاك حديث يوم القيامة؛ لأنّها تغشى الناس بأهوالها بغتة، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ـ. وقيل: الغاشية النار تغشي وجوه الكفّار بالعذاب، وهذا كقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ـ عن محمّد بن كعب، وسعيد بن جبير.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة بالعذاب الذي يغشاها، والشدائد التي تشاهدها. والمراد بذلك أرباب الوجوه. وإنّما ذكر «الوجوه» لأنّ الذلّ والخضوع

يظهر فيها. وقيل: المراد بالوجوه: الكبراء، تقول: جاءني وجوه بني تميم أي: ساداتهم. وقيل: عنى به وجوه الكفّار كلهم؛ لأنّها تكبّرت عن عبادة الله تعالىٰ، ـ عن مقاتل ـ.

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ فيه وجوه: أحدها: إنّ المعنى عاملة في النار، ناصبة فيها، ـ عن الحسن وقتادة ـ قالا: لم يعمل لله سبحانه في الدنيا، فأعلمها [فأعملها] وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال. قال الضحّاك: يكلّفون ارتقاء جبل من حديد في النار. وقال الكلبي: يجرّون على وجوههم في النار. وثانيها: إنّ المراد عملة [عاملة] في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار يوم القيامة، ـ عن عكرمة والسدي ـ. وثالثها: عاملة ناصبة في الدنيا، يعملون وينصبون ويتعبون، على خلاف ما أمرهم الله تعالى به، وهم الرهبان وأصحاب الصوامع، وأهل البدع والآراء الباطلة، لا يقبل الله أعمالهم في البدعة والضلالة، وتصير هباء لا يثابون عليها، ـ عن سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم، وأبي الضحّاك [الضحى]، عن ابن عباس ـ. وقال أبو عبدالله عليه السلام: كل ناصب لنا، وإن تعبّد واجتهد يصير إلى هذه الآية ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾.

﴿تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً﴾ قال ابن عباس: قد حميت فهي تتلظّىٰ على أعداء الله. وقيل: المعنى: إنّ هؤلاء يلزمون الإحراق بالنار التي في غاية الحرارة ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: وتسقىٰ أيضاً من عين حارّة قد بلغت إناها، وانتهت حرارتها. قال الحسن: قد أُوقدت عليها جهنّم مذ خلقت، فدفعوا إليها ورداً عطاشاً هذا شرابهم.

ثمّ ذكر طعامهم، فقال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو نوع من الشوك يُقال له الشبرق، وأهل الحجاز يسمّونه الضريع إذا يبس، وهو أخبث طعام وأبشعه، لا ترعاه دابّة. وعن الضحّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الضريع شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أمرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشدّ حرّاً من النار، سمّاه الله الضريع». وقال أبو الدرداء والحسن: إنّ الله يرسل على أهل النار الجوع، حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصّة، فيذكرون أنّهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء، فيستقون [فيستسقون]، فيعطشهم الله سبحانه ألف سنة، ثمّ يسقون من عين آنية، شربة لا هنيئة ولا مريئة، كلّما أدنوه إلى وجوههم سلخ جلود وجوههم، وشواها. فإذا وصل إلى بطونهم قطعها. فذلك قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾. ولمّا نزلت هذه الآية، قال المشركون: إنّ إبلنا لتسمن على الضريع، وكذبوا في ذلك؛ لأنّ الإبل لا ترعاه.

فقال الله سبحانه تكذيباً لهم: ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي: لا يدفع جوعاً، ولا يسمن أحداً. قال الحسن: لا أدري ماالضريع، لم أسمع من أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله شيئاً فيه. وقيل: هو سمّ، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: ضريع بمعنى مضرع أي: يضرعهم ويذلّهم. وقيل: يسمّىٰ ضريعاً؛ لأنّ آكله يضرع في الإعفاء منه لخشونته، وشدّة كراهته، ـ عن كيسان ـ. وقيل: هو الحجارة، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

ثمّ وصف سبحانه أهل الجنّة، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أي: منعمة في أنواع اللذّات، ظاهر عليها أثر النعمة والسرور، ومضيئة مشرقة ﴿لِسَعْيِهَا﴾ في الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ حين أُعطيت الجنّة بعملها. والمعنى: لثواب سعيها وعملها من الطاعات راضية. يريد أنّه لمّا ظهر نفع أعمالهم، وجزاء عباداتهم، رضوه وحمدوه. وهذا كما يُقال: «عند الصباح يحمد القوم السرى».

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة القصور والدرجات. وقيل: إنّ علو الجنّة على وجهين: علوّ الشرف والجلالة، وعلوّ المكان والمنزلة، بمعنى أنّها مشرفة على

غيرها، وهي أنزه ما تكون. والجنّة درجات بعضها فوق بعض، كما أنّ النار دركات.

﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ أي: كلمة ساقطة، لا فائدة فيها. وقيل: لاغية ذات لغو، كقولهم: نابل ودارع أي: ذو نبل ودرع. قال الحطيئة: «وَغَرَرْتَني، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لابِنٌ بِالصَيْفِ تامِر». ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنّة ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ قيل: إنّه اسم جنس. ولكل إنسان في قصره من الجنّة عين جارية من كل شراب يشتهيه. وفي العيون الجارية من الحسن واللذّة والمنفعة، ما لا يكون في الواقفة، ولذلك وصف بها عيون أهل الجنّة. وقيل: إنّ عيون أهل الجنّة تجري في غير أخدود، وتجري كما يريد صاحبها.

﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنّة ﴿سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدرّ والياقوت، مرتفعة ما لم يجيء أهلها، فإذا أراد أنْ يجلس عليها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثمّ ترتفع إلى موضعها. والسرُر: جمع سرير، وهو مجلس السرور. وقيل: إنّما رفعت ليرى المؤمنون بجلوسهم عليها، جميع ما حولهم من الملك.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ على حافّات العيون الجارية، كلما أراد المؤمن شربها، وجدها مملوءة، وهي الأَباريق ليس لها خراطيم، ولا عرى، تتخذ للشراب. وقيل: هي أواني الشراب من الذهب والفضّة والجواهر بين أيديهم، ويشربون بها ما يشتهونه من الأشربة، ويتمتّعون بالنظر إليها لحسنها ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد يتّصل بعضها ببعض على هيئة مجالس الملوك في الدنيا.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ وهي البسط الفاخرة، والطنافس المخملة، والمبثوثة المبسوطة المنشورة. ويجوز أن يكون المعنى: إنّها مفرقة في المجالس. وعن عاصم بن ضمرة، عن عليّ عليه السلام أنّه ذكر أهل الجنّة فقال: يجيئون فيدخلون، فإذا

أُسس بيوتهم من جندل اللؤلؤ، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة. ولولا أنَّ الله تعالى قدَّرها لهم، لالتمعت أبصارهم بما يرون، ويعانقون الأزواج، ويقعدون على السرر ويقولون: الحمدلله الذي هدانا لهذا.

قال قتادة: ولمّا نعت الله الجنّة وما فيها، عجب من ذلك أهل الضلال، فأنزل الله سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَىٰ ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وكانت الإبل عيشاً من عيشهم. فيقول: أفلا يتفكّرون فيها، وما يخرج الله من ضروعها، من بين فرث ودم لبناً خالصاً، سائغاً للشاربين، يقول: كما صنعت هذا لهم، فكذلك أصنع لأهل الجنّة في الجنّة. وقيل: معناه: أفلا يعتبرون بنظرهم إلى الإبل، وما ركبه الله عليه من عجيب الخلق، فإنّه مع عظمته وقوّته يذلّله الصغير، فينقاد له بتسخير الله إيّاه لعباده، فيبركه، ويحمل عليه، ثمّ يقوم. و[ليس] ذلك في غيره من ذوات الأربع، فلا يحمل على شيء منها إلّا وهو قائم. فأراهم الله سبحانه هذه الآية فيه؛ ليستدلّوا على توحيده بذلك، ـ عن عمرو بن العلاء والزجّاج ـ. وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له الفيل أعظم من الإبل فى الأعجوبة فقال: أمّا الفيل فالعرب بعيدو العهد بها، ثمّ هو خنزير لا يركب ظهرها، ولا يؤكل لحمها، ولا يحلب درّها. والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه، تأكل النوى والقتّ، وتخرج اللبن، ويأخذ الصبي بزمامها، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها. ويحكى أنّ فارة أخذت بزمام ناقة، فأخذت تجرّها، وهي تتبعها حتى دخلت الجحر [الحجر]، فجرّت الزمام فبركت الناقة، فجرّت، فقربت فمها من جحر الفأر.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي: كيف رفعها الله فوق الأرض، وجعل بينهما هذا الفضاء الذي به قوام الخلق وحياتهم. ثمّ إلى ما خلقه فيها من بدائع الخلق، من الشمس والقمر والكواكب، وعلَّق بها منافع الخلق، وأسباب معايشهم.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: أولا يتفكّرون في خلق الله سبحانه، الجبال أوتاداً للأرض ومسكنة لها، وأنّه لولاها لمادت الأرض بأهلها.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: كيف بسطها الله ووسعها، ولولا ذلك لما صحَّ الإستقرار عليها، والإنتفاع بها، وهذه من نعم الله سبحانه على عباده، لا توازيها نعمة منعم. وفيها دلائل على توحيده، ولو تفكَّروا فيها لعلموا أنَّ لهم صانعاً صنعهم، وموجداً أوجدهم.

ولمّا ذكر سبحانه الأدلّة، أمر نبيَّه بالتذكير بها، فقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمّد. والتذكير: التعريف للذكر بالبيان الذي يقع به الفهم. والنفع بالتذكير عظيم؛ لأنّه طريق للعلم بالأُمور التي يحتاج إليها. ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ لهم بنعم الله تعالى عندهم، وبما يجب عليهم في مقابلتها من الشكر والعبادة. وقد أَوضح الله تعالى طريق الحجج في الدين، وأكَّده غاية التأكيد بما لا يسع فيه التقليد بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، و ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، و ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾. وقيل: إنّ المراد فذكِّرهم بهذه الأدلّة، وامرهم بالإستدلال بها، ونبّههم عليها، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ معناه: لست عليهم بمتسلّط تسليطاً، يمكِّنك أنْ تدخل الإيمان في قلوبهم، وتجبرهم عليه. وإنّما الواجب عليك الإنذار، فاصبر على الإنذار والتبليغ والدعوة إلى الحقّ. وقيل: معناه: لست عليهم بمتسلّط الآن حتى تقاتلهم إن خالفوك، وكان هذا قبل نزول آية الجهاد. ثمّ نسخ بالأمر بالقتال. والوجه الصحيح أنه لا نسخ فيه؛ لأنّ الجهاد ليس باكراه للقلوب. والمراد: إنّك إنّما بعثت للتذكير، وليس عليك من ترك قبولهم شيء. ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: أعرض عن الذكر، ولم يقبل منك، وكفر بالله، وبما جئت به، فكلْ أمره إلى الله، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إلّا من تولّى وكفر، فلست له بمذكّر؛ لأنّه لا يقبل

منك، فكأنّك لست تذكره.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وهو الخلود في النار، ولا عذاب أعظم منه. ثم ذكر سبحانه أنَّ مرجعهم إليه، فقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومصيرهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم. فهذا جامع بين الوعد والوعيد ومعناه: لا يهمنك أمرهم، فإنّهم وإن عاندوك وآذوك، فمصير جميعهم إلى حكمنا، لا يفوتوننا، ومجازاتهم علينا، وعن قريب تقرّ عينك بما تراه في أعدائك.

﴿النَّظْمُ﴾: يسأل كيف يتّصل ذكر الإبل وما بعدها، بذكر وصف الجنان ونعيمها؟ والجواب: إنّه يتّصل بأوّل السورة، والضمير في قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ عائد إلى الذين وصفهم بقوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾. وإنّه لمّا ذكر عقابهم، وثواب المؤمنين، عاد عليهم بالإحتجاج بالإبل والسماء والأرض والجبال، وكيفيّة دلالتها على وجود الصانع الحكيم، يريد: هلاّ نظر هؤلاء في صنائع الله فيعرفونه، ويعبدونه، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا ذكر سرر الجنّة وارتفاعها، تعجبوا من ذلك، وقالوا: كيف يصعد عليها؟ فأراهم الله سبحانه الإبل، وأنّه كيف سخرت لبني آدم مع عظمها، حتى أُنيخت للحمل عليها، وتقوم بعد ذلك. وكيف أحكم الله خلق السماوات والأرض والجبال، ردّاً على أُولئك القوم. وإنّما خصَّ سبحانه هذه الأشياء بالذكر؛ لاستواء الناس كلهم في معرفتها.

سورة الفجر

مكيّة اثنتان وثلاثون آية حجازى، ثلاثون كوفي شامي، تسع وعشرون بصري.

اختلافها: أربع آيات ونعمه فقدر عليه رزقه كلتاهما حجازي بجهنم حجازي شامي في عبادي كوفي.

فضلها: أُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأها في ليال عشر، غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة» وروى داود بن فرقد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فإنها سورة الحسين بن عليّ عليه السلام. من قرأها كان مع الحسين بن عليّ عليه السلام، يوم القيامة في درجته من الجنّة.

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بأن إياب الخلق إليه، وحسابهم عليه، وافتتح هذه السورة بتأكيد ذلك المعنى، حين أَقسم أنه بالمرصاد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا ۖ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِايْءَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

(١) وجايء: مكتوب في أكثر المصاحف بإثبات ألف بين الجيم والياء.

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ
إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ ـ بكسر الواو ـ. والباقون: بالفتح. وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فَقَدَّرَ» ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ لا يكرمون بالياء، وكذلك ما بعده أهل البصرة، والباقون: بالتاء. وقرأ ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ أهل الكوفة وأبو جعفر، وقرأ ﴿لَا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بالفتح الكسائي ويعقوب وسهل. والباقون: لا يعذِّب ولا يوثِق. وقرأ أهال [أهل] المدينة وأبو عمرو وقتيبة ـ عن الكسائي: «وَٱللَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِى» ـ بإثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف ـ. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف. والباقون: بالحذف فيهما. وقرأ القواس والبزي ويعقوب: «بالوادي» بإثبات الياء في الوصل والوقف. وورش بإثباتها في الوصل، وحذفها في الوقف. والباقون: بحذفها في الوصل والوقف.

وقرأ أهل المدينة: أكرمني، وأهانني ـ بإثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف ـ. والقواس والبزي ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف. وأبو عمرو لا يبالي كيف قرأ بالياء وغير الياء. وروى العياشي [العباس] عنه بحذف الياء من غير تخيير. والباقون: بحذف الياء في الحرفين في الوصل والوقف.

وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس: «بِعَادٍ أَرَمَّ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ» وروي ذلك عن الضحّاك أيضاً. وقرءة ابن عباس وعكرمة والضحّاك وابن السميفع: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي [عبدي]».

الحجة: قال أبو عليّ: حدّثنا محمّد بن السري أنّ الأصمعي قال: لكل فرد

وتر، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد، ويكسرون «الوتر» في الذَحْل[١]، وقيس وتميم يسوونهما في الكسر، ويقولون في «الوتر» الذي هو الإفراد: أوترت وأنا أوتر إيتاراً أي: جعلت أمري وترا. وفي الذحل وترته أتره وِتْراً وتِرَةً. قال أبوبكر: وترته في الذحل، إنّما هو أفردته من أهله وماله.

ومن قرأ «يكرمون» وما بعده بالياء، فلما تقدّم من ذكر الإنسان، والمراد به الجنس والكثرة على لفظ الغيبة. ولا يمتنع في هذه الأشياء الدالّة على الكثرة، أن يحمل على اللفظ مرّة، وعلى المعنى أُخرى. ومن قرأ بالتاء، فعلى معنى: قل لهم ذلك، ومعنى ﴿وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ تأمرون به، ولا تبعثون عليه، ﴿وَلاَ تَحَاضُّونَ﴾ تتفاعلون منه.

وقوله: ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ معناه: لا يعذّب تعذيبه فوضع العذاب موضع التعذيب، كما وضع العطاء موضع الإعطاء في قوله: «وبَعْدَ عَطائِكَ المَائةَ الرِّتاعا»[٢] . فالمصدر الذي هو عذاب مضاف إلى المفعول به، مثل دعاء الخير. والمفعول به الإنسان المتقدّم ذكره في قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ﴾ والوثاق أيضاً موضع الإيثاق.

فأمّا من قرأ: ﴿لا يعذّب﴾ فقد قيل: إنّ المعنى فيه أنّه: لا يتولّى عذاب الله تعالى يومئذ أحد، والأمر يومئذ أمره، ولا أمر لغيره. هذا قول. وقد قيل أيضاً: لا يعذّب أحد في الدنيا مثل عذاب الله في الآخرة، وكأنّ الذي حمل قائل هذا القول على أن قاله، أنّه إنْ حمله على ظاهره، كان المعنى: لا يعذّب أحد في الآخرة مثل

---

[١] الذحل: الثأر.

[٢] هذا عجز بيت للقطامي من قصيدة طويلة يمدح فيها زفر بن الحارث الكلابي، وكان القطامي قد اسر في بعض الحروب فأطلقه زفر، ووهب له مأة من الإبل. وصدره: (أكفراً بعد رد الموت عني). والرتاع: التي تستام وترتع وترعى ولا من يردها، وذلك مما يورثها سمناً.

عذاب الله، ومعلوم أنّه لا يعذّب أحد في الآخرة مثل عذاب الله. إنّما المعذّب الله تعالى. فعدل عن الظاهر لذلك. ولو قيل: إنّ المعنى: فيومئذ لا يعذب أحد أحداً تعذيباً مثل تعذيب الكافر المتقدّم ذكره، فأُضيف المصدر إلى المفعول به، كما أُضيف إليه في القراءة الأُولى، ولم يذكر الفاعل، كما لم يذكره في مثل قوله تعالى: ﴿مِن دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لكان المعنى في القراءتين سواء، والذي يرد بأحد الملائكة الذين يتولّون تعذيب أهل النار، ويكون ذلك كقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ لا شبهة أن يكون هذا القول أولى، والفاعل له هم الملائكة.

قال: ووجه قول من قال «يَسْري» بالياء، وصل أو وقف، أنّ الفعل لا يحذف منه في الوقف، كما يحذف من الأسماء، نحو: قاض وغاز، فتقول: هو يقضي، وأنا أقضي، فتثبت الياء، ولا تحذف، كما تحذف من الإسم نحو: هذا قاض. وليس إثبات الياء بالأحسن في الوقف من الحذف، وذلك أنّها فاصلة، وجميع ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أنْ لا يحذف، نحو: القاضي بالألف واللام يحذف إذا كان في قافية، أو فاصلة، قال سيبويه: والفاصلة نحو: ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، و ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾، و ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾. فإذا كان شيء من ذلك في كلام تام شبه بالفاصلة، فحسن حذفها نحو قوله: ﴿ذٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

فإن قلت: كيف كان الإختيار فيه أنْ يحذف إذا كان في فاصلة أو قافية، وهذه الحروف من أنفس الكلم، وهلّا لم يستحسن حذفها، كما أثبت سائر الحروف، ولم يحذف؟ فالقول في ذلك: إنّ الفواصل والقوافي في مواضع الوقف، والوقف موضع تغيّر. فلمّا كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وروم الحركة، غيّرت فيه هذه الحروف لمشابهة الزيادة بالحذف.

ألاترى أنّ النداء لمّا كان في موضع حذف بالترخيم، والحذف للحروف الصحيحة ألزموا الحذف في أكثر الكلام، للحرف المتغيّر، وهو تاء التأنيث، فكذلك ألزم الحذف في الوقف لهذه الحروف المتغيّرة، فجعل تغييرها [تغيرها] الحذف، ولما يراع فيها ما روعي في الحروف الصحيحة، فسوّوا بينها وبين الزائد في الحذف للجزم نحو: لم يغز، ولم يرم، ولم يخش، وأجروها مجرى الزائد في الإطلاق في نحو: «وبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاٰ يَفْري»[1]. وما يمرّ، وما يحلو، كما قالوا: «أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ»[2]. فلذلك اختير فيها الحذف في الفواصل والقوافي، وكذلك قوله: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ الأوجه فيه الحذف، إذا كانت فاصلة، وإنْ كان الأحسن إذا لم تكن فاصلة الإثبات.

ومن قرأ في الوصل «يَسْري» ـ بالياء ـ، وفي الوقف بغير ياء، فإنّه ذهب إلى أنّه إذا لم يقف عليها، صار بمنزلة غيرها من المواضع التي لا يوقف عليها، فلم تحذف من الفاصلة، إذا لم يقف عليها، كما لم يحذف من غيرها، وحذفها إذا وقف عليها من أجل الوقف.

ومن قرأ: أكرمن وأهانن ـ بغير ياء في وصل، ولا وقف ـ، فهو كمن قرأ: ﴿يَسْرِ﴾ في الوصل والوقف؛ لأنّ ما قبلها كسرة في فاصلة. ومن قرأهما بياء في الوصل، كمثل من قرأ: ﴿يسري﴾ في الوصل بإثبات الياء وبحذفها في الوقف. ورواية سيبويه عن أبي عمرو أنّه قرأ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ و ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ على الوقف.

---

(١) جزء من بيت، تمامه: ولانت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثمّ لا يفري يعني: أنت إذا عزمت تنفذه، وبعض الناس يعزم ولا يفعل.

(٢) صدره: لمن الديار بقنة الحجر. وقنة: أعلى الجبل. والحجر: موضع. وأقوين أي: خلون منذ سنين ومنذ دهر.

ومن قرأ: ﴿اَرَمَّ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ فالمعنى: جعلها رميماً، رمّت هي واسترمّت وأرمّها غيرها. قال ابن جنّي: وأمّا القراءة «بعادٍ إرمَ»، فعلى أنّه أراد أهل إرم هذه المدينة، فحذف المضاف وهو يريده كقوله تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: بزينةِ الكواكب قال: وقوله: ﴿فِي عبدي﴾ لفظه لفظ الواحد، ومعناه: الجمع أي: عبادي وذلك أنّه جعل عبادي كالواحد أي: لا خلاف بينهم في عبودّيته، كما لا يخالف الإنسان فيصير كقول النبيّ ﷺ: «وهم يد على من سواهم». وقال غيره معناه: فادخلي في جسم عبدي.

(اللغة): الفجر: شقّ عمود الصبح، فجره الله لعباده فجراً: إذا أظهره في أُفق المشرق، مبشراً بإدبار الليل المظلم، وإقبال النهار المضيء، وهما فجران: أحدهما: الفجر المستطيل، وهو الذي يصعد طولاً كذنب السرحان، ولا حكم له في الشرع والآخر: هو المستطير المنتشر في أُفق السماء، وهو الذي يحرم عنده الأكل والشرب، لمن أراد أنْ يصوم في شهر رمضان، وهو ابتداء اليوم. والحجر: العقل. وأصله: المنع. يقال: حجر القاضي على فلان ماله أي: منعه من التصرّف فيه. فالعقل يمنع من المقبحات، ويزجر عن فعلها. والعماد: جمعه عمد، وهو ما تبغى به الأبنية، ويستعمل في القوّة والشّرف. يقال: فلان رفيع العماد. قال:

وَنَحْنُ إِذا عِمَادُ الْبَيْتِ خَرَّتْ عَلَى الأَخْفاضِ، نَمْنَعُ مَنْ يَلِينا[1]

والجوب: القطع. قال النابغة:

أَتاكَ أَبُو لَيْلى تَجُوبُ بِهِ الدُّجىٰ دُجَى اللَّيْلِ، جَوابَ الْفَلاةِ، غَشَمْشَمُ[2]

والغشمشم: الطويل. والسوط معروف. قال الفرّاء السوط: إسم للعذاب، وإن لم يكن ثمّ ضرب بسوط. وأصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض، فكأنّ السوط

---

(١) الخفض: متاع البيت. وعماد البيت اه كناية عن زوال القوّة.

(٢) غشمشم الطويل: وصف المركوب، وجوّاب الفلاء أي: قطاعها.

قسط عذاب يخالط اللحوم والدماء، كما يخالطهما السوط. قال الشاعر:

أَحارِثُ إنّا لَوْ تُساطُ دِماؤُنا تَزايَلْنَ حَتّىٰ لا يَمَسّ دَمٌ دَماً

والمرصاد: الطريق، مِفعال، من رصده يرصده رصداً: إذا راعى ما يكون منه ليقابله بما يقتضيه. واللم: الجمع. ولممت ما على الخوان ألمُّه لمّاً: إذا أكلته أجمع، كأنّه يأكل ما ألمَّ به، ولا يميز شيئاً من شيء. والجمّ: الكثير العظيم. وجمّة الماء: معظمه. وجمّ الماء في الحوض: إذا اجتمع وكثر. قال زهير:

فَلمّا وَرَدْنَ الْماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ[1]

والدكّ: حطّ المرتفع بالبسط، يقال: اندكّ سنام البعير: إذا انفرش في ظهره. وناقة دكّاء: إذا كانت كذلك. ومنه: الدكّان؛ لاستوائه. قال:

لَيْتَ الْجِبالَ تَداعَتْ عِنْدَ مَصْرَعِها دَكّاً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَحْجَارِها حَجَرٌ

والوثاق: الشدّ. وأوْثقته: شدّدته.

﴿الإعراب﴾: جواب القسم قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقيل: جوابه محذوف، تقديره: ليقبضنّ على كل ظالم، أو لينتصفنّ كل مظلوم من ظالمه. أما رأيت كيف فعلنا بعاد، وفرعون وثمود، لمّا ظلموا، وأُجري «إرم» على عاد عطف بيان، أو على البدل. ولا يجوز أن يكون صفة؛ لأنّه غير مشتقّ، وإنّما لا ينصرف «إرم» للتعريف والتأنيث. ألاترى إلى قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ ومن أضاف فقال: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ﴾ في الشواذّ، فإنّه عنده بمنزلة قولهم: زيد بطّة؛ لأنّه لقب، فيضاف إليه الإسم. ﴿وَثَمُودَ﴾ في موضع جرّ أي: وبثمود، لا ينصرف؛ لأنّه أعجمي معرفة. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾: تقديره: على إطعام طعام المسكين، فحذف المضاف، ويجوز أن يكون «طعام» إسماً أُقيم مقام الإطعام، كقول لبيد:

---

(١) أي: لمّا وردن هذه النساء المسافرات الماء، ورأين صفاته، عزمن على الإقامة.

باكَرْتُ حاجَتَهَا الدُّجاجَ بِسَحْرَةٍ لأُعِلَّ مِنْها حِينَ هَبَّ نِيَامُها[١]

أي: لاحتياجي إليها. فهو مفعول له. والتراث: أصله الوراث، من ورثت، ولكن التاء تبدل من الواو. ومثله: تجاه، أصله: وجاه، من واجهه. وجواب «إذا» في قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾. وقوله: ﴿صَفّاً صَفّاً﴾ مصدر وضع موضع الحال أي: مصطفين.

المعنى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم الله سبحانه بفجر النهار، وهو انفجار الصبح كل يوم، ـ عن عكرمة والحسن والجبائي. ورواه أبو صالح، عن ابن عباس ـ. وقيل: هو فجر ذي الحجّة؛ لأنّ الله تعالى قرن الأيّام به، فقال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهي عشر ذي الحجّة، ـ عن مجاهد والضحّاك ـ. وقيل: فجر أوّل المحرّم؛ لأنّه تتجدَّد عنده السنة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: يريد فجر يوم النحر؛ لأنّه يقع فيه القربان، ويتّصل بالليالي العشر، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: أراد بالفجر: النهار كله، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني: العشر من ذي الحجّة، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والضحّاك والسدّي ـ. وروي ذلك مرفوعاً شرفها الله ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير. وقيل: هي العشر الأواخر من شهر رمضان، ـ في رواية أُخرى عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّها عشر موسى للثلاثين ليلة التي أتمّها الله بها.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ يعني: الزوج والفرد من العدد كله، ـ عن الحسن ـ. قال أبو مسلم: هو تذكير بالحساب لعظم ما فيه من النفع، والنعم بما يضبط به من المقادير. وقيل: الشفع والوتر: كل ما خلقه الله تعالى؛ لأنّ جميع الأشياء إمّا زوج

---

(١) باكرت الدجاج أي: سابقت الديك في البكور فرحت قبل صياحه إلى الخمر. لأعلّ أي: اشرب مرّة بعد أخرى. والعلل: الشرب الثاني. وهبّ نيامها أي: استيقظ النائمون. وضمير «نيامها» لسحرة.

وإمّا فرد، ـ عن ابن زيد والجبائي ـ. وقيل: الشفع: الخلق؛ لأنّه قال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ والوتر: الله تعالى، ـ عن عطيّة العوفي وأبي صالح وابن عباس ومجاهد، وهي رواية أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ ـ. وقيل: الشفع والوتر: الصلاة، ومنها: شفع، ومنها وتر، وهي رواية ابن حصين، عن النبيّ ﷺ، وقيل: الشفع: يوم النحر، والوتر: يوم عرفة، ـ عن ابن عباس وعكرمة والضحّاك، وهي رواية جابر عن النبيّ ﷺ ـ. والوجه فيه أنّ يوم النحر يشفع بيوم نفر بعده[1]، وينفرد يوم عرفة بالموقف.

وقيل: الشفع: يوم التروية، والوتر يوم عرفة، وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليه السلام. وقيل: إن الشفع والوتر في قول الله، عزّ وجلّ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فالشفع: النفر الأوّل، والوتر: يوم النفر الأخير، وهو الثالث. وأمّا الليالي العشر، فالثماني من ذي الحجّة، وعرفة، والنحر، ـ عن ابن الزبير ـ. وقيل: الوتر: آدم شفع بزوجته، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الشفع: الأيّام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليل بعده، وهو يوم القيامة، ـ عن مقاتل بن حيان ـ. وقيل: الشفع: صفات المخلوقين، وتضادّها العزّ والذلّ، والوجود والعدم، والقدرة والعجز، والعلم والجهل، والحياة والموت. والوتر: صفة الله تعالى؛ إذ هو الموجود لا يجوز عليه العدم، والقادر لا يجوز عليه العجز، والعالم لا يجوز عليه الجهل، والحيّ لا يجوز عليه الموت. وقيل: الشفع: عليّ وفاطمة عليهما السلام، والوتر: محمّد ﷺ. وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت الحرام.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ اختلفوا في المراد به على وجهين:

---

(١) أو العاشر زوج.

أحدهما: إنّه أراد جنس الليالي، كما قال «والليل إذ أدبر» أقسم بالليل إذ يمضي بظلامه، فيذهب حتى ينقضي بالضياء المبتدىء، ففي سيره على المقادير المرتبة، ومجيئه بالضياء عند تقضيه، أدلّ دلالة على أنّ فاعله يختصّ بالعزّ والجلال، ويتعالى عن الأشباه والأمثال. وقيل: إنّه إنّما أضاف السير إليه؛ لأنّ الليل يسير بمسير الشمس في الفلك، وانتقالها من أُفق إلى أُفق[1]. وقيل: «إذا يسري» إذا جاء وأقبل إلينا، ويريد كل ليلة، ـ عن قتادة والجبائي ـ.

والوجه الآخر: إنّ المراد به ليلة بعينها، تمييزاً لها من بين الليالي. ثمّ قيل: إنّها ليلة المزدلفة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها بطاعة الله تعالى، وفيها يسري الحاجّ من عرفة إلى المزدلفة، ثمّ يصلي الغداة بها، ويغدو منها إلى منى، ـ عن مجاهد وعكرمة والكلبي ـ.

﴿هَلْ فِي ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ أي: هل فيما ذكر من الأقسام مقنع لذي عقل ولبّ، يعقل القسم والمقسم به. وهذا تأكيد وتعظيم لما وقع القسم به، والمعنى: إنَّ من كان ذا لبّ، علم أنّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء، فيه عجائب ودلائل على توحيد الله، توضح عن عجائب صنعه، وبدائع حكمته.

ثمّ اعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ، وتنبيه للكفّار على ما فعله سبحانه بالأُمم السالفة، لما كفرت بالله وبأنبيائه، وكانت أطول أعماراً، وأشدّ قوة، وعاد قوم هود. واختلفوا في ﴿إِرَمَ﴾ على أقوال:

---

(١) وابن عباس وقتادة وأكثر المفسّرين على أن «يسرى» بمعنى «يسير». وهذا يدلّ على أن سطح الأرض كرة؛ إذ لو كان مسطّحا جميعا لانعدم الشعاع دفعة واحدة عن جميع السطح، ثمّ إذا طلعت الشمس ظهر الشعاع في جميع السطح دفعة واحدة كسراج أوقد في دار، ولم يكن لسير الليل معنى، ولكن لمّا كانت كرة، انتقل الظلام من موضع إلى موضع، كسراج يدار به حول برج مدور، فاعرف وبالله التوفيق.

أحدها: إنّه اسم لقبيلة. قال أبو عبيدة: هما عادان فالأُولىٰ هي إرم، وهي التي قال الله تعالىٰ فيهم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلْأُولَىٰ﴾ وقيل: هو جدّ عاد، وهو عاد ابن عوص [حوص] بن إرم به سام بن نوح، ـ عن محمّد بن إسحاق ـ. وقيل: هو سام بن نوح نسب عاد إليه، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إرم: قبيلة من قوم عاد، كان فيهم الملك، وكانوا بمهرة. وكان عاد أباهم، ـ عن مقاتل وقتادة ـ.

وثانيها: إن «إرم» إسم بلد، ثمّ قيل: هو دمشق، ـ عن ابن سعدى [أبي سعيد] المقري [المقبري]، وسعيد بن المسيّب، وعكرمة ـ. وقيل: هو مدينة الإسكندريّة، عن محمّد بن كعب القرظي. وقيل: هو مدينة بناها شدّاد بن عاد، فلمّا أتمّها وأراد أن يدخلها، أهلكه الله بصيحة نزلت من السماء.

وثالثها: إنّه ليس بقبيلة ولا بلد، بل هو لقب لعاد، وكان عاد يعرف به، ـ عن الجبائي ـ. وروي عن الحسن أنّه قرأ بعادٍ إرمَ ـ على الإضافة ـ. وقيل: هو إسم آخر لعاد، وكان له اسمان. ومن جعله بلداً، فالتقدير في الآية: بعاد صاحب إرم.

وقوله: ﴿ذاتِ العِمَادِ﴾ يعني: إنّهم كانوا أهل عمد، سيّارة في الربيع، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم، ـ عن ابن عباس في رواية عطاء والكلبي عن قتادة ـ. وقيل: معناه: ذات الطول والشدّة، عن ابن عباس ومجاهد، من قول العرب: رجل معمد للطويل، ورجل طويل العماد أي: القامة.

ثمّ وصفهم سبحانه، فقال: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلاَدِ﴾ أي: لم يخلق في البلاد مثل تلك القبيلة في الطول، والقوّة، وعظم الأجسام، وهم الذين قالوا: «من أشدّ منّا قوّة». وروي أنّ الرجل منهم كان يأتي بالصخرة، فيحملها على الحيّ، فيهلكهم. وقيل: ذات العماد أي: ذات الأبنية العظام المرتفعة، ـ عن الحسن ـ. وقال ابن زيد: ذات العماد في أحكام البنيان التي لم يخلق مثلها أي: مثل أبنيتها في البلاد.

قصّة إرم ذات العماد

قال وهب بن منبه[١]: خرج عبدالله بن قلابة في طلب إبل له شردت، فبينا هو في صحارى عدن؛ إذ هو قد وقع في مدينة في تلك الفلوات، عليها حصن، وحول الحصن قصور كثيرة، وأعلام طوال. فلمّا دنا منها، ظنّ أنّ فيها أحداً يسأله عن إبله. فنزل عن دابّته وعقلها، وسلّ سيفه، ودخل من باب الحصن. فلمّا دخل الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين، لم ير أعظم منهما. والبابان مرصعان بالياقوت الأبيض والأحمر. فلمّا رأى ذلك دهش ففتح أحد البابين، فإذا هو بمدينة لم ير أحد مثلها، وإذا هو قصور كل قصر فوقه غرفة [غرف]، وفوق الغرف غرف، مبنيّة بالذهب والفضّة، واللؤلؤ والياقوت، ومصاريع تلك الغرف مثل مصراع المدينة، يقابل بعضها بعضاً، مفروشة كلها باللآلىء وبنادق من مسك وزعفران.

فلمّا رأى الرجل ما رأى، ولم ير فيها أحداً، هاله ذلك، ثمّ نظر إلى الأزقة، فإذا هو بشجر في كل زقاق منها، قد أثمرت تلك الأشجار، وتحت الأشجار أنهار مطردة، يجري ماؤها من قنوات من فضّة، كل قناة أشدُّ بياضاً من الشمس، فقال الرجل: والذي بعث محمّداً ﷺ بالحقّ، ما خلق الله مثل هذه في الدنيا، وإنَّ هذه هي الجنّة التي وصفها الله تعالىٰ في كتابه. فحمل معه من لؤلؤها ومن بنادق المسك

---

(١) وهب بن منبه: من أبناء فارس في اليمن، كان عالما بالتواريخ والقصص، قارئا لكتب الأوّلين، عارفا بلغاتهم، ولكان ليس قوله حجّة، إذ لم يكن معصوما، فالاعتناء بأقواله كالاعتناء بأقوال ساير المؤرّخين، والذي لاريب فيه أنّ بعض الملوك أمر ببناء أعمدة وطيقان عليها، وامر بالتراب جعل على السقوف، فغرسوا أشجاراً، واحدثوا جنّات عالية على السطوح، والمواضع المرتفعة، وكان ذلك في بلاد بابل، حيث لا جبال ولا أودية فيها فاشتهت زوجته التي كانت من بلاد [باد] الجبل متنزّها يشبه متنزّهات بلادها، هو أحد العجائب السبعة، من أبنية بني آدم.

والزعفران، ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ومن ياقوتها شيئاً، وخرج.

ورجع إلى اليمن، فأظهر ما كان معه، وعلم الناس أمره، فلم يزل ينمو أمره حتى بلغ معاوية خبره، فأرسل في طلبه، حتى قدم عليه، فقصَّ عليه القصّة، فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار، فلمّا أتاه قال: يا أبا إسحاق! هل في الدنيا مدينة من ذهب وفضّة؟ قال: نعم أُخبرك بها، وبمن بناها. إنّما بناها شداد بن عاد. فأمّا المدينة فإرم ذات العماد، التي وصفها الله تعالىٰ في كتابه، وهي التي لم يخلق مثلها في البلاد.

قال معاوية: فحدّثني حديثها. فقال: إنّ عاداً الأولىٰ ليس بعاد قوم هود، وإنّما هود وقوم هود ولد ذلك، وكان عاد له إبنان: شداد وشديد. فهلك عاد فبقيا وملكا. فقهرا البلاد وأخذاها عنوة. ثمّ هلك شديد، وبقي شداد فملك وحده، ودانت له ملوك الأرض، فدعته نفسه إلى بناء مثل الجنّة عتوا على الله سبحانه، فأمر بصنعة تلك المدينة إرم ذات العماد، وأمر على صنعتها مائة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى كل ملك في الدنيا، أن يجمع له ما في بلاده من الجواهر، وكان هؤلاء القهارمة أقاموا في بنيانها مدّة طويلة. فلمّا فرغوا منها، جعلوا عليها حصناً، وحول الحصن ألف قصر، ثمّ سار الملك إليها في جنده ووزرائه.

فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله، عزّ وجلّ، عليه وعلى من معه صيحة من السماء، فأهلكتهم جميعاً، ولم يبق منهم أحد، وسيدخلها في زمانك رجل من المسلمين، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له في تلك الصحارى، والرجل عند معاوية. فالتفت كعب إليه وقال: هذا والله ذلك الرجل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي: وكيف فعل بثمود

الذين قطعوا الصخر، ونقبوا بالوادي الذي كانوا ينزلونه، يعني: وادي القرى. قال ابن عباس: كانوا ينحتون الجبال فيجعلون منها بيوتاً، كما قال الله تعالىٰ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ أي: وكيف فعل فرعون الذي أرسل إليه موسى ﴿ذِي ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي الجنود الذين كانوا يشيّدون أمره، ـ عن ابن عباس ـ، وسمّاهم أوتاداً؛ لأنّهم قواد عسكره الذين بهم قوام أمره. وقيل: كان يشدّ الرجل بأربعة أوتاد على الأرض، إذا أراد تعذيبه، ويتركه حتى يموت، ـ عن مجاهد ـ. وعن ابن مسعود قال: وتّد امرأته بأربعة أوتاد، ثمّ جعل على ظهرها رحى عظيمة، حتى ماتت. وقد مرَّ بيانه في سورة صٓ.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلْبِلَادِ﴾ يعني: عاداً وثمود وفرعون، طغوا أي: تجبروا في البلاد على أنبياء الله، وعملوا فيها بمعصية الله ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، أو في البلاد ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ أي: القتل والمعصية، ـ عن الكلبي ـ. ثمّ بيّن سبحانه ما فعله بهم عاجلاً بأن قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: فجعل سوطه الذي ضربهم به العذاب، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: صت عليهم قسط عذاب كالعذاب بالسوط الذي يعرف أراد ما عذبوا به. وقيل: إن كل شيء عذب الله به فهو سوط، فأجرى على العذاب اسم السوط مجازاً، ـ عن قتادة ـ. شبَّه سبحانه العذاب الذي أحلّه بهم، وألقاه عليهم بانصباب السوط، وتواتره على المضروب حتى يهلكه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: عليه طريق العباد، فلا يفوته أحد، ـ عن الكلبي والحسن وعكرمة ـ. والمعنى: إنّه لا يفوته شيء من أعمالهم؛ لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم، كما لا يفوت من هو بالمرصاد. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: معناه: إنّ ربّك قادر على أنْ يجزي أهل المعاصي جزاءهم. وعن الصّادق عليه السلام

أنّه قال: المرصاد: قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة عبد. وقال عطاء: يعني يجازي كل واحد، وينتصف من الظالم للمظلوم. وقيل لأعرابي: أين ربّك؟ قال: بالمرصاد. وليس يريد به المكان. فقد سئل عليّ عليه السلام أين كان ربّنا قبل أن خلق السماوات والأرض؟ فقال: أين سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان.

وروي عن ابن عباس في هذه الآية قال: إنّ على جسر جهنّم سبع محابس، يسأل العبد عندها: أوّلها عن شهادة أنْ لا إله إلاّ الله، فإنْ جاء بها تامّة جاز إلى الثاني، فيسأل عن الصّلاة، فإنْ جاء بها تامّة جاز إلى الثالث، فيسأل عن الزكاة، فإنْ جاء بها تامّة جاز إلى الرابع، فيسأل عن الصوم، فإنْ جاء به تامّاً جاز إلى الخامس، فيسأل عن الحجّ، فإن جاء به تامّاً جاز إلى السادس، فيسأل عن العمرة، فإنْ جاء بها تامّة جاز إلى السابع، فيسأل عن المظالم، فإن خرج منها، وإلاّ يُقال أنظروا، فإن كان له تطوع أكمل به أعماله، فإذا فرغ انطلق به إلى الجنّة.

ثمّ قسّم سبحانه أحوال البشر، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختبره وامتحنه بالنعمة ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما وسّع عليه من أنواع الإفضال ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك ويسرّ، ويقول: ربّي أعطاني هذا لكرامتي عنده، ومنزلتي لديه أي: يحسب أنّه كريم على ربّه، حيث وسع الدنيا عليه. ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ﴾ بالفقر والفاقة ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: فضيق وقتر ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وجعله على قدر البلغة ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أي: فيظنّ أنّ ذلك هوان من الله، ويقول: ربّي أذلّني بالفقر. ثمّ قال ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كما ظنّ، فإنّي لا أُغني المرء لكرامته عليَّ، ولا أُفقره لمهانته عندي، ولكنّي أُوسع على من أشاء، وأُضيق على من أشاء، بحسب ما توجبه الحكمة، ويقتضيه الصلاح، ابتلاء بالشكر والصبر، وإنّما الإكرام على الحقيقة يكون بالطاعة، والإهانة تكون بالمعصية. ثمّ بيّن سبحانه ما يستحقّ به الهوان، فقال: بل إنّما أهنت من أهنت؛ لأنّهم عصوني.

ثمَّ فصَّل العصيان، فقال: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ وهو الطفل الذي لا أب له أي: لا تعطونهم ما أعطاكم الله حتى تغنوهم عن ذلّ السؤال، وخصَّ اليتيم؛ لأنّهم لا كافل لهم يقوم بأمرهم. وقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة». وأشار بالسبابة والوسطى. قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون في حجر أُمية به خلف يتيماً، وكان يدفعه عن حقّه. فعلى هذا فإنّه يحتمل معنيين: أحدهما: إنّكم لا تحسنون إليه والآخر: إنّكم لا تعطونه حقّه من الميراث، على ما جرت به عادة الكفّار من حرمان اليتيم ما كان له من الميراث.

﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: ولا تحثّون على إطعامه، ولا تأمرون بالتصديق [بالتصدق] عليه. ومن قرأ: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ أراد: لا يحضّ بعضكم بعضاً على ذلك. والمعنى: إنّ الإهانة ما فعلتموه من ترك إكرام اليتيم، ومنع الصدقة من الفقير، لا ما توهّمتموه. وقيل: إنّ المراد: إنّما أعطيتكم المال لذلك، فإذا لم تفعلوه، فذلك يوجب إهانتكم.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: الميراث. وقيل: أموال اليتامى، ـ عن أبي مسلم ـ، قال: ولم يرد الميراث الحلال؛ لأنّه لا يلام آكله عليه. قال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب اليتيم، وذلك أنّهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان، ويأكلون أموالهم. وقيل: يأكلون الميراث فيما يشتهون، ولا يتفكّرون في إخراج ما أوجب الله عليم من الحقوق فيه. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ شديداً تلمّون جميعه في الأكل. وقيل: هو أن يأكل نصيبه ونصيب غيره، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو أن يأكل ما يجده، ولا يفكر فيما يأكله من خبيث وطيب، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً شديداً، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. والمعنى: تحبّون جمع المال، وتولعون به، فلا تنفقونه في خير. وقيل: يحبّون كثرة المال من فرط حرصهم، فيجمعونه من غير وجهه، ويصرفونه في غير وجهه، ولا

يتفكّرون في العاقبة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا ينبغي أنْ يكون الأمر هكذا. وقال مقاتل: معناه: لا يفعلون ما أُمروا به في اليتيم والمسكين. وقيل: «كلاّ» زجر، تقديره: لا تفعلوا هكذا. ثمّ خوَّفهم فقال: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾ أي: كسر كل شيء على ظهرها من جبل، أو بناء، أو شجر، حتى زلزلت، فلم يبق عليها شي، يفعل ذلك مرّة بعد مرّة. وقيل: دكّت الأرض أي: مدّت يوم القيامة مدّ الأديم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: دقَّت جبالها وأنشازها حتى استوت، ـ عن ابن قتيبة ـ. والمعنى: استوت في انفراشها، وذهب دورها وقصورها وسائر أبنيتها، حتى تصير كالصحراء الملساء.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربّك وقضاؤه ومحاسبته، ـ عن الحسن والجبائي ـ. وقيل: جاء أمره الذي لا أمر معه، بخلاف حال الدنيا، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: جاء جلائل آياته، فجعل مجيئها مجيئه تفخيماً لأمرها. وقال بعض المحقّقين: المعنى: وجاء ظهور ربّك لضرورة المعرفة به؛ لأنّ ظهور المعرفة بالشيء، يقوم مقام ظهوره ورؤيته. ولمّا صارت المعارف بالله في ذلك اليوم ضروريّة، صار ذلك كظهوره وتجلّيه للخلق. فقيل: جاء ربّك أي: زالت الشبهة، وارتفع الشكّ، كما يرتفع عند مجيء الشيء الذي كان يشكّ فيه، جلَّ وتقدّس عن المجيء والذهاب، لقيام البراهين القاهرة، والدلائل الباهرة على أنّه سبحانه ليس بجسم.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: وتجيء الملائكة ﴿صَفّاً صَفّاً﴾ يريد صفوف الملائكة، وأهل كل سماء صفّ على حدة، ـ عن عطاء ـ. وقال الضحّاك: أهل كل سماء إذا زلزلوا يوم القيامة، كانوا صفّاً محيطين بالأرض، وبمن فيها، فيكون سبع صفوف، فذلك قوله: ﴿صَفّاً صَفّاً﴾. وقيل: معناه: مصطفين كصفوف الناس في الصَّلاة، يأتي الصفّ الأوّل، ثمّ الصفّ الثاني، ثمّ الصفّ الثالث، ثمّ على هذا الترتيب؛ لأنّ ذلك

أشبه بحال الإستواء من التشويش، فالتعديل والتقويم أولى.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: وأُحضرت في ذلك اليوم جهنّم ليعاقب بها المستحقّون لها، ويرى أهل الموقف هولها وعظم منظرها. وروي مرفوعاً عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزلت هذه الآية، تغيّر وجه رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقالوا: يا عليّ! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبيّ الله! فجاء عليّ عليه السلام فاحتضنه من خلفه، وقبّل بين عاتقيه ثم قال يا نبيّ الله: بأبي أنت وأُمّي، ما الذي حدث اليوم؟ قال: جاء جبرائيل عليه السلام فأقرأني ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال فقلت: كيف يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف ملك، يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثمّ أتعرّض لجهنّم فتقول: ما لي ولك يا محمّد، فقد حرَّم الله لحمك عليَّ. فلا يبقىٰ أحد إلاَّ قال: نفسي نفسي، وأنّ محمّداً يقول: ربّ أُمّتي أُمّتي.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم يجاء بجهنّم ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ﴾ أي: يتعظ ويتوب الكفّار ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومن أين له التوبة، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: يتذكّر الإنسان ما قصر وفرط؛ إذ يعلم يقيناً ما قد توعد به، فكيف ينفعه التذكّر. أثبت له التذكّر، ثمّ نفاه بمعنى أنّه لا ينتفع به، فكأنّه لم يكن، وكان ينبغي له أن يتذكّر في وقت ينفعه ذلك فيه.

ثمّ حكى سبحانه ما يقول الكافر والمفرط الجاني على نفسه، ويتمنّاه بقوله: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي: يتمنّى أنْ يكون قد كان عمل الطاعات والحسنات، لحياته بعد موته، أو عملها للحياة التي تدوم له، بقوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ العمل الصالح لآخرتي التي لا موت فيها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذّب عذاب الله

أحد من الخلق ﴿وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي: وثاق الله أحد من الخلق. فالمعنى: لا يعذب أحد في الدنيا مثل عذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق أحد في الدنيا بمثل وثاق الله الكافر يومئذ.

وأمّا القراءة بفتح العين[١] في ﴿يُعَذِّبُ﴾، و ﴿يُوثِقُ﴾: فقد وردت الرواية عن أبي قلابة قال: أقرأني من أقرأه رسول الله ﷺ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ والمعنى: لا يعذّب أحد تعذيب هذا الكافر، إنْ قلنا إنّه كافر بعينه، أو تعذيب هذا الصنف من الكفّار، وهم الذين ذكروا في قوله: ﴿لَا يُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الآيات. وهذا وإنْ أُطلق فالأولى أنْ يكون المراد التقييد؛ لأنّا نعلم أن إبليس أشدّ عذاباً ووثاقاً منه. وقيل: معناه: لا يؤاخذ بذنبه غيره، والتقدير: لا يُعذب أحد بعذابه؛ لأنّه المستحقّ بعذابه، ولا يؤاخذ الله أحداً بجرم غيره.

﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بالإيمان المؤمنة الموقنة المصدّقة بالثواب والبعث، والطمأنينة: حقيقة الإيمان، ـ عن الحسن ومجاهد ـ. وقيل المطمئنّة: الآمنة بالبشارة بالجنّة عند الموت ويوم البعث، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: النفس المطمئنّة: التي يبيض وجهها، ويعطى كتابها بيمينها، فحينئذ تطمئنُّ، ـ عن الكلبي وأبي روق ـ.

﴿ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: يُقال لها عند الموت ـ عن أبي صالح ـ[١]، وقيل: عند البعث، ـ عن عكرمة، والضحاك ـ: إرجعي إلى ثواب ربّك، وما أعدَّه لك من النعيم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إرجعي إلى الموضع الذي يختصّ الله سبحانه بالأمر والنهي فيه دون خلقه. وقيل: إنّ المراد: إرجعي إلى صاحبك وجسدك، فيكون

---

[١] أي عين الفعل.

(١) والآية تدلّ على بقاء الروح بعد الموت، حتّى يصدق عليه الرجوع إلى ربّه، ولو كان ينعدم كالقوى الجسمانيّة. لم يكن راجعاً إلى الله.

الخطاب للروح أنْ ترجع إلى الجسد، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿رَاضِيَةً﴾ بثواب الله ﴿مَرْضِيَّةً﴾ أعمالها التي عملتها. وقيل: راضية عن الله بما أعدَّ الله لها، مرضيّة رضي عنها ربّها بما عملت من طاعته. وقيل: راضية بقضاء الله في الدنيا، حتى رضي الله عنها، ورضي بأفعالها واعتقادها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في زمرة عبادي الصالحين المصطفين الذين رضيت عنهم. وهذه نسبة تشريف وتعظيم ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ التي وعدتكم بها، وأعددت نعيمكم فيها.

﴿النظم﴾: وجه اتّصال قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ الآية بما قبله، فيه قولان: أحدهما: إنّه يتّصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: هو بالمرصاد لأعمالهم، لا يخفى عليه شيء من مصالحهم، فإذا أكرم أحداً منهم بنوع من النعم التي هي الصحّة والسلامة، والمال والبنون، امتحاناً واختباراً، ظنَّ ذلك واجباً، وإذا قتّر عليه رزقه، ظنَّ ذلك إهانة له. وإنّما يفعل سبحانه جميع ذلك للمصالح، ـ عن أبي مسلم ـ. والثاني: إنّ المعنى أنّه بالمرصاد لهم، يتعبّدهم بما هو الأصلح لهم، وأنّهم يظنّون أنّه يبتدىء عباده بالإكرام والإهانة، وليس كذلك بل هما مستحقّان، ولا يدخل العباد تحت الإستحقاق إلاَّ بعد التكليف. وأمّا قوله: ﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فوجه اتّصاله بما قبله، أنّه ردَّ عليهم ظنّهم أنّه ضيق عليهم أرزاقهم على وجه الإهانة، فبيّن سبحانه أن الإهانة لما ذكره، لا لما قالوه.

سورة البلد

مكّيّة، عشرون آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأها أعطاه الله الأمن مِن غضبه يوم القيامة». أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من كان قراءته في الفريضة ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ كان في الدنيا معروفاً أنّه من الصالحين، وكان في الآخرة معروفاً أنّ له من الله مكاناً، وكان من رفقاء النبيّين والشهداء والصالحين.

تفسيرها: لمّا ختم تلك السورة بذكر النفس المطمئنّة، بيّن في هذه السورة وجه الإطمئنان، وأنّه النظر في طريق معرفة الله، وأكّد ذلك بالقسم فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾ (١)

القراءة: قرأ أبو جعفر: ﴿لُبَّداً﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ والباقون: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ـ بالرفع والإضافة ـ ﴿أو إطعامٌ﴾ بالتنوين. وقرأ أبو عمرو وأهل الكوفة غير عاصم: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ ـ بالهمزة ـ. والباقون: بغير همزة، ويعقوب مختلف عنه. وفي

---

(١) اتّفقوا على قطع «ان لن يقدر» وقطع «ان لم». ويوقف لحمزة على «مشئمة» بالنقل فقط، وفى طريق الداجونى عن هشام «ان لم يره» بسكون الهاء.

الشواذّ قراءة الحسن: «في يوم ذا مسغبة».

﴿لُبَدًا﴾: لُبّد: يجوز أن يكون واحداً على وزن زُمَّل وجُبَّأ[١]. ويجوز أن يكون جمعاً، فيكون جمع لابد. وأمّا قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ﴾ فقد قال أبو عليّ: المعنى فيه: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فكّ رقبة، أو إطعام أي: اقتحامها أحد هذين، أو هذا الضرب من فعل القرب. فلو لم تقدره، وتركت الكلام على ظاهره، كان المعنى: العقبة فكّ رقبة، ولا تكون العقبة الفكّ؛ لأنّه عين، والفكّ حدث. والخبر ينبغي أن يكون المبتدأ في المعنى. ومثل هذا قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: الحطمة نار الله. ومثله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَالْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ والمعنى: القارعة يوم يكون الناس؛ لأنّ القارعة مصدر، فيكون إسم الزمان خبراً عنه. فهذه الجمل من الإبتداء والخبر تفسير لهذه الأشياء المتقدّم ذكرها من اقتحام العقبة، والحطمة، والقارعة، كما أنّ قوله تعالىٰ: ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تفسير للوعد.

وقوله: ﴿فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ معناه: فلم يقتحم. وإذا كانت «لا» بمعنى «لم»، لم يلزم تكريرها، كما لا يلزم التكرير مع «لم»، فإن تكررت في موضع نحو: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ﴾ فهو كتكرير «لم» في قوله: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: كان مقتحم العقبة، وفكاك [وفاكّ] الرقبة من الذين آمنوا. فإنّه إذا لم يكن منهم، لم ينفعه قربه. وجاز وصف اليوم بقوله: ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ كما جاز أنْ يُقال: ليله نائم، ونهاره صائم ونحو ذلك. ومن قرأ: ﴿فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَم﴾ فإنّه يجوز أنْ يكون ما ذكر من الفعل، تفسيراً لاقتحام العقبة.

---

(١) أي: الجبان.

فإن قلت: إنّ هذا الضرب لم يفسّر بالفعل، وإنما فسّر بالإبتداء والخبر كقوله: ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ﴾ وقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ فهلا رجحت القراءة الأُخرىٰ؟

قيل: إنّه قد يمكن أنْ يكون «كذبت ثمود وعاد بالقارعة» تفسيراً لقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ على المعنى. وقد جاء ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ وفسّر المثل بقوله: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾. وزعموا أنّ أبا عمرو احتجّ بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقراءة فكَّ رقبةً، كأنّه لمّا كان فعلاً، وجب أن يكون المعطوف عليه مثله. وقد يجوز أن يكون ذلك كالقطع من الأول والإستئناف، كأنّه أعلم أن فكاك الرقبة من الرقّ، بأن كان من الذين آمنوا؛ لأنّه بالإيمان يحرز ثواب ذلك ويحوزه. فإذا لم ينضمّ الإيمان إلى فعل القرب التي تقدَّم ذكرها، لم ينفع ذلك. والتقدير: ثمّ كونه من الذين آمنوا. فجاء هذا مجيء قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا﴾ يريد: وان شهدوا.

وأوصدت الباب وآصدته لغتان. فمن لم يهمز «موصدة» احتمل أمرين: أحدهما: أن يكون على لغة من قال: أوصدت. والوجه الآخر: أن يكون من آصدت، ثمّ خففت الهمزة، فقلبت واواً، كما جاء في «جونة وتؤوي». ومن همز «مؤصدة»، فهو من آصدت. وأبو عمرو يترك الهمزة الساكنة، ويبدلها واواً إذا انضمّ ما قبلها، نحو: يؤمنون، ومؤمنين. ويبدلها ألفاً إذا انفتح ما قبلها، وياءً إذا انكسر ما قبلها، ولا يبدلها في نحو قوله: مؤصدة، بل يهمزها؛ لأنّ «مؤصدة» ـ بالهمز ـ هي لغة من قال: آصدت الباب، والباب مؤصد. وأبو عمرو على هذه اللغة، فلا يترك الهمز إذا احتاج أن يترك لغته، وينتقل عنها إلى لغة أُخرىٰ.

وكذلك لا يترك الهمز في قوله: تؤوي إليك؛ لأنّه لو أبدلها واواً، وبعدها واو، اجتمع واوان، واجتماعهما أثقل من الهمزة. وكذلك إذا كان الفعل مجزوماً، ولامها همزة بقاها على حالها، ولا يبدلها بتّة نحو قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾

لأنّه لو أبدلها واواً، وجب حذفها بالجزم، كما تقول في يغزو: لم يغز. كذلك ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لا يبدلها ألفاً لهذا المعنى أيضاً.

وكذلك قوله: ﴿أَثَاثاً وَرِءْياً﴾ لا يقلبها ياء؛ لأنّه يشتبه بالري، من روي من الماء. فهذه أربعة أحوال لا يترك الهمز فيها: إذا احتاج إلى ترك لغته [لغة]، وأنْ ينتقل إلى لغة أُخرىٰ. وإذا كان الهمز في موضع الجزم. وإذا اشتبه المعنى في الكلمة بكلمة أُخرىٰ. وإذا كان ترك الهمزة يؤدّي إلى اجتماع الواوين، فافهم ذلك.

ومن قرأ «ذا مسغبة» جعله مفعول ﴿إِطْعَامٌ﴾، و ﴿يَتِيماً﴾ بدل منه. ويجوز أنْ يكون ﴿يَتِيماً﴾ وصفاً لذا مسغبة، كقولك: رأيت كريماً عاقلاً، وجاز وصف الصفة الذي هو كريم؛ لأنّه لما لم يجر على الإسم الموصوف أشبه الإسم.

﴿اللغة﴾: الحلّ: الحالّ، وهو الساكن. والحلّ: الحلال. ورجل حلّ وحلال أي: محلّ. والكبد في اللغة: شدّة الأمر. ومنه: تكبد اللبن: إذ غلظ واشتدَّ. ومنه: الكبد؛ لأنّه دم يغلظ ويشتدّ، وتكبد الدم: إذا صار كالكبد. قال لُبيد:

اَعَيْنُ هَلاّ بَكَيْتَ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا، وَقَامَ الْخُصُومُ، فِي كَبَدِ[1]

واللبد: الكثير. مأخوذ من تلبد الشيء: إذا تراكب بعضه على بعض. ومنه اللبد. يُقال: ما له سبد ولا لَبَد[1]. وأصل النجد: العلو، وسمّي نجد نجداً؛ لعلوّه عن انخفاض تهامة. وكل عال من الأرض نجد. والجمع: نجود. قال امرؤ القيس:

غَدَاةَ غَدَوْا، فَسَالِكٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمْ جَازِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[2]

أراد طريقه في ارتفاع. وكبكب: جبل. وفي المثل: «أَنْجَدَ مَنْ رَأَىٰ

---

(١) أربد: أخو لبيد يرثيه. وأعين أي: ياعين هلّا بكيت اربد إذ قمنا للحرب مع الخصوم.

(٢) بطن نخلة، ونجد كبكب: موضعان. وجزع الوادي قطعه يعني: أخذ كلّ واحد منهم جانباً.

[١] السبد: القليل من الشعر. واللبد: الصوف أي لاشعر ولاصوف. يقال لمن لاشيء له.

حَضَناً»[١] ورجل نجد بيِّن النجدة: إذا كان جلداً قوّياً لاستعلائه على قرنه، واستنجدت فلاناً فأنجدني أي: استعنته للإستعلاء على قرني، فأعانني. وشبه طريق الخير والشرّ بالطريقين العاليين؛ لظهور ما فيهما.

والإقتحام: الدخول على الشدّة بالضيق، يُقال: اقتحم وتقحمَّ وأقحمه وقحَّمه غيره. والعقبة: الطريقة التي ترتقى على صعوبة، ويحتاج فيها إلى معاقبة الشدّة بالضيق والمخاطرة. وقيل: العقبة: الثنية الضيقة في رأس الجبل، يتعاقبها الناس، فشبّهت النفقة في وجوه البرّ بها. وعاقب الرجل صاحبه: إذا صار في موضعه بدلاً منه. والفكّ: فرق يزيد [يزيل] المنع، ويمكن معه أمر لم يكن متمكّناً كفكّ القيد والغلّ؛ لأنّه يزول به المنع، ويمكن به تصرّف لم يمكن قبل، ففكّ الرقبة فرق بينها وبين حال الرقّ، بإيجاب الحرّيّة، وإبطال العبوديّة. والمسغبة: المجاعة. سغب يسغب سغباً فهو ساغب: إذا جاع. قال جرير:

تُعَلِّلُ وَهْيَ سَاغِبَةٌ بَنِيها ... بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّبِمِ الْقَرَاحِ[٢]

والمَقرَبة: القرابة. ولا يُقال: فلان قرابتي، وإنّما يُقال: ذو قرابتي؛ لأنّه مصدر كما قال الشاعر:

يَبْكِي الْغَرِيبُ عَلَيْهِ، لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ، مَسْرُورٌ[٣]

والمَترَبة: الحاجة الشديدة من قولهم: ترب الرجل: إذا افتقر.

المعنى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أجمع المفسّرون على أنّ هذا قسم بالبلد

---

(١) حضن: جبل بأعلى نجد، والعرب تقول: أنجد من رأى حضنا أي: من عاين هذا الجبل، فقد دخل في ناحية نجد. قاله في الصحاح.

(٢) العلّ: الشربة الثانية. وساغبة: جائعة. والشبم: البارد. والنفس: الجرعة. والقراح: الخالص.

(٣) يقال: ان عبيد الجهمي من معمّري العرب، قال لمعوية: من أعجب ما رأيت أنّي مررت بميت يدفن، فبكيت عليه، وقرأت أبياتا هذا منها، فقيل لى أتعرف لمن هذه؟ قلت: لا قيل قائله هذا الميت، وهو عثير بن لبيد العذري.

الحرام، وهو مكّة. وقد تقدَّم بيان قوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ في سورة القيامة. ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: وأنت يا محمّد مقيم به، وهو محلّك. وهذا تنبيه على شرف البلد، بشرف من حلَّ به من الرسول الداعي إلى توحيده، وإخلاص عبادته، وبيان أنّ تعظيمه له، وقسمه به، لأجله ﷺ، ولكونه حالاًّ فيه، كما سمّيت المدينة طيّبة؛ لأنّها طابت به حيّاً وميّتاً.

وقيل: معناه: وأنت محلّ بهذا البلد، وهو ضدّ المحرم. والمراد: وأنت حلال لك قتل من رأيت به من الكفّار، وذلك حين أُمر بالقتال يوم فتح مكّة، فأحلَّها الله له ﷺ حتى قاتل وَقَتَل. وقد قال ﷺ: «لا يحلّ لأحد قبلي، ولا يحلّ لأحد من بعدي، ولم يحلّ لي إلّا ساعة من نهار» ـ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطاء ـ. وهذا وعد من الله لنبيّه ﷺ، أن يحلّ له مكّة حتى يقاتل فيها، ويفتحها على يده، ويكون بها حلّاً، يصنع بها ما يريد من القتل والأسر. وقد فعل سبحانه ذلك، فدخلها غلبة وكرهاً، وقتل ابن أخطل، وهو متعلّق بأستار الكعبة، ومقيس بن سبابة [صبا] وغيرهما.

وقيل: معناه: لا أُقسم بهذا البلد وأنت حلّ فيه، منتهك الحرمة، مستباح العرض، لا تحترم، فلم يبن [يبق] للبلد حرمة، حيث هتكت حرمتك، ـ عن أبي مسلم ـ. وهو المرويّ عن أبي عبدالله ﷺ قال: كانت قريش تعظم البلد، وتستحلّ محمّداً ﷺ فيه، فقال: لا أُقسم بهذا البلد، وأنت حلّ بهذا البلد، يريد أنّهم استحلّوك فيه، فكذَّبوك وشتموك، وكانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه تاتل أبيهِ، ويتقلّدون لحاء شجر الحرم، فيأمنون بتقليدهم إيّاه، فاستحلّوا من رسول الله ﷺ ما لم يستحلّوا من غيره، فعاب الله ذلك عليهم.

ثمّ عطف على القسم، فقال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: آدم ﷺ وذرّيّته، ـ عن الحسن ومجاهد وقتادة ـ. وذلك أنّهم خليقة أعجب من هذه الخليقة، وهم عمّار

الدنيا. وقيل: آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء، وأتباعهم، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: يريد إبراهيم عليه السلام وولده، ـ عن [ابن] أبي عمران الجوني ـ. لما أقسم بالبلد أقسم بإبراهيم، فإنّه بانيه، وبأولاده العرب إذ هم المخصّصون بالبلد. وقيل: يعني: كل والد وولده، ـ عن ابن عباس والجبائي ـ. وقيل: ﴿وَوَالِدٍ﴾ من يولد لهُ، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ يعني: العاقر، ـ عن ابن جبير ـ. فيكون ﴿مَا﴾ نفياً. وهو بعيد؛ لأنّه يكون تقديره: وما ما ولد، فحذف «ما» الأُولى التي تكون موصولة، أو موصوفة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في نصب وشدّة، ـ عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والحسن قال: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة. وقال: ابن آدم لا يزال يكابد أمراً حتى يفارق الدنيا. وقيل: في شدّة خلق من حمله، وولادته، ورضاعه، وفطامه، ومعاشه، وحياته، وموته. ثمّ إنّه سبحانه لم يخلق خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وهو [مع ذلك] أضعف الخلق. وقيل: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي: قائماً على قدميه منتصباً، وكل شيء خلق، فإنّه يمشي مكباً، إلّا الإنسان فإنّه خلق منتصباً. فالكبد: الإستواء والإستقامة، ـ وهو رواية مقسم، ـ عن ابن عباس، وهو قول مجاهد وأبي صالح وعكرمة ـ. وقيل: يريد شدّة الأمر والنهي أي: خلقناه ليعبدنا بالعبادات الشاقّة مثل: الإغتسال من الجنابة في البرد، والقيام إلى الصلاة من النوم، فينبغي له أنْ يعلم أنّ الدنيا دار كبد ومشقّة، والجنّة دار الراحة والنعمة.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ معناه: أيظنّ هذا الإنسان أنّه لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى، وركب القبائح، فبئس الظنّ ذلك، وهذا استفهام إنكار أي: لا يظنّنّ ذلك. وقيل: معناه: أيحسب هذا المغترّ بماله، أن لا يقدر عليه أحد يأخذ ماله، ـ عن الحسن ـ. وقيل: أيحسب أنّ لا يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه، وفي ماذا أنفقه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّه يعني أبا الأسد بن كلدة

[الأشدين]، وهو رجل من [جمع]، كان قويّاً شديد الخلق، بحيث يجلس على أديم عكاظي، فتجره العشرة من تحته، فينقطع، ولا يبرح من مكانه، ـ عن الكلبي ـ.

ثمّ أخبر سبحانه عن مقالة هذا الإنسان، فقال: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ أي: أنفقت مالاً كثيراً في عداوة النبيّ ﷺ يفتخر بذلك. وقيل: هو الحرث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف، وذلك أنّه أذنب ذنباً، فاستفتى رسول الله ﷺ، فأمره أن يكفّر، فقال: لقد ذهب مالي في الكفّارات والنفقات، منذ دخلت في دين محمّد، ـ عن مقاتل ـ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ فيطالبه من أين اكتسبه، وفي ماذا أنفقه، ـ عن قتادة، وسعيد بن جبير ـ. وروي ـ عن ابن عباس، عن النبيّ ﷺ قال: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربعة: عن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين جمعه، وفي ماذا أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن حبّنا أهل البيت». وقيل: إنّه كان كاذباً لم ينفق ما قاله، فقال الله سبحانه: أيظنّ أنّ الله تعالى لم ير ذلك، فعل أو لم يفعل، أنفق أو لم ينفق، ـ عن الكلبي ـ.

ثمّ ذكر سبحانه النعم التي أنعم بها عليه؛ ليستدلّ بها على توحيده، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ليبصر بهما آثار حكمته ﴿وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ لينطق بهما، فيبيّن باللسان، ويستعين بالشفتين على البيان. قال قتادة: نعم الله عليك متظاهرة فقررك بها كيما تشكر. وروى عبد الحميد المدائني، عن أبي حازم أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله تعالى يقول يا ابن آدم! إنْ نازعك لسانك فيما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين فاطبق، وإنْ نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق. وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق».

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: سبيل الخير، وسبيل الشرّ، ـ عن عليّ عليه السلام وابن

مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: معناه: أرشدناه للثديين، ـ عن سعيد بن المسيب والضحّاك ـ. وفي رواية أُخرى ـ عن ابن عباس. [و]روي أنه قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: إنّ ناساً يقولون في قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أنّهما الثديان؟ فقال: لاهما الخير والشرّ. وقال الحسن: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا أيّها الناس! هما نجدان نجد الخير، ونجد الشرّ. فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير».

ولو قيل: كيف يكون نجد الشرّ مرتفعاً كنجد الخير، ومعلوم أنّه لا رفعة في الشرّ؟ «والجواب»: إنّ الطريقين جميعاً ظاهران باديان للمكلّفين، فسمّى سبحانه كلاهما نجداً؛ لظهوره وبروزه. ويجوز أن يكون سمّى طريق الشرّ نجداً، من حيث يحصل في اجتناب سلوكه الرفعة والشرف، كما يحصل ذلك في طريق الخير. وقيل أيضاً إنّه على عادة العرب في تثنية الأمرين إذا اتّفقا على بعض الوجوه، فيجري لفظ أحدهما على الآخر، كقولهم القمرين في الشمس والقمر. قال الفرزدق:

أَخَذْنا بِآفاقِ السَّماءِ عَلَيْكُمْ لَنا قَمَراها، وَالنُّجُومُ الطَّوالِعُ

ونظائره كثيرة. ﴿فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ فيه أقوال: أحدها: إنّ المعنى: فلم يقتحم هذا الإنسان العقبة، ولا جاوزها. وأكثر ما يستعمل هذا الوجه بتكرير لفظة ﴿لَا﴾ كما قال سبحانه: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ﴾ أي: لم يصدق، ولم يصلّ. وكما قال الحطيئة:

وَإِنْ كانَتِ النَّعْماءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِها وَإِنْ أَنْعَمُوا لا كَدَّرُوها، وَلا كَدُوا[١]

وقد جاء من غير تكرار في نحو قوله:

---

[١] الكادي: البطيء.

إِنْ تَـغْفِرِ اللَّـهُمَّ تَـغْفِرْ جَـمّاً وَأَيُّ عَـبْدٍ لَكَ، لا أَلَـمّا[١]

أي: لم يلمّ بذنب. **والآخر**: أن يكون على وجه الدعاء عليه، بأن لا يقتحم العقبة كما يقال: لا غفر الله له، ولا نجا، ولا سلم. والمعنى: لا نجا من العقبة، ولا جاوزها. **والثالث**: إنّ المعنى: فهلا اقتحم العقبة، أو أفلا اقتحم العقبة، ـ عن ابن زيد والجبائي وأبي مسلم، قالوا: ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ولو كان أراد النفي لم يتّصل الكلام. قال المرتضى، قدس الله روحه: هذا الوجه ضعيف جداً؛ لأنّ الكلام خال من لفظ الإستفهام، وقبيحٌ حذفُ حرفِ الإستفهام في مثل هذا الموضع، وقد عيب على عمر بن أبي ربيعة قوله:

ثُـمَّ قـالُوا: تُـحِبُّها. قُـلْتُ: بَـهْراً عَدَدَ الرَّمْلِ، والْحَصىٰ، وَالتُّرابِ(١)

وأمّا قولهم: لو أُريد النفي لم يتّصل الكلام، فليس بشيء؛ لأنّ المعنى: فلا اقتحم العقبة ثمّ كان من الذين آمنوا أي: لم يقتحم، ولم يؤمن.

وأمّا المراد بالعقبة ففيه وجوه:

أحدها: إنّه مثلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان، في أعمال الخير والبرّ، فجعل ذلك كتكليف صعود العقبة الشاقّة الكؤود، فكأنّه قال لم يحمل على نفسه المشقّة بعتق الرقبة والإطعام، وهو قوله: ﴿فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾] أي: ما إقتحام العقبة. ثمّ ذكره فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وهو تخليصها من أسار الرقّ إلى آخره.

وثانيها: إنّها عقبة حقيقيّة. قال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار، دون الجسر، فاقتحموها بطاعة الله، عزّ وجلّ. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قائله: أميّة. ألمّ الرجل: من اللمم وهو صغار الذنوب.

أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون، وأنا أُريد أن أُخفّف عنكم لتلك العقبة».

وعن ابن عباس أنّه قال: هي النار نفسها. وروي عنه أيضاً أنّها عقبة في النار.

وثالثها: ما روي عن مجاهد والضحّاك والكلبي: أنّها الصراط يضرب على جهنّم، كحدّ السيف، مسيرة ثلاثة آلاف، سهلاً وصعوداً وهبوطاً، وإنّ في جنبيه كلاليب وخطاطيف[١]، كأنّها شوك السعدان، فمن بين مسلم وناج، ومخدوش في النار، منكوس، فمن الناس من يمرّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمرّ عليه كالريح العاصف، ومنهم من يمرّ عليه كالفارس، ومنهم من يمر عليه كالرجل يعدو، ومنهم من يمرّ عليه كالرجل يسير، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم الزالون والزالات، ومنهم من يُكَردس في النار[٢]، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء.

وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قاله سبحانه ﴿وَمَا أَدْرٰكَ﴾ فإنّه أخبره به، وكل شيء قال فيه ﴿وَمَا يُدرِيكَ﴾ فإنّه لم يخبره به.

وروي [مرفوعاً] عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! علّمني عملاً يدخلني الجنّة. قال: «إن كنت أقصرت الخطبةَ، لقد أعرضتَ المسألة. أعتق النسمة، وفكّ الرقبة. فقال: أوليسا واحداً؟ قال: لا. عتق النسمة: أن تنفرد بعتقها. وفكّ الرقبة: أن تعين في ثمنها. والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم يكن ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلّا من الخير». وقيل: إنّ معنى «فكّ رقبة» أن يفكّ رقبة من الذنوب بالتوبة، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: أراد فكّ نفسه

---

[١] الخطاطيف ـ جمع الخطاف ـ: حديدة معوجة اختطف بها الشيء. والكلاليب جمع الكلوب وهو بمعناه أيضاً.

[٢] رجل مكردس: جمعت يداه ورجلاه، فشدت فألقي إلى موضع.

من العقاب بتحمّل الطاعات، ـ عن الجبائي ـ.

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي مجاعة. قال ابن عباس: يريد بالمسغبة الجوع. وفي الحديث عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من أشبع جائعاً في يوم سغب، أدخله الله يوم القيامة من باب من أبواب الجنّة، لا يدخلها إلّا من فعل مثل ما فعل». وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان». وروي عن محمّد بن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إنّ لي ابناً شديد العلّة، قال: مره يتصدّق بالقبضة من الطعام بعد القبضة، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ وقرأ الآيات.

﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا قربى من قرابة النسب والرحم. وهذا حثّ على تقديم ذوي القرابة المحتاجين على الأجانب في الإطعام والإنعام. ﴿أَوْ مِسْكِيناً﴾ أي: فقيراً ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ قد لصق بالتراب من شدّة فقره وضرّه. ورَوى مجاهد عن ابن عباس أنّه قال: هو المطروح في التراب، لا يقيه شيء. وهذا مثل قولهم: فقير مدقع، مأخوذ من الدقعاء وهو التراب.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ هذه القربة إنّما تنفع من [تنتفع مع] الإيمان، فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ثمّ كان مع هذا من جملة المؤمنين الذين استقاموا على إيمانهم. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على فرائض الله، والصبر عن معصية الله أي: وصى بعضهم بعضاً بذلك. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالمرحمة [بالرحمة] على أهل الفقر، وذوي المسكنة والفاقة. وقيل: تواصوا بالمرحمة فيما بينهم، فرحموا الناس كلّهم.

﴿أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يؤخذ بهم ناحية اليمين، ويأخذون كتبهم بأيمانهم، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: هم أصحاب اليمن والبركة على أنفسهم، ـ عن الحسن وأبي مسلم ـ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بحججنا ودلالاتنا، وكذّبوا أنبياءنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ أي: يأخذون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال. وقيل: إنّهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة، ـ عن ابن عباس ومجاهد ـ. وقيل: يعني: إنّ أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لهم باب، ولا يخرج عنها غمّ، ولا يدخل فيها روح آخر الأَبد، ـ عن مقاتل ـ.

﴿النَّظْمُ﴾: وجه اتّصال قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ بما قبله: إنّ المعنى: كيف يحسب هذا الإنسان أنّ الله سبحانه لا يراه، وهو الذي خلقه، وجعل له عينين وكذا وكذا. وقيل: إنّه اتّصل بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: اختبرناه حيث كلّفناه. ثمّ أزحنا علّته بأن جعلنا له عينين. وقيل: إنّه يتّصل بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ والمعنى: كيف يظنّ ذلك، وقد خلقناه، وخلقنا أعضاءه التي يبصر الدلائل بها، ويتكلّم بها.

سُورَةُ الشَّمْسِ

عَدَدُ آيِهَا: ستّ عشرة آية مكّي والمدني الأوّل، وخمس عشرة في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آية ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مكّى والمدنيّ الأوّل.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عنه ﷺ قال: «من قرأها فكأنّما تصدّق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر». معاوية بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أكثر قراءة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ في يومه أو في ليلته، لم يبق شيء بحضرته إلّا شهد له يوم القيامة حتى شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه، وجميع ما أقلت الأرض منه، ويقول الرب تبارك وتعالى: قبلت شهادتكم لعبدي، وأجزتها له، انطلقوا به إلى جناني، حتى يتخير منها حيث أحبّ، فأعطوه إياها من غير مَنٍّ مني، ولكن رحمة وفضلاً مني عليه، فهنيئاً هنيئاً لعبدي.

تَفْسِيرُهَا: لما ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر المؤصدة بيّن في هذه السورة أن النجاة منها لمن زكى نفسه، وأكّده بأن أقسم عليه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وابن عامر: «فلا يخاف» ـ بالفاء ـ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام. والباقون: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ ـ بالواو ـ. وكذلك هو في مصاحفهم[1].

الحجة: قال أبو عليّ: الواو يجوز أن يكون في موضع حال أي: فسوّاها غير خائف عقباها، يعني: غير خائف أن يتعقّب عليه في شيء ممّا فعله، وفاعل ﴿يَخَافُ﴾ الضمير العائد إلى قوله: ﴿رَبُّهُمْ﴾. وقيل: إنّ الضمير يعود إلى صالح

(١) واتّفقوا على كتابة «تليها وطحيها» بالياء. وأمالهما الكسائي وحده، وأما سائر رؤس الآي، فأمالها الكسائي وحمزة وخلف؛ لكونها يائية أو زائدة على ثلاثة أحرف.

النبيّ الذي أُرسل إليهم. وقيل: إذا انبعث أشقاها وهو لا يخاف عقباها أي: لا يخاف من إقدامه على ما أتاه ممّا نهي عنه. ففاعل ﴿يَخَافُ﴾ العاقر على هذا، والفاء للعطف على قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ فلا يخاف كأنّه يتّبع تكذيبهم وعقرهم إن [أي] لم يخوفوا.

[اللغة]: ضحى الشمس: صدر وقت طلوعها. وضحى النهار: صدر وقت كونه. وأضحى يفعل كذا: إذا فعله في وقت الضحى. وضحى بكبش أو غيره: إذا ذبحه في وقت الضحى من أيّام الأضحى، ثمّ كثر ذلك حتى لو ذبح في غير ذلك الوقت لقيل ضحى.

والطحو والدحو بمعنى. يقال: طحا بك همّك يطحو طحواً: إذا انبسط بك إلى مذهب بعيد. قال علقمة: «طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الحساب ظَرُوبُ»[1] يقال: طحا القوم بعضهم بعضاً عن الشيء: إذا دفعوا دفعاً شديد الإنبساط. والطواحي: النسور تنبسط حول القتلى. وأصل الطحو البسط الواسع. يقال: دسا فلان يدسو دسواً، فهو داس، نقيض زكا يزكو زكاً فهو زاك. وقيل: إنّ أصل «دسّا» دسس، فأبدل من أحد السينين ياء، كما قالوا: تظنّيت بمعنى تظنّنت، ومثله: «تَقَضّي الْبازِي إِذَا البازِي كَسَرْ»[2] بمعنى تقضض. وإنّما يفعلون ذلك كراهية التضعيف.

والطغوى والطغيان: مجاوزة الحدّ في الفساد، وبلوغ غايته. وفي قراءة الحسن وحماد بن مسلمة [سلمة]: ﴿بِطُغْوٰهَا﴾ ـ بضمّ الطاء ـ. وعلى هذا فيكون مصدراً على «فُعْلى» كالرجعى والحسنى. وبعث [انبعث]: مطاوع انبعث [بعث] يقال: بعثته على الأمر فانبعث له.

والسقيا: الحظّ من الماء والنصيب منه. والعقر: قطع اللحم بما يسيل الدم،

---

(١) بعده: بعيد الشباب عصر حان مشيب.

(٢) مضى قريباً.

وهو من عقر الحوض أي: أصله. والعقر: نقص شيء من أصل بنية الحيوان. والدمدمة: ترديد الحال المستكره، وهي مضاعفة ما فيه الشقة [المشقّة]. وقال مؤرج: الدمدمة: هلاك باستئصال. قال ابن الأَعرابي: دمدم أي: عذّب عذاباً تامّاً(١).

الإعراب: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ هذه الواو الأُولى هي التي للقسم، وسائر الواوات فيما بعدها عطف عليها، إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾، وهو جواب القسم، والتقدير: لقد أفلح.

وقوله: «وما بناها، وما طحاها، وما سواها» ما: هيهنا مصدريّة، وتقديره: والسماء وبنائها، والأرض وطحواها، ونفس وتسويتها. وقيل: إنّ ﴿مَا﴾ في هذه المواضع بمعنى «مَنْ» أي: والذي بناها. ويحكى عن أهل الحجاز أنّهم يقولون إذا سمعوا صوت الرعد: سبحان ما سبحت له أي: سبحان الذي سبحت له، ومن سبحت له. وقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: منصوب بفعل مضمر أي: احذروا ناقة الله، وذروا سقياها.

المعنى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قد تقدَّم أنّ لله سبحانه أن يقسم بما يشاء من خلقه تنبيهاً على عظيم قدره، وكثرة الإنتفاع به. ولما كان قوام العالم من الحيوان والنبات، بطلوع الشمس وغروبها، أقسم الله سبحانه بها وبضحاها، وهو امتداد ضوئها وانبساطه، ـ عن مجاهد والكلبي ـ. وقيل: هو النهار كله، ـ عن

---

(١) في الآية دلالة على الحسن والقبح العقليّين، وأنّ الله ألهم الإنسان ذلك ليتّبع عقله، والتزكية التي هي موجبة للفلاح أن يتبع التقوى والخيبة في صدره [ضده] ثمّ آنامّا وجدنا شيئاً ممّا خلقه الله وأودعه في النفس، إلّا لغرض كالشهوة إلى الطعام لحاجة البدن، والى الجماع لبقاء النفس، فليس إدراك حسن الاحسان، وقبح الفساد والقتل والقبائح، إلّا لغرض يناسبها، وهو الفلاح والسعادة، فلابدّ من بقاء النفس، ووجود عالم الآخرة؛ ليكون حكمة الحسن والقبح الملهمين سعادة النفوس بالعمل بمقتضى إلهامها، وإلّا فيكون الإلهام بغير مصلحة وغرض.

قتادة ـ. وقيل: حرُّها، ـعن مقاتل ـ، كقوله تعالى في طه «ولا تضحى» أي: لا يؤذيك حرّها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي: إذا أتبعها، فأخذ من ضوئها، وسار خلفها، قالوا: وذلك في النصف الأوّل من الشهر، إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة، وخلفها في النور. وقيل: تلاها ليلة الهلال، وهي أوّل ليلة من الشهر إذا سقطت الشمس، رؤي القمر عند غيبوبتها، ـعن الحسن ـ. وقيل: في الخامس عشر يطلع القمر مع غروب الشمس. وقيل: في الشهر كله فهو في النصف الأوّل يتلوها، وتكون أمامه وهو وراؤها. وفي النصف الأخير يتلو غروبها بالطلوع.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي: جلَّى الظلمة، وكشفها، وجازت الكناية عن الظلمة، ولم تذكر؛ لأنّ المعنى معروف غير ملتبس. وقيل: إنّ معناه: والنهار إذا أظهر الشمس، وأبرزها. سمّي النهار مجلّياً لها؛ لظهور جرمها فيه.

﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: يغشى الشمس حتى تغيب، فتظلم الآفاق، ويلبسها سواده. ﴿وَٱلسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي: ومن بناها، ـعن مجاهد والكلبي ـ. وقيل: والذي بناها، ـعن عطاء ـ. وقيل: معناه: والسماء وبنائها مع إحكامها واتّساقها وانتظامه.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ في «ما» وجهان كما ذكرناه أي: وطحوها وتسطيحها، وبسطها؛ ليمكن الخلق التصرّف عليها. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ هو كما ذكرناه. وسواها: عدل خلقها، وسوّى أعضاءها. وقيل: سوّاها بالعقل الذي فضل به سائر الحيوان. ثمّ قالوا: يريد جميع ما خلق من الجنّ والإنس، ـعن عطاء ـ. وقيل: يريد بالنفس آدم، ومن سواها الله تعالى، ـعن الحسن ـ.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: عرّفها طريق الفجور والتقوى، وزهدها في الفجور، ورغبها في التقوى، ـعن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحّاك ـ.

وقيل: علمها الطاعة والمعصية لتفعل الطاعة، وتذر المعصية، وتجتني الخير، وتجتنب الشرّ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ على هذا وقع القسم أي: قد أفلح من زكى نفسه، ـ عن الحسن وقتادة ـ. أي: طهّرها وأصلحها بطاعة الله، وصالح الأعمال.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ بالعمل الطالح أي: أخملها وأخفى محلّها. وقيل: أضلّها وأهلكها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أفجرها، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: قد أفلحت نفس زكّاها الله، وخابت نفس دسّاها الله أي: جعلها قليلة خسيسة. وجاءت الرواية عن سعيد بن أبي هلال قال: كان رسول الله إذا قرأ هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ وقف ثمّ قال: «أللهمّ آت نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّها وأنت خير من زكّاها». وروى زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم، عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: بيّن لها ما تأتي [ترك]، وما تترك. وفي قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ قال: قد أفلح من أطاع ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ قال: قد خاب من عصى. وقال ثعلب: قد أفلح من زكى نفسه بالصدقة والخير، وخاب من دسّ نفسه في أهل الخير، وليس منهم.

ثمّ أخبر سبحانه عن ثمود وقوم صالح، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي: بطغيانها ومعصيتها، ـ عن مجاهد وابن زيد، يعني: إنّ الطغيان حملهم على التكذيب. فالطغوى اسم من الطغيان، كما أنّ «الدعوى» من الدعاء. وقيل: إنّ «الطغوى» إسم العذاب الذي نزل بهم. فالمعنى: كذبت ثمود بعذابها ـ عن ابن عباس ـ. وهذا كما قال: فأُهلكوا بالطاغية. والمراد كذبت بعذابها الطاغية، فأتاها ما كذبت به.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي: كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود للعقر. ومعنى انبعث: انتدب وقام. والأشقى: عاقر الناقة، وهو أشقى الأوّلين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، واسمه قدار بن سالف. قال الشاعر، وهو عدي بن زيد:

فَمَنْ يَهْدِي أَخاً لِذِنابِ لَوٍّ ... فَأَرْشُـوْهُ فَـإِنَّ الله جـارٌ
وَلٰكِنْ أَهْـلَكَتْ لَـوٌّ كَـثيراً ... وَقَبْلَ الْيَوْمِ عالَجَها قِـدارٌ

يعني: حين نزل بها العذاب فقال: لو فعلت. وقد صحَّت الرواية بالإسناد عن عثمان بن صهيب، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام: من أشقى الأوّلين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت. فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله. قال: الذي يضربك على هذه ـ وأشار إلى يافوخه ـ.

وعن عمّار بن ياسر قال: كنت أنا وعليّ بن أبي طالب عليه السلام في غزوة العسرة نائمين في صَوْر[١] من النخل، ودَقْعاء من التراب، فـوالله مـا أهـبّنا إلّا رسـول الله ﷺ يحرّكنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء، فقال: ألا أُحـدّثكما بأشـقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: أُحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك بالسيف يا عليّ على هذه ـ ووضع يده على قرنه ـ حتى تبل منها هذه ـ وأخذ بلحيته ـ وقيل: إنّ عاقر الناقة كان أشقر أزرق قصيراً ملتزق الحلق [الخلق].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ قال الفرّاء: حذَّرهم إيّاها، وكل تحذير فهو نصب، والتقدير، احذروا ناقة الله، فلا تعقروها، ـ عن الكلبي ومقاتل ـ. كما يقال الأسد الأسد أي: إحذروه ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي: وشربها مـن المـاء، أو مـا يسقيها أي: فلا تزاحموها فيه، كما قال سبحانه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُـمْ شِـرْبُ يَـوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فكذّب قوم صالح صالحاً، ولم يلتفتوا إلى قوله، وتحذيره إيّاهم بالعذاب بعقرها، ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فقتلوا الناقة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: فدمَّر عليهم ربّهم، ـ عن عطاء ومقاتل ـ. وقيل: أطبق عليهم بالعذاب وأهـلكهم

---

[١] الصور: المجتمع من النخل. والدقعاء: التراب الدقيق على وجه الأرض.

﴿بِذَنبِهِمْ﴾ لأنّهم رضوا جميعاً به، وحثّوا عليه، وكانوا قد اقترحوا تلك الآية، فاستحقّوا بما ارتكبوه من العصيان والطغيان عذاب الإستئصال.

﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فسوّى الدمدمة عليهم، وعمّهم بها، فاستوت على صغيرهم وكبيرهم، ولم يفلت منها أحد منهم. وقيل: معناه: سوّى الأُمة أي: أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها، فسوى بينها فيه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: جعل بعضها على مقدار بعض في الإندكاك واللصوق بالأرض، فالتسوية تصيير الشيء على مقدار غيره. وقيل: سوّى أرضهم عليهم.

﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي: لا يخاف الله من أحد تبعة في إهلاكهم، ـ عن ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والجبائي ـ. والمعني: لا يخاف أن يتعقّب عليه في شيء من فعله، فلا يخاف عقبى ما فعل بهم، من الدمدمة عليهم؛ لأنّ أحداً لا يقدر على معارضته، والإنتقام منه. وهذا كقوله: ﴿لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وقيل: معناه: لا يخاف الذي عقرها عقباها، ـ عن الضحاك والسدّي والكلبي ـ. أي: لا يخاف عقبى ما صنع بها؛ لأنّه كان مكذباً بصالح. وقيل: معناه: ولا يخاف صالح عاقبة ما خوّفهم به من العقوبات؛ لأنّه كان على ثقة من نجاته.

سُورَةُ اللَّيْلِ

مكّيّة، إحدى وعشرون آية بالإجماع.

فَضْلُها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضىٰ، وعافاه من العسر، ويسر له اليسر».

تَفْسِيرُها: لمّا قدّم في تلك السورة بيان حال المؤمن والكافر، عقَّبه سبحانه بمثل ذلك في هذه السورة، فاتّصلت بها اتّصال النظير بالنظير، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ

﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا
لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾
لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا
ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن
نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

(القراءة): في الشواذّ، قراءة النبيّ ﷺ، وقراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وابن عباس: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ ـ بغير «ما» ـ. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام[1].

(الحجة): قال ابن جنّي: في هذه القراءة شاهد لما أخبرنا به أبوبكر، عن أبي العباس أحمد بن يحيى قراءة بعضهم ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ بالجرّ، وذلك أنّه جرّه لكونه بدلاً من ﴿مَا﴾ فقراءة النبيّ ﷺ شاهد بصحّة ذلك.

(اللغة): شتّى أي: متفرّق على تباعد ما بين الشيئين جدّاً. ومنه: شتّان أي: بعد ما بينهما كبعد ما بين الثرى والثريا. وتشتّت أمر القوم، وشتّتهم ريب الزمان. واليسرى: تأنيث الأيسر. والعسرى: تأنيث الأعسر، من اليسر والعسر. والتلظّي: تلهب النار بشدّة الإيقاد. وتلظّت النار تتلظىٰ. فحذف إحدى التاءين تخفيفاً. وقرأ ابن كثير: تّلظى ـ بتشديد التاء ـ أدغم إحدى التاءين في الأُخرىٰ. والتجنّب: تصيير الشيء في جانب من غيره.

---

(١) في إمالات رؤس الآى في هذه السورة تفصيل، فألف «اليسرى والعسرى» زائدة، واقعة بعد الراء، أمالها أبو عمرو، وأمالها وغيرها من رؤس الآي حمزة والكسائي وخلف، لكونها في الأصل ياء إلّا «الأشقى والأتقى» فأمالوهما؛ لكونهما من رؤس الآي إذا وقفوا، وأمالوا «أعطى ويصيلها» وإن لم يكونا رأس آية؛ لكونهما يائين على أصلهم، ولم يمل الباقون شيئاً من تلك.

﴿الإعراب﴾: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ﴾: إن جعلت ﴿مَا﴾ مصدريّة، فهو في موضع الجرّ، والتقدير: وخلق الذكر [والأنثى] أي: وخلقه الذكر والأُنثى. وإنْ جعلتها بمعنى «مَن» فكذلك. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾: صفة، حذف موصوفها أي: وصدق بالخصلة الحسنى. وكذا اليسرى والعسرى. التقدير فيهما: للطريقة اليسرى وللطريقة العسرى.

و ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: في موضع نصب على الحال، ويجوز أن يكون منصوب الموضع، أو مرفوعاً على تقدير حذف «أنْ» أي: لأن يتزكّى، فحذف اللام فصار: أن يتزكّى. ثمّ حذف «أنْ» أيضاً كما في قول طرفة:

ألاَ أَيُّهَذَا الزّاجِري، أَحْضُرَ الْوَغىٰ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي[1]

روي «أحضر» ـ بالرفع والنصب ـ.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ من نعمة: الجارّ والمجرور، في موضع رفع، و«مِن» مزيدة لتأكيد النفي، وإفادة العموم. و ﴿تُجْزَىٰ﴾: جملة مجرورة الموضع؛ لكونها صفة لنعمة، والتقدير: من نعمة مجزية. وإن شئت كانت مرفوعة الموضع على محل قوله ﴿مِن نِعْمَةٍ﴾ والتقدير: وما لأحد عنده نعمة مجزية.

و ﴿ٱبْتِغَاءَ﴾: منصوب؛ لأنّه مفعول له، والعامل فيه ﴿يُؤْتِي﴾ أي: وما يؤتي ماله إلاَّ ابتغاء وجه ربّه أي: لطلب ثواب ربّه، ولم يفعل ذلك مجازاة ليد قد أُسديت إليه.

﴿المعنى﴾: ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أقسم الله سبحانه بالليل إذا يغشى بظلمته النهار. وقيل: إذا يغشى بظلمته الأفق، وجميع ما بين السماء والأرض. والمعنى: إذا أظلم، وادلهمَّ، وأغشى الأنانم [الأنام] بالظلام، لما في ذلك من الهول المحرّك

---

(١) يا من يمنعني من اقتحام الحروب وشهود اللذّات، لا تقدر على دفع الموت عنّي.

للنفس بالإستعظام.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ أي: بان وظهر من بين الظلمة، وفيه أعظم النعم إذ لو كان الدهر كله ظلاماً، لما أمكن الخلق طلب معايشهم، ولو كان ذلك كله ضياء، لما انتفعوا بسكونهم وراحتهم، فلذلك كرَّر سبحانه ذكر الليل والنهار في السورتين، لعظم قدرهما في باب الدلالة على مواقع حكمته.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ﴾[1] أي: والذي خلق، ـ عن الحسن والكلبي ـ. وعلى هذا يكون ﴿مَا﴾ بمعنى «مَن». وقيل: معناه: خلق الذكر والأُنثى، ـ عن مقاتل ـ. قال مقاتل والكلبي: الذكر والأُنثى آدم وحوّاء عليهما السلام. وقيل: أراد كل ذكر وأُنثى من الناس وغيرهم.

﴿إِنَّ سَعيُكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القسم، والمعنى: إنّ أعمالكم لمختلفة، فعمل للجنّة، وعمل للنار، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ سعيكم لمتفرّق، فساعٍ في فكاك رقبته، وساع في هلاكه، وساع للدنيا، وساع للعقبى.

وروى الواحدي بالإسناد المتّصل المرفوع ـ عن عكرمة، عن ابن عباس: إنّ رجلاً كانت له نخلة، فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار، وصعد الرجل من النخلة، [حتى] يأخذ [ليأخذ] منها التمر، فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر

---

(١) في خلق الذكر والانثى من كل حيوان شاهد وآيات على قدرة الله وحكمته وان الأمر ليس يزعمه أصحاب الطبائع، لان الأمر لو كان الى فاعل عديم الشعور لجاز ان يفعل الجميع ذكرا وان يخلق خصيا ومجبوبا لايولد إذ ليس خلق مثل ذلك محالا بدليل انه قد خلق مثله ونعلم ان الذي خلق الذكور خلق الاناث لهم وخلقهما للولد لانه جعل فيهما الشهوة وجعل عمق محبل كل حيوان انثى كطول آلة الذكور واذا زال قوة الولادة عن الانثى زال شهوة الذكور عن مجامعتها ففاعل الجميع واحد، كنجار قطع خشبات لباب واحد وخياط قطع ثوبا قطعا لقميص واحد ولو كان الفاعل طبيعة لكان فواعل مختلفة لايبالي احدها بفعل الآخر.

من أيديهم، فإن وجدها في فيّ أحدهم، أدخل أصبعه حتى يأخذ التمرة مِن فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النبيّ ﷺ، وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة. فقال له النبيّ ﷺ: إذهب. ولقي رسول الله ﷺ صاحب النخلة فقال: تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنّة، فقال له الرجل: إنّ لي نخلاً كثيراً، وما فيه نخلة أعجب إليَّ تمرة منها. قال: ثمّ ذهب الرجل. فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ: يا رسول الله أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنّة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل، ولقي صاحب النخلة، فساومها منه، فقال له: أشعرت أنّ محمّداً أعطاني بها نخلة في الجنّة، فقلت له: يعجبني تمرتها، وإنّ لي نخلاً كثيراً، فما فيه نخلة أعجب إليَّ تمرة منها. فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لاإلاَّ أن أُعطى ما لا أظنّه أُعطي. قال: فما مُناك؟ قال أربعون نخلة. فقال الرجل: جئت بعظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة؟! ثمّ سكت عنه. فقال له: أنا أُعطيك أربعين نخلة. فقال له: أشهد إنْ كنت صادقاً. فمرَّ إلى أُناس فدعاهم، فأشهد له بأربعين نخلة، ثمّ ذهب إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنّ النخلة قد صارت في ملكي، فهي لك.

فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك ولعيالك. فأنزل الله تعالى ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ السورة.

وعن عطاء قال: اسم الرجل، أبو الدحداح. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾: هو أبو الدحداح ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾: وهو صاحب النخلة. وقوله: ﴿لاَ يَصْلاَهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ وهو صاحب النخلة، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلأَتْقَى﴾ هو أبو الدحداح، ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ إذا دخل الجنّة. قال: وكان النبيّ ﷺ يمرُّ بذلك الحش[١] وعذوقه دانية، فيقول: عذوق وعذوق لأبي الدحداح في الجنّة.

---

[١] الحش: النخل الناقص القصير.

وعن ابن الزبير قال: إنّ الآية نزلت في أبي بكر؛ لأنّه اشترى المماليك الذين أسلموا مثل بلال وعامر بن فهيرة، وغيرهما، وأعتقهم. والأولى أن تكون الآيات محمولة على عمومها، في كل من يعطي حقّ الله من ماله، وكل من يمنع حقّه سبحانه.

وروى العياشي ذلك بإسناده عن سعد الإسكاف، عن أبي جعفر عليه السلام قال: فأمّا من أعطى ممّا آتاه الله، واتّقى، وصدّق بالحسنى أي: بأنّ الله يعطي بالواحد عشراً إلى كثير من ذلك. وفي رواية أُخرىٰ إلى مائة ألف، فما زاد. فسنيسّره لليسرى. قال: لا يريد شيئاً من الخير إلاّ يسّره الله له. وأمّا من بخل بما آتاه الله، واستغنى وكذّب بالحسنى بأنّ الله يعطي بالواحد عشراً إلى أكثر من ذلك. وفي رواية أخرى: إلى مائة ألف فمازاد، فسينسّره لليسرى. قال: لا يريد شيئاً من الشرّ إلّا يسّره الله له. قال: ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: وما يغني عنه ماله إذا تردّى. أما والله ما تردّى من جبل، ولا تردّى من حائط، ولا تردّى في بئر، ولكن تردّى في نار جهنّم.

فعلىٰ هذا يكون قوله: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ معناه: بالعدة الحسنى. وهو قول ابن عباس وقتادة وعكرمة. وقيل: بالجنّة التي هي ثواب المحسنين، ـ عن الحسن ومجاهد والجبائي ـ.

وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معناه: فسنهوّن عليه الطاعة مرّة بعد مرّة. وقيل: معناه: سنهيّئه ونوفّقه للطريقة اليسرىٰ أي: سنسهّل عليه فعل الطاعة حتى يقوم إليها بجدّ وطيب نفس. وقيل: معناه: سنيسّره للخصلة اليسرىٰ، والحالة اليسرى، وهو دخول الجنّة، واستقبال الملائكة إيّاه بالتحيّة والبشرى.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي: ضنَّ بماله الذي لا يبقىٰ له، وبخل بحقّ الله فيه. ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: التمس الغنى بذلك المنع لنفسه. وقيل: معناه: أنّه عمل عمل

من هو مستغن عن الله، وعن رحمته ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي: بالجنّة والثواب، وبالوعد والخلف ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعسرىٰ﴾ هو على مزاوجة الكلام، والمراد به التمكين أي: نخلّي بينه وبين الأعمال الموجبة للعذاب والعقوبة.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ أي: سقط في النار، ـ عن قتادة وأبي صالح ـ. وقيل: إذا مات وهلك، ـ عن مجاهد ـ. وقيل للحسن: إنّ فلاناً جمع مالاً. فقال: هل جمع لذلك عمراً؟ قالوا: لا. قال: فما تصنع الموتىٰ بالأموال.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ معناه: إنّ علينا لبيان الهدى بالدلالة عليه. فأمّا الإهتداء فإليكم. أخبر سبحانه أنّ الهدى واجب عليه، ولو جاز الإضلال عليه لما وجب الهداية. قال قتادة: معناه: إنّ علينا بيان الطاعة والمعصية[1].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ﴾ وإن لنا ملك الآخرة، وملك الأُولىٰ. فلا يزيد في ملكنا اهتداء من اهتدى، ولا ينقص منه عصيان من عصى، ولو نشاء لمنعناهم عن ذلك قسراً وجبراً، ولكن التكليف اقتضى أن نمنعهم بياناً وأمراً وزجراً.

ثمّ خوّف سبحانه العادل عن الهدى، فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ﴾ أي: خوّفتكم ناراً تتلهّب، وتتوهّج وتتوقّد ﴿لاَ يَصْلاَهَا﴾ أي: لا يدخل تلك النار، ولا يلزمها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ وهو الكافر بالله ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بآيات الله ورسله

---

(١) يعلم من هذه الآيات أنّ الفلاح بالعمل الصالح، وضدّه بضدّه، لا بالعلم بحقائق الكائنات أو الجهل بها، فالعالم بالرياضيّ والطبيعيّ، والفلسفة المتعلّقة بأمور الدنيا، ليس ناجياً في الآخرة، ولا يفيده علمه شيئا، وكذلك الجاهل بأمثالها لا يتضرّر بجهله، ولكن جماعة من الحكماء تصدّوا للجمع بين آراء أرسطو وأصول عقائد الإسلام، ومذهب أرسطو أنّ سعادة كلّ موجود بوصوله إلى غايته التى خلق لها، وأنّ كمال الإنسان بالعلم بحقائق الموجودات، والتوسّط في الأخلاق، ويلزمه أنّ الجاهل الصالح في العذاب كالعالم الطالح. ولا يخفى أنّ هذا لا يوافق أصول الإسلام، إلّا أن يخصّصوا العلم النافع في الآخرة بما يتعلّق بالعمل لها، ونعلم أنّ أبا ذر، أسعد من الخيام بمقتضى الشرع، ولم يكن يعلم ما كان يعلمه الخيام.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن الإيمان ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: سيجنّب النار، يجعل منها على جانب ﴿ٱلأَتْقَىٰ﴾ المبالغ في التقوى ﴿ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ أي: ينفقه في سبيل الله ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يطلب أن يكون عندالله زكيّاً، لا يطلب بذلك رياء، ولا سمعة.

قال القاضي: قوله: ﴿لاَ يَصْلاَهَا إِلَّا ٱلأَشْقَى ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لا يدلّ على أنّه تعالى لا يدخل النار إلّا الكافر على ما يقوله الخوارج، وبعض المرجئة، وذلك لأنّه نكر النار المذكورة، ولم يعرفها. فالمراد بذلك أنّ ناراً من جملة النيران، لا يصلاها إلاَّ مّن هذه حاله. والنيران دركات على ما بيّنه سبحانه في سورة النساء في شأن المنافقين، فمن أين عرف أنّ غير هذه النار لا يصلاها قوم آخرون.

وبعد فإنّ الظاهر من الآية، يوجب أن لا يدخل النار إلاَّ من كذّب وتولّى، وجمع بين الأمرين، فلا بدَّ للقوم من القول بخلافه؛ لأنّهم يوجبون النار، لمن يتولّى عن كثير من الواجبات، وإن لم يكذب. وقيل: إنّ الأتقى والأشقى المراد بهما: التقيّ والشقيّ، كما قال طرفة:

تَمَنّىٰ رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيها بِأَوْحَدِ

أراد: بواحد.

ثمّ وصف سبحانه الأتقىٰ، فقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ولم يفعل الأتقى ما فعله من إيتاء المال، وإنفاقه في سبيل الله، ليد أُسديت إليه يكافيء عليها، ولا ليد يتخذّها عند أحد من الخلق. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلأَعْلَىٰ﴾ أي: ولكنّه فعل ما فعل، يبتغي به وجه الله ورضاه وثوابه. وإنّما ذكر الوجه طلباً لشرف الذكر. والمعنىٰ: إلاَّ الله، ولابتغاء ثواب الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: ولسوف يعطيه الله من الجزاء والثواب، ما يرضى به، فإنّه يعطيه كل ما تمنّى، ولم يخطر بباله، فيرضى به لا محالة.

سورة الضحى

مكّيّة، إحدىٰ عشرة آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأها كان ممّن يرضاه الله، ولمحمّد ﷺ أن يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كل يتيم وسائل».

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بأنّ الأتقىٰ يعطيه من الثواب ما به يرضىٰ، وافتتح هذه السورة بأنّه يرضي نبيّه، بما يؤتيه يوم القيامة، من الكرامة والزلفى فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا

فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ (١)

القراءة: في الشواذّ، عن النبيّ ﷺ، وعروة بن الزبير: ﴿مَا وَدَعَكَ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والقراءة المشهورة: بالتشديد. وعن أشهب العقيلي: ﴿فَآوَىٰ﴾ ـ بغير مدّ ـ. وعن ابن السميفع: ﴿عَيِّلاً﴾ ـ بالتشديد ـ. وعن النخعي والشعبي: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ ـ بالكاف ـ. وكذلك هو في مصحف عبدالله.

الحجة: قال ابن جنّي: وَدَعَ ـ بالتخفيف ـ يقلّ استعماله. وقال سيبويه: استغنوا عن «وذر» و«ودع» بقولهم: ترك، وأنشد أبو عليّ في ذلك شعر أبي الأسود:

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي ... غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهُ

وأمّا قوله: ﴿فَآوَىٰ﴾ فإنّه من أويته أي: رحمته. وأمّا «عَيِّلاً» فإنّه فيعل، من العيلة، وهي الفقر، وهو مثل العائل، ومعناهما: ذو العيلة من غير جدة، يُقال: عال الرجل يعيل عيلة إذا كثر عياله: وافتقر. قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَىٰ غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَىٰ يَعِيلُ

أي: متى يفتقر. وأمّا «الكهر» فهو مثل: القهر. والعرب قد تعاقب بين القاف والكاف. وفي حديث معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصّلاة قال: ما كهرني، ولا ضربني.

اللغة: السجو: السكون. يُقال: سجى يسجو: إذا هدىء وسكن. وطرف

---

(١) أمال فواصلها الثمانية حمزة والكسائي وخلف إلّا «سجى»، فأمالها الكسائي وحده، ويوقف لحمزة على «الآخرة» بالنقل أو السكت وجهان جائزان. واتّفقوا على كتابة «والضحى وسجى» بالياء، وهما واويان.

ساج، وبحر ساج. قال الأعشىٰ:

فَمَا ذَنْبُنا إذْ جَاشَ [جَاشَ] بَحْرُ ابْنِ عَمِّكُمْ
وَبَحْرُكَ سَاجٍ لاَ يُوَارِي الدَّعَامِصَا[١]

وقال الآخر:

يَا حَبَّذَا الْقَمْرَاءُ، وَاللَّيْلُ السَّاجْ وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلاَءِ النَّسَّاجْ[٢]

والقلى: البغض، إذا كسرت القاف قصرت، وإذا فتحت مددت. قال:

عَلَيْكَ سَلامٌ لاَ مُلِلْتِ قَرِيبَةً وَمَالَكِ عِنْدِي إِنْ نَأَيْتِ قَلاَءُ[١]

ونهره وانتهره بمعنى، وهو أن يصيح في وجه السائل الطالب للرفد.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما قلاك، وكذلك قوله: ﴿فَآوَىٰ﴾ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ تقديره: فآواك فأغناك، فالمفعول في هذه الآي محذوف. وقال ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾، ولم يقل: ويعطينك، وإن كان جواب القسم لأنّ النون إنّما تدخل لتؤذن بأن اللام لام القسم، لا لام الإبتداء. وقد حصل هيهنا العلم بأن هذه اللام للقسم، لا للإبتداء؛ لدخوله على «سوف»، ولام الإبتداء لا تدخل على «سوف»، لأنّ سوف تختصّ بالأفعال، ولام الإبتداء إنّما تدخل على الأسماء.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ تقديره: فمهما يكن من شيء، فلا تقهر اليتيم. ثمّ أُقيم ﴿أمّا﴾ مقام الشرط، فحصل أمّا فلا تقهر اليتيم، ثمّ قدّم المفعول على الفاء؛ كراهة لأن تكون الفاء التي من شأنها أن تكون متبعة شيئاً فشيئاً في أوّل الكلام، وإنْ كثر تجتمع في اللفظ مع «أمّا»، فتكون على خلاف أُصول كلامهم، وكذلك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

---

(١) الدعموص: دويّبة تغوص في الماء.

(٢) الملاء: الربطة [الردطة] والجلباب، يصف السفر في الليلة المقمرة.

[١] قائله: نصيب. قليته قلىً: أبغضه وكرهته غاية الكراهة فتركته.

النزول: قال ابن عباس: احتبس الوحي عنه ﷺ خمسة عشر يوماً، فقال المشركون: إنّ محمّداً قد ودعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالىٰ لتتابع عليه. فنزلت السورة. وقيل: إنّما احتبس الوحي اثني عشر يوماً، ـ عن ابن جريج ـ. وقيل: أربعين يوماً، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: إنّ المسلمين قالوا: ما ينزل عليك الوحي يا رسول الله؟ فقال: وكيف ينزل عليَّ الوحي وأنتم لا تنقون براجمكم[١]، ولا تقلمون أظفاركم؟ ولمّا نزلت السورة قال النبيّ ﷺ لجبرائيل عليه السلام: ما جئت حتى اشتقت إليك! فقال جبرائيل عليه السلام: وأنا كنت أشدُّ إليك شوقاً، ولكنّي عبد مأمور، وما نتنزّل إلّا بأمر ربّك. وقيل: سألت اليهود رسول الله ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، وعن الروح فقال: سأُخبركم غداً. ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس عنه الوحي هذه الأيّام، فاغتمَّ لشماتة الأعداء، فنزلت السورة؛ تسلية لقلبه. وقيل: إنّ النبيّ ﷺ رمي بحجر في إصبعه، فقال: «هل أنت إلاَّ إصبع رميت، وفي سبيل الله ما لقيت» فمكث ليلتين، أو ثلاثاً لا يوحى إليه. فقالت له أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب: يا محمّد! ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين، أو ثلاث! فنزلت السورة.

المعنى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أقسم سبحانه بنور النهار كله من قولهم: ضحى فلان للشمس: إذا ظهر لها. ويدلّ عليه قوله في مقابلته: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن واستقرّ ظلامه. وقيل: إنّ المراد بالضحى: أوّل ساعة من النهار. وقيل: صدر النهار، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس، واعتدال النهار في الحرّ والبرد في الشتاء والصيف. وقيل: معناه: وربّ الضحى، وربّ الليل إذا سجى، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إذا سجى أي: غطى بالظلمة كل شيء، ـ عن عطاء والضحّاك ـ.

---

[١] البراجم: العقد التي تكون في ظهور الأصابع، يجتمع فيها الوسخ.

وقيل: إذا أقبل ظلامه، ـ عن الحسن ـ.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ هذا جواب القسم، ومعناه: ما تركك يا محمّد ربّك، وما قطع عنك الوحي توديعاً لك، وما قلاك أي: ما أبغضك منذ اصطفاك.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ يعني: إنّ ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها، خير لك من الدنيا الفانية، والكون فيها. وقيل: إنّ له ﷺ في الجنّة ألف ألف قصر من اللؤلؤ، ترابه من المسك، وفي كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، وما يشتهي على أتمّ الوصف، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: ولآخر عمرك الذي بقي، خير لك من أوّله؛ لما يكون فيه من الفتوح والنصرة.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ معناه: وسيعطيك ربّك في الآخرة من الشفاعة والحوض، وسائر أنواع الكرامة فيك، وفي أُمّتك، ما ترضى به. وروى حرب [حارث] بن شريح، عن محمّد بن عليّ بن الحنفية أنّه قال: يا أهل العراق! تزعمون أنّ أرجى آية في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، وإنّا أهل البيت عليهم السلام نقول: أرجى آية في كتاب الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهي والله الشفاعة، ليعطينها في أهل لا إله إلاّ الله، حتى يقول: ربّ رضيت. وعن الصّادق عليه السلام قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة عليها السلام، وعليها كساء من ثلة الإبل، وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ لما أبصرها، فقال: يا بنتاه! تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقد أنزل الله عليّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾. وقال زيد بن عليّ: إنّ من رضا رسول الله ﷺ أن يدخل أهل بيته الجنّة. وقال الصادق عليه السلام: رضا جدّي أن لا يبقى في النار موحّد.

ثمّ عدّد سبحانه عليه نعمه في دار الدنيا، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: إنّه تقرير لنعمة الله عليه حين مات أبوه، وبقي يتيماً فآواه الله بأن سخَّر له أولاً عبد المطلب، ثمّ لمّا مات عبد المطلب، قيَّض له[١] أبا طالب، وسخَّره للإشفاق عليه، وحبَّبه إليه حتى كان أحبّ إليه من أولاده، فكفَّله وربّاه. واليتيم من لا أب له، وكان النبيّ ﷺ مات أبوه، [وهو في بطن أُمّه. وقيل: إنّه مات بعد ولادته بمدة قليلة، وماتت أُمّه ﷺ] وهو ابن سنتين، ومات جدّه وهو ابن ثماني سنين، فسلّمه إلى أبي طالب عليه السلام؛ لأنّه كان أخا عبدالله لأمّه، فأحسن تربيته. وسئل الصَّادق عليه السلام: لمَ أُوتِمَ النبيّ ﷺ عن أبويه، فقال: لئلّا يكون لمخلوق عليه حقّ.

والآخر: أن يكون المعنى: ألم يجدك واحداً لا مثل لك في شرفك وفضلك، فآواك إلى نفسه، واختصّك برسالته من قولهم: درّة يتيمة إذا لم يكن لها مثل. قال:

لاَ، وَلاَ دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ بَحْرٍ ... تَتَلأْلأُ فِي جُؤْنَةِ الْبَيَّاعِ[٢]

وقيل: فَآواك أي: جعلك مأوى للأيتام بعد أن كنت يتيماً، وكفيلاً للأنام بعد أن كنت مكفولاً، ـ عن الماوردي ـ.

ثمّ ذكر نعمة أُخرى، فقال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَىٰ﴾ قيل في معناه أقوال: أحدها: وجدك ضالّاً عمّا أنت عليه الآن من النبوّة والشريعة أي: كنت غافلاً عنهما، فهداك إليهما، ـ عن الحسن والضحاك والجبائي ـ. ونظيره: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلاَ ٱلْإِيمَانُ﴾ وقوله: ﴿وَإِن كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾. فمعنى الضلال على هذا هو الذهاب عن العلم، مثل قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

وثانيها: إنّ المعنى: وجدك متحيّراً لا تعرف وجوه معاشك، فهداك إلى وجوه معاشك، فإنّ الرجل إذا لم يهتد طريق مكسبه، ووجه معيشته، يُقال: إنّه

---

[١] قيض الله فلاناً لفلان: جاءه به وأتاحه له.

[٢] الجؤبة: سلة مستديرة مغشاة أدماً يجعل فيها الطيب والثياب.

ضالّ لا يدري إلى أين يذهب، ومن أيّ وجه يكتسب، ـ عن أبي مسلم ـ. وفي الحديث: «نصرت بالرعب، وجعل رزقي في ظلّ رمحي» يعني الجهاد.

وثالثها: إنّ المعنى: وجدك لا تعرف الحقّ، فهداك إليه بإتمام العقل، ونصب الأدلّة، والإلطاف حتى عرفت الله بصفاته بين قوم ضلال مشركين، وذلك من نعم الله سبحانه عليك رابعها: وجدك ضالّاً في شعاب مكّة، فهداك إلى جدّك عبدالمطلب، فروي أنّه ﷺ ضلّ في شعاب مكّة، وهو صغير، فرآه أبو جهل، وردَّه إلى جدّه عبد المطلب، فمنّ الله سبحانه بذلك عليه؛ إذ ردّه إلى جدّه على يدي عدوّه، ـ عن ابن عباس ـ.

وخامسها: ما روي أنّ حليمة بنت أبي ذؤيب، لمّا أرضعته مدّة، وقضت حقّ الرضاع، ثمّ أرادت ردّه على جدّه، جاءت به حتى قربت من مكّة، فضلَّ في الطريق، فطلبته جزعة، وكانت تقول: إن لم أره لأرمين نفسي من شاهق، وجعلت تصيح: وامحمّداه! قالت: فدخلت مكّة على تلك الحال، فرأيت شيخاً متوكئاً على عصا، فسألني عن حالي، فأخبرته فقال: لا تبكين، فأنا أدلّك على من يردّه عليك. فأشار إلى هبل صنمهم الأكبر، ودخل البيت فطاف بهبل، وقبَّل رأسه، وقال: يا سيّداه لم تزل منتك جسيمة، ردَّ محمّداً على هذه السعديّة، قال: فتساقطت الأصنام لما تفوّه باسم محمّد ﷺ، وسمع صوت: إنّ هلاكنا على يدي محمّد. فخرج وأسنانه تصطك، وخرجت إلى عبد المطلب، وأخبرته بالحال. فخرج فطاف بالبيت، ودعا الله سبحانه، فنودي وأُشعر بمكانه. فأقبل عبد المطلب، وتلقاه ورقة بن نوفل في الطريق، فبينما هما يسيران إذ النبيّ ﷺ قائم تحت شجرة، يجذب الأغصان، ويلعب بالورق. فقال عبد المطلب: فداك نفسي وحمله وردّه إلى مكّة ـ عن كعب ـ.

وسادسها: ما روي أنّه ﷺ خرج مع عمّه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام

خديجة، فبينما هو راكب ذات ليلة ظلماء، جاء إبليس فأخذ بزمام ناقته، فعدل به عن الطريق، فجاء جبرائيل عليه السلام فنفخ بإبليس نفخة، رفع [وقع] بها إلى الحبشة، وردَّه إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ.

وسابعها: إنّ المعنى: وجدك مضلولاً عنك في قوم لا يعرفون حقّك، فهداهم إلى معرفتك، وأرشدهم إلى فضلك، والإعتراف بصدقك، والمراد: إنّك كنت خاملاً لا تذكر، ولا تعرف، فعرفك الله الناس حتى عرفوك وعظموك.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً﴾ أي: فقيراً لا مال لك ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: فأغناك بمال خديجة، والغنائم. وقيل: فأغناك بالقناعة، والرضا بما أعطاك، ـ عن مقاتل ـ. واختاره الفرّاء، قال: لم يكن غنيّاً عن كثرة المال، لكن الله سبحانه أرضاه بما آتاه من الرزق، وذلك حقيقة الغنى. وروى العيّاشي بإسناده، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ قال: فرداً لا مثل لك في المخلوقين، فآوىٰ الناس إليك، ووجدك ضالّاً أي: ضالّة في قوم لا يعرفون فضلك، فهداهم إليك، ووجدك عائلاً تعول أقواماً بالعلم، فأغناهم بك. وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنَّ عليَّ ربّي، وهو أهل المنّ». وقد طعن بعض الملحدين فقال: كيف يحسن الإمتنان بالإنعام، وهل يكون هذا من فعل الكرام؟ والجواب: إنّ المنّ إنّما يقبح من المنعم إذا أراد به الغضّ من المنعم عليه والأذىٰ له. فأمّا من أراد التذكير لشكر نعمته، والترغيب فيه؛ ليستحقّ الشاكر المزيد، فإنّه في غاية الحسن؛ ولأنّ من كمال الجواد وتمام الكرم، تعريف المنعم عليه، أنّه إنّما أنعم عليه ليسأل جميع ما يحتاج إليه، فيعطى [ليعطى].

ثمّ أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء، فقال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: فلا تقهره على ماله، فتذهب بحقّه لضعفه، كما كانت تفعل العرب في أمر اليتامى، ـ عن الفرّاء والزجّاج ـ. وقيل: معناه: لا تحتقر اليتيم، فقد كنت يتيماً، ـ عن مجاهد ـ.

وكان النبيّ ﷺ يحسن إلى اليتامى ويبرّهم ويوصي بهم.

وجاء في الحديث عن أبي أوفى قال: كنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فأتاه غلام فقال: غلام يتيم، وأُخت لي يتيمة، وأُمّ لي أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك الله، أعطاك الله ممّا عنده حتى ترضى. قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، إذهب يا بلال فائتنا بما كان عندنا. فجاء بواحدة وعشرين تمرة فقال: سبع لك، وسبع لأُختك، وسبع لأُمّك. فقام إليه معاذ بن جبل، فمسح رأسه وقال: جبر الله يُتْمك، وجعلك خلفاً من أبيك، وكان من أبناء المهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: «رأيتك يا معاذ وما صنعت. قال: رحمته. قال: لا يلي أحد منكم يتيماً، فيحسن ولايته، ووضع يده على رأسه، إلّا كتب الله له بكل شعرة حسنة، ومحا عنه بكل شعرة سيّئة، ورفع له بكل شعرة درجة».

وعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من مسح على رأس يتيم، كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة». وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة إذا اتّقى الله عزّ وجلّ» ـ وأشار بالسبّابة والوسطى ـ.

وعن عمر به الخطاب عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ اليتيم إذا بكى اهتزّ لبكائه عرش الرحمٰن، فيقول الله لملائكته: يا ملائكتي! من أبكى هذا اليتيم الذي غيب أبوه في التراب؟ فتقول الملائكة: أنت أعلم. فيقول الله تعالى: يا ملائكتي! فإنّي أُشهدكم أنّ لَمَن أسكَتَه وأَرضاه أنْ أُرضيه يوم القيامة». وكان عمر إذا رأى يتيماً مسح رأسه، وأعطاه شيئاً.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا تنهر السائل، ولا تردَّه إذا أتاك يسألك، فقد كنت فقيراً، فإمّا أن تطعمه، وإما أن تردّه ردّاً ليّناً. وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاك سائل على فرس، باسط كفّيه، فقد وجب له الحقّ، ولو بشقّ تمرة». قال أبو مسلم: يريد كما أعطاك الله ورحمك، وأنت عائل،

فاعط سائلك وارحمه. وقال الجبائي: المراد بها جميع المكلّفين، وإن كان الخطاب للنبيّ ﷺ. وقيل: إنّ المراد بالسائل: طالب العلم، وهو متّصل بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَىٰ﴾ ـ عن الحسن ـ، والمعنى: علّم من يسألك، كما علّمك الله الشرائع، وكنت بها غير عالم.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ معناه: اذكر نعمة الله وأظهرها، وحدّث بها. وفي الحديث: «من لم يشكر الناس، لم يشكر الله، ومن لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، والتحدّث بنعمة الله شكر، وتركه كفر». وقيل: يريد بالنعمة: القرآن، عن الكلبي قال: وكان القرآن أعظم ما أنعم الله عليه به، فأمره أن يقرأه. وقيل: بالنبوّة التي أعطاك ربّك، ـ عن مجاهد ـ، واختاره الزجّاج قال: أي: بلّغ ما أُرسلت به، وحدّث بالنبوّة التي آتاكها الله، وهي أجلّ النعم. وقيل: معناه: اشكر لما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة. قال الصادق عليه السلام معناه: فحدّث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك، وأحسن إليك وهداك.

النظم: وجه اتّصال قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ بما قبله: أنّ في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ إثباتاً لمحبّته سبحانه إيّاه، وإنعامه عليه، فاتّصل هذا أيضاً به. والتقدير: ليس الأمر كما قالوه، بل الوحي يأتيك ما عمرت، وتدوم محبّتي لك، وما أعطيتك في الآخرة من الشرف، ورفعة المنزلة، خير ممّا أعطيتك اليوم، فإذا حسدوك على ذا، فكيف بهم إذا رأوا ذلك.

وأمّا اتّصال قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ بما قبله، فوجهه أنّه اتّصال ذكر النعم بذكر المنعم، والتقدير: إنّه سبحانه سينعم عليك في مستقبل أمرك، كما أنعم عليك في الماضي من أمرك.

سُورَةُ الشَّرح

مكّيّة، وهي ثماني آيات بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عنه ﷺ قال: «من قرأها أُعطي من الأجر كمن لقي محمّداً ﷺ مغتمّاً ففرَّج عنه». وروى أصحابنا أنّ الضحى، وألم نشرح، سورة واحدة؛ لتعلّق إحداهما بالأُخرى، ولم يفصلوا بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، وجمعوا بينهما في الركعة الواحدة في الفريضة، وكذلك القول في سورة ألم تر كيف والإيلاف قريش. والسياق يدلّ على ذلك؛ لأنّه قال ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ إلى آخرها. ثمّ قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ

مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

اللغة: الشرح: فتح الشيء بإذهاب ما يصدّ عن إدراكه. وأصل الشرح: التوسعة، ويعبّر عن السرور بسعة القلب وشرحه، وعن الهمّ بضيق القلب؛ لأنّه يورث ذلك. والوزر: الثقل في اللغة، ومنه اشتقّ اسم الوزير؛ لتحمّله أثقال الملك، وإنّما سمّيت الذنوب أوزاراً؛ لما يستحقّ عليها من العقاب العظيم. والأَنقاض: الأثقال التي كان ينتقض بها ما حمل عليه. والنقض والهدم واحد. ونقْض المذهب: إبطاله بما يفسده. وبعير نقض سفر: إذا أثقله السفر. والنصب: التعب. وأنصبه الهمّ فهو منصب. قال الشاعر: «تَعَنَّاكَ هَمٌّ مِنْ أُمَيْمَة منصب»، وهمٌّ ناصب ذو نصب. قال النابغة: «كِلينِي لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِب»[١].

المعنى: ثمّ أتمّ سبحانه تعداد نعمه على نبيّه ﷺ، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ روى سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد سألت ربّي مسألة وددت أنّي لم أسأله. قلت: أي: ربّ! إنّه قد كان أنبياء قبلي، منهم من سخرت له الريح، ومنهم من كان يحيي الموتى. قال فقال: «ألم أجدك يتيماً فآويتك» قال: قلت بلى. قال: ألم أجدك ضالّاً فهديتك قال: «قلت بلى، أي: ربّ». قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قال: قلت بلى أي: ربّ.

والمعنى: ألم نفتح لك صدرك، ونوسع قلبك بالنبوّة والعلم، حتى قمت بأداء الرسالة، وصبرت على المكاره، واحتمال الأذى، واطمأننت إلى الإيمان، فلم تضق به ذرعاً، ومنه تشريح اللحم؛ لأنّه فتحه بترقيقه، فشرح سبحانه صدره بأن ملأه علماً وحكمة، ورزقه حفظ القرآن، وشرائع الإسلام، ومنّ عليه بالصبر

---

[١] وعجزه: (وليل اقاسيه بطيء الكواكب) والشعر في جامع الشواهد.

والإحتمال. وقيل: إنّه ﷺ كان قد ضاق صدره بمعاداة الجنّ والإنس إيّاه، ومناصبتهم له، فآتاه من الآيات ما اتّسع به صدره، بكل ما حمله الله إيّاه، وأمره به، وذلك من أعظم النعم، ـ عن البلخي ـ. وقيل: معناه: ألم نشرح صدرك بإذهاب الشواغل التي تصدّ عن إدراك الحقّ.

وعن ابن عباس قال: سئل النبيّ ﷺ فقيل: يا رسول الله أينشرح الصدر؟ قال: نعم. قالوا: يا رسول الله! وهل لذلك علامة يعرف بها؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت قبل نزول الموت. ومعنى الإستفهام في الآية التقرير أي: قد فعلنا ذلك، ويدلُّ عليه قوله في العطف عليه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: وحططنا عنك وزرك.

﴿ٱلَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقله حتى سمع له نقيض أي: صوت، عن الزجّاج قال: وهذا مثل معناه: أنّه لو كان حملاً لسمع نقيض ظهره. وقيل: إنّ المراد به تخفيف أعباء النبوّة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، سهّل الله ذلك عليه، حتى تيسّر له، ومنَّ عليه بذلك، ـ عن أبي عبيدة، وعبد العزيز بن يحيى ـ. وقيل: معناه: وأزلنا عنك همومك التي أثقلتك من أذى الكفّار، فشبّه الهموم بالحمل، والعرب تجعل الهمّ ثقلاً، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: وعصمناك عن احتمال الوزر، فإنّ المقصود من الوضع أن لا يكون عليه ثقل، فإذا عصم كان أبلغ في أن لا يكون. قال المرتضى، قدّس الله روحه: إنّما سمّيت الذنوب بأنّها أوزار؛ لأنّها تثقل كاسبها وحاملها، فكلُّ شيء أثقل الإنسان وغمّه وكدّه، جاز أن يسمّى وزراً، فلا يمتنع أن يكون الوزر في الآية إنّما أراد به غمّه ﷺ بما كان عليه قومه من الشرك، وأنّه وأصحابه بينهم مقهور مستضعف. فلمّا أعلى الله كلمته، وشرح صدره، وبسط يده، خاطبه بهذا الخطاب، تذكيراً له بمواقع النعمة، ليقابله بالشكر. ويؤيّده ما بعده من الآيات، فإنّ اليسر [بإزالة الهموم أشبه، والعسر] بإزالة الشدائد والغموم أشبه. فإن

قيل: إن السورة مكّيّة، نزلت قبل أن يعلي الله كلمة الإسلام، فلا وجه لقولكم؟ قلنا: إنّه سبحانه لمّا بشّره بأن يعلي دينه على الدين كله، ويظهره على أعدائه، كان بذلك واضعاً عنه ثقل غمّه، بما كان يلحقه من أذى قومه، ومبدلاً عسره يسراً، فإنّه يثق بأنّ وعد الله حقّ. ويجوز أيضاً أن يكون اللفظ، وإن كان ماضياً، فالمراد به الإستقبال، كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ولهذا نظائر كثيرة.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: قرنّا ذكرك بذكرنا، حتى لا أُذكر إلّا وتذكر معي يعني: في الأذان والإقامة، والتشهّد والخطبة على المنابر، ـ عن الحسن وغيره ـ. قال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهّد، ولا صاحب صلاة، إلّا وينادي بأشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ ﷺ في هذه الآية قال: «قال لي جبرائيل: قال الله عزّ وجلّ: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي» وفي هذا يقول حسان بن ثابت، يمدح النبيّ ﷺ:

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُورٌ يَلُوحُ، وَيَشْهَدُ[1]

وَضَمَّ الإِلَهُ اسْمَ النَّبِي إِلَى اسْمِهِ ... إِذا قالَ فِي الخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ: أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُوا الْعَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهٰذا مُحَمَّدٌ

---

(١) بيت حسان يدلّ على أنّ خاتم النبوّة على الرسول ﷺ كان شيئاً يدلّ بذاته على النبوّة، وليس على ما يظنّ بعض الناس أنّه كان سلعة، وعيها [عليها] شعرات إذا لسلعة ليست أمراً خارقا للعادة، حتى يقال يلوح ويشهد، وسمعت بعضهم يقول هذا كناية عن النور والوقار وسيماء النبوّة عليه، فإنّ الرجل الإلهي عليه سيماء يعرف به، وهو خلاف الظاهر: فإنّ ذكر خاتم النبوّة وارد في غير هذا الشعر كثيراً، حتى ذكر في تاريخ الحكماء للقفطي، أنّ الطبيب أراد قطع خاتم النبوّة: ظنّا منه أنّه سلعة، وذكرنا في كتابنا «راه سعادت» في النبوّة شيئاً في ذلك، وأنّ الأنبياء بشروا بنبيّ تكون هذه العلامة على منكبه، وبذلك عرفه بحيرا الراهب.

ثمّ وعد سبحانه اليسر والرخاء بعد الشدّة، وذلك أنّه كان بمكّة في شدّة قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ أي: مع الفقر سعة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: معناه: إنّ مع الشدّة التي أنت فيها من مزاولة المشركين يسراً ورخاء بأن يظهرك الله عليهم، حتى ينقادوا للحقّ الذي جئتهم به، طوعاً أو كرهاً، ثمّ كرّر ذلك، فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ روى عطاء ـ عن ابن عباس قال: يقول الله تعالى: «خلقت عسراً واحداً، وخلقت يسرين، فلن يغلب عسر يسرين». وعن الحسن قال: خرج النبيّ ﷺ يوماً مسروراً فرحاً، وهو يضحك، ويقول: «لن يغلب عسر يسرين»: «فإن مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسراً». قال الفرّاء: إنّ العرب تقول: إذا ذكرت نكرة، ثمّ أعدتها نكرة مثلها، صارتا اثنتين، كقولك إذا كسبت درهماً فأنفق درهماً، فالثاني غير الأوّل، فإذا أعدتها معرفة فهي هي كقولك: إذا كسبت الدرهم فأنفق الدرهم، فالثاني هو الأوّل، ونحو هذا ما قال الزجّاج: إنّه ذكر العسر مع الألف واللام، ثمّ ثنى ذكره، فصار المعنى: إنّ مع العسر يسرين.

وقال صاحب كتاب النظم في تفسير هذه الآية إنّ الله بعث نبيّه، وهو مقل مخف، وكانت قريش تعيّره بذلك حتى قالوا له: إن كان بك من هذا القول الذي تدعيه طلب الغنى، جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكّة. فكره النبيّ ﷺ ذلك، وظنّ أنّ قومه إنّما يكذّبونه لفقره، فوعده الله سبحانه الغنى ليسليه بذلك عمّا خامره من الهمّ، فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ وتأويله: لا يحزنك ما يقولون، وما أنت فيه من الإقلال، فإنّ مع العسر يسراً في الدنيا عاجلاً. ثمّ أنجز ما وعده، فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز، وما والاها من القرى العربية، وعامة بلاد اليمن. فكان يعطي المائتين من الإبل، ويهب الهبات السنيّة، ويعد لأهله قوت سنته. ثمّ ابتدأ فصلاً آخر، فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ والدليل على ابتدائه تعرّيه من فاء وواو، وهو وعد لجميع المؤمنين؛ لأنّه يعني بذلك أنّ مع العسر في الدنيا للمؤمن

يسراً في الآخرة، وربما اجتمع له اليسران: يسر الدنيا، وهو ما ذكر في الآية الأُولى، ويسر الآخرة، وهو ما ذكر في الآية الثانية. فقوله ﷺ: لن يغلب عسر يسرين أي: يسر الدنيا والآخرة. فالعسر بين يسرين إمّا فرج الدنيا، وإمّا ثواب الآخرة. وهذا الذي ذكره الجرجاني، يؤيّد ما ذهب إليه المرتضى، قدّس الله روحه، من أنّ القائل إذا قال شيئاً، ثمّ كرّره، فإنّ الظاهر من تغاير الكلامين، تغاير مقتضاهما، حتى يكون كل واحد منهما مفيداً لما لا يفيده الآخر، فيجب مع الإطلاق حمل الثاني على غير مقتضى الأوّل، إلّا إذا كان بين المتخاطبين عهد أو دلالة يعلم المخاطب بذلك، أنّ المخاطب أراد بكلامه الثاني الأوّل، فيحمله على ذلك. وأنشد أبوبكر الأنباري:

إِذا بَلَغَ الْعُسْرُ مَجْهُودَهُ ... فَثِقْ عِنْدَ ذاكَ بِيُسْر سَرِيعِ

أَلَمْ تَرَ نَحْسَ الشِّتاءِ الفَظِيـ ... ـعِ، يَتْلُوهُ سَعْدُ الرَّبِيعِ الْبَدِيعِ

وأنشد إسحاق بن بهلول القاضي:

فَلا تَيْأَسْ، وَإِنْ أَعْسَرْتَ يَوْماً ... فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي دَهْرٍ طَوِيلِ

وَلا تَظُنَّنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلىٰ بِالْجَمِيلِ

فَإِنَّ الْعُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسارٌ ... وَقَوْلُ اللهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلِ

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ معناه: فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصب إلى ربّك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يعطك، ـ عن مجاهد وقتادة والضحّاك ومقاتل والكلبي، وهو المرويّ عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام ـ. ومعنى «إنصب»: من النصب وهو التعب أي: لا تشتغل بالراحة. وقال الزهري: إذا فرغت من الفرائض، فادع بعد التشهّد بكل حاجتك. وقال الصادق عليه السلام: هو الدعاء في دبر الصلاة، وأنت جالس. وقيل: معناه: فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: معناه: فإذا فرغت من

دنياك فانصب في عبادة ربّك وصلِّ، ـ عن مجاهد والجبائي ـ. وقيل: فإذا فرغت من الفرائض فانصب فيما رغبك الله فيه من الأعمال، وصلّ ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إذا فرغت من جهاد أعدائك، فانصب بالعبادة لله، ـ عن الحسن وابن زيد ـ. وقيل: فإذا فرغت من جهاد الأعداء، فانصب بجهاد نفسك. وقيل: إذا فرغت من أداء الرسالة، فانصب لطلب الشفاعة. وسئل عليّ بن طلحة عن هذه الآية فـقال: القول فيه كثير، وقد سمعنا أنّه يقال: إذا صححت فاجعل صحّتك وفراغك نصباً في العبادة. ويدلّ على هذا ما روي أنّ شريحاً مرَّ برجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أُمر الفارغ، إنّما قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أي: فارفع حوائجك إلى ربّك، ولا ترفعها إلى أحد من خلقه. وقال عطاء: يريد تضرّع إليه راهباً من النار، وراغباً إلى الجنّة.

سورة التين

مكّيّة، المعدل عن ابن عباس: مدنيّة، ثمان آيات بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صيام يوم». وعن البراء بن عازب قال: سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في المغرب ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فما رأيت إنساناً أحسن قراءة منه. رواه [أبو] مسلم في الصحيح. وروى شعيب العقرقوفي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ ﴿وَٱلتِّينِ﴾ في فرائضه ونوافله، أُعطي من الجنّة حيث يرضى.

تفسيرها: أمر الله سبحانه بالرغبة إليه في خاتمة تلك السورة، وافتتح هذه السورة بذكر أنّه الخالق المستحقّ للعبادة، بعد أن أقسم عليه، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (١) ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

(اللغة): التقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل، يقال: قوّمه فاستقام وتقوّم.

(المعنى): ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم الله سبحانه بالتين الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر منه الزيت، ـ عن ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وعطاء ـ. وهو الظاهر. وإنّما أقسم بالتين؛ لأنّه فاكهة مخلصة من شائب التنغيص، وفيه أعظم عبرة؛ لأنّه عزّ اسمه جعلها على مقدار اللقمة، وهيّأها على تلك الصفة، إنعاماً على عباده بها. وقد روى أبوذرّ عن النبيّ ﷺ قال في التين: «لو قلت إنّ فاكهة نزلت من الجنّة، لقلت هذه هي؛ لأنّ فاكهة الجنّة بلا عجم فكلوها، فإنّها تقطع البواسير، وتنفع من النقرس». وأمّا الزيتون، فإنّه يعتصر منه

(١) الهمزة في «في أحسن» من المتوسّط بغيره المنفصل، ويقف حمزة على أربعة أوجه: التحقيق بلا سكت، أو بالسكت، ونقل حركة الهمز إلى الياء وقلب الهمزة ياء إمّا بإدغام الياء في الياء، أو بلا إدغام.

الزيت الذي يدور في أكثر الأطعمة، وهو أدام. والتين: طعام فيه منافع كثيرة. وقيل: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون: الجبل الذي عليه بيت المقدس، ـ عن قتادة ـ. وقال عكرمة: هما جبلان، وإنّما سمّيا بهما؛ لأنّهما ينبتان بهما. وقيل: التين مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس، ـ عن كعب الأحبار، وعبد الرحمن بن غنيم [غنم]، وابن زيد ـ. وقيل: التين مسجد نوح الذي بني على الجودي، والزيتون: بيت المقدس، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: التين المسجد الحرام، والزيتون: المسجد الأقصى، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني: الجبل الذي كلّم الله عليه موسى، ـ عن الحسن ـ. وسينين وسيناء، واحد. وقيل: إنّ «سينين» معناه: المبارك الحسن، وكأنّه قيل: جبل الخير الكثير؛ لأنّه إضافة تعريف، ـ عن مجاهد وقتادة ـ. وقيل: معناه: كثير النبات والشجر، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: كل جبل فيه شجر مثمر [وثمر]، فهو سينين، وسيناء بلغة النبط، ـ عن مقاتل ـ. قال عمرو بن ميمون: سمعت عمر بن الخطاب يقرأ بمكّة في المغرب: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ وَطُورِ سِيناء﴾ قال: فظننت أنّه إنّما قرأها ليعلم حرمة البلد، وروي ذلك عن موسى بن جعفر عليه السلام أيضاً.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يعني: مكّة البلد الحرام يأمن فيه الخائف في الجاهليّة والإسلام، فالأمين يعني: المؤمن يؤمن من يدخله. وقيل بمعنى الأمن[1]، ويؤيّده قوله: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾ قال الشاعر:

---

(١) ومنه: كلمة آمين ـ بالمد ـ ويقال: أمين ـ بالقصر ـ أيضاً أي: كذلك فليكن. وأصله عبرانيّ، أخذته العرب وساير الأقوام حتى الافرنج، وذكروه في لغاتهم، ومفاده بعد الخبر في لغة العرب ألبتّة وقطعا ويقينا، وإذا وقع بعد الدعاء كان حاصل مفاده تأكيد الداعي، وطلب الاستجابة. ونقل في الصحاح: تباعد عنّي فطحل ان سالته امين فزاد الله ما بيننا بعداً، والمعنى: تباعد عنّي ألبتّة، ولذلك قال أصحابنا تبطل الصلاة بكلمة «امين» بعد الحمد، وفي ←

أَلَمْ تَعْلَمي يا أَسْمَ[1]، وَيْحَكِ، أَنَّنِي حَلَفْتُ يَمِيناً أَخُونُ أَمِيني

يريد آمني.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا جواب القسم، وأراد جنس الإنسان، وهو آدم وذرّيّته، خلقهم الله في أحسن صورة، ـ عن إبراهيم ومجاهد وقتادة ـ. وقيل: في أحسن تقويم أي: منتصب القامة، وسائر الحيوان مكبّ على وجهه إلّا الإنسان، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أراد أنّه خلقهم على كمال في أنفسهم، واعتدال في جوارحهم، وأبانهم عن غيرهم بالنطق والتمييز والتدبير، إلى غير ذلك ممّا يختصّ به الإنسان. وفي ذلك إشارة أيضاً إلى حال الشباب.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يريد إلى الخرف، وأرذل العمر، والهرم، ونقصان العقل. والسافلون: هم الضعفاء والزمنى والأطفال، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً، ـ عن ابن عباس وإبراهيم وقتاة ـ. وقيل: معناه: ثمّ رددناه إلى النار، ـ عن الحسن ومجاهد وابن زيد والجبائي ـ. والمعنى: إلى أسفل الأسفلين [سافلين]؛ لأنّ جهنّم بعضها أسفل من بعض، وعلى هذا فالمراد به: الكفّار أي: خلقناهم في أحسن خلقة أحراراً عقلاء مكلّفين، فكفروا فرددناهم إلى النار في أقبح صورة.

ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بالله. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله، وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحة، فإنّ

← كل موضع، وعلى كل حال، سرّا أو جهراً، كما في الخلاف؛ لأنّه من كلام الآدميّين، ولم يقل أحد ببطلان الصلاة بكلمة «استجب» بعد الحمد؛ لأنّه خطاب الله ودعاء، كما أنّه لو قال: هنيأ مريئا للشارب، وبالرفاه والبنين للناكح بطل الصلاة، إذ ليس دعا إلّا ان يكون جزء من جملة يكون قوام دعائيّته بغيره نحو: أللهمّ ارزقني رزقا هنيئا، و«سلام عليكم» في التحيّة ليس دعاء أيضا، ولكنّه خرج بالنص.

(١) مرخّم «أسماء».

هؤلاء لا يردون إلى النار. ومن قال بالقول الأوّل قال: إنَّ المؤمن لا يرد إى الخرف، وإنْ عمر عمراً طويلاً. قال إبراهيم: إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز معه عن العمل، كتب له ما كان يعمل، وهو قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وقال عكرمة: من ردّ منهم إلى أرذل العمر، كتب له صالح ما كان يعمل في شبابه، وذلك أجر غير ممنون، وعن ابن عباس قال: ومن قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ قال: إلّا الذين قرأوا القرآن. وفي الحديث عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتب لوالديه، فإن عمل سيّئة لم تكتب عليه، ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث وجرى عليه القلم، أمر الله الملكين اللذين معه يحافظانه [يحفظانه] ويسدّدانه، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث، الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين خفّف الله حسابه، فإذا بلغ ستّين رزقه الإنابة إليه فيما يجب، فإذا بلغ سبعين أحبّه أهل السماء، فإذا بلغ ثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيّئاته، فإذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وشفعه في أهل بيته، وكان اسمه أسير الله في الأرض، فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، كتب الله له بمثل ما كان يعمل في صحّته من الخير، وإنْ عمل سيّئة لم تكتب عليه».

وأقول: لو صحّ الخبر، فإنّما لا تكتب عليه السيّئة لزوال عقله، ونقصان تمييزه في ذلك الوقت. وقوله: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير منقوص. وقيل: غير مقطوع، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: غير محسوب، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: غير مكدّر بما يؤذي ويغمّ، ـ عن الجبائي ـ.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ معناه: أيّ شيء يكذّبك أيّها الإنسان بعد هذه الحجج بالدين الذي هو الجزاء والحساب، ـ عن الحسن وعكرمة وأبي مسلم ـ.

والمراد: ما يحملك على أَنْ لا تتفكّر في صورتك، وشبابك، وهرمك، فتعتبر وتقول: إنّ الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني، ويحاسبني، ويجازيني بعملي، فيكون قوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يعني به: ما الذي يجعلك تكذّب. وقيل: إنّ الخطاب للنبي ﷺ أي: فمن يكذّبك أيُّها الرسول بعد هذه الحجج بالدين الذي هو الإسلام، ـ عن مجاهد وقتادة ـ، أي: لا شيء يكذّبك.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ هذا تقرير للإنسان على الإعتراف بأنّه تعالى أحكم الحاكمين في صنائعه وأفعاله، وأنّه لا خلل في شيء منها، ولا اضطراب، فكيف يترك هذه الخلائق، ويهملهم فلا يجازيهم. وقيل: معناه: أليس الله بأقضى القاضين، فيحكم بينك يا محمّد، وبين أهل التكذيب بك، ـ عن مقاتل ـ. وقال قتادة: وكان رسول الله ﷺ إذا ختم هذه السورة قال: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

﴿النظم﴾: اتّصل قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ بما قبله، من ذكر الدين والجزاء على سبيل التنبيه على الإعادة. فإن الحكيم إذا كلّف وأمر ونهى، وخلّى بين الظالم والمظلوم، فلا بدَّ من المجازاة والإنصاف والانتصاف. فإذا لم يكن ذلك في الدنيا، فلا بدَّ من البعث، فإنّ أحكم الحاكمين لا يجوز عليه الإخلال بما ذكرناه.

سورة العلق

عَدَدُ آيِها: عشرون آية حجازيّ، وتسع عشرة عراقيّ، وثمان عشرة شاميّ.

اخْتِلافُها: آيتان ﴿ٱلَّذِي يَنْهَىٰ﴾ غير الشاميّ، ﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ﴾ حجازيّ.

فَضْلُها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «من قرأها فكأنّما قرأ المفصل كله». محمّد به حسان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ في يومه أو في ليلته [ليلتة] ﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثمّ مات في يومه، أو في ليلته، مات شهيداً، وبعثه الله شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه في سبيل الله، مع رسول الله ﷺ.

تَفْسِيرُها: ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر اسمه، وافتتح هذه السورة بإسمه أيضاً فقال[1]:

---

(١) ممّا ورد علينا الاعتراض على صاحب الكتاب فيما ذكره من نظم السور، وارتباط أوائل مؤخراتها بأواخر مقدّماتها، وحاصل الاعتراض أنّ ترتيب السور ليس على ترتيب النزول. والجواب: إنّ غرض المصنّف المناسبة الموجودة، وأخّرنا الجواب إلى هذا الموضع؛ ليكون أوضح؛ لأنّ مذهب أكثر المفسّرين أنّ هذه السورة أوّل ما نزل.

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴿١﴾ خلق الإنسان من علق ﴿٢﴾ اقرأ وربك
الأكرم ﴿٣﴾ الذي علم بالقلم ﴿٤﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿٥﴾ كلا إن
الإنسان ليطغى ﴿٦﴾ أن رآه استغنى ﴿٧﴾ إن إلى ربك الرجعى ﴿٨﴾ أرأيت
الذي ينهى ﴿٩﴾ عبدا إذا صلى ﴿١٠﴾ أرأيت إن كان على الهدى ﴿١١﴾ أو أمر
بالتقوى ﴿١٢﴾ أرأيت إن كذب وتولى ﴿١٣﴾ ألم يعلم بأن الله يرى ﴿١٤﴾ كلا لئن
لم ينته لنسفعا بالناصية ﴿١٥﴾ ناصية كاذبة خاطئة ﴿١٦﴾ فليدع ناديه (١)
﴿١٧﴾ سندع الزبانية ﴿١٨﴾ كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴿١٩﴾

(اللغة): العلق: جمع علقة، وهي القطعة الجامدة من الدم التي تعلق لرطوبتها بما تمرّ به، فإذا جفّت لا تسمّى علقة. والعلق: ضرب من الدود أسود؛ لأنّه

---

(١) يوقف لحمزة على اقرا بالابدال ألفا، ويمال رؤس الآى التسع من «ليطغى إلى يرى» لحمزة والكسائي وخلف، ويمال «يرى» فقط لأبي عمرو؛ لمكان الراء. وقرأ «أرايت» بتسهيل الثانية نافع، وحذفها الكسائي، وحقّقها الباقون. واتّفقوا على حذف الواو من «سندع» وقفا؛ لحذفها في الكتابة. وإعلم أنّ خمس آيات من أوّل السورة أوّل ما نزلت ثمّ لحق بعدها الآيات الأخر؛ لأن رسول الله ﷺ أمر بجعلها في تلك السورة، وإلحاقها بها، ولم يختلف مصاحف الصحابة سواء احرقت أو لم تحرق في كون سورها تلك السور، وآياتها بهذا الترتيب.

يعلق على العضو فيمتصّ منه الدم. والرجعى والرجوع والمرجع، واحد. والسفع: الجذب الشديد. يقال: سفعت بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً. وسفعته النار والشمس: إذا غيَّرت وجهه إلى حال تشويه. ومنه الحديث: «ليصيبن أقواماً سفع من النار» أي: تشويه خلقة. والناصية: شعر مقدّم الرأس، سمّيت بذلك؛ لأنّها متّصلة بالرأس من قولهم: ناصى يناصي مناصاة: إذا وصل. قال الراجز: «قِيٌّ تُناصِيها بِلادٌ قِيٌّ»[1]. النادي: مجلس أهل النادي، ثمّ كثر فسمّى كل مجلس نادياً. وواحد الزبانية: زبنية ـ عن أبي عبيدة ـ وزبنى ـ عن الكسائي ـ وزابن ـ عن الأخفش ـ، أُخذ من الزبن، وهو الدفع. والناقة تزبن الحالب أي: تركضه برجلها. قال الشاعر:

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمّا يَرىٰ مِنْ أَنائِنا[أناتنا] وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لَمْ يَتَرَمْرَمِ[2]

[الإعراب]: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: تخصيص بعد تعميم، ألاترى أنّ قوله: خلق الإنسان، بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾ خصوص بعد عموم، فهو مثل قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ثمّ قال: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فخصّص الآخرة بعد ذكر الغيب الذي هو عام لكل ما غاب عنّا، وعكسه قول لبيد:

وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبَطِّىء حاسِدٌ[3] أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحاجَةٍ لَوَّامُها

ألاترى أنّ اللوم أعم من التبطئة؛ لأنّ التبطئة نسبة قوم إلى البطء، فهذا بعض اللوم. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ الضمير المستكن في رآه، عائد إلى الضمير المستكن في يطغى. والهاء في ﴿رَآهُ﴾ عائد إلى الضمير المستكن فيه. وإنّما جاز أن يعود الضمير المنصوب إلى ضمير الفاعل في باب علمت

---

(١) قفر بجواره قفر.

(٢) يعني لا يبالي بالحرب. وأصل معنى ترمرم: حرّك فاه بالكلام.

(٣) أن يبطّى أي: كراهة أن تبطى.

وأخواتها، من غير ذكر النفس لدخول هذه الأفعال على المبتدأ والخبر. والخبر هو نفس المبتدأ، فتقول: علمتني وحسبتني أفعل كذا. ولا يجوز في غيرها إلّا بواسطة النفس، تقول: ضربت نفسي، ولا تقول: ضربتني.

و ﴿أَن رَآه﴾: في محلّ نصب؛ لأنّه مفعول له. و ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾: جملة في موضع؛ النصب لكونها مفعولة ثانية لرآه. والتقدير: لأن رآه مستغنياً. ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية أي: بناصية كاذبة خاطئة، ومعناه: بناصية صاحبها كاذب خاطىء. يقال: فلان نهاره صائم، وليله قائم، أي: هو صائم في نهاره، وقائم في ليله.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل ناديه، فحذف المضاف. والنون في ﴿لنسفعن﴾: نون التأكيد الخفيفة، والإختيار عند البصريّين أنْ تكتب بالألف؛ لأنّ الوقف عليها بالألف. واختار الكوفيّون أنْ تكتب بالنون؛ لأنّها نون في الحقيقة.

المعنى: ﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ هذا أمر من الله سبحانه لنبيّه ﷺ أن يقرأ باسم ربّه، وأن يدعوه بأسمائه الحسنى، وفي تعظيم الإسم تعظيم المسمّى؛ لأنّ الإسم ذكر المسمّى بما يخصّه، فلا سبيل إلى تعظيمه إلّا بمعناه. ولهذا لا يعظم اسم الله حقّ تعظيمه إلّا من هو عارف به، ومعتقد عبادته، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فالباء هنا زائدة، والتقدير: اقرأ اسم ربّك. وأكثر المفسّرين على أنّ هذه السورة، أوّل ما نزل من القرآن، وأوّل يوم نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وهو قائم على حراء، علّمه خمس آيات من أوّل هذه السورة. وقيل: أوّل ما نزل من القرآن قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وقد مرَّ ذكره. وقيل: أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب.

رواه الحاكم أبو عبدالله الحافظ، بإسناده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء. فقالت: ما

يفعل الله بك إلّا خيراً. فوالله إنّك لتؤدّي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عمّ خديجة، فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول، ثمّ ائتني فأخبرني. فلمّا خلا ناداه يا محمّد! قل بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين، حتى بلغ ولا الضالين قل لا إله إلّا الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك. فقال له: أبشر ثمّ أبشر فأنا أشهد أنّك الذي بشّر به ابن مريم، وأنّك على مثل ناموس موسى[1]، وأنّك نبيّ مرسل، وأنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأُجاهدنَّ معك. فلمّا توفّي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنّة عليه ثياب الحرير[2]؛ لأنّه آمن بي وصدَّقني» يعني: ورقة. وروي أنّ ورقة قال في ذلك:

فَإِنْ يَكُ حَقّاً يا خَدِيجَةُ، فَاعْلَمِي ... حَدِيثُكَ إِيّانَا فَأَحْمَدُ مُرْسَلٌ
وَجِبْرِيلُ يَأْتِيهِ، ومِيكَالُ مَعْهُما ... مِنَ اللهِ وَحْيٌ، يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلٌ
يَفُوزُ بِهِ مَنْ فَازَ عِزّاً لِدِينِهِ ... وَيَشْقىٰ بِهِ الْغاوِي الشَّقِيُّ المُضَلَّلُ
فَرِيقانِ: مِنْهُمْ فِرْقَةٌ فِي جِنانِهِ ... وأُخْرىٰ بِأَغْلاَلِ الْجَحِيمِ تَغَلْغَلُ

ثمّ وصف سبحانه ربّه، وبيّنه بفعله الدالّ عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: خلق جميع المخلوقات على مقتضى حكمته، وأخرجه من العدم إلى الوجود بكمال قدرته.

ثمّ خصّ الإنسان بالذكر تشريفاً له، وتنبيهاً على إبانته إيّاه عن سائر

---

(١) أي: شريعته.

(٢) فإنْ قيل: كيف رآه النبيّ في الجنّة، ولم يقم القيمة بعد، ولم يحاسب الخلائق؟ قلنا: الزمان مطويّ بالنسبة إلى عالم الآخرة، والنبيّ إذا اطلع على ذلك العالم، كان الماضي والمستقبل عنده كالحال، يعرف كيفيّة ذلك أهله، واخبار النبيّ ﷺ حجّة.

الحيوان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أراد به جنس بني آدم أي: خلقهم من دم جامد بعد النطفة. وقيل: معناه: خلق آدم من طين يعلق باليد. والأوّل أصحّ. وفي هذا إشارة إلى بيان النعمة بأن خلقه من الأصل الذي هو في الغاية القصوى من المهانة. ثمّ بلغ به مبالغ الكمال، حتى صار بشراً سويّاً مهيّئاً للنطق والتمييز، مفرغاً في قالب الإعتدال، وأنّه كما نقل الإنسان من حال إلى حال حتى استكمل، كذلك ينقلك من الجهالة الى درجة النبوّة والرسالة، حتى تستكمل شرف محلّها.

ثمّ أكّد الأمر بالإعادة، فقال: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وقيل: أمره في الأوّل بالقراءة لنفسه، وفي الثاني بالقراءة للتبليغ، وليس بتكرار، ـ عن الجبائي ـ، ومعناه: إقرأ القرآن ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: الأعظم كرماً، فلا يبلغه كرم كريم؛ لأنّه يعطي من النعم ما لا يقدر على مثله غيره، فكل نعمة توجد من جهته إمّا بأن اخترعها، وإمّا بأن سبّبها، وسهّل الطريق إليها، وقيل: معناه: بلّغ قومك ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه، ويقويك ويعينك على حفظ القرآن.

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي: علّم الكاتب أنْ يكتب بالقلم، أو علّم الإنسان البيان بالقلم، أو علّم الكتابة بالقلم. امتنَّ سبحانه على خلقه بما علّمهم من كيفيّة الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الإنتفاع فيما يتعلّق بالدين والدنيا. قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولاه لم يقم دين، ولم يصلح عيش. وقال بعضهم في وصفه:

لُعابُ الأَفاعي القاتِلاتِ، لُعابُهُ وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَارتْهُ أَيْدٍ عَواسِلُ[1]

وقيل: أراد سبحانه آدم؛ لأنّه أوّل من كتب، ـ عن كعب ـ. وقيل: أوّل من كتب إدريس، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: أرا كل نبيّ كتب بالقلم؛ لأنّه ما علّمه إلّا

---

(١) الأرْي: الشهد الأبيض. والاشتيار: إخراجه من بيت النحل. ويقال جنيت العسل، يصف القلم بأنّ فيه النفع والضرّ معا. والبيت لأبي تمام الطائي في مدح وزير المعتصم.

بتعليم الله إيّاه.

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ من أنواع الهدى والبيان، وأُمور الدين والشرائع والأَحكام. فجميع ما يعلمه الإنسان من جهته سبحانه، إمّا بأن اضطرّه إليه، وإمّا بأن نصب الدليل عليه في عقله، وإمّا بأن بيّنه له على ألسنة ملائكته ورسله، فكل العلوم على هذا مضاف إليه. وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه عالم؛ لأنّ العلم لا يقع إلّا من عالم.

﴿كَلَّآ﴾ أي: حقّاً ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: يتجاوز حدّه، ويستكبر على ربّه، ويعدو طوره ﴿أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي: لأنْ رآى نفسه مستغنية عن ربّه بعشيرته وأمواله وقوته، كأنّه قال: إنّما يطغى من رأى أنّه مستغن عن ربّه، لا من كان غنيّاً. قال قتادة: كان إذا أصاب مالاً، زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه، فذلك طغيانه. وقيل: إنّها نزلت في أبي جهل بن هشام من هنا إلى آخر السورة.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي: إلى الله مرجع كل أحد أي: فهذا الطاغي كيف يطغى بماله، ويعصي ربّه، ورجوعه إليه، وهو قادر على إهلاكه، وعلى مجازاته إذا رجع إليه.

﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ هذا تقرير للنبيّ ﷺ، وإعلام له بما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة. فقد جاء في الحديث أنّ أبا جهل قال: هل يعفر محمّد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته. فقيل له:ها هو ذلك يصلّي. فانطلق ليطأ على رقبته، فما فجأهم إلّا وهو ينكص على عقبيه، ويتّقي بيديه، فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إنّ بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. وقال نبيّ الله: «والذي نفسي بيده، لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». فأنزل الله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ﴾ إلى آخر السورة. رواه مسلم في الصحيح.

ومعنى الآية: أرأيت يا محمّد من منع من الصلاة، ونهى من يصلّي عنها، ماذا يكون جزاؤه، وما يكون حاله عندالله تعالى، وما الذي يستحقّه من العذاب. فحذف لدلالة الكلام عليه، والآية عامّة في كل من ينهى عن الصلاة والخير. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه خرج في يوم عيد، فرأى ناساً يصلّون فقال: يا أيّها الناس! قد شهدنا نبيّ الله في مثل هذا اليوم، فلم يكن أحد يصلّي قبل العيد، أو قال النبيّ صلى الله عليه وآله. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ألا تنهى أن يصلّوا قبل خروج الإمام؟ فقال: لا أُريد أن أنهى عبداً إذا صلّى، ولكنّا نحدّثهم بما شهدنا من النبيّ صلى الله عليه وآله، أو كما قال[1]. ومعنى أرأيت هيهنا تعجيب للمخاطب.

ثمّ كرّر هذه اللفظة تأكيداً في التعجيب، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يعني: العبد المنهي، وهو محمّد صلى الله عليه وآله ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ يعني: بالإخلاص والتوحيد، ومخافة الله تعالى. وهيهنا حذف أيضاً، تقديره: كيف يكون حال من ينهاه عن الصلاة، ويزجره عنها. ثمّ قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ أبو جهل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان، وأعرض عن قبوله والإصغاء إليه.

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يفعله، ويعلم ما يصنعه، والتقدير: أرأيت الذي فعل هذا الفعل ما الذي يستحقّ بذلك من الله تعالى من العقاب. وقيل: إنّ تقدير نظم الآية: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى، وهو على الهدى، آمر بالتقوى. والناهي كاذب متولّ عن الإيمان، فما أعجب هذا. ثمّ هدّده بقوله: ألم يعلم هذا المكذّب، فإن لم يعلم فليعلم بأنّ الله يرى هذا الصنيع الشنيع، فيؤاخذه به. وفي هذا إشارة إلى أنّه سبحانه ينتقم للمحقّ من المبطل وفيه أنّ علم العبد بأنّ الله يعلم ما يأتيه

---

(١) وهذا يدلّ على أنّ العبادات المكروهة راجحة؛ إذ لو كانت مرجوحة لم يكن حزازة في المنع عنها. فإن قيل: إذا كانت راجحة فلمَ منع عنها، وحرم من الثواب ولو كان أقلّ؛ لأنّ في تركها بقصد القربة ثواباً أكثر.

ويراه، يوجب المسابقة إلى فعل الطاعة، وترك المعصية.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا يعلم ذلك ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ يعني: إنْ لم يمتنع أبو جهل عن تكذيب محمّد ﷺ وإيذائه ﴿لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنجرّنَّ بناصيته إلى النار. وهذا كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ومعناه: لنذلّنه ونقيمنّه مقام الأذلّة، ففي الأخذ بالناصية إهانة واستخفاف. وقيل: معناه: لنغيرنَّ وجهه، ونسوّدنَّه بالنار يوم القيامة؛ لأنّ السفع أثر الإحراق بالنار.

ثمّ أخبر سبحانه عنه، بأنّه فاجر خاطىء، بأن قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وصفها بالكذب والخطأ، بمعنى أنَّ صاحبها كاذب في أقواله، خاطىء في أفعاله. لما ذكر الجرّ بها أضاف الفعل إليها. قال ابن عباس: لمّا أتى أبو جهل رسول الله ﷺ انتهره رسول الله ﷺ فقال أبو جهل: أتنتهرني يا محمّد، فوالله لقد علمت ما بها أحد أكثر نادياً منّي. فأنزل الله سبحانه ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾. وهذا وعيد أي: فليدع أهل نادية أي: أهل مجلسه يعني عشيرته، فليستنصر بهم إذا حلّ عقاب الله به، والنادي: الفناء. قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾.

ثمّ قال: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ يعني: الملائكة الموكّلين بالنار، وهم الملائكة الغلاظ الشداد. قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية النار من ساعته معاينة. وقيل: إنّه إخبار بأنّه يدعو إليه الزبانية، دعا ناديه أم لم يدع، وصدّق سبحانه ذلك، فقتل أبو جهل يوم بدر.

ثمّ قال: ﴿كَلاَّ﴾ أي: ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ في النهي عن الصلاة ﴿وَاسْجُدْ﴾ له عزّ اسمه ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ من ثوابه. وقيل: معناه: وتقرّب إليه بطاعته. وقيل: معناه: أسجد يا محمّد للتقرب [للتقريب] منه فإنّ أقرب ما يكون العبد من الله إذا سجد له. وقيل: واسجد أي: وصلّ لله، واقترب من الله. وفي الحديث عن عبدالله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من

الله إذا كان ساجداً». وقيل: المراد به السجود لقراءة هذه السورة. والسجود هنا فرض، وهو من العزائم. وروي عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: العزائم ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ﴾ ﴿وحمٓ السجدة﴾ و﴿النجم إذا هوى﴾ ﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وما عداها في جميع القرآن مسنون، وليس بمفروض[1].

(١) وبهذا يقيّد ما سبق من صاحب الكتاب في آخر سورة الأعراف. وحاصل الكلام أنّ الشافعي لم يوجب سجدة في القرآن، وأبا حنيفة أوجب جميع السجدات، وهي في أربعة عشر موضعاً، وعندنا أنّه يجب في العزائم الأربع، ويستحب في البواقي، وظاهر كلام المصنّف في آخر الأعراف أنّ جميعها مستحبّة، ولكن يجب تخصيصه بمقتضى كلامه هنا بغير العزائم الأربع.

سورة القدر

مكّيّة، وقيل: مدنيّة.

عَدَدُ آيِها: ستّ آيات مكّيّ وشاميّ، وخمس في الباقين.

اخْتِلافُها: آية ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الثالث مكّيّ شاميّ.

فَضْلُها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ: «من قرأها أُعطي من الأجر كمن صام رمضان، وأَحيا ليلة القدر».

الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ: «إنّا أنزلناه» في فريضة من الفرائض، نادى منادٍ: يا عبدالله! قد غفر لك ما مضى، فاستأنف العمل».

سيف بن عميرة، عن رجل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ: «إنّا أنزلناه» بجهر، كان كشاهر سيفه في سبيل الله، ومن قرأها سرّاً، كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله، ومن قرأها عشر مرّات، مرّت على نحو ألف ذنب من ذنوبه».

تَفْسِيرُها: أمر سبحانه بالسجود، والتقرّب إليه، في خاتمة تلك السورة، وافتتح هذه السورة بذكر ليلة القدر، وأنّ التقرّب فيها إلى الله يزيد على التقرّب إليه من سائر الليالي والأيّام، فكأنّه قال: اقترب إليه في سائر الأوقات، خصوصاً في ليلة القدر. وقال أبو مسلم: لمّا أمره بقراءة القرآن في تلك السورة، بيّن في هذه السورة أنّ إنزاله في ليلة القدر، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

(١)

القراءة: قرأ الكسائي، وخلف: ﴿مَطْلِعَ﴾ ـ بكسر اللام ـ. والباقون: بفتح اللام وفي الشواذّ قراءة ابن عباس وعكرمة والكلبي ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرئ﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: ﴿مَطْلَعَ﴾ هنا مصدر؛ بدلالة أنّ المعنى: سلام هي حتى وقت طلوعه، وإلى وقت طلوعه، نحو مقدم الحاجّ، وخفوق النجم، بجعل المصدر فيه زماناً على تقدير حذف المضاف. فالقياس أنْ يفتح اللام، كما أنّ مصادر سائر ما كان من فَعَل يَفْعَل مفتوح العين نحو: المخرج والمدخل. وأمّا الكسر، فلأنّ من المصادر التي ينبغي أنْ تكون على المفعَل، ما قد كُسِرَ، كقولهم: علاه المكبر والمعجز.

وقوله: ﴿مِّنْ كُلِّ أَمْرء﴾ قال ابن جنّي: أنكر أبو حاتم هذه القراءة. على أنّه حُكي عن ابن عباس أنّه قال: يعني: الملائكة. قال: ولا أدري ما هذا، وإنّما هو ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ [وَٱلرُّوحُ] فِيهَا [بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن] كُلِّ أَمْرٍ﴾ كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ

(١) أمال «ادريك» أبو عمرو وأبو بكر؛ لمكان الراء. والحمزة والكسائي وخلف على أصلهم.

أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِندِنَا﴾ و ﴿مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ فتمَّ الكلام. ثمّ استأنف فقال: سلام أي: هي سلام إلى أنْ يطلع الفجر. وقال قطرب: معناه: هي سلام من كل أمر وامرىء. ويلزم على قول قطرب أن يقال: فكيف جاز تقديم معمول المصدر الذي هو ﴿سَلامٌ﴾ عليه، وقد عرفنا امتناع جواز تقديم صلة الموصول، أو شيء منها عليه؟ والجواب: إنَّ «سلاماً» في الأَصل كعُمرى، مصدر. فأمّا هنا فإنّه موضوع موضع إسم الفاعل الذي هو سالمة هي أو مسلمة، فكأنّه قال: من كل أمرىء سالمة أو مسلمة هي، أي: هي سالمة أو مسلمة منه.

اللغة: القدر: كون الشيء مساوياً لغيره من غير زيادة ولا نقصان. وقدر الله هذا الأمر يقدره قدراً: إذا جعله على مقدار ما تدعو إليه الحكمة. والشهر في الشرع: عبارة عمّا بين هلالين من الأيّام. وإنّما سمّي شهراً لاشتهاره بالهلال، وقد يكون الشهر ثلاثين، ويكون تسعة وعشرين، إذا كان هلاليّاً، فإن لم يكن هلاليّاً، فهو ثلاثون.

الإعراب: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تقديره: خير من أَلف شهر لا ليلة قدر فيه، فحذف الصفة. وقوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: هي: مبتدأ، و ﴿سَلامٌ﴾: خبر مقدّم عليه، وهو بمعنى الفاعل؛ لأنّه إذا حمل على المصدر لم يجز تعليق «حتى» به؛ لأنّه لا يفصل بين الصلة والموصول. ومثله قول الشاعر:

فَهَلاّ سَعَيْتُمْ سَعْيَ عُصْبَةِ مازِنٍ ... وَهَلْ كُفَلائي في الْوَفاءِ سَواءُ[1]

سواء: بمعنى مستو. والتقدير: فهل كفلائي مستوون في الوفاء، لا بدَّ من هذا التقدير؛ لأنّ «سواء» لو كانت مصدراً، لما تقدَّم عليه ما في صلته. ويجوز تعليق ﴿حَتَّىٰ﴾ بقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ ولا يجوز أنْ يكون ﴿هِيَ﴾ مبتدأ، وتكون

---

(١) وبعده: «كان دنانيرا على قسماتهم، وان كان قد شف الوجوه لقاء» قسماتهم: وجوههم. والدنانير عليها: كناية عن البهاء، وعدم ظهور الخوف عليهم في لقاء العدوّ.

حَتَّىٰ في موضع الخبر؛ لأنّه لا فائدة فيه؛ إذ كل ليلة بهذه الصفة، و ﴿مَطْلَعَ﴾: مجرور بـ﴿حَتَّىٰ﴾، وهو في معنى «إلى».

﴿المعنى﴾: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ الهاء كناية عن القرآن، وإنْ لم يجر له ذكر؛ لأنّه لا يشتبه الحال فيه ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثمّ كان ينزله جبرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه وآله، نجوماً، وكان من أوّله إلى آخره ثلاث وعشرون سنة، وقال الشعبي: معناه: إنّا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر(١). وقال مقاتل: أنزله من اللوح المحفوظ إلى السفرة، وهم الكتبة من الملائكة في السماء الدنيا، وكان ينزل ليلة القدر من الوحي على قدر ما ينزل به جبرائيل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وآله في السنة كلها إلى مثلها من القابل، والكلام في ليلة القدر على ضروب:

فالأوّل: اختلاف العلماء في معنى هذا الإسم ومأخذه، فقيل: سمّيت ليلة القدر؛ لأنّها الليلة التي يحكم الله فيها، ويقضي بما يكون في السنة بأجمعها، من كل أمر، ـ عن الحسن ومجاهد ـ، وهي الليلة المباركة في قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ لأنّ الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة. وروى أبو الضحى، عن ابن عباس، أنّه كان يقضي القضايا في ليلة النصف من شعبان، ثمّ يسلمها إلى أربابها في ليلة القدر. وقيل: ليلة القدر أي: ليلة الشرف والخطر وعظم الشأن، من

---

(١) إذا جمعنا بين هذه الآية، وقوله تعالى: «شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن»، كانت النتيجة أنّها في شهر رمضان. فان قيل: إن كان ابتداء نزول القرآن في شهر رمضان، فما وجه الجمع بينه وبين ما ذكره بعضهم، أنّ المبعث في رجب؟ قلنا: إنْ صحّ ذلك، ولم يشتبه على الراوي المبعث بالمعراج، أمكن حمله على أنّ الله أظهر عليه الملك، وأخبره ببعثه في رجب، وأنزل عليه القرآن في رمضان؛ لأنّ الوحي حصل له صلى الله عليه وآله تدريجا، وأوّل ما بدئ به في الوحي الرؤيا الصادقة، ويقال كان الوحي عليه في النوم ستّة أشهر، جزء من ستّة، وأربعين جزء من أزمنة النبوّة.

قولهم: رجل له قدر عند الناس أي منزلة وشرف. ومنه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظموه حقّ عظمته، ـ عن الزهري ـ. قال أبوبكر الورّاق: لأنّ مَن لم يكن ذا قدر إذا أحياها، صار ذا قدر. وقال غيره: لأنّ للطاعات فيها قدراً عظيماً، وثواباً جزيلاً. وقيل: سمّيت ليلة القدر؛ لأنّه أُنزل فيها كتاب ذو قدر إلى رسول ذي قدر؛ لأجل أُمّة ذات قدر، على يدي ملك ذي قدر. وقيل: هي ليلة التقدير؛ لأنّ الله تعالى قدَّر فيها إنزال القرآن. وقيل: سمّيت بذلك؛ لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة، من قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، ـ عن الخليل بن أحمد ـ.

الضرب الثاني: اختلافهم في أنّها أيّة ليلة. فذهب قوم إلى أنّها إنّما كانت على عهد رسول الله ﷺ ثمّ رفعت. وجاءت الرواية عن أبي ذرّ، أنّه قال: قلت يا رسول الله! ليلة القدر هي شيء تكون على عهد الأنبياء، ينزل فيها، فإذا قبضوا رفعت. قال: لا بل هي إلى يوم القيامة. وقيل: إنّها في ليالي السنة كلها، ومن علّق طلاق امرأته على ليلة القدر، لم يقع إلى مضي السنة، وهو مذهب أبي حنيفة. وفي بعض الروايات، ـ عن ابن مسعود أنّه قال: من يقم الحول كله يصبها، فبلغ ذلك عبدالله بن عمر فقال: رحم الله أبا عبد الرحمن، أما إنّه علم أنّها في شهر رمضان، ولكنّه أراد أن لا يتّكل الناس. وجمهور العلماء، على أنّها في شهر رمضان في كل سنة.

ثمّ اختلفوا في أيّ ليلة هي منه، فقيل: هي أوّل ليلة منه، ـ عن ابن زيد [رزين] العقيلي ـ. وقيل: هي ليلة سبع عشرة منه، ـ عن الحسن ـ. وروي أنّها ليلة الفرقان، وفي صبيحتها التقى الجمعان. والصحيح أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، وهو مذهب الشافعي. وروي مرفوعاً أنّه ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر». وعن علي عليه السلام: «أنَّ النبيّ ﷺ كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من

شهر رمضان، قال: وكان إذا دخل العشر الأواخر، دأب وأَدْأَبَ أهله». وروى أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل العشر الأواخر، شدَّ المئزر، واجتنب النساء، وأحيا الليل، وتفرغ للعبادة».

ثمّ اختلفوا في أنّها أيّة ليلة من العشر، فقيل: إنّها ليلة إحدى وعشرين، وهو مذهب أبي سعيد الخدري، واختيار الشافعي. قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت هذه الليلة ثمّ أُنسيتها، ورأيتني أسجد في ماء وطين، فالتمسوها في العشر الأواخر، والتمسوها في كل وتر» قال: فأبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وآله، انصرف وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين، من صبيحة إحدى وعشرين. أورده البخاري في الصحيح.

وقيل: هي ليلة ثلاث وعشرين منه، عن عبدالله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول (الله) إنّي رأيت في النوم، كأنّ ليلة القدر هي ليلة سابعة، تبقى. فقال صلى الله عليه وآله: «أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين، فمن كان منكم يريد أنْ يقوم من الشهر شيئاً، فليقم ليلة ثلاث وعشرين». قال معمر: كان أيّوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين، ويمسّ طيباً.

وسأل عمر بن الخطاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قد علمتم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال في ليلة القدر: «أطلبوها في العشر الأواخر وتراً» ففي أيّ الوتر ترون؟ فأكثر القوم في الوتر. قال ابن عباس: فقال: لي ما لك. لاتتكلّم يا بن عباس. فقلت: رأيت الله أكثر ذكر السبع في القرآن، فذكر السماوات سبعاً، والأرضين سبعاً، والطواف سبعاً، والجمار سبعاً، وما شاء الله من ذلك: خلق الإنسان من سبعة، وجعل رزقه في سبعة فقال: كل ما ذكرت عرفت، فما قولك خلق الإنسان من سبعة، وجعل رزقه في سبعة؟ فقلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ﴾ إلى قوله: خلقاً آخر. ثمّ قرأت: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ إلى قوله:

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فما أراها إلّا ليلة ثلاث وعشرين، لسبع بقين. فقال عمر: عجزتم أنْ تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم يجتمع شؤون رأسه. قال: وقال عمر وافق رأيي رأيك. ثمّ ضرب منكبي فقال: ما أنت بأقلّ القوم علماً.

وروى العيّاشي بإسناده عن زرارة، عن عبد الواحد بن المختار الأنصاري قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن ليلة القدر قال: في ليلتين: ليلة ثلاث وعشرين، وإحدى وعشرين. فقلت: أفرد لي إحداهما. فقال: وما عليك أنْ تعمل في ليلتين هي إحداهما؟ وعن شهاب ابن عبد ربّه قال: قلت لأبي عبداللهعليه السلام: أخبرني بليلة القدر؟ فقال: ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين. وعن حماد بن عثمان، عن حسان بن أبي عليّ قال: سألت أبا عبداللهعليه السلام عن ليلة القدر قال: أطلبها في تسع عشرة، وإحدى وعشرين، وثلاث وعشرين.

وفي كتاب من لا يحضره الفقيه: عن عليّ بن أبي حمزة قال: كنت عند أبي عبداللهعليه السلام، فقال له أبو بصير: جعلت فداك! الليلة التي يرجى فيها ما يرجى أيُّ ليلة هي؟ فقال: هي ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين. قال: فإن لم أقو على كلتيهما؟ فقال: ما أيسر ليلتين فيما تطلب! قال قلت: فربما رأينا الهلال عندنا، وجاءنا من يخبرنا بخلاف ذلك، في أرض أُخرى. فقال: ما أيسر أربع ليال فيما تطلب فيها. قلت: جعلت فداك ليلة ثلاث وعشرين ليلة الجهني[١] قال: إن ذلك ليقال. قلت: جعلت فداك إنّ سليمان بن خالد روى أنّ في تسع عشرة يكتب وفد الحاجّ. فقال: يا أبا محمّد! وفد الحاجّ يكتب في ليلة القدر، والمنايا والبلايا والأرزاق، ما يكون إلى مثلها في قابل، فاطلبها في إحدى وثلاث، وصلّ في كل واحدة منهما مائة ركعة، وأحيهما إن استطعت إلى النور، واغتسل فيهما. قال قلت:

---

[١] جهني: اسم رجل صحابي ستأتي قصته.

فإن لم أقدر على ذلك، وأنا قائم؟ قال: فصلِّ وأنت جالس. قلت: فإن لم أستطع؟ قال: فعلى فراشك. قلت: فإن لم أستطع؟ فقال: لا، عليك أنْ تكتحل أوّل الليل بشيء من النوم، إنّ أبواب السماء تفتح في شهر رمضان، وتصفد الشياطين، وتقبل أعمال المؤمنين، نعم الشهر شهر رمضان، كان يسمّى على عهد رسول الله ﷺ المرزوق.

وفي رواية عبدالله بن بكير، عن زرارة عن أحدهما قال: سألته عن الليالي التي يستحبّ فيها الغسل في شهر رمضان، فقال: ليلة تسع عشرة، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين. وقال: ليلة ثلاث وعشرين هي ليلة الجهني. وحديثه أنّه قال لرسول الله ﷺ: إنَّ منزلي نأى [ناء] عن المدينة، فمرني بليلة أدخل فيها، فأمره بليلة ثلاث وعشرين.

قال الشيخ أبو جعفر ﷺ: واسم الجهني عبدالله بن أنيس الأنصاري. وقيل: إنّها ليلة سبع وعشرين، عن أُبيّ بن كعب وعائشة. وروي أنّ ابن عباس وابن عمر قالا: قال رسول الله ﷺ: «تحروها ليلة سبع وعشرين»، وعن زر بن حبيش قال: قلت لأُبيّ يا أبا المنذر! من أين علمت أنّها ليلة سبع وعشرين؟ قال: بالآية التي أنبأ بها رسول الله ﷺ قال: تطلع الشمس غداتئذٍ، كأنّها طسْت ليس لها شعاع. وقال بعضهم: إنَّ الله قسم كلمات هذه السورة على ليالي شهر رمضان، فلمّا بلغ السابعة والعشرين، أشار إليها فقال: هي. وقيل: إنّها ليلة تسع وعشرين. وروي عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول التمسوها في العشر الأواخر في تسع بقين، أو سبع بقين، أو خمس بقين، أو ثلاث بقين، أو آخر ليلة [الليلة]. والفائدة في إخفاء هذه الليلة، أن يجتهد الناس في العبادة، ويحيوا جميع ليالي شهر رمضان، طمعاً في إدراكها، كما أنّ الله سبحانه أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في الأسماء، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة.

والضرب الثالث: ذكر بعض ما ورد في فضل هذه الليلة. روى ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا كان ليلة القدر، تنزل الملائكة الذين هم سكّان سدرة المنتهى، ومنهم جبرائيل، فينزل جبرائيل عليه السلام ومعه ألوية، ينصب لواء منها على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء في المسجد الحرام، ولواء على طور سيناء، ولا يدع فيها مؤمناً، ولا مؤمنة إلّا سلم عليه، إلّا مدمن الخمر، وآكل لحم الخنزير، والمتضمّخ بالزعفران»[١]. وعنه ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدَّم من ذنبه». وعنه ﷺ قال: «إنّ الشيطان لا يخرج في هذه الليلة، حتى يضيء فجرها، ولا يستطيع فيها على [أن ينال] أحداً بخبل، أو داء، أو ضرب من ضروب الفساد، ولا ينفذ فيه سحر ساحر». وروى الحسن عن النبيّ ﷺ قال في ليلة القدر: «إنّها ليلة سمحة، لا حارّة، ولا باردة، تطلع الشمس في صبيحتها، ليس لها شعاع».

ثمّ قال الله سبحانه تعظيماً لشأن هذه الليلة، وتنبيهاً لعظم قدرها، وشرف محلها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ فكأنّه قال: وما أدراك يا محمّد ما خطر ليلة القدر، وما حرمتها. وهذا حثٌّ على العبادة فيها.

ثمّ فسّر سبحانه تعظيمه وحرمته فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: قيام ليلة القدر، والعمل فيها، خير من قيام ألف شهر، ليس فيه ليلة القدر وصيامه، ـ عن مقاتل وقتادة ـ. وذلك أنّ الأوقات إنّما يفضل بعضها على بعض، بما يكون فيها من الخير ومن النفع، فلمّا جعل الله الخير الكثير في ليلة القدر، كانت خيراً من ألف شهر، لا يكون فيها من الخير والبركة، ما يكون في هذه الليلة.

وذكر عطاء ـ عن ابن عباس قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجل من بني

---

[١] التضمخ: التلطخ بالطيب وغيره والاكثار منه.

إسرائيل، أنّه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب من ذلك رسول الله ﷺ عجباً شديداً، وتمنى أنْ يكون ذلك في أُمّته، فقال: يا ربّ! جعلت أُمّتي أقصر الناس أعماراً، وأقلّها أعمالاً، فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ليلة القدر خير من ألف شهر الذي حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله، لك ولأُمّتك من بعدك إلى يوم القيامة في كل رمضان.

ثمّ أخبر سبحانه بما يكون في تلك الليلة، فقال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تتنزّل الملائكة ﴿وَالرُّوحُ﴾ يعني: جبرائيل ﴿فِيهَا﴾ أي: في ليلة القدر إلى الأرض؛ ليسمعوا الثناء على الله، وقراءة القرآن، وغيرها من الأذكار. وقيل: ليسلموا على المسلمين بإذن الله أي: بأمر الله. وقيل: ينزلون بكل أمر إلى السماء الدنيا حتى يعلم ذلك [أهل] السماء الدنيا، فيكون لطفاً لهم. وقال كعب ومقاتل بن حيان: الروح طائفة من الملائكة، لا تراهم الملائكة، إلّا تلك الليلة، ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وقيل: الروح هو الوحي، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: تنزّل الملائكة، ومعهم الوحي بتقدير الخيرات والمنافع.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمر ربّهم، كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وقيل: بعلم ربّهم، كما قال أنزله بعلمه. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: بأمر الله. وقيل: بكل أمر من أجل ورزق إلى مثلها من العام القابل. فعلى هذا يكون الوقف هنا تامّاً.

ثمّ قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: هذه ليلة إلى آخرها سلامة من الشرور والبلايا وآفات الشيطان، وهو تأويل قوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، ـ عن قتادة. وقال مجاهد ـ. يعني: إنّ ليلة القدر سالمة عن أنْ يحدث فيها سوء، أو يستطيع شيطان أن يعمل فيها. وقيل: معناه: سلام على أولياء الله، وأهل طاعته،

فكلّما لقيهم الملائكة في هذه الليلة، سلّموا عليهم من الله تعالى، ـ عن عطاء والكلبي ـ. وقيل: إنّ تمام الكلام عند قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، ثمّ ابتدأ، فقال: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ سلام أي: بكل أمر فيه سلامة ومنفعة وخير وبركة؛ لأنّ الله يقدر في تلك الليلة كل ما فيه خير وبركة. ثمّ قال: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: السلامة والبركة والفضيلة، تمتدّ إلى وقت طلوع الفجر، ولا يكون في ساعة منها فحسب، بل يكون في جميعها، والله أعلم بالصواب.

سورة البينة

تسمّى سورة البرية، وسورة القيمة. مدنيّة. وقيل: مكّيّة.

عَدَدُ آيِها: تسع آيات بصري، ثمان في الباقين.

اخْتِلافُها: آية: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ بصري.

فَضْلُها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «ومن قرأها كان يوم القيامة مع خير البريّة مسافراً ومقيماً». وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في ﴿لَمْ يَكُنْ﴾، لعطلوا الأهل والمال، وتعلّموها». فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ فقال: «لا يقرأها منافق أبداً، ولا عبد في قلبه شكّ في الله، عزّ وجلّ. والله إنّ الملائكة المقرّبين ليقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض، لا يفترون من قراءتها، وما من عبد يقرؤها بليل، إلّا بعث الله ملائكة، يحفظونه في دينه ودنياه، ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً أُعطي عليها من الثواب، مثل ما أضاء عليه النهار، وأظلم عليه الليل».

فقال رجل من قيس عيلان: زدنا يا رسول الله من هذا الحديث فداك أبي وأُمّي. فقال ﷺ: «تعلموا «عمّ يتساءلون»، وتعلموا ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، وتعلموا ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، وتعلموا «والسماء والطارق»، فإنّكم لو تعلمون

ما فيهنّ، لعطلتم ما أنتم فيه، وتعلّمتموهنّ، وتقرّبتم إلى الله بهنّ، وإنّ الله يغفر بهنّ كل ذنب إلّا الشرك بالله. واعلموا أنّ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تجادل عن صاحبها يوم القيامة، وتستغفر له من الذنوب».

أبوبكر الحضرمي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ كان بريئاً من الشرك، وأُدخل في دين محمّد صلى الله عليه وآله، وبعثه الله مؤمناً، وحاسبه الله حساباً يسيراً.

تفسيرها: بيّن الله سبحانه في سورة القدر أنّ القرآن حجّة، ثمّ بيّن في هذه السورة أنّ الكفّار قبله لم يخلوا قطّ من حجّة، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾
فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ (١) الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ
الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ

(١) أمال «جائتهم» ابن ذكوان وحمزة وخلف.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾
جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

(القراءة): قرأ نافع، وابن ذكوان «البريئة» مهموزة. والباقون: بغير همزة.

(الحجة): قال أبو عليّ: البريئة من برأ الله الخلق، فالقياس فيه الهمز، إلّا أنّه ممّا ترك همزه، كقولهم النبيّ والذرّيّة والخابية، فالهمزة فيه كالردّ إلى الأصل المتروك في الإستعمال، كما أنّ همز النبيّ كذلك، وترك الهمز أجود؛ لأنّه لمّا ترك فيه الهمز، صار كردّه إلى الأُصول المرفوضة، مثل: ظننوا. وهَمْزُ من هَمَزَ «البريئة»، يدلّ على فساد قول من قال: إنّه من البري، الذي هو التراب.

(اللغة): الإنفكاك: الإنفصال عن شدّة اتّصال. قال ذو الرمة:

قَلائِصُ ما تَنْفَكُّ إلاَّ مُناخَةً عَلَى الْخَسْفِ، أَوْ نَرْمِي بِها بَلَداً قَفْراً[1]

وأكثر ما يستعمل ذلك في النفي، مثل ما زال تقول ما انفك من هذا الأمر أي: ما انفصل منه لشدّة ملابسته له.

والبيّنة: الحجّة الظاهرة التي يتميّز بها الحقّ من الباطل. وأصلها من البينونة وفصل الشيء من غيره. فالنبيّ ﷺ حجّة وبيّنة، وإقامة الشهادة العادلة بيّنة، وكل برهان ودلالة بيّنة.

والقيمة: المستمرّة في جهة الصواب. والحنيف: المائل إلى الصواب والحقّ، والحنيفيّة: الشريعة المائلة إلى الحقّ. وأصله: الميل. ومن ذلك الأحنف: المائل القدم إلى جهة القدم الأُخرى. وقيل: أصله الإستقامة. وإنّما قيل للمائل القدم

(١) الشعر في جامع الشواهد.

أحنف على وجه التفاؤل.

﴿الإعراب﴾: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللهِ﴾: بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ قبله. وقال الفرّاء: هو مستأنف، تقديره: هو رسول، ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾: تقديره: دين الملّة القيّمة؛ لأنّه إذا لم يقدر ذلك، كان إضافة الشيء إلى صفته، وذلك غير جائز؛ لأنّه بمنزلة إضافة الشيء إلى نفسه ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: دخول جنّات عدن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: حال من مضمر أي: يجزونها خالدين فيها.

﴿المعنى﴾: ﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين الذين هم عبدة الأوثان من العرب وغيرهم، وهم الذين ليس لهم كتاب ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: منفصلين وزائلين. وقيل: لم يكونوا منتهين عن كفرهم بالله، وعبادتهم غير الله، ـ عن ابن عباس في رواية عطاء والكلبي ـ.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمْ﴾ اللفظ لفظ الإستقبال، ومعناه: المضي، كقوله: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أي: ما تلت. وقوله: ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ يريد: محمّداً ﷺ، ـ عن ابن عباس ومقاتل ـ. بيّن سبحانه لهم ضلالهم. وهذا إخبار من الله تعالى عن الكفّار، أنّهم لم ينتهوا عن كفرهم، وشركهم بالله، حتى أتاهم محمّد ﷺ، فبيّن لهم ضلالهم عن الحقّ، ودعاهم إلى الإيمان. وقيل: معناه: لم يكونوا ليتركوا منفكّين من حجج الله، حتى تأتيهم البيّنة التي تقوم بها الحجّة عليهم.

وقوله: ﴿رَسُولٌ مِنْ اللهِ﴾ بيان للبيّنة، وتفسير لها أي: رسول من قبل الله ﴿يَتْلُوا﴾ عليهم ﴿صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ يعني: مطهّرة في السماء، لا يمسّها إلّا الملائكة المطهّرون، من الأنجاس، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وهو محمّد ﷺ أتاهم بالقرآن، ودعاهم إلى التوحيد والإيمان.

﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمة عادلة، غير ذات

عوج، تبيّن الحقّ من الباطل. وقيل: مطهّرة عن الباطل والكذب والزور، يريد القرآن، ـعن قتادة ـ. ويعني بالصحف، ما تتضمّنه الصحف من المكتوب فيها، ويدلّ على ذلك أنّ النبيّ ﷺ كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب. وقيل: معناه: رسول من الملائكة، يتلو صحفاً من اللوح المحفوظ، ـعن أبي مسلم ـ. وقيل: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ معناه: في هذه الصحف التي هي القرآن، كتب قيّمة أي: إنّ القرآن يشتمل على معاني الكتب المتقدّمة، فتاليها تالي الكتب القيمة، كما قال: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فإذا كان مصدّقاً لها كان تالياً لها. وقيل: معناه: في القرآن كتب قيّمة، بمعنى أنّه يشتمل على أنواع من العلوم، كل نوع كتاب. قال السدّي: فيها فرائض الله العادلة.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني: وما اختلف هؤلاء في أمر محمّد ﷺ، إلّا من بعد ما جاءتهم البشارة به في كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم، فكانت الحجّة قائمة عليهم، فكذلك لا يترك المشركون من غير حجّة تقوم عليهم. وقيل: معناه: ولم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمّد ﷺ حتى بعثه الله. فلمّا بعث تفرّقوا في أمره، واختلفوا، فآمن به بعضهم، وكفر آخرون.

ثمّ ذكر سبحانه ما أُمروا به في كتبهم، فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: لم يأمرهم الله تعالى، إلّا لأنْ يعبدوا الله وحده، لا يشركون بعبادته. فهذا ما لا تختلف فيه ملّة، ولا يقع فيه تبدل ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا يخلطون بعبادته عبادة ما سواه.

﴿حُنَفَاءَ﴾ مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام، مسلمين مؤمنين بالرسل كلّهم. قال عطيّة: إذا اجتمع الحنيف والمسلم، كان معنى الحنيف: الحاجّ. وإذا انفرد كان معناه: المسلم، وهو قول ابن عباس؛ لأنّه قال: حنفاء أي: حجاجاً.

وقال ابن جبير: لا تسمّي العرب حنيفاً، إلّا من حجّ واختتن. قال قتادة: الحنيفيّة: الختان، وتحريم البنات والأُمّهات والأخوات والعمّات والخالات، وإقامة المناسك.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: ويداوموا على إقامة الصلاة، ويخرجوا ما فرض عليهم في أموالهم من الزكاة ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: الدين الذي قدَّم ذكره ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: دين الكتب القيّمة التي تقدَّم ذكرها. وقيل: دين الملّة القيّمة، والشريعة القيّمة. قال النضر بن شميل: سألت الخليل عن هذا فقال: القيّمة: جمع القيم. والقيّم والقائم واحد. فالمراد: وذلك دين القائمين لله بالتوحيد. وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب أهل الجبر؛ لأنّ فيها تصريحاً بأنّه سبحانه إنّما خلق الخلق ليعبدوه. واستدلَّ بهذه الآية أيضاً على وجوب النية في الطهارة؛ إذ أمر سبحانه بالعبادة على وجه الإخلاص[1]، ولا يمكن الإخلاص إلّا بالنيّة والقربة.

---

(١) تمسّك علماؤنا بهذه الآية على وجوب النيّة في جميع العبادات، ومنها: الطهارات الثلاث وهو مذهب الشافعي ومالك وأحمد. وخالف أبو حنيفة. وحمل الجصّاص الآية على نفي الشرك، ووجوب التوحيد وهو خلاف ظاهر معنى الإخلاص. ومذهب أتباع الشيخ المحقّق الانصاري رحمه الله تعالى إلى زماننا أنّ قصد القربة لا يمكن أن يكون متعلّقا للتكليف؛ لأنّ متعلّق التكليف يجب أن يكون متحقّقا قبل التكليف، والقربة لا تتعقّل إلّا بعد التكليف، وهذا استدلال معروف في كتبهم. والحقّ أنّ متعلّقات الفعل لا يجب أن تكون متحقّقة قبل الفعل، فإنّك تقول: حفرت البئر وبنيت الدار، ولا يتحقّق البئر إلّا بعد الحفر ولا الدار إلّا بعد البناء، ومثله تصورت المعنى ولا يوجد معنى إلّا بعد التصوّر، وخلق الله العالم ولا عالم إلّا بعد الخلق، إلى غير ذلك ممّا لايتناهي، فيصحّ أن يأمر بالصلاة مع القربة، والقربة لا تتحقّق إلّا بعد الأمر، وشبهتهم في تعلّق الأمر بالقربة، نظير الشبهات الفخريّة في عروض الوجود للماهيّة، فيقول: كلّ عرض يجب أن يحلّ في موضع موجود قبله، فالوجود يعرض للماهية الموجودة قبل هذا العروض بوجود آخر، ونقل [ننقل] الكلام في الوجود الثاني؛ إذ هو أيضاً يجب أن يعرض لشيء موجود بوجود ثالث، وهكذا يتسلسل.
والجواب: أنّ الوجود عارض للماهيّة التي توجد بهذا الوجود على ما هو مبين في محلّه، وللذهن ←

والطهارة عبادة، فلا تجزي بغير نيّة.

ثمّ ذكر سبحانه حال الفريقين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: من جحد توحيد الله، وأنكر نبوّة نبيّه ﷺ، ومن أشرك معه إلٰهاً آخر في العبادة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفنى عقابهم ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شرُّ الخليقة.

ثمّ أخبر عن حال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: خير الخليقة[١].

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مرَّ معناه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: مؤبّدين فيها دائماً.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بما قدّموه من الطاعات ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما جازاهم من الثواب. وقيل: رضي الله عنهم إذ وحّدوه ونزهوه عمّا لا يليق به، وأطاعوه ورضوا عنه إذ فعل بهم ما رجوا من رحمته وفضله ﴿ذَلِكَ﴾ الرضا والثواب ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فترك معاصيه، وفعل طاعاته.

← أن يعتبر المتأخّر، وأحد المقارنين متقدّما إذا كان العروض في الذهن، وأيضاً إنّا إذا عرضنا مثل ذلك على أنفسنا، وجدنا مثل هذا الطلب ممكنا لنا، فنحبّ العمل الذي يصدر عن أبنائنا وخدمنا إمتثالاً لأمرنا، ولأجل حبّنا ذلك العمل، ونبغض ذلك العمل بعينه إن صدر منهم لا لأجلنا، والأمر بالفعل بشرط القربة بأن نتصوّر صدور الفعل المتاخّر عن التكليف، ونتعقّله قبل التكليف ونوقع التكليف عليه [تصريح به]، وامكانه بديهيّ، والشبهة فيه شبهة في البديهيّات.

[١] روى السيوطي في الدر المنثور ٦: ٣٧٩ عن ابن عساكر عن جابر بن عبدالله قال: كنّا عند النبيّ ﷺ فأقبل علي، فقال النبيّ ﷺ: والذي نفسي بيده انّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة. ونزلت ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية﴾ فكان أصحاب النبي ﷺ إذا أقبل علي عليه السلام قالوا: جاء خير البرية.

وقال: وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً: عليّ خير البرية.

وفي كتاب شواهد التنزيل، للحاكم أبي القاسم الحسكاني ﷺ قال: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ بالإسناد المرفوع إلى يزيد بن شراحيل الأنصاري، كاتب علي عليه السلام قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا مسنده إلى صدري، فقال: «يا عليّ! ألم تسمع قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ هم شيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض، إذا اجتمعت الأُمم للحساب، يدعون غرّاً محجّلين». وفيه، عن مقاتل بن سليمان، عن الضحّاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ قال: نزلت في عليّ عليه السلام، وأهل بيته.

سورة الزلزلة

مدنيّة، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. مكّيّة، ـ عن الضحّاك وعطاء ـ.

عَدَدُ آيِهَا: ثمان آيات كوفي والمدني الأوّل، تسع في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آية ﴿أَشْتَاتاً﴾ غير الكوفي والمدنيّ الأوّل.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأها فكأنّما قرأ البقرة، وأُعطي من الأجر كمن قرأ ربع القرآن». وعن أنس بن مالك قال: سأل النبيّ ﷺ رجلاً من أصحابه فقال: «يا فلان هل تزوّجت؟ قال: لا وليس عندي ما أتزوّج به. قال: أليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ قال: بلى. قال: ربع القرآن. قال: أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ قال: بلى. قال: ربع القرآن. ثمّ قال: تزوّج، تزوّج، تزوّج».

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: لا تملّوا من قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ فإنّ من كانت قراءته في نوافله، لم يصبه الله بزلزلة أبداً، ولم يمت بها، ولا بصاعقة، ولا بآفة من آفات الدنيا، وإذا مات أمر به إلى الجنّة، فيقول الله سبحانه: عبدي أبحتك جنّتي، فاسكن منها حيث شئت وهويت، لا ممنوع، ولا مدفوع عنه.

تَفْسِيرُهَا: ختم الله سبحانه تلك السورة ببيان حال المؤمنين والكافرين،

وافتتح هذه السورة ببيان وقت ذلك، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

القراءة: في بعض الروايات عن الكسائي: «خيراً يُره وشراً يُره» ـ بضمّ الياء فيهما ـ، وهي رواية أبان عن عاصم أيضاً، وهي قراءة عليّ عليه السلام. والباقون: «يَره» ـ بفتح الياء في الموضعين ـ إلّا أنّ أبا جعفر وروحاً ورويساً قرأوا بضمّ الهاء ضمّة مختلسة غير مشبعة.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ «يُره» جعل الفعل منقولاً من رأيت زيداً إذا أدركته ببصرك، وأريته عمراً. وبنى الفعل للمفعول. ومن قرأ «يَره» فالتقدير: يرى جزاءه، وإثبات الواو في «يرهو» بعد الهاء هو الوجه، كما تقول: أكرمهو؛ لأنّ هذه الهاء يتبعها حرف اللين الواو، والياء إذا كان قبلها كسرة أو ياء نحو: بهي وعليهي. وقد جاء في الشعر نحو قوله:

«وَنَضْوَايَ مُشْتَاقَان لَهْ أَرِقَانِ»[١].

(اللغة): الزلزلة: شدّة الإضطراب. والزِلزال ـ بكسر الزاي ـ: المصدر، وبفتحها الإسم. وزلزلت ورجفت ورجت بمعنى واحد. والأثقال: جمع الثقل، وسمّى سبحانه الموتى أثقالاً؛ تشبيهاً بالحمل الذي يكون في البطن؛ لأنّ الحمل سمّي ثقلاً، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ وقول العرب: إنَّ للسيد الشجاع ثقلاً على الأرض، فإذا مات سقط عنها بموته ثقل. قالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

أَبْعَدَ ابْنِ عَمْرٍو مِنْ آلِ الشَّرِيدِ حَــلَّتْ بِــهِ الْأَرْضُ أَثْــقَالَها

عنت بذلك أنّه حلّ عن الأرض ثقل بموته لسؤدده وعزّه. وقيل: معناه: زينت موتاها به من الحلية. وقال الشمردل اليربوعي يرثي أخاه:

وَحَلَّتْ بِهِ أَثقالَهَا الْأَرْضُ، وَانْتَهىٰ لِمَثْواهُ مِنْها، وَهْوَ عَفٌّ شَمَائِلُهُ[٢]

وذكر ابن السائب أنّ زهير بن أبي سلمى قال بيتاً ثمّ أكدى[١]، فمرَّ به النابغة الذبياني، فقال له يا أبا أُمامة أجز. قال: ماذا. قال:

تَزَالُ الْأَرْضُ إِمَّا [مِتَّ] خِفّاً وَتَحْيَامَا حَـيَيْتَ بِـهِ ثَـقِيلاً

نَزَلْتَ بِمُسْتَقَرِّ الْعِزِّ مِنْها

فماذا قال؟ فأكدى والله النابغة الذبياني. وأقبل كعب بن زهير، وهو غلام. فقال له أبوه: أجز يا بني. قال: ماذا؟ فأنشده، فقال كعب: «فَتَمْنَعُ جانَبْيها أَنْ

---

(١) في الصحاح: ومطواي مشتاقان أي: صاحباى. والنضو: البعير المهزول. وأوّله: فظلت لدي البيت العتيق اخيله يعني: صرت إلى الكعبة، وهي البيت العتيق. واخيله أي: أنظر إليه. قال في الصحاح يعني: انظر إلى البرق وإن كان نضوفا، لمناسب أن يرجع الضمير فيه وفى «له» إلى البيت، فإنّ البعير لا يشتاق البرق، بل يشتاق الوصول إلى المقصد. والأصحّ ما في الصحاح، ومرّ في الكتاب أيضاً بلفظ مطواي.

(٢) يعني: حلّ في مثواه في الأرض، وهو القبر، وهو طاهر القلب من الذمائم.

[١] أكدى: قطع.

تَزُولا»[1] فقال له زهير: أنت والله ابني. وأوحى ووحى بمعنى واحد. قال العجاج: «وَحَىٰ [لَهَا] الْقَرَار فَاسْتَقَرَّتِ».

﴿الإعراب﴾: العامل في ﴿إِذَا﴾ قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. وقوله: ﴿خَيْراً﴾: منصوب على التمييز. وقيل: إنّ العامل في ﴿إِذَا﴾ قوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ويكون ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكراراً أي: إذا زلزلت الأرض تحدّث أخبارها. وقيل: إنّ التقدير: وقال الإنسان يومئذ مالها [يومئذ] تحدّث أخبارها. فقيل: ذلك بأنّ ربّك أوحى لها. و﴿تُحَدِّثُ﴾ يجوز أن يكون على الخطاب أي: تحدث أنت، ويجوز أن يكون على تحدّث هي.

﴿المعنى﴾: خوّف الله سبحانه عباده أهوال يوم القيامة، فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: إذا حركت الأرض تحريكاً شديداً لقيام الساعة، زلزالها التي كتب عليها. ويمكن أنْ يكون إنّما أضافها إلى الأرض؛ لأنّها تعمّ جميع الأرض، بخلاف الزلازل المعهودة التي تختصّ ببعض الأرض، فيكون في قوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ تنبيهاً على شدّتها.

﴿وَأَخْرَجَتْ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: أخرجت موتاها المدفونة فيها، تخرجها أحياء للجزاء، ـ عن ابن عباس ومجاهد والجبائي ـ. وقيل: معناه: لفظت ما فيها من كنوزها ومعادنا، فتقليها على ظهرها ليراها أهل الموقف، وتكون الفائدة في ذلك أنْ يتحسّر العصاة إذا نظروا إليها؛ لأنّهم عصوا الله فيها، ثمّ تركوها لا تغني عنهم شيئاً. وأيضاً فإنّه تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ أي: ويقول الإنسان متعجّباً: ما للأرض تتزلزل، يعني: مالها حدث فيها ما لم يعرف منها، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّ المراد

---

(١) شبه العز، وهو الثقل المعنوي بالثقل الجسماني يعني: إذا نزلت بأرض تمنع جانبي الأرض عن الزوال، كشيء ثقيل وضع على ثوب؛ لئلّا تطير به الريح.

بالإنسان الكافر؛ لأنّ المؤمن معترف بها، لا يسأل عنها أي: يقول الكافر الذي لم يؤمن بالبعث: أيّ شيء زلزلها، وأصارها إلى هذه الحالة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تخبر بما عمل عليها. وجاء في الحديث، أنّ النبيّ ﷺ قال: «أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، [و]هذا أخبارها». وعلى هذا فيجوز أنْ يكون الله تعالىٰ أحدث الكلام فيها، وإنّما نسبه إليها توسّعاً ومجازاً. ويجوز أن يقلبها حيواناً يقدر على النطق. ويجوز أنْ يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام، فعبّر عنه بالكلام كما يُقال: عيناك تشهدان بسهرك. وكقول الشاعر: «وَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَان سَمْعاً وَطَاعَةً».

وقد مرَّ أمثاله. وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ معناه: إنّ الأرض تحدّث بها، فتقول: إنّ ربّك يا محمّد أوحى لها أي: ألهمها وعرفها بأن تحدّث أخبارها. وقيل: بأن تلقي الكنوز والأموات على ظهرها. يُقال: أوحى له وإليه أي: ألقى إليه من جهة تخفى. قال الفرّاء: تحدّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها. وقال ابن عباس: أذن لها لتخبر بما عمل عليها. وروى الواحدي بإسناده مرفوعاً إلى ربيعة الحرشي قال: قال رسول الله ﷺ: «حافظوا على الوضوء، وخير أعمالكم الصلاة، وتحفظوا من الأرض، فإنّها أُمّكم، وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شرّاً إلاَّ وهي مخبرة». وقال أبو سعيد الخدري: إذا كنت بالبوادي، فارفع صوتك بالأذان، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يسمعه جنّ ولا إنس ولا حجر إلّا يشهد له».

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ أي: يرجع الناس عن موقف الحساب بعد العرض متفرّقين: أهل الإيمان على حدة، وأهل كل دين على حدة. وهذا كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليروا جزاء أعمالهم، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: إنّهم يرجعون عن الموقف فرقاً؛ لينزلوا منازلهم من الجنّة والنار. وقيل: معنى الرؤية هنا المعرفة بالأعمال عند تلك الحال، وهي رؤية القلب. ويجوز أنْ يكون التأويل على رؤية العين بمعنى: ليروا صحائف أعمالهم فيقرؤون ما فيها، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ أي: فمن يعمل وزن ذرّة من الخير، ير ثوابه وجزاءه ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ أي: ير ما يستحقّ عليه من العقاب[1].

ويمكن أنْ يستدلّ بها على بطلان الإحباط؛ لأنّ الظاهر يدلّ على أنّه لا يفعل أحد شيئاً من طاعة أو معصية، إلّا ويجازى عليها. وما يقع محبطاً لا يجازى عليه. وليس لهم أنْ يقولوا: إنّ الظاهر بخلاف ما تذهبون إليه في جواز العفو عن مرتكب الكبيرة، وذلك لأنّ الآية مخصوصة بالإجماع، فإنّ التائب معفوّ عنه بلا خلاف، وعندهم أنّ من شرط المعصية التي يؤاخذ بها، أن لا تكون صغيرة. فجاز لنا أيضاً أنْ نشرط فيها أنْ لا يكون ممّا يعفو الله عنه. وقال محمّد بن كعب: معناه: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً وهو كافر، ير ثوابه في الدنيا، في نفسه و أهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا وهو مؤمن، ير عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من

---

(١) وبناء على تجسّم الأعمال في الآخرة لا حاجة إلى التأويل؛ إذ يمكن صيرورة العرض في عالم جوهراً في عالم آخر، كما يرى العلم في الرؤيا في صورة اللبن، وسني القحط في صورة سبع بقرات عجاف، إلّا أن يقال مع هذا التجسّم أيضاً يصدق على المجسّم أنّه عين العمل باعتبار وغره باعتبار، ومعنى قول ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم، مبنيّ على اعتبار الغيريّة.

الدنيا، وليس له عند الله شرّ[١]. وقال مقاتل: فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره يوم القيامة في كتابه، فيفرح به. وكذلك من الشرّ يراه في كتابه، فيسوؤه ذلك. قال: وكان أحدهم يستقل أنْ يعطي اليسير ويقول: إنّما نوجر على ما نعطي ونحن نحبّه، وليس اليسير ممّا يحبّ [نحب]. ويتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنّما وعد الله [الكفّار] النار على الكبائر. فأنزل الله هذه الآية، يرغبهم في القليل من الخير، ويحذرهم اليسير من الشرّ.

وعن أبي عثمان المازني، عن أبي عبيدة قال: قدم صعصعة بن ناجية، جد الفرزدق، على رسول الله ﷺ في وفد بني تميم، فقال: بأبي أنت يا رسول الله أوصني خيراً. فقال: أُوصيك بأُمّك وأبيك وأدانيك. قال: زدني يا رسول الله. قال: إحفظ ما بين لحييك ورجليك. ثمّ قال رسول الله ﷺ: ما شيء بلغني عنك فعلته؟ فقال: يا رسول الله! رأيت الناس يموجون على غير وجه، ولم أدر أين الصواب، غير أنّي علمت أنّهم ليسوا عليه، فرأيتهم يئدون بناتهم، فعرفت أن الله، عزّ وجلّ، لم يأمرهم بذلك. فلم أتركهم يئدون، وفديت ما قدرت. وفي رواية أُخرىٰ: إنّه سمع ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ فقال: حسبي ما أُبالي أن لا أسمع من القرآن غير هذا. وقال عبدالله بن مسعود: أحكم آية في

---

(١) قال الفاضل المقداد في شرح نهج المسترشدين: المؤمن المطيع إذا كفر زال استحقاق ثوابه إجماعا، والكافر إذا آمن زال استحقاق عقابه إجماعا، واختلف في المؤمن المطيع إذا فعل ما يستحقّ به عقابا، هل يجتمع له استحقاق ثواب واستحقاق عقاب أم لا، فقالت المرجئة والإماميّة والأشاعرة: نعم يمكن ذلك، وقال جمهور المعتزلة: لا يمكن ذلك لما يأتي من شبهتهم، ولذلك قالوا بالإحباط والتكفير، والاحباط: هو خروج فاعل الطاعة عن استحقاق المدح والثواب إلى استحقاق الذمّ والعقاب، والتكفير: هو خروج فاعل المعصية عن استحقاق الذمّ والعقاب إلى استحقاق المدح والثواب. ثمّ استدلّ فيما استدلّ بهذه الآية ولا ينافي ذلك ثبوت الاعواض للكفّار، على ما قاله محمّد بن كعب، فإنّ العوض على المشقّة غير الثواب.

القرآن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه﴾ إلى آخر السورة. وكان ﷺ يسمّيها الجامعة. وتصدق سعد بن أبي وقّاص بتمرتين، فقبض السائل يده، فقال سعد: ويحك، يقبل الله منّا مثقال الذرّة والخردلة، وكأنّ فيها [فيهما] مثاقيل.

سورة العاديات

مدنيّة، ـ عن ابن عباس وقتادة ـ. وقيل: مكّيّة.

عدد آياتها: إحدى عشرة آية بالإجماع.

فضلها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأها، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً». سليمان بن خالد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ومن قرأ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ وأدمن قراءتها، بعثه الله مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم القيامة خاصّة، وكان في حجره ورفقائه.

النظم: اتّصلت هذه السورة بما قبلها؛ لما فيها من ذكر القيامة والجزاء، اتّصال النظير بالنظير، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ (١)

القراءة: في الشواذّ قراءة أبي حياة «فأثّرن» ـ بتشديد الثاء ـ، وقراءة عليّ عليه السلام وقتادة وابن أبي ليلى «فوسّطن» ـ بتشديد السين ـ.

الحجّة: قال ابن جنّي: فأثّرن مثل: أبدَيْنَ وأرَينَ نقعاً، كما يؤثر الإنسان

---

(١) إن قيل: حبّ المال حرام بمقتضى هذه الآية، مع أنّه لا يخلو عنه أحد، وأثبت في الشرع حقوقا في الأموال، وأوجب كون التجارة عن تراض، ولا يجوز غصب أموال الناس بالضرورة من الدين. قلنا: مفاد الآية ذمّ شدّة الحبّ، لا الحبّ مطلقا، ومعناه بقرينة ما ذكر في السؤال، أنّ شدّة الحبّ مفضية غالبا إلى ترك الحقوق الواجبة، كالزكاة والحجّ وأداء الديون، كما قال: فسنيسّره للعسرى أي: يصير في معرض فعل الحرام، وأيضاً لا تنافي بين أن يثبت حقّ وضعا لرجل في ماله، ويحرم عليه الاستفادة من حقّه تكليفا، فإذا باع ماله صحّ بيعه وعوتب عليه، وقد مرّ أنّ أبا الدحداح، ابتاع نخلة من رجل بأربعين نخلة، وكان بيعه صحيحا.

النقش وغيره ممّا يبديه للناظر، وهو من التأثير. فالهمزة فاء الفعل، وأثَرن ـ بالتخفيف ـ من الإثارة، فالهمزة مزيدة. وقوله: «فوسَّطن» ـ بالتشديد ـ معناه: ميَّزن به جمعاً أي: جعلنه شطرين قسمين وشقّين، ومعنى «وسطنه» ـ بالتخفيف ـ: صرن في وسطه.

اللغة: الضبح في الخيل: الحمحمة عند العدو. وقيل: هو شدّة النفس عند العدو. وضبحت الخيل تضبح ضبحاً وضباحاً. وقيل: ضبح وضبع بمعنى. وهو أن يمدَّ ضبعه في السير حتى لا يجد مزيداً. وأورى القادح النار يوري إيراء: إذا قدح قدحاً، وتسمّى تلك النار نار الحباحب لضعفها. قال النابغة:

يَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَيُوقِدْنَ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْحَباحِبِ[1]

وهو اسم رجل كان بخيلاً، وكانت ناره ضعيفة؛ لئلّا يراها الأضياف، فضربوا المثل بناره، وشبّهوا نار الحوافر بها؛ لقلّتها.

والنقع: الغبار يغوص فيه صاحبه، كما يغوص في الماء. والكنود: الكفور. ومنه: الأرض الكنود، وهي التي لا تنبت شيئاً. والأصل فيه منع الحقّ والخير. قال الأعشىٰ:

أَحْدِثْ لَهَا تُحْدِثْ لِوَصْلِكَ، إِنَّها كَنِدٌ لِوَصْلِ الزَّائِرِ الْمُعْتادِ

وقيل: إنّما سمّيت كندة؛ لقطعها إيّاها.

النزول: قيل: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حيّ من كنانة، فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، أحد النقباء، فتأخّر رجوعهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً. فأخبر الله تعالىٰ عنها بقوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾، ـ عن مقاتل ـ.

---

(١) يصف سيفه. والسلوقي: الدرع المنسوب إلى سلوق بلد. ونار الحباحب: ما يتطاير من وقع الحديد على الحجر.

وقيل: نزلت السورة لمّا بعث النبيّ ﷺ عليّاً عليه السلام إلى ذات السلاسل، فأوقع بهم. وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة، فرجع كل منهم إلى رسول الله ﷺ، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل قال: وسمّيت هذه الغزوة ذات السلاسل؛ لأنّه أسر منهم، وقتل وسبى، وشدّ أسراهم في الحبال مكتفين، كأنّهم في السلاسل. ولمّا نزلت السورة، خرج رسول الله ﷺ إلى الناس، فصلىٰ بهم الغداة [الغداة]، وقرأ فيها ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾، فلمّا فرغ من صلاته، قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إنّ عليّاً ظفر بأعداء الله، وبشّرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة». فقدم عليّ عليه السلام بعد أيّام بالغنائم والأسارى.

المعنى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ قيل: هي الخيل في الغزو تعدو في سبيل الله، ـ عن ابن عباس وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وقتادة والربيع، قالوا: أقسم الله بالخيل العادية لغزو الكفّار، وهي تضبح ضبحاً. وضبحها: صوت أجوافها إذا عَدَت، ليس بصهيل، ولا حمحمة، ولكنّه صوت نفس. وقيل: هي الإبل حين ذهبت إلى غزوة بدر، تمدّ أعناقها في السير، فهي تضبح أي: تضبع [تضبع أي: تضبح]. ـ روي ذلك عن علي عليه السلام، وابن مسعود والسدّي ـ. وروي أيضاً أنّها إبل الحاجّ، تعدو من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى. قالت صفية بنت عبد المطلب:

أَلاَ وَالْعَادِيَاتِ غَداةَ جَمْعٍ ... بِأَيْدِيها إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ

واختلفت الروايات فيه، فروي عن أبي صالح أنّه قال: قاولت فيه عكرمة، فقال عكرمة: قال ابن عباس هي الخيل في القتال. فقلت أنا: قال عليّ عليه السلام: هي

الإبل في الحجّ، وقلت: مولاي أعلم من مولاك[١]. وفي رواية أُخرىٰ أنّ ابن عباس قال: هي الخيل، ألا تراه يقول: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فهل تثيره إلاَّ بحوافرها، وهل تضبح الإبل؟ إنّما تضبح الخيل. قال عليّ عليه السلام: ليس كما قلت. لقد رأيتنا يوم بدر، وما معنا إلاَّ فرس أبلق للمقداد بن الأسود. وفي رواية أُخرىٰ لمرثد بن أبي مرثد الغنوي.

وروي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنّه قال: بينما أنا في الحجرة جالس، إذ أتاني رجل، فسأل عن العاديات ضبحاً، فقلت له: الخيل تغيّر في سبيل الله، ثمّ تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم، ويورون نارهم. فانفتل عنّي، وذهب إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو تحت سقاية زمزم. فسأله عن العاديات ضبحاً فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم. سألت عنها ابن عباس. فقال: الخيل حين تغيّر في سبيل الله. قال: فاذهب فادعه لي. فلمّا وقف على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام بدر، وما كانت معنا إلّا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل؟ بل العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس: فرغبت عن قولي، ورجعت إلى الذي قاله عليّ عليه السلام.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ هي الخيل توري النار بحوافرها إذا صارت في

---

(١) الغالب على التابعين التشيّع، مع كون الأمراء في عهدهم من النواصب، ولكن مصلحة امام الوقت، ومصلحتهم أيضاً اقتضت أن يتركوا المراودة خصوصاً مع سيّدنا السجّاد عليه السلام بعد وقعة الطفّ فإنّ الأمراء لو اطّلعوا على اجتماع عليه عليه السلام، لاستأصلوا الشيعة عن آخرهم، ولا سيّما في امارة الحجاج، وكان أحكام الدين معلومة لديهم بالتواتر عن أمير المؤمنين عليه السلام، وبما يستنبطونه من القرآن، والسنة، وإجماع المسلمين، فلا يجوز أن نخصّص التشيّع بمن كان من رواة أحاديث أئمّتنا عليهم السلام كزرارة، وقد ذكر ابن قتيبة في المعارف جماعة من الشيعة لم يذكر في رجالنا، ولأن نكذّبه لأنّه عالم بهذا الشان، وسيأتي في الصفحة ٤٥٩ ان شاء الله.

الحجارة، والأرض المحصبة، ـ عن عكرمة والضحّاك ـ. وقال مقاتل: يقدحن بحوافرهنّ النار في الحجارة. قال ابن عباس: يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل، فأورت منه النار مثل الزناد إذا قدح. وقال مجاهد: يريد مكر الرجال في الحروب، تقول العرب إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأورين لك بزند وار، ولأقدحنَّ لك. وخالف المصدر فيها صدر الكلام، ومجازه فالقادحات قدحاً. وقيل: هي النيران بجمع، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلّم به، ـ عن عكرمة ـ.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ يريد الخيل تغيّر بفرسانها على العدو، وقت الصبح. وإنّما ذكر وقت الصبح؛ لأنّهم كانوا يسيرون إلى العدو ليلاً، فيأتونهم صبحاً، هذا قول الأكثرين. وقيل: يريد الإبل ترتفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى. والسنّة أن لا ترتفع بركبانها حتى تصبح. والإغارة: سرعة السير، ومنه: قوله [قولهم]: «أَشْرِق ثَبِيرُ كما نغير»[1] ـ عن محمّد بن كعب ـ.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ يُقال: ثار الغبار والدخان، وأثرته أي: هيجته. والهاء في ﴿بِهِ﴾ عائد إلى معلوم يعني بالمكان، أو بالوادي. المعنى: فيهجن [فهيجن] بمكان عدوهنَّ غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ أي: صرن بعدوهنَّ، أو بذلك المكان، وسط جمع العدو، وهم الكتيبة. وقال محمّد بن كعب: يريد جمع منى.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا جواب القسم. والكنود: الكفور الجحود لنعم الله، ـ عن ابن عباس وقتادة والحسن ومجاهد ـ. وقيل: هو بلسان كندة وحضرموت: العاصي. وبلسان مضر وربيعة وقضاعة: الكفور، ـ عن الكلبي ـ.

---

(١) كانوا يقولون هذه الكلمة إذا أرادوا الخروج من المشعر إلى منى يوم النحر؛ لأنّ وقته مطلع الشمس. وثبير: جبل والمعنى: أشرق يا ثبير بضوء الشمس مسرعا كما نسرع.

وقيل: هو الذي يعد المصائب [المعائب]، وينسى النعم، ـ عن الحسن ـ. وأخذه بعض الشعراء، فقال:

يَـا أَيُّـهَا الظَّـالِمُ فِـي فِـعْلِهِ ... وَالظُّلْمُ مَرْدُودٌ عَـلىٰ مَـنْ ظَـلَمَ
إِلىٰ مَـتىٰ أَنْتَ، وَحَـتَّى مَـتىٰ ... تَشْكُوا الْمُصِيبَاتِ، وَتَنْسىَ النِّعَم

وروى أبو أُمامة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أتدرون من الكنود؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده». وقيل: الكنود الذي لا يعطي في النائبة مع قومه، ـ عن عطاء ـ. وقيل: هو القليل الخير، ـ عن أبي عبيدة ـ.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ معناه: وإنّ الله على كفره لشهيد، ـ عن ابن عباس وقتادة وعطاء ـ. وقيل: إنّ الهاء تعود إلى الإنسان، والمعنى: إنّ الإنسان شاهد على نفسه يوم القيامة بكنوده، أو في الدنيا، فإنّك لو سألته عن النعمة، لم يذكر أكثرها، ويذكر جميع مصائبه، وهو معنى قول الحسن.

﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي: لأجل حبّ الخير الذي هو المال أي: من أجله لبخيل شحيح، يمنع منه حقّ الله تعالىٰ، ـ عن الحسن ـ. يُقال للبخيل: شديد ومتشدّد. قال طرفة:

أَرَىٰ الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرامَ، وَيَصْطَفِي ... عَقِيلَةَ مَـالِ الْـفَاحِشِ الْـمُتَشَدِّدِ[1]

وقيل: معناه: وإنّه لشديد الحبّ للخير أي: المال، ـ عن الفرّاء ـ. وقال ابن زيد: سمّى الله سبحانه المال خيراً، وعسى أن يكون خبيثاً وحراماً، ولكن لأنّ الناس يعدُّونه خيراً، فكذلك سمّى الجهاد سوءاً، فقال: ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أي: قتال. وليس هو عندالله بسوء؛ لأنّ الناس يسمّونه سوءاً.

---

(١) البخيل.

وقال سبحانه على وجه التذكير والوعيد: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هذا الإنسان الذي وصفناه ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: بعث الموتى[١] ونشروا وأُخرجوا. ومثله: بحثر. ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ميّزوا بين ما فيها من الخير والشرّ. وقيل: معناه: وأظهر ما أخفته الصدور ليجازي على السرّ، كما يجازي على العلانية[٢]. ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ قال الزجّاج: الله سبحانه خبير بهم في ذلك اليوم، وفي غيره، ولكن المعنى أنّ الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم، وليس يجازيهم إلاّ بعلمه بأحوالهم وأعمالهم. ومثله: قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ومعناه: أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم.

وفي هذا إشارة إلى الزجر والوعيد، فإنّ الإنسان متى علم أنّ خالقه يرى جميع أعماله، ويعلم سائر أفعاله، ويحقّق ذلك، لا بدَّ أن ينزجر عن المعاصي.

---

(١) أي: كناية عن البعث، ولا يراد ظاهره، فإنّ أكثر الأموات لا يبقون في قبورهم إلى يوم القيامة وكثيراً من أفراد الإنسان لا يدفنون موتاهم في القبور، ولمّا كان القبر مأوى الميّت، بحيث ينتقل الذهن منه إليه، عبّر بالقبر، وأريد به المأوى أياما كان، والهنود يحرقون موتاهم، وينشرون رمادها في الماء، فتذهب كلّ مذهب. وقال الفاضل المجلسي الأوّل، في شرح الفقيه بالفارسية: إنّ القبر عبارة عن ما يكون فيه الميّت، ولا يجب التفكّر في تفصيله وكيفيّته، ونعم ما قال، وكذلك نظائره، مثل احياء العظام، وربما لا يبقى للميّت عظم ولو رميماً.

(٢) وهذا يدلّ على أنّ الملكات والاسرار القلبية تبقى، ثمّ تظهر متحصّلة في القيامة، بعد أن كانت معنى عرضيا مغمورا في الدنيا، ويدلّ أيضاً على بقاء النفس إذ لو لم تبق لم تبق ملكاتها تحصل في القيامة، فالصلاح والتقوى في الدنيا أمر اعتباري أو عرضي، لا يلتذّ به صاحبه، كالتذاذه بالشهوات، وتصير في الآخرة أمراً جوهريّاً حقيقياً.

سورة القارعة

عَدَدُ آيِهَا: إحدى عشرة آية كوفيّ حجازيّ، ثمان بصريّ شاميّ.

اخْتِلَافُهَا: ثلاث آيات: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأُولىٰ كوفي، ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ و﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ كلتاهما حجازيّ كوفيّ.

فَضْلُهَا: في حديث أُبيّ: من قرأها ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة. عمرو بن ثابت عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ أمنه الله من فتنة الدجّال أن يؤمن به، ومن قبح جهنّم يوم القيامة.

تَفْسِيرُهَا: اتّصلت هذه السورة بما قبلها، اتّصال النظير بالنظير، فإنّ كلتيهما في ذكر القيامة، فقال سبحانه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

القراءة: روي عن أبي عمرو أنّه أمال ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾. وقرأ حمزة ويعقوب: «ما هي» في الوصل. والباقون: «ما هيه» بإثبات الهاء، ولم يختلفوا في الوقف أنّها بالهاء.

الحجة: قال أبو عليّ: إمالة ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ وإن كان المستعلى فيه مفتوحاً، جائزة، وذلك أنّ كسرة الراء غلبت عليها فأمالتها. وقد أمالت ما تباعد عنها نحو: قادر. وزعم سيبويه أنّ ذلك لغة قوم ترضى عربيّتهم، وكذلك طارد وغارم وطاهر، وكل ذلك تجوز إمالته إذا كانت الراء مكسورة. وقال سيبويه: وينشد أصحاب هذه اللغة:

عَسَى اللهُ يُغْنِي عَنْ بِلاد ابنِ قادِرٍ بِمُنْهَمِرٍ، جَوْنِ الرَّبابِ، سَكُوبِ[١]

وأمّا قوله: «ماهيه» فيوقف عندها؛ لأنّها فاصلة. والفواصل مواضع وقوف، كما أنّ أواخر الأبيات كذلك، وهذا ممّا يقوي حذف الياء من «يَسْرِ»، وما أشبهه. ألا ترى أنّهم حذفوا الياء من نحو قوله:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ، وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ، ثُمَّ لا يَفْرِي[٢]

اللغة: القارعة: البليّة التي تقرع القلب بشدّة المخافة. والقرع: الضرب بشدّة الإعتماد. قرع يقرع قرعاً. ومنه: المقرعة. وتقارع القوم في القتال: إذا تضاربوا بالسيوف. والقرعة كالضرب بالفال. وقوارع الدهر: دواهيه.

والفراش: الجراد الذي ينفرش [يتفرش] ويركب بعضه بعضاً، وهو غوغاء الجراد، ـ عن الفرّاء ـ. والمبثوث: المتفرّق في الجهات، كأنّه محمول على الذهاب فيها. والبثّ: التفريق. وأبثثته الحديث: إذا ألقيته إليه، كأنّك فرقته بأن جعلته عند اثنين.

والعهن: الصوف ذو الألوان، يقال: عهن وعهنة. وعيشة راضية أي: مرضية، فاعل بمعنى المفعول. وقيل: معناه: ذات رضى كقولهم: فلان نابل أي: ذو نبل. قال:

وَغَرَرْتَني، وَزَعَمْتُ أَنَّكَ لابِنٌ بِالصَّيْفِ تامِرٌ

أي: ذو لبن وتمر. وقال النابغة:

---

(١) قال سيبويه في الكتاب: سمعنا مَن نثِقُ به من العرب، يقول (لندبة بن خشرم): عسى الله يغنى آه يعني يتلفّظ قيدر بالإمالة. وانهمر الماء: سال. والجون: الأبيض هنا. والرباب: السحاب الأبيض وسكب الماء: صبّ.

(٢) البيت من قصيدة لزهير، يمدح بها هرم بن سنان، مطلعها: لمن الديار بقنة الججر [الحجر] اقوين من حجج ومن دهر، فإذا وقفنا على القوافي، كانت الراء ساكنة في جميعها، فيلزم حذف الياء من «لا يفري» حتى يسكن الراء، وان لم نقف ألحق في القوافي ياء الإطلاق، ويثبت الياء في لا يفري يعني أنت تنفذ كلّ ما أردت، وفري الاديم قطعة وخلقه تقديره.

كِـلِيني لِـهَمّ يـا أُمَـيْمَةُ نـاصِبٍ وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الْكَواكِبِ[1]

أي: ذي نصب. والهاوية: من أسماء جهنّم، وهي المهواة التي لا يدرك قعرها.

الإعراب: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ. و ﴿مَا﴾: مبتدأ ثان. وما بعده خبره. وكان حقّه القارعة ما هي، لكنَّه سبحانه كرَّر تفخيماً لشأنها. ومثله: قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ والجملة خبر المبتدأ الأوّل. ويجوز أن يكون قوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ و﴿يَكُونَ النَّاسُ﴾ خبره، بمعنى أنّ القارعة تحدث في هذا اليوم، فيكون قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ اعتراضاً. ويجوز أن يكون التقدير: هذا الأمر يقع يوم يكون الناس كالفراش المبثوث.

المعنى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ اسم من أسماء يوم القيامة؛ لأنّها تقرع القلوب بالفزع، وتقرع أعداء الله بالعذاب ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ هذا تعظيم لشأنها، وتهويل لأمرها، ومعناه: وأيُّ شيء القارعة. ثمّ عجّب نبيّه ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ يقول: إنّك يا محمّد لا تعلم حقيقة أمرها، وكنه وصفها على التفصيل، وإنّما تعلمها على سبيل الإجمال.

ثمّ بيّن سبحانه أنّها متى تكون، فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ شبَّه الناس عند البعث بما يتهافت في النار. وقال قتادة: هذا هو الطائر الذي يتساقط في النار والسراج. وقال أبو عبيدة: هو طير ينفرش ليس بذباب، ولا بعوض؛ لأنّهم إذا بعثوا ماج بعضهم إلى بعض. فالفراش إذا ثار، لم يتجّه إلى جهة واحدة، فدلّ ذلك على أنّهم يفزعون عند البعث، فيختلفون في المقاصد على جهات مختلفة. وهذا مثل قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

---

(١) أي: ذرّيني يا أميمة وهمي الناصب. وبطؤ الكواكب: كناية عن طول الليل.

﴿الْمَنفُوشِ﴾ وهو الصوف المصبوغ المندوف، والمعنى أنّ الجبال تزول عن أماكنها، وتصير خفيفة السير.

ثمّ ذكر سبحانه أحوال الناس، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته، وكثرت خيراته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: معيشة ذات رضى يرضاها صاحبها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: خفّت حسناته، وقلّت طاعاته. والقول في حقيقة الوزن والميزان، والاختلاف في ذلك قد مضى ذكره فيما سبق من الكتاب[1]. وقد ذكر سبحانه الحسنات في الموضعين، ولم يذكر وزن السيّئات؛ لأنّ الوزن عبارة عن القدر والخطر، والسيّئة لا خطر لها، ولا قدر، وإنّما الخطر والقدر للحسنات. فكأنّ المعنى: فأمّا من عظم قدره عندالله لكثرة حسناته، ومن خفَّ قدره عندالله لخفّة حسناته.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي: فمأواه جهنّم، ومسكنه النار. وإنّما سمّاها أُمّه؛ لأنّه يأوي إليها، كما يأوي الولد إلى أُمّه، ولأنّ الأصل السكون إلى الأُمّهات. قال قتادة: هي كلمة عربيّة، كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قيل: هوت أُمّه. وقيل: إنّما قال: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾؛ لأنّ العاصي يهوي إلى أُمّ رأسه في النار، ـ عن أبي

---

(١) قال العلامة ﷺ في شرح التجريد، قال شيوخ المعتزلة: إنّه يوضع ميزان حقيقيّ، له كفّتان، يوزن به ما يتبيّن من حال المكلّفين في ذلك الوقت لأهل الموقف، بأن يوضع كتاب الطاعات في كفّة الخير، ويوضع كتاب المعاصي في كفّة الشرّ، ويجعل رجحان أحدهما دليلا على إحدى الحالتين. ثمّ قال وقال عباد وجماعة من البصريين، وآخرون من البغداديّين: المراد بالموازين: العدل دون الحقيقة. واكتفى العلّامة ﷺ بنقل القولين، ولم يرجع شيئا، وهو الحقّ، فإنّه تكلّم في أمور الآخرة، ولا يحيط علما بما فيها، ولايقاس أمورها بأمور الدنيا، فلو أراد أحدنا أن يحكم فيها يجري في بلد آخر قياسا، على ما رآه في بلده من غير دليل، كان مخطئا، فكيف بما في عالم آخر.

صالح ـ. وقيل: إنّه يهوي فيها، وهي المهواة، لا يدرك قعرها.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ هذا تعظيم وتفخيم لأمرها، يريد إنّك لا تعلم تفصيلها، وأنواع ما فيها من العقاب، وإن كنت تعلمها على طريق الجملة. والهاء في ﴿هِيَهْ﴾ للوقف. ثمّ فسّرها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: نار حارّة، شديدة الحرارة.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مدنيّة. وقيل: مكّيّة، ثماني آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: ومن قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، وأُعطي من الأجر، كأنّما قرأ ألف آية. شعيب العقر قوفي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في فريضة، كتب له ثواب وأجر مائة شهيد. ومن قرأها في نافلة، كان له ثواب خمسين شهيداً، وصلّى معه في فريضته أربعون صفّاً من الملائكة. وعن درست، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «من قرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ عند النوم وقي فتنة القبر».

تفسيرها: أخبر الله سبحانه في تلك السورة عن صفة القيامة، وذكر في هذه السورة من ألهاه عنها التكاثر، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

(القراءة): قرأ ابن عامر والكسائي: «لتُرون» ـ بضمّ التاء ـ. وروي ذلك عن عليّ عليه السلام. والباقون: ﴿لَتَرَوْنَ﴾ ـ بالفتح ـ.

(الحجة): قال أبو عليّ: من قال: «لتُرون» ـ بضمّ التاء ـ فإنّ «رأى» فعل يتعدّى إلى مفعول واحد. تقول: رأيت الهلال، كما تقول: لبستَ ثوبك. فإذا نقلت الفعل بالهمزة، زاد مفعول آخر، تقول: أريت زيداً الهلال، فإذا بنيت هذا الفعل للمفعول قلت: أُرِيَ زيد الهلالَ، وكذلك «لترونّ الجحيم».

(اللغة): الإلهاء: الصرف إلى اللهو. واللهو: الإنصراف إلى ما يدعو إليه الهوى. يقال: لها يلهو لهواً. ولهى عن الشيء يلهى. ومنه: قولهم: فإذا استأثر الله بشيء فالْهُ عنه. والتكاثر: التفاخر بكثرة المناقب. يقال: تكاثر القوم: إذا تعادّوا ما لهم من المناقب.

والزيارة: إتيان الموضع كإتيان المألوف على غير إقامة زاره يزوره زيارة. ومنه: زوَّر تزويراً: إذا شبَّه الخطّ بما يوهم أنّه خطّ فلان وليس به. والمزورة من

ذلك اشتقّت. والفرق بين النعيم والنعمة: أنّ النعمة كالإنعام في التضمين لمعنى منعم، أنعم إنعاماً ونعمة، وكلاهما موجب للشكر. والنعيم ليس كذلك؛ لأنه من نعم نعيماً. فلو عمل ذلك بنفسه لكان نعيماً لا يوجب شكراً. وأمّا النَعمة ـ بفتح النون ـ، فمِن نُعم ـ بضمّ العين ـ: إذا لان.

الإعراب: ﴿كَلاَّ﴾ حرف، وليس بإسم، وتضمّنه معنى «ارتدع» لا يدلّ على أنّه كصه بمعنى «أُسكت»، ومه بمعنى «أُكفف». ألا ترى أنّ «أمّا» تتضمّن معنى «مهما يكن من شيء»، وهو حرف. فكذا ﴿كَلاَّ﴾ ينبغي أن يكون حرفاً. ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ﴾: جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وتقديره: لمّا ألهاكم التكاثر.

و ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: مصدر. وقيل: هو قسم، والتقدير: وعلم اليقين لترون الجحيم أي: عذاب الجحيم، فحذف؛ لأنّ رؤيتها ليس بوعيد، وإنّ الوعيد برؤية عذابها، وتقديره في الإعراب: علم الخبر اليقين، فحذف المضاف. ومثله: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ ولا يجوز الهمز في واو ﴿لَتَرَوْنَ﴾ و﴿لَتَرَوْنَهَا﴾ على قياس: أثؤب في «أثوب» وأُعِد في «وعد»، لأنّ الضمّة هنا عارضة لالتقاء الساكنين، وليست بلازمة.

وأمّا ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ فانتصابه انتصاب المصدر أيضاً، كما تقول: رأيته حقّاً، وتبينته يقيناً. والرؤية هنا بمعنى المشاهدة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

النزول: قيل: نزلت السورة في اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا، ـ عن أبي بريدة ـ. وقيل: نزلت في حيين [حي] من قريش: بني عبد مناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو، تكاثروا، وعدوا أشرافهم، فكثرهم بنو عبد مناف، ثمّ قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور، فعدوهم وقالوا: هذا

قبر فلان، وهذا قبر فلان، فكثرهم بنو سهم؛ لأنّهم كانوا أكثر عدداً في الجاهليّة، ـ عن مقاتل والكلبي ـ.

المعنى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم عن طاعة الله، وعن ذكر الآخرة، التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتهما ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: حتى أدرككم الموت على تلك الحال، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقال الجبائي: حتى متّم على ذلك، ولم تتوبوا. وقيل: ألهاكم التباهي بكثرة المال والعدد، عن تدبّر أمر الله، حتى عددتم الأموات في القبور[1]. وروى قتادة عن مطرف بن عبدالله الشخير، عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو يقول ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ السورة. قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، ومالَك من مالِك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت» أورده مسلم في الصحيح.

ثمّ ردّ الله تعالى عليهم هذا، فقال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر الذي ينبغي أن تكونوا عليه التكاثر. ثمّ أوعدهم، فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. ثمّ أكّد ذلك وكرّره فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الحسن ومقاتل: هو وعيد بعد وعيد، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تباهيكم وتكاثركم، إذا نزل بكم الموت. وقيل: معناه: سوف تعلمون [في القبر، ثمّ سوف تعلمون] في الحشر. رواه زرّ بن حبيش [جيش]، عن عليّ عليه السلام قال: ما زلنا نشكّ في عذاب القبر[2] حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ إلى

---

(١) حمل بعض المفسّرين قوله تعالى: حتّى زرتم المقابر، على الزيارة المعروفة. قيل: إنّ الإنسان إذا زار القبور تذكر الموت، وأنّه أمر لابدّ منه، فيقلّ لهوه. وروي عن النبيّ ﷺ كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنّ في زيارتها تذكرة، ولم يذكر المصنّف هذا القول، فلعلّه متأخّر، لم يقل به من سبقه.

(٢) قال في المواقف: أنكره ضرار بن عمرو، وبشر المريسي، وأكثر المتأخّرين من المعتزلة قال والأحاديث الدالّة عليه أكثر من أن تحصى، بحيث تواتر القدر المشترك، ثمّ قالوا يعني ←

قوله: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يريد في القبر. ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد البعث. وقيل إنّ المعنى: كلّا سوف تعلمون إذا رأيتم دار الابرار، ثمّ كلّا سوف تعلمون إذا رأيتم دار الفجّار. والعرب تؤكّد بكَلاّ وحقّاً.

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هذا كلام آخر يقول: لو تعلمون الأمر علماً يقيناً، لشغلكم ما تعلمون عن التفاخر، والتباهي بالعزّ والكثرة و﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هو العلم الذي يثلج به الصدر بعد اضطراب الشكّ فيه، ولهذا [لذا] لا يوصف الله بأنّه متيقّن. ثمّ استأنف سبحانه وعيداً آخر، فقال: ﴿لَتَرَوْنَّ الْجَحِيمَ﴾ على نية القسم، ـ عن مقاتل ـ. يعني: حين تبرز الجحيم في القيامة، قبل دخولهم إليها ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ يعني بعد الدخول إليها ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ كما يقال حقّ اليقين، ومحض اليقين، ومعناه: ثمّ لترونها بالمشاهدة إذا دخلتموها، وعذبتم بها.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ﴾ قال مقاتل: يعني كفّار مكّة، كانوا في الدنيا في الخير والنعمة، فيسئلون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه، إذ لم يشكروا ربّ النعيم، حيث عبدوا غيره، وأشركوا به، ثمّ يعذّبون على ترك الشكر، وهذا قول الحسن قال: لا يسأل عن النعيم إلّا أهل النار.

وقال الأكثرون: إنّ المعنى: ثمّ لتسئلنّ يا معشر [معاشر] المكلّفين عن النعيم [النعم]. قال قتادة: إنّ الله سائل كل ذي نعمة عمّا أنعم عليه. وقيل: عن النعيم في

← المعتزلة: إنّما يمكن العمل بالظواهر إذا لم تكن مخالفة للمعقول، ودليل مخالفتها للمعقول انا نرى شخصا يصلب ويبقى مصلوبا إلى أن تذهب أجزاؤه، ولا نشاهد فيه احياء ومسئلة، والقول بها [بهما] مع عدم المشاهدة سفسطة، وأبلغ منه من أكلته السباع إلى أن قال، وقد تحيّر الأصحاب في التفصّي، فقالوا لابد [بعد] في الاحياء والمسئلة مع عدم المشاهدة، كما في صاحب السكتة، وكما في روية النبيّ ﷺ جبرئيل عليه السلام وهو بين أظهر أصحابه مع ستره عنهم وجميع ماذكروه من الاستبعاد، والجواب خارج عن طريق المعقول، فإنّه لا يجوز قياس أمور الآخرة بأمور الدنيا، كما لا يجوز قياس أمور بلد بأمور بلد آخر.

المأكل، والمشرب، وغيرهما من الملاذّ، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: النعيم: الصحّة والفراغ، ـ عن عكرمة ـ. ويعضده ما رواه ابن عباس، عن النبيّ ﷺ قال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحّة والفراغ». وقيل: هو الأمن والصحّة، ـ عن عبدالله بن مسعود ومجاهد ـ. وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليهما السلام. وقيل: يسأل عن كل نعيم إلّا ما خصَّه الحديث، وهو قوله: ثلاث لا يسأل عنها العبد: خرقة يواري بها عورته، أو كسرة يسدُّ بها جوعته، أو بيت يكنّه من الحرّ والبرد، وروي أنّ بعض الصحابة أضاف النبيّ ﷺ مع جماعة من أصحابه، فوجدوا عنده تمراً، وماء بارداً، فأكلوا. فلمّا خرجوا قال: هذا من النعيم الذي تسألون [تسائلون] عنه. وروى العياشي بإسناده في حديث طويل، قال: سأل أبو حنيفة أبا عبدالله عليه السلام عن هذه الآية، فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان؟ قال: القوت من الطعام، والماء البارد. فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه، حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها، وشربة شربتها، ليطولنَّ وقوفك بين يديه! قال: فما النعيم جعلت فداك؟ قال: نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألَّف الله بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداء، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم الله به عليهم، وهو النبيّ ﷺ وعترته.

سُورَةُ العَصْرِ

مكّيّة. ثلاث آيات بالإجماع.

اخْتِلافُها: آيتان، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ غير المكّي والمدني الأخير، ﴿بِالْحَقِّ﴾ مكّي والمدني الأخير.

فَضْلُها: في حديث أُبيّ: ومن قرأها ختم الله له بالصبر، وكان مع أصحاب الحقّ يوم القيامة. الحسين بن أبي العلاء، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ في نوافله، بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنّه، قريرة عينه، حتى يدخل الجنّة.

تَفْسِيرُها: ختم الله سبحانه تلك السورة بوعيد من أَلهاه التكاثر، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك، وهو أنّ الإنسان لفي خسر إلّا المؤمن الصالح، فقال سبحانه:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ (١)

(اللغة): أصل العصر: عصر الثوب ونحوه، وهو فتله لإخراج مائه. ومنه: عصر الدهر، فإنّه الوقت الذي يمكن فيه فتل الأُمور، كما يفتل الثوب. والعصر: العشي. قال:

يَرُوحُ بِنا عَمْرٌو، وَقَدْ قَصُرَ الْعَصْرُ وَفِي الرَّوْحَةِ الْأُولَى الْغَنِيمَةُ، وَالْأَجْرُ

والعصران: الغداة والعشي. والعصران: الليل والنهار. قال:

وَلَنْ يَلْبِثَ الْعَصْرانِ يَوْمٌ، وَلَيْلَةٌ إِذا طَلَبَ [طَلَبا] أَنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّما(٢)

(الإعراب): أراد بالإنسان الجمع دون المفرد، بدلالة أنّه استثنى منه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وروى بعضهم عن أبي عمرو ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على لغة من قال: مررت ببكر(٣).

(المعنى): ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم سبحانه بالدهر؛ لأنّ فيه عبرة لذوي الأبصار

---

(١) يوقف لحمزة على «الإنسان» بنقل حركة الهمزة إلى اللام، وحذفها.

(٢) يدرك الزمان كلّ ما تيمم أي: أراد أن يدركه.

(٣) بكسر الباء من «الصبر»؛ لأنّ بعض العرب ينقل جرّ الحرف الأخير إلى الساكن قبله، فيقول: مررت ببكِر ـ بكسر الكاف ـ في الوقف.

من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار، وهو قول ابن عباس والكلبي والجبائي. وقيل: هو وقت العشي، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. فعلى هذا أقسم سبحانه بالطرف الأخير من النهار؛ لما في ذلك من الدلالة على وحدانيّة الله تعالى، بإدبار النهار، وإقبال الليل، وذهاب سلطان الشمس، كما أقسم بالضحى، وهو الطرف الأوّل من النهار؛ لما فيه من حدوث سلطان الشمس، وإقبال النهار. وأهل الملّتين يعظمون هذين الوقتين. وقيل: أقسم بصلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: هو الليل والنهار، ويقال لهما العصران، ـ عن ابن كيسان ـ.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسم. والإنسان: اسم الجنس. والمعنى: إنّه لفي نقصان؛ لأنّه ينقص عمره كل يوم، وهو رأس ماله، فإذا ذهب رأس ماله، ولم يكتسب به الطاعة، يكون على نقصان طول دهره وخسران؛ إذ لا خسران أعظم من استحقاق العقاب الدائم. وقيل: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: في هلكة، ـ عن الأخفش ـ.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثنى من جملة الناس المؤمنين المصدّقين بتوحيد الله، العاملين بطاعة الله.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وصّى بعضهم بعضاً باتّباع الحقّ، واجتناب الباطل. وقيل: الحقّ القرآن، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وقيل: هو الإيمان والتوحيد، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: هو أن يقولوا عند الموت لمخلفيهم لا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: وصّى بعضهم بعضاً بالصبر على تحمّل المشاقّ في طاعة الله، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وبالصبر عن معاصي الله أي: فإنّ هؤلاء ليسوا في خسر، بل هم في أعظم ربح وزيادة، يربحون الثواب باكتساب الطاعات، وإنفاق العمر فيها، فكأنّ رأس مالهم باق، كما أنّ التاجر إذا خرج رأس المال من يده، وربح عليه، لم يعدّ ذلك ذهاباً.

وقيل: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ معناه: لفي عقوبة وغبن، من فوت أهله ومنزله في الجنّة. وقيل: المراد بالإنسان: الكافر خاصّة، وهو أبو جهل، والوليد بن المغيرة. وفي هذه السورة أعظم دلالة على إعجاز القرآن. ألا ترى أنّها مع قلّة [قلة] حروفها، تدلّ على جميع ما يحتاج الناس إليه في الدين، علماً وعملاً. وفي وجوب التواصي بالحقّ والصبر، إشارة إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلى التوحيد والعدل، وأداء الواجبات، والإجتناب عن المقبحات. وقيل: إنّ في قراءة ابن مسعود: والعصر. إنّ الإنسان لفي خسر، وإنّه فيه إلى آخر الدهر، وروي ذلك عن عليّ عليه السلام.

سورة الهمزة

مكّيّة، وهي تسع آيات بالإجماع.

فضلها: وفي حديث أُبيّ: من قرأها، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من استهزأ بمحمّد ﷺ وأصحابه. أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ في فريضة من فرائضه، نفت عنه الفقر، وجلبت عليه الرزق، وتدفع عنه ميتة السوء.

تفسيرها: أجمل سبحانه في تلك السورة أنّ الإنسان لفي خسر، وفصّل في هذه السورة تلك الجملة، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة وابن كثير ونافع وعاصم: ﴿جَمَعَ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: «جَمَّع» ـ بالتشديد ـ. «مؤصدة»: ذكرناه في سورة البلد. وقرأ أهل الكوفة غير حفص: «فِي عُمُدٍ» ـ بضمّتين ـ. والباقون: ﴿فِي عَمَدٍ﴾ ـ بفتح العين والميم ـ.

الحجة: قال أبو الحسن: المثقلة أكثر. تقول: فلان يجمّع المال من هنا، ومن هنا. قال أبو عمرو: ﴿جَمَعَ﴾ خفيفة إذا أكثر، وإذا ثقل، فإنّما هو شيء بعد شيء. قال أبو عليّ: وقد يجوز أن يكون ﴿جَمَعَ﴾ لما يجم [يجمع] فيما قرب من الوقت، ولم يجمع شيئاً بعد شيء. قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾. وقال الأعشى:

وَلِمِثْلِ الَّذي جَمَعْتَ لِرَيبِ الدَّ ... هْرِ لا مُسْنَدٌ، وَلا زَمَّالُ[1]

والأشبه أن تكون أداة الحرب لا تجمع في وقت واحد، وإنّما هو شيء بعد شيء. فيجوز على هذا أن يكون شيئاً بعد شيء في قول من خفّف، كما تقول ذلك في قول من ثقل. ومن قرأ: «عُمُد»، جعله جمعاً لعَمُود، مثل: قَدُوم وقُدُم، وَزَبُور وزُبُر. ومن قال: ﴿عَمَد﴾ فإنّه جمع عمود أيضاً، كما قالوا: أَفَق، وأدَم، وأهَبَ، في جمع أفيق، وأديم، وأهاب. وهذا اسم من أسماء الجمع غير مستمرّ. وقد قالوا: حارس وحَرَسَ، وغائب وغَيَب، وخاذم وخَدَم، ورائح ورَوَح، وهو في أنّه غير مطّرد مثل عمد.

---

(١) المسند: الدعي. والزمال: الجبان.

[اللغة]: الهمزة: الكثير[ة] الطعن على غيره بغير حقّ، العائب له بما ليس بعيب. وأصل الهمز الكسر، فكأنّ العائب بعيبه إيّاه، وطعنه فيه، يكسره ويهمزه. وقيل لأعرابي: أتهمَز الفأرة؟ قال: السنور تهمزها. وكأن الهمز في الكلام نبرة كالطعنة بقوّة اعتمادها. واللمز: العيب أيضاً. والهمزة واللمزة بمعنى. وقد قيل: بينهما فرق، فإنّ الهمزة الذي يعيبك بظهر الغيب. واللمزة: الذي يعيبك في وجهك عن الليث. وقيل: الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء لفظه، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير برأسه، ويومىء بعينه، ويقال: لمزه يلمِزه ويلمُزه ـ بكسر الميم وضمها ـ. ورجل لمّاز ولمزة، وهمّاز وهمزة. قال زياد الأعجم:

تُدْلي بِوُدّي إذَا لاَقَيْتَنِي، كَذِباً ... وَإِنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللُّمَزَة

والحطمة: الكثير الحطم أي: الأكل. ورجل حطمة: أكول. وحطم الشيء: إذا كسره وأذهبه. قال:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلَ بِسَوّاقٍ حُطَمُ ... لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ، وَلاَ غَنَم[1]

وفُعَلَة بناء المبالغة في صفة من يكثر منه الفعل، ويصير عادة له. تقول: رجل نُكَحَة كثير النكاح، وضُحَكَة كثير الضحك، وكذا هُمَزَة ولُمَزَة. وَفُعْلَة ـ ساكنة العين ـ، يكون للمفعول به.

[الإعراب]: ﴿الَّذِي جَمَعَ﴾: في موضع جرّ، على البدل من ﴿هُمَزَةٍ﴾. ولا يجوز أن يكون صفة؛ لأنه معرفة. ويجوز أن يكون في موضع نصب، على إضمار «أعني». وفي موضع رفع على إضمار «هو». وفي حرف عبدالله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ ﴿وَيْلٌ [للهمزة اللمزة]﴾ فعلى هذا الوجه يكون صفة.

﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾: يعني الجامع للمال. وروي في الشواذّ عن الحسن: «لينبذ[ا]نّ»

---

(١) مضى هذا البيت في سورة المائدة، ولها قصّة. وحطم: رجل سرق من مواشي الأنصار، وذهب بها ليلاً من مدينة الرسول ﷺ، راجع الجزء الثالث.

يعني الجامع والمال [للمال]. و ﴿نَارُ اللهِ﴾: تقديره: هي نار الله.

﴿المَعْنَى﴾: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ هذا وعيد من الله سبحانه لكل مغتاب غياب، مشّاء بالنميمة، مفرّق بين الأحبّة، ـ عن ابن عباس ـ. وعنه أيضاً قال: الهمزة: الطعان. واللمزة: المغتاب. وقيل: الهمزة: المغتاب. واللمزة: الطعان، ـ عن سعيد بن جبير، وقتادة ـ. وقيل: الهمزة الذي يطعن في الوجه بالعيب. واللمزة: الذي يغتاب عند الغيبة، ـ عن الحسن، وأبي العالية، وعطاء بن أبي رباح ـ. وقيل: الهمزة الذي يهمز الناس بيده، ويضربهم. واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه وبعينه، ـ عن ابن زيد ـ.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ أي: أحصاه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: عدَّده للدهور، فيكون من العدة، ـ عن الزجّاج ـ. يُقال: أعددت الشيء وعددته: إذا أمسكته. وقيل: جمع مالاً من غير حلّه، ومنعه من حقّه، وأعدَّه ذخراً لنوائب دهره، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّ الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبيّ ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وكان يلمز الناس ويغتابهم، ـ عن الكلبي ـ.

ثمّ ذكر سبحانه طول أمله، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: يظنّ أنّ ماله الذي جمعه يخلده في الدنيا، ويمنعه من الموت. فأخلده في معنى يخلده؛ لأنّ قوله: ﴿يَحْسَبُ﴾ يدلُّ عليه. وإنّما قال ذلك، وإن كان الموت معلوماً عند جميع الناس؛ لأنّه يعمل عمل من يتمنّى ذلك. وقيل: أخلده بمعنى أوجب إخلاده، وهذا كما يُقال: هلك فلان إذا حدث به سبب الهلاك، وإن لم يقع هلاكه بعد.

ثمّ قال سبحانه: ﴿كَلاَّ﴾ أي: لا يخلده ماله، ولا يبقى له. وقيل: معناه: ليس الأمر كما حسب. وقيل: معناه: حقّاً ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليقذفن ويطرحن من وصفناه في الحطمة، وهي اسم من أسماء جهنّم. قال مقاتل: وهي تحطم

العظام، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تفخيماً لأمرها. ثمّ فسَّرها بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: المؤججة. أضافها سبحانه إلى نفسه؛ ليعلم أنّها ليست كسائر النيران. ثمّ وصفها بالإيقاد على الدوام ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي: تشرف على القلوب، فيبلغها ألمها وحريقها. وقيل: معناه: أنّ هذه النار تخرج من الباطن إلى الظاهر، بخلاف نيران الدنيا.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ﴾ يعني: أنّها على أهلها مطبقة، يطبق أبوابها عليهم، تأكيداً للإياس عن الخروج ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وهي جمع عمود. وقال أبو عبيدة: كلاهما جمع عاد. قال: وهي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. وقال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم، ثمّ شدَّت بأوتاد من حديد من نار، حتى يرجع إليهم غمُّها وحرّها، فلا يفتح عليهم باب، ولا يدخل عليهم روح. وقال الحسن: يعني عمد السرادق [السرداق] في قوله: و﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فإذا مدَّت تلك العمد، أطبقت جهنّم على أهلها، نعوذ بالله منها.

وقال الكلبي: في عمد مثل السواري، ممددة [ممدودة] مطولة، تمدّ عليهم. وقال ابن عباس: هم في عمد أي: في أغلال في أعناقهم، يعذبون بها.

وروى العياشي بإسناده، عن محمّد بن النعمان الأحول، عن حمران بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الكفّار والمشركين، يعيّرون أهل التوحيد في النار، ويقولون: ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئاً، وما نحن وأنتم إلّا سواء! قال: فيأنف لهم الربّ تعالىٰ، فيقول للملائكة: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله. ثمّ يقول للنبيّين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله. ثمّ يقول للمؤمنين: اشفعوا فيشفعون لمن شاء الله. ويقول الله: أنا أرحم الراحمين، اخرجوا برحمتي كما يخرج الفراش. قال: ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: ثمّ مدت العمد، وأوصدت عليهم، وكان والله الخلود!

سُورَةُ الفِيلِ

مكّيّة، خمس آيات بالإجماع.

فَضْلُها: في حديث أُبيّ: من قرأها عافاه الله أيّام حياته في الدنيا من المسخ والقفذ [القذف]. أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ في الفريضة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدر، بأنّه كان من المصلّين، وينادي يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدي، قبلت شهادتكم له، أو عليه. أدخلوا عبدي الجنّة، ولا تحاسبوه، فإنّه ممّن أُحبُّه، وأُحبُّ عمله. ومن أكثر قراءة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بعثه الله يوم القيامة على مركب من مراكب الجنّة، حتى يقعد على موائد النور يوم القيامة.

تَفْسِيرُها: ذكر الله سبحانه في تلك السورة، ما أعدَّه من العذاب لمن عاب الناس واغتابهم، وركن إلى الدنيا، وبيّن في هذه السورة ما فعله بأصحاب الفيل، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة أبي عبد الرحمٰن: «ألم ترْ» ـ بسكون الراء ـ[1].

الحجة: قال ابن جنّي: إنّ هذا السكون بابه الشعر دون القرآن، لما فيه من استهلاك الحرف والحركة قبله، يعني الألف والفتحة من «ترىٰ». أنشد أبو زيد: «قَالَتْ سُلَيْمَىٰ لنا اشْتَرْ سَوِيقاً» يريد: إشْتَرِ. وأنشد:

قَدْ حَجَّ فِي ذَا[ل] الْعَامِ مَنْ كَانَ رَجَا ... فَاكْتَرْ لَنَا كَرِيَّ صِدْقٍ فَالنَّجَا

واحْذَرْ، فَلاَ تَكْتَرْ كَرِيّاً أعْرَجا ... عِلْجاً، إذَا سَارَ بِنَا عَفَنْجَجَا[2]

فحذف كسرة «إكْتَرْ» في الموضعين[3].

اللغة: أبابيل: جماعات في تفرقة زمرة زمرة. ولا واحد لها في قول أبي عبيدة والفرّاء كعباديد. وقال الكسائي: واحدها إبَّوْل مثل عجول. وزعم أبو جعفر

---

(١) أبدل الهمزة من «مأكول» الفاورش، وأبو عمرو بخلفه، وكذلك وقف حمزة.

(٢) عفنجج الضخم الاحمق صفة لقوله علجا وهو الرجل من كفّار العجم والكرى المكارى وفالنجا أي: فالعجل.

(٣) يعني في موضع «اكتر» وفي موضع «لا تكتر».

الرواسي أنّه سمع في واحدها: إبالة.

﴿الإعراب﴾: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾: منصوب بفعل على المصدر، أو على الحال من الربّ، والتقدير: ألم تَرَ أيَّ فِعْلٍ فعل ربّك، أو أمنتقماً فعل ربّك بهم، أم مجازيّاً، ونحو ذلك. والجملة التي هي ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ سدّت مسدّ مفعولي ترى.

قصّة أصحاب الفيل[1]

أجمعت الرواة على أنّ ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة، هو أبرهة بن الصباح الأشرم. وقيل: إنّ كنيته أبو يكسوم. قال الواقدي: هو صاحب النجاشي جدّ النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ﷺ. وقال محمّد بن يسار: أقبل تبع حتى نزل على المدينة، فنزل بوادي قبا، فحفر بها بئراً يدعى اليوم بئر الملك. قال: وبالمدينة إذ ذاك يهودو الأوس والخزرج، فقاتلوه وجعلوا يقاتلونه بالنهار، فإذا أمسى أرسلوا إليه بالضيافة، فاستحيا وأراد صلحهم، فخرج إليه رجل من الأوس، يُقال له: أُحيحة بن جلاح، وخرج إليه من اليهود بنيامين القرظي. فقال أُحيحة: أيّها الملك! نحن قومك. وقال بنيامين: هذه بلدة لا تقدر على أن تدخلها، ولو جهدت. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّها منزل نبيّ من الأنبياء يبعثه الله من قريش.

---

(١) قال الامام الرازي: إعلم أنّ قصّة الفيل واقعة على الملحدين جدّاً؛ لأنّهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق، وساير الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم اعذارا ضعيفة، وأمّا هذه الواقعة، فلا تجري فيها تلك الاعذار؛ لأنّها ليس في شيء من الطبائع والحيل، أن يقبل طير معها حجارة، فتقصد قوما دون، فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنّه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنّه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول ﷺ إلّا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول ﷺ هذه السورة، كان قد بقي بمكّة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفا لشافهوه بالتكذيب، فلمّا لم يكن كذلك، علمنا أنّه لا سبيل للطعن فيه، انتهى كلامه، وسيأتي في الكتاب أيضاً، وذكرناه هنا لنكته.

قال: ثمّ خرج يسير حتى إذا كان من مكّة على ليلتين، بعث الله عليه ريحاً، فقصفت يديه ورجليه، وشنجت جسده. فأرسل إلى من معه من اليهود فقال: ويحكم! ما [هذا] الذي أصابني؟ قالوا: حدثت نفسك بشيء؟ قال: نعم، وذكر ما أجمع عليه من هدم البيت، وإصابة ما فيه. قالوا: ذلك بيت الله الحرام، ومن أراده هلك. قال: ويحكم! وما المخرج ممّا دخلت فيه؟ قالوا: تحدث نفسك بأن تطوف به، وتكسوه، وتهدي له. فحدث نفسه بذلك، فأطلقه الله.

ثمّ سار حتى دخل مكّة، فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وكسا البيت. وذكر الحديث في نحره بمكّة، وإطعامه الناس، ثمّ رجوعه إلى اليمن، وقتله، وخروج ابنه إلى قيصر، واستغاثته به فيما فعل قومه بأبيه. وأنّ قيصر كتب له إلى النجاشي ملك الحبشة، وأنّ النجاشي بعث له ستّين ألفاً، واستعمل عليهم روزبه، حتى قاتلوا حمير قتلة أبيه، ودخلوا صنعاء، فملكوها، وملكوا اليمن. وكان في أصحاب روزبه رجل يُقال له أبرهة، وهو أبو يكسوم. فقال لروزبه: إنّي أولى بهذا الأمر منك، وقتله مكراً، وأرضى النجاشي. ثمّ إنّه بنى كعبة باليمن، وجعل فيها قباباً من ذهب، فأمر أهل مملكته بالحجّ إليها، يُضاهي بذلك البيت الحرام. وإنّ رجلاً من بني كنانة خرج حتى قدم اليمن، فنظر إليها، ثمّ قعد فيها يعني لحاجة الإنسان، فدخلها أبرهة، فوجد تلك العذرة فيها، فقال: من اجترأ عليَّ بهذا، ونصرانيتي لأهدمنَّ ذلك البيت حتى لا يحجَّه حاجّ أبداً. ودعا بالفيل، وأذن قومه بالخروج، ومن اتبعه من أهل اليمن، وكان أكثر من اتّبعه منهم عك والأشعرون وخثعم.

قال: ثمّ خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه، بعث رجلاً من بني سليم، ليدعو الناس إلى حجّ بيته الذي بناه، فتلقاه أيضاً رجل من الحمس، من بني كنانة، فقتله. فازداد بذلك حنقاً، وحثَّ السير والإنطلاق، وطلب من أهل الطائف دليلاً، فبعثوا معه رجلاً من هذيل يُقال له نفيل. فخرج بهم يهديهم حتى إذا كانوا

بالمغمس، نزلوه وهو من مكّة على ستّة أميال، فبعثوا مقدّماتهم إلى مكّة، فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال، وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء، ولم يبق بمكّة غير عبدالمطلب بن هاشم، أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار، أقام على حجابة البيت، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب، ثمّ يقول:

لاَ هُمَّ إنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْـلَهُ فَـامْنَعْ حِـلالك

لاَ يَغْلِبُوا بِصَلِيبِهِمْ وَمِحَالِهِمْ عَدْواً مِحالَكَ[1]

لاَ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرامَ إذاً فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ثمّ إنّ مقدمات أبرهة أصابت نعماً لقريش، فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، فلمّا بلغه ذلك، خرج حتى أتى القوم، وكان حاجب أبرهة رجلاً من الأشعرين، وكانت له بعبد المطلب معرفة. فاستأذن له على الملك، وقال له: أيّها الملك! جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحي، ووحشها في الجبل! فقال له: ائذن له. وكان عبدالمطلب رجلاً جسيماً جميلاً. فلمّا رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته [نحتة]، وكره أن يجلسه معه على سريره، فنزل من سريره، فجلس على الأرض، وأجلس عبد المطلب معه. ثمّ قال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك. فقال أبو يكسوم: والله لقد رأيتك فأعجبتني، ثمّ تكلّمت فزهدت فيك! فقال: ولِمَ أيّها الملك؟ قال: لأنّي جئت إلى بيت عزّكم، ومنعتكم من العرب، وفضلكم في الناس، وشرفكم عليهم، ودينكم الذي تعبدون، فجئت لأكسره، وأُصيبت لك مائتا بعير، فسألتك عن حاجتك، فكلّمتني في إبلك، ولم تطلب إلي في بيتكم؟ فقال له عبدالمطلب: أيّها الملك! أنا أُكلّمك في مالي، ولهذا البيت ربّ هو يمنعه، لست أنا منه في شيء. فراع ذلك أبا يكسوم، وأمر بردّ إبل

---

(١) الحِلال ـ بالكسر ـ: القوم المقيمون المتجاورون، والمحال: الكيد والتدبير.

عبد المطلب عليه، ثمّ رجع.

وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها، كأنّها تكلّمهم كلاماً؛ لاقترابها منهم، فأحسّت نفوسهم بالعذاب، وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وتركهم. وقام الأشعرون وخثعم، فكسروا رماحهم وسيوفهم، وبرؤا إلى الله أن يعينوا على هدم البيت. فباتوا كذلك بأخبث ليلة. ثمّ أدلجوا بسحر، فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا بمكّة، فوجّهوه إلى مكّة، فربض. فضربوه فتمرغ. فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا. ثمّ إنّهم أقبلوا على الفيل، فقالوا: لك الله أن لا نوجّهك إلى مكّة! فانبعث، فوجّهوه إلى اليمن راجعاً، فتوجّه يهرول. فعطفوه حين رأوه منطلقاً حتى إذا ردّوه إلى مكانه الأوّل ربض. فلمّا رأوا ذلك عادوا إلى القسم. فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى إذا كان مع طلوع الشمس، طلعت عليهم الطير، معها الحجارة، فجعلت ترميهم، وكل طائر في منقاره حجر، وفي رجليه حجران. وإذا رمت بذلك مضت، وطلعت أُخرى. فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلّا خرقه، ولا عظم إلّا أوهاه وثقبه، وتاب [ثاب] أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلمّا قدم أرضاً انقطع له فيها أرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن، لم يبق شيء إلّا باده. فلمّا قدمها تصدع صدره، وانشقّ بطنه فهلك، ولم يصب من الأشعرين وخثعم أحد. قال: وكان عبد المطلب يرتجز، ويدعو على الحبشة[1]، يقول:

يا رَبِّ لا أرْجُو لَهُمْ سِواكَا ... يا رَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُم حِماكَا

---

(١) قال ابن قتيبة في المعارف: الأحابيش حلفاء قريش اجتمعوا بذنب حبشي، وهو جبل بأسفل مكّة، فتحا لفوا بالله اناليد على غيرنا ما سجي ليل ووضح نهار، ومارسي حبشي مكانه فسموا أحابيش باسم الجبل، وقال الحمس هم قريش ومن دان بدينهم من كناية، وإنّما التحمّس التشدّد في الدين إلى آخر ما قال، وعلى هذا ففي لفظا الحبش والأحابيش اصطلاحان ويرجع في التعيين إلى القرينة.

إنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مَنْ عاداكَا إنَّـهُم لَـمْ يَـقْهَرُوا قُـواكَـا

قال: ولم تصب تلك الحجارة أحداً إلّا هلك، وليس كـل القـوم أصـابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاءوا، ويسألون عن نفيل ليدلَّهم على الطريق. وقال نفيل في ذلك:

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتَ وَلَـنْ تَـرِينَهُ لَدىٰ جَنْبِ الْمُحَصَّب ما رَأَيْنا

حَمَدْتِ اللهَ إِذْ عـايَنْتِ طَـيْراً وَخِفْتِ حِجارَةً تُـلْقىٰ عَـلَيْنا

وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَـنْ نُـفَيْلٍ كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشانِ دَيْـناً[1]

وقال مقاتل بن سليمان: السبب الذي جرّ أصحاب الفيل إلى مكّة، هو أنَّ فئة من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشي، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر، وفي حقف من أحقافها بيعة للنصارى تسمّيها قريش الهيكل، ويسمّيها النجاشي وأهل أرضه ماسرخشان، فنزل القوم فجمعوا حطباً، ثمّ أجـجوا نـاراً، واشـتروا لحماً. فلمّا ارتحلوا، تركوا النار كما هي في يوم عاصف، فذهبت الرياح بـالنار، فاضطرم الهيكل ناراً. فغضب النجاشي لذلك، فبعث أبرهة لهدم الكعبة.

وروى العياشي بإسناده عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: أرسل الله على أصحاب الفيل طيراً مثل الخطاف ونحوه، في منقاره حجر مثل العدسة، فكان يحاذي برأس الرجل، فيرميه بالحجارة، فيخرج من دبره. فلم تزل بهم حتى

---

(١) ردينة: امرأة يخاطبها. ولن ترينه: جملة معترضة. والمحصب: موضع رمي الجمار يعني يا ردينة لو رأيت ما رأينا في جنب المحصب، حمدت الله. ظاهر كلام أكثرهم، أنّ السورتين الفيل والإيلاف سورة واحدة. وقال بعضهم: إنّهما سورتان، لكن استثنى القراءة بهما من كراهة القرآن بين السورتين، لارتباط معانيهما، وكفاية واحدة منهما في الصلاة، متفرعة على ذلك عند من لا يكتفي ببعض سورة. وقال السيد في الدرة: والضحى والانشراح واحدة بالاتّفاق، والمعاني شاهدة، كذلك الفيل مع الإيلاف. وفصل بسم الله لا ينافي، وذلك لأنّ الملازمة بين بسم الله وتجديد السورة ظنّيّة، لا حجّيّة فيها.

أتت عليهم. قال: فأفلت رجل منهم، فجعل يخبر الناس بالقصّة. فبينا هو يخبرهم إذ أبصر طيراً، فقال: هذا هو منها. قال: فحاذى فطرحه على رأسه، فخرج من دبره.

وقال عبيد بن عمير الليثي: لمّا أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، فبعث عليهم طيراً نشأت من البحر، كأنّها الخطاطيف، كل طير منها معه ثلاثة أحجار. ثمّ جاءت حتى صفت على رؤوسهم. ثمّ صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها. فما من حجر وقع منها على رجل، إلّا خرج من الجانب الآخر. وإن وقع على رأسه خرج من دبره. وإن وقع على شيء من جسده خرج من الجانب الآخر. وعن عكرمة، عن ابن عباس، قال: دعا الله الطير الأبابيل، فأعطاها حجارة سوداً، عليها الطين. فلمّا حاذت بهم رمتهم، فما بقي أحد منهم إلّا أخذته الحكة، وكان لا يحك الإنسان منهم جلداً إلّا تساقط لحمه. قال: وكانت الطير نشأت من قبل البحر، لها خراطيم الطيور، ورؤوس السباع، لم تر قبل ذلك ولا بعده.

المعنى: خاطب الله سبحانه نبيّه ﷺ تنبيهاً على عظم الآية التي أظهرها، والمعجزة التي فعلها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم يا محمّد؛ لأنّه ﷺ لم ير ذلك. وقيل: معناه: ألم تخبر، ـ عن الفرّاء ـ. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة، وكان معهم فيل واحد اسمه محمود، ـ عن مقاتل ـ. وقل: ثمانية أفيال، ـ عن الضحاك ـ. وقيل: إثنا عشر فيلاً، ـ عن الواقدي ـ. وإنّما وحّد؛ لأنّه أراد الجنس. وكان ذلك في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ، وعليه أكثر العلماء. وقيل: كان أمر الفيل قبل مولد النبيّ ﷺ بثلاث وعشرين سنة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: كان قبل مولده بأربعين سنة، ـ عن مقاتل ـ. والصحيح الأوّل. ويدلّ عليه ما ذكر أنّ عبد الملك بن مروان قال لعتاب بن أشيم الكناني الليثي: يا عتاب! أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال عتاب: رسول الله ﷺ أكبر منّي، وأنا أسنّ منه. ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقعت على روث الفيل. وقالت عائشة:

رأيت قائد الفيل، وسائقه بمكّة، أعميين مقعدين، يستطعمان [يستطعمان].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ معناه: ألم يجعل إرادتهم السوء، واحتيالهم في تخريب البيت الحرام، وقتل أهله وسبيهم واستباحتهم في تضليل عمّا قصدوا إليه. ضلَّ سعيهم حتى لم يصلوا إلى ما أرادوه بكيدهم. وقيل: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في ذهاب وبطلان ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ أي: أقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤبلة. قال الأعشى:

طَرِيق، وَجَبّارٌ، رِواءٌ أُصُولُهُ ... عَلَيْهِ أَبَابِيلُ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ[1]

وقال امرؤ القيس:

تَراهُمْ إِلَى الدَّاعِي سِراعاً كَأَنَّهُم ... أَبابِيلُ طَيْرٍ تَحَتَ داجِنِ مُدْجِنِ[2]

وكانت لها خراطيهم كخراطيم الطير، وأكفّ كأكفّ الكلاب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لها أنياب كأنياب السباع، ـ عن الربيع ـ. وقيل: طير خضر لها مناقير صفر، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقيل: طير سود بحرية، تحمل في مناقيرها وأكفّها الحجارة، ـ عن عبيد الله بن عمير وقتادة ـ. ويمكن أن يكون بعضها خضراً، وبعضها سوداً.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: تقذفهم بحجارة صلبة شديدة، ليست من جنس الحجارة. وقد فسَّرنا السجيل في سورة هود، وما جاء من الأقوال فيه، فلا معنى لإعادته. وقال موسى بن عائشة: كانت الحجارة أكبر من العدسة، وأصغر من الحمصة. وقال عبدالله بن مسعود: صاحت الطير فرمتهم بالحجارة، فبعث الله ريحاً، فضربت الحجارة فزادتها شدّة، فما وقع منها حجر على رجل إلّا خرج من الجانب الآخر. فإن وقع على رأسه خرج من دبره.

---

(١) الجبار: من النخل ما طال، وفات اليد. ورواء: من الري من الماء.

(٢) والدجن: المطر الكثير. وادجنت السماء: دام مطرها.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أي: كزرع وتبن قد أكلته الدوابّ. ثمّ رائته فديست وتفرّقت أجزاؤه. شبّه الله تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث. قال الحسن: كنا ونحن غلمان بالمدينة، نأكل الشعير إذا قصب، وكان يسمّى العصف. وقال أبو عبيدة: العصف ورق الزرع. قال الزجّاج: أي: جعلهم كورق الزرع الذي جز وأكل أي: وقع فيه الأكال.

وكان هذا من أعظم المعجزات القاهرات، والآيات الباهرات في ذلك الزمان، أظهره الله تعالى ليدلّ على وجوب معرفته. وفيه إرهاص لنبوّة نبيّنا ﷺ؛ لأنّه ولد في ذلك العام. وقال قوم من المعتزلة: إنّه كان معجزة لنبيّ من الأنبياء في ذلك الزمان، وربما قالوا: هو خالد بن سنان. ونحن لا نحتاج إلى ذلك، لأنّا نجوّز إظهار المعجزات على غير الأنبياء من الأئمّة والأولياء. وفيه حجّة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحدين المنكرين للآيات الخارقة للعادات، فإنّه لا يمكن نسبة شيء ممّا ذكره الله تعالى من أمر أصحاب الفيل إلى طبع وغيره، كما نسبوا الصيحة، والريح العقيم، والخسف، وغيرهما ممّا أهلك الله تعالى به الأُمم الخالية، إلى ذلك؛ إذ لا يمكنهم أن يروا في أسرار الطبيعة إرسال جماعات من الطير معها أحجار معدّة مهيّأة لهلاك أقوام معينين، قاصدات إيّاهم دون من سواهم، فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمّر عليهم، حتى لا يتعدّى ذلك إلى غيرهم، ولا يشكّ من له مسكة من [عن] عقل ولبّ، أنّ هذا لا يكون إلّا من فعل الله تعالى، مسبّب الأسباب، ومذلّل الصعاب. وليس لأحد أن ينكر هذا؛ لأنّ نبيّنا ﷺ لمّا قرأ هذه السورة على أهل مكّة، لم ينكروا ذلك، بل أقرّوا به، وصدّقوه مع شدّة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالردّ عليه. وكانوا قريبي العهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل، لأنكروه وجحدوه، وكيف وأنّهم قد أرّخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبة، وموت قصيّ بن كعب، وغير ذلك. وقد أكثر الشعراء ذكر الفيل، ونظموه،

ونقلته الرواة عنهم. فمن ذلك ما قاله أُمية بن أبي الصلت:

إنَّ آيـاتِ رَبِّـنا بَـيِّناتٌ ... ما يُمارِي فِيهِنَّ إلاَّ الْكَفُورُ
حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمُغمَّسِ حَتّىٰ ... ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّـهُ مَـعْقُورُ(١)

وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم:

أنْتَ الْـجَلِيلُ رَبَّـنا لَـمْ تَـدْنَسِ ... أنْتَ حَـبَسْتَ الْـفِيلَ بِـالْمُغَمَّسِ
مِـنْ بَـعْدِما هَـمَّ بِشَـيْءٍ مُـبْلَسِ ... حَبَسْتَهُ فِـي هَـيْئَةِ الْـمُكَرْكَسِ[١]

أي: المنكس. قال ابن [قيس] الرقيات(٢) في قصيدة:

وَاسْـتَهَلَّتْ عَـلَيْهِمْ الطَّـيْرُ بِـالْـ ... ـجَنْدَلِ حَـتَّى كَأَنَّـهُ مَـرْجُومُ

---

(١) معقور: أي ضربت قوائمه. والمغمس بصيغة اسم الفاعل أو المفعول: موضع في طريق الطائف، به قبر أبي رغال. وقال هذا البيت امية بن أبي الصلت، وهو لم يؤمن برسول الله ﷺ.

(٢) هو عبد الله بن قيس الرقيات، وضمير «كأنه» راجع إلى أبرهة.

[١] المغمّس: موضع في مكة. المكركس: المقيّد، والمكركس: الذي ولدته الإماء.

سورة قريش

مكّيّة، خمس آيات حجازي، أربع آيات عند غيرهم[1].

اختلافها: آية ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ حجازي.

فضلها: في حديث أُبيّ: من قرأها أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد من طاف بالكعبة، واعتكف بها. وروى العياشي بإسناده، عن المفضل بن صالح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلّا ﴿وَالضُّحَى﴾ و ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ و ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

وعن أبي العباس، عن أحدهما عليه السلام قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ و﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ سورة واحدة. روي أنّ أُبيّ بن كعب لم يفصل بينهما في

---

(١) اختلفوا في ترك «بسم الله» بين السورتين هنا وفي الانشراح. والأظهر بحسب الأدلّة إثباتها؛ لأنّ مصحف أبي غير متواتر، فلا حجّة فيما نقل من حذفها بينهما، مع أنّ ابن النديم ذكر ترتيب السور في مصحفه عن الفضل بن شاذان، وبين الفيل ولايلاف ستّ سور، وهي التين والكوثر والقدر والكافرون والنصر وسورة أبي لهب. وقال في الحدائق جمع القرآن في المصحف لفعلي، ليس من جمع المعصوم، فلا حجّة فيه. وفيه انّا سلّمنا أنّ جامعة ليس بمعصوم، لكن المعصومين عليهم السلام قرّروه، وجوّزوا القراءة به، بخلاف مصحف أبي، فإنّه غير معصوم، ولم يجوّزوه.

مصحفه. وقال عمرو بن ميمون الأزدي: صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب، وقرأ في الأُولى ﴿وَالتِّينِ والزيتون﴾ وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

تفسيرها: ولمّا ذكر سبحانه عظيم نعمته على أهل مكّة، بما صنعه بأصحاب الفيل، قال عقيب ذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: «ليلاف قريش» بغير همز الا فهم مختلسة الهمزة ليس بعدها ياء. وقرأ ابن عامر: «لئلاف قريش» ـ مختلسة الهمزة ليس بعدها ياء ـ «إيلافهم» ـ مشبعة الهمزة [في الحرفين] بعدها ياء ـ. وقرأ ابن فليح: «لإِيلاف قريش إلفهم» ـ ساكنة اللام ليس بعدها ياء ـ. وقرأ الآخرون: «لإِيلاف قريش إيلافهم» ـ مشبعة الهمزة في الحرفين بعدها ياء ـ[1].

الحجة: قال أبو عليّ: قال أبو عبيدة ألفته وآلفته لغتان. أنشد أبو زيد:

---

(١) اتّفقت المصاحف على كتابة «ليلف» بلامين بينهما ياء وبعدها [بعدهما] فاء، وعلى كتابة «الفهم» بألف ثمّ لام ثمّ فاء، بحذف الياء والألف بعد اللام.

مِـنَ الْـمُؤْلِفاتِ الرَّمْـلَ أدْمـاءُ حَـرَّةٍ شُعاعُ الضُّحىٰ فِي جِيدِها يَـتَوشَّحُ[1]

وأنشد غيره:

أَلِـفَ الصُّـفُونَ فَـلا يَـزالُ كَأَنَّـهُ مِمّا يَقُومُ عَلَى الثَّـلاثِ كَسِـيراً[2]

وقال آخر:

زَعَـمْتُمْ أنَّ إخْـوَتَكُمْ قُـرَيْشٌ لَـهُمْ إلْـفٌ، وَلَـيْسَ لَكُـم إلافٌ

والألف والآلاف: مصدر ألف. والإيلاف: مصدر آلف.

اللغة: الإيلاف: إيجاب الألف بحسن التدبير والتلطّف. يقال: ألف يألف إلفاً وآلفه يؤلفه إيـلافاً إذا جـعله يألف. فـلإيلاف: نـقيض الإيـحاش. ونـظيره: الإيناس. وإلف الشيء: لزومه على عادة في سكون النفس إليه. والرحلة: حـال السير على الراحلة، وهي الناقة القوية على السير. ومنه: الحديث المروي: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة». والرحل: متاع السفر. والإرتحال: احتمال الرحل للسير في السفر.

الإعراب: قال أبو الحسن الأخفش: اللام في قـوله: ﴿لِـإِيلَافِ قُـرَيْشٍ﴾ يتعلّق بقوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بهم لتأتلف قريش رحلتها. وقال الزجّاج: معناه: أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفـوا مـن رحـلة الشتاء والصيف.

قال أبو عليّ: إعترض معترض فقال: إنّما جعلوا كعصف مأكول لكـفرهم، ولم يجعلوا كذلك لتألف قريش. قال: وليس هذا الإعتراض بشيء؛ لأنّه يجوز أن يكون المعنى أُهلكوا لكفرهم، ولما أدّى إهلاكهم إلى أن تألف قريش، جاز كقوله: تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾ وهم لم يلتقطوه لذلك. فلمّا آل الأمـر إليـه،

---

(١) يصف امرأة، ويشبها بالظباء التي تألف الرمل. والأدماء من الظباء: هي البيضاء يعلوها جدد والحرّة: أرض ذات حجارة.

(٢) الصافن من الخيل: ما يقوم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طرف الحائر [الحافر].

حسن أن يجعله علّة الإلتقاط. وقال الخليل وسيبويه: فليعبدوا ربَّ هـذا البـيت لإيلاف قريش أي: ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة، واعترافاً بها. وقـيل: هـو على ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ـ عن الفرّاء ـ؛ لأنّه سبحانه ذكر أهل مكّة عظيم نعمته عليهم، فيما صنع بالحبشة.

المعنى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل، نعمة منّا على قريش، مضافة إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء والصيف. فكأنّه قال: نـعمة إلى نعمة. فتكون «اللام» مؤدّية معنى «إلى»، وهو قول الفرّاء. وقيل: معناه: فعلنا ذلك لتألف قريش بمكّة، ويمكنهم المقام بها. أو لتؤلف قريشاً، فإنّهم هابوا من أبرهة لما قصدها، وهربوا منه، فأهلكناهم لترجع قـريش إلى مكّـة، ويألفـوا بـها، ويـولد محمّد ﷺ، فيبعث إلى الناس بشيراً ونذيراً.

وقوله: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ ترجمة عن الأوّل، وبدل منه ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ منصوبة بوقوع إيلافهم عليها.

وتحقيقه: إنّ قريشاً كانت بالحرم آمنة من الأعداء أَنْ تهجم عليهم فيه، وأَنْ يعرض لهم أحد بالسوء إذا خرجت منه [منها] لتجارتها. والحرم وادٍ جديب، إنّما كانت تعيش قريش فيه بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأنّها بلاد حامية. ورحلة في الصيف إلى الشام؛ لأنّها بلاد باردة. ولولا هاتان الرحلتان، لم يمكنهم به مقام. ولولا الأمن لم يقدروا على التصرّف. فـلمّا قصد أصحاب الفيل مكّة، أهلكهم الله لتألف قريش هاتين الرحلتين اللتين بـهما معيشتهم، ومقامهم بمكّة. وقيل: إنّ كلتا الرحلتين كانت إلى الشام، ولكن رحـلة الشتاء في البحر وايلة طلباً للدفء، ورحلة الصيف إلى بُصرى وأذرعـات طـلباً للهواء. وأمّا قريش فهم ولد النضر بن كنانة. فكل من ولده النضر فهو قرشي. ومن لم يلده النضر فليس بقرشي. واختلف في تسميتهم بهذا الاسم، فقيل: سمّوا قريشاً للتجارة، وطلب المال، وجمعه. وكانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضـرع،

ولا زرع. والقرش: المكسب. يقال: هو يقرش لعياله أي: يكتسب لهم. وذكر أنّه قيل لابن عباس: لِمَ سمّيت قريش قرشاً؟ فقال: لدابّة تكون في البحر من أعظم دوابّه، يقال لها القريش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلّا أكلته. قيل: أفتنشد في ذلك شيئاً؟ فأنشد قول الجمحي:

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْرَ ... بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشاً
تَأْكُلُ الْغَثَّ، والسَّمينَ، وَلا ... تَتْرُكُ فيهِ لَدَى [لِذِى] الْحَناجِرِ ريشاً

وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم. وكان لا يتعرّض لهم أحد بسوء. وكانوا يقولون قريش سُكّان حرم الله، وولاة بيته. قال الكلبي: وكان أوّل من حمل الميرة من الشام، ورحل إليها الإبل، هاشم بن عبد مناف، ويصدقه قول الشاعر:

تَحَمَّلَ هاشِمٌ ما ضاقَ عَنْهُ ... وَأَعْيا أَنْ يَقُومَ بِهِ ابْنُ بِيضٍ
أَتاهُمْ بِالْغَرائِرِ مُتْأقاتٍ ... مِنْ أَرْضِ الشَّامِ بِالْبُرِّ النَّفيضِ
فَوَسَّعَ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ هَشيمٍ ... وَشابَ الْبُرَّ بِاللَّحْمِ الْغَرِيضِ[1]

وقال سعيد بن جبير: مرَّ رسول الله ﷺ ومعه أبوبكر بملأ، وهم ينشدون:

يا ذا الَّذي طَلَبَ السَّماحَةَ، والنَّدىٰ
هَلاّ مَرَرْتَ بِآلِ عَبْدِ الدَّارِ
لَوْ أَنْ مَرَرْتَ بِهِمْ تُرِيدُ قِراهُمُ
مَنَعُوكَ مِنْ جَهْدٍ، وَمِنْ إِقْتارِ

فقال لأبي بكر: أهكذا قال الشاعر؟ فقال: لا والذي بعثك بالحقّ، بل قال:

---

(١) بيض: ـ بكسر الباء أو فتحها ـ صفة النساء. قال في الصحاح: هو رجل كان في الزمان الأوّل عقر ناقته على ثنية فسد بها الطريق، ومنع الناس من سلوكها. قال الشاعر: سددنا كما سدّ ابن بيض طريقه، فلم يجدوا عند الثنية مطلعا، وكان معناه هنا، أنّه لم يمنع [ما كان يمنع] ابن بيض هاشما عن مقصده حتى اتى الشام. والغرائر: الجوالق العظام، واتاقت الاناء ملاته. والنفيض: الزائل عنه الغبار. والهشيم: الترید. والغريض: الطري.

يـا ذا الَّـذِي طَـلَبَ السَّـمَاحَةَ، والنَّـدَىٰ
هَـــلاَّ مَـــرَرْتَ بِآلِ عَـــبْدِ مَـــنافِ
لَـــوْ أَنْ مَـــرَرَتْ بِـــهِمْ تُـــرِيدُ قِـــرَاهُـــمُ
مَـــنَعُوكَ مِـــنْ جَـــهْدٍ، ومِـــنْ إِيـــجافِ
الرَّائِشـــــينَ، وَلَـــيْسَ يُـــوجَدُ رَائِشٌ
وَالْـــــقَائِلينَ هَـــلُمَّ لِـــلأَضْيافِ
والْـــــخَالِطِينَ غَـــنِيُّهُمْ بِـــفَقيرِهِمْ
حَـــتّى يَـــصِيرَ فَـــقِيرُهُمْ كَـــالْكافِي
وَالْـــقَائِلِينَ بِكُـــلِ وَعْـــدٍ صـــادِقٍ
وَرِجَـــالُ مَكَّـــةَ مُسْـــنِتِينَ عِـــجافِ
سَـــفَرَيْنِ سَـــنَّهُمَا لَـــهُ، وَلِـــقَوْمِهِ
سَـفَرَ الشِّـتَاءِ، وَرِحْـلَةَ الأَصْـيافِ[1]

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ هذا أمر من الله سبحانه أي: فليوجّهوا عبادتهم إلى ربّ هذه الكعبة، ويوحّدوه، وهو الله سبحانه ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ بما سبَّب لهم من الأرزاق في رحلة الشتاء والصيف، وأعطاهم من الأموال ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فلا يتعرّض لهم أحد في سفرهم إذا قالوا: نحن أهل حرم الله. وقيل: آمنهم من خوف الغارة بالحرم الذي جبلت قلوب الناس على تعظيمه، لأنّهم كانوا يقولون فى الجاهليّة: نحن قطان حرم الله، فلا يتعرّض لهم، وإنْ كان الرجل ليصاب في الحي من أحياء العرب، فيقال: هو حرمي، فيخلّى عنه، وعن ماله، تعظيماً للحرم. وكان غيرهم إذا خرج أُغير عليه. وقيل: أطعمهم من جوع أي: من بعد جوع، كما يقال: كسوتك من [بعد] عري. يعني: ما كانوا فيه من الجوع. قال ابن عباس: كانوا في ضرّ ومجاعة، حتى جمعهم هاشم على الرحلتين، فلم يكن بنو أب أكثر مالاً، ولا أعزّ من قريش.

---

(١) رشت فلانا: أصلحت حاله. وأسنّت القوم: دخلوا في القحط. والعجف: الهزال.

سورة الماعون

وتسمّى سورة الماعون مكّيّة. وقال الضحّاك: مدنيّة. وقيل: بعضها مكّـيّ، وبعضها مدنيّ.

عَدَدُ آيِهَا: سبع عراقي، وستّ في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آية ﴿يُرَاءُونَ﴾ عراقيّ.

فَضْلُهَا: في حديث أُبيّ: من قرأها غفر الله له إنْ كان للزكاة مؤدّياً. عمرو بن ثابت، عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـذِّبُ بِـالدِّينِ﴾ فـي فرائضه ونوافله، قبل الله صلاته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه في الحياة الدنيا.

تَفْسِيرُهَا: ذكر سبحانه نعمه على قريش، ثمّ عجب سبحانه في هذه السورة من تكذيبهم، مع عظيم النعمة عليهم، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى
يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ[1] ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة أبي رجاء العطاردي: «يَدَع اليتيم» ـ بفتح الدال خفيفة ـ.

الحجة: ومعناه: يتركه، ويعرض عنه، فهو صائر إلى معنى القراءة المشهورة «يدُعُّ اليتيم» أي: يدفعه، ويجفو عليه.

اللغة: الدعّ: الدفع بشدّة، ومنه: الدعدعة: تحريكك المكيال ليستوعب الشيء، كأنّك تدفعه. والدعدعة أيضاً: زجر المعز. والحضّ والحثّ والتحريض [التحريص]، بمعنى واحد. والماعون: كل ما فيه منفعة. قال الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِماعُونِهِ ... إذا ما سَماؤُهُم لَمْ تُغِمْ

وقال الراعي:

قَوْمٌ عَلَى الإِسْلامِ لَمّا يَمْنَعُوا ... مَاعُونَهُمْ، وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلا

---

(١) يوقف لحمزة على «يراؤن» بالتسهيل كالواو مع مدّ الألف أو قصرها.

وقال أعرابي في ناقة له: «كَيْما أَنَّها تُعْطِيكَ الماعُون» أي: تنقاد لك وتطيعك. وأصلّه القلة من المعن، وهو القليل. قال الشاعر: «فَإِنَّ هَلاكَ مالِكَ غَيْرُ مَعْنٍ» أي: غير قليل. ويُقال: ما له مِعْنٌ [سعن] ولا مَعْن. فالماعون: القليل القيمة ممّا فيه منفعة. ويقال: معن الوادي: إذا جرت مياهه قليلاً قليلاً.

﴿الإعراب﴾: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ اعتمد هنا في الخبر على ما جرى في صلة الموصول الذي هو وصف المجرور باللام المتعلّق بالخبر. ألا ترى أنّ قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ غير محمول على الظاهر، والإعتماد على السهو في صلة الذين. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يجوز أن يكون مجروراً، على أنّه صفة ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ ويجوز أنْ يكون منصوباً، على إضمار «أعني». وأن يكون مرفوعاً على إضمار «هُمْ».

﴿المَعْنَى﴾: خاطب الله تعالى نبيَّه ﷺ فقال: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمّد ﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: هذا الكافر الذي يكذّب بالجزاء والحساب، وينكر البعث مع وضوح الأمر في ذلك، وقيام الحجج على صحّته. وإنّما ذكره سبحانه بلفظ الإستفهام، إرادة للمبالغة في الإفهام أو التكذيب بالجزاء، من أضر شيء على صاحبه؛ لأنّه يعدم بذلك أكثر الدواعي إلى الخير، والصوارف عن الشرّ، فهو يتهالك في الإسراع إلى الشرّ الذي يدعوه إليه طبعه، إذ لا يخاف عواقب الضرر فيه. قال الكلبي: نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، ـ عن السدّي ومقاتل بن حيان ـ. وقيل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان ينحر في كل أسبوع جزورين، فأتاه يتيم فسأله شيئاً، فقرعه بعصاه، ـ عن ابن جريج ـ. وقيل: نزلت في رجل من المنافقين، ـ عن عطاء، عن ابن عباس ـ.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ بيّن سبحانه أنّ من صفة هذا الذي يكذب بالدين، أنّه يدفع اليتيم عنفاً به؛ لأنّه لا يؤمن بالجزاء عليه، فليس له رادع عنه.

وقيل: يدعُّ اليتيم أي: يدفعه عن حقّه بجفوة وعنف، ويقهره، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه، يعني: لا يفعله إذا قدر، ولا يحضّ عليه إذا عجز؛ لأنّه يكذب بالجزاء.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وهم الذين يؤخّرون الصلاة عن أوقاتها، ـ عن ابن عباس ومسروق ـ. وروي ذلك مرفوعاً. وقيل: يريد المنافقين الذين لا يرجون لها ثواباً إن صلّوا، ولا يخافون عليها [عليه] عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، فإذا كانوا مع المؤمنين صلّوها رياء، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلّوا، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ـ عن عليّ عليه السلام وابن عباس ـ. وقال أنس: الحمدلله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: في صلاتهم. يريد بذلك أنّ السهو الذي يقع للإنسان في صلاته من غير عمد، لا يعاقب عليه. وقيل: ساهون عنها لا يبالون، صلّوا أم لم يصلّوا[1]، ـ عن قتادة ـ.

---

(١) يعلم من ذلك أنّ السهو في اللغة غير ما يتبادر إلى ذهننا، فمعناه في اللغة غروب [عزوب] المعنى عن الذهن، وفى عرفنا صدور الخطا في الفعل أو القول، ومن جوّز السهو على الأنبياء، فلابدّ أن يكون مراده الأوّل، وينفي العلم الحضوري بكل شي داءما لا المعنى الثاني، فإنّه يخلّ بالعصمة، ويعلم من ذلك أيضاً [ا]لن اشتراك الاسماء كيف يوجب الاشتباه، حتّى أنّهم عدّوه وجها من وجوه المغالطة، ومن أمثلته لفظ السبب والعلّة والشرط، فإنّ السبب في المعقول بمعنى ماله تاثير في الوجود، وفى اصطلاح النحاة وأهل القراءة والفقهاء بمعنى المعر[و]ف، وفي العروض بمعنى حرفين أوّلهما متحرّك مثل مف من مفعولين [مفعولن]، ولا يجب أن يكون الاصطلاحات في جميع العلوم متطابقة، وربما يشتبه الأمر فيقال: كيف جاز تاخّر السبب في الشرع، كإجازة العقد الفضولي عن مسبّبه بناء على الكشف. والجواب: إنّ السبب في الشرع معرف لحكم الله لا موجد له، ونظيره العامل في النحو يتأخّر عن معموله نحو: زيدا ضربت، وتشديد اللام في «الضالّين» سبب لمدّ الألف، وعلّة المغالطة اشتراك الاسم، ولا يقاس السبب بالتناقض، فإنّ التناقض ليس فيه اصطلاح في الشرع غير اصطلاح ←

وقيل: هم الذين يتركون الصلاة، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: الذين إن صلّوها صلّوها رياء، وإن فاتتهم لم يندموا، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هم الذين لا يصلّونها لمواقيتها، ولا يتمّون ركوعها، ولا سجودها، ـ عن أبي العالية ـ. وعنه أيضاً قال: هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً.

وروى العياشي بالإسناد عن يونس بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أهي وسوسة الشيطان؟ فقال: لا كل أحد يصيبه هذه [هذا]، ولكن أنْ يغفلها، ويدع أن يصلّي في أوّل وقتها. وعن أبي أُسامة زيد الشحام، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: هو الترك لها، والتواني عنها. وعن محمّد بن الفضيل، عن أبي الحسن عليه السلام قال: هو التضيع [التضييع] لها. وقيل: هم الَّذِينَ [هم] يُرَاءُونَ الناس في جميع أعمالهم، لم يقصدوا بها الإخلاص لله تعالى.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ اختلف فيه فقيل: هي الزكاة المفروضة، ـ عن عليّ عليه السلام وابن عمر والحسن وقتادة والضحّاك، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: هو ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر، وما لا يمنع كالماء والملح، ـ عن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وروي ذلك مرفوعاً ـ.

وروى أبو بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: هو القرض تقرضه، والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تعيره، ومنه الزكاة. قال: فقلت إنَّ لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أنْ نمنعهم؟ فقال: لا ليس عليك جناح أنْ تمنعهم إذا كانوا كذلك. وقيل: هو المعروف كله، ـ عن الكلبي ـ.

← المنطق، وقويت الشبهة في ذهن أكثر أهل زماننا، فيصرفون مدّة من عمرهم في توجيه الشروط المتأخّرة عن المشروط، منهم إنّ الاصطلاحات في العلوم متطابقة وقياسا على التناقض، فإنّ الاصطلاح فيه واحد.

سورة الكوثر

مكّيّة، ـ عن ابن عباس والكلبي ـ. مدنيّة، ـ عن عكرمة والضحّاك ـ. وهي ثلاث آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: من قرأها سقاه الله من أنهار الجنّة، وأُعطي من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين.

أبو بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله، سقاه الله يوم القيامة من الكوثر، وكان محدثه عنه محمّد صلى الله عليه وآله [في أصل طوبى].

تفسيرها: ذمَّ سبحانه في تلك السورة تاركي الصلاة، ومانعي الزكاة، وذكر في هذه السورة أنّهم إنْ فعلوا ذلك وكذَّبوه، فإنّه يعطيه الخير الكثير، وأمره بالصلاة فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾
إِنَّ شَانِئَكَ[1] هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

اللغة: الكوثر: فوعل من الكثرة، وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة. والكوثر: الخير الكثير. والإعطاء على وجهين: إعطاء تمليك، وإعطاء غير تمليك. فأعطاه الكوثر إعطاء تمليك كإعطاء الأجر. وأصله من عطا يعطو إذا تناول.

والشانيء: المبغض. والأبتر: أصله من الحمار الأبتر، وهو المقطوع الذنب. وفي حديث زياد: إنّه خطب خطبته البتراء؛ لأنّه لم يحمد الله فيها، ولم يصلّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

الإعراب: ﴿وَانْحَرْ﴾ مفعوله محذوف أي: وانحر أضحيتك، كما حذف لبيد من قوله: «وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبطِّىء حاسِدٌ» أي: أن يبطأهم حاسد أي: أن ينسبهم إلى البطوء. وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ لا أنت هذا. تقديره: أي: هو مبتور [صنبور] لا أنت؛ لأنّ ذكرك مرفوع مهما ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي، وهو فصل. و﴿الْأَبْتَرُ﴾: خبر إنّ.

النزول: قيل: نزلت السورة في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنّه رأى

---

(١) أبدل أبو جعفر مطلقا وحمزة وقفا الهمزة من «شانئك» ياء مفتوحة.

رسول الله ﷺ يخرج من المسجد، فالتقيا عند باب بني سهم، وتحدثا وأُناس من صناديد قريش جلوس في المسجد. فلمّا دخل العاص قالوا: من الذي كنت تتحدث [تحدّث] معه؟ قال: ذلك الأبتر. وكان قد توفّي قبل ذلك عبدالله بن رسول الله ﷺ، وهو من خديجة. وكانوا يسمّون منَ ليس له ابن أبتر. فسمَّته قريش عند موت ابنه أبتر، وصنبوراً، ـ عن ابن عباس ـ.

المعنى: خاطب سبحانه نبيَّه ﷺ على وجه التعداد لنعمه عليه، فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ اختلفوا في تفسير الكوثر فقيل: هو نهر في الجنّة، ـ عن عائشة وابن عمر ـ. قال ابن عباس: لمّا نزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ صعد رسول الله ﷺ المنبر، فقرأها على الناس. فلمّا نزل قالوا: يا رسول الله! ما هذا الذي أعطاك الله؟ قال: نهر في الجنّة، أشدّ بياضاً من اللبن، وأشدّ استقامة من القدح، حافتاه قباب الدرّ والياقوت، ترده طير خضر لها أعناق كأعناق البخت. قالوا: يا رسول الله! ما أنعم تلك الطير! قال: أفلا أُخبركم بأنعم منها؟ قالوا: بلى. قال: من أكل الطائر، وشرب الماء، وفاز برضوان الله.

وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: نهر في الجنّة أعطاه الله نبيَّه ﷺ عوضاً من ابنه. وقيل: هو حوض النبيّ ﷺ الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة، ـ عن عطاء ـ. وقال أنس: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاء، ثمّ رفع رأسه مبتسّماً. فقلت: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أُنزلت عليَّ آنفاً سورة. فقرأ سورة الكوثر، ثمّ قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه نهر وعدنيه عليه ربي خيراً كثيراً، هو حوضي، ترد عليه أُمّتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج القرن منهم، فأقول: «يا ربّ إنّهم من أُمّتي! فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك» أورده مسلم في الصحيح. وقيل: الكوثر الخير الكثير، ـ عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد ـ. وقيل: هو النبوّة والكتاب، ـ عن

عكرمة ـ. وقيل: هو القرآن، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو كثرة الأصحاب والأشياع، ـ عن أبي بكر بن عياش ـ. وقيل: هو كثرة النسل والذرّيّة، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام، حتى لا يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم. وقيل: هو الشفاعة، ـ رووه عن الصادق عليه السلام ـ. واللفظ يحتمل للكل، فيجب أنْ يحمل على جميع ما ذكر من الأقوال. فقد أعطاه الله سبحانه وتعالى الخير الكثير في الدنيا، ووعده الخير الكثير في الآخرة، وجميع هذه الأقوال تفصيل للجملة التي هي الخير الكثير في الدارين.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أمره سبحانه بالشكر على هذه النعمة العظيمة، بأن قال: فصلّ صلاة العيد؛ لأنّه عقّبها بالنحر أي: وانحر هديك وأضحيتك، ـ عن عطاء وعكرمة وقتادة ـ. وقال أنس بن مالك: كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ينحر قبل أن يصلّي، فأُمر أنْ يصلّي، ثمّ ينحر. وقيل: معناه: فصلّ لربّك صلاة الغداة المفروضة بجمع، وانحر البدن بمنى، ـ عن سعيد بن جبير ومجاهد ـ. وقال محمّد بن كعب: إنّ أُناساً كانوا يصلّون لغير الله، وينحرون لغير الله، فأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون صلاته ونحره للبدن، تقرّباً إليه، وخالصاً له. وقيل: معناه: صلّ لربّك الصلاة المكتوبة، واستقبل القبلة بنحرك، وتقول العرب: منازلنا تتناحر أي: هذا ينحر هذا، يعني يستقبله. وأنشد:

أَبا حَكَمٍ هَلْ أَنْتَ عَمَّ مُجالِدٍ ... وَسَيِّدُ أَهْلِ الأَبْطَحِ المُتَناحِرِ

أي: ينحر بعضه بعضاً، وهذا قول الفرّاء. وأمّا ما رووه عن عليّ عليه السلام أنّ معناه: ضع يدك اليمنى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة، فممّا لا يصحّ عنه؛ لأنّ جميع عترته الطاهرة عليهم السلام قد رووه عنه بخلاف ذلك[1]، وهو أنّ معناه: إرفع يديك إلى

---

(١) قال الجصّاص، وهو من أعاظم الحنفيّة: ويدلّ على أنّ المراد الأوّل، يعني: صلوة يوم النحر ونحر البدن اتّفاق الجميع، على أنّه لا يضع يده عند النحر. أقول إنّ أصحاب مالك لا ←

النحر في الصلاة. وعن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول في قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ هو رفع يديك حذاء وجهك. وروى عنه عبدالله بن سنان مثله. وعن جميل قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ فقال بيده هكذا ـ يعني استقبل بيديه حذو [حذاء] وجهه القبلة في افتتاح الصلاة ـ وعن حماد بن عثمان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام ما [عن] النحر؟ فرفع يده إلى صدره، فقال: هكذا. ثمّ رفعها فوق ذلك، فقال: هكذا، يعني استقبل بيديه القبلة في استفتاح الصلاة.

وروي عن مقاتل بن حيان، عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لمّا نزلت هذه السورة قال النبيّ صلى الله عليه وآله لجبريل عليه السلام: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربّي؟ قال: ليست بنحيرة، ولكنّه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنّه صلاتنا، وصلاة الملائكة في السماوات السبع، فإنّ لكل شيء زينة، وإنّ زينة الصلاة رفع الأيدي عند كل تكبيرة. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: رفع الأيدي من الإستكانة. قلت: وما الإستكانة؟ قال: ألا تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. أورده الثعلبي والواحدي في تفسيرهما.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ معناه: إنّ مبغضك هو المنقطع عن الخير، وهو العاص بن وائل. وقيل: معناه: إنّه الأقلّ الأذلّ بانقطاعه عن كل خير، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إنّه لا ولد له على الحقيقة، وأنّ من ينسب إليه ليس بولد له. قال مجاهد: الأبتر الذي لا عقب له، وهو جواب لقول قريش: إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله لا

← يتكتفون وهم أعلم بعمل أهل المدينة. وروي أنّ وضع اليمين على الشمال فعل، وليس في الصلاة فعل، وذلك لأنّ مثل هذا الفعل الذي ينوي به العبادة تشريع، أو لأنّه فعل كثير باستمراره، والقصد الخاص إليه، والفعل المبطل للصلاة لا يراعي فيه الكثرة العدديّة، بل محو الصورة، أو صدق أنّه مشتغل بأمر آخر غير الصلاة في الصلاة كالازدراد وغيره.

عقب له، يموت فنستريح منه، ويدرس دينه؛ إذ لا يقوم مقامه من يدعو إليه، فينقطع أمره.

وفي هذه السورة دلالات على صدق نبيّنا ﷺ وصحّة نبوّته:

أحدها: إنّه أخبر عمّا في نفوس أعدائه، وما جرى على ألسنتهم، ولم يكن بلغه ذلك، فكان على ما أخبر.

وثانيها: إنّه قال: ﴿أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فانظر كيف انتشر دينه، وعلا أمره، وكثرت ذرّيّته، حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال.

وثالثها: إنّ جميع فصحاء العرب والعجم، قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها مع تحدّيه إيّاهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبيّ ﷺ إلى يومنا هذا. وهذا غاية الإعجاز.

ورابعها: إنّه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوط أمرهم، وانقطاع دينهم، أو عقبهم، فكان المخبر على ما أخبر به.

هذا وفي [هذا] السورة الموجزة من تشاكل المقاطع للفواصل، وسهولة مخارج الحروف، بحسن التأليف، والتقابل لكل من معانيها، بما هو أولى به، ما لا يخفى على من عرف مجاري كلام العرب.

سورة الكافرون

مكّيّة. وعن ابن عباس وقتادة: مدنيّة. وهي ستّ آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: ومن قرأ ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فكأنّما قرأ ربع القرآن، وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك، ويعافى من الفزع الأكبر.

وعن جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله ﷺ: أتحبُّ يا جبير أن تكون إذا خرجت سفراً من أمثل أصحابك هيئة، وأكثرهم زاداً؟ قلت: نعم بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله. قال: فاقرأ هذه السور الخمس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وافتتح قراءتك ببسم الله الرحمن الرحيم. قال جبير: وكنت غير كثير المال، وكنت أخرج مع من شاء الله أن أخرج، فأكون أكثرهم همة، وأمثلهم زاداً، حتى أَرجع من سفري ذلك.

وعن فروة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه أنّه أتى النبيّ ﷺ فقال: جئت يا رسول الله لتعلّمني شيئاً أقوله عند منامي. قال: إذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثمّ نم على خاتمتها، فإنّها براءة من الشرك.

شعيب الحداد، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي يقول ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

﴿الْكَافِرُونَ﴾ ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبدالله وحده. أعبد الله وحده.

وعن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا قلت ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فقل: ولكنّي أعبد الله مخلصاً له ديني، فإذا فرغت منها، فقل ديني الإسلام ثلاث مرّات.

وعن الحسين بن أبي العلاء قال: من قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ في فريضة من الفرائض، غفر الله له ولوالديه وما ولدا، وإن كان شقيّاً محي من ديوان الأشقياء، وكتب في ديوان السعداء، وأحياه الله سعيداً، وأماته شهيداً، وبعثه شهيداً.

تفسيرها: ذكر سبحانه في تلك السورة أنّ أعداءه عابوه بأنّه أبتر، فردَّ ذلك عليهم، وذكر في هذه السورة أنّهم سألوه المداهنة، فأمره بالبراءة منهم، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

القراءة: قرأ نافع وابن كثير وحفص عن عاصم: «ليَ دين» ـ بفتح الياء ـ. والباقون: بسكون الياء[1].

---

(١) وأثبت الياء من «دين» يعقوب فقط.

الحجة: إسكان الياء من «ولي» وفتحها جميعاً حسنان سائغان.

الإعراب: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ كان الوجه «من أعبد»، ولكنّه جاء بـ«ما»؛ ليطابق ما قبله وما بعده. وقيل: إنّ ما هيهنا بمعنى «مَنْ»، والعائد من الصلة إلى الموصول في الجميع محذوف، والتقدير: ما تعبدونه، وما أعبده، وما عبدتموه.

النزول: نزلت السورة في نفر من قريش، منهم: الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن أبي وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب بن أسد، وأُميّة بن خلف، قالوا: هلمّ يا محمّد فاتّبع ديننا، نتّبع دينك ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً بأيدينا، كنّا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظّك منه. فقال ﷺ: معاذ الله أنْ أُشرك به غيره. قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك، ونعبد إلهك. فقال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربّي. فنزل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة. فعدل رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش [قريس]، فقام على رؤوسهم، ثمّ قرأ عليهم، حتى فرغ من السورة. فأيسوا عند ذلك، فآذوه، وآذوا أصحابه. قال ابن عباس: وفيهم نزل قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

المعنى: خاطب سبحانه النبيّ ﷺ فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يريد قوماً معينين؛ لأنّ الألف واللام للعهد ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا أعبد آلهتكم التي تعبدونها اليوم، وفي هذه الحال ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: إلهي الذي أعبده اليوم، وفي هذه الحال أيضاً. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ فيما بعد اليوم. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فيما بعد اليوم من الأوقات المستقبلة، ـ عن ابن عباس ومقاتل ـ.

قال الزجّاج: نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في

الحال، وفيما يستقبل. ونفى عنهم عبادة الله في الحال، وفيما يستقبل. وهذا في قوم أعلمه الله سبحانه أنّهم لا يؤمنون، كقوله سبحانه في قصّة نوح عليه السلام ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾. وقبل أيضاً في وجه التكرار: إن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب، بلى، بلى. ويقول الممتنع: لا، لا، ـ عن الفرّاء ـ، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وأنشد:

وَكائِنْ، وَكَمْ عِنْدِي لَهُمْ مِنْ صَنِيعَةٍ ... أَيادِيَ ثَنَّوْها عَلَيَّ، وَأَوْجَبُوا

وأنشد:

كَمْ نِعْمَةٍ كانَتْ لَكُمْ ... كَمْ كَمْ، وَكَمْ

وقال آخر:

نَعِقَ الْغُرابُ بِبَيْنِ لَيْلىٰ غُدْوَةً ... كَمْ كَمْ وَكَمْ بِفِراقِ لَيْلىٰ يَنْعِقُ

وقال آخر:

هَلّا سَأَلْتُ جُمُوعَ كِنْـ ... ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا: أَيْنَ؟ أَيْنا؟!

وقال آخر:

أَرَدْتُ لِنَفْسِي بَعْضَ الأُمُورِ ... فَأَوْلىٰ لِنَفْسِيَ أَوْلىٰ لَها

[و]قال: وهذا أولى المواضع بالتأكيد؛ لأنّ الكافرين أبدأوا في ذلك، وأعادوا. فكرّر سبحانه ليؤكد إياسهم وحسم أطماعهم بالتكرير. وقيل أيضاً في ذلك: إنّ المعنى لا أعبد الأصنام التي تعبدونها، ولا أنتم عابدون الله الذي أنا عابده، إذا أشركتم به، واتّخذتم الأصنام وغيرها تعبدونها من دونه. وإنّما يعبد الله من أخلص العبادة له، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ أي: لا أعبد عبادتكم فيكون ما مصدريّة.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: وما تعبدون عبادتي على نحو ما ذكرناه.

فأراد في الأوّل المعبود، وفي الثاني العبادة. فإن قيل: أمّا اختلاف المعبودين فمعلوم، فما معنى اختلاف العبادة؟ قلنا: إنّه يعبد الله على وجه الإخلاص، وهم يشركون به في عبادته، فاختلفت [فاختلف] العبادتان. ولأنّه كان يتقرب بعبادته إلى معبوده بالأفعال المشروعة الواقعة على وجه العبادة، وهم لا يفعلون ذلك، وإنّما يتقرَّبون إليه بأفعال يعتقدونها قربة جهلاً من غير شرع.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ذكر فيه وجوه:

أحدها: إنَّ معناه: لكم جزاء دينكم، ولي جزاء ديني. فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه.

وثانيها: إنّ المعنى: لكم كفركم بالله، ولي دين التوحيد والإخلاص. وهذا وإنْ كان ظاهره إباحة، فإنّه وعيد وتهديد، ومبالغة في النهي والزجر، كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾

وثالثها: إنّ الدين الجزاء، ومعناه: لكم جزاؤكم، ولي جزائي. قال الشاعر:

إذا مـا لَـقَونا لَـقَيْناهُمْ ... وَدِنَّاهُمْ مِثْلَ ما يَـقْرِضُونا

وقد تضمّنت السورة معجزة لنبيّنا ﷺ من جهة الإخبار بما يكون في الأوقات المستقبلة، ممّا لا سبيل إلى علمه إلّا بوحي من قبل الله سبحانه، العالم بالغيوب. فكان ما أخبر به كما أخبر. وفيها دلالة على ذمّ المداهنة في الدين، ووجوب مخالفة الكفّار والمبطلين، والبراءة منهم.

وروى داود بن الحصين، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا قرأت ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقل: [يا] أيّها الكافرون. وإذا قلت: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فقل: أعبدالله وحده. وإذا قلت: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فقل: ربّي الله، وديني الإسلام.

سورة النصر

مدنيّة. وهي ثلاث آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: من قرأها فكأنّما شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكّة. وروى كرام الخثعمي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ في نافلة أو فريضة، نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنّم، ومن النار، ومن زفير جهنّم، يسمعه بأُذنيه، فلا يمرُّ على شيء يوم القيامة إلّا بشَّره، وأخبره بكل خير [خبر]، حتى يدخل الجنّة.

تفسيرها: ختم الله سبحانه تلك السورة بذكر الدين، وافتتح هذه السورة بظهور الدين، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (١) ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

(١) يوقف على «أفواجا» لحمزة، بإبدال الهمزة ياء مفتوحة، وبالتحقيق أيضاً؛ إذ هي متوسّطة بغيرها المنفصل وقع الفراغ من الحاق هذه القرآت على الحواشي التي كتبناها على هذا الكتاب في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب المرجّب، وهو يوم مبعث النبيّ ﷺ زائراً في بلدة قم، في سنة الف وثلاثمائة وأربع وسبعين من الهجرة النبويّة ﷺ، وكان الغرض منه تتميم الفائدة، فإنّي رايت المصنّف ﷺ ذكر اختلاف القراء في موضع واحد، واكتفى عن امثالها فيما بعده على ما ذكره فيه، وربما يغفل القاري ان لم ينبه، وربما لم يذكر ما لا يحتاج إلى تفسير وذكرته، وكان غرضنا نقل القرآت السبعة فقط، ونقلناها إلّا ما زاغ البصر عنه، وتركت ذكر الإمالة عن حمزة والكسائي وأبي عمرو، وإدغام السوسي، والغنّة حيث كانت، والترقيق، والتفخيم؛ لأنّها لا تجب، وإنّما هي من التجويد، بل من محسّناته، وغرضنا بيان القرآت وذكرت وقف حمزة على المهموز لعسر ضبطه حتى قيل: إنّ ذلك أشكل ما في علم القراءة، وذكرت أكثر ما يتعلّق برسم الكلمات على خلاف القاعدة، ليسهل الإطّلاع عليها في محلّها، وجميع ما ذكرت مستخرج من الكتب المعتبرة، كالتيسير للداني، وهو من ائمّة الفنّ، والقصيدة الشاطبيّة وشرحها، وكتب الجزري من النشر والطيبة وغيرهما، وإتحاف البشر في القرآت الأربع عشر وغيرها.

ثمّ إنّ هنا قرآت يتكرّر، تركت ذكرها في مواضعها مخافة التطويل، ونذكر هنا جملة منها مكتفيا بها، منها: نقل حركة همزة قرآن إلى الراء قبلها لابن كثير في كل موضع معرفا ومنكراً.

ومنها: ←

وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

الإعراب: مفعول ﴿جَاءَ﴾ محذوف، والتقدير: إذا جاءك نصر الله. وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، والتقدير: إذا جاء نصر الله حضر أجلك. وقيل: جوابه الفاء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾. و ﴿أَفْوَاجاً﴾: منصوب على الحال.

المعنى: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ يا محمّد ﴿نَصْرُ اللهِ﴾ على من عاداك، وهم قريش ﴿وَالْفَتْحُ﴾ فتح مكّة. وهذه بشارة من الله سبحانه لنبيّه ﷺ بالنصر والفتح قبل وقوع الأمر.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾ أي: جماعة بعد جماعة، وزمرة بعد زمرة، والمراد بالدين: الإسلام، والتزام أحكامه، واعتقاد صحّته، وتوطين النفس على العمل به. قال الحسن: لمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة، قالت العرب: أما إذا ظفر محمّد ﷺ بأهل الحرم، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان أي: طاقة. فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً أي: جماعات كثيرة بعد أنْ كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً، أو اثنين. فصارت القبيلة تدخل

← إشمام نحو «قيل» من مجهول الأجوف ضمّه وواواً عن هشام والكسائي وعن نافع في «سيئت وشيء». ومنها: ضمّ «رضوان» حيث وقع لأبي بكر، وإسكان السين من «رسل» لأبي عمرو، وقراءة «ابراهام» بالالف لابن عامر، وإسكان الهاء مِن «هو وهي» بعد الواو والفاء ولام الابتداء لقالون وأبي عمرو والكسائي، وفي يمل هو في البقرة لقالون، وهمز النبي والنبوة لنافع، وكسر السين من «يحسب» للكسائي وأبي عمرو والحرميّين، وكسر فاء الفعل من «بيوت والجموع» على وزنة لابن عامر وقالون والكوفيّين غير حفص، وقراءة «السراط» بالسين لقنبل، وإشمام الصاد زايا لخلف وحمزة، وضمّ الهاء من «عليهم وإليهم ولديهم» لحمزة ويعقوب، وذكر في فاتحة الكتاب، وضمّ الميم من «مت ونحوه» لأبي بكر والمكّي والبصريّ والشاميّ مطلقا ولحفص في سورة آل عمران فقط، وإسكان الراء أو الإختلاس لأبي عمرو في «يامركم ووينصركم ويشعركم» مرفوعة، وضمّ الواو من مثل «أو اخرجوا» جميع القرّاء إلّا لحمزة وعاصم، ومن مثل «ان اعبدوا إلّا لهما ولأبي عمرو، فكسر والنون الساكنة لالتقاء الساكنين، ولو كان بعدهما مضموم.

بأسرها في الإسلام. وقيل ﴿فِي دِينِ اللهِ﴾ أي: في طاعة الله وطاعتك، وأصل الدين: الجزاء. ثمّ يعبّريه عن الطاعة التي يستحقّ بها الجزاء، كما قال سبحانه ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في طاعته.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ هذا أمر من الله سبحانه بأن ينزّه عمّا لا يليق به من صفات النقص، وأن يستغفره. ووجه وجوب ذلك بالنصر والفتح، أنّ النعمة تقتضي القيام بحقّها، وهو شكر المنعم، وتعظيمه، والإئتمار بأوامره، والإنتهاء عن معاصيه. فكأنّه قال: قد حدث أمر يقتضي الشكر والإستغفار، وإنْ لم يكن ثَمَّ ذنب، فإن الإستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الإصرار. وقد يكون على وجه التسبيح، والإنقطاع إلى الله، عزّ وجلّ. ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ يقبل توبة من بقي، كما قبل توبة من مضى. قال مقاتل: لمّا نزلت هذه السورة، قرأها ﷺ على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وسمعها العباس، فبكى. فقال ﷺ: ما يبكيك يا عمّ؟ فقال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول الله. فقال: إنّه لكما تقول. فعاش بعدها سنتين ما رؤي فيهما ضاحكا مستبشراً. قال: وهذه السورة تسمّى سورة التوديع. وقال ابن عباس: لمّا نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ قال: نعيت إلي نفسي بأنا مقبوضة في هذه السنة. واختلف في أنّهم من أيّ وجه علموا ذلك، وليس في ظاهره نعي، فقيل: لأنّ التقدير فسبّح بحمد ربّك، فإنّك حينئذ لاحق بالله، وذائق الموت كما ذاق من قبلك من الرسل، وعند الكمال يرقب الزوال، كما قال:

إذا تَمَّ أَمْرٌ، بَدا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوالاً إذا قيلَ: تَمَّ

وقيل: لأنّه سبحانه أمره بتجديد التوحيد، واستدراك الفائت بالإستغفار، وذلك ممّا يلزم عند الإنتقال من هذه الدار إلى دار الأبرار. وعن عبدالله بن مسعود قال: لمّا نزلت السورة، كان النبيّ ﷺ يقول كثيراً: «سبحانك اللهمّ وبحمدك. أللهمّ اغفر لي إنّك أنت التوّاب الرحيم». وعن أُمّ سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ

بالآخرة لا يقوم، ولا يقعد، ولا يجيء، ولا يذهب، إلّا قال: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» فسألناه عن ذلك، فقال ﷺ: «إنّي أُمرت بها». ثمّ قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾. وفي رواية عائشة أنّه كان يقول: «سبحانك اللهمّ وبحمدك أستغفرك [أستغفرت] وأتوب إليك».

حديث فتح مكّة

لمّا صالح رسول الله ﷺ قريشاً عام الحديبيّة، كان في أشراطهم أنّه من أحبَّ أنْ يدخل في عهد رسول الله ﷺ دخل فيه، فدخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش، وكان بين القبيلتين شرّ قديم. ثمّ وقعت فيما بعد بين بني بكر وخزاعة مقاتلة، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً. وكان ممّن أعان بني بكر على خزاعة بنفسه، عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو. فركب عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك ممّا هاج فتح مكّة، فوقف عليه وهو في المسجد، بين ظهراني القوم، فقال:

لا هُمَّ [إنّى] ناشِدٌ مُحَمَّداً ... حِلْفَ أَبِينا، وَأَبِيهِ، الْأَتْلَدَا

إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدا ... وَنَقَضُوا مِيثاقَكَ الْمُؤَكَّدا

وَقَتَلُوُنا رُكَّعاً وَسُجَّداً

فقال رسول الله: حسبك يا عمرو. ثمّ قام فدخل دار ميمونة، وقال: اسكبي لي ماء. فجعل يغتسل، وهو يقول: لا نصرت إنْ لم أنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم. ثمّ خرج بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أُصيب منهم، ومظاهرة قريش بني بكر عليهم. ثمّ انصرفوا راجعين إلى مكّة. وقد كان ﷺ قال للناس: كأنّكم بأبي سفيان قد جاء

ليشدّد العقد ويزيد في المدّة، وسيلقى بديل بن ورقاء. فلقوا أبا سفيان بعسفان، وقد بعثته قريش إلى النبيّ ﷺ ليشدّد العقد. فلمّا لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ قال: سرت في هذا الساحل، وفي بطن هذا الوادي. قال: ما أتيت محمّداً؟ قال: لا.

فلمّا راح بديل إلى مكّة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء من المدينة، لقد علف بها النوى. فعمد إلى مبرك ناقته، وأخذ من بعرها ففتّه، فرأى فيه النوى. فقال: أحلف بالله تعالى، لقد جاء بديل محمّداً! ثمّ خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد أحقن دم قومك. وأجر بين قريش، وزدنا في المدة. فقال ﷺ: أغدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا. قال ﷺ: فنحن على ما كنّا عليه. فخرج فلقي أبابكر، فقال: أجر بين قريش. قال: ويحك وأحد يجير على رسول الله ﷺ. ثمّ لقي عمر بن الخطاب، فقال له مثل ذلك. ثمّ خرج فدخل على أُمّ حبيبة، فذهب ليجلس على الفراش، فأهوت إلى الفراش فطوته. فقال: يا بنيّة! أَرغبت [أرغبة] بهذا الفراش عنّي؟ فقالت: نعم هذا فراش رسول الله ﷺ، ما كنت لتجلس عليه، وأنت رجس مشرك.

ثمّ خرج فدخل على فاطمة عليها السلام، فقال: يا بنت سيّد العرب، تجيرين بين قريش، وتزيدين في المدّة، فتكونين أكرم سيدة في الناس؟ فقالت: جواري جوار رسول الله ﷺ. أتأمرين ابنيك أنْ يجيرا بين الناس؟ قالت: والله ما بلغ ابناي أنْ يجيرا بين الناس! وما يجير على رسول الله ﷺ أحد. فقال: يا أبا الحسن! إنّي أرى الأُمور قد اشتدّت عليّ، فانصحني. فقال علي عليه السلام: إنّك شيخ قريش، فقم على باب المسجد، وأجر بين قريش، ثمّ الحق بأرضك. قال: وترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنّ ذلك، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيّها الناس! إنّي قد أجرت بين قريش.

ثمّ ركب بعيره فانطلق. فلمّا [ان] قدم على قريش، قالوا: ما وراك؟ فأخبرهم بالقصّة. فقالوا: والله إن زاد عليّ بن أبي طالب على أنْ لعب بك، فما يغني عنّا ما قلت. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك. قال: فأمر رسول الله ﷺ بالجهاز لحرب مكّة، وأمر الناس بالتهيئة، وقال: أللهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها. وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش [قريس]، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء، فبعث عليّاً عليه السلام والزبير حتى أخذا كتابه من المرأة، وقد مضت هذه القصّة في سورة الممتحنة.

ثمّ استخلف رسول الله ﷺ أبا ذر [رُهْم] الغفاري، وخرج عامداً إلى مكّة، لعشر مضين من شهر رمضان، سنة ثمان، في عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، ولم يختلف [يتخلف] من المهاجرين والأنصار عنه أحد، وقد كان أبو سفيان ابن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن أميّة بن المغيرة، قد لقيا رسول الله ﷺ بنيق العقاب، فيما بين مكّة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فلم يأذن لهما. فكلمته أُمّ سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله! ابن عمّك وابن عمّتك، وصهرك. قال: لا حاجة لي فيهما. أما ابن عمّي فهو الذي هتك عرضي. وأمّا ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكّة ما قال.

فلمّا خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُني له فقال: والله ليأذننَّ لي، أو لآخذنَّ بيد بُنيَّ هذا، ثمّ لنذهبنَّ في الأرض، حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، فأذن لهما، فدخلا عليه فأسلما. فلمّا نزل رسول الله «مرَّ الظهران» وقد غمّت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم عن رسول الله ﷺ خبر، خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتجسون [يتجسّسون] الأخبار، وقد قال العباس ليلتئذ: يا سوء صباح قريش! والله لئن بغتها رسول الله في بلادها، فدخل مكّة عنوة، إنّه لهلاك قريش إلى

آخر الدهر! فخرج [العباس] على بغلة رسول الله ﷺ، وقال: أخرج إلى الأراك لعلي أرى حطاباً، أو صاحب لبن، أو داخلاً يدخل مكّة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ، فيأتونه فيستأمنونه.

قال العباس فوالله إنّي لأطوف في الأ[د]راك، ألتمس ما خرجت له، إذ سمعت صوت أبي سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل [بديل] بن ورقاء، وسمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قطّ نيراناً. فقال بديل: هذه نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة ألأم من ذلك. قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان. فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم. قال: لبيّك فداك أبي وأُمّي، ما وراك؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ وراءك قد جاء بما لا قبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين! قال: فما تأمرني؟ فقلت: تركب عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك.

فردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله ﷺ، فكلمّا مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: هذا عمّ رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال يعني عمر: يا أبا سفيان الحمدلله الذي أمكن منك بغير عهد، ولا عقد.

ثمّ اشتدّ نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبّة، وسبقت عمر بما يسبق به الدابّة البطيئة [البطشة]، الرجل البطيء. فدخل عمر فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه، بغير عهد، ولا عقد، فدعني أضرب عنقه. فقلت: يا رسول الله إنّي قد أجرته، ثمّ إنّي جلست إلى رسول الله ﷺ، وأخذت برأسه. وقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دوني. فلمّا أكثر فيه عمر قلت: مهلاً يا عمر! فوالله ما تصنع هذا الرجل إلّا أنّه رجل من [آل] بني عبد مناف، ولو كان من عدي بن كعب، ما قلت هذا. قال: مهلاً يا عباس! فوالله

لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال ﷺ: إذهب فقد أمناه حتى تغدو به عليّ في الغداة.

قال: فلمّا أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ، فلمّا رآه قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أنْ تعلم أنْ لا إله إلّا الله؟ فقال: بأبي أنت وأُمّي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك! والله لقد طننت أنْ لو كان معه إله لأغنى يوم بدر، ويوم أُحد. فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأُمّي. أما هذه فإنّ في النفس منها شيئاً. قال العباس: فقلت له ويحك! إشهد بشهادة الحقّ، قبل أنْ يضرب عنقك. فتشهد. فقال ﷺ للعباس: إنصرف يا عباس، فاحبسه عند مضيق الوادي، حتى تمرَّ عليه جنود الله.

قال: فحبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي. ومرَّ عليه القبائل قبيلة قبيلة، وهو يقول: من هؤلاء ومن هؤلاء؟ وأقول: أسلم، وجهينة، وفلان، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد، لا يرى منهم إلّا الحدق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. فقال: يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً! فقلت: ويحك إنّها النبوّة. فقال: نعم إذاً. وجاء حكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، رسول الله ﷺ، وأسلما وبايعاه. فلمّا بايعاه، بعثهما رسول الله ﷺ بين يديه إلى قريش، يدعوانهم إلى الإسلام. وقال: من دخل دار أبي سفيان، وهي بأعلى مكّة، فهو آمن، ومن دخل دار حكيم، وهي بأسفل مكّة، فهو آمن. ومن أغلق بابه وكفَّ يده، فهو آمن.

ولمّا خرج أبو سفيان وحكيم من عند رسول الله ﷺ، عامدين إلى مكّة، بعث في أثرهما الزبير بن العوام، وأمره على خير [خيل] المهاجرين، وأمره أن يغرز رايته بأعلى مكّة بالحجون. وقال له: لا تبرح حتى آتيك. ثمّ دخل رسول الله ﷺ مكّة، وضربت هناك خيمته، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار، في

مقدمته. وبعث خالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاعة وبني سليم، وأمره أنْ يدخل من أسفل مكّة، ويغرز رايته دون البيوت. وأمرهم رسول الله ﷺ جميعاً أنْ يكفّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلّا من قاتلهم، وأمرهم بقتل أربعة نفر: عبدالله بن سعد بن أبي سرح، والحويرث بن نفيل، وابن خطل، ومقبس بن ضبابة. وأمرهم بقتل قينتين كانتا تغنيان [تغنينا] بهجاء رسول الله ﷺ وقال: اقتلوهم، وإنْ وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة(١)!

فقتل عليّ عليه السلام الحويرث بن نفيل، وإحدى القينتين وأفلتت الأُخرى. وقتل مقبس بن ضبابة في السوق. وأُدرك ابن خطل وهو متعلّق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمّاراً، فقتله. قال: وسعى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، وأخذ غرزه أي: ركابه فقبّله. ثمّ قال: بأبي أنت وأُمّي. أما تسمع ما يقول سعد؟ إنّه يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة. فقال ﷺ لعلي عليه السلام: أدركه فخذ الراية منه، وكن أنت الذي يدخل بها، وأدخلها إدخالاً رفيقاً. فأخذها عليّ عليه السلام، وأدخلها كما أُمر. ولمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة، دخل صناديد قريش الكعبة، وهم يظنّون أنّ السيف لا يرفع عنهم.

وأتى رسول الله ﷺ، ووقف قائماً على باب الكعبة، فقال: لا إلـه إلّا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إنّ كل مال أو مأثرة ودم تدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلّا سدانة الكعبة، وسقاية الحاجّ، فإنّهما مردودتان إلى أهليهما. ألا إنّ مكّة محرمة بتحريم الله، لم تحلّ لأحد كان قبلي، ولم تحل لي إلّا ساعة من نهار، وهي محرمة إلى أنْ تقوم الساعة. لا يختلى خلاها(٢)، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها إلّا لمنشد. ثمّ قال:

---

(١) وعلّة أمره ﷺ بقتلهم مذكورة في السير، لا يسمعنا [يسعنا] نقلها.

(٢) أي: لا يجزّ نبتها الرقيق.

ألا لبئس جيران النبيّ كنتم، لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم، ثمّ ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني، فاذهبوا فأنتم الطلقاء. فخرج القوم فكأنّما أُنشروا من القبور، ودخلوا في الإسلام، وكان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة، فكانوا له فيأ، فلذلك سمّي أهل مكّة الطلقاء. وجاء ابن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ وأسلم وقال:

يا رَسُولَ الإِلَهِ إِنَّ لِسانِي ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أُبارِي الشَّيْطانَ فِي سَنَنِ الْـ ... ـغَيِّ، وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ
آمَنَ اللَّحْمُ وَالْعِظامُ لِرَبّي ... ثُمَّ نَفْسي الشَّهِيدُ أَنْتَ النَّذِيرُ

وعن ابن مسعود قال: دخل النبيّ ﷺ يوم الفتح، وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: جاء الحقّ، وما يبدىء الباطل وما يعيد، جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً. وعن ابن عباس قال: لمّا قدم النبيّ ﷺ إلى مكّة، أبي أنْ يدخل البيت، وفيه الآلهة. فأمر بها فأُخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وفي أيديهما الأزلام فقال ﷺ: «قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنّهما لم يستقسما بها قطّ»!.

سورة المسد

وتسمّى أيضاً سورة أبي لهب، وتسمّى سورة المسد، مكّيّة.

عدد آياتها: خمس آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: من قرأها، رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة. عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذ قرأتم ﴿تَبَّتْ﴾ فادعوا على أبي لهب، فإنّه كان من المكذّبين بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وبما جاء به من عندالله.

تفسيرها: ذكر سبحانه في تلك السورة وعده بالنصر والفتح، ثمّ بيّن في هذه السورة ما كفاه الله من أمر أبي لهب، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ

حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ ابن كثير: «أبي لَهْب» ـ ساكنة الهاء ـ. والباقون: بفتحها. واتّفقوا في ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أنّها مفتوحة الهاء لوفاق الفواصل. وقرأ عاصم: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع. وروي عن البرجمي: «سيُصلى» ـ بضمّ الياء ـ، وهي قراءة أشهب العقيلي، وأبي رجاء. وفي الشواذّ، قراءة ابن مسعود: «ومُرَيْتَتُهُ حمالةٌ للحطب في جيدها حبل من مسد».

الحجة: قال أبو عليّ: يشبه أن يكون لَهَب وَلَهْب لغتين، كالشَمَع والشَمْع، والنَهَر والنَهْر. واتّفاقهم في الثانية على الفتح، يدلّ على أنّه أوجه من الإسكان، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ اللَّهَبِ﴾.

وأمّا ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ فمن رفع جعله وصفاً لقوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾، ويدلّ على أنّ الفعل قد وقع كقولك: مررت برجل ضاربِ عمروٍ أمس. فهذا لا يكون إلّا معرفة، ولا يقدر فيه إلّا الإنفصال، كما يقدر في هذا النحو، إذا لم يكن الفعل واقعاً. وأمّا ارتفاع ﴿امْرَأَتُهُ﴾ فيحتمل وجهين:

أحدهما: العطف على فاعل ﴿سَيَصْلَى﴾ التقدير: سيصلى ناراً هو وامرأته، إلّا أنّ الأحسن أن لا يؤكد لما جرى من الفصل بينهما، ويكون ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ على هذا وصفاً لها. ويجوز في قوله: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أن يكون في موضع حال. وفيها ذكر منها، ويتعلّق بمحذوف.

ويجوز فيه وجه آخر، وهو أن يرتفع ﴿امْرَأَتُهُ﴾ بالإبتداء. و﴿حَمَّالَةَ﴾ وصف لها. و﴿فِي جِيدِهَا﴾ خبر المبتدأ.

وأمّا النصب في ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، فعلى الذمّ لها، كأنّها كانت اشتهرت بذلك، فجرت الصفة عليها للذمّ، لا للتخصيص والتخليص من موصوف غيرها.

وقوله: ﴿حَبْلٌ﴾ معناه: غليظ. يقال: رجل حبل الوجه، وحبل الرأس.

اللغة: التبّ والتباب: الخسران المؤدّي إلى الهلاك. والمسد: الحبل من الليف. وجمعه: أمساد. قال:

وَمَسَـــدٍ أُمِـــرَّ مِـــنْ أَيـــانِقِ لَيْسَ [لَسْنَ] بِأَنْيابٍ، وَلا حَقائِقِ[1]

النزول: سعيد بن جبير[2]، عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه! فأقبلت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدّقوني؟ قالوا: بلى. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك! لهذا دعوتنا جميعاً؟

---

(١) أيانق: جمع أينق، جمع ناقة. والأنياب: جمع ناب المسنة من الإبل. والحقائق: جمع حقاق، وهي جمع حِقّ بكسر الحاء، وهي من الإبل ما دخل في الرابعة.

(٢) سعيد بن جبير تابعي: اتّفق المسلمون كافّة على ثقته. روي ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: انّ سعيد بن جبير كان ياتمّ بعليّ بن الحسين عليه السلام، وكان عليه السلام يثني عليه، وما كان السبب في قتل الحجاج له إلّا هذا الأمر، وكان مستقيما. وروي عنه أصحاب الصحاح الستّة أيضاً ولعلّ معنى كونه مستقيما أنّه لم يكن متزلزلا يظهر التشيّع تارة للاخرة والعداوة أخرى للدنيا، وقد عدّ ابن قتيبة جماعة من الشيعة، في كتابة الموسوم بالمعارف أحببنا ايراده هنا: الحرث الاعور، صعصعة بن صوحان [صوهان] الأصبغ بن نباته، عطية العوفي، طاوس الاعمش، أبو اسحاق السبيعي، أبو صادق سلمة بن كهيل، حكم بن عتيبة، سالم بن أبي الجعد، إبراهيم النخعي، حبة بن جوين، حبيب بن أبي ثابت، منصور بن المعتمر، سفيان الثوري، شعبة بن الحجاج فطر من خليفة الحسن بن صالح بن حيي شريك، وأبو اسرائيل الملائي، ومحمّد بن فضيل، ووكيع وحميد الرواسي، وزيد بن الحباب، والفضل بن دكين، والمسعودي الاصغر، وعبيد الله بن موسى، وجرير عبد الحميد، وعبد الله بن داود، وهشيم وسليمان التيمي، وعوف الاعرأبي، وجعفر الضبيعي، ويحيى بن سعد القطعان، وابن لهيعة، وهشام بن عمار، والمغيرة صاحب إبراهيم، ومعروف بن خربوذ [خزبوذ]، وعبد الرزاق، ومعمر وعلي بن الجعد. انتهى كلام ابن قتيبة، وبعض هؤلاء لم يكونوا مستقيمين، بل كانوا يظهرون الولاء تارة، وهو مذهبهم باطنا، ويظهرون خلافه محبّة للدنيا، للتقرّب إلى الأمراء، وترك ابن قتيبة كثيرا، وبعض من ذكره من المحبّين، لا ممّن اعتقد عصمتهم عليهم السلام.

فأنزل الله هذه السورة. أورده البخاري في الصحيح.

المعنى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي: خسرت يداه، وخسر هو، ـ عن مقاتل ـ. وإنّما قال: خسرت يداه؛ لأنّ أكثر العمل يكون باليد. والمراد: خسر عمله، وخسرت نفسه بالوقوع في النار. وقيل: إنّ اليد هنا صلة كقولهم: يد الدهر، ويد السنة. قال: «وأيدي الرزايا بالذخائر مولع» وقيل: معناه: صفرت يداه من كل خير. قال الفرّاء: الأوّل دعاء، والثاني خبر، فكأنّه قال: أهلكه الله وقد أُهلك. وفي حرف عبدالله وأُبيّ: وقد تبَّ. وقيل: إنّ الأوّل أيضاً خبر، ومعناه: أنّه لم تكتسب يداه خيراً قطّ، وخسر مع ذلك هو نفسه أي: تبَّ على كل حال. وأبو لهب هو ابن عبد المطلب، عمُّ النبيّ ﷺ، وكان شديد المعاداة والمناصبة له. قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذى المجاز، إذا أنا بشابّ يقول: أيّها الناس! قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا. وإذا برجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها الناس! إنّه كذّاب فلا تصدّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمّد، يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبو لهب، يزعم أنّه كذّاب. وإنّما ذكر سبحانه كنيته، دون اسمه؛ لأنّها كانت أغلب عليه. وقيل: لأنّ اسمه عبد العزى، فكره الله سبحانه أن ينسبه إلى العزى، وأنّه ليس بعبد لها، وإنّما هو عبدالله. وقيل: بل اسمه كنيته، وإنّما سمّي بذلك؛ لحسنه وإشراق وجهه، وكانت وجنتاه كأنّهما تلتهبان، ـ عن مقاتل ـ.

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: ما نفعه، ولا دفع عنه عذاب الله ماله، وما كسبه. ويكون ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ موصولة، والضمير العائد من الصلة محذوف. وقيل: معناه: أيّ شيء أغنى عنه ماله، وما كسب يعني: ولده؛ لأنّ ولد الرجل من كسبه، وذلك أنّه قال لمّا أنذره النبيّ ﷺ بالنار: إن كان ما تقول حقاً، فإنّي أفتدي بمالي وولدي.

ثمّ أنذره سبحانه بالنار، فقال: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: سيدخل ناراً

ذات قوّة واشتعال، تلتهب عليه، وهي نار جهنّم، وفي هذا دلالة على صدق النبيّ ﷺ، وصحّة نبوّته؛ لأنّه أخبر أنّ أبا لهب يموت على كفره، وكان كما قال.

﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ وهي أُمّ جميل بنت حرب، أُخت أبي سفيان ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تحمل الشوك والعضاة [الغضا]، فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة ليعقره. ـ عن ابن عباس ـ. وفي رواية الضحّاك: قال الربيع بن أنس: كانت تبثّ وتنشر الشوك على طريق الرسول، فيطؤه كما يطأ أحدكم الحرير. وقيل: إنّها كانت تمشي بالنميمة بين الناس، فتلقي بينهم العداوة، وتوقد نارها بالتهييج، كما توقد النار الحطب، فسمّى النميمة حطباً، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى، وقتادة ومجاهد وعكرمة والسدّي ـ. قالت العرب: فلان يحطب على فلان: إذا كان يغري به، قال: [قال]: «ولم يمش بين الحي بالحطب الرطب» أي: لم يمش بالنميمة. وقيل: حمالة الحطب معناه: حمالة الخطايا، ـ عن سعيد بن جبير وأبي مسلم ـ. ونظيره قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي: في عنقها حبل من ليف، وإنّما وصفها بهذه الصفة تخسيساً لها وتحقيراً. وقيل: حبل يكون له خشونة الليف، وحرارة النار، وثقل الحديد، يجعل في عنقها زيادة في عذابها. وقيل: في عنقها سلسلة من حديد، طولها سبعون ذراعاً، تدخل مِن فيها، وتخرج مِن دبرها، وتدار على عنقها في النار، ـ عن ابن عباس ، وعروة بن الزبير ـ. وسمّيت السلسلة مسداً، بمعنى أنّها ممسودة أي: مفتولة. وقيل: إنّها كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: لأُنفقنها في عداوة محمّد! فتكون عذاباً يوم القيامة في عنقها، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ. ويروى عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لمّا نزلت هذه السورة، أقبلت العوراء أمّ جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر[١]، وهي تقول: «مُذَمَّماً

---

[١] الفهر: حجر على مقدار ملء الكف.

أبينا، ودينه قلينا[١]، وأمره عصينا» والنبيّ ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر. فلمّا رآها أبوبكر قال: يا رسول الله! قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله ﷺ: إنّها لن تراني. وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ فوقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبابكر! أُخبرت أنّ صاحبك هجاني. فقال: لا وربّ البيت ما هجاك. [قال] فولّت وهي تقول «قريش تعلم أنّي بنت سيّدها».

وروي أنّ النبيّ ﷺ قال: صرف الله سبحانه عنّي أنّهم يذمّون مُذَمَّماً، وأنا محمّد. ومتى قيل: كيف يجوز أن لاترى النبيّ ﷺ وقد رأت غيره؟ فالجواب: يجوز أن يكون الله قد عكس شعاع عينيها، أو صلب الهواء، فلم ينفذ فيه الشعاع، أو فرّق الشعاع فلم يتّصل بالنبيّ ﷺ. وروي أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما زال ملك يسترني عنها». وإذا قيل: هل يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السورة، وهل كان يقدر على الإيمان، ولو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه، بأنّه ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فالجواب: إنّ الإيمان يلزمه؛ لأنّ تكليف الإيمان ثابت عليه. وإنّما توعده الله بشرط أن لا يؤمن. ألا ترى إلى قوله سبحانه في قصّة فرعون: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ وفي هذا دلالة على أنّه لو تاب قبل وقت اليأس، لكان يقبل منه. ولهذا خصَّ ردّ التوبة عليه بذلك الوقت. وأيضاً فلو قدرنا أنّ أبا لهب سأل النبيّ ﷺ قال: لو آمنت هل أدخل النار؟ لكان ﷺ يقول له: لا، وذلك لعدم الشرط.

---

[١] كانت قريش تسمي رسول الله ﷺ مذمماً. وقلينا أي: أبغضنا.

سورة الإخلاص

مكّيّة. وقيل: مدنيّة. وسمّيت سورة التوحيد؛ لأنّه ليس فيها إلّا التوحيد، وكلمة التوحيد تسمّى كلمة الإخلاص. وقيل: إنّما سمّيت بذلك؛ لأنّ من تمسّك بها فيها اعتقاداً وإقراراً، كان مؤمناً مخلصاً. وقيل: لأنّ من قرأها على سبيل التعظيم، أخلصه الله من النار أي: أنجاه منها. وتسمّى أيضاً سورة الصمد، وتسمّى أيضاً بفاتحتها. وتسمّى أيضاً نسبة الربّ. وروي في الحديث لكل شيء نسبة، ونسبة الرب [الله] سورة الإخلاص. وفي الحديث أيضاً أنّه كان يقول لسورتي ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ المقشقشتان، سمّيتا بذلك؛ لأنّهما يبرئان من الشرك والنفاق. يقال: تقشقش المريض من علّته: إذ أفاق وبرىء. وقشقشه: أبرأه، كما يقشقش الهناء الجرب.

عَدَدُ آيِهَا: خمس آيات، مكّي شاميّ، أربع في الباقين.

اخْتِلَافُهَا: آية «لم يلد» مكّي شاميّ.

فَضْلُهَا: في حديث أُبيّ: من قرأها، فكأنّما قرأ ثلث القرآن، وأُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وعن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن

في ليلةٍ؟ قلت: يا رسول الله! ومن يطيق ذلك؟ قال: إقرأوا ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾».

وعن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مرّة بورك عليه، فإن قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهله، فإن قرأها ثلاث مرّات، بورك عليه وعلى أهله وعلى جميع جيرانه. فإن قرأها اثنتي عشر مرّة، بني له اثنا عشر قصراً في الجنّة، فتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا. فإن قرأها مائة مرّة، كفّر عنه ذنوب خمس وعشرين سنة، ما خلا الدماء والأموال. فإن قرأها أربعمائة، كفر عنه ذنوب أربعمائة سنة. فإن قرأها ألف مرّة، لم يمت حتى يرى مكانه من الجنّة، أو يرى له». وعن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فشكا إليه الفقر، وضيق المعاش. فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلت بيتك، فسلّم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد، فسلّم واقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مرّة واحدة»، ففعل الرجل، فأفاض الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه.

السكوني، عن أبي عبدالله عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ صلّى على سعد بن معاذ، فلمّا صلّى عليه قال ﷺ: لقد وافى من الملائكة سبعون ألف ملك، وفيهم جبرائيل عليه السلام، يصلّون عليه. فقلت: يا جبرائيل! بم استحقّ صلاتكم عليه؟ فقال: بقراءة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قاعداً وقائماً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً.

منصور بن حازم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من مضى به يوم واحد، فصلّى فيه بخمس صلوات، ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد، قيل له: يا عبدالله لست من المصلّين. إسحاق بن عمّار، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من مضت عليه جمعة، ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد، ثمّ مات، مات على دين أبي لهب.

هارون بن خارجة عنه ﷺ قال: «من أصابه مرض، أو شدّة، فلم يقرأ في مرضه أو شدّته، بقل هو الله أحد، ثمّ مات في مرضه، أو في تلك الشدّة التي نزلت به، فهو من أهل النار».

أبوبكر الحضرمي عنه ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع أن يقرأ في دبر الفريضة بقل هو الله أحد، فإنّه من قرأها جمع له خير الدنيا والآخرة، وغفرالله له ولوالديه، وما ولدا».

عبدالله بن حجر قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ إحدى عشرة مرّة في دبر الفجر، لم يتبعه في ذلك اليوم ذنب، وأرغم أنف الشيطان.

إبراهيم بن مهزم عمّن سمع أبا الحسن عليه السلام يقول: من قدّم ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ بينه وبين كل جبار، منعه الله منه، يقرؤها بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، فإذا فعل ذلك رزقه الله خيره، ومنعه شرّه. وقال: إذا خفت أَمراً، فاقرأ مائة آية من القرآن، حيث شئت، ثمّ قل: أللهمّ اكشف عنّي البلاء ـ ثلاث مرّات ـ.

عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جده، عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرّة، حين يأخذ مضجعه، غفر الله له ذنوب خمسين سنة»[1].

---

(١) وقال كثير من علمائنا: إذا شرع في سورة الجحد والتوحيد في الصلاة، وجب عليه إتمامها، ولا يجوز العدول إلى سورة أخرى إلّا إلى سورة الجمعة والمنافقين في صلاة الجمعة، مع أنّه يجوز العدول من سورة إلى أخرى ما لم يتجاوز نصفها، فإذا تجاوز النصف لا يجوز ترك إلى سورة كانت، بناء على عدم جواز تبعيض السورة وحرمة القرآن، وذلك لأنّ الأصل عدم جواز العدول حينئذ، خرج عنه قبل النصف بدليل، وبقي الباقي في المنع، وادّعى عليه الإجماع، ولا يضرّه مخالفة المحقّق، فإنّه معلوم النسب، لا يقدح في الإجماع، فإنّ الصحيح من طرق الإجماع هو الإجماع الدخولي، وإنّما تركه المتأخّرون؛ لشبهة حصلت لهم، وهي أنّ العلم الإجمالي باتّفاق الطائفة، متوقّف على تتبّع أقوالهم تفصيلا، وسبق التنبيه عليه مراراً، وقلنا أنّه لا يتوقّف على ذلك، واعلم أنّ النصف كساير التقديرات حدّ فاصل بين حكمين متغايرين، كمقدار الدرهم من الدم معفو، وثمانية فراسخ موجب للتقصير، وهكذا النصف هنا فصل بين جواز العدول وعدم جوازه، فبعضهم عبّر بالجواز في النصف الأوّل فقط، وبعضهم ←

تَفْسِيرُهَا: لمّا ذمّ سبحانه أعداء أهل التوحيد في السورة المتقدّمة، ذكر في هذه السورة بيان التوحيد، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

القِرَاءَة: قرأ أبو عمرو: «أحدُ الله الصمد» ـ بغير تنوين الدال من أحد ـ. وروي عنه [أيضا] أنّه كان يقول ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ يقف، فإن وصل، قال: أحد الله. وزعم أنّ العرب لم تكن تصل مثل هذا. والباقون: ﴿أحدٌ الله﴾ ـ بالتنوين ـ. وقرأ اسماعيل عن نافع وحمزة وخلف ورويس: «كُفْؤاً» ـ ساكنة الفاء مهموزة ـ. وقرأ حفص: «كُفُواً» ـ مضمومة الفاء، مفتوحة الواو، وغير مهموزة ـ. وقرأ الباقون: ﴿كُفُؤاً﴾ بالهمزة، وضمّ الفاء.

الحُجّة: قال أبو عليّ: من قرأ «أحدٌ الله» فوجهه بيّن، وذلك أنّ التنوين من «أحدٌ» ساكن، ولام المعرفة من الإسم ساكن. فلمّا التقى الساكنان، حرك الأوّل

← بعدم الجواز إن تجاوز ودخل في النصف الثاني، والمفاد واحد، ولا يعد قولين كما في الحدائق، نعم يشكل الأمر في المنتصف، والحاقه بكل واحد، ويسهل الأمر أنّ النصف لا يمكن أن يكون المراد به هنا النصف الحقيقي بعدد الحروف، فإنّه غير ممكن، بل التقريب وفى رواية تحديد الجواز بالثلثين.

منهما بالكسر، كما تقول: إذهبِ اذْهب.

ومن قال: ﴿أَحَدُ اللهُ﴾ فحذف النون، فإنّ النون قد شابهت حروف اللين في الآخر في أنّها تزاد كما يزدن، وفي أنّها تدغم فيهنّ كما يدغم كل واحد من الواو والياء في الآخر، وفي أنّها قد أُبدلت منها الألف في الأسماء المنصوبة، وفي الخفيفة. فلمّا شابهت حروف اللين، أُجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين، كما حذف الألف والواو والياء لذلك في نحو: رمى القوم، ويغزو الجيش، ويرمي القوم. ومن ثمّ حذفت ساكنة في الفعل في نحو: لم يك، ولا تك في مرية. فحذفت في «أحد الله» لالتقاء الساكنين، كما حذفت هذه الحروف [وكما حذفت] في نحو: هذا زيد بن عمرو، حتى استمرَّ ذلك في الكلام. وأنشد أبو زيد:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ ... وَلا ذاكِرَ اللهَ إِلاَّ قَليلاً[1]

وقال الشاعر:

كَيْفَ نَوْمي عَلَى الْفِراشِ، وَلَمَّا ... تَشْمَلِ الشامَ غَارةٌ شَعْواءُ

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ، وَتُبْدِي ... عَنْ خِدامِ الْعَقيلَةُ الْعَذْراءُ[1]

أمّا كُفْواً وكُفُواً: فأصله الضمّ، فخفّف مثل: طنْب وطنُب، وعنْق وعنُق.

(اللغة): أحد: أصله: وحد، فقلبت الواو همزة. ومثله: أناة، وأصله وناة، وهو على ضربين: أحدهما: أن يكون إسماً. والآخر: أن يكون صفة. فالإسم: نحو أحد وعشرون يريد به الواحد، والصفة: كما في قول النابغة:

كَأَنَّ رَحْلِي، وَقَدْ زالَ النَّهارُ بِنا ... بِذِي الْجَليلِ عَلىٰ مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ[2]

---

(١) غارة شعواء: متفرّقة. وخدام: الخلخال. والعقيلة: الكرمية يعني تشمر العقيلة العذراء للفرار. والشعر لابن قيس الرقيات. والشاهد في حذف التنوين عن «خدام».

(٢) ذو الجليل: موضع. والمستأنس: ثور وحشيّ ابصر انسانا فنفر. يشبه به ناقته. والوحد: المنفرد.

[١] قائله: أبو الأسود الدؤلي.

كذلك قولهم: واحد، يكون إسماً، كالكاهل والغارب. ومنه: قولهم: واحد، اثنان، ثلاثة، وتكون صفة كما في قول الشاعر: «فَقَدْ رَجَعُوا كَحَيّ واحدِينا» وقد جمعوا أحداً الذي هو الصفة على أُحدان قالوا: أحد وأُحدان، شبّهوه بسلق وسُلقان. ونحوه: قول الشاعر:

يَحْمِي الصَرِيمَةَ أُحْدانُ الرِّجالِ لَهُ صَيْدٌ، وَمُجْتَرِىءٌ بِاللَّيْلِ هَمَّاسُ[1]

فهذا جمع لأحد الذي يراد به الرفع من الموصوف والتعظيم له، وأنّه منفرد عن الشبه والمثل. وقالوا: هو أحد الأحد إذا رفع منه وعظم. وقالوا: أحد الأحدين، وواحد الآحاد. وحقيقة الواحد: شيء لا ينقسم في نفسه، أو في معنى صفته، فإذا أُطلق واحد من غير تقدّم موصوف، فهو واحد في نفسه. وإذا أُجري على موصوف، فهو واحد في معنى صفته. فإذا قيل الجزء الذي لا يتجزّأ واحد أُريد أنّه واحد في نفسه. وإذا قيل: هذا الرجل إنسان واحد، فهو واحد في معنى صفته. وإذا وصف الله تعالى بأنّه واحد، فمعناه: أنّه المختصّ بصفات لا يشاركه فيها أحد غيره، نحو كونه قادراً لنفسه، عالماً حيّاً موجوداً كذلك. والصمد: السيّد المعظم الذي يصمد إليه في الحوائج أي: يقصد. وقيل: هو السيّد الذى ينتهي إليه السؤود [السؤدد]. قال الأسدي:

أَلا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ، وبِالسَّيِّدِ الصَمَدِ

وقال الزبرقان: «وَلا رهينةَ إلاّ السَّيِد الصَّمَدِ» وقال: رجل مصمد أي: مقصود. وكذلك بيت مصمد. قال طرفة:

وَإِنْ يَلْتَقِي [تَلْتَقِ] الْحَيُّ الْجَمِيعُ، تُلاقِنِي

إِلى ذُرْوَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمُصَمَدِ[2]

---

(١) الصريمة: الأرض المحصود زرعها. والاسد الهموس.

(٢) يعني: إن اجتمع الحي للافتخار، كنت في أعلى الشرف.

ـ والكفو والكفيء والكفاء، واحد، وهو المثل والنظير. قال النابغة:

لا تَقْذِفَنّي [تَـقْذِفَنّى] بِـرُكْـنٍ لا كِـفاءَ لَـهُ
وَلَـــوْ تَأَثَّـــفَكَ الأَعْـــداءُ بِـــالرَّفَدِ(١)

وقال حسان:

وَجِـــبْرِيلُ رَسُـــولُ اللهِ مِـــنّا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَـيْسَ لَـهُ كِـفاءُ

وقال آخر في الكفيء:

أَمَـــا كـــانَ عَـبَّادٌ كَـفِيئاً لِـدارِمٍ بَلىٰ وَلِأَبياتٍ بِـهَا الْـحُجُراتُ(٢)

الإعراب: قال أبو عليّ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَـدٌ﴾ يـجوز فـي إعـراب ﴿اللهُ﴾ ضربان: أحدهما: أن يكون خبر مبتدأ، وذلك على قول من ذهب إلى أنّ «هـو» كناية عن اسم الله تعالى. ثمّ يجوز في قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ ما يجوز في قـولك: زيـد أخوك قائم. والآخر: على قول من ذهب إلى أنّ «هو» كناية عن القصّة والحديث، فيكون اسم الله عنده مرتفعاً بالإبتداء، وأحد: خبره. ومثله: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلّا أنّ ﴿هِيَ﴾ جاءت على التأنيث؛ لأنّ في التفسير اسماً مؤّنثاً. وعلى هذا جاء: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ وإذا لم يكن في التفسير مؤّنث، لم يؤّنث ضمير القصّة.

وقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾. ﴿اللهُ﴾: مبتدأ، والصمد: خبره. ويـجوز أن يكـون ﴿الصَّمَدُ﴾ صفة ﴿اللهُ﴾. و ﴿اللهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو الله الصمد. ويجوز أن يكون ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ خبراً بعد خبر، على قول من جعل «هو» ضمير الأمـر والحديث.

---

(١) لا ترميني بأمر عظيم لا مثل له، وإن أحاط به أعدائي، يعاون بعضهم بعضا. وتأثفه. أحاطه وتكنفه. والرفد: المعونة والعطاء.

(٢) أي: اما كان الحجرات التي لعباد كفيئا للأبيات، والخيم التي لدارم أو بالعكس.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ قال: إنّ ﴿لَهُ﴾ ظرف غير مستقرّ، وهو متعلّق بكان. و﴿كُفُواً﴾ منتصب بأنّه خبر متقدّم، كما كان قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك. وزعموا أنّ من البغداديّين من يقول: إنّ في ﴿يَكُنْ﴾ مِن قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ ضميراً مجهولاً. وقوله: ﴿كُفُواً﴾ ينتصب على الحال، والعامل فيها ﴿لَهُ﴾ وهذا إذا أفردته عن ﴿يَكُنْ﴾ كان معناه: له أحد كفواً. وإذا حمل على هذا لم يسغ. ووجه ذلك أنّه محمول على معنى النفي، فكأنّه لم يكن أحد له كفواً، كما كان قولهم: ليس الطيب إلّا المسك، محمولاً على معنى النفي، ولولا حمله على المعنى لم يجز. ألا ترى أنّك لو قلت: زيد إلّا منطلق، لم يكن كلاماً. فكما أنّ هذا محمول على المعنى، كذلك ﴿لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ محمول على المعنى. وعلى هذا جاز أن يكون ﴿أَحَدٌ﴾ فيه الذي يقع لعموم النفي. ولولا ذلك لم يجز أن يقع ﴿أَحَدٌ﴾ هذا في الإيجاب. فإن قلت: أيجوز أن يكون قوله تعالى «له» عندكم حالاً، على أن يكون المعنى: ولم يكن كفواً له أحد، فيكون «له» صفة للنكرة. فلمّا قدّم، صار في موضع الحال، كقوله: «لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلٌ».

فإن سيبويه قال: إنّ ذلك يقلّ في الكلام، وإن كثر في الشعر، فإن حملته على هذا على استكراه، كان غير ممتنع. والعامل في قوله له إذا كان حالاً، يجوز أن يكون أحد شيئين.

أحدهما: يكن. **والآخر**: أن يكون ما في معنى ﴿كُفُواً﴾ من معنى المماثلة.

فإن قلت: إنّ العامل في الحال إذا كان معنى، لم يتقدّم الحال عليه، فإنّ ﴿لَهُ﴾ لما كان على لفظ الظرف، [والظرف] يعمل فيه المعنى، وإن تقدّم عليه، كقولك: كلّ يوم لك ثوب، كذلك يجوز في هذا الظرف، وذلك من حيث كان ظرفاً، وفيه ضمير في الوجهين يعود إلى ذي الحال، وهو ﴿كُفُواً﴾.

النزول: قيل: إنّ المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربّك. فنزلت

السورة، ـ عن أُبيّ بن كعب وجابر ـ.

وقيل: أتى عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة أخو لبيد، النبيّ ﷺ، وقال عامر: إلى ما تدعونا يا محمّد؟ فقال: إلى الله. فقال: صفه لنا أمِن ذهب هو، أم مِن فضّة، أم مِن حديد، أم مِن خشب؟ فنزلت السورة. وأرسل الله الصاعقة على أربد فأحرقته، وطعن عامر في خنصره [خصر] فمات، ـ عن ابن عباس ـ.

وقيل: جاء أُناس من أحبار اليهود إلى النبيّ ﷺ فقالوا: يا محمّد! صف لنا ربّك، لعلَّنا نؤمن بك، فإنّ الله أنزل نعته في التوراة. فنزلت السورة، وهي نسبة الله خاصّة، ـ عن الضحّاك وقتادة ومقاتل ـ.

وروى محمّد بن مسلم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ اليهود سألوا النبيّ ﷺ فقالوا: أنسب لنا ربّك. فمكث ثلاثاً لا يجيبهم، ثمّ نزلت السورة[1].

وقريب منه ما ذكره القاضي في تفسيره، أنّ عبدالله بن سلام انطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكّة، فقال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالله هل تجدني في التوراة رسول الله؟ فقال: إنعت لنا ربّك. فنزلت هذه السورة، فقرأها النبيّ ﷺ، فكانت سبب إسلامه، إلّا أنّه كان يكتم ذلك إلى أن هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة، ثمّ أظهر الإسلام.

المعنى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ هذا أمر من الله، عزّ اسمه، لنبيّه ﷺ أنْ يقول لجميع المكلّفين: هو الله الذي تحقّ له العبادة. قال الزجّاج: ﴿هُوَ﴾ كناية عن ذكر الله، عزّ وجلّ، ومعناه: الذي سألتم تبيين نسبته هو الله أحد أي: واحد. ويجوز أن يكون المعنى الأمر الله أحد، لا شريك له، ولا نظير. وقيل: معناه: واحد ليس كمثله

---

(١) جاء في التورة: «يابني اسرائيل اسمعوا أنّ إلهكم إله واحد»، وأراد اليهود أن يمتحنوا رسول الله ﷺ، ويعرفوا هل أنّه على الحق من التوحيد، فلمّا سمعوا منه يوافقهم، صدّقوه، وآمن منهم من آمن.

شيء، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: واحد في الإلهيّة والقدم. وقيل: واحد في صفة ذاته، لا يشركه في وجوب صفاته أحد فإنّه يجب أن يكون موجوداً عالماً قادراً حيّا، ولا يكون ذلك واجبا لغيره. وقيل: واحد في أفعاله، لأنّ و[أفعاله] كلها [إ]حسان، لم يفعلها لجرّ نفع، ولا لدفع ضرر، فاختصّ بالوحدة من هذا الوجه؛ إذ لا يشركه فيه سواه، واحد في أنّه لا يستحقّ العبادة سواه؛ لأنّه القادر على أُصول النعم من الحياة والقدرة والشهوة، وغير ذلك ممّا لا تكون النعمة إلّا به، ولا يقدر على شيء من ذلك غيره، فهو أحد من هذه الوجوه الثلاثة.

وقيل: إنّما قال: أحد، ولم يقل: واحد؛ لأنّ «الواحد» يدخل في الحساب، ويضمّ إليه آخر. وأمّا الأحد، فهو الذي لا يتجزّأ، ولا ينقسم في ذاته، ولا في معنى صفاته. ويجوز أن يجعل للواحد ثانياً، ولا يجوز أن يجعل للأحد ثانياً؛ لأنّ الأحد يستوعب جنسه بخلاف الواحد. ألا ترى أنّك لو قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقاومه اثنان. ولما قلت لا يقاومه أحد، لم يجز أن يقا[و]مه إثنان، ولا أكثر، فهو أبلغ. وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام في معنى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أي: قل أظهر ما أوحينا إليك، وما نبّأناك به بتأليف الحروف التي قرأناها عليك؛ ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد، و﴿هُوَ﴾ اسم مكنّى مشار إلى غائب. فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواسّ[1]، كما أنّ قولك: «هذا» إشارة إلى الشاهد عند الحواسّ، وذلك أنّ الكفّار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة [إلى] المشاهد [الشاهد] المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة بالأبصار، فأشر أنت يا محمّد إلى إلهك الذي تدعو إليه، حتى نراه وندركه، ولا نأله فيه. فأنزل الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فالهاء تثبيت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار، ولمس

---

(١) معناه: أنّ الهاء في «هو» كالهاء في «هذا» للتنبيه، وأصل الكلمة هو الواو، كما أنّ أصل الكلمة في «هذا» هو «ذا». وذا للاشارة إلى الحاضر المرئي، والواو للغائب عن الحسّ.

الحواسّ، وأنّه يتعالى عن ذلك، بل هو مدرك الأبصار، ومبدع الحواسّ.

وحدّثني أبي عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: رأيت الخضر في المنام، قبل بدر بليلة، فقلت له: علّمني شيئاً أنتصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو! يا من لا هو إلّا هو! فلما أصبحت قصصت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا عليّ! علمت الإسم الأعظم. فكان على لساني يوم بدر. قال وقرأ عليه السلام يوم بدر ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ فلما فرغ، قال: يا هو! يا من لا هو إلّا هو! إغفر لي، وانصرني على القوم الكافرين. وكان يقول ذلك يوم صفين، وهو يطارد. فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين! ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم، وعماد التوحيد لله، لا إله إلّا هو. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ [ثمّ قرأ: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ] الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وآخر الحشر. ثمّ نزل فصلّى أربع ركعات قبل الزوال.

قال: وقال أمير المؤمنين عليه السلام ﴿الله﴾ معناه: المعبود الذي يأله فيه الخلق، ويؤله إليه. المستور عن إدراك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات. وقال الباقر عليه السلام: الله: معناه المعبود الذي أله الخلق عن إدراك ماهيّته، والإحاطة بكيفيّته. وتقول العرب: أله الرجل إذا تحيَّر في الشيء، فلم يحط به علماً. ووله إذا فزع إلى شيء. قال: والأحد الفرد المتفرّد [المنفرد]. والأحد والواحد، بمعنى واحد، وهو المتفرّد [المنفرد] الذي لا نظير له. والتوحيد: الإقرار بالوحدة، وهو الإنفراد، والواحد: المباين الذي لا ينبعث من شيء، ولا يتّحد بشيء. ومن ثمّ قالوا: إنّ بناء العدد من الواحد، وليس الواحد من العدد؛ لأنّ العدد لا يقع على الواحد، بل يقع على الإثنين. فمعنى قوله: ﴿الله أَحَدٌ﴾ أي: المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه، والإحاطة بكيفيّته، فرد بإلهيّته، متعال عن صفات خلقه.

﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ قال الباقر عليه السلام: حدّثني أبي زين العابدين عليه السلام، عن أبيه الحسين بن عليّ عليه السلام، أنّه قال: الصمد الذي قد انتهى سؤدده، والصمد الدائم الذي لم

يزل، ولا يزال. والصمد الذي لا جوف له. و﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا يأكل ولا يشرب. و ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا ينام. وأقول: إنّ المعنى في هذه الثلاثة، أنّه سبحانه الحي الذي لا يحتاج إلى الطعام والشراب والنوم. قال الباقر عليه السلام: و﴿الصَّمَدُ﴾: السيّد المطاع الذي ليس فوقه آمر ولا ناه. قال: وكان محمّد بن الحنفيّة يقول: ﴿الصَّمَدُ﴾ القائم بنفسه الغني عن غيره. وقال غيره: ﴿الصَّمَدُ﴾: المتعالي عن الكون والفساد. والصمد الذي لا يوصف بالنظائر.

قال: وسئل عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن ﴿الصَّمَدُ﴾ فقال: الصمد الذي لا شريك له، ولا يؤوده حفظ شيء، ولا يعزب عنه شيء. وقال أبو البختري، وهب بن وهب القرشي[1]: قال زيد بن عليّ عليه السلام: ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. و ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي أبدع الأشياء، فخلقها أضداداً وأصنافاً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ، ولا شكل، ولا مثل، ولا ندّ ولا نظير.

قال وهب بن وهب: وحدّثني الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام، عن أبيه الباقر عن أبيه، أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن عليّ عليه السلام يسألونه عن ﴿الصَّمَدُ﴾، فكتب إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار» وإنّ الله قد فسّر سبحانه الصمد فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

---

(١) وهب بن وهب: ضعّفه أصحاب الرجال، وقالوا إنّه من أكذب البريّة، ولكن الاعتماد هنا على المعاني، لا على الاسناد، ولذلك نقل صاحب الكتاب حديثه بطوله، وكذلك يجوز في التفسير نقل قول مَن ليس قوله بحجّة، والغرض [الغرض] منه التبصر والتمرين، دون التعبّد والاحتجاج، فإنّ العادة قضت بأنْ لا يتمهّر الإنسان في العلوم إلّا بممارسة أقوال العلماء، فليس تتبّع قول الفقهاء وقراءة كتبهم؛ لأنّ اجتهادهم حجّة على غيرهم، وكذلك التفسير، فلا يجوز أن يعاب على المفسّرين نقلهم أقوال غير المعصومين.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لم يخرج منه شيء كثيف، كالولد، ولا سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا ينبعث منه البدوات كالسنة والنوم، والخطرة والغمّ، والحزن والبهجة، والضحك والبكاء، والخوف والرجاء، والرغبة والسآمة. والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيف.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: ولم يتولّد من شيء، ولم يخرج من شيء، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشيء من الشيء، والدابّة من الدابّة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار. ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين، والسمع من الأُذن، والشمّ من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، والنار من الحجر. لا بل هو ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومنشيء الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، عالم الغيب والشهادة، الكبير المتعال.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ قال وهب بن وهب: سمعت الصادق عليه السلام يقول: قدم وفد من فلسطين على الباقر عليه السلام فسألوه عن مسائل، فأجابهم عنها، ثمّ سألوه عن ﴿الصَّمَدُ﴾ فقال عليه السلام: تفسيره في الصمد خمسة أحرف:

فالألف: دليل على أنيته، وهو قوله: عزّ وجلّ ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواسّ.

واللام: دليل على إلهيته، بأنّه هو الله. والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهران في الكتابة، دليلان على أنّ إلهيته [إلهية] بلطفه خافية، لا يدرك بالحواسّ، ولا يقع في لسان واصف، ولا أُذن سامع؛ لأنّ

تفسير الإله هو الله الذي أله الخلق عن درك ماهيّته وكيفيّته، بحسّ أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام، وخالق الحواسّ، وإنّما يظهر ذلك عند الكتابة، فهو دليل على أنّ الله سبحانه أظهر ربوبيّته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة. وإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه، كما أنّ لام الصمد لا يتبيّن، ولا يدخل في حاسّة من حواسّه الخمس. فلمّا نظر إلى الكتابة، ظهر له ما خفي ولطف. فمتى تفكّر العبد في ماهيّة الباري وكيفيّته، أله وتحيَّر، ولم تحط فكرته بشيء يتصوّر له؛ لأنّه تعالى خالق الصور. وإذا نظر إلى خلقه، ثبت له أنّه، عزّ وجلّ، خالقهم، ومركب أرواحهم في أجسادهم.

وأما الصاد: فدليل على أنّه سبحانه صادق وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى اتباع الصدق بالصدق، ووعدنا بالصدق، وأراد الصدق.

وأما الميم: فدليل على ملكه، وأنّه الملك الحقّ المبين، لم يزل، ولا يزال، ولا يزول ملكه.

وأمّا الدال: فدليل على دوام ملكه، وأنّه دائم، تعالى عن الكون والزوال، بل هو الله، عزّ وجلّ، مكوّن الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن. ثمّ قال عليه السلام: لو وجدت لعلمي الذي أتاني الله حملةً، لنشرت التوحيد والإسلام، والدين والشرائع، من الصمد، وكيف لي بذلك، ولم يجد جدّي أمير المؤمنين عليه السلام حملة لعلمه، حتى كان يتنّفس [على] الصعداء، [أ]و يقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّ بين الجوانح منّي علماً جماً. هاه! هاه! ألا لا أجد من يحمله، ألا وإنّ عليكم من الله الحجّة البالغة، فلا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفّار من أصحاب القبور.

وعن عبد خير قال: سأل رجل عليّاً عليه السلام عن تفسير هذه السورة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ بلا تأويل عدد، ﴿الصَّمَدُ﴾ بلا تبعيض بدد، ﴿لم يلد﴾ فيكون

موروثاً هالكاً، و﴿لَمْ يُولَد﴾ فيكون إلهاً مشاركاً، ولم يكن له من خلقه كفواً أحد. وقال ابن عباس: لم يلد فيكون والداً، ولم يولد فيكون ولداً. وقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ولداً فيرث عنه ملكه، ولم يولد فيكون قد ورث الملك عن غيره. وقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيدلّ على حاجته، فإنّ الإنسان يشتهي الولد لحاجته إليه، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيدلّ على حدوثه، وذلك من صفة الأجسام. وفي هذا ردّ على القائلين إنّ عزيراً والمسيح ابن الله، وإنّ الملائكة بنات الله.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ أي: لم يكن له أحد كفواً أي: عديلاً ونظيراً يماثله. وفي هذا ردّ على من أثبت له مثلاً في القدم، وغيره من الصفات. وقيل: معناه: ولم تكن له صاحبة وزوجة فتلد منه؛ لأنّ الولد يكون من الزوجة، فكنّى عنها بالكفوء؛ لأنّ الزوجة تكون كفواً لزوجها. وقيل: إنّه سبحانه بيّن التوحيد بقوله: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾، وبيّن العدل بقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، وبيّن ما يستحيل عليه من الوالد والولد بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وبيّن ما لا يجوز عليه من الصفات بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ وفيه دلالة على أنّه ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا هو في مكان، ولا جهة.

وقال بعض أرباب اللسان: وجدنا أنواع الشرك ثمانية: النقص، والتقلّب، والكثرة، والعدد، وكونه علّة أو معلولاً، والأشكال، والأضداد. فنفى الله سبحانه عن صفته نوع الكثرة والعدد بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ونفى التقلّب والنقص بقوله: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، ونفى العلّة والمعلول بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ونفي الأشكال والأضداد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾، فحصلت الوحدانيّة البحت. وروى عمران بن الحصين أنّ النبيّ ﷺ بعث سرية، واستعمل عليها عليّاً عليه السلام، فلمّا رجعوا سألهم عن عليّ عليه السلام، فقالوا: كل خير، غير أنّه كان يقرأ [بنا] في [أثناء] كل صلاة بـ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فقال: لِمَ فعلتَ يا عليّ هذا؟ فقال: لحبّي ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾،

فقال النبيّ ﷺ: ما أحببتها حتى أحبَّك الله عزّ وجلّ[١].

ويروى أنّ النبيّ ﷺ كان يقف عند آخر كل آية من هذه السورة. وروى الفضيل بن يسار قال: أمرني أبو جعفر أن أقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، وأقول إذا فرغت منها: «كذلك الله ربّي» ثلاثاً.

---

[١] وروى أخطب خطباء خوارزم بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ياعلي! ما مثلك في الناس إلّا كمثل ﴿قل هو الله أحد﴾ في القرآن، من قرأها مرّة فكأنّما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين فكأنّما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرّات فكأنّما قرأ القرآن كله. وكذلك أنت ياعلي، من أحبّك بقلبه فقد أحبّ ثلث الإيمان، ومن أحبّ بقلبه ولسانه فقد أحبّ ثلثي الإيمان، ومن أحبّك بقلبه ولسانه ويده فقد أحبّ الإيمان كلّه، والذي بعثني بالحقّ نبيّاً لو أحبّك أهل الأرض كما يحبّك أهل السماء لما عذّب الله أحداً منهم بالنار.

سورة الفلق

مدنيّة في أكثر الأقاويل. وقيل: مكّيّة.

عدد آيها: خمس آيات بالإجماع.

فضلها: في حديث أُبيّ: ومن قرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فكأنّما قرأ جميع الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء.

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزلت عليّ آيات لم ينزل مثلهنّ المعوّذتان» أورده مسلم في الصحيح.

وعنه عن النبيّ ﷺ قال: «يا عقبة! ألا أُعلّمك سورتين هما أفضل القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلي يا رسول الله، فعلّمني المعوّذتين، ثمّ قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: اقرأهما كلّما قمت ونمت».

أبو عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام قال: من أوتر بالمعوّذتين، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ قيل له: يا عبدالله! أبشر فقد قبل الله وترك.

تفسيرها: ذمَّ سبحانه أعداء الرسول ﷺ في سورة ﴿تَبَّتْ﴾ ثمّ ذكر التوحيد في سورة الإخلاص، ثمّ ذكر سبحانه الإستعاذة في السورتين، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

(اللغة): أصل الفلق: الفرق الواسع من قولهم: فلق رأسه بالسيف يفلقه فلقاً. ويقال: أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح؛ لأنّ عموده ينفلق بالضياء عن الظلام. والغاسق في اللغة: الهاجم بضرره، وهو هيهنا الليل؛ لأنّه يخرج السباع من آجامها، والهوام من مكامنها فيه. يقال: غسقت القرحة: إذا جرى صديدها. ومنه: الغساق: صديد أهل النار لسيلانه بالعذاب. وغسقت عينه: سال دمعها. الوقوب: الدخول وقب يقب. ومنه: الوقبة: النقرة؛ لأنّه يدخل فيها. النفث: شبيهة بالنفخ. وأمّا التفل فنفخ بريق. فهذا الفرق بين النفث والتفل. قال الفرزدق:

هُما نَفَثا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِما ... عَلَى النّافِثِ الْغاوِي أَشَدُّ رِجامٍ[1]

والحاسد: الذي يتمنّى زوال النعمة عن صاحبها، وإن لم يردها لنفسه. فالحسد مذموم. والغبطة محمودة، وهي أن يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبه، ولم يرد زوالها عنه.

---

[١] أشدّ رجام: أشدّ نفث.

النزول: قالوا: إنّ لبيد بن أعصم اليهودي سحر رسول [الرسول] الله ﷺ، ثمّ دسَّ ذلك في بئر لبني زريق. فمرض رسول الله ﷺ. فبينا هو نائم إذ أتاه ملكان، فقعد أحدهما عنه [عند] رأسه، والآخر عند رجليه، فأخبراه بذلك، وأنّه في بئر ذروان في جف طلعة، تحت راعوفة [حجر في أسفل]. والجفّ: قشر الطلع. والراعوفة: حجر في أسفل البئر، يقوم عليها الماتح[1] [المائح]. فانتبه رسول الله ﷺ، وبعث عليّاً عليه السلام والزبير وعمّاراً. فنزحوا ماء تلك البئر، ثمّ رفعوا الصخرة، وأخرجوا الجفّ، فإذا فيه مشاطة رأس، وأسنان من مشطه، وإذا فيه معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالأبر، فنزلت هاتان السورتان. فجعل كلما يقرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خفة، فقام فكأنّما أنشط من عقال، وجعل جبرائيل عليه السلام يقول: باسم الله أرقيك من شرّ كل شيء يؤذيك، من حاسد وعين والله تعالى يشفيك. ورووا ذلك عن عائشة، وابن عباس.

وهذا لا يجوز؛ لأنّ من وصف بأنه مسحور [مسخور] فكأنّه قد خبل عقله، وقد أبي الله سبحانه تلك [ذلك] في قوله: ﴿[أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا] وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ ولكن يمكن أن يكون اليهوديّ أو بناته على ما روي اجتهدوا في ذلك، فلم يقدروا عليه، وأطلع الله نبيه ﷺ على ما فعلوه من التمويه حتى استخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه. وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم، ولو قدروا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدّة عداوتهم له [لهم].

المعنى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ هذا أمر من الله سبحانه لنبيّه ﷺ، والمراد جميع أُمّته، ومعناه: قل يا محمّد اعتصم وامتنع بربّ الصبح وخالقه،

---

[1] الماتح: المستقي.

ومدبّره ومطلعه متى شاء على ما يرى من الصلاح فيه.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من الجنّ والإنس، وسائر الحيوانات. وإنّما سمّي الصبح فلقاً؛ لا نفلاق عموده بالضياء عن الظلام، كما قيل له فجر؛ لانفجاره بذهاب ظلامه. وهذا قول ابن عباس وجابر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. وقيل: الفلق: المواليد؛ لأنّهم ينفلقون بالخروج من أصلاب الآباء، وأرحام الأُمّهات، كما ينفلق الحبّ من النبات. وقيل: الفلق: جبّ في جهنّم، يتعوّذ أهل جهنّم من شدّة حرّه، ـ عن السدي ـ. ورواه أبو حمزة الثمالي، وعلي بن إبراهيم في تفسيريهما[1]. وقوله: ﴿مَا خَلَقَ﴾ عامّ في جميع ما خلقه الله تعالى، ممّن يجوز أنْ

---

(١) قال في لؤلؤة البحرين في ترجمة المصنّف، ووصف الكتاب هو تفسير حسن جامع لجميع الفنون، من اللغة والنحو والصرف والمعنى والنزول، إلّا أنّه أكثر النقل فيه عن مفسّري العامّة، ولم ينقل من تفسير أهل البيت عليهم السلام إلّا القليل من تفسير العياشي، وعليّ بن إبراهيم القمي هذا كلامه، ويدلّ على عدم تتبّعه الكتاب، فإنّ المصنّف رحمه الله نقل من تفسير أهل البيت كثيرا كما ترى، أنّه نقل عن تفسير أبي حمزة الثمالي، وكان عنده وليس عندنا، وروي عنهم عليهم السلام أمورا لا نعلم مآخذها، لكثرة كتب الحديث في ذلك العهد، ومثله اعترض في الصافي على جميع المتأخّرين، وطعن عليهم بالتكلّم في القرآت والأدب ممّا يدور على القشر دون اللبان [اللباب] وما عابه، فإنّه من محاسن هذا الكتاب، إذ العلم بالقرآت، ووجوه صحّتها، وتمييز المتواتر منها من الشواذ شأن المفسّر، وما خلا منها ناقص كتفسير الصافي.

ثمّ إنّ المفسّرين الذين نقل عنهم الخاصّة والعامّة، كانوا غالبا من الشيعة، وتوهّم المحدثان المذكوران كونهم من العامّة، لعدم الاطلاع على حالهم إما ابن عباس رأس المفسّرين، فهو أجل من أن يتوهّم فيه شيء من القدح، وذكره العلامة رحمه الله في الخلاصة في الممدوحين، ومنهم سعيد بن جبير من حواري زين العابدين عليه السلام، ومضى قريبا حاله، وسعيد بن المسيّب مثله، ومنهم ابن زيد عبد الرحمٰن، وأبو زيد بن اسلم، وهما في اسناد روايات الكافي والتهذيب، وليت شعري كيف كانا في هذين الكتابين معصومين، يفيد روايتها العلم، وفي التفسير هما ضالّان مضلان، لا يجوز نقل قولهما أصلا. وكذلك محمّد بن السائب، وابنه هشام بن محمّد الكلبي، ومنهم مقاتل بن سليمان، وروي عنه الحسن بن محبوب من أصحاب الإجماع على تصحيح ما يصحّ عنهم في الكافي والفقيه، وروايته تفيد العلم في كتب ←

يحصل منه الشرّ، وتقديره: من شرّ الأشياء التي خلقها الله تعالى، مثل السباع والهوام والشياطين وغيرها.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: ومن شرّ الليل إذا دخل بظلامه، ـ عن ابن عباس والحسن ومجاهد ـ. فعلى هذا فيكون المراد: من شرّ ما يحدث في الليل من الشرّ والمكروه، كما يقال: أعوذ من شرّ هذه البلدة. وإنّما اختصّ الليل بالذكر؛ لأنّ الغالب أنّ الفسّاق يقدمون على الفساد بالليل، وكذلك الهوامّ والسباع تؤذي فيه أكثر. وأصل الغسق: الجريان بالضرر. وقيل: إنّ معنى الغاسق، كل هاجم بضرره، كائناً ما كان.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ معناه: ومن شرّ النساء الساحرات اللاتي ينفثن في العقد، ـ عن الحسن وقتادة ـ. وإنّما أُمر بالتعوّذ من شرّ السحرة لإيهامهم أنّهم يمرضون، ويصحّون، ويفعلون شيئاً من النفع والضرر، والخير والشرّ. وعامّة الناس يصدّقونهم، فيعظم بذلك الضرر في الدين، ولأنّهم يوهمون أنّهم يخدمون الجن، ويعلمون الغيب، وذلك فساد في الدين ظاهر. فلأجل هذا الضرر أُمر بالتعوّذ من شرّهم. وقال أبو مسلم: النفاثات النساء اللاتي يملن آراء الرجال، ويصرفنهم عن مرادهم، ويرددهم إلى آرائهنّ؛ لأنّ العزم والرأي يعبّر عنهما بالعقد. فعبّر عن حلّها بالنفث، فإنّ العادة جرت أنّ من حلّ انفث فيه.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فإنّه يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود، فأُمر بالتعوّذ من شرّه. وقيل: إنّه أراد من شرّ نفس الحاسد، ومن شرّ عينه، فإنّه ربما أصاب بهما فعاب وضرّ. وقد جاء في الحديث أنّ العين حقّ. وقد مضى الكلام فيه.

وروي أنّ العضباء ناقة النبيّ ﷺ لم تكن تسبق، فجاء أعرابي على

← الحديث دون التفسير، وتفسير السدّي رواه الحكم بن ظهير الفزاري، وهو شيعي قطعا، فان لم يكن السدّي منها فهو منها، وكذلك كثير منهم نشر [نشير] إليهم إن شاء الله.

قعود[١] له، فسابق بها، فسبقها، فشقّ ذلك على الصحابة، فقال النبيّ ﷺ: حقّ على الله، عزّ وجلّ، ألاّ يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه.

وروى أنس أنّ النبيّ ﷺ قال: «من رأى شيئاً يعجبه فقال الله الله، ما شاء الله، لا قوّة إلاّ بالله، لم يضرّ شيئاً». وروي أنّ النبيّ ﷺ كان كثيراً ما يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام بهاتين السورتين. وقال بعضهم: إنّ الله سبحانه جمع الشرور في هذه السورة، وختمها بالحسد؛ ليعلم أنّه أخسّ الطبائع، نعوذ بالله منه.

---

(١) هو البكر بن [حين] يركب.

سورة الناس

مدنيّة، وهي مثل سورة الفلق؛ لأنّها إحدى المعوّذتين، وهي ستّ آيات.

فضلها: الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقعد جبرائيل عليه السلام عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، فعوّذه جبرائيل بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وعوّذه ميكائيل بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

أبو خديجة، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء جبرائيل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو شاك، فرقاه بالمعوّذتين، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وقال: باسم الله أرقيك، والله يشفيك، من كل داء يؤذيك، خذها فلتهنيك. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو والدوري، عن الكسائي يميل ﴿النَّاسِ﴾ في موضع الجرّ، ولا يميل في الرفع والنصب. والباقون: لا يميلون.

اللغة: الوسواس: حديث النفس بما هو كالصوت الخفي، وأصله الصوت الخفي، من قول الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْواساً إِذَا انْصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلٌ[1]

قال رؤبة:

وَسْوَسَ يُدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقِ سِرّاً، وَقَدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ الْعُقُقِ[2]

والوسوسة كالهمهمة. ومنه: قولهم: فلان موسوس: إذا غلب عليه ما يعتريه من المرة. يقال: وسوس وسواساً ووسوسة وتوسوس. والخنوس: الإختفاء بعد

---

(١) عبّر عن صوت الخلخال بالوسواس. والعشرق: بنت والرخل: الصوت، شبّه صوت صليها بصوت يابس العشرق بالريح.

(٢) اوان [اون] الحمار: إذا أكل وشرب، وامتلأ بطنه. والعقق: الحوامل.

الظهور، خنس يخنس. ومنه: الخنس في الأنف؛ لخفائه بانخفاضه عندما يظهر بنُتوّهِ. وأصل الناس: الأناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء، ويدلّك على ذلك الأنس والأناس. وأمّا قولهم في تحقيره: نويس، فإنّ الألف لمّا كانت ثانية زائدة أشبهت ألف فاعل، فقلبت واواً.

﴿الإعراب﴾: قيل: إنّ قوله: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ﴾ بدل من قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ فكأنّه قال: أعوذ بالله من شرّ الجنّة والناس. وقيل: إنّ ﴿مِنْ﴾ تبيين للوسواس. والتقدير: من شرّ ذي الوسواس الخنّاس، من الجنّة والناس أي: صاحب الوسواس الذي من الجنّة والناس، فيكون ﴿النَّاسِ﴾ معطوفاً على ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ الذي هو في معنى ذي الوسواس. وإنْ شئت لم تحذف المضاف، فيكون التقدير: من شرّ الوسواس، الواقع من الجنّة التي توسوسه في صدور الناس. فيكون فاعل «يوسوس» ضمير الجنّة. وإنّما ذكر؛ لأنّ الجنّة والجنّ واحد. وجازت الكناية عنه، وإن كان متأخّراً؛ لأنّه في نيّة التقديم. فجرى مجرى قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ وحذف العائد من الصلة إلى الموصوف، كما في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ أي: بعثه الله رسولاً.

﴿المعنى﴾: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أي: خالقهم ومدبّرهم ومنشئهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ أي: سيدهم، والقادر عليهم. ولم يجز هنا إلّا ملك، وجاز في فاتحة الكتاب ملك ومالك. وذلك لأنّ صفة ملك، تدلّ على تدبير من يشعر بالتدبير، وليس كذلك «مالك»، وذلك لأنّه يجوز أن يقال: مالك الثوب، ولا يجوز: ملك الثوب. فجرت اللفظة في فاتحة الكتاب على معنى الملك في يوم الجزاء، وجرت في هذه السورة على ملك [مدبِّرٍ] تدبير من يعقل التدبير، فكان لفظ «ملك» أولى هنا وأحسن. ومعناه: ملك الناس كلّهم، وإليه مفزعهم في الحوائج.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ معناه: الذي يجب على الناس أن يعبدوه؛ لأنّه الذي تحقُّ له

العبادة دون غيره. وإنّما خصّ سبحانه الناس، وإن كان سبحانه ربّاً لجميع الخلائق؛ لأنّ في الناس عظماء، فأخبر بأنّه ربّهم، وإن عظموا؛ ولأنّه سبحانه أمر بالإستعاذة من شرّهم، فأخبر بذكرهم أنّه الذي يعيذه منهم. وفي الناس ملوك فذكر أنّه ملكهم. وفي الناس من يعبد غيره، فذكر أنّه إلٰههم ومعبودهم، وأنّه هو المستحقّ للعبادة دون غيره.

قال جامع العلوم النحويّ: وليس قوله «الناس» تكراراً؛ لأنّ المراد بالأوّل: الأجنّة، ولهذا قال: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ لأنّه يربيهم. والمراد بالثاني: الأطفال، ولذلك قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾؛ لأنّه يملكهم. والمراد بالثالث: البالغون المكلّفون، ولذلك قال: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ لأنّهم يعبدونه. والمراد بالرابع: العلماء؛ لأنّ الشيطان يوسوس إليهم، ولا يريد الجهّال؛ لأنّ الجاهل يضلّ بجهله، وإنّما تقع الوسوسة في قلب العالم، كما قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾.

وقوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: من شرّ الوسوسة الواقعة من الجنّة، وقد مرَّ بيانه.

وثانيها: إنّ معناه: من شرّ ذي الوسواس، وهو الشيطان كما جاء في الأثر: «إنّه يوسوس، فإذا ذكر العبد ربّه خنس». ثمّ وصفه الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ أي: بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى قلوبهم من غير سماع. ثمّ ذكر أنّ هذا الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ﴿مِنْ الْجِنَّةِ﴾، وهم الشياطين، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾. ثمّ عطف بقوله ﴿وَالنَّاسِ﴾ على الوسواس، والمعنى: من شرّ الوسواس، ومن شرّ الناس، كأنّه أمر أنْ يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس.

وثالثها: إنّ معناه: من شرّ ذي الوسواس الخنّاس.

ثمّ فسَّره بقوله: ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ كما يقال: نعوذ بالله من شرّ كل مارد من الجنّ والإنس. وعلى هذا فيكون وسواس الجنّة، هو وسواس الشيطان، على ما مضى.

وفي وسواس الإنس وجهان: **أحدهما**: إنّه وسوسة الإنسان من نفسه. **والثاني**: إغواء من يغويه من الناس. ويدلّ عليه قوله: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ فشيطان الجنّ يوسوس، وشيطان الإنس يأتي علانية، ويري أنّه ينصح وقصده الشرّ.

قال مجاهد: الخنّاس: الشيطان إذا ذكر اسم الله سبحانه خنس وانقبض، وإذا لم يذكر الله انبسط على القلب. ويؤيّده ما روي عن انس بن مالك أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله سبحانه خنس، وإذا نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخنّاس». وقيل: الخنّاس معناه: الكثير الإختفاء بعد الظهور، وهو المستتر المختفي من أعين الناس؛ لأنّه يوسوس من حيث لا يرى بالعين.

وقال إبراهيم التيمي: أوّل ما يبدو الوسواس من قبل الوضوء. وقيل: إنّ معنى قوله [: الذي] يوسوس في صدور الناس، يلقي الشغل في قلوبهم بوسواسه، والمراد أنّ له رفقاء به يوصل الوسواس إلى الصدر، وهو أقرب من خلوصه بنفسه إلى صدره.

وفي هذا إشارة إلى أنّ الضرر يلحق من جهة هؤلاء، وأنّهم قادرون على ذلك، ولولاه لما حسن الأمر بالإستعاذة منهم. وفيه دلالة على أنّه لا ضرر ممّن يتعوّذ به، وإنّما الضرر كله ممّن يتعوّذ منه. ولو كان سبحانه خالقاً للقبائح، لكان الضرر كله منه، جلّ وعزّ.

وفيه إشارة أيضاً إلى أنّه سبحانه يراعي حال من يتعوّذ به، فيكفيه شرورهم، ولولا ذلك لما دعاه إلى التعوّذ به من شرورهم. ولما وصف سبحانه نفسه بأنّه الربّ [الملك] الإلٰه الغني عن الخلق، فإنّ من احتاج إلى غيره، لا يكون إلٰهاً. ومن كان غنيّاً عالماً لغناه [بغناه]، لا يختار فعل القبيح، ولهذا حسنت الإستعاذة به من شرّ غيره.

وروى عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا قرأت: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقل في نفسك: أعوذ بربّ الفلق. وإذا قرأت: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقل في نفسك: أعوذ بربّ الناس.

وروى العياشي بإسناده عن أبان بن تغلب، عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مؤمن إلّا ولقلبه في صدره أُذنان: أُذن ينفث فيها الملك، وأُذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس، فيؤيّد الله المؤمن بالملك، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[1].

---

(١) يقول معلّق هذه الحواشيّ، العبد أبو الحسن، المدعو بالشعراني، أثبت في ذيل الكتاب سوى القراءات من معاني [الاخبار] الأبيات ماوسعه المقام، ولهذا الكتاب شرح شواهد سمعت به، ولم أقف على نسخة منه، فكلما كتبت فهو ممّا فتشت عنه كتب الأدب واللغة من غير استقصاء، وربما وجدت كلمات يخالف ما هو في الكتاب، فأثبت كما هو في الكتاب، فإن وقع الخطأ في شيء، فإنّ الإنسان غير مأمون من السهو، وذكرت أيضاً فوائد كثيرة متفرّقة مستطرفة، وتراجم لكثير من الأعلام، وحكايات، وقصصاً، وأجوبة أسؤلة وردت عليّ أثناء الطبع، ولم أثبت من تعليقاتي شيئا ممّا يتعلّق بالأصول والفروع، إلّا إذا استطرفت شيئا منها، أو كان جمعا بين مفاد كلام الله تعالى، وما يعتقده أصحاب العلوم في عصرنا، لئلّا يتوهّم أنّ العلم يخالف الدين، واعتمدت في التصحيح على نسخ مخطوطة مصحّحة، وكانت متعددة بحمد الله.

حكاية خطّ المصنّف رحمه الله

وهي: الحمدلله أوّلاً وآخراً، وباطناً وظاهراً على تسهيله، وتقدر الفراغ منه لمصنّفه يوم الخميس، منتصف ذي القعدة، من سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة.

أللهمّ لك الحمد على توفيقك وتأييدك، وإرشادك وتسديدك، حمداً أستوجب به المزيد من نعمك، وأستحقّ به لطائف كرمك. أللهمّ اجعل جدّي واجتهادي في جميع ما شذّ من تفسير كتابك العزيز، وكدي وانكماشي في ضمّ ما انتشر من معانيه باللفظ الوجيز، ذريعة إلى إدراك رضوانك، وصلة إلى الإتّصال بأوليائك وأصفيائك في جنانك، وقابل تقربي بذلك إليك، وتوسّلي إلى الأطهار الأخيار محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعترته الأبرار، بالقبول التامّ، واعممني وولدي، وأهل حزانتي بالإنعام العامّ، وأتمم يا ربّ هذه النعمة الجسيمة التي أنعمت عليَّ بها، وجعلتني أهلاً لها، بالمدّ في العمر، والإمداد بالتوفيق واليسر؛ لإفادة من يطلبه من أهل الدين والخير، والبثّ لما يتضمّنه من العلوم والنشر؛ إحرازاً لجميل الذكر، وجزيل الذخر والأجر، واعتصاماً بعروتك الوثقى، واغتناماً لشفاعة نبيّك، صلواتك عليه وآله، يوم الزلفى، إنّك وليّ الإنعام، ذو الجلال والإكرام، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على محمّد وآله أجمعين، الطيّبين الطاهرين.

تمَّ الجزء العاشر من كتاب

«مجمع البيان في علوم القرآن»

فهرس الكتاب

(٦٢) سورة الجمعة ـ مدنية ـ وآياتها إحدى عشرة ٧

(٦٣) سورة المنافقون ـ مدنية ـ وآياتها إحدى عشرة ٢٣

(٦٤) سورة التغابن ـ مدنية ـ وآياتها ثماني عشرة ٣٧

(٦٥) سورة الطلاق ـ مدنية ـ وآياتها اثنتا عشرة ٤٩

(٦٦) سورة التحريم ـ مدنية ـ وآياتها اثنتا عشرة ٧٣

(٦٧) سورة الملك ـ مكية ـ وآياتها ثلاثون ٩٣

(٦٨) سورة القلم ـ مكية ـ وآياتها ثنتان وخمسون ١١٥

(٦٩) سورة الحاقة ـ مكية ـ وآياتها ثنتان وخمسون ١٤١

(٧٠) سورة المعارج ـ مكية ـ وآياتها أربع وأربعون ١٦١

(٧١) سورة نوح ـ مكية ـ وآياتها ثمان وعشرون ١٨١

(٧٢) سورة الجن ـ مكية ـ وآياتها ثمان وعشرون ١٩٥

(٧٣) سورة المزمل ـ مكية ـ وآياتها عشرون ٢١٩

(٧٤) سورة المدثر ـ مكية ـ وآياتها ست وخمسون ٢٣٩

(٧٥) سورة القيامة ـ مكية ـ وآياتها أربعون ٢٦٥

(٧٦) سورة الإنسان ـ مدنية ـ وآياتها إحدى وثلاثون ٢٨٧
(٧٧) سورة المرسلات ـ مكية ـ وآياتها خمسون ٣١٥
(٧٨) سورة النبإ ـ مكية ـ وآياتها أربعون ٣٣١
(٧٩) سورة النازعات ـ مكية ـ وآياتها ست وأربعون ٣٤٩
(٨٠) سورة عبس ـ مكية ـ وآياتها ثنتان وأربعون ٣٦٧
(٨١) سورة التكوير ـ مكية ـ وآياتها تسع وعشرون ٣٨١
(٨٢) سورة الإنفطار ـ مكية ـ وآياتها تسع عشرة ٣٩٥
(٨٣) سورة المطففين ـ مكية ـ وآياتها ست وثلاثون ٤٠٣
(٨٤) سورة الانشقاق ـ مكية ـ وآياتها خمس وعشرون ٤١٩
(٨٥) سورة البروج ـ مكية ـ وآياتها ثنتان وعشرون ٤٣١
(٨٦) سورة الطارق ـ مكية ـ وآياتها سبع عشرة ٤٤٧
(٨٧) سورة الأعلى ـ مكية ـ وآياتها تسع عشرة ٤٥٥
(٨٨) سورة الغاشية ـ مكية ـ وآياتها ست وعشرون ٤٦٥
(٨٩) سورة الفجر ـ مكية ـ وآياتها ثلاثون ٤٧٥
(٩٠) سورة البلد ـ مكية ـ وآياتها عشرون ٤٩٧
(٩١) سورة الشمس ـ مكية ـ وآياتها خمس عشرة ٥١١
(٩٢) سورة الليل ـ مكية ـ وآياتها إحدى وعشرون ٥١٩
(٩٣) سورة الضحى ـ مكية ـ وآياتها إحدى عشرة ٥٢٧
(٩٤) سورة الشرح ـ مكية ـ وآياتها ثمان ٥٣٧
(٩٥) سورة التين ـ مكية ـ وآياتها ثمان ٥٤٥
(٩٦) سورة العلق ـ مكية ـ وآياتها تسع عشرة ٥٥١
(٩٧) سورة القدر ـ مكية ـ وآياتها خمس ٥٦١

(٩٨) سورة البينة ـ مدنية ـ وآياتها ثمان ٥٧٣
(٩٩) سورة الزلزلة ـ مدنية ـ وآياتها ثمان ٥٨١
(١٠٠) سورة العاديات ـ مكية ـ وآياتها إحدى عشرة ٥٨٩
(١٠١) سورة القارعة ـ مكية ـ وآياتها إحدى عشرة ٥٩٧
(١٠٢) سورة التكاثر ـ مكية ـ وآياتها ثمان ٦٠٣
(١٠٣) سورة العصر ـ مكية ـ وآياتها ثلاث ٦٠٩
(١٠٤) سورة الهمزة ـ مكية ـ وآياتها تسع ٦١٣
(١٠٥) سورة الفيل ـ مكية ـ وآياتها خمس ٦١٩
(١٠٦) سورة قريش ـ مكية ـ وآياتها أربع ٦٣١
(١٠٧) سورة الماعون ـ مكية ـ وآياتها سبع ٦٣٧
(١٠٨) سورة الكوثر ـ مكية ـ وآياتها ثلاث ٦٤٣
(١٠٩) سورة الكافرون ـ مكية ـ وآياتها ست ٦٤٩
(١١٠) سورة النصر ـ مدنية ـ وآياتها ثلاث ٦٥٥
(١١١) سورة المسد ـ مكية ـ وآياتها خمس ٦٦٧
(١١٢) سورة الإخلاص ـ مكية ـ وآياتها أربع ٦٧٣
(١١٣) سورة الفلق ـ مكية ـ وآياتها خمس ٦٨٩
(١١٤) سورة الناس ـ مكية ـ وآياتها ست ٦٩٥
حكاية خط المصنّف ﷺ ٧٠١
فهرس الكتاب ٧٠٢